

تصویر ابو عبد الرحمن الکردي

المنهج التربوي للسيرة النبوية

٢

# التربية البهائية

د. بنبر الغضبان

الجزء الثاني

كتاب الوفاء

**المنهج التربوي للسيرة النبوية  
التربية الجهادية**

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة السادسة

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م



مكتبة العزاز - الزرقاء - الأردن - ص.ب ٨٤٦٥٩ - ت: ٩٦٧٦٥٩٠٣٣

مطر الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.ع.

الإذاعة والطابع : المنصورة في الإمام محمد بن عبد الوهاب كلية الآداب

ت: ٢٥٦٦٢٠ - ٢٤٣٧٢١

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٢٤٧٤٢٣ ص.ب: ٢٢٠ ملكن DWFA UN 24004



# **المنهج التربوي للسيرة النبوية**

## **التربية الجهادية**

**الجزء الثاني**

**منير محمد الغضبان**

**دار الوفاء**

**مكتبة النار**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحُكْمُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
إِنَّا نَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ

## متابعة البناء بعد أحد

انتهت معركة أحد ، وانتهى التعقيب عليها في آيات آل عمران ، ولكن أيامًا لا تنتهي قضية التربية ، خاصة وقد أصبح المنافقون يملؤون كل فج ، وآثار المعركة لم تنته بل بقى جو محنة أحد قرابة ثلاثة أعوام ، والقرآن الكريم يتنزل ليعالج الموقف ، وللحظ هذه المعالجة في سورة النساء ، وهي تتفرغ للحديث عن الصف الإسلامي والبناء الداخلي فيه . تتناول موضوع الجهاد والحدث عليه ، كما تتحدث عن المنافقين ومواهمهم ومواقفهم ، وتقضى في تنظيم المجتمع المسلم في المدينة ، بكل أوضاعه الفكرية والاجتماعية والسياسية والعبادية والعسكرية وغير ذلك سواءً سواءً ، وبقصد هذه الآيات يقول سيد رحمة الله :

( نرجح أن تكون مجموعة هذه الآيات الواردة في هذا الدرس نزلت في وقت مبكر ، ربما كان ذلك بعد غزوة أحد ، وقبل الخندق ، فصورة الصف المسلم التي تبدو من خلال هذه الآيات توحى بهذا ؛ توحى بوجود جماعات منوعة داخل الصف لم تتصفح بعد أو لم تؤمن ، إنما هي تناقض ! وتوحى بأن الصف كان في حاجة إلى جهود ضخمة من التربية والتوجيه ، ومن الاستئناف والتتشجيع ؛ لينهض بالمهمة الضخمة الملقاة على عاتق الجماعة المسلمة ، والارتفاع إلى مستوى هذه المهمة ، سواءً في التصورات الاعتقادية أو في خوض المعركة مع المعاشرات المعادية )<sup>(١)</sup> .

ولابد أن نعيش جو المدينة بعد أحد ، فقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على رفع معنويات المؤمنين بعد بلاء أحد والتمحيص الذي تم فيها ، وحربيضاً على دفن قالةسوء ، ومواجهة مخططات المنافقين الرهيبة في الصف الإسلامي ، وكانت آيات القرآن ترى لتعيد الصياغة الجديدة للمجتمع بعد هذا التمحيق .

وسرّيّط بصورة وثيقة بين الآيات القرآنية وأحداث السيرة ، ما وسعنا سبيلاً إلى ذلك ، ونستشف جو أحداث السيرة من خلال النص القرآني نفسه .

(١) في ظلال القرآن / م ٢ / ج ٢ / ٧١١ .

قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا . وإن منكم من ليطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا . ولكن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يالتي كنت معهم فأفوز فوزا عظيما . فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما . ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولينا واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾<sup>(١)</sup> .

يقول ابن كثير رحمة الله : ( يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الخنزير من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد ، وتكثير العدد بالتفير في سبيل الله ، ثبات ) أي جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية ، والثبات جمع ثبة ، وقد تجمع الثبة على ثيبن . قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿ فانفروا ثبات ﴾ أي عصبا يعني سرايا متفرقين ﴿ أو انفروا جميعا ﴾ يعني كلكم . وكذا روى عن مجاهد وعكرمة والسدى وفتادة والضحاك وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وخصيف الجزرى )<sup>(٢)</sup> .

ولاغرابة في الدعوة إلى الخدر وبين يدينا - بعد أحد - حدثان ضخمان مفجعان ، هي سرية بئر معونة ، وسرية الرجيع ، حيث كانوا في شهر واحد بعد أحد بأربعة أشهر ، فقد انتهت أحد في شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وكان الحدثان المذكوران في صفر من السنة الرابعة للهجرة ، وهذا هو الجو الذي تنزلت به الآيات .

لكتنا قبل الحديث عن هذين الحدثين لا بد من الإشارة إلى سريتين سبقتا ، هما سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى قطن ، وسرية عبد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد بن نبيع الهذلي بعرنة ، فهما تمثلان الخدر النبوى العظيم فى تفتيت الجموع التى تفكك بغزو المدينة ، وكان هذا قبل شهر واحد من معونة والرجيع .

(١) النساء / ٧٦-٧١

(٢) ابن كثير / ٣٣٦ . الطبعة المفهرسة ، ج ١ دار الفكر ١٩٧٠ .

( فلما كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة ، دعاه <sup>(١)</sup> رسول الله عليه ص فقال : « اخرج في هذه السرية فقد استعملتك عليها » ، وعقد له لواء وقال : « سر حتى ترد أرض بني أسد ، فأغیر عليهم قبل أن تلقي عليك جموعهم » . وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً . فخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة ، منهم أبو سبرة بن أبي رهم وهو أخو أبي سلمة لأمه <sup>(٢)</sup> ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن مخرمة العامری ، ومن بني مخزوم : معتب بن الفضیل بن حمراء الخزاعی حلیف فیهم ، وأرقم بن أبي الأرقمن من أنفسهم . ومن بني فهر : أبو عبیدة بن الجراح ، وسهیل بن یضاء . ومن الأنصار : أسید بن الحضیر ، وعباد بن بشر ، وأبو نائلة ، وأبو عیسی ، وقتادة بن التعمان ، ونصر بن الحارث الظفری ، وأبو قتادة ، وأبو عیاش الزرفی ، وعبد الله بن زید ، وخیب بن بساف ، ومن لم یسم لـ .

والذی هاجه أن رجلاً من طبیء قدم المدينة یريد امرأة ذات رحم به من طبیء ، متزوجة رجلاً من أصحاب رسول الله عليه ص ، فنزل على صہره الذی من أصحاب رسول الله ، فأخبره أن طلیحة وسلمة ابینی خوبیلد تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما بدعوتهما إلى حرب رسول الله عليه ص یریدون أن یدنوا للمدينة ، وقلوا : نسیر إلى محمد في عقر داره ، ونصیب من أطرافه ، فإن لهم سرحاً یرعی جوانب المدينة ، ونخرج على متون الخیل ، فقد أربعنا خیلنا <sup>(٣)</sup> ، ونخرج على النجائب الخبورة ، فإن أصبنا نھبأ لم ندرک ، وإن لاقينا جمعهم کنا قد أخذنا للحرب عدتها ، معنا خیل ولا خیل معهم ، وعمنا نجائب أمثال الخیل ، والقوم منکبون قد أوقعت قریش بهم حدیشاً ، فهم لا یستبلون <sup>(٤)</sup> دھراً ، ولا یتوب لهم جمع <sup>(٥)</sup> ، فقام فیهم رجل منهم یقال له قیس بن الحارث بن عمیر . فقال :

ياقوم ، والله ما هذا برأی ! ، ما لنا قبلهم وتر <sup>(٦)</sup> ، وماهم نھبة لمنتهب ؟ إن دارنا البعيدة من يشرب ، وما لنا جمع کجمع قریش . مکثت قریش دھراً تسیر في العرب تستنصرها ولهم وتر یطلبونه ، ثم ساروا وقد امتطوا الإبل ، وقادوا الخیل ، وحملوا السلاح مع العدد الكبير - ثلاثةآلاف مقاتل سوی أتباعهم - وإنما جهدكم أن تخرجوا في ثلاثةآمائۃ رجل إن

(٢) أمم برة بنت عبد المطلب ، عمة النبي عليه ص .

(١) هو أبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه .

(٤) لا یستبلون : لا یعافون .

(٣) أربع خیله : رعماها في الربيع .

(٦) وتر : ثأر .

(٥) يتوب لهم جمع : یجتمع لهم جمع .

كملوا ، فتفردون بأنفسكم ، وتخرون من بلدكم . ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم .

فكاد ذلك أن يشكتهم في السير ، وهم على ماهم عليه بعد .

فخرج به الرجل الذي من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ فأخبره ما أخبر الرجل ، بعث رسول الله ﷺ ، أبو سلمة ، فخرج في أصحابه ، وخرج معه الطائي دليلاً ، فأغدووا السير <sup>(١)</sup> ، ونكّب بهم عن سنن الطريق ، وعارض الطريق ، وسار بهم ليلاً ونهاراً ، فسبقوا الأخبار ، وانتهوا إلى أدنى قطن - ماء من مياه بنى أسد - هو الذي كان عليه جمعهم - فيجدون سرحاً ، فأغاروا على سرحهم فضموه ، وأخذوا رعاة لهم مماليك ثلاثة وأفلت سائرهم ، فجاؤوا جمعهم فخبروهم الخبر ، وحدروهم جمع أبي سلمة ، وكثروا عندهم فتفرق الجميع في كل وجه ، وورد أبو سلمة الماء فيجد الجميع قد تفرق ، فعسكر - وفرق أصحابه في طلب النعم والشاء ، فجعلهم ثلاث فرق - فرقة أقامت معه ، وفرقتان أغارتان في ناحيتين شتى . وأوزع إليهما لا يعنوا في طلب ، وألا يبيتوا إلا عنده إن سلما ، وأمرهم لا يفترقا ، واستعمل على كل فرقة عاملًا منهم ، فآبوا إليه جميعاً سالمين . قد أصابوا إبلًا وشاء ، ولم يلقوا أحداً ، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة راجعاً ، ورجع معه الطائي ، فلما سارواليلة قال أبو سلمة : اقسموا غنائمكم . فأعطى أبو سلمة الطائي الدليل رضاه من المغن ، ثم أخرج صفيأ لرسول الله ﷺ عبداً ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما باقى بين أصحابه فعرفوا سهماً منهم ، ثم أقبلوا بالنعم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة <sup>(٢)</sup> .

وفي رواية أخرى أن الصدام وقع بين المسلمين والمشركين ( فحمل أبو سلمة فانكشف المشركون على حاميهم وبعهم المسلمون ، ثم تفرق المشركون في كل وجه ) <sup>(٣)</sup> .

ونلاحظ حول هذه السرية مايلي :

١ - أنها كانت على أعقاب أحد ، بعد ثلاثة أشهر منها أو أقل ، وفي بعض الروايات أنها كانت على رأس أربعة وثلاثين شهراً ، وذلك بعد أن انتشرت أخبار غزوة أحد في الأرض العربية ، وتناقلت الركبان محنة المسلمين فيها كما قال قائلهم :

(١) أغدووا السير : أسرعوا . (٢) المغازى للواقدي / ١ / ٣٤٤ ، ٣٤٣ .

(٣) المصدر نفسه / ١ / ٣٤٥ . وقد وردت في مصادر السيرة الأخرى .

(والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثا ، فهم لا يستبدلون دهراً ، ولا يثوب لهم جمع) .

ولاغرابة في ذلك ، فالعرب تربص الدائرة بمحمد وصحابه ؛ لأنّه وسط بحيرة من الشرك ، والذى أوقف التحرّكات نحو المدينة بعد بدر نصر بدر الساحق ، والإعلام الذى رافقه وكان مكافأة له ، أما بعد أحد فالصورة قد اختلفت .

٢ - وديار طبيء بجوار ديارأسد ، فأن يأتى الطائى بالخبر فلا غرابة في ذلك ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية وبين طبيء وأسد ثارات ، كما تشير بعض الروايات عما جرى بعد سرية أبي سلمة : (ثم أغار الطائيون بعد ذلك على بنىأسد فكان بينهم أيضاً جراح .

وكان بينهم ثارات في الجاهلية قبل هذه السرية ، فكان يوم ظهر الرهباء بينأسد وطبيء<sup>(١)</sup> .

وأن يكون الطائى هو الدليل نفسه له أهمية بالغة ، فعلل المسلمين من المهاجرين والأنصار لم يسلكوا هذه الديار من قبل ، والطائى أخبر بأرضه وأرض جيرانه من بنىأسد ، ومن أجل هذا نَكَبَ بهم عن الطريق ، وعارض الطريق من جهة أخرى ، فقد أخذت الاستعدادات كاملة .

٣ - وكان على رأس السرية أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، فهو يحمل صفتين مهمتين :

الأولى : أنه مخزومي ، ليُعید إلى العرب وقريش الكرة عليهم ، فخالد بن الوليد الذي قاد الهجوم على رسول الله ﷺ مخزومي ، وقد تطايرت سمعته بين العرب ، فلابد أن يكون على رأس المسلمين كفأله ومن عشيرته ، فكان أبو سلمة .

ومن جهة ثانية : فأبو سلمة ابن عمّة النبي ﷺ ، وأحد الأقرباء المقربين منه ، فهو يمثل رسول الله ﷺ ومن خواصه الأدرين منه .

فقد كانت السرايا التي قادها المهاجرون على هذا المستوى حتى أحد ، فكان على رأسها حمزة ، وعيادة بن الحارث ، وزيد بن حارثة ، من بين آل بيت النبي ﷺ .

(١) انظر : أيام العرب لجاد المولى وزملائه / ١٣٧ .

٤ - وبرزت عبقرية أبي سلمة رضي الله عنه في تحقيق النصر والتخطيط له ، وكان الهدف الدعائي لل المسلمين لا يقل عن الهدف الحربي .

فالفرق كبير جداً بين أن يتسامع العرب أن بني أسد على أبواب المدينة يغرونها ، ويستبيحون بيضتها ، وبين أن ترد الأخبار إليهم أن محمداً عليه وصحبه موغلون في ديار بني أسد يقتلونها ، ويفتنون جمعها وأيذنون نعمها .

ولأنزال بين يدي الآية العظيمة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اخْذُوا حِذْرَكُمْ فَإِنْفَرُوا أَثَابَاتَكُمْ أَوْ انْفَرُوا جَمِيعَهُ﴾ .

لتتابع صورة الحذر الثنائي ، في سيرة عبد الله بن أبيس لغزو سفيان بن خالد الهذلي ، ولعلها كانت في التوقيت نفسه الذي تحركت فيه سيرة أبي سلمة رضي الله عنه ، لكن الغريب في هذه السيرة أنها كانت من رجل واحد .

( خرج من المدينة يوم الإثنين لخمسة خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله عليه ، وذلك أنه بلغ رسول الله عليه أن سفيان بن خالد الهذلي ثم اللحياني - وكان ينزل عرنة وما والاها في ناس من قومه وغيرهم - قد جمع الجموع لرسول الله عليه ، فبعث رسول الله عبد الله بن أبيس ليقتله ، فقال : صفه لي يا رسول الله ! قال : «إذا رأيته هبته ، وفرقت<sup>(١)</sup> منه ، وذكرت الشيطان» ، قال : و كنت لا أهاب الرجال ، واستأذنت رسول الله عليه أن أقول فأذن لي . فأخذت سيفي ، وخرجت اعتزى<sup>(٢)</sup> إلى خزاعة ، حتى إذا كنت يبطن عرفة لقيته يمشي ووراءه الأحابيش ومن ضوى إليه ، فعرفته بنت رسول الله عليه ، وهبته ، فرأيتها أقطر<sup>(٣)</sup> قلت : صدق الله ورسوله . فقال : من الرجل ؟ قلت : رجل من خزاعة سمعت بجمعك محمد فجئت لأكون معك .. قال : أجل : إنني لأجمع له ، فمشيت معه وحدثه واستحلت حديثي حتى انتهى إلى خبائه ، وتفرق عنه أصحابه . حتى إذا هدأ الناس وناموا اغتررت به فقتلته وأخذت رأسه ، ثم دخلت غاراً في الجبل ، وضررت العنكبوت على ، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين ، ثم خرجت فكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة ، فوجدت رسول الله عليه في المسجد . فقال : «أفلح الوجه» : قلت : أفلح وجهك يا رسول الله ، فوضعت رأسه بين يديه وأخبرته خبرى ، فدفع إلى عصا وقال : «تختصر بهذه في الجنة» .

(٣) أقطر : أنها لقتال .

(٢) اعتزى : أنتسب .

(١) فرقت : خفت .

فكانت عنده ، فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوها في كفنه ففعلوا ،  
وكانت غيبته ثمانى عشرة ليلة وقدم يوم السبت لسبعين بقين من المحرم .

« واستطاع البطل ابن أنيس أن يفرض تجمع الأحابيش المستعد للانقضاض على المدينة  
بعد مقتل رأس الأفعى فيه سفيان بن خالد الهمذلي ثم اللحياني .

وتناقل الخبر إعلامياً يهز الكيان العربي كله ، ففي جوار مكة ، وعلى بعد أميال منها ،  
تصل يد محمد عليه الصلاة والسلام ، وتقتل العدو الذي يجمع الجموع لغزوه .

فأى حذر يفوق هذا الحذر ؟ وأى سرعة هائلة تلك التي تهوى التحرك قبل تجمع  
قواته ؟

ولكن حمل شهر محرم الحرام أنباء هذين النصرتين الكبيرتين ، لكن شهر صفر حمل  
نهاً محنتين ضخمتين غطتا على أنباء هذه الانتصارات . وال Herb سجال .

## سرية بشر معونة

( قدم عامر بن مالك بن جعفر أبو البراء ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ ، فأهدى له فرسين راحلين ، فقال رسول الله ﷺ : « لأقبل هدية مشرك » ! فعرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، وقال : يا محمد ، إنني أرى أمرك هذا أمراً حسناً شريعاً ، وقومي خلفي ، فلو أنك بعثت نفراً من أصحابك معى لرجوت أن يجيبوا دعوتك ، ويتبعوا أمرك ، فإنهم اتبعوك فيما أعز أمرك ! فقال رسول الله ﷺ : « إنني أخاف عليهم أهل نجد ». فقال عامر : لا تخاف عليهم ، أنا لهم حار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد . وكان من الأنصار سبعون رجلاً شبيه يسمون القراء كانوا إذا أمسوا أنفساً ناحية من المدينة فتدارسوها وصلوا ، حتى إذا كان وجاه الصبح استعدوا من الماء وخطبوا من الخطب فجاوروا به إلى حجر رسول الله ﷺ .. )

فكتب رسول الله ﷺ معهم كتاباً ، وأمر على أصحابه المنذر بن عمرو الساعدي ، فخرجوه حتى كانوا على بشر معونة ، وهو ماء من مياه بني سليم وهو بين أرض بني عامر وبني سليم وكلا البلدين يعد منه . . فلما نزلوا عليها عسكروا بها وسرحوا ظهرهم ، وبعثوا في سرحهم الحارث بن الصمة ، وعمرو بن أبيه ، وقدموا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيلي في رجال من بني عامر ، فلما انتهى حرام إليهم لم يقرؤوا الكتاب ووثب عامر بن الطفيلي على حرام فقتله ، واستصرخ عليهم بني عامر فأبوا ، وقد كان عامر بن مالك أبو براء خرج قبل القوم إلى ناحية نجد فأخبرهم أنه أجار أصحاب محمد فلا يعرضوا لهم . فقالوا : لن يُخفر جوار أبي براء ، وأبىت عامر أن تغمره ماء نجد - فنفروا معه ورأسوه . فقال عامر بن الطفيلي : أحلف بالله ما أقبل هذا وحده ! فاتبعوا إثره حتى وجدوا القوم قد استبطأوا أصحابهم فأقبلوا في إثره ، فلقيهم القوم والمنذر معهم فأحاطت بنو عامر بال القوم وكثروهم ، فقاتل القوم حتى قتل أصحاب رسول الله ﷺ ، وبقي المنذر بن عمرو فقالوا له : إن شئت أمناك ، فقال لن أعطى بيدي ، ولن أقبل منكم أماناً حتى آتني مقتل حرام ثم برأكم ، فآمنوه حتى آتني مصرع حرام . ثم برأوا إليه من جوارهم ، ثم قاتلهم حتى قتل ، فذلك قول رسول الله ﷺ « أعنق ليموت » .

وأقبل الحارث بن الصمة وعمرو بن أمية بالسرح ، وقد ارتاها بعكوف الطير على منزلتهم أو قريب من منزلهم فجعلوا يقولان : قتل والله أصحابنا : والله ما قتل أصحابنا إلا أهل نجد ! فأوفى على نشرز<sup>(١)</sup> من الأرض فإذا أصحابهم مقتولون ، وإذا الخيل واقفة . فقال الحارث بن الصمة لعمرو بن أمية ماترى ؟ قال : أرى أن الحق برسول الله عليه السلام فأخبره الخبر ، فقال الحارث : ما كنتم لأنتأخر عن موطن قتل فيه المنذر ، فأقبل للقوم فقاتلتهم الحارث حتى قتل منهم اثنين ، ثم أخذوه فأسروه وأسروا عمرو بن أمية ، وقالوا للحارث : ماتحب أن نصنع بك ، فإننا لأنحب قتلك ؟ فقال : أبلغوني مصرع المنذر وحرام ، ثم برئت منكم زمتى . قالوا : نفعل . فبلغوا به ثم أرسلوه ، فقاتلوه فقتل منهم اثنين ثم قتل ، فما قاتلوه حتى شرعا له الرماح فنظموا فيها . وقال عامر بن الطفيلي لعمرو بن أمية وهو أسير في يديهم ولم يقاتل : إنه كانت على أمي نسمة ، فأنت حر عنها ! وجز ناصيته ، وقال عامر بن الطفيلي لعمرو بن أمية : هل تعرف أصحابك ؟ قال : قلت : نعم . قال فطاف فيهم وجعل يسألهم عن أنسابهم ، فقال : هل تفقد منهم من أحد ؟ قال : أفقد مولى لأبي بكر يقال له عامر بن فهيرة ، فقال : كيف كان فيكم ؟ قال : قلت : كان من أفضلنا ، ومن أول أصحاب نبينا . قال : ألا أخبرك خبره ؟ وأشار إلى رجل فقال : هذا طعنه برمحة ، ثم انزع رمحه فذهب بالرجل علواً في السماء حتى والله مأراه . قال عمرو : قلت : ذلك عامر بن فهيرة ! وكان الذي قتله رجل من كلاب يقال له جبار بن سلمي ، ذكر أنه لما طعنه قال : سمعته يقول : فزت والله ، قال : قلت في نفسي : ما قوله فزت ؟ فأتيت الضحاك بن سفيان الكلابي فأخبرته بما كان وسألته ، عن قوله : فزت . فقال : الجنة ، وعرض على الإسلام فأسلمت ، ودعاني إلى الإسلام مارأيت من مقتل عامر بن فهيرة من رفعه إلى السماء علواً .

قال : وكتب الضحاك إلى رسول الله عليه السلام يخبره بإسلامي ومارأيت من مقتل عامر ابن فهيرة . فقال عليه السلام : « إن الملائكة وارت جشه ، وأنزلت عليهن » .

فلما جاء رسول الله عليه السلام خبر بشر معونة . جاء معها في ليلة واحدة مصابهم ومصاب مرثد ، وبعث محمد بن مسلمة فجعل رسول الله عليه السلام يقول : « هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارها » ، ودعا رسول الله عليه السلام على قتالهم بعد الركعة من الصبح – في صبح تلك الليلة التي جاءه الخبر – فلما قال : « سمع الله من حمده » قال : « اللهم اشدد

(١) نشرز : مرفوع .

وَطَأْتُكَ عَلَى مَضْرِرٍ ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بَنْيَ حَيَانٍ وَزَعْبٍ وَرَعْلٍ وَذَكْوَانٍ وَعُصْبَيَةً ؛ فَإِنَّهُمْ عَصَوْا  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بَنْيَ حَيَانٍ وَعَضْلٍ وَالْقَارَةَ ، اللَّهُمَّ اخْرُجْ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدَ ، وَسَلِمْ  
ابْنَ هَشَامَ ، وَعِيَاشَ بْنَ أَبِي رِبِيعَةَ ، وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، غِفارَ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا ، وَأَسْلَمَ  
سَالِمَهَا اللَّهُ » ، ثُمَّ سَجَدَ ، فَقَالَ ذَلِكَ خَمْسَ عَشَرَةً )<sup>(١)</sup> .

---

(١) المغازي للراقدى / ١ / ٣٤٦ - ٣٥٠ .

## غزوة الرجيع

وهي ذات صلة وثيقة بمقتل سفيان بن خالد الهمذاني ثم اللحياني .

( لما قتل سفيان بن خالد بن نبيع الهمذاني ، مشت بنو لحيان إلى عضل والقارة فجعلوا لهم فرائض ، على أن يقدموا على رسول الله ﷺ فيكلموه ، فيخرج لهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام ، فقتل من قتل صاحبنا ، ونخرج بسائرهم إلى قريش بمكة فنصيب منهم ثمناً ؛ فإنهم ليسوا الشيء أحب إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد ، يمثلون به ويقتلونه بمن قتل منهم في بدر .

فقدم سبعة نفر من عضل والقارة – وهم حيان إلى خزيمة – مقررين بالإسلام ، فقالوا لرسول الله ﷺ : إن فينا إسلاماً فاشياً ، فابعدوا علينا نفراً من أصحابك يقرئوننا القرآن ، ويفقهوننا في الإسلام ، فبعث معهم سبعة نفر : مرثد بن أبي مرثد الغنوبي ، وخالد بن أبي البكير ، وعبد الله بن طارق البلوي حليف في بنى ظفر ، وأخاه لأمه معتب بن عبيد ، وخبيب بن عدى بن بلحارث بن الخزرج ، وزيد بن الدثنة من بنى بياضة ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، ويقال : كانوا عشرة وأميرهم مرثد بن أبي مرثد ، ويقال : أميرهم عاصم بن ثابت فخرجو حتى إذا كانوا بماء لهذيل يقال له الرجيع – قريب من الهدأ<sup>(١)</sup> – خرج النفر فاستصرخوا عليهم أصحابهم الذين بعثهم اللحيانيون ، فلم يرع أصحاب محمد ﷺ إلا بالقوم ، مائة رام وفي أيديهم السيف ، فاختلط أصحاب النبي ﷺ وأسيافهم ثم قاموا ، فقال العدو : ما يريد قتالكم ، وما يريد أن نصيب منكم من أهل مكة ثمناً ولكم عهد الله وميثاقه لانتلوكم . فأماماً خبيب وزيد وعبد الله بن طارق فاستأسروا . وقال خبيب : إن لي عند القوم يداً ، وأماماً عاصم بن ثابت ، ومرثد ، وخالد بن أبي البكير ، ومنتبر بن عبيد ، فأبوا أن يقبلوا جوارهم ولا أمانهم ، وقال عاصم بن ثابت : إنني ندرت ألا أقبل جوار مشرك أبداً ، فجعل عاصم يقاتلهم وهو يقول :

النبل والقوس لها بلا بل<sup>(٢)</sup>

ماعلتني وأنا جلد نابل

(١) الهدأ : موضع بين عسفان ومكة .

(٢) لها بلا بل : لها تهيج وتحرير للعدو عند اختلاط المعركة .

نزل عن صفحتها المعابل (١)

الموت حق والحياة باطل

وكيل ما حم الإله نازل  
بالماء والمرء إليه آتى (٢)

إن لم أقاتلكم فأمي هابل (٣) (٤)

(وقال عاصم بن ثابت أيضاً :

أبو سليمان ومثلى رامي و كان قومي عشرة كراما

وكان عاصم يكفي : أبي سليمان ، ثم قاتل القوم حتى قتل وقتل أصحابه .

فلما قاتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب ( عاصم ) ابنيها يوم أحد : لئن قدرت على رأس عاصم لتشرين في قحفة الحمر ، فمنعته الدبر (٥) . فلما حالت بينه وبينهم ( الدبر ) قالوا : دعوه يمسى فتذهب عنه ، فتأخذنه فبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً فذهب به ، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركاً أبداً تجساً . فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أنه منعوه الدبر : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركاً أبداً في حياته .

فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه عند حياته .

وأما زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدى ، وعبد الله بن طارق ، فلانوا ورقوا ورغموا في الحياة ، فأعطوا أيديهم فأسرورهم ، ثم خرجوا إلى مكة ليبيعوه بها ، حتى إذا كانوا بالظهران (٦) انزع عبد الله يده من القرآن ، ثم أخذ سيفه ، واستآخر عنه القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوا ، فقبره رحمة الله بالظهران ، وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقدمو بهما مكة .

قال ابن هشام : فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانوا بمكة .

قال ابن إسحاق : فابتاع خبيباً مجير بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل .. وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية

(١) معابل : جمع معيل وهو نصل عريض طويل .

(٢) آتى : راج .

(٣) هابل : هالكة .

(٤) المخازى للواقدى / ١ - ٣٥٤ - ٣٥٦ .

(٥) الدبر : الزنابير والنحل .

(٦) مر الظهران : واد قرب مكة .

مع مولى له يقال له نسطاس إلى التعيس<sup>(١)</sup> ، وأخر جوه من الحرم ليقتلواه ، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي . قال : يقول أبو سفيان : مارأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً . ثم قتلته نسطاس .

وأما خبيب بن عدى ، فحدثنى عبد الله بن أبي نجيع أنه حدث عن ماوية ، مولاية حجير بن أبي وهب ، وكانت قد أسلمت ، قالت : كان خبيب عندى ، حبس فى بيته ، فلقد اطاعت عليه يوماً وإن فى يده لقطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما أعلم فى أرض الله عنباً يئر كل .

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي نجيح جميعاً أنها  
قالت : قال لى حين حضره القتل : ابتعنى إلى بحديدة أظهر بها للقتل . قالت : فأعطيتُ  
غلاماً من الحي الموسى ، فقلت : ادخل بها على هذا الرجل البيت . قالت : فوالله ما هو  
إلا أن ولى الغلام بها إليه فقالت : ماذا صنعت ، أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام ،  
فيكون رجلاً برجل ! فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال : لعمرك ماخافت أمك  
غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلى ! ثم خلى سبيبه .

قال ابن إسحاق : قال عاصم : ثم خر جر بخبيب حتى إذا جاؤوا به إلى التنعيم ليصلبوه ، قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا ، قالوا : دونك فاركع ، فرکع رکعتين أتھما وأحسنھما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لو لا أن تظنو أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . قال : فكان خبيب بن عدى أول من سن هاتين الرکعتين عند القتل للمسلمين . قال : ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه ، قال : اللهم إنا قد أبلغنا رسالتك ، فبلغه الغدة ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا . ثم قتلوه رحمة الله .

قال ابن إسحاق : و كان مما قيل في ذلك من الشعر قول خبيب بن عدي :

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا<sup>(٢)</sup> قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

وكلهم مبدي العداوة جاهد على لأنى في وثاق بمصيم<sup>(٣)</sup>

(٢) أَنْبُوا : جَمِيعًا .

(١) التعميم: أدنى الحد من مكثة.

(٣) بمصيغ وفی روایة بمصيغ .

وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم  
 إلى الله أش��و غربتى ثم كربتى  
 فذا العرش صبرنى على مايراد بي  
 وذلك في ذات الإله وإن يشاء  
 وقد خيرونى الكفر والموت دونه  
 وما بي حذار الموت إني لميت  
 فوالله ماؤرجو <sup>(٧)</sup> إذا مت مسلماً  
 فلست بمبد للعدو تخشعأ  
 قال ابن إسحاق : ( وكان مما نزل من القرآن في تلك السرية ، كما حدثني مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة مولى ابن عباس أو عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : قال ابن عباس :

لما أصيّبت السرية التي كان فيها مرثد وعاصم بالرجيع ، قال رجال من المنافقين :  
 يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا ، لاهم قعدوا في أهليهم ، ولاهم أدوا رسالة  
 أصحابهم !

فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين ، وأصحاب أولئك النفر من الخير الذي  
 أصابهم فقال سبحانه : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » أي لما يظهر من  
 الإسلام بسانه « ويشهد الله على ما في قلبه » وهو مخالف لما يقول بسانه « وهو ألد  
 الخصم » أي ذو جدال إذا كلمك وراجعتك « وإذا تولى » أي خرج من عندك  
 « سعي في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحمر والنسل والله لا يحب الفساد » أي  
 لا يحب عمله ولا يرضاه « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وليس  
 المهد . ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاه الله . والله رءوف بالعباد » أي قد

(١) بضعوا : قطعوا .

(٢) شلو : البقية .

(٣) المزع : المقطع .

(٤) ياس : لغة من يس .

(٥) هملت : سال دمعها .

(٦) جحم نار : اللهيب المتقد ومنه سميت بالجحيم .

(٧) أرجو : أي أخاف ، في بعض المعاني .

شرعوا أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله ، والقيام بحقه ، حتى هلكوا على ذلك ، يعني تلك السرية )١( .

وعودة إلى آيات النساء بعد أن عشنا الجو الذي تنزلت الآيات فيه ، حيث تخدم المعركة بين المنافقين الذين يريدون أن يفتتوا الصفة المؤمن ، ويضموا ضعاف الإيمان منه معهم ، وبين القيادة المسلمة التي تريد أن تزكي ريح الجهاد بعد المحن الثقيلة المتالية وتكشف المنافقين ، وتريهم وتفضح أسلابهم ، وتمسك بضعف الإيمان ، فتحذرهم من الاستجرار لمؤامرات المنافقين ، وتبث في قلوبهم معانى الإيمان العظيمة ، فيستمسكوا بالصف ، ويتجاوزوا ضعفهم وعجزهم .

ولاغرابة أن ينطلق المنافقون بالتطهنة والتخديل عن الجهاد ، والتخويف من نتائجه وتكليفه ، والتحذير من خسائره الفادحة ، كما بدت عياناً في هذه المرحلة .

﴿ وإن منكم من ليطعن فإن أصحابكم مصيبة قال قد أنعم الله على إِذ لم أَكُن مَعْهُمْ شهيداً . ولئن أصحابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليعنى كت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ )٢( .

ولئن وجدنا الصورة الأولى : ﴿ قد أنعم الله على إِذ لم أَكُن مَعْهُمْ شهيداً ﴾ صورة المصائب المتالية فهل نجد في هذه المرحلة الصورة التالية : ﴿ ولئن أصحابكم فضل من الله... ﴾ ؟

نعم فقد كانت عقب شهر واحد من محتوى بغر معونة والرجوع من خلال غزوةبني النضير .

والظفر الكبير الذي تحقق فيها ، والغنائم الكبيرة ، التي أفاءها الله تعالى على رسوله والمؤمنين ، فلا غرابة أن يسيل لعاب المنافقين المتخلفين بعد هذا النصر ، وتأكل الحسرة قلوبهم ﴿ يا ليعنى كت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ .

وحيث إننا سنعالج آيات سورة الحشر على حدة ، فندع الحديث عنها إلى هناك . إنما كانت الإشارة ضرورية لربط هذه الآيات بجوها الذي تزلت فيه .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م ٢ / ١٧١ - ١٧٧ .

(٢) النساء / ٧٢ .

(فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان ﴿ وإن منكم لمن ليطعن ﴾) قال : هو فيما بلغنا عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ، ﴿ ليطعن ﴾ : ليتخلفن عن الجهاد ، ﴿ فإن أصابكم مصيبة ﴾ : من العدو وجهد من العيش ، ﴿ قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ﴾ : فيصيبي مثل الذى أصابهم من البلاء والشدة ، ﴿ ولكن أصابكم فضل من الله ﴾ : يعني فتحا وغنىمة وسعة فى الرزق ، ﴿ ليقولن ﴾ المنافق وهو نادر فى التخلف ﴿ لأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾ : يقول كأنه ليس من أهل دينكم فى المودة فهذا من التقديم ، ﴿ يا ليتى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ﴾ : يعني آخذ من الغنيمة نصبا وافرا ) .<sup>(١)</sup>

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتىه أجرا عظيما . وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا آخر جنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولينا واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾<sup>(٢)</sup> .

و كما لاحظنا الآية السابقة :

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغا مرضاة الله والله رعوف بالعباد ﴾<sup>(٣)</sup> .

والتي ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس أنها نزلت بعد سرية الرجيع . نرى الآية هنا تلح على المعنى نفسه :

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ .

وليس القتال نصرا دائمًا ، ولا هزيمة دائمة .

﴿ ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتىه أجرا عظيما ﴾ .

﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ المسلمين بعد أحد ، منكوبون ، ولما تندمل جراحهم بعد ، وجاءتهم محنتا الرجيع وبشر معونة ، فهل يقاتلون للدفاع عن أنفسهم وللذب عن مدینتهم ، ولحماية بيضتهم وانتهى الأمر ، أمام هذه التكاليف الصعبة التي أرهقتهم من جراء الجهاد ؟؟

. ٧٥ ، ٧٤ ) النساء ( ٢ )

. ٥٩٢ / ٥ ) الدر المثمر للسيوطى ( ١ )

. ٢٠٧ ) البقرة ( ٣ )

أسئلة تترى . والجواب عليها بالنفي .

فلن تقف مسؤولية الجهاد عند الحماية والدفاع عن النفس ، بل مهمته أبعد من ذلك وأعمق غوراً ، وأنأى مرمى .

إنه جهاد لتحرير المستضعفين في الأرض .

وإنها لوقفة عظيمة مع هذا الدين .

والجراح فاشية ، والدماء متفجرة ، والشهداء يتذدقون ، فهل يغير هذا من الموقف شيئاً ؟ ! أبداً ، إنها المهمة الرئيسية مهما كانت المحن ، ومهما بلغت التضحيات ، لابد من تحرير الأرض من الطغاة ، واستنقاذ المستضعفين من أيديهم .

وتوكد الإشارة مرة ثانية على مكة ، التي يعرفها المؤمنون ، والتي غزوا من أهلها قبل أشهر خلت ، فلابد من مواجهة (الظالم أهلها) وانتزاع المؤمنين المستضعفين من براثن هؤلاء الظالمين .

فلن يتغير الهدف لمحنة عابرة ، أو تكاليف باهضة ، لابد أن يبقى الهدف ماثلاً أمام الصف المؤمن ، رغم ما يلاقيه ، ورغم ما يعيشه . فهو المسئول عن التحرير في هذه الأرض .

﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا آخر جننا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولينا واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ .

فمن الولي لهؤلاء المستضعفين غير محمد وحزبه ؟ !

ومن النصير لهؤلاء الرجال والنساء والولدان غير الإسلام وجيشه ؟ !

ولا غرابة في ذلك ؛ لأن : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ﴾ .

فعليهم أن ينصروا شريعة الله وجنده الله والمؤمنين بالله في كل مكان .

﴿ والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ .

أما أعداؤهم فقتالهم في خدمة طواغيت الأرض ، وفي ترسیخ الظلم في هذا الوجود ، ولتحقيق العبودية للعبيد الطواغيت ، فكم الفرق واضح في الهدف والاتجاه والغاية .

ولا خيار أمام المؤمنين من مواجهة الطواغيت وجنده ، الذين والوا الشيطان ، وحالفوه ونصروه يوم عبدوا غير الله ، وكانوا في طاعته وخدمته وأمره .

وحين يتضح الأمر في حسن المسلم ، أن هؤلاء الطواغيت بما يملكون من جيوش جرارة ، ومعدات ثقيلة وجنود مجندة ، هم أولياء الشيطان ، والشيطان الذي يزعم أنه يحاد الله ورسوله يعرفحقيقة صغره وحقارته وذاته فهو ضعيف أمام رب العالمين .

هذا هو المبرر الذي يجعل تكاليف التحرير في الأرض على المؤمنين ؛ لأنهم يقاتلون في سبيل الله فهم أولياؤه ، والله تعالى هو نصير المستضعفين ووليهم ، والشيطان هو نصير الطواغيت وحليفهم وبناءً على ذلك فلا بد من المواجهة بين الفريقين والخزيين .

ولا خيار من المعركة .

وعلى المتخفين بالجراح ، والمنكوبين بإخوانهم وأبائهم ، وأبنائهم ، أن يستعدوا للمواجهة مع قريش ، مع القرية الظالم أهلها .

ولم يكن هذا التوجيه خيالاً ، بل كان أمراً واقعاً ، فقد أُزف موعد اللقاء الذي اتّعده المسلمين والمشركون ، يوم قال أبو سفيان على ظهر أحد :

إن موعدكم بدر للعام القابل .

فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل : «نعم هو بيتنا وبينكم موعد» .

فإذن بعد أشهر لابد أن يمضي الجيش الإسلامي إلى بدر ليلقى الرحوف المشركة ويواجهها ، فلا بد أن توطن النفوس لذلك ، وتشحن القلوب بالعزيمة للمواجهة ، فلا مجال للاسترخاء ، ولا مجال لهدنة أو فسحة من تكاليف الجهاد ؛ لأن المواجهة قائمة .

ولابد من الحديث مع أصحاب القضية مباشرة مع المهاجرين الذين يعرفون المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، من إخوانهم الذين يعانون التعذيب ويسامون الخسق بيد جلادي قريش ، ويعيد إلى ذاكرتهم أيام معاناتهم ، وتوقهم إلى الجهاد ، والإسلام يدعوهم إلى الصبر .

﴿أَلمْ ترِ إِلَى الَّذِينَ قيلَ لَهُمْ كفُوا أَيْدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْالَ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةَ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبُّنَا لَمْ كَبَتْ عَلَيْنَا الْقَتْالُ لَوْلَا أَخْرَتْنَا إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾

ولا تظلمون فتيلاً )١( .

أخرجه النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه من طريق عكرمة ، عن ابن عباس ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه له أتوا النبي ﷺ فقالوا : يا بني الله كنا في عزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، فقال : « إني أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره الله بالقتال فكفوا ، فأنزل الله : « ألم تر إلى الدين .. » )٢( .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المذر عن قتادة في الآية قال : ( كان أناس من أصحاب النبي ﷺ - وهم يومئذ بمكة قبل الهجرة - يسارعون إلى القتال ، فقالوا للنبي ﷺ : ذرنا نتحذل معاول فنقاتل بها المشركين - وذكر لنا أن عبد الرحمن بن عوف كان فيمن قال ذلك - فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك قال : « لم أومر بذلك » فلما كانت الهجرة وأمرروا بالقتال كره القوم ذلك وصنعوا فيه ما تسمعون ، قال الله تعالى : « قل متع الدنيا قليل والأخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً » )٣( .

وإذا كانت غزوة بدر ملاقاة قافلة ، وانتدب الناس انتداباً لها ، فلم يعنف أحد من فاتته ؛ لأن القوم لم يكونوا يرون أن رسول الله ﷺ يواجه عدوا ، فلم يكن التفير عاماً إليها ، وفاتت بدر عدداً من قادة الصحابة وفضلاتهم .

وحين تشنط المسلمين بعد بدر ، فلم يكن هناك ضرورة لاستجاشة العزائم لمواجهة العدو في أحد ، فقد استخف النصر المسلمين ، فراحوا يتسابقون على الجهاد حتى ليعيد رسول الله ﷺ صبيان المسلمين إلى المدينة . وقد انضموا إلى الجيش .

لكن الأجواء بعد أحد والخسائر الضخمة التي رافقتها ثبّطت العزائم ، وأوهنت النفوس ، ومن أجل ذلك فلمواجهة الجديدة مع مكة ولابد أن يكون الاستفار كاملاً ومستوعباً للمؤمنين .

وأولى الناس بهذه المواجهة المهاجرون ، أصحاب القضية ، الأصليون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق والذين ظلموا ، فتأنى هذه الآية إلى الذين ظلموا ، والذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، والذين حيل بينهم وبين الثأر والجهاد من قبل . هاهم الآن يدعون إلى المواجهة بأشخاصهم وأعيانهم جميعا ؛ لأن العدو شرس ، فلن يعفى أحد من

. )٣، ٢( الدر المختار / ٥٩٤ / ٥٢ .

٧٧ النساء / )١( .

المواجهة ، وخاصة الذين كانوا يتوقون للجهاد .

وإذا كان فيهم من يقول : «ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب» ولابد أن يذكر هؤلاء أن متع الدنيا قليل ، والآخرة خير من اتقى .

فقد كان السابقون الأولون من المهاجرين بدون استجاشة ، وبدون استفار ، وبدون تحريض ، جاهزون للمواجهة .

وإذا شارك عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مع إخوانه ، الذين كانوا في مكة يتوقون للجهاد ، شارك في طلب الجهاد والإذن فيه ، فهذا لا يعني أنه اليوم مع الذين قالوا : ربنا لم كتبت علينا الجهاد ، خاصة وقد رأيناه في بدر ، ورأيناه في أحد ، وقد أثبتته الجراحة ذوداً عن رسول الله ﷺ ، لكن شأن الآخرين الذين كانوا معه أو بعض من كان معه هم المستفرون للمواجهة ، ولا يمكن أن يقبل من مهاجرى واحد أن يختلف عن المعركة ، أو ينكل عن الجهاد .

ومع صاحب الظلال يشخص صورة هذا الفريق منهم أكثر وأكثر :

(إن أشد الناس حماسة واندفعاً وتهوراً ، قد يكونون هم أشد الناس جرعاً وانهياراً وهزيمة عندما يجد الحد ، وتقع الواقعه .. بل إن هذه قد تكون القاعدة ! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفاقعة غالباً ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف ، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار . كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة الاحتمال الضيق والأذى والهزيمة ؛ فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأى شكل . دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار .. حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشق مما تصوروا ، فكانوا أول الصاف جرعاً ونكولاً وانهياراً .. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ، ويحملون الضيق والأذى بعض الوقت ، ويعدون للأمر عدته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ، ومدى الاحتمال النفوس لهذه التكاليف ، فيصرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته .. والتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافاً ، ولا يعجبهم تمثيلهم وزنهم للأمور ! وفي المعركة يتبين أى الفريقين أكثر احتمالاً ؛ وأى الفريقين أبعد نظراً كذلك .

وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف ، الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه ، ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة . فيندفع يطلب من

الرسول ﷺ أن يأذن له بدفع الأذى ، أو حفظ الكرامة ، والرسول ﷺ يتبع في هذا أمر ربه بالتراث والانتظار ، والتربيه والإعداد ، وارتقاب الأمر في الوقت المقدر المناسب . فلما أن أمن هنا الفريق في المدينة ، ولم يعد هناك أذى ولا إذلال ، وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص ، لم يعد يرى للقتال مبرراً ، أو على الأقل لم يعد يرى للمساءعة بهم ضرورة .

﴿فَلَمَا كَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخْشَيَةَ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبُّنَا لَمْ كَبِطْ عَلَيْنَا الْقَتْلَ لَوْلَا أَخْرَتْنَا إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ ..﴾ .. وهذه الصورة ينبغي أن تكون في حسابنا ، فالإيمان الذي لم يتضح بعد ؛ والتصور الذي لم تتضح معالمه ، ولم يتبيّن صاحبه وظيفة هذا الدين في الأرض - وأنها أكبر من حماية الأشخاص ، وحماية الأقوام ، وحماية الأوطان ، إذ أنها في صميمها إقرار منهج الله في الأرض ، وإقامة نظام العادل في ربوع العالم ؛ وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان ، يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله ، ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض ، ويمنع أن يفتتن أحد من الأفراد عن دينه إذا هو اختاره بكامل حرية - بأى لون من ألوان الفتنة - ومنها أن يطارد في رزقه أو في نشاطه - حيث هو ، وهذه كلها مهام خارجة عن وقوع أذى على أشخاص بينهم أو عدم وقوعه .. وإن فلم يكن الأمن في المدينة - حتى على فرض وجوده كاماً غير مهدد ، لينهى مهمة المسلمين هناك ؛ وينهى عن الجهاد )<sup>(١)</sup> .

وبعد أن تمت استجاشة المهاجرين جميعاً للمواجهة ، لا بد من العودة إلى ضعاف الإيمان ، وإلى المنافقين لفضح الخبوء ودفع المؤمنين إلى المواجهة ، وتغذيتهم بالدفقات الإيمانية المطلوبة .

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مَّشِيدَةٍ وَإِنْ تَصْبِهِمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ قَلْ كُلَّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَا لِهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ لِيَكَادُونَ يَفْهَمُونَ حَدِيثًا . مَا أَصَابَكُمْ مِّنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ وَأَرْسَلْنَاكُمْ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . مِنْ يَطِعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تُولِيَ فَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ إِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدَكُمْ بَيْتَ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ غَيْرُ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَبْيَطُونَ فَأَعْرِضُ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب / ج ٢ / ٧١٢ .

وَكُفِيَ بالله وَكِيلًا . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخُوفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلْمَهُمُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَا تَبْعَثُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا . فَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُلُّ إِلَّا نَفْسُكَ وَحْرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسْيَ اللَّهِ أَنْ يَكُفِّرَ بِأَسْدَ الذِّينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُ بَأْسًا وَأَشَدُ تَكْبِيلًا )١( .

﴿ أَئِنَّمَا تَكُونُوا يَدِكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بِرْوَجٍ مَشِيدَةً ﴾ .

فَإِذَا كَانَ الَّذِي يَحْوِلُ دُونَ الْجَهَادِ وَيَخْيِفُ مِنْهُ هُوَ الْمَوْتُ ، فَالْمَوْتُ قَادِمٌ لَا مَحَالَةٌ ، وَلَوْ كَانَ الْمَرءُ فِي أَعْلَى الْحُصُونِ ، وَفِي الْبِرْوَجِ الْمَشِيدَةِ ، لَا فَرَارٌ لَهُ عَنْهُ ، وَلَا مَفْرُّ لَهُ مِنْهُ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي يَبْطِئُ عَنِ الْجَهَادِ هُوَ غَيْرُ الْخُوفِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَلَا يَبْدُ أَنْ يَعْالِجَ كَذَلِكَ .

لَابِدُ أَنْ نَلَاحِظَ ذَلِكَ ( الطَّابُورُ الْخَامِسُ ) مِنَ الْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ يَبْثُثُونَ سُمَّهُ فِي الْجَمَعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيَطْعَنُونَ فِي قِيَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، كَمَا تَفَخُّضُ الْأَفَاعِيُّ وَالثَّعَابِينُ سُمَّهَا الْقَاتِلُ .

﴿ وَإِنْ تَصْبِهِمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ ﴾ .

هُمُ الْأَبْنَاءُ لَا يَجْرُؤُونَ عَلَى إِعْلَانِ الْكُفْرِ ، وَلَوْ أَعْلَنُوهُ لَسَقَطُوا ، وَانتَهَى دُورُهُمْ فِي الصَّفَّ الْمُسْلِمِ ، وَلَكِنْ سَيَعْزُفُونَ بِشَكْلِ دَائِمٍ عَلَى وَتْرِ الْحَنَةِ ، وَيَجْسِمُونَهَا وَيَضْخُمُونَهَا وَأَنْهَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ لَا تَكُونَ ، لَوْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ زَعِيمَهُمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي وَلِمْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ .

كَانَ يُمْكِنُ أَلَا تَقْعُ لَوْلَمْ يَرِدَ حَلْفَاءُ زَعِيمِهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي مِنَ الْيَهُودِ .

كَانَ يُمْكِنُ أَلَا تَقْعُ مَحْنَةُ مَعْوِنَةٍ لَوْلَمْ يَأْخُذْ بِقَوْلِ أَبِي بَرَاءَ مَلَاعِبَ الْأَسْنَةِ ، وَيَصْدِقَهُ ، وَيَرْسِلَ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى مَصَارِعِهِمْ .

كَانَ يُمْكِنُ أَلَا تَقْعُ مَحْنَةُ الرَّجِيعِ لَوْلَمْ يَبْعُثْ هَذِهِ السُّرِّيَّةَ لِلْدُّعُوَةِ إِلَى اللَّهِ فَنَقْتُلُ عَنْ آخِرِهَا . هَذِهِ الْمَادَةُ الدَّسْمَةُ الَّتِي يَبْثُثُهَا بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ، أَوْ يَلْقَوْنَهَا فِي أَذْنِ ضَعَافِ الْإِيمَانِ . فَالْمُخْنَنُ كُلُّهُ مِنْ مُحَمَّدًا ﷺ ، أَمَا النَّصْرُ فَلَيْسَ بِعَبْرِيَّتِهِ وَكَفَاءَتِهِ وَحْسَنِ قِيَادَتِهِ . إِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ .

(١) النساء / ٧٨ - ٨٤ .

وأى هدم وأى تحطيم في المجتمع يفوق هذا الهدم وهذا التحطيم ، وهل يترك هذا دون مواجهة .

﴿ قل كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

فلا بد من الإقرار ابتداءً أن الذي يملك النفع والضر هو الله تعالى وحده ، ولا بد من الإقرار ابتداءً بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، ولا بد من الإقرار ابتداءً أن الذي يقدّر الحسنة والسيئة هو الله تعالى ، وإلا لم يكن له من فقه الإسلام نصيب .

وبعد إقرار هذا الأصل الإيماني الثابت ، يعود القرآن ليقرر أن هذا القدر ليس جزافاً ولا صدفة إنما هو مرتبط بحكم بالغة ، في خلق هذا الإنسان نفسه .

﴿ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسْنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيْئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ وَأَرْسَلَنَاكُمْ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

فلا بد أن تتضح حدود العبودية ، وتتضح حقوق الربوبية .

فالحسنة من الله تعالى فيض منه سبحانه وعطاء ، لا يقابلها أى جهد بشري ، ولا يوازي أى نعمة عمل عامل ، ولا عبادة عابد ، ولا يكافي أى إحسان رباني ، جهد مجاهد ، أو بذل باذل فالله تعالى هو المعطي المفيض على خلقه الإحسان كله .

والسيئة لتأتي جزافاً ولا عرضاً ، إنما هي بما جنت الأيدي ، ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ أَذْبَاكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتَمْ ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ أَوْ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيْئَةٍ قَدْ أَصْبَתْمُ مَثِيلَاهَا قَاتِلَهَا قَاتِلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيْئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ ﴾ .

والعبد مهما ارتفع وسمى . يبقى عبداً لله عز وجل تقع منه الحسنة والسيئة .

﴿ وَأَرْسَلَنَاكُمْ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ .

لكن هذا لا يعارض أبداً مع الرسالة .

والله تعالى الذي قال لنبيه : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيْئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ ﴾ هو جل شأنه تعالى جده الذي شهد له بالرسالة خلقه كافة ﴿ وَأَرْسَلَنَاكُمْ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ .

(١) النساء / ١٤٧ .

(٢) آل عمران / ١٦٥ .

﴿وَكُفِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ .

فمن أئن ينفذ المنافقون إلى قلب هذا الصف المسلم؟ هل يحسبون أنهم حين ينالون من شخص رسول الله ﷺ يقى لهم ذرة من الإيمان كما يتوهمن ويتخرصون ، وتأتي الآية لتصفهم أعنف صفة أحرقت كل أوراقهم :

﴿مَنْ يَطْعَمُ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تُولِيَ فَمَا أُرْسَلْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ .

والمنافقون يحرصون على إثبات إيمانهم ، ولو نالوا من شخص رسول الله ﷺ ، ولو عصوا أمره ، وخالفوا توجيهاته ، ﴿كَبَرَتْ كَلْمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذَبًا﴾ (١) .

فجاءت هذه الآية لتلقمهم الحجر الذي يأخذ بخناقهم ، وتبهت الذي كفر .

﴿مَنْ يَطْعَمُ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ﴾ .

بهذا الحزم والحزم والتحديد الذي لا يقبل جدلاً ولا انتصاراً ولا مراوغة .  
طاعة الرسول هي طاعة الله تعالى .

وبالمقابل ، فمعصية رسول الله ﷺ هي معصية الله تعالى .

ونيلهم من شخص رسول الله ﷺ هو نيل وافتتاح على الله سبحانه .

﴿مَنْ تُولِيَ فَمَا أُرْسَلْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ .

ثم يكشف جزءاً من فسقهم بعد أن دفعهم بالجهالة .

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةً إِذَا بَرَزُوا مِنْ عَنْدِكَ بَيْتَ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ غَيْرُ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يَسِّيْتُونَ فَأَعْرَضُ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَكَفِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

فالم ظاهر وباطن ، فأمام رسول الله ﷺ والمؤمنين ، يقولون طاعة ، وما أئن يغادروا مجتمع النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى يغيروا ما قالوه ، وما قاله النبي عليه الصلاة والسلام ، ليفتوا الناس عن دينهم ، ويبيتوا الشك في الله تعالى ورسوله وكتابه ، ويشاروا المتشابه ليشكوا الناس في دينهم ، ضمن تبیت وتخطيط ماهر ماكر . والتوجيه الرباني لرسوله ﷺ في هذه المرحلة هو أن يكشف خبث طويتهم ، ودناءة أساليبهم ، وزيف تفكيرهم ، دون بناء موقف تأدیب معهم ، وهذه مرحلة من مراحل المواجهة لهم .

(١) الكهف / ٥ .

﴿فَأَعْرِضُ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

وينسى هؤلاء المنافقين أنهم يتعاملون مع الله ورسوله .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ :

ولو كانوا يتدبرونه لأقلعوا عن هذا الكيد الهزيل ، ولعرفوا أن ألاعيبهم مكشوفة ، أفعى الله تعالى وكتابه يمكرون .

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوهُ فِي الْخِلَافَ كَثِيرًا﴾ :

: ) القرآن لا يكذب بعضه ببعض ، ولا ينقض بعضه ببعض ، ما جهل الناس من أمره فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم وقرأ : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوهُ فِي الْخِلَافَ كَثِيرًا﴾ قال : فحق على المؤمن أن يقول : كل من عند الله . يؤمّن بالتشابه ولا يضرب بعضه ببعض ، إذا جهل أمراً ولم يعرفه أن يقول : الذي قاله الله حق ، ويعرف أن الله لم يقل قولًا وينقض ، ينبغي أن يؤمّن بحقيقة ماجاء من الله (١) .

ثم يأتي كشف المؤامرة الثانية :

﴿وَإِذَا جَاءُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخُوفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ لَعِلْمُهُمْ بِالَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُوكُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

إن هدف تفتيت الصف المسلم ، والتشكيك في قيادته ، لا يزال ماثلاً في الذهن ، والعمل على تهويين النفوس ، وبذر الشك في القلوب ، فهم يشون الإشاعة أو ينشئونها ابتداء ثم يشونها ليفتوا في أعضاد الناس .

وحتى لا يقع ضعاف الإيمان في خضم مؤامرتهم يعلمهم القرآن الكريم المنهج الرباني في التعامل مع الإشاعة :

﴿وَلَوْ رَدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ لَعِلْمُهُمْ بِالَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُمْ﴾ .

وهو أمر رباني ، فضعف الإيمان قد وضح له المنهج ، وآتاه الأمر فلا عذر له في المخالفة بعد ذلك والأنسياق في هذا التيار . أما المنافق فسيتابع طريقه ، ويشير الفتنة ،

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى / م ٤ / ج ٥ / ١١٤ .

ويحرف الكلم عن مواضعه ، ويبيت الرعب والخوف في أجواء المخنقة القائمة ، ويضخم من الخطأ ، ويهول من البلاء ، يفعل المنافقون ذلك حتى تستقيم لهم الأمور ، ويفرقوا الصف الملحتم ، ويوقعوا القاعدة الصلبة في فتنه هو جاء تأكل الأخضر واليابس .

### ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾ :

ولم تكن هذه القضية قضية هينة – أمر إشاعة الأمن أو الخوف – فاتباع أمر الإشاعة هو اتباع للشيطان ، قد يجر الصف المسلم كلها إلى الهاوية ، وهو الذي يريده الشيطان إلا قليلاً من عصم الله ألا يزل : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعلك من الغاوين﴾<sup>(١)</sup> .

( والصورة التي يرسمها هذا النص ، هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي ، لم تتألف نفوسهم النظام ، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر ، وفي النتائج التي تترتب عليها ، وقد تكون قاسمة ؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ، ولم يدركوا جدية الموقف ، وأن كلمة عابرة ، أو فلتة لسان ، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له على بال ، وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال ! أو – ربما – لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقى الكامل لهذا المعسكر ، وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجرى بها هنا وهناك ، وإذا عثتها ، حين يتلقاها لسان عن لسان . سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف .. فكلتا هما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة ! – فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متاهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو .. إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تحدث نوعاً من التراخي – مهما تكن الأوامر باليقظة – ؛ لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر ! وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية ! كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته ، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة . وقد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكاً ، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مطان الخوف .. وقد تكون كذلك القاضية !

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه ، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته ، أو هما معاً .. ويفيد أن هذه السمة وتلك كانتا واقعتين في المجتمع المسلم حينذاك ، باحتواه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان ، و مختلفة المستويات في الإدراك ،

. ٤٢ / الحجر (١)

ومختلفة المستويات في الولاء . . وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرباني .

والقرآن يدل الجماعة على الطريق الصحيح .

﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمرائهم لعلمه الذين يستبطونه منهم ﴾ .  
أى أنهم لو ردوا ما يلهمهم من أنباء الأمان أو الخوف إلى الرسول ﷺ – إن كان معهم – ، أو إلى أمرائهم المؤمنين ، لعلم حقيقته القادرون على استبطاط هذه الحقيقة ؛ واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة ، والملابسات المتراكمة )<sup>(١)</sup> .

وكيف نبعد ونحن نعلم ماجرى في أحد بعد إشاعة مقتل النبي ﷺ !

حتى يتنزل القرآن لينبئ على المؤمنين موقف الانهيار على إثر هذه الإشاعة :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ )<sup>(٢)</sup> .

وكيف نبعد ونحن نرى كم أعطى أبو سفيان للوقد الذي كلفه بإبلاغ رسول الله ﷺ بأنبأ تجمع الناس للمؤمنين وزحفهم على المدينة ! لكن عندما كانت هذه الإشاعة بين يدي رسول الله ﷺ وأولى الأمر . تحطم كل مردودها السسىء .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوه فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ )<sup>(٣)</sup> .

وهما صورتان متقابلتان لإشاعه سرت في الصف دون أن تصل إلى أولى الأمر مباشرة فأدت إلى الانقلاب على العقب .

إشاعة وصلت إلى رسول الله ﷺ والقيادة المؤمنة معه ، فزادت المؤمنين إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

ويضرب لنا عمر رضي الله عنه نموذجاً من نماذج الإشاعة وكيفية مواجهتها .

فقد أخرج عبد بن حميد ومسلم وابن أبي حاتم من طريق ابن عباس عن عمر بن

(١) في ظلال القرآن / ٢٤ / ج ٥ / ٧٢٣، ٧٢٤ .

(٢) آل عمران / ١٧٣ .

(٣) آل عمران / ١٤٤ .

( لما اعتزل النبي ﷺ نساءه دخلت المسجد ، فإذا الناس ينكتون بالحصا ويقولون طلاق رسول الله ﷺ نساءه ، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية في : ﴿إِذَا جاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخُوفِ أَذَا عَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُوا إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرِ﴾ فكنت أنا الذي استتبطط ذلك الأمر ) <sup>(١)</sup>.

وفي العودة إلى هذا الحديث وأثره في الصف المسلم . أثر طلاق رسول الله ﷺ نساءه ، لوجدنا أنه فت في أعضاد الناس لدرجة أن اعتبروه أخطر من غزو غسان للمدينة .

ولا غرابة في ذلك ، فهل يعني طلاق رسول الله ﷺ لنسائه جميعاً في حسن المسلم ، إلا أن هذا البيت النبوى كله قد تهدم ، وكله محل شك وطعن .

وجميعنا يدرك إشاعة حادثة الإفك ، وما فعلته من دمار في الصف المسلم .

وحين ندقق في الموقع المناسب لهذه الآية ، نجد أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً في الموضوع العام الذى تعالجه هذه الآيات ، موضوع الجهاد والحدث عليه ، ومواجهة المبطئين ، والمخذلين ، والموهنين ، ومدى تأثير هذا البطء في الصف ، حتى تأتى الآية لتقول لرسول الله ﷺ :

﴿فَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفُّ إِلَّا نَفْسُكَ وَحْرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفُفَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُ بَأْسًا وَأَشَدُ تَكْبِيلًا﴾.

فإذا كانت التبطئة والتخذيل تثال كثيراً في الصف المسلم ، فليمض رسول الله ﷺ مقاتلاً وحده ، ولا يكلف إلا نفسه ، وهو يحرض المؤمنين على القتال .

ولم نبعد والصورة بين أمتين واضحة .

بين بنى إسرائيل ، وهم يقولون لنبيهم : ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هَا قَاعِدُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> :

وبين الأمة المسلمة وهي تقول لنبيها : والله لأنقول لك كما قال قوم موسى موسى :

. ٢٤ / المائدة (٢).

. ٦٠٠ / ٤ / الدر المنشور (١).

﴿إذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هَنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكننا نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون .

وذلك الجو الطاغى فى بدر ، يقول الله تعالى لنبيه فيه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

وهنا لا يغفىه تعالى من المسئولية ولو كان وحده :

﴿فَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلُفَ إِلَّا نَفْسَكَ وَحْرَضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وكم يكون لهذه الآية دفع فى نفوس المؤمنين وأثر على أحاسيسهم ، أن يرى الله تعالى قائلًا لنبيه : ﴿فَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلُفَ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ .

أيمضى رسول الله ﷺ وحده إلى القتال ، وهم قابعون في مكانهم ؟

إن الموقف لأصيل للمؤمن ورسول الله ﷺ يحضر على القتال ، أن يكون كما قال زيد لأبي سفيان : والله ماأحب أن محمداً الآن في مكاني ، وأنا آمن في بيتي ، وفي رجل محمد شوكة توذيه .

ما دفع قائد العدو أن يعترف على الملا :

مارأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

فالآية إذن أسلوب آخر من أساليب التحرير والتلحث على القتال ، وضرب الموهنين والمبطعين والمخذلين .

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِي بِأَنْذِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُ بَأْسًا وَأَشَدُ تَنكِيلًا﴾ :

فالله تعالى هو الناصر والمعين حين يستجيب الصفة المؤمن لهذا النداء ، ويؤدي ما عليه في عالم الأسباب .

ومن أجل هذا اعتبر سيد رحمة الله قمة التحضيض على القتال من خلال هذه الآية :

( وحين يصل السياق إلى هذا الحد من تقويم عيوب الصفة ، التي تؤثر في موقفه من الجihad وفي الحياة – ومنذ أول الدرس وهذا التقويم مطرد لهذه العيوب – عندئذ ينتهي إلى

(١) الأنفال / ٦٤ .

قمة التحضيض على القتال الذى جاء ذكره فى ثنایا الدرس ، قمة التكليف الشخصى ، الذى لا يقدر الفرد عن القتال بطبعه ولا تخذلا ؛ ولا خلل فى الصف ولا عوره فى الطريق ، حيث يوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بأن يقاتل - ولو كان وحيداً - فإنه لا يحمل فى الجهد إلا تبعة شخصه ﷺ ، وفي الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال وكذلك يوحى إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر ، فالله هو الذى يتولى المعركة ، «والله أشد بأساً وأشد تنكيلا» .

﴿فقاتل في سبيل الله . لاتكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكلا﴾ .

ومن خلال هذه الآية - بالإضافة إلى ما قبلها - تبرز لنا ملامح كثيرة في الجماعة المسلمة يومذاك ، كما تبرز لنا ملامح كثيرة في النفس البشرية في كل حين :

أ - يبرز لنا مدى الخلخلة في الصف المسلم ، وعمق آثار التبعية والتعويق والتسيط فيه ، حتى تكون وسيلة الاستهانة والاستجاشة هي تكليف النبي ﷺ أن يقاتل في سبيل الله - ولو كان وحده - ليس عليه إلا نفسه مع تحريض المؤمنين ، غير متوقف مضيبة في الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم ولو أن عدم استجابتهم - جملة - أمر لا يكون ، ولكن وضع المسألة بهذه الوضع يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو ، واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة ، فوق ما يحمله النص - طبعاً - من حقيقة أساسية في التصور الإسلامي ، وهي أن كل فرد لا يكلف إلا نفسه .

ب - كما يبرز لنا مدى المخاوف والذماعب في التعرض لقتال المشركين يومذاك ، حتى ليكون أقصى ما يعقل الله به رجاء المؤمنين أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا ، فيكون المسلمون ستاراً لقدرته في كف بأسهم عن المسلمين ، مع إبراز قوة الله - سبحانه - وأنه أشد بأساً وأشد تنكيلا ، وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك ، والمخاوف المثبتة في الصف المسلم ، وربما كان هذا بين أحد والخدق ، هذه أخرج الأوقات التي مرت بها الجماعة المسلمة في المدينة بين المنافقين ، وكيد اليهود ، وتحفز المشركين ! وعدم اكتمال التصور الإسلامي ووضوحه وتناسقه بين المسلمين .

ج - كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية ، وهي تدفع إلى التكاليف التي تشق عليها ، إلى شدة الارتباط بالله ، وشدة الطمأنينة إليه ، وشدة الاستعانة به ، وشدة الثقة

بقدره وقوته . فكل وسائل التقوية غير هذه لاتجدى حين يبلغ الخطر قمته ، وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الربانى ، والله هو الذى خلق هذه النفوس ، وهو الذى يعلم كيف تربى ، وكيف تقوى ، وكيف تستجاش ، وكيف تستجيب )<sup>(١)</sup> .

---

(١) في ظلال القرآن / م ٢ / ج ٥ / ٧٢٤، ٧٢٥.

## عودة إلى المنافقين

يقول جل ثناؤه :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها و كان الله على كل شيء مقيتا . وإذا حيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيناً . الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ (١) .

تأتي هذه الآيات توطئة وتمهيداً للحديث عن المنافقين ، وتناول المظاهر العامة للعلاقات معهم ، فهم لا يزوالون في الظاهر جزءاً من المجتمع المسلم ، وحين تقع بعض المواقف والتصيرات منهم ، وبطبيعة تداخلهم في المجتمع ، لابد أن تتدخل شفاعة المؤمنين في الاعتذار عن تصرفاتهم ، وذلك بطبيعة وشبيحة القرابة التي تجمعهم ووشبيحة العقيدة - ظاهراً - كذلك .

فيدعو القرآن المؤمنين على أن يكونوا على يقظة تامة ، وتنبه شديد من هؤلاء المنافقين ، بهذا الوحي الربانى المعجز ، يدعوه إلى أن يتبعه إلى من يشفعون لهم عند رسول الله ﷺ فإذا كان الزوال أو المتعثر قد ندت منه خطيبة لضعفه أو لعجزه ، فتأتي الشفاعة الحسنة لتممكح هذا الخطأ ، وتأخذه بيد حانية رحيمة ، وتضعه في موقعه من الصف المسلم ، وحين يأخذ وضعه لبنة في بناء إخوانه ، ويقوى بهم ، لاشك أن صحفة أجراه قد فتحت ، ويكون كل شيء فيها في صحيفة أجر شافعه الذي أخذ بيده وأعاده عضواً أصيلاً داخل الصف :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ .

أما إذا كان منافقاً يستر وراء الإسلام . وتغلب عاطفة الأبوة أو البنوة أو القرابة على المسلم ، فيأتي شافعاً لهذا المنافق ، فكأنما يأتي ليسدل الستار على حياته ، فلا شك أن كل تأمراه على الإسلام والمسلمين سوف يحمل وزرها وآثامها ، لما ينشأ من خلل في الصف

(١) النساء / ٨٥ - ٨٧ .

نتيجة هذه الشفاعة :

﴿وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكْنَى لَهُ كَفْلًا مِنْهَا﴾ .  
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيْتًا﴾ : أى شهيداً حسبياً حافظاً قديراً ، مقىتاً كل انسان بقدر عمله .

هذه الأحوال المختلفة حسب طبائع المشفوعين لا تعنى أن تتعامل بالشك داخل هذا الصدف ، ونوزع التهم على البريء المدان ، لابد - من حيث التعامل العام - أن يبقى على ما هو عليه إنشاء السلام في الصدف ، والدعوة إلى الأحسن فيه ، تبقى سمة هذا المجتمع :  
﴿إِذَا حَيَّتُمْ بِتَحْيَةٍ فَحِيُوا بِأَحْسَنِ مَا هُنَّا أُورْدُوهَا﴾ .

والله تعالى هو الذي يحاسب على ما في القلوب ، وهو الذي يكشف المحبوب يوم القيمة ، ويفضح المستور ، فهو الذي يجمعهم جميعاً ، وهو صادق الوعود والخبر :  
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِي جَمِيعَنْكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارِيبٌ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ .

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمَافِقِينَ فَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَبَ بِمَا كَسَبُوا أُتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهِ وَمَنْ يَضْلِلُ اللَّهَ فَلَنْ تَجْدِدْ لَهُ سَبِيلًا . وَدُولَا لَوْ تَكْفُرُوْنَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوْنَ سَوَاءً فَلَا تَخْذُلُوْنَهُمْ أُولَيَاءَ حَتَّى يَهَاجِرُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تُولُوا فَخَذُوْهُمْ وَاقْتُلُوْهُمْ حَيْثُ وَجَدُوْهُمْ وَلَا تَخْذُلُوْنَهُمْ وَلِيَا وَلَا نَصِيرَا﴾ (١) .

وفي سبب نزول الآية رأيان : أحدهما عن زيد بن ثابت والآخر عن ابن عباس رضي الله عنهما . حيث يربط الرأى الأول النزول بعد الله بن أبي المناافقين معه الذين خذلوا نبيهم يوم أحد ، فقد «أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى والبيهقى فى الدلائل عن زيد بن ثابت :

أن رسول الله ﷺ : إلى أحد ، فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فرقة تقول نقتلهم ، وفرقة تقول لا ، فأنزل الله :  
﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمَافِقِينَ ..﴾ الآية كلها ، فقال رسول الله ﷺ : «إنها طيبة وإنها تنفي الحبث كما

(١) النساء / ٨٨ ، ٨٩

ويؤيد هذا الرأى روایة أخرى تحصر الحديث عن المنافقين بمن هم داخل المدينة ، حيث : أخرج سعد بن منصور ، وابن المندز ، وابن أبي حاتم من طريق عبد العزيز بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن سعد بن معاذ الأنصارى ، أن هذه الآية أنزلت فينا : «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَتَتِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا»<sup>(٢)</sup> . خطب رسول الله ﷺ الناس فقال : «من لي بمن يؤذني ويجمع في بيته من يؤذني» فقام سعد بن معاذ فقال : إن كان منا يا رسول الله قتلناه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا فأطعناك . فقام سعد بن عبادة فقال : مابك يابن معاذ طاعة رسول الله ﷺ ولكن عرفت ما هو منك . فقام أنسيد ابن حضير فقال : إنك يابن عبادة منافق تحب المنافقين . فقام محمد بن مسلمة فقال : اسكنتوها أيها الناس ، فإن فينا رسول الله ﷺ وهو يأمرنا فنتنفذ لأمره ، فأنزل الله «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَتَتِينَ» الآية<sup>(٢)</sup> .

والأرجح في هذه الآية – جلالة الرواية الذين رووها وصححة سندها الذي في الصحيحين وغيرهما – أن يكون سبب نزولها هو هذه الحدة في الاختلاف في الموقف من عبد الله بن أبي وصحبه وأكثراهم من الخزرج – رهط سعد بن عبادة رضي الله عنه – وقد خذلوا رسول الله ﷺ في هذا الموطن الصعب ، أن ترفع الحمية الإيمانية عند فريق من المؤمنين – ولعلهم الأوس – إلى المطالبة بقتلهم على هذه الخيانة الشنيعة ، وأن يوجد من يعذرهم من المؤمنين ويطلب العفو عنهم ، وهم من الخزرج ، فتأتي الآية لتعذر المؤمنين على خلافهم من جهة ، وتدين المنافقين من جهة أخرى :

«وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا»<sup>(٢)</sup> أوقعهم بما كسبوا .

الآية تؤكد على ضلال المنافقين : «أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مِنْ أَنْهَى اللَّهُ وَمِنْ يَضْلِلُ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدْ لَهُ سِبِيلًا»<sup>(٢)</sup> .

أما الرأى الثاني فيتجاوز في المنافقين حدود المدينة ، وهو المناسب مع سياق الآيات التي تتحدث عن هجرتهم كدليل على براءتهم من النفاق . وعلى هذا الرأى معظم أئمة التفسير مجاهد وفتادة ومعمر بن راشد وأبو سلمة بن عبد الرحمن والغوفى وابن عباس ، ونأخذ روایة واحدة توضح هذا الرأى :

(٢) المصدر نفسه / ٦٠٩ .

(١) الدر المنشور / ٤٦٠٩ .

(أخرج ابن حجر وابن أبي حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال : إن قوماً كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجو من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا فيهم بأس ، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فتة من المؤمنين : اركبوا إلى الخباء فاقتلوهم ؟ فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم ، وقالت فتة أخرى من المؤمنين : سبحانه الله ! تقتلون قوماً وقد تكلموا بمثل ما تكلمت به ، من أجل أنهم لم يهاجروا ويتراکوا ديارهم تستحل دماءهم وأموالهم . فكانوا كذلك فتئن والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء فنزلت : «**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَلْتَهَاجِرُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» يقول : حتى يصنعوا كما صنعتم «**فَإِنْ تُولُوا**» قال : عن الهجرة .<sup>(١)</sup>

﴿فَخَذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدُوكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ :

فقد نزل القرآن برأى الفريق الآخر بقتلهم والبراءة من ولائهم وعدم الثقة بنصرتهم ، ما لم ينضموا إلى المجتمع الإسلامي ، وينضوا تحت لواء الدولة المسلمة ، ويهاجروا في سبيل الله .

ولأول مرة نجد الدعوة إلى القتل في صفو المخالفين ، ولاشك أن هذه الأحكام كانت من الحبس والجزم بحيث تقطع دابر الخلاف .

لابد أن يتوحد الصيف الداخلي في الموقف من هؤلاء المخالفين ، وكان الحديث بالقوة والصرامة ، والدعوة إلى قتلهم حيث وجدوا . لتصل هذه المواقف إلى كل أنحاء الجزيرة العربية ، وذلك لقطع محاولات الغدر بال المسلمين ولتعريف كل فريق من أى قبيلة يريد أن يعبد صورة الرجيع ، وصورة بشر معونة أنها لن تذكر . فالذين يوالون قريشاً ويظاهرونها ضد الصيف المؤمن محكوم عليهم بالقتل أى وجدوا ، ولو ادعوا الإسلام ، حتى يهاجروا في سبيل الله ، وينضموا إلى الصيف المسلم ، وهو حكم حاسم صارم يتناسب مع طبيعة الظروف التي أعقبت أحداً ، ويوقف كل محاولات الغدر والغية أن تتمتد إلى داخل الصيف ، أو يفكر أحد من الصيف المسلمين بظاهرة أمثال هؤلاء ، وسماهم القرآن صراحة بأنهم كفار .

﴿وَدُوا لَوْ تَكُفُّرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَكُونُونَ سَوَاءٌ فَلَا تَتَّخِذُوْهُمْ أُولَاءَ حَتَّىٰ

(١) الدر المثور / ٢٤ / ج ٥ / ٦ .

يهاجروا في سبيل الله ﷺ .

فهم عند قريش كفار وجزء من المجتمع الكافر ، وإذا خرجوا من مكة مسلمون . ولكنهم يعيشون جزءاً من دار الحرب في مكة ، فليس هناك حل وسط يمكنهم من هذه الانتهازية وهذه المصلحية .

إما أنهم مسلمون فعلاً فلينضموا إلى دار الإسلام ويهاجروا في سبيل الله .

وإما أنهم كفار فعلاً ، يقاتلون أين وجدوا ويقتلون ، طالما أنهم جزء من دار الحرب ويظاهرون الكفار على المؤمنين .

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصْلُوْنَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيَثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرُتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْاتِلُوكُمْ أَوْ يَقْاتِلُوْنَا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْتُهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَمْ يَقْاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ الْسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سِيلًا﴾ .

وهذا الفريق الثاني من المنافقين يحدثنا عنهم الحسن رحمه الله فيقول فيما يرويه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن الحسن : أن سراقة بن مالك المدلسي حدثهم قال : ( لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأحد ، وأسلم من حولهم قال سراقة : بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قوميبني مدلاج ، فأتيته فقلت : أنشدك النعمة . فقالوا : مه . فقال دعوه ، ماتريد ؟ قلت : بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومي ، وأنا أريد أن تواضعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وإن لم يسلموالله تخشنقلوب قومك عليهم . فأخذ رسول الله ﷺ ييد خالد فقال : « اذهب معه فافعل ما يريد » فصالحهم خالد على أن لا يعنوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، ومن وصل إليهم من الناس كانوا على مثل عهدهم ، فأنزل الله : ﴿ وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ .. ﴾ حتى بلغ ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصْلُوْنَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيَثَاقٌ﴾ ، فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم )<sup>(٢)</sup> .

ولكننا نستبعد صحة الرواية ، فخالد لم يسلم إلا بعد عمرة القضية ، وليس بينه وبين فتح مكة إلا شهور فقط ، والآيات يظهر أنها كانت في وقت مبكر عن هذا الوقت ، وحين نعود إلى نصوص السيرة نجد ما يزيد هذه الملاحظات والتشبهات .

(١) النساء / ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) الدر المشور / ٢م / ٥ / ٦١٣ .

## غزوة العشيرة

( ثم غزا غزوة العشيرة في جمادى الآخرة ، ويقال جمادى الأولى على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره ، خرج عليه يعترض عيراً لقريش حين أبدأت إلى الشام و معه خمسون ومائة رجل ، ويقال : خرج معه مائتا رجل يعتقدون ثلاثين عيراً ، واستختلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وحمل اللواء حمزة ، وكان قد جاءه عليه الخبر بفصول العيرا من مكة تزيد الشام . قد جمعت قريش أموالها في تلك العيرا ، فبلغ عليه ذا العشيرة يطعن ينبع ، فأقام بقية الشهر وليلًا مما بعده ، وصالح بنى مدلع وخلفاءهم بنى ضمرة ، ورجع ولم يلق كيداً . وهذه العيرا هي التي خرج في طلبها عليه لما عادت وكانت وقعة بدر ) <sup>(١)</sup> .

و حين نعرف أن رسول الله عليه قد عقد ميثاقاً مع بنى ضمرة في غزوة الأباء ، أول غزوة غزاهما رسول الله عليه على رأس أحد عشر شهراً من مهاجره عليه الصلاة والسلام ، وأن الميثاق الثاني كان مع بنى مدلع على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره صلوات الله وسلامه عليه . حين نعرف ذلك نستطيع أن نفقه الآية في قوله تعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصْلُوْنَ إِلَيْكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَسْرَةٌ﴾ <sup>(٢)</sup>  
صدورهم أن يقاتلواكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبلاً .

إن هؤلاء الذين يفدون إلى بنى مدلع وبنى ضمرة - حلفاء رسول الله عليه - هم آمنون ، طالما أنهم لم يعلنوا على المسلمين حرباً ، وهم آمنون بأمان رسول الله عليه لهم ، وهم مع الذين بينهم وبين رسول الله عليه ميثاق .

يقول ابن عباس رضى الله عنه : ( إذا أظهروا كفرهم فاقتلوهم حيث وجدتهم .  
فإن أحد منهم دخل في قوم بينكم وبينهم ميثاق فأجرعوا عليهم مثل ما تجررون على أهل

(١) إمامة الأسماع للمقرئي / ١ / ٥٤ - ٥٥ ، والسيرۃ النبویة لابن هشام / م / ٢ / ٥٩٩ .

(٢) حضرت صدورهم : ضاقت صدورهم .

والفريق الثالث من المنافقين :

﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأموكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسو فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذلهم واقتلوهم حيث ثقفتهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾<sup>(٢)</sup> .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ستجدون آخرين ﴾ الآية . قال : ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رباء ، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكبون في الأوثان ، يتغرون بذلك أن يأمونا هاهنا وهاهنا فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا أو يصالحوا )<sup>(٣)</sup> .

(وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ستجدون آخرين ﴾ الآية قال : حي كانوا بهامة قالوا : يابي الله ، لانقاتلوك ولا نقاتل قومنا ، وأرادوا أن يأمونا بني الله ويأمونا قومهم فأبى الله ذلك عليهم فقال : ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة أركسو فيها ﴾ يقول : كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه )<sup>(٤)</sup> .

والظاهر أن الحرب العوان بين المشركين وال المسلمين في الأرض العربية ، نشرت الرعب والذعر في صفوف القبائل المجاورة لكلا الفريقين ، وصار كثير من الأعراب حفاظاً على مصالحهم ، يتظاهرون بالود ل محمد رسول الله ﷺ خوفاً منه ، ولقرיש خوفاً منها ، يعلنون إسلامهم في موطن ، ويرتدون في موطن آخر ، كما هي الطبيعة الأعرابية المصلحية التي قال الله تعالى عنها :

﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله علیم حکیم ﴾<sup>(٥)</sup> .

فهي ظاهرة متنوعة غير محصورة بفريق معين أو قبل خاص ، لأنها تكررت مرات عده فقد ذكر أئمة التفسير كل واحد منهم ما تنهى إليه علمه في هذا المجال .

وحيث اتضح المنهج الإسلامي في قتل المنافقين حيث ثقفهم المسلمين ماداموا

(١) الدر المنثور / ٤ / ٦١٣ . (٢) النساء / ٩١ .

(٤) المصدر نفسه / ٥ / ٦١٤ . (٥) التوبه / ٩٧ .

(٣) الدر المنثور / ٥ / ٦١٤ .

مصرين على نفاقهم ، بين مالأ قريش أعداء الله وال المسلمين ، فقد يفسح هذا المجال لأخذاء فردية في التطبيق ، كما يقع في كثير من الثورات المسلحة ، و تستبد شهوة القتل في النفس البشرية تحت ستار ميدئي ، وهو في الحقيقة إرضاء لنزعه الاستعلاء والسيطرة والتضاد على الخصوم ، كان لا بد من وضع كوابع وروادع تحول دون الخطأ في التنفيذ . فجاءت هذه الآيات لتحديد ربط القتل العمد بالكفر والخلود بالنار ، وذلك ليكون الرادع النفسي عن الانقياد لشهوة القتل قادرًا على ضبط هذه النفس الجموع .

﴿ وَمَا كَانَ لِأَوْنَانَ أَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمِنْ قُلْ مُؤْمِنًا خَطَاً فَحُرِيرٌ رَبْرَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصْدِقُوا إِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوَّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَحُرِيرٌ رَبْرَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ يَبْنُوكُمْ وَيَبْنُهُمْ مِثْلًا فَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرٌ رَبْرَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصَامَ شَهْرَيْنَ مُتَابِعَيْنَ تُوبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمًا . وَمَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مَتَعَمِّدًا فَجُزْءُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضْبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعْدَدَ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا مِنْ أَنْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتُ مُؤْمِنًا بِتَغْوِيَتِكُمْ عَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَنِ الدِّينِ مَفَاعِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كَتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَقَبِينَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴾<sup>(١)</sup> .

وَهِينَ تَعْرِضُ النَّمَادِيجُ الْوَاقِعِيَّةَ الْمُرْتَبَطَةَ بِأَسْبَابِ النَّزُولِ وَأَحْدَاثِ السَّيَّرِ ، يَتَضَعَّفُ الْمَعْنَى جَلِيلًا أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ﴾ :

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّهَا نَزَلتَ فِي عِيَاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، عَنِ السَّدِيِّ وَعَكْرَمَةَ وَمَجَاهِدَ وَسَعِيدَ بْنَ جَبَيرَ ، وَذَكَرَ أَبْنَ زِيدَ أَنَّهَا نَزَلتَ فِي أَبِي الدَّرَدَاءِ ، وَعِنْدَ أَبِي نَعِيمَ وَالرُّوْيَانِيِّ أَنَّهَا بَكْرَ بْنَ حَارِثَةَ الْجَهَنِيِّ .

وَنَسْتَعْرِضُ بَعْضَ هَذِهِ الْرَّوَايَاتِ وَاحْتِلَافُهَا لِتَتَعَدَّدُ الصُّورُ :

أَخْرَجَ أَبْنَ جَرِيرَ عَنْ عَكْرَمَةَ قَالَ : ( كَانَ الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ بْنُ نَبِيَّشَةَ مِنْ بَنِي عَامِرَ بْنَ لَوْيَ يَعْذِبُ عِيَاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ مَعَ أَبِي جَهَلَ ، ثُمَّ خَرَجَ مَهَاجِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَقِيَهُ عِيَاشَ بِالْحَرَةِ فَعَلَاهُ بِالسِّيفِ وَهُوَ يُحَسَّبُ أَنَّهُ كَافِرٌ ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ ،

(١) النساء / ٩٤ - ٩٢ .

فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتَلُ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطًّا ﴾ الآية فقرأها عليه ثم قال : قم فحرر )<sup>١</sup>.

أما رواية ابن جرير عن ابن زيد في أبي الدرداء رضي الله عنه فهى :

( نزلت في رجل قتله أبو الدرداء ، كانوا في سرية فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له ، فوجد رجلاً من القوم في غنم له ، فحمل عليه السيف ، فقال : لا إله إلا الله ، فضربه ثم جاء بعنه إلى القوم - ثم وجد في نفسه شيئاً ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَبْلِهِ ؟ » . فقال : ما عسيت أجد ، هل هو يارسول الله إلا دم أو ماء ؟ فقال : « قَدْ أَخْبَرْتَكَ بِلِسَانِهِ فَلَمْ تَصْدِقْهُ ». قال كيف بي يارسول الله ؟ . قال : « فَكَيْفَ بِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ». قال فكيف بي يارسول الله ؟ قال « فَكَيْفَ بِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ». حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي . قال : ونزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتَلُ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطًّا ﴾ حتى بلغ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَصْدِقُوا ﴾ قال : إِلَّا أَنْ يَضْعُوْهَا )<sup>٢</sup> .

ورواية الروياني وأبي منده وأبي نعيم في المعرفة عن بكر بن حارثة الجهيني قال :

( كنت في سرية بعثها رسول الله ﷺ فاقتلتنا نحن والشركون ، وجملت على رجل من المشركين فتعوذ مني بالإسلام فقتلته ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فغضب وأقصاني فأوحى الله إليه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتَلُ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطًّا .. ﴾ الآية : فرضى عنى وأدناني )<sup>٣</sup> .

وقد رويت هذه القصة في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه والمقداد بن الأسود وغيرهما ، وهذا يعني أن هذه الحادثة قد تكررت مراراً ، وذلك من خلال الأجراء للآيات السابقة التي تدعو إلى قتل المنافقين ، فكان موقف الصحابة في القتل أنهم قالوا لا إله إلا الله تعوذ من السيف . وحتى لا يترك الأمر بدون ضابط ، ويختلط الحق بالهوى ، جاء الأمر الصريح بالنهي عن قتل من يقول لا إله إلا الله ، وقطع دابر هذه الاجتهادات الشخصية التي ترك الحكم بالإيمان والإسلام على القلب لا على اللسان ، والإسلام يعصم الدم والمال والعرض وذلك كما في الحديث الصحيح المتواتر الموجود في الصحاح الستة :

١) جامع البيان في تفسير القرآن / ٤ / ١٢٨ .

٢) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى / م / ٤ / ج ٥ / ١٢٩ .

٣) الدر المثور / ٥ / ٦١٧ .

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»<sup>(١)</sup> .

أما القتل العمد ، فقد كان جزاؤه الخلود في جهنم ، وتمثل صورته في الحادثة التالية التي وردت سبباً للنزول :

(أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق ابن جريج عن عكرمة : أن رجلاً من الأنصار قتل أخا مقيس بن ضبابة ، فأعطيه النبي ﷺ الديمة فقبلها ، ثم وُثِّبَ على قاتل أخيه فقتله).

قال ابن جرير ، وقال غيره : ضرب النبي ﷺ ديته على بني النجار ، ثم بعث مقيساً ، وبعث معه رجلاً من بني فهر في حاجة للنبي ﷺ ، فاحتمل مقيس الفهرى - وكان رجلاً شديداً - فضرب به الأرض ورضخ رأسه بين حجرين ثم ألقى يتغنى :

قتلت به فهراً وحملت عقله      سراة بني النجار أرباب فارع

فأخبر به النبي ﷺ فقال : «أظنه قد أحدث حدثاً ، أما والله لئن فعل لا أؤمهن في حل ولا حرم - ولا سلم ولا حرب » فقتل يوم الفتح . قال ابن جريج : وفيه نزلت هذه الآية : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مَتَعْمِدًا ..﴾ الآية<sup>(٢)</sup> .

وفي رواية ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : (فلما انصرف مقيس والفهرى راجعين من قباء إلى المدينة وبينهما ساعة ، عمد مقيس إلى الفهرى رسول الله ﷺ فقتله ، وارتدى عن الإسلام ، وركب جملًا منها وساق معه البقية - أى من الديمة التي أخذها مائة من الإبل - ولحق مكة وهو يقول في شعر له :

قتلت به فهراً وحملت عقله      سراة بني النجار أرباب فارع

وأدراك ثأرى واضطجعت موسدًا      وكنت إلى الأواثان أول راجع

فنزلت فيه ، بعد قتل النفس وأخذ الديمة ، وارتدى عن الإسلام ولحق بمكة كافرا )<sup>(٣)</sup> .  
هاتان صورتان متقابلان للنفسية المسلمة التي تخطئ ، فقتل غير عارفة بإسلام

(١) الجامع الصغير للسيوطى ، رواه السنّة / م ١ / ٢٤٨ .

(٢) الدر المثور / ٥ / ٦٢٢ .

المقتول - كما روى عن عياش بن أبي ربيعة أو تراه قال لا إله إلا الله تعوداً من القتل - فعليه الدية والعتق على التفصيل الوارد في الآية الكريمة ، وبين نفس مبنية على الإجرام تأخذ الدية ، وقتل البريء ، وتتضى مرتدة إلى مكة .

وقد ساق السيوطي رحمة الله النصوص الحديثية في قتل المؤمن العمد ، منها :

١ - أخرج البخاري ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمأ حراماً »<sup>(١)</sup> .

وأخرج أحمد ، والنسائي ، وأبي المنذر ، عن معاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً »<sup>(٢)</sup> .

٢ - وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأبى ماجة ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « والله للدنيا وما فيها أهون على الله من قتل مسلم بغير حق »<sup>(٣)</sup> .

٣ - وأخرج ابن عازب ، والبيهقي في الشعب ، والأصحابي في الترغيب ، عن البراء بن عازب ، أن النبي ﷺ قال : « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتراكوا في دم مؤمن لأدخلهم الله النار »<sup>(٤)</sup> .

كما ساق السيوطي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه فيما أخرجه أبو داود وأبى جرير والنحاس والطبرانى وأبى مardonie والبيهقي أن هذه الآية ناسخة لآية الفرقان التي تتحدث عن العفو عن القاتل :

( لما نزلت هذه الآية في الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُدْعَونَ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا أَخْرَى وَلَا يُقْتَلُونَ النَّفْسُ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ... ﴾ عجبنا للينها ، فلبسنا سبعة أشهر ، ثم نزلت التي في

(١) هو في البخاري في باب الدييات / ١ .

(٢) ورواه أبو داود عن أبي الدرداء وهو حديث صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير للسيوطى / الحديث ٤٤٠ .

(٣) وهو في الترمذى ديات / ٧ ، وأبى ماجة ديات / ١ .

(٤) وفي معنى الفقرة الثانية من الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى : « لو أن أهل السماوات والأرض اشتراكوا في دم مؤمن لكفهم الله عز وجل في النار » . انظر صحيح الجامع الصغير للألبانى الحديث / ٥١٢٣ .

النساء : ﴿ وَمَن يَقْتَلُ مُؤْمِنًا مَتَعْمِدًا ﴾ بينما يرى السيوطى عن الضحاك أن بينهما ثمان سنين )<sup>(١)</sup> .

وهناك رأى آخر استعرضه السيوطى يرى توبة القاتل العمد ، وقبولها مرهون بمشيئة الله ، وساق هذه الرواية .

(أخرج القتبي ، والبيهقي في البعث ، عن قريش بن أنس قال : سمعت عمرو بن عبيد يقول : يؤتى بي يوم القيمة فأقام بين يدي الله فيقول لي : لم قلت : إن القاتل في النار ؟ فأقول : أنت قلتني ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَن يَقْتَلُ مُؤْمِنًا مَتَعْمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ قلت له : وما في البيت أصغر مني ، أرأيت إن قال لك : فإنني قلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ من أين علمت أنى لا أشاء أن أغفر ؟ قال : فما استطاع أن يرد على شيئاً )<sup>(٢)</sup> .

وبغض النظر عن قبول التوبة أو عدمها فإننا أمام كبيرة من أعظم الكبائر ، افترنت بالشرك بالله ، وكانت عقوبتها : ﴿ .. فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعْدَلَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

وحتى لا تكرر المأساة في قتل المؤمنين المشكوك في إيمانهم ، فيقع القتل على المؤمن دون المنافق ، جاءت الآية الثالثة التي تنهى عن نفي الإيمان عنمن ألقى السلام وزعم أنه مسلم .

(أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والنسائي ، وأبي النذر ، وأبي حاتم ، عن ابن عباس قال : (لحق ناس من المسلمين رجلاً معه غنيمة له فقال : السلام عليكم . فقتلوه وأخذوا غنيمته ، فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ عَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال : تلك الغنيمة )<sup>(٣)</sup> .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والطبراني ، والترمذى وحسنه ، وعبد بن حميد وصححه ، وأبي جرير ، وأبي النذر ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : ( مر

. (٢) المصدر نفسه / ٦٢٨ .

(١) الدر المنشور / ٢٠ / ج ٥ / ٦٢٥ .

(٣) الدر المنشور / ٥ / ٦٣٢ .

رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنمًا له ، فسلم عليهم ، فقالوا : ما سلم علينا إلا ليتعدنا ، فعمدوا له فقتلوه ، وأتوا بعنه للنبي ﷺ فنزلت الآية : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم﴾ الآية<sup>(١)</sup> .

ولبيان قوله تعالى : ﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم﴾ نأخذ هذه الرواية : أخرج البزار ، والدارقطني في الأفراد ، والطبراني ، عن ابن عباس قال :

(بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود ، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا ، وبقي رجل له مال كثير لم يبح ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فأهوى إليه المقداد فقتله ، فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ؟ ! والله لأذكرون ذلك للنبي ﷺ ، فلما قدموا على رسول الله قالوا : يا رسول الله ، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد ، فقال : «ادعوا إلى المقداد» فقال : «يا مقداد ، أقتلت رجلاً يقول : لا إله إلا الله ، فكيف لك بلا إله إلا الله غدأ؟» ، فأنزل الله : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾ إلى قوله : ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ . قال : فقال رسول الله ﷺ للمقداد : «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته ، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل»<sup>(٢)</sup> .

وقد ضبطت هذه الآيات هذا الموضوع ضبطاً محكماً ، بعد عدد من التصرفات الفردية واجتهاادات بعض الصحابة رضي الله عنهم في قتل من شكوا بإسلامه خوفاً من القتل ، أو ألقى السلام عليهم ليضمن ماله ونفسه ، أو احتللت النوازع الشخصية والثار بعملية الجهاد في سبيل الله ، ولعل هذا المعنى الأخير بحاجة إلى شاهد عليه ، نسقه لتتضطلع الجوانب كاملة :

أخرج ابن حجرير ، عن ابن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ محلم ابن جثاثة مبعثاً ، فلقيهم عامر بن الأضبيط ، فحياتهم بتحية الإسلام ، وكانت بينهم إحنة في الجاهلية ، فرمى محلم بسهم قتله ، ف جاء الخبر إلى رسول الله ﷺ ، ف جاء محلم في بردين . فجلس بين يدي النبي ﷺ ليستغفر له ، فقال : «لا غفر الله لك» فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه . فما مضت به ساعة حتى مات ودفنه فلقيته الأرض . فجاءوا النبي ﷺ فذكروا بذلك له ،

(٢) المصدر نفسه / ٦٣٣ ، ٦٣٤ .

(١) الدر المثور / ٥ / ٦٣٢ .

فقال : « إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ، ولكن الله أراد أن يعظكم » ثم طرحوه وألقوا عليه الحجارة ، فنزلت : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم .. ﴾ الآية (١) .

إننا ونحن نسوق هذه النصوص المتعددة ، يمثل في ذهتنا بعض التجارب الإسلامية والتي قامت لتحكيم شريعة الله في الأرض في واقعنا المعاصر ، لكنها لم تضبط هذه الأمور بالميزان الشرعي الدقيق ، فأخفقت رغم عظم التضحيات التي قدمتها . وحين تتناول الحديث في هذه النصوص لا يغيب الهدف الرئيسي أبداً عن البال ، وهو : أننا نود أن نقدم الصورة المثالبة الرائدة للجهاد في سبيل الله ، في جميع مراحله من خلال كتاب الله تعالى وسيرة نبيه ﷺ - التي تمثلت فيها هذه النصوص - لتكون بين يدي أبناء الحركة الإسلامية قادة وجنوداً ؛ لينهجوا على مثالها ، وينسجوا على منوالها في محاولة استئناف الحياة الإسلامية في الأرض من جديد .

## دعوة إلى الجهاد من جديد

وإذا كانت الآيات الأولى تدعو على سبيل الحض والأمر للجهاد ، فهنا تتحدث الآيات في محورين اثنين :

المحور الأول : ما أعد الله من الثواب للمجاهدين في سبيله .

المحور الثاني : عقوبة المتخلفين عن الجهاد .

﴿ لا يُستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعددين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعددين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيمًا ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ لا يُستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله ﴾  
ـ (أخرج ابن سعد ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وأبو داود ، والترمذى ،  
وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو نعيم فى الدلائل ، والبيهقى من طريق ابن شهاب قال :  
حدثى سهل بن سعد الساعدى أن مروان بن الحكم أخبره ، أن زيد بن ثابت  
أخبره ، أن رسول الله ﷺ أملى عليه : « لا يُستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في  
سبيل الله » فجاء ابن أم مكتوم وهو يملئها على فقال : يا رسول الله ، لو أستطيع المجاهدة  
ـ وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخذى فقلت على  
حتى خفت أن ترض فخذى ، ثم سرى عنه فأنزل الله ﷺ غير أولى الضرر ﴾<sup>(٢)</sup> قال  
الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال : وفي هذا الحديث روایة رجل من الصحابة  
ـ وهو سهل بن سعد عن رجل من التابعين وهو مروان بن الحكم لم يسمع من النبي  
ﷺ<sup>(٢)</sup> .

ويؤكد زيد رضى الله عنه هذه الصورة فى روایة أخرى فيقول : (أنزلها الله

(١) النساء / ٩٥، ٩٦ . (٢) الدر المشور / ٥، ٦٣٩، ٦٤٠ .

ووحدها ، فألحقتها ، والذى نفسي بيده لكانى أنظر إلى ملحقها عند صدع من كتف )<sup>(١)</sup> .  
 ومع أن الله تعالى أنزل من فوق سمواته عذر ابن أم مكتوم وأمثاله عن jihad ، لكن  
 أثر الآية كان يشتعل في أعماقه ، فيضم إلى المجاهدين في سبيل الله ، كما تحدثنا الرواية  
 التالية : ( وأخرج ابن سعد ، وابن المنذر ، عن طريق ثابت بن عبد الرحمن بن أبي ليلى  
 قال : لما نزلت ﴿لا يُسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ قال ابن أم  
 مكتوم : أى رب ، أين عذرى ؟ أى رب ، أين عذرى ؟ فنزلت : ﴿غَيْرُ أُولَئِكَ الظَّرَرُ﴾  
 فوضعت بينها وبين الأخرى ، فكان بعد ذلك يغزو ويقول : ادفعوا إلى اللواء ، وأقيموا  
 بين الصفين فإني لن أفر )<sup>(٢)</sup> .

ولتعلم حسن هذا الاستثناء في الجيل الإسلامي من التابعين ، ننقل ما رواه السيوطي  
 رحمة الله في هذا الصدد :

(أخرج ابن فهر في كتاب فضائل مالك ، وابن عساكر من طريق عبد الله بن رافع ،  
 قال : قدم هارون الرشيد المدينة ، فوجه البرمكي إلى مالك وقال له : احمل إلى الكتاب  
 الذي صنته حتى أسمعه منك . فقال للبرمكي : أقرئه السلام وقل له : إن العلم يزار ولا  
 يزور ، وإن العلم يؤتى ولا يأتي . فرجع البرمكي إلى هارون فقال له : يا أمير المؤمنين ،  
 يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك فخالفك ، اعزهم عليه حتى يأتيك ، فإذا به مالك قد  
 دخل وليس معه كتاب وأتاه مُسِلِّماً فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله جعلك في هذا الموضع  
 لعلمك فلا تكن أول من يضع العلم فيضعفك الله ، ولقد رأيت من ليس في حسبك ولا  
 يبيث يعز هذا العلم ويجله فأنت أحرى أن تعز وتجل علم ابن عمك ، ولم يزل يعدد عليه  
 من ذلك حتى بكى هارون ثم قال :

أخبرني الزهرى ، عن خارجة بن زيد قال : قال زيد بن ثابت : كنت أكتب بين يدي  
 النبي ﷺ في كتف : ﴿لا يُسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ وابن أم مكتوم  
 عند النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، قد أنزل الله في فضل jihad ما أنزل ، وأنا رجل  
 ضرير فهل لي رخصة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا أدرى » قال زيد بن ثابت : وقلت  
 رطب ماجف حتى غشى النبي ﷺ الوحي ، ووقع فخذه على فخذى حتى كادت تدق  
 من ثقل الوحي ، ثم جلى عنه فقال لي : « اكتب يا زيد : ﴿غَيْرُ أُولَئِكَ الظَّرَرُ﴾ .  
 فيما أمير المؤمنين حرف واحد بعث به جبريل والملائكة عليهم السلام من مسيرة  
 خمسين ألف عام حتى أنزل على نبيه ﷺ ، أفلأ ينبغي لي أن أغزه وأجله )<sup>(٣)</sup> .

. (٢) المصدر نفسه / ٦٤٠، ٦٣٩ / ٥ (٣)

. (١) الدر المشور / ٥٠٦٤٣ / ٦٤٣، ٦٣٩

﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ :

(أخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في الآية قال :

لايستوى في الفضل القاعد عن العدو والمجاهد ، ﴿ درجة ﴾ يعني فضيلة ، ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ المجاهد والقاعد المدعور ، ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين ﴾ الذين لا عذر لهم ﴿ أجرًا عظيمًا ﴾ )<sup>(١)</sup> .

﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيمًا ﴾ :

فما هي هذه الدرجات ؟

أخرج ابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾ قال : ذكر لنا أن معاذ بن جبل كان يقول : إن للقتيل في سبيل الله له ست خصال من خير : أول دفعه من دمه يكفر بها عن ذنبه ، ويحلى عليه حلة الإيمان ، ثم يفوز من العذاب ، ثم يأمن من الفزع الأكبر ، ثم يسكن الجنة ، ويزوج من الحور العين )<sup>(٢)</sup> .

وقد ورد هذا النص في حديث صحيح عن رسول الله ﷺ هذا نصه :

« للشهيد عند الله سبع خصال : يغفر له في أول دفعه من دمه ، ويرى مقعده في الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوفقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويشفع في سبعين إنسانا من أهل بيته »<sup>(٣)</sup> .

وإذا كان هذا الفضل وهذه الدرجات للشهيد ، فهل يفوت هذا الأجر من جاهد ولم يستشهد ؟

بالتأكيد لا ، وهذه النصوص التي نقلها لنا السيوطي توضح هذا المعنى :

أخرج البخاري والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله تعالى فسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة »<sup>(٤)</sup> .

(١) المصدر نفسه / ٦٤٣ . (٢) المصدر نفسه / ٦٤٤ .

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجة / ٢٧٩٩ . انظر صحيح الجامع الصغير للألبانى الحديث . ٥٠٨٥ .

(٤) البخارى / م / ٢ / ج ٤ كتاب الجهاد والسير باب ٤ / ص ١٨ .

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي والحاكم عن أبي سعيد ، أن رسول الله ﷺ قال : « من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، وجبت له الجنة » فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها على يا رسول الله ، فأعادها عليه . ثم قال : « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » . قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » <sup>(١)</sup> .

ونحن بحاجة إلى أن نرى فعل هذه النصوص في هذا المجتمع النبوى ، فنعيش المرحلة التي تزلت بها الآيات ، ونربط بين صدر هذه الآيات التي دعت إلى الجهاد ولو كان رسول الله ﷺ وحده :

**﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكشف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تحكلاً﴾** <sup>(٢)</sup> .

وبين تحريض المؤمنين على الجهاد وفضل المجاهدين ، دور الجهاد في كف بأس العدو .

ولن تتضح هذه الصورة إلا بالعودة إلى المدينة نفسها ، فنشهد غزوة بدر الموعد على رأس عام من أحد ، وبعد أشهر من محتوى الرجيع وغير معونة ، والتي كانت في هلال ذى القعدة على رأس خمسة وأربعين شهراً مضيين للهجرة ، وغاب رسول الله ﷺ فيها ست عشرة ليلة ورجع إلى المدينة لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة .

وقد اخترنا رواية الواقدى ، لما فيها من إيضاحات وزيادات هامة تنقل الوضع النفسي والتعcant للجيش الإسلامي قبيل ذلك <sup>(٣)</sup> :

(لما أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم أحد نادى : موعدُّ يَبْنَتَا وَيَبْنَكُم بدر الصفراء رأس الحول ، نلتقي فيه فنقتل . فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « قل : نعم إن شاء الله ... » ، فافترق الناس على ذلك ، ورجعت قريش فخبروا من قبلهم بالموعد ، وتهيؤوا للخروج وأجلبوا ، وكان هذا عندهم أعظم الأيام ، لأنهم رجعوا من أحد والدولة لهم ، طمعوا في بدر الموعد أيضاً بمثل ذلك الظفر ، وكانت بدر الصفراء مجمعاً يجتمع فيه العرب وسوقاً تقوم لهلال ذى القعدة إلى ثمان ليالٍ خلون منه ، فإذا

(١) مسلم / ج ٣ / ح - ١٨٨٤ ص ١٥٠١ كتاب الإمارة . (٢) النساء / ٨٤ .

(٣) وردت في كتب السير جيماً . وهي عند ابن هشام في السيرة / م ٢٠٩ ، ٢١٠ .

مضت ثمان لیال منه تفرق الناس إلى بلادهم ، فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وجعل يحب أن يقيم رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة ولا يوافقون الموعد . فكان كل من ورد عليه مكة يريد المدينة أظهر له : إنما نريد غزو محمد في جمع كثيف ، فيقدم القادر على أصحاب رسول الله ﷺ فيراهم على تجهيز يقول : تركت أبي سفيان قد جمع الجموع ، وسار في العرب ليسير إليكم لموعديكم فيكره ذلك المسلمين ويبيهيم ذلك . ويقدم نعيم بن مسعود الأشعري مكة ، فجاءه أبو سفيان بن حرب في رجال من قريش فقال : يا نعيم ، إني وعدت محمداً وأصحابه يوم أحد أن نلتقي نحن وهو يدر الصفراء على رأس الحول وقد جاء ذلك . فقال نعيم :

ما أقدمني إلا ما رأيت محمداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكراع ، وقد تجلب إليه حلفاء الأول من بلى وجهينة وغيرهم ، فترك المدينه أمس وهي كالرمانة فقال أبو سفيان : أحقاً ما تقول ؟ قال : أى والله . فجزوا نعيمًا خيراً ووصلوه وأعانوه فقال أبو سفيان : أسمعك تذكر ماتذكر ، ما قد أعدوا وهذا عام جدب . قال نعيم : الأرض مثل ظهر الترس ليس فيها لبعير شيء - وإنما يصلحنا عام خصب غيرها ترعى فيه الظهر والخيل ، ونشرب اللبن ، وأنا أكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيجرئون علينا ، ويكون الخلف من قبلهم أحب إلى ، ونجعل لك عشرين فريضة<sup>(١)</sup> ، عشراً أخذاعاً<sup>(٢)</sup> ، وعشراً حقاقاً<sup>(٣)</sup> وتوضع لك على يدي سهيل بن عمرو ويضمنها لك . قال نعيم : رضيـت .

وكان سهيل صديقاً لنعيم فجاء سهيل فقال : يا أبا يزيد ، تضمن لي عشرين فريضة على أن أقدم المدينة فأخذل أصحاب محمد ؟ قال : نعم . قال : فإني خارج ، فخرج على بعير حملوه عليه ، وأسرع السير قدم وقد حلق رأسه معتمراً ، فوجد أصحاب رسول الله ﷺ يتجهزون ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من أين يأنعم ؟ قال : خرجت معتمراً إلى مكة ، فقالوا : لك علم بأبي سفيان ؟ . قال : نعم ، تركت أبي سفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب ، فهو جاء بما لا قبل لكم به ، فأقيموا ولا تخرجو ، فإنهم قد أتواكم في دياركم وقراركم ، فلن يفلت منكم إلا الشريد ، وقتل سراتكم وأصاب محمدًا في نفسه ما أصابه من الجراح ، فتريدون أن تخرجو إليهم فتقتلواهم في موضع

(١) الفريضة : العطية الموسمية المعلمة ، (٢) المذدعة : من الإبل مدخل في الخامسة .

(٣) الحقة : من الإبل مدخل في السنة الرابعة إلى آخرها أى استحق الركوب .

من الأرض؟ بئس الرأى رأيتم لأنفسكم ، وهو موسم يجتمع فيه الناس ، والله ما أرى أن يفلت منكم أحداً ! وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول الله عليه السلام حتى ربّهم وكراه إليهم الخروج حتى نطقوها بتصديق نعيم ، أو من قد نطق منهم ، واستبشر بذلك المافقون واليهود قالوا : محمد لا يفلت من هذا الجمع ! واحتمل الشيطان أولياءه من الناس لخوف المسلمين حتى بلغ رسول الله عليه السلام ذلك ، وتظاهرت به الأخبار عنده ، حتى خاف رسول الله ألا يخرج معه أحد ، فجاءه أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، وعمر ابن الخطاب رضي الله عنه وقد سمعا ما سمعا فقالا : يا رسول الله ، إن الله مظهر دينه ، ومعز نبيه ، وقد وعدنا القوم موعداً ونحن لا نحب أن تختلف عن القوم ، فيرون أنَّ هذا جبن منا عنهم ، فسر لوعدهم ، فوالله إن في ذلك لحيرة !

فسر رسول الله عليه السلام بذلك ثم قال : « والذى نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد » ، قال : فلما تكلم رسول الله عليه السلام تكلم بما بصر الله عز وجل المسلمين ، فأذهب ما كان ربّهم الشيطان ، وخرج المسلمون بتجارات لهم إلى بدر .

فحدثت عن يزيد عن خصيفة قال : كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول لقد رأينا وقد قذف الرعب في قلوبنا ، فما أرى أحداً له نية في الخروج ، حتى أنهج الله تعالى للمسلمين بصائرهم ، وأذهب عنهم تخويف الشيطان ، فخرجوها فلقد خرجت بيضاعة إلى موسم بدر فربحت للدينار ديناراً ، فرجعنا بخير وفضل من ربنا .

فسار رسول الله عليه السلام في المسلمين وخرجوا بيضاع لهم ونفقات ، فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذى القعدة ، وقام السوق صبيحة الهلال ، فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة ، وكان رسول الله عليه السلام قد خرج بألف وخمسين من أصحابه ، وكانت الخيل عشرة أفراش : فرس لرسول الله عليه السلام وفرس لأبي بكر ، وفرس لعمر ، وفرس لأبي قتادة ، وفرس لسعيد بن زيد ، وفرس للمقداد ، وفرس للحباب ، وفرس للزبير ، وفرس لعبد بن بشر .

فحدثنى على بن زيد عن أبيه قال : قال المقداد : شهدت بدر الموعد على فرس سبحة ، أركب ظهرها راكباً وراجعاً ، فلم يلق كيداً ، ثم إن أبي سفيان قال : يامعشر قريش ، قد بعثنا نعيم بن مسعود لأن يخذل أصحاب محمد عن الخروج وهو جاهد ، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع ، فإن كان محمد لم يخرج بلغه أنا خرجنا فرجعنا لأنَّه لم يخرج فيكون هذا لنا عليه ، وإن كان خرج أظهرنا أنَّ هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب ، قالوا : نعم ما رأيت فخرج في قريش وهم ألفان ومعهم

خمسون فرسأً ، حتى انتهوا إلى مجندة . ثم قال : ارجعوا لا يصلحنا إلا عام خصب غيداق ، نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا ، فسمى أهل مكة ذلك الجيش : جيش السوق ، يقولون : خرجوا يشربون السوق .

وكان يحمل لواء رسول الله ﷺ الأعظم يومئذ على بن أبي طالب ، وأقبل رجل من بني ضمرة يقال له مخشي بن عمرو ، وهو الذي حالف رسول الله ﷺ على قومه في غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى ودان فقال — والناس مجتمعون في سوقهم وأصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل الموسم — :

يامحمد ، لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما أعلمكم إلا أهل الموسم ، فقال رسول الله ﷺ - ليرفع ذلك إلى عدوه من قريش - :

« ما أخرجنا إلا موعد أبي سفيان وقاتل عدونا ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد ، ثم جالدناكم قبل أن نبرح من موسمنا هذا » فقال الضمرى : بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك .

وسمع بذلك معبد بن أبي معد الخزاعي ، فانطلق سريعاً ، وكان مقيناً ثمانية أيام ، وقد رأى أهل الموسم ، ورأى أصحاب رسول الله ﷺ ، وسمع كلام مخشي ، فانطلق حتى قدم مكة فكان أول من خبر بموسم بدر ، فسألوه ، فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد ، وأنهم أهل ذلك الموسم ، وما سمع من قول رسول الله ﷺ للضمرى ، وقال : وافي محمد في ألفين من أصحابه ، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدع أهل الموسم ، فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان :

قد والله نهيتك أن تعد القوم ، ولقد اجترؤوا علينا ، ورأوا أنا قد أخلفناهم ، وإنما خلّفنا الضعف عنهم .

فأخذوا في الكيد والنفقة في قتال رسول الله ﷺ ، واستجلبوا من حولهم من العرب ، وجمعوا الأموال العظام ، وضرموا البعث على أهل مكة ، فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتي بما قل أو كثر ، فلم يقبل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخندق .

وأنزل الله عز وجل : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾<sup>(١)</sup> الآية ،

(١) آل عمران / ١٧٣ .

يعنى : نعيم بن مسعود .

وقال كعب بن مالك :

لموعده صدقأً وما كان وافيأً  
وعدنا أبا سفيان بدرأً فلم نجد  
رجعت ذميمأً وافتقدت الموليا  
فأقسم لو وافيتا فلقيتنا  
وعمرأً أبا جهل تركناه ثاوية  
تركتها بها أو صالح عتبة وابنه  
وأمركم السيء الذى كانا غاويا  
عصيتم رسول الله أَفْ لِدِينِكُمْ  
فدي لرسول الله أهلى ومالي  
وإني وإن عنفتموني لقائل  
أطعنا فلم نعدل سواه بغيره  
شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديا )<sup>(١)</sup>

ونقدم بعض الملاحظات حول الغزوة ، تجلّى بعض المعانى فيها ، فترتبطها بالنص القرآنى :

١ - كانت الآيات القرآنية تدعو المسلمين إلى قتال المشركين ، وتحرص بالذكر مشركي مكة ، وهم الذين أوقعوا الحسنة الرهيبة بال المسلمين :

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تقاتلون فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلْدَانِ  
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبُّنَا أَخْرَجَنَا مِنْ هَذِهِ الْقُرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَا وَاجْعَلْ  
لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ )<sup>(٢)</sup>.

فكانت غزوة بدر الموعد استجابة لهذا التوجيه القرآنى ، ووفاء للوعد مع أبي سفيان ، والعرب لا يمكن أن تدين محمد ﷺ ، وقريش في شوكتها وقوتها ، فهي تنتظر أي الفريقين يتتصير حتى تكون معه .

٢ - يتضح الموقف العربي تماماً بعد أحد وغير معونة والرجوع ، وصدى هذه الواقع على القبائل العربية المجاورة - من خلال كلام مخسى :

لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما أعلمكم إلا أهل الموسم .  
ومن خلال كلام نعيم :

. ٧٥ ) النساء / ٢( .

٣٨٤ - ٣٨٩ ) ١ / المغازي للواقدي ( .

فإنهم قد أتوكم في داركم وقراركم فلن يفلت منكم إلا الشريد ، وقتلت سراتكم ، وأصابوا مهداً في نفسه وأصابوا من الحراج .

وهذا الكلام يعكس الرأي العام العربي الذي تحول كله لصالح قريش بعد أحد .

٣ - وكان للحرب النفسية دورها في هذه المعركة خاصة ، وفي البيئة العربية عامة ، فأبو سفيان وهو عازم على عدم الخروج لبدر يعطي عشرين من الإبل لنعميم بن مسعود ، ليبلغ محمدًا وصحابه رسالة كاذبة عن خروجه .

ويخرج وجيشه في استعراض مسرحي مسيّرة ليلة أو ليلاً لينسامع العرب بخروجهم ، وأبو جهل يوم خرج إلى بدر قبل عامين قال :

والله لأنرجم حتى نرد بدرًا ، ونقيم بها ثلاثة ، فشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

ولهذا وجدنا أن بعض الروايات المأثورة عن قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوكُمْ﴾ أنها نزلت في نعيم بن مسعود الأشجعى يوم نقل رسول الله ﷺ نبأ تجمع قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وقد رویت عن مجاهد وعكرمة والسدى وهذه أحدها :

( وأخرج سعيد بن منصور ، وابن حجرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن عكرمة قال :

كانت بدر متجرأ في الجahiliyah ، وكان رسول الله ﷺ واعداً أبا سفيان أن يلقاء بها ، فلقيهم رجل فقال له : إن بها جمعاً عظيماً من المشركين ، فأما الجبان فرجم ، وأما الشجاع فأخذ أهبة التجارة وأهبة القتال وقالوا ﴿حسِبْنَا اللَّهَ وَنَعَمُ الْوَكِيلُ﴾ ثم خرجوا حتى جاءوها فتسوقوا بها ولم يلقوا أحداً فنزلت : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ إلى قوله : ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ﴾ )<sup>(١)</sup> .

( وأخرج بن حجر عن السدى : قال : أعطى رسول الله ﷺ حين خرج إلى غزوة بدر الصغرى بدر دراهم ابتعدوا بها من موسم بدر ، فأصابوا تجارة ، فذلك قول الله : ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَعْسِمْهُمْ نَسُوءُهُ﴾ قال : أما النعمة فهي العافية ، وأما الفضل فالتجارة ، والسوء القتل )<sup>(٢)</sup> .

(١) (٢) الدر المثور / ٤ / ٣٨٩ و ٣٩١ .

٤ - ﴿فَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلُفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إِذ وَجَدَنَا مَصْدَاقَ هَذِهِ الصُّورَةِ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُخْرِجُنَّ وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِي أَحَدٌ» . وَفِي نَصِّ الرَّوَايَةِ : «هَتَىٰ خَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا يُخْرُجَ مَعَهُ أَحَدٌ» .

٥ - وَبَلَغَ مِنْ تَحْرِيْضِ الرَّسُولِ ﷺ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَىِ الْقَتَالِ وَالْتَّهْبِيْضِ الْقَرآنِيِّ عَلَىِ أَجْرِ الْمَجَاهِدِينَ ، أَنْ تَحْرُكَ جَيْشَ قَوَامِهِ أَلْفَ وَخَمْسَمِائَةَ مَقَاتِلًا إِلَى بَدْرِ الْمَوْعِدِ ، وَفَشَّلَتْ عَمَلِيَّةُ التَّرْعِيبِ وَالتَّخْوِيفِ وَالْإِشَاعَاتِ الَّتِي أَطْلَقَهَا أَبُو سَفِيَّانُ وَهُوَ ضَعْفُ جَيْشِ أَحَدٍ .

٦ - وَانْقَلَبَتْ بَعْدَ بَدْرِ الْمَوْعِدِ السَّاحَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَبَّتِ الْعَرَبُ مُحَمَّداً ﷺ بَعْدَهَا ، وَسَرِّيَ فِي صَفَّهَا جَبَنُ قَرِيشٍ عَنْ لَقَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَرَأَيْنَا ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ مُخْشِيِّ بْنِ عُمَرَ الْضَّمِيرِ :

لَقَدْ أَخْبَرْنَا أَنَّهُ لَمْ يَقِنْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، فَمَا أَعْلَمُكُمْ إِلَّا أَهْلُ الْمَوْسِمِ .

وَقَوْلُ مَعْدِ بْنِ أَبِي مَعْدٍ الْخَزَاعِيِّ لِأَبِي سَفِيَّانَ بَعْدَ بَدْرِ الْمَوْعِدِ :

وَافِي مُحَمَّدٍ فِي الْأَلْفَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَقَامُوا ثَمَانِيَّةَ أَيَّامٍ حَتَّىٰ تَصْدَعَ أَهْلُ الْمَوْسِمِ .

وَمَضَتِ الرَّكْبَانُ بِشِعْرِ كَعْبَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وَعَدْنَا أَبَا سَفِيَّانَ بَدْرًا فَلَمْ نَجِدُ  
لِمَوْعِدِهِ صَدَقًا وَمَا كَانَ وَالْيَا

رَجَعْتُ ذَمِيمًا وَافْقَدْتُ الْمَوَالِيَا  
فَأَقْسَمْ لَوْ وَافِيتَنَا فَلَقِيتَنَا

٧ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصْلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيَثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصْرَتْ صَدُورَهُمْ أَنْ يَقْاتِلُوكُمْ أَوْ يَقْاتِلُوْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسْلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (١) .

يَتَضَعَّفُ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ تَعَامِلًا مِنْ خَلَالِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَ حَلْفَائِهِ بْنِ ضَمْرَةِ وَقَائِدِهِمْ مُخْشِيِّ بْنِ عُمَرَ الَّذِي حَضَرَ مَوْسِمَ بَدْرٍ ، وَالنَّفْسِيَّةُ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا : لَقَدْ أَخْبَرْنَا أَنَّهُ لَمْ يَقِنْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَتَوَجَّسَ مِنْ مُخَالَفَتِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ قَرِيشٍ بَعْدَ مَحْنَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدٍ ، وَكَيْفَ كَانَ الْمَوْقِفُ الْصَّلْبُ مِنْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

- يَامُحَمَّدٌ ، لَقَدْ أَخْبَرْنَا أَنَّهُ لَمْ يَقِنْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، فَمَا أَعْلَمُكُمْ إِلَّا أَهْلُ الْمَوْسِمِ .

– ما أخر جنا إلا موعد أبي سفيان وقتل عدونا ، وإن شئت مع ذلك نذننا إليك وإلى قومك العهد ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا .

– بل نكف أيدينا عنكم ، ونترك بحلفك .

﴿ جاؤوكم حضرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا ﴾ .

٨ – ونجد الصورة الأخيرة للمنافقين كذلك من خلال موقف نعيم بن مسعود ، الذي كان يتكلم بطلاقه يوم أرعب أبي سفيان وصحابه من جيش محمد ﷺ وعاد مأجوراً لأبي سفيان ليؤدي الدور المعاكس ، فيفت في أعضاد الناس ، ويخذل عن رسول الله ﷺ ، وكاد أن يتوجه لولاثات رسول الله ﷺ والمؤمنين معه .

﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركساوها فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكتفوا أيديهم فخذلهم واقتلوهم حيث ثقفتهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ .

(أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن السدى قال : ثم ذكر نعيم بن مسعود الأشجاعي ، وكان يؤمن في المسلمين والمشركين بنقل الحديث بين النبي ﷺ والمشركين فقال : ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة .. ﴾ يقول : إلى الشرك )<sup>(١)</sup> .

ولا غرو أن يهدد بالقتل مع قومه ، بعد الدور الرهيب الذي أداه حتى كاد أن يقعد المسلمين عن الجهاد .

٩ – ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تكيلاً ﴾ .

وصدق الله العظيم ، فقد كف الله بأس الذين كفروا ، وأنزعهم من الخروج إلى بدر ، وخذلهم دون حرب دون مواجهة ، وربع المسلمين الجولة دون قتال ، وانقلبوا بنعمه من الله وفضل ، وذلك بالثبات على الحق ، والتغير للجهاد في سبيل الله ، وتحولت النتيجة إلى مفعم ومكسب مادي ، وهزيمة معنوية للمشركين .

---

(١) الدر المثور / ٥ ، ٦١٤ ، ٦١٥ .

## دعاة إلى الهجرة

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِبِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمْ كَنْتُمْ قَالُوا كَنَا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَا جَرَوْا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ لَا يُسْتَطِعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرْ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا وَمَنْ يَهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مَراغِمًا كَثِيرًا وَسَعْةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾<sup>(١)</sup>

وإذا كانت دعوة المؤمنين للجهاد لتحرير المستضعفين في مكة من الرجال والنساء والولدان ، فقد وجهت الدعوة إلى المستضعفين لكي يساهموا هم أنفسهم بتحرير أنفسهم ، وعدم الخنوع والقبول بالذل الذي يعانونه من أسيادهم الطغاة ، وأن قبولهم لفتنة الكفار لهم ، يجعلهم في عداد الكافرين ، وهي دعوة إلى كل المسحوقين والمستضعفين والمحاربين في الأرض ليعلنوا المواجهة والتجمع ضد الظالمين ، وأنهم لانصيب لهم في الإيمان إن بقوا جزءاً من المجتمع الجاهلي الكافر بهم يحارب المؤمنين ، وبهم يبسط سلطانه .

وننظر فيما نزلت هذه الآيات :

﴿أَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ وَالسَّائِئُ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمَنْذُرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدُوِيَّهِ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَتِهِ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشَرِّكِينَ يَكْشُرُونَ سَوْدَانَ الْمُشَرِّكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَأْتِي السَّهْمُ يَرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيُقْتَلُهُ، أَوْ يَضُربُ فَيُقْتَلُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِبِي أَنفُسِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>

( وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردوه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخر جهنم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم وبعض ، فقال المسلمون : قد كان

(١) النساء : ٩٧ - ١٠٠ . (٢) الدر المنثور / ٥ / ٦٤٠ .

أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغروا بهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تُوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمٍ أَنفُسَهُمْ ۚ ۝ إِلَى آخر الآية . قال : فكتب إلى من بقى من المسلمين بمكة بهذه الآية ، وأنه لا عذر لهم فخرجوها ، فللحقهم المشركون فأعطوه الفتنة فأنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ۚ ۝ إِلَى آخر الآية . فكتب المسلمين إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير ، فنزلت فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَحْنَا لَهُمْ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ ۝ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجًا فخرجوها ، فخرجوها فأدر كفهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل ) <sup>(٢)</sup> .

وتحدد بعض الروايات أسماءهم وأعيانهم .

كما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن جرير عن عكرمة في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تُوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ۚ ۝ إِلَى قوله : ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۚ ۝ قال :

( نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبي العاص بن منبه بن الحجاج ، وعلى بن أمية بن خلف ، قال : لما خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب وغير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأن يطلبوا مانيل منهم يوم نخلة ، خرجوا معهم بشبيان كارهين كانوا قد أسلموا ، واجتمعوا بيدر على غير موعد ، فقتلوا بيدر كفاراً ، ورجعوا عن الإسلام وهم هؤلاء الذين سميوا بهم ) <sup>(٣)</sup> .

ونعيد إلى الذاكرة أن هؤلاء النفر هم الذين سماهم القرآن - منافقين - في سورة الأنفال ، بقوله عز وجل :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ غَرَّ هُؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۚ ۝ ) <sup>(٤)</sup> .

وحيث قد قتلوا بيدر كفاراً جاءهم هذا الوعيد الشديد ، لأمثالهم الذين يتظرون أن الإسلام يقبل منهم أن يكونوا في صف الكفار نصراً ومعونة وتائيداً ، ويency الإسلام في القلب ولإيضاح هذه الصورة نأخذ هذه الرواية عن السدي كما أخرجها ابن جرير قال :

(١) العنكبوت / ١٠ . (٢) الدر المنثور / ٥ / ٦٤٦ .

(٤) الأنفال / ٤٩ .

(٣) المصدر نفسه / ٦٤٣ .

(لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ :

« افْدُ نَفْسَكَ وَابْنَ أَخِيكَ ». قال : يارسول الله ، ألم نصل قبلتك ، ونشهد  
شهادتك ؟ قال : « ياعباس ، إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا عليه هذه الآية : ﴿ أَلَمْ  
تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَا جَرَوْا فِيهَا فَأَوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاعَتْ مَصِيرًا ﴾ ، فيوم  
نزلت هذه الآية كان من أسلم ولم يهاجر فهو كافر حتى يهاجر ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفُونَ ﴾  
الذين ﴿ لَا يُسْتَطِعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ حيلة في المال ، والسبيل الطريق . قال  
ابن عباس : كنت أنا من الولدان .

<sup>(١)</sup> وفي رواية عنه : كَتَأْنَا وَأُمِّي مِنَ الَّذِينَ لَا يُسْتَطِعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا

(ويضى هذا الحكم إلى آخر الزمان متتجاوزاً تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين ، وفي بيئة معينة . . . يضى حكماً عاماً ، يلحق كل مسلم تناه الفتنة في دينه في أية أرض ، وتمسكه بأمواله ومصالحه ، أو قراباته وصداقاته ، أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها متى كان هناك – في الأرض أى مكان – دار للإسلام يأمن بها على دينه ، ويجهر فيها بعقيدته ، ويؤدى فيها عباداته ، ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله ، ويستمتع بهذا المستوى الرفيع من الحياة )<sup>(٢)</sup> .

﴿وَمَنْ يَهَاجِرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعِةً﴾ :

( فلما رأى عبد الله بن عباس : التحول من أرض إلى أرض ، وفي الرواية الثانية عنه :  
النفسح بلغة هذيل ، واستشهد لها بقول الشاعر :

وأترك أرضي جهرة إن عندى رجاء فى المراغم والتعادى

و عند مجاهد: متزحزحأ عما يكره .

وَعِنْ الدُّنْدُلِيِّ : مُبْتَغٍ لِلْمَعِيشَةِ .

<sup>(٣)</sup> وعند قتادة : متحولاً من الضلال إلى الهدى ، ومن العيالة إلى الغنى ) .

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَدْرِكَهُ الْمَوْتُ فَقْدَ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ :

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبرى / ٣ / ٥ / ٤٩ .

(٢) في ظلال القرآن / ٢ / ٥ / ٧٤٥ . (٣) راجع الدر المنشور / ٥ ، ٦٥٠ .

فالله تعالى يكتب له أجر الجهاد وأجر المجاهدين ، منذ أن يعزم العزمه الصادقة ، ويصيغ في سبيل الله ، وقد يدركه الموت على الطريق ، قتلاً أو حتف أنه ، فلا ضير فقد تقبلته الملائكة عندها صديقاً شهيداً .

وحيث كان المسلم في حسه الإسلامي يمثل مدى التجاوب العميق مع هذه النصوص ، نلحظ صورة من صور هذا التجاوب كما (أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن أبي ضمرة بن العاص الزرقى الذى كان مصاب البصر و كان بمكّة ، فلما نزلت : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفُينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ لَا يُسْتَطِعُونَ حِيلَةً﴾ فقال : إننى لغنى ، إنى لذو حيلة ، فتجهز برید النبي ﷺ ، فأدركه الموت بالتعيم ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾) <sup>(١)</sup> .

وفي رواية عنه أنه أمر أهله أن يفرشو له على سريره ، ففرشو له وحملوا ، وانطلقوا به متوجهاً إلى المدينة ، فلما كان بالتعيم مات ، فنزل : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ .

وينطلق النص القرآني خارج المناسبة التي نزلت بها الآية ليعلنه عليه الصلاة والسلام حكماً على امتداد الزمان والمكان .

فعن عبد الله بن عتيك قال : سمعت النبي ﷺ يقول :

« من خرج من بيته مجاهداً في سبيله - وأين المجاهدون في سبيله - فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله ، أو مات حتف أنه فقد وقع أجره على الله - يعني بحتف أنه على فراشه ، والله إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ - ومن قتل عصباً فقد استوجب الجنة » <sup>(٢)</sup> .

(١) الدر المنشور / ٥ / ٦٥١ .

(٢) رواه أحمد / ٤ / ٣٦ ، والحاكم وصححه / ٢ / ٨٨ .

## صلاة الخوف

﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ولیأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائهم ولنات طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ولیأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودَ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيما يملون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطر أو كتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذلوا حذركم إن الله أعلم للكافرين عذاباً مهيناً . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأنتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقفاً﴾<sup>(١)</sup> .

في جو الجهاد ، وفي فرضية الصلاة ، وفرضية الجهاد ، وفي جو الغدر والمكر الذي أحاط بال المسلمين في المدينة ، في هذه الأحوال جاء حكم صلاة الخوف ، في تفصيل دقيق لا يختلف عن تفصيل آية الدين . متى تتم الصلاة؟ متى تقصر الصلاة؟ كيف تقصر الصلاة؟ كيف تتم الحراسة؟ متى يحمل السلاح؟ متى يوضع السلاح؟ متى يعاد إلى إقامة الصلاة؟

لقد ذهب أكثر الصحابة والتابعين بعدهم إلى أن المقصود في القصر في هذه الآية هو صلاة الخوف وليس صلاة السفر ، إلا عائشة وسعداً رضي الله عنهما حيث كان يتمان في السفر ، ويعتبران القصر وفقاً على الخوف .

( فقد أخرج ابن جرير عن ابن جرير قال : قلت لعطا : أى أصحاب رسول الله ﷺ كان يتم الصلاة في السفر؟ قال : عائشة وسعد بن أبي وقاص )<sup>(٢)</sup> .

ونجد روایة عن علی رضی الله عنه تزيل هذا اللبس أوردها ابن حجر في تفسیره وهي :

(١) النساء / ١٠١ - ١٠٣ . (٢) جامع البيان في تفسير القرآن / م / ٤ / ٥ - ٦ .

( سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله ، إننا نضرب في الأرض فكيف نصلى ؟ فأنزل الله : ﴿وَإِذَا ضربتم فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جَاهَ حَاجَ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ثم انقطع الوحي . فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ فصلى الظاهر ، فقال المشركون : لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم ؟ ! فقال قائل منهم : إن لهم مثلها أخرى في أثرها فأنزل الله بين الصالاتين : ﴿إِنْ خَفْتُمْ أَنْ يَفْتَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا . وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقْمِ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكُ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعْدَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف )<sup>(١)</sup>.

أما متى تمت الصلاة ؟ وكيف تمت ؟ فالروايات متعددة . هل كانت في غزوة ذات الرقاع ؟ أو في صلح الحديبية ؟ أو غيرهما ؟ والظاهر أنها تكررت مرات عديدة ، فروى كل راو بما شهد .

وعلى النهج الذي نسير عليه فيربط أحداث السيرة بآيات القرآن الكريم ، نلاحظ أن غزوة ذات الرقاع قد تمت في هذه المرحلة ، بعد أحد وقبل الخندق ، نستعرضها ، ثم نستعرض روایات التفسير في صلاة الخوف .

---

(١) المصدر نفسه / ١٥٥ .

## غزوة ذات الرقاع

أما ما ذكره ابن إسحاق عن الغزوة فهو :

(قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بنى النضير <sup>(١)</sup> شهر ربيع الآخر ، وبعض جمادى ، ثم غزا نجداً يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى <sup>(٢)</sup> - ويقال عثمان بن عفان ، فيما قاله ابن هشام - حتى نزل نخلاً <sup>(٣)</sup> وهى غزوة ذات الرقاع .

قال ابن هشام : وإنما قيل لها غزوة ذات الرقاع ؛ لأنهم رقعوا فيها راياتهم ، ويقال ذات الرقاع : شجرة بذلك الموضع يقال لها : ذات الرقاع .

قال ابن إسحاق : فلقي بها جمعاً عظيماً من غطفان ، فقارب الناس ، ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً ، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف <sup>(٤)</sup> .

ونلقى عند الواقدى تفصيلات أوضح وأهم نذكرها وهى كما وردت عنده :

(فإنما سمت ذات الرقاع ؛ لأنه جبل فيه بقع حمر وسود وبياض ، خرج رسول الله ﷺ ليلة السبت لعشرين خلون من المحرم على رأس سبعة وأربعين شهراً ، وقدم صراراً <sup>(٥)</sup> يوم الأحد لخمس بقين من المحرم ، وغاب خمس عشرة .

فحذثني الضحاك بن عثمان ، عن عبيد الله بن مقدم ، وحدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ، عن جابر ، وعن عبد الكريم بن أبي حفصة ، عن جابر ، وعبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر ، عن عبد الله بن أبي بكر ، ومالك بن أنس ، وعبد الله بن عمر ، عن

(١) أرجأنا الحديث عن بنى النضير ، رغم أنها تمت قبل غزوة ذات الرقاع ؛ لأنه نزل بها آيات خاصة هي سورة المحرق ، والتي مستحدث عنها بعد استيفاء الحديث عن آيات سورة النساء .

(٢) قال الزرقاني / ٢٩ : قاله ابن إسحاق وتعقبه ابن عبد البر بأنه خلاف ماعليه الأكثر بأن أبا ذر لما أسلم بمكة رجع إلى بلاده فلم يجيء إلا بعد الخندق .

(٣) موضع ينجد من أرض غطفان . (٤) السيرة النبوية لابن هشام / ٢٠٤ .

(٥) صرار : بقر قديمة ، على ثلاثة أميال من المدينة تقاء حرة واقم .

وَهُبْ بْنُ كِيْسَانَ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَقَدْ زَادَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْحَدِيثِ ،  
وَغَيْرُهُمْ قَدْ حَدَثُنِي بِهِ قَالُوا :

قَدْ قَادَمْ بِجَلْبِ لَهُ ، فَأَشْتَرَى بِسُوقِ النَّبْطِ ، وَقَالُوا : مَنْ أَينَ جَلَبْتِ جَلْبَكَ ؟ قَالَ :  
جَئْتُ مِنْ نَجْدٍ : وَقَدْ رَأَيْتُ أَهْمَاراً وَثَعْلَةً قَدْ جَمَعُوكُمْ جَمِيعاً ، وَأَرَاكُمْ هَادِينَ عَنْهُمْ (١) .  
فَبَلَغَ النَّبِيُّ ، فَخَرَجَ فِي أَرْبِعِمَائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَقَالَ قَائِلٌ : كَانُوكُمْ سَبْعَمَائَةً أَوْ ثَمَانَمَائَةً ،  
وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمَدِينَةِ ، حَتَّى سَلَكَ عَلَى الْمُضِيقِ ، ثُمَّ أَنْضَى إِلَى وَادِي الشُّقُورَةَ  
فَأَقَامَ بِهَا يَوْمًا وَبَثَ السَّرَايَا فَرَجَعُوكُمْ إِلَيْهِ مَعَ الْلَّيلِ ، وَخَبَرُوكُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَرُوا أَحَدًا وَقَدْ وَطَّئُوا  
آثَارًا حَدِيثَةً ، ثُمَّ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى أَتَى مَحَالَهُمْ ، فَيَجِدُونَ الْحَالَ لَيْسَ  
فِيهَا أَحَدٌ ، وَقَدْ ذَهَبَتِ الْأَعْرَابُ إِلَى رُؤُسِ الْجَبَالِ ، وَهُمْ يَطْلُوُنَ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ  
خَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَالْمُشْرِكُونَ مِنْهُمْ قَرِيبٌ ، وَخَافَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَغْيِرُوا عَلَيْهِمْ  
وَهُمْ غَارُونَ ، وَخَافَتِ الْأَعْرَابُ أَلَا يَرْجِعَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَسْتَأْصلُهُمْ ، وَفِيهَا صَلَى  
رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَلَاةُ الْخُوفِ . (٢) .

هذا هو الخط العام للغزو، وكما ذكرنا أن نرجيء الحديث عن صلاة الخوف إلى  
أن يتم استعراض جوانب الغزو، حيث بروز فيها بعض الحوادث الجزئية الهامة  
نذكرها تباعاً:

### أولاً : محاولة اغتيال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(قال شعيب عن الزهيرى : حدثنى سنان الدؤلى ، وأبو سلمة عن جابر ، أنه غزا مع  
رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل نجد ، فلما قفل قفل معه ، فأدركته القافلة في وادي كثير العضة (٣) ،  
فنزل وتفرق الناس في العضة يستظلون بالشجر ، وقال (٤) هو تحت شجرة ، فعلق بها  
سيفه ، فنمنا نومة ، فإذا رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعونا فأجبناه ، فإذا عندئه أعرابى جالس ، فقال  
رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ : «إِنَّ هَذَا اخْتَرْ طَسِيفٍ وَأَنَا نَائِمٌ ، فَاسْتِيقْظُ وَهُوَ بِيْدِهِ صَلَتْنَا». فقال : من  
يمنعك مني ؟ قلت : الله ». فشام السيف وجلس ، فلم يعاقبه رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد فعل  
ذلك .

(١) هكذا في سائر النسخ ، ولعله تسهيل أهل الحجاز للهمزة وأصلها (هادين) محقق المغازي / ٣٩٥ .

(٢) المغازي للواقدى / ١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ . وكل الروايات التي ستسوقها عنه هي من سنته السابق الذى ذكره آنفاً .

(٣) العضة : أعظم الشجر أو كل شجرة ذات شوك .

(٤) قال : نام .

وقال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث )<sup>(١)</sup> .

وفي رواية أخرى عن جابر قال : ( قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بتخل ، فرأوا من المسلمين غرة ، فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله ». فسقط السيوف من يده ، فأخذته رسول الله ﷺ ، فقال : « من يمنعك مني ؟ ». قال : كن خير آخذ . قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ». قال : لا ، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ، ولا تكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه فقال : جئتم من عند خير الناس )<sup>(٢)</sup> .

وفي رواية إسحاق إشارتان جديدتان :

**الأولى** : إن محاولة القتل كانت عن تواطؤ وتحطيم مشترك من غطفان ومحارب ، وليس حادثة فردية .

( عن جابر بن عبد الله : أن رجلاً من محارب يقال له غورث قال لقومه من غطفان ومحارب قال لقومه : ألا أقتل لك محمداً ؟ قالوا : بلـي ، وكيف تقتله ؟ قال : أقتله به . قال : فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيف رسول الله ﷺ في حجره فقال : يا محمد ، انظر إلى سيفك هذا ؟ قال : « نعم – وكان محلـي بفضـة » ، فيما قاله ابن هشام – فأخذـه واستـله ، ثم جعلـ يـهزـه ويـهمـ فيـكبـته الله ، ثم قال : يا محمد ، أما تخافـي ؟ قال : « لا ، وما أخـافـ منك ؟ » قال : أما تخافـي وفيـ يـديـ السـيف ؟ قال : « لا ، يـعنـيـ اللهـ منـكـ » )<sup>(٣)</sup> .

**الثانية** : إنه نزل قرآن في هذه الحادثة كما تقول تتمة الرواية :

( .. ثم عمـدـ إلىـ سـيفـ رسـولـ اللهـ ﷺ ، فـرـدـهـ عـلـيـهـ ، قالـ : فـأـنـزـلـ اللهـ :

﴿ يـأـيـهـاـ الـذـينـ آـمـنـواـ اـذـكـرـوـاـ نـعـمـةـ اللهـ عـلـيـكـمـ إـذـ هـمـ قـوـمـ أـنـ يـسـطـوـاـ إـلـيـكـمـ أـيـدـيـهـمـ فـكـفـ أـيـدـيـهـمـ عـنـكـمـ وـاتـقـوـ اللهـ وـعـلـيـ اللهـ فـلـيـتـرـ كلـ الـمـؤـمـنـونـ ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) المغارى للذهبي من تاريخ الإسلام ، تحقيق عمر عبد السلام التدمري . وقال عنه : متفق عليه وهو عند البخارى / م / ٤٧ / جـهـ / المغارى ، بـابـ غـزوـةـ ذاتـ الرـقـاعـ / ٤٧ . وقد ساق البخارى الغزوة بعد الخندق .

(٢) المغارى من تاريخ الإسلام للذهبي / ٢٤٨ .

(٣) المائدة / ١١ .

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن رومان : أنها أنزلت في عمر وابن جحاش أخي بنى التضير وما هم به ، فالله أعلم أى ذلك كان )<sup>(١)</sup>.

وهذه الرواية توجهنا إلى فائدتين هامتين :

**الأولى** : هي مدى التخطيط والتبييت لاغتيال رسول الله ﷺ ، وكيف أنه كان هدفاً رئيسياً عند العدو ، ولكن الله عصمه ، وهو يدفعنا إلى الخذر أكثر حيث لاعصمه لأحد ، وخاصة القيادات الإسلامية التي تكون هدفاً لمؤامرات العدو .

**الثانية** : عظمة المنة على الأمة بسلامة رسول الله ﷺ ، فقد جاء النص القرآني يوحى بأن النيل من الرسول عليه الصلاة والسلام هو نيل من الأمة كلها ، وهي نعمة كبيرة يذكر الله تعالى بها الأمة كما ذكرها من قبل في إتمام النعمة بإكمال الدين ، وكان إكمال الدين مرتبطاً بسلامة رسول الله ﷺ من الفتوك حتى يؤدى رسالته ربه :

﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ )<sup>(٢)</sup>.

﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسيطروا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ :

ومن المناسب أن تقرن هذه الآية بآيات أحد : ﴿ .. ثم صرفكم عنهم ليتليكم .. ﴾  
فهناك صرف المؤمنين عن المشركيين ليتلى المؤمنين ، وقد عفا عنهم .

وهنا بعد أن خلص الصف ، وتحقّص الحق من الباطل ﴿ .. كف أيديهم عنكم .. ﴾ .  
وهناك قبل أن يخلص الصف ، جرح رسول الله ﷺ وكلمت شفته ، وكسرت رباعيته ، وشج وجهه ، ووقع في حفرة أبي عامر الفاسق ، لخطأ المؤمنين ومخالفتهم لقائهم عليهم الصلاة والسلام .

وهنا يمسك الأعرابي بالسيف ، والرسول ﷺ أعزل من السلاح ، ويأتي لينفذ مؤامرة الغدر من قومه ، فيكتبه الله ويذله ، ويسقط السيوف من يده .

فكم يختلف العون الرباني والعنابة الربانية للصف ، وفيه الدخل والخلل ، وللصف

.)<sup>(٢)</sup> المائدة ٦٧ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٣ / ٢١٦ .

وفي الخلوص من الزبد ، وتمييز الخبيث من الطيب .

## ثانياً : حرس الجيش الإسلامي :

قال ابن إسحاق وحدثني عمى صدقة بن يسار عن عقيل بن جابر عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : ( لما خرجنا في غزوة ذات الرقاع من نخل ، فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين ، فلما انصرف رسول الله ﷺ فافلأً أتى زوجها و كان غائباً ، فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد ﷺ دماً ، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ فقال : « من رجل يكلؤنا (١) ليلتنا هذه؟ » قال : فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، فقالا : نحن يارسول الله ، قال : « فكونوا بضم الشعب » وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي - وهما عمارة بن ياسر ، وعبداد بن بشر ، فيما قاله ابن هشام .

قال ابن إسحاق : فلما خرج الرجال إلى قم الشعب ، قال الأنصاري للمهاجري : أى الليل تحب أن أكفيكه : أوله أم آخره؟ قال : بل أكفني أوله : قال : فاضطجع المهاجري فنام ، وقام الأنصاري يصلي ، وأتى الرجل ، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربعة (٢) القوم . قال : فرمى بسهم فوضعه فيه ، قال : فنزعه ووضعه ثبت قائما . ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، قال : فنزعه ووضعه ثبت قائما .

ثم عاد له بالثالث ، فوضعه فيه ، قال : فنزعه ووضعه ثم ركع وسجد ثم أهاب (٣) صاحبه فقال : اجلس فقد ثبت (٤) ، قال : فوثب . فلما رأهما الرجل عرف أن قد نذرا (٥) به فهرب ، فلما رأى المهاجري ما بالأنصار من الدماء ، قال : سبحان الله ! أفلأ هي بيتي أول مارماك؟ قال : كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أبقيها ، فلما تابع على الرمي ركعت فاذنك ، وائم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه ، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها (٦) .

وفي رواية الواقدي : ( كنت في سورة أقرؤها وهي سورة الكهف ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولو لا أتى خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله ﷺ ، ما انصرفت ولو أتى على نفسي ) (٧)

(١) يكلؤنا : يحفظنا .

(٢) الربعة : الطليقة الذي تعرس القوم .

(٣) أهاب صاحبه : أيقطه .

(٤) ثبت : جرحت جرح لا يمكن التحرك معه .

(٥) نذراً به : علماً به .

(٦) السيرة لابن هشام ٢٠٨ / ٢م .

(٧) المغارى للواقدى ١/ ٣٩٦، ٣٩٧ .

وتعطينا هذه الحادثة مدى التربية العظيمة التي وصل إليها الجيش بعد أحد ، ومدى الجهد في البناء لتخليص الصف من شوائبها .

ثالثا : حديث جابر وزواجه وحمله وتخله :

تركنا جابرا<sup>(١)</sup> في أحد وقد استشهد أبوه وترك له ست بنات ، وأثبت رضي الله عنه فدائية نادرة حين استأذن من رسول الله عليه السلام أن يحضر غزوة حمراء الأسد ، وسمح له وحده بالحضور من الذين تخلفوا عن أحد .

ونشهد هذا الحديث دون تعليق . ونفقه منه عظمة التربية النبوية لأبناء الشهداء ، ومدى رعايته لهم في كل شأن حquier أو خطير من شؤونهم ، ونشهد نموذجاً فذاً من نماذج التربية النبوية الخالدة .

قال جابر : ( فإنما لغى من صرفاً أثانا رسول الله عليه السلام وأنا تحت ظل شجرة ، فقلت : هلم إلى الظل يا رسول الله ، فدنا إلى الظل فاستظل ، فذهبت لأقرب شيئاً إليه ، فما وجدت إلا جريراً<sup>(٢)</sup> من قتاء في أسفل الغرارة<sup>(٣)</sup> قال : فكسرته كسرًا ثم قربته إليه ، فقال رسول الله عليه السلام : « من أين لكم هذا؟ » فقلنا : شيءٌ فضلُّ من زاد المدينة ، فأصاب منه رسول الله عليه السلام .

وقد جهرنا<sup>(٤)</sup> صاحبنا<sup>(٥)</sup> لنا يرعى ظهرنا وعليه ثوب متخرق ، فقال رسول الله عليه السلام : « أماله غير هذا؟ » فقلنا : بالي يا رسول الله . إن له ثوبين جديدين في العيبة<sup>(٦)</sup> فقال له رسول الله عليه السلام : « خذ ثوبيك » فأخذ ثوبيه فلبسهما ثم أدر ف قال رسول الله عليه السلام : « أليس هذا أحسن؟ ماله ضرب الله عنقه؟ » فسمع ذلك الرجل فقال : يا رسول الله ، في سبيل الله؟ فقال رسول الله عليه السلام : « في سبيل الله ». قال جابر : فضررت عنقه بعد ذلك في سبيل الله .

قال : فيينا رسول الله عليه السلام يتحدث عندها إلى أن جاءنا عبدة بن زيد الحارثي بثلاث بيضات أداхи<sup>(٧)</sup> فقال : يا رسول الله ، وجدت هذه البيضات في مفحص<sup>(٨)</sup> نعام . فقال رسول الله عليه السلام : « دونك يا جابر ، فاعمل هذه البيضات » فوثبت فعملتهن ثم جئت

(١) الملاحظ أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قد رویت عنه معظم روايات غزوة ذات الرقاع ولعله أول مشهد يشهده مع رسول الله عليه السلام بعد غزوة حمراء الأسد .

(٢) الحريو : صغير كل شيء حتى المخطل والمطيخ . (٣) الغرارة : القربة . (٤) جهرنا : فاجأنا .

(٥) العيبة : زنبيل من أدم .. (٦) أداхи : مبيض النعام في الرمل . (٧) مفحص : مجثم ومتزل النعام .

باليبيض في قصة ، وجعلت أطلب خبزاً فلا أجده . قال : فجعل رسول الله ﷺ يأكل من ذلك البيض بغير خبز ، قال جابر : فرأيت رسول الله ﷺ قد أمسك يده وأنا أظن أنه قد انتهى إلى حاجته ، والبيض في القصة كما هو . قال : ثم قام رسول الله ﷺ وأكل منه عامة أصحابنا ثم رحنا مبردين<sup>(١)</sup> .

قال جابر : وإن لنسير إلى أن أدركني رسول الله ﷺ فقال : « مالك يا جابر ؟ » فقلت : أى رسول الله جدي<sup>(٢)</sup> أَن يكون لي بغير سوء ، وقد مضى الناس وتركوني قال : فأناخ رسول الله ﷺ بعيره . فقال : « أمعك ماء » فقلت : نعم . فجئته بقuber من ماء ، فنفت فيه ثم نضع على رأسه وظهره وعلى عَجزُه ثم قال : « أعطني عصاً » فأعطيته عصاً معى - أو قال قطعت له عصاً من شجرة - قال : ثم نحسنه ، ثم قرعه بالعصا ، ثم قال : « اركب يا جابر ». قال : فركبت فخرج ، والذى بعثه بالحق يواهق<sup>(٣)</sup> ناقته موهفة ما تفوته ناقته .

قال وجعلت أتحدث مع رسول الله ﷺ ثم قال : « أتزوجت يا أبا عبد الله ؟ » قلت : نعم . قال : « بكرأ أم ثياباً ؟ » فقلت : ثياباً . فقال : « ألا جارية تلابعها وتلابعك ؟ ! » فقلت : يارسول الله ، بأبي وأمي ، إن أبي أصيب يوم أحد وترك تسع بنات وتزوجت امرأة جامعة تلم شعثهن وتقوم عليهم : قال : « أصبت » ثم قال : « إنما لو قدمنا صراراً أمرنا بجزور فتحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذلك ، وسمعت بنا ، فنفضت نمارقها<sup>(٤)</sup> » قال : قلت : والله يارسول الله مالنا نمارق . قال : « أما إنها ستكون فإذا قدمت فاعمل عملاً كيساً » قال : قلت : أفعل ما استطعت .

ثم قال : « يعني جملك هذا يا جابر ». قلت : بل هو لك يارسول الله ، قال : « لا ، بل يعنيه » قال : قلت : نعم ، سمعني به . قال : « فإني آخذه بدرهم » قال : قلت : تعسني يارسول الله . قال : « لا ، لعمري » قال جابر : فما زال يزيدني درهماً حتى بلغ به أربعين درهماً - أوقية - فقال : « أما رضيت » . فقلت : هو لك ، فقال : « فظهره لك حتى تقدم المدينة ». قال : ويقال إنه قال : « آخذه منك بأوقية وظهيره لك » فباعه على ذلك .

قال : فلما قدمنا صراراً أمر بجزور فتحرت ، فأقام به بيومه ثم دخلنا المدينة . قال جابر : فقلت للمرأة : قد أمرني النبي ﷺ أن أعمل عملاً كيساً . قالت : سمعاً وطاعة

(١) مبردين . نبغى البرد .

(٢) جدي : حظى .

(٣) يواهق : يبارى ناقته في السير ، ويمد عنقه ليسايرها .

(٤) النمارق : الوسائل .

لأمر رسول الله ﷺ ، فدونك فافعل .

قال : ثم أصبحت فأخذت برأس الجمل فانطلقت حتى أتيته عند حجرة رسول الله ﷺ وجلست حتى خرج ، فلما خرج قال : « أهذا الجمل ؟ » قلت : نعم يارسول الله الذي اشتريت . فدعى رسول الله ﷺ بلا ف قال : « اذهب فأعطيه أوقية ، وخذ جملك يابن أخي فهو لك » فانطلقت مع بلال ، فقال بلال : أنت ابن صاحب الشعب ؟ قلت : نعم . فقال : والله لأعطيتك ولا زيدنك ، فزادني قيراطاً أو قيراطين . قال : فما زال ذلك يشمر ويزيدنا الله به ، ونعرف موضعه حتى أصيّب <sup>(١)</sup> هاهنا قريباً عندكم - يعني الجمل <sup>(٢)</sup> .

قال الواقدي : وحدثني إسماعيل بن عطية بن عبد الله بن أنيس عن أبيه عن جابر ابن عبد الله قال : لما انصرفنا راجعين ، فكنا بالشقرة ، قال لي رسول الله ﷺ : « يا جابر . ما فعل دين أيك ؟ » قلت : انتظرت عليه يارسول الله أن يجد نخلة . قال رسول الله ﷺ : « إذا جذذت فأحضرني » ، قال : قلت : نعم ، ثم قال : « من صاحب دين أيك ؟ » قلت : أبو الشحم اليهودي ، له على أبي سقة <sup>(٣)</sup> تمر . فقال لي رسول الله ﷺ : « متى تجذها ؟ » قلت : غدا . قال : « يا جابر ، فإذا جذتها فاعزل العجوة على حدتها وألوان التمر على حدتها » . قال : فعلت ، فجعلت الصيحانى على حدة ، وأمهات الحرادين على حدة ، والعجوة على حدة ، ثم عمدت إلى جماع من التمر مثل نخبة وقرن وغيرها من الأنواع ، وهو أقل التمر ، فجعلته حبلاً واحداً ، ثم جئت رسول الله ﷺ فخبرته ، فانطلق رسول الله ﷺ ومعه عليه أصحابه ، فدخلوا الحائط ، وحضر أبو الشحم ، قال : فلما نظر رسول الله ﷺ إلى التمر مصنفاً قال : « اللهم بارك له » ثم انتهى إلى العجوة فمساها بيده وأصناف التمر ، ثم جلس وسطها ثم قال : « ادع غريمك » ف جاء أبو الشحم فقال « اقتل » فاكتمل حقه كله من حبل واحد وهو العجوة ، وبقية التمر كما هو ، ثم قال : « يا جابر ، هل بقي على أيك شيء ؟ » قال : قلت : لا ، وبقي سائر التمر ، فأكلنا منه دهراً وبينا منه حتى أدركنا الشرة من قابل ، ولقد كنت أقول : لو بعث أصلها ما بلغت ما كان على أبي من الدين ، فقضى الله ما كان على أبي من الدين ، فلقد رأيتني والنبي ﷺ ليقول : « ما فعل دين أيك ؟ » قلت : قد قضاه الله عز وجل ، فقال : « اللهم اغفر لجابر » !

(١) أصيّب يوم الحربة ، حين فتك مسلم بن عقبة بال المسلمين في المدينة ، خلّعهم خلافة زيد بن معاوية .

(٢) المغازى للواقدي / ٢ / ٣٩٨ - ٤٠٠ والسيرة لابن هشام / ٢ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) سقة تمر : جمع وقت وهو العمل ، وقدره الشرع بستين صاعاً .

فاستغفر لى فى ليلة خمساً وعشرين مرة <sup>(١)</sup>

وبعد هذا التطاواف فى خفقات قلب جابر بين يدى نبى عليه الصلاة والسلام ، يتلقى من معين تربيته ، نعود إلى صلاة الخوف ومروريات السيرة وكتب التفسير عنها .

أما فى غزوة ذات الرقاع ، وهى أول صلاة صلاتها عليه الصلاة والسلام بال المسلمين صلاة الخوف فقد وردت فيها خمس روايات مختلفة <sup>(٢)</sup> :

**الأولى:** عن السدى : (يقوم الإمام ويقوم معه طائفتان ، طائفة خلفه ، وطائفة يوازنون العدو ، فيصلى بمن معه ركعة ، ويُبشرون إليهم على أدبارهم حتى يقوموا في مقام أصحابهم ، وتلك المشية القهقري ، ثم تأتي الطائفة الأخرى فتصلى مع الإمام ركعة ، ثم يجلس الإمام فيسلم فيقومون فيصلون لأنفسهم ركعة ثم يرجعون إلى صفهم ، ويقوم الآخرون فيضيّفون إلى ركعته شيئاً تجزئه ركعة الإمام - أى للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعتان ، ويسلم الإمام بعد ركعتين مع الطائفتين) .

**الثانية:** رواية جابر : (ثم نودى بالصلاحة فصلى رسول الله ﷺ بطائفة من القوم وطائفة أخرى تحرسهم ، فصلى بالذين يلونه ركعتين ، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم ، فقاموا في مصاف أصحابهم ، ثم جاء الآخرون ، فصلى بهم ركعتين ، والآخرون يحرسونهم ثم سلم ، فكانت للنبي ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان يومئذ) .

**الثالثة:** عن ابن عباس : (يقوم الإمام ويقوم معه طائفة منهم ، وطائفة يأخذون أسلحتهم ويقفون بإزاء العدو ، فيصلى الإمام بمن معه ركعة ثم يجلس على هيئته ، فيقوم القوم فيصلون لأنفسهم الركعة الثانية والإمام جالس ، ثم ينصرفون فيقفون موقفهم ، ثم يقبل الآخرون فيصلى بهم الإمام الركعة الثانية ثم يسلم ، فيقوم القوم فيصلون لأنفسهم الركعة الثانية ، فهكذا صلى رسول الله ﷺ يوم بطن نخلة) .

وتفترق عن الرواية الأولى بتتابع الركعتين مع الإمام ثم تتمتهم بعد ذلك لرकعتيهم ، بينما نجد في هذه الرواية صلاة كل طائفة لرکعتيها مفترقتين .

**الرابعة:** عن عائشة رضى الله عنها : (صدع الناس صدعتين ، فصنفت طائفة وراءه ، وقامت طائفة وجاه العدو ، فكبّر رسول الله ﷺ وكبرت الطائفة خلفه ، ثم ركع

(١) المغازى للواقدى / ١٤٠ .

(٢) انظر : الدر المثور / ٥٦٦ .

وركعوا وسجدوا ، ثم رفع رأسه فرفعوا ، ثم مكث رسول الله ﷺ جالساً وسجدوا لأنفسهم سجدة ثانية ، ثم قاموا ثم نكسوا على أعقابهم يمشون القهقري حتى قاموا من ورائهم ، وأقبلت الطائفة الأخرى فصلوا خلف رسول الله ﷺ ، فكبروا ثم ركعوا لأنفسهم ثم سجد رسول الله ﷺ سجدة الثانية فسجدوا معه ، ثم قام رسول الله ﷺ في ركعته وسجدوا لأنفسهم السجدة الثانية ، ثم قامت الطائفة كلها فصلوا خلف رسول الله ﷺ ، فركع بهم ركعة فركعوا جميعاً ، ثم سجد فسجدوا جميعاً ، ثم رفع رأسه ورفعوا معه ، كل ذلك من رسول الله ﷺ سريعاً جداً ، لا يألف أن يخفف ما استطاع ثم سلم فسلموا ، ثم قام وقد شركه الناس في صلاته كلها) .

**الخامسة :** وهي الرواية التي نرجحها : لأنها مروية عن حضر الصلاة من صحابة رسول الله ﷺ ولذلك أخذ بها معظم الفقهاء وأئمة الحديث ، أصحاب الصلاح الستة .

فقد أخرج مالك ، والشافعى ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنمسائى وابن ماجه ، والدارقطنى ، والبيهقى ، عن طريق صالح بن خسوات ، عن صالح مع النبي ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف : (أن طائفة صفت معه وطائفة تجاه العدو ، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً وأتموا لأنفسهم ، ثم انصرفو وصلوا تجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً وأنمو لأنفسهم ، ثم سلم بهم) .

وهناك روايات أخرى غير هذه الروايات ، وفي العودة إلى كتب الفقه المعتمدة يمكن الحصول في تفضيلات أكثر في هذا الموضوع .

ونعود إلى بقية الآية من خلال كتب التفسير مع الآية التي تليها : (أخرج البخاري والنمسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقى عن ابن عباس في قوله : «إن كان بكم أذى من مطر أو كتم مرضى» : نزلت في عبد الرحمن بن عوف وكان جريحاً<sup>(١)</sup>) .

(وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان الآية قال : رخص في وضع السلاح عند ذلك وأمرهم أن يأخذوا حذرهم ، وفي قوله : «عذاباً مهيناً» قال : يعني

(١) الدر المشور / ٥٦٦٢ .

بالمهين الهران ، وفي قوله : ﴿إِذَا قَضَيْتُم الصَّلَاةَ﴾ قال : صلاة الخوف ، ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ قال : باللسان ، ﴿إِذَا أَطْمَأْنْتُم﴾ يقول : إذا استقررتم وأمتم )<sup>(١)</sup> .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعْدًا وَعَلَى جُنُوبِكُم﴾ قال : بالليل والنهار في البر والبحر وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر والسمق والصحة والسر والعلاجية وعلى كل حال .

وعن مجاهد والحسن وقتادة فيما رواه ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد وعبد الرزاق : ﴿إِن الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مُوْقَتًا﴾ قال : مفروضاً ، وواجاهاً وكتاباً واجباً ومنجماً كل ما مضى وقت جاءه وقت آخر )<sup>(٢)</sup> .

بقى علينا أن نذكر أن معظم الروايات تتحدث عن صلاة الخوف في غزوتين هما : غزوة ذات الرقاع ، ويطلق عليها غزوة نجد كذلك الثانية كانت بسعفان .

وقد انفرد الإمام الذهبي من بين رواة السير يجعل غزوة بنى حيان خلال هذه المرحلة ، فقال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من صلح بنى قريظة إلى بنى حيان يطلب بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة .

لقد جعلها الواقدي في محرم سنة ست ، وجعلها ابن إسحاق في جمادى الأولى سنة ست ، بينما كانت غزوة الرجيع سنة ثلات عند ابن إسحاق ، وعند الواقدي سنة ثلات كذلك ، فلا يعقل أن يتأخر رسول الله ﷺ ستين أو ثلاثة حتى يثار خبيب وأصحابه )<sup>(٣)</sup> .

وقد عبر الذهبي رحمة الله عن الأمر بصلح بنى قريظة ، ولم يقل بفتح بنى قريظة أى بعد الخندق ، بينما هي عند ابن إسحاق بعد فتح قريظة ، والذى يعنيه الذهبي ما ذكره في غزوة بنى النضير حيث يقول : (ثم غدا على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم )<sup>(٤)</sup> .

(١) المصدر نفسه / ٦٦٦ ، ٢٠.

(٢) تختلط الأمور أحياناً لدى علماء السير ، بعضهم يؤرخ السنة بياديتها أى من المحرم ، وبعضهم يؤرخها من ربيع الأول وقت الهجرة ، فتكون مثلاً غزوة الرجيع في السنة الرابعة في صفر إذا قيست بياديتها العام ، وتكون في السنة الثالثة إذا قيست بهجرة النبي ﷺ ، ومن هنا يقع بعض الاختلاف في السنوات .

(٤) المغازى للذهبي / ١٤٩ ، ١٥٠ .

وفي رواية أخرى عن ابن عمر : (أن يهود بنى النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ ، فأجلى بنى النضير ، وأقر قريظة ومن عليةهم ، حتى حاربوا بعد ذلك . أخرجه البخاري )<sup>(١)</sup> .

ونعود إلى رواية ابن إسحاق :

(قال يونس عن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن حزم وغيره قالوا : لما أصيّب خبيب وأصحابه خرج رسول الله ﷺ طلباً للدمائهم ليصيب من بنى لحيان غرة ، فسلك طريق الشام وورى على الناس أنه لا يريد بنى لحيان ، حتى نزل أرضهم - وهم من هذيل - فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أنا هبطننا عسفان لرأيت قريش أنا قد جتنا مكة » ، فخرج رسول الله ﷺ في مائة راكب حتى نزل عسفان ، ثم بعث فارسين حتى نزلوا كراع الغميم ثم انصرفوا إليه .

فذكر أبو عياش الزرقى أن رسول الله ﷺ صلى بعسفان صلاة الخوف )<sup>(٢)</sup> .

ولم ينفرد الأزرقى بذلك فقد ورد ذلك عن ابن عباس ومجاحد وأبي هريرة رضى الله عنهم ، كما وردت الروايات عنهم في الدر المنشور للسيوطى .

هذا ولابد من الإشارة إلى أن هذه الصلاة قد ذكرت في صلح الحديبية ، كما ذكر ابن سعد في طبقاته : (فرجع إلى رسول الله ﷺ فلقيه بغدير الأشطاط وراء عسفان فأخبره بذلك ، ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم في خيله فأقام بيازاته وصف أصحابه ، وحان صلاة الظهر وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف )<sup>(٣)</sup> .

وفي خبر إسلام خالد رضى الله عنه :

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين ، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان ، فقمت بيازاته ، وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا ، فهممنا أن نغير عليهم فلم يعزم لنا ، وكانت فيه خيرة فاطلعت الله على مافي أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منا موقعاً وقتلت : الرجل من نوع )<sup>(٤)</sup> .

(٢) المغازي للذهبي / ١٤٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير / ٤٠٤ / ٦٩ .

(٤) المغازي للذهبي / ١٥٠ ، ١٤٩ .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد / ٢ / ٦٩ .

فالله أعلم أن الصلاة قد تمت في الغزوتين ، بنى لحيان والحدبية .

﴿ولا تهنو في ابتغاء القوم إن تكونوا تألفون فإنهم يألفون كما تألفون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيم﴾<sup>(١)</sup>

(أخرج ابن جرير عن قتادة في الآية يقول : (لا تضعفوا في طلب القوم ، فإنكم إن تكونوا متوجعون فإنهم يتوجعون كما متوجعون ، وترجون من الأجر والثواب ما لا يرجون)<sup>(٢)</sup> .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال :

(لا تضعفوا في طلب القوم ، إن تكونوا متوجعون من الجراحات فإنهم يتوجعون كما متوجعون ، ﴿وتروجون من الله﴾ يعني الحياة والرزق والشهادة والظفر في الدنيا)<sup>(٣)</sup> .

لقد كانت بداية آيات أحد :

﴿ولا تهنو ولا تخزنو وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾<sup>(٤)</sup> .

وكانت نهاية آيات النساء بصدق الجهاد :

﴿ولا تهنو في ابتغاء القوم إن تكونوا تألفون ، فإنهم يألفون كما تألفون وترجون من الله ما لا يرجون﴾<sup>(٥)</sup> .

وعندما نزلت الآية الأولى كان ذلك عقب أحد مباشرة ، والجراح عبقة بالدماء ، وال المسلمين مشخنون بالجراح ، والمحنة على أشد ما تكون .

ورغم جراحاتهم مضوا إلى حمراء الأسد . ونجد جو هذه الآية ، ماذا فعلت في نفوس المسلمين ، بعد عام تقريباً من أحد . ينقل لنا الواقدي تفصيلات لغزوة بنى لحيان ، في عظمة المواجهة النبوية بهذا الجيش الجريح فيقول بسنده :

(ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران حيث كان مصابهم ، فترجم عليهم وقال : «هنيئاً لكم الشهادة» ، فسمعت به لحيان فهربوا في رؤوس الجبال ، فلم نقدر منهم على أحد ، فأقام يوماً أو يومين وبعث السرايا في كل ناحية ، فلم يقدروا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان - وعسفان على بعد ثمانين كيلـاً من مكة - فقال رسول الله ﷺ

(١) النساء / ٤٠ .

(٢) جامع البيان للطبرى / ٥٦٨ .

(٤) آل عمران / ١٣٩ .

(٣) الدر المنثور / ٥٦٩ .

لأنى بكر : «إن قريشاً قد بلغهم مسیرى ، وأنى قد وردت عسفان ، وهم يهابون أن آتىهم ، فاخرج فى عشرة فوارس ». فخرج أبو بكر فيهم حتى أتوا الغميم - على بعد أربع وستين كيلا من مكة - ثم رجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ولم يلق أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : «إن هذا يبلغ قريشاً فيدعهم : ويخافون أن نكون نريدهم » - وخييب بن عدى يومئذ فى أيديهم - فبلغ قريشاً أن رسول الله ﷺ قد بلغ الغميم ، فقالت قريش : ما أتى محمد الغميم إلا يريد أن يخلص خبيباً ، وكان خبيب وصاحباه فى حديد موثقين ، فجعلوا فى رقباهما الجوابع ، وقالوا : قد بلغ محمد ضجنان وهو داخل علينا ، فدخلت ماوية على خبيب فأخبرته الخبر وقالت : هذا صاحبك قد بلغ ضجنان يريدك ، فقال خبيب : وهل ؟ قالت : نعم . قال خبيب يفعل الله ماشاء ! )<sup>(١)</sup> .

فإذن قد كانت العزيمة النبوية تفت فى عضد قريش ، وتخيفها وهى فى عقر دارها ، وحققت هذه العملية أهدافها كاملة ، وحسب الرأى الذى رجحه الذهنى رحمة الله أن بين غزوة الريجع وغزوة بنى لحيان ثلاثة أشهر فقط ، فغزوة الريجع فى صفر ، وغزوة بنى لحيان فى جمادى الأولى ، وبين أحد ووصول رسول الله ﷺ إلى حدود مكة سبعة أشهر فقط ، ولا غرابة فى ذلك ، فعملية الثأر لا تتم بعد ستين أو ثلاط ، إنما تتم بعد شهرين أو ثلاثة ، ولا ننسى كذلك أن رسول الله ﷺ أرسل فعلا عمرو بن أمية الضمرى لاستنقاد خبيب أو جنته بعد صلبه .

إن التوجيه القرآنى الذى عالج الضعف البشرى والخطأ البشرى ، والقيادة النبوية العظيمة التى كانت ترعى هذا الجيل الإسلامى ، استطاعت أن تنهض بالجماعة بعد عثارها ، واستطاعت أن تلائم الجراح وتحاور المحن ، وتكتشف الريف والنفاق ، وتنمى بالجماعة فى بناء تربوى محكم لمتابعة المواجهة والجهاد ضد العدو .

(١) المغازى للواقدى / ٢٦٥ .

## سورة الحشر - غزوة بنى النضير

يقول عز وجل :

﴿سَعَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوْلَى الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ حَصْنُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حِيثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعبُ يَخْرُبُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيَ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَسَرُوا يَا أَوْلَى الْأَبْصَارِ . وَلَوْلَا أَنْ كَبَّ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَعَظَّ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمِنْ يَشَاقُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . مَا قطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أَصْوَلِهَا فَيَأْذَنُ اللَّهُ وَلِيُخْرِزَ الْفَاسِقِينَ . وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خِيلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكُنَّ اللَّهُ يُسْلِطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> .

عندنا روایات عديدة لأحداث هذه الغزوة ، لكن أهم هذه الروایات والتي تعطينا صورة عن أجواء الغزوة ، هي هذه الروایة :

(أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن المنذر ، والبيهقي في الدلائل ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول ، ومن كان يعبد الأواثان معه من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدرا يقولون : إنكم قد آويتم صاحبنا ، وإنكم أثثأتم أهل المدينة عدداً ، وإنما نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجهنـه . أو لنستعدـين عليكم العرب ، ثم لنسرـينـكم بأجمعـنا حتى نقتلـ مقـاتـلكـمـ ونـستـبـحـ نـسـاءـكمـ وـأـبـنـاءـكمـ . فـلـمـ بـلـغـ ذـلـكـ عـبدـ اللهـ بنـ أـبـيـ وـمـنـ مـعـهـ مـنـ عـبـدـةـ الـأـوـثـانـ تـرـاسـلـواـ وـاجـتـمـعـواـ وـأـجـمـعـواـ لـقـتـالـ النـبـيـ ﷺ وـأـصـحـابـهـ . فـلـمـ بـلـغـ ذـلـكـ النـبـيـ ﷺ لـقـيـهـمـ فـيـ جـمـاعـةـ مـنـ أـصـحـابـهـ فـقـالـ : «لـقـدـ بـلـغـ وـعـيـدـ قـرـيـشـ مـنـكـمـ الـمـبـالـغـ ، مـاـ كـانـتـ لـتـكـيـدـ كـمـ بـأـكـثـرـ مـاـ تـرـيـدـونـ أـنـ تـكـيـدـواـ بـهـ أـنـفـسـكـمـ ، فـأـنـتـمـ هـؤـلـاءـ تـرـيـدـونـ أـنـ تـقـاتـلـوـ أـبـنـاءـ كـمـ وـإـخـوانـكـ؟ـ»ـ .

(١) الحشر / ٦١ .

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، بلغ ذلك كفار قريش )<sup>(١)</sup> .

كانت هذه الصورة ابتداءً هي التي تمثل حقيقة الجو بين قريش ورسول الله ﷺ ، وكثيراً ما تسيطر علينا الصورة الحاطنة أن المسلمين هم الذين ابتدأوا الهجوم على قريش حين لاحقوا القافلة التجارية ، بينما نجد الرواية المذكورة آنفاً توضح مدى الحرب العوان التي تح خطط قريش لها ، وذلك في محاولة شن حرب داخلية ضد المسلمين في صفوف المدينة مع التهديد والوعيد الشديدين باستعمال ابن أبي وأصحابه إن لم يفعلوا ذلك . وحين فشلت هذه الخطة لجوءاً إلى اليهود لينهوا بهم محمداً عليه الصلاة والسلام .

( .. وكانت وقعة بدر بعد ذلك ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود إنكم أهل الحلقة والمحصون ، وإنكم لتقاتلن أصحابنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم )<sup>(٢)</sup> نسائكم شيء ، فلما بلغ كتابهم اليهود اجتمعوا بنو النضير بالغد ، وأرسلوا إلى النبي ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ، وليخرج إليك منا ثلاثة حبراً حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك ، ويسمعوا منك ، فإن صدقوك وأمنوا بك آمنا كلنا . فخرج النبي في ثلاثة من أصحابه ، وخرج إليه ثلاثة من اليهود ، حتى إذا بزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض : كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثة من رجالاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله ، فأرسلوا كيف نفهم ونحن ستون رجلاً ؟ ! اخرج في ثلاثة من أصحابك ، ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك . فخرج النبي ﷺ في ثلاثة من أصحابه ، وخرج ثلاثة من اليهود ، واشتملوا على الخناجر ، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ ، فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار ، فأخبرته خبر ما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم ، فرجع النبي ﷺ ، فلما كان الغد غداً عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحضر لهم فقال لهم :

«إنكم والله لاتؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه» فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومه ذلك هو والمسلمون ، ثم غداً الغد على بنى قريظة – بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بنى النضير بالكتائب ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم مأقلت الإبل إلا الحلقة – والحلقة السلاح –

(١) الدر المنشور / ٨ / ٩٣ . وهي عند أبي داود في ج ٣ - ١٥٥ - ١٥٧ . خبر بنى النضير وفي الدلائل للبيهقي .

(٢) خدم نسائكم : خلا جيلها .

فجلت بنو النضير ، واحتلوا مأقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكانوا يخربون بيوتهم فيهدموها ، فيحتملون ما وافقهم من خشبها ، وكان جلاًّ لهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام . وكان بنو النضير من سبط من أسباط بنى إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله الجلاء على بنى إسرائيل فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء لعذبهم في الدنيا كما عذبت بنو قريظة ، فأنزل الله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى بلغ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، فكان نخيل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، فأعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَكَابٍ﴾ يقول بغير قتال . فأعطى النبي ﷺ أكثرها المهاجرين ، وقسمها بينهم ، وقسم منها للرجلين من الأنصار كانوا ذوي حاجة لم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما ، وبقى منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بنى فاطمة<sup>(١)</sup> .

والملاحظ أن هذه الرواية تشير إلى أن غزوة بنى النضير كانت بعد غزوة بدر ، وإلى هذا ذهب الإمام البخاري رحمه الله والزهري .

( قال عمر : عن الزهري ، عن عروة : كانت غزوة بنى النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكانت منازلهم ونخلهم بناحية المدينة ، وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء على أن لهم مأقلت الإبل إلا السلاح ، فأنزلت : ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لَأُولَئِكُمْ الْخَشْرُ . . .﴾ فأجلهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء ، وكان الله قد كتب عليهم الجلاء ، ولو لا ذلك لعذبهم بالقتل أو السبي .

وقوله ﴿لَأُولَئِكُمُ الْخَشْرُ﴾ أي كان جلاًّ لهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام .

ويرويه عقبيل عن الزهري قوله : وأسنده زيد بن المبارك الصناعي عن عروة عن عائشة . وذكر عائشة غير محفوظ .

وقال ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر : (إن يهود بنى النضير ، وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلوا بنى النضير ، وأقرّ قريظة ومن عليهم حتى حاربوا بعد ذلك ) . آخرجه البخاري<sup>(٢)</sup> .

(١) الدر المنشور / ٨ / ٢٨ / ٩٣ . (٢) البخاري ، كتاب المغازى ، باب حديث بنى النضير ( ٥ / ١١٢ ) .

(وذهب موسى بن عقبة وابن إسحاق إلى أن غزوة بنى النضير كانت بعد أحد ، وكذلك قال غيرهما . ورواه ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة )<sup>(١)</sup> .

هذا ولم يرجح الإمام الذهبي في كتابه - المغازى - أياً من الروايتين ، بل أوردهما معاً عقب بدر وعقب أحد .

والذى ركزت عليه الرواية السابقة هو مدى التخطيط المشترك بين قريش واليهود للقضاء على النبي ﷺ ، ومحاولته الفتوك به ، وكيف أنهم خافوا من تنفيذ هذا الاغتيال عندما كان بين ثلاثة من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله .

أما الرواية التي تحدثت عن غزوة بنى النضير وأنها كانت بعد أحد ، فقد وردت في مغازى موسى بن عقبة ، كما أوردها الذهبي عنه بهذه الصيغة :

(إن رسول الله ﷺ خرج إلى بنى النضير يستعينهم في عقل الكلابين<sup>(٢)</sup> ، وكانوا قد دسوا إلى قريش حين نزلوا بأحد لقتال رسول الله ﷺ ، فحضوه على القتال ، ودلواهم على العورة ، فلما كلمهم رسول الله ﷺ في عقل الكلابين ، قالوا :

اجلس يا أبو القاسم حتى تُطعم وترجع بحاجتك ، ونقوم ونشاور . فجلس بأصحابه ، فلما خلوا والشيطان معهم ، ائتمروا بقتل رسول الله ﷺ وقالوا : لن تجدوه أقرب منه الآن ، فاستريحوا منه تأمنوا . فقال رجل : إن شئت ظهرت فوق البيت الذي هو تحته فدلليت عليه حجرًا قتلتنه ، فأوحى الله إليه فأخبره بشأنهم وعصمه ، فقام كأنه يقضى حاجة ، وانتظره أعداء الله ، فراث<sup>(٣)</sup> عليهم . فأقبل رجل من المدينة فسألوه عنه فقال : لقيته قد دخل أزقة المدينة ، فقالوا للأصحاب : عجل أبو القاسم أن نقيم أمرنا في حاجته ، ثم قام أصحاب رسول الله ﷺ ، فرجعوا ونزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذْ كُرِّوا نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ﴾<sup>(٤)</sup> )<sup>(٥)</sup> .

ولاتخرج رواية ابن إسحاق عن ذلك .

والملاحظ أن الصيغة التي انتشرت بعد أحد في محاولة الفتوك بالنبي ﷺ والعالية من

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للإمام نديهى / ١٤٩ ، ١٤٨ .

(٢) هما اللذان قتلهم عمرو بن أبي الضمرى رضى الله عنه خطأ ، ولم يعلم أن لهماأماناً من رسول الله ﷺ ، وعقلهما : ديتهم .

(٣) راث عليهم : أبطأ عليهم .

(٤) المائدة : ١١ .

(٥) المغازى للذهبي / ١٥١ .

أصحابه تكاد تكون متشابهة ، فأصحاب الرجيع وغير معونة إنما استشهدوا بيلغوا دعوة الله تعالى في نجد ، وغدر بهم . وخطة بنى النضير كانت تنصب في ظاهرها على الدعوة إلى الحوار والمناظرة ، وهم على استعداد أن يسلموا جميعاً بعد إيمان أحبارهم . ولاستبعد أن تكون هذه الخطط عن تبييت مشترك بين اليهود والمشركين في الأرض العربية ، وذلك على أثر أجواء أحد ومحنتها الرهيبة في الصف الإسلامي .

وحتى لانضياع في متأهلات الرواية ، نعود إلى الآية القرآنية ؛ لتكون المنطلق لرواية السيرة وفقه جوانبها المتعددة .

﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول المشر ما ظنتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقدف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأ بصار . ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾ .

وتبيّن الله تعالى ابتداء إشارة إلى أن كل ما في هذا الكون خاضع لله عز وجل ، والذين كفروا وخرجوا على منهج الله لابد أن يساقو للانقياد لهذا المنهج ، فقد سبقو إلى أرض المشر . إذانا بالسوق الأخير من هذه الأرض المباركة إلى الله تعالى .

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا﴾ <sup>(٢)</sup> .

ـ وتتدخل الإرادة الربانية في بنى النضير ، كما تدخلت في قريش من قبل .

ـ وكما خرجت قريش بخيالها وخيالها تحد الله وتکذب رسوله ، استعصت بنى النضير تُحد الله وتکذب رسوله وتعلم أنه الحق ، وتغتر بقوتها وخيالها وخيالها وتحدى رسول الله ﷺ .

﴿وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانعُهُمْ حصونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَاتَّاهُمُ اللَّهُ مِنْ حِيثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ .

ـ ولا بد أن نشهد كل فقرة من كل آية ، من خلال السورة ، والحدث الذي يوضح هذه الفقرة .

(١) سورة مریم / ٨٥ ، ٨٦ .

وهذه الصورة الأولى من **﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾** :

( .. ثم خلا بعضهم إلى بعض فتاجوا ، فقال حبي بن أخطب :

يامعشر اليهود قد جاءكم محمد في نغير من أصحابه لا يلغون عشرة <sup>(١)</sup> ، فاطرحو عليهم حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه ، فلن تجدوه أخلٍ منه الساعة ! فإنه إن قتل تفرق أصحابه ، فلحق من كان معه من قريش بحرهم ، وبقى من هاهنا من الأوس والخزرج حلفاؤكم ! فما كنتم تريدون أن تصنعوا يوماً من الدهر فمن الآن !

قال عمرو بن جحاش : أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة .

قال سلام بن مكشم : يا قوم ، أطيعوني هذه المرة ، وخالفوني الدهر ، والله إن فعلتم ليخبرن بأننا قد غدرنا به ؛ وإن هذا نقض العهد الذي بيننا وبينه ، فلا تفعلوا ! ألا فو الله لو فعلتم الذي تريدون ليقومن بهذا الدين منهم قائم إلى يوم القيمة ، يستأصل اليهود ويظهر دينه !

وقد هيأ <sup>(٢)</sup> الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ ، ويحدراها ، فلما أشرف بها جاء رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما هموا به ، فنهض رسول الله ﷺ سريعاً كأنه يريد حاجة ، وتوجه إلى المدينة ، وجلس أصحابه يتحدثون وهو يظنون أنه قام يقضي حاجة ، فلما يشوا من ذلك قال أبو بكر رضي الله عنه : ما مقامنا هاهنا بشيء ! لقد وجه رسول الله ﷺ لأمر ، فقاموا . فقال حبي : عجل أبو القاسم ! قد كنا نريد أن نقضى حاجته ونغديه .

وندمت اليهود على ما صنعوا ، فقال لهم كنانة بن صويراء :

هل تدرؤن لما قام محمد ؟ قالوا : لا والله ، ماندرى ولا تدرى أنت ! قال : بلى والتوراة ، إنى لأدرى ؛ قد أخبر محمد ما هممت به من الغدر ، فلا تخذعوا أنفسكم ؛ والله إنه لرسول الله ، وما قام إلا أنه أخبر بما هممت به . وإنه لآخر الأنبياء ، كنتم تطعمون أن يكون من بنى هارون فجعله الله حيث شاء ، وإن كتبنا والذى درسنا في التوراة التي لم تغير ولم تبدل أن مولده بمكة ، ودار هجرته يثرب ، وصفته بعينها ماتخالف حرفاً مما في كتابنا ، وما يأتيكم به أولى من محاربته إياكم ، ولكنى أنظر إليكم ظاعنين ، يتضاغى <sup>(٣)</sup> .

(١) ومه أبو بكر وعمر وعلي والزبير وطلحة ، وسعد بن معاذ وأبي سعيد بن حضير وسعد بن عبادة .

(٢) أى : عمرو بن جحاش .

(٣) يتضاغى : يسكي .

صبيانكم ، قد تركتم دوركم خلوفاً وأموالكم ، وإنما هي شرفكم ، فأط夷عونى فى  
حصلتين ، والثالثة لاخير فيها !

قالوا : ماهما ؟

قال : تسلمون وتدخلون مع محمد ، فتأمنون على أموالكم وأولادكم وتكونون من  
عليه أصحابه ، وتبقى بأيديكم أموالكم ، ولا تخرجون من دياركم .

قالوا : لانفارق حكم التوراة وعهد موسى !

قال : فإنه مرسل إليكم : اخرجوا من بلدى ، قولوا : نعم ، فإنه لا يستحل لكم دمأ  
ولا مالاً وتبقى أموالكم ، إن شئتم بعثتم ، وإن شئتم أمسكتم .  
قالوا : أما هذه فنعم .

قال : أما والله إن الأخرى خيرهن لي ، أما والله لو لا أن أفضحكم لأسلمت ، ولكن  
والله لا تعيّر شعثاء<sup>(١)</sup> بإسلامي أبداً حتى يصيّبني ماأصابكم .

فقال سلام بن مكتشم : قد كنتم لما صنعتم كارهاً ، وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من  
دارى فلا تعقب يا حسبي كلامه ، وأنعم له بالخروج ، وانخرج من بلاده ! قال : أفعل ، أنا  
أخرج ! )<sup>(٢)</sup> .

لقد كانت قيادات بني النضير على خلاف فى الموقف ، كما كانت قيادات قريش  
فى بدر .

وإن كان حسبي بن خطيب هو الذى يضرم خطب الحرب والفتنة ضد رسول الله  
عليه السلام بما يفجر قلبه من حقد فهو يمثل صورة أبي جهل فى عدائه اللذوذ لرسول الله عليه  
الصلوة والسلام .

وكما كان أبو سفيان فى بدر يدعى إلى عدم المواجهة مع محمد وأصحابه ، بعد أن  
نجأ الله غيرهم ، ولإصراره على أن المواجهة بغي والبغى منقصة وشئم .

وكتانة بن صويراء هو الذى يدعو صراحة للدخول يهود فى الإسلام ، لما يعرف من  
صدق رسول الله عليه السلام ، يعيد إلى ذاكرنا صورة عتبة بن ربيعة الذى قال لقومه قبل بدر :

(١) هي ابنة كنانة بن صويراء التي كان حسان يشتبه بها .

(٢) المغازى للواقدى / ١٦٤ - ٣٦٦ .

( والله ما سمعت مثله ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش ، أطیعونی واجعلوها بی ، وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتهم بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملکه ملککم وعزه عزکم ، وكتتم أسعد الناس به ، يا قوم ، أطیعونی فى هذا الأمر واعصونی بعده ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذنای كلاماً مثله ، وما دريت ما أرد عليه )<sup>(۱)</sup> .

وهو الذى قال لهم في بدر :

( أطیعونی ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه ، واعصبو هذا الأمر برأسی واجعلوا جنبها بی ، فإن منهم رجالاً قرابةهم قريبة ، ولا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه ، فيورث ذلك بينهم شحنة وأضغاننا .. يا قوم ، إن يك محمد كاذباً يكفيكمه ذؤبان العرب ، وإن يك ملکاً أكلتم في ملک ابن أخيکم ، وإن يك نبیاً كتنتم أسعد الناس به ! يا قوم ، لا تردوا نصيحتی ولا تسفهوا رأیی )<sup>(۲)</sup> .

وهو الذى قال عنه رسول الله ﷺ : ( إن يطیعوا صاحب الجمل الأحمر يهتدوا )<sup>(۳)</sup> .  
وإن كان الفرق بين الموقفين والشخصيتين ، أن كنانة بن صويراء تنطق الكتب بين يديه بنبوة محمد ﷺ ، أما عتبة بن ربيعة ، فقد كان من الأميين في كتب النصارى واليهود .

هؤلاء الكفار من أهل الكتاب حتى كنانة بن صويراء - الذي لا يشك لحظة واحدة في أن محمداً نبی مرسل - منعه من الإسلام أن تغير ابنته بإسلامه ، كما منع أمية بن أبي الصلت ذلك : أن لا تغيره نساء ثقيف بأنه اتبع غلاماً من بنی عبد مناف ، وهو الذي كان يُعدّ نفسه للنبيه .

لقد حرصت على هذه المقارنة بين بدر وبنی النضیر ، وبين قيادات قريش ، وقيادات بنی النضیر ؛ لأن النصر الذي تحقق في بنی النضیر كما تشير الآيات القرآنية وترکز عليه أنه نصر خالص من عند الله ، لا بحول المؤمنين ولا بقوتهم ، فالمسلمون قال عنهم الله تعالى :

(۱) سبل الهدی والرشاد / ۲/ ۴۴۹ . (۲) المغازی للواقدی / ۱/ ۶۳ .

(۳) وهي في دلائل النبوة عند البیهقی / ۳/ ۶۳ : ( إن يك في القوم أحد يأمر بخير فعمی أن يكون صاحب الجمل الأحمر ) .

﴿ ما ظنتم أن يخرجوا ﴾ .

ونجد العرض القرآني يؤكّد على الإخراج الرباني لهم ، والطرد الإلهي لهم ، ولذلك جاءت الآية القرآنية لتؤكّد :

﴿ ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهם في الآخرة عذاب السار ﴾ .

وقد كتب الله الجلاء على بني إسرائيل . فذاقوه جميعاً ، إلا سبط بني إسرائيل ، تأخّر جلاؤهم إلى اليوم ، وتحقق بهم موعد الله وعقوبته :

﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا ﴾ .

﴿ ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ .

﴿ ما أفاء الله على رسله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسle على من يشاء ﴾ .

فكيف كان إخراجهم ، من خلال الواقع الحى في السيرة ؟ .

( وجاء محمد بن مسلمة فقال : اذهب إلى بني يهود ببني النضير فقل لهم : إن رسول الله أرسلني إليكم أن أخرّجوا من بلده ، فلما جاءهم قال : إن رسول الله أرسلني إليكم برسالة ، ولست أذكرها لكم حتى أعرّفكم شيئاً تعرفونه ، قال :

أشدّكم بالتوراة الذي أنزل الله على موسى ، هل تعلمون أنّي جئتكم قبل أن يبعث محمد ﷺ وبينكم التوارية فقلت لهم لى في مجلسكم هذا : يابن مسلمة ، إن شئت نفيك فديناك ، وإن شئت أن نهودك هودناك . فقلت لكم : غدونى ولا تهودونى ، فإني والله لا أتهود أبداً ! فغدّيت موني في صحفة لكم ، والله لكأني أنظر إليها كأنها جرعة . فقلت لهم لى : ما يمنعك من ديننا إلا أنه دين يهود ، كأنك تريد الحنيفة التي سمعت بها ، أما إن أبا عامر <sup>(١)</sup> قد سخطها وليس عليها ، أنا لكم صاحبها الضحوك القتال في عينيه حمرة ، يأتي من قبل اليمن ، يركب البعير ويلبس الشملة ، ويجهز بالكسرة ، سيفه على عاتقه ، ليست معه آية ، هو ينطق بالحكمة كأنه وشيجتكم هذه ؛ والله ليكونن بقريتكم هذه سلب وقتل ومثل ! .

(١) هو أبو عامر الراهن ، الذي كان يعلم أن يكون النبي المنتظر ، وهو الذي سماه المسلمين أبو عامر الفاسق .

قالوا : اللهم نعم ، قد قلناه لله ولكن ليس به .

قال : قد فرغت ، إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يقول لكم : قد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هم مت من العذر بي - وأخبرهم بما كانوا ارتأوا من الرأى وظهور عمرو بن جحاش على البيت يطرح الصخرة . فأسكنوا فلم يقولوا حرفا .

ويقول : اخرجوا من بلدى ، فقد أجلتكم عشرًا فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه ! .

قالوا يا محمد ، ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس .

قال محمد - بن مسلمة - : تغيرت القلوب .

فمكثوا على ذلك أيامًا يتجهزون ، وأرسلوا إلى ظهر لهم بذى الجدر تجلب ، وتکاروا من ناسٍ من أشجع إبلًا وأخذوا في الجهاز )<sup>(١)</sup> .

ونحن نراهم هنا قد استجابوا الرسالة رسول الله ﷺ ، وطغا حلم سلام بن مكشم وكتانة بن صويراء على حقد حبي بن أخطب ، ونفذوا وصية كنانة في الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ في الخروج ، ومرت أيام عدة - كما ذكر الواقدي آنفًا - وهم يتجهزون للخروج من المدينة ، تنفيذًا لأمر رسول الله صلوات الله عليه ، ودعوا الإبل التي كانت ترعى خارج المدينة في ذى الجدر لتنضم إليهم مع خروجهم ، واستأجروا إبلًا من قبيلة أشجع لتحملهم وجهازهم خارج المدينة .

لكن الصورة تغيرت تماماً عندهم بعد أن جاء وفد المنافقين . لخthem على رفض الأمر ، وأنهم سيكونون حلفاء لهم يقاتلون معهم ، بل يوجهونهم إلىأخذ المدد من غطفان ومن بنى قريظة .

فأهتب لها حبي بن أخطب ، وعاد ففجر الجو من جديد ، وذكى حقده في رفض الخروج فقال :

( أنا أرسل إلى محمد أعلمه أنا لا نخرج من دارنا وأموالنا ) .

فواجهه سلام بن مكشم بقوله :

( متنك نفسك والله يا حبي الباطل ، إنى والله لولا أن يسفه رأيك أو يزرك بك )

(١) المغازى للواقدي / ١٣٦

لاعتزلتكم بمن أطاعنی من اليهود ؟ فلا تفعل يا حبی ، فوالله إنک لتعلم ونعلم معک أنه لرسول الله ، وأنَّ صفتھ عندنا ، فإن لم نتبعه ، وحسدناه حيث خرجت النبوة من بنی هارون ! فتعال نقبل ما أعطانا من الأمان ونخرج من بلاده ، فقد عرفت أنک خالفتني في الغدر به ، فإن کان أوان الشمر جتنا أو جاء من جاءنا إلى ثمرة فباع أو صنع ما بدارله ، ثم انصرف إلينا فكأنما لم نخرج من بلادنا إذا كانت أموالنا بأيدينا ، إنما شرفنا على قومنا بأموالنا وفعالينا ، فإذا ذهبت أموالنا من أيدينا كما كغيرنا من اليهود في الذلة والإعدام ، وإن محمداً إن سار إلينا فحصرنا في هذه الصياصي يوماً واحداً ، ثم عرضنا عليه ما أرسل به إلينا لم يقبله وأبى علينا .

قال حبی : إن محمداً لا يحصرنا إلا أن أصحابنا نهزءه وإلا انصرف ، وقد وعدنى ابن أبي ما قد رأيت .

فقال سلام : ليس قول ابن أبي بشيء .

قال حبی : تأبی نفسی إلا العداوة محمد ، وإلا قتاله .

قال سلام : فهو والله جلاؤنا عن أرضنا ، وذهب أموالنا ، وذهب شرفنا ، أو سباء ذرارينا مع قتل مقاتلينا .

فأبی حبی إلا محاربة رسول الله ﷺ فقال له : ساورك بن أبي الحقيق فغضب حبی - وكان ضعيفاً عندهم في عقله كأنه جن - يا حبی ، أنت رجل مشئوم ، تهلك بنی النضير ، وقال : كل بنی النضير قد كلمتني حتى هذا الجنون .

فصربه إخوه وقالوا لحبی : أمرنا لأمرك تبع لن خالفك .

فأرسل حبی أخيه جدي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ : إننا لا نبرح من دارنا وأموالنا ، فاصنع ما أنت صانع ) .

لقد حاربت يهود بنو النضير ، وأعلنوها شعواء ضد المسلمين ، وانتهى خلاف الحمام والصقور إلى رأي واحد هو حرب النبي ﷺ وصحابه .

﴿ وظنوا أنهم مانع لهم حصونهم من الله ﴾ .

يقول حبی بن أخطب أكبر مجرميهم :

(أنا أرسل إلى محمد أعلمك أنا لا نخرج من دارنا وأموالنا ، فليصنع ما بدا له .

نرم <sup>(١)</sup> حصوننا ، ثم ندخل ما شئنا ، وندرب <sup>(٢)</sup> أزقتنا ، ونقل الحجارة إلى حصوننا ، وعندها من الطعام ما يكفيها سنة ، وما علينا واتن <sup>(٣)</sup> في حصوننا لا تخاف قطعه ، فترى محمداً يحضرنا سنة ! !! <sup>(٤)</sup> .

وهذا الاحتياط في التفكير البشري صحيح ، فلن يستطيع المسلمين حصار بنى النصير عاماً كاملاً ، وسينسحبون ، وال القوم في مأمن من غذائهم وشرابهم وقوتهم ، أما في القدرة الإلهية فخطأ محض .

فمن يحارب الله ورسوله ؟ ومن لجند الله في هذه الأرض ؟ .

﴿فَاتَّاهُمُ اللَّهُ مِنْ حِيثُ لَمْ يَحْتِسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعب﴾ .

إنه سلاح يهدى الله وحده ، يرمي به من شاء من عباده ، فإذا هم كأمس الدابر :

﴿سَأَلَقَى فِي قُلُوبِ الظِّنَّ كُفَّارًا الرُّعب﴾ و كان هذا في بدر .

﴿وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعب﴾ وهذا هو اليوم في بنى النصير .

إذا انهار حصن القلب ، وتحطم قلعة الشجاعة في البنين وغزاها الرعب من أقطارها فماذا تتفق الصياصي الحصون .

وظن اليهود أن حصونهم الحصينة ستمنع دخول الرعب والفزع إلى قلوبهم وهم يحددون الله ورسوله ، ولكن هيهات : « فمن عادى لي ولها آذنته بالحرب ». .

وهم يعلمون أنهم إنما يحددون الله ويحاربون رسوله الذي يعرفونه في كتبهم كما يعرفون أبناءهم ، وما شهدناه من الحوار السابق يؤكّد هذا المعنى .

ولنشهد : كيف قذف الله في قلوبهم الرعب ؟

( فلما رأوا رسول الله وأصحابه قاما على جدر حصونهم معهم النبل والحجارة . واعتزلتهم قريطة فلم تعنهم سلاح ولا رجال ولم يقربوهم ، وجعلوا يرموا ذلك اليوم بالنبل والحجارة حتى أظلموا . وجعل أصحاب رسول الله صلوات الله عليه يقدمون من كان تخلف

(٢) نُدْرَبْ أَزْقَتَنَا : ندخل الدرج فيها ونجعلها صالة للمشي .

(٤) المغارى للواقدى / ١ / ٣٦٨ .

(١) نرم حصوننا : نصلحها .

(٣) واتن : دائم .

في حاجته حتى تتموا عند صلاة العشاء .. وبات المسلمون يحاصرونهم . يكثرون حتى أصبحوا ...

وأمسوا قلم يقربهم ابن أبي ولا أحد من حلفائه ، وجلس في بيته ، وينتسب بنو النضير من نصره ، وجعل سلام بن مكشم وكتانة بن صويراء يقولان لحي : أين نصر ابن أبي كما زعمت ؟ قال حي : فما أصنع ؟ ملحمة كتبت علينا . ولزم رسول الله عليه الدروع وبات وظل محاصراً لهم ، وكان رجل من اليهود يقال له عزوك . وكان أعنجراماً ، فرمى ، فبلغ نبله قبة النبي عليه . فأمر بقتله فحولت إلى مسجد الفضيغ<sup>(١)</sup> وتبعادت من التبل .

فلما كان ليلة من الليالي فقد على بن أبي طالب رضي الله عنه حين قرب العشاء ، فقال الناس : ما نرى علياً يا رسول الله : فقال رسول الله عليه : « دعوه فإنه في بعض شأنكم ! » فلم يلبث أن جاء برأس عزوك ، فطرحه بين يدي رسول الله عليه . فقال : يا رسول الله ، إني كمنت لهذا الخبيث ، فرأيت رجلاً شجاعاً . فقلت : ما أجره أن تخرج إذا أمسينا يطلب منا عزة . فأقبل مصلتاً سيفه في نفر من اليهود ، فشددت عليه فقتلته ، وأجلى أصحابه ولم يرحو قريباً ، فإن ثبت معى نفر رجوت أن أظفر بهم ، فبعث أبو دجانة وسهل بن حنيف في عشرة من أصحابه ، فأدركوه قبل أن يدخلوا حصونهم ، فقتلواهم وأتوا برعوسمهم فأمر رسول الله عليه برعوسمهم فطرحت في بعض بئار بني خطمة ..

فأرسل حي إلى رسول الله عليه : يا محمد ، نحن نعطيك الذي سألت ، ونخرج من بلادك . فقال رسول الله عليه : « لا أقبله اليوم ، ولكن اخرجوها منها ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقة »<sup>(٢)</sup> . فقال سلام : أقبل ويحك قبل أن تقبل شرا من هذا ! فقال حي : ما يكون شر من هذا ؟ قال سلام : يسبى الذريعة ويقتل المقاتلة مع الأموال ، فالآموال أهون علينا إذا لحمنا هذا الأمر من القتل والسباء . فأبى حي أن يقبل يوماً أو يومين . فلما رأى ذلك يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب قال أحدهما لصاحبه : وإنك لتعلم أنه رسول الله ، مما تتضرر أى نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا ؟ . فنزل لا من الليل فأسلموا فأحرزوا دماءهما وأموالهما .

وحاصروا رسول الله عليه خمسة عشر يوماً ، ثم نزلت اليهود على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، فأجلأهم رسول الله عليه من المدينة ، وولي إخراجهم محمد

(١) مسجد الفضيغ : اسمه « مسجد الشمس » اليوم وهو شرق قباء .

(٢)

الحلقة : السلاح .

ابن مسلمـة فـقالـوا : إنـا دـيـونـا عـلـى النـاسـ إـلـى آـجـالـ . فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ الـحـلـمـ وـضـعـواـ»<sup>(١)</sup> .

لـقـد قـذـفـ اللـهـ تـعـالـى فـي قـلـوبـهـمـ الرـعـبـ ، فـدـكـ حـصـونـ قـلـوبـهـمـ قـبـلـ أـنـ يـدـكـ حـصـونـهـمـ ، وـزـلـزلـ قـلـوبـهـمـ وـهـمـ فـي بـرـوـجـهـمـ المـشـيـدةـ .

١ - فـهـذـا جـيـشـ مـحـمـدـ عـلـيـهـ الـحـلـمـ ، قـدـ تـكـامـلـ وـاسـتـمـ حـولـ حـصـونـهـمـ ، فـضـرـبـ عـلـيـهـمـ الـحـصـارـ ، وـمـا غـزـى قـوـمـ فـي عـقـرـ دـارـهـ إـلـا ذـلـواـ .

٢ - وـانتـظـرـ بـنـوـ النـضـيرـ جـيـشـ اـبـىـ مـعـ الـأـلـفـينـ مـنـ أـصـحـابـهـ أـنـ يـأـتـىـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ ، فـيفـكـ الـحـصـارـ عـنـهـمـ ، وـيـصـطـرـعـ الـجـيـشـانـ ، جـيـشـ اـبـىـ وـجـيـشـ النـبـىـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ ، وـتـدـورـ الدـائـرـةـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ ، وـتـبـقـىـ لـلـيـهـودـ قـوـتـهـمـ وـشـكـيمـتـهـمـ وـجـدـهـمـ وـسـلاـحـهـمـ ، وـلـكـنـ دـوـنـ جـدـوىـ .

٣ - وـانتـظـرـ بـنـوـ النـضـيرـ إـخـوـانـهـمـ مـنـ بـنـىـ قـرـيـظـةـ ، إـذـ لـمـ يـحـضـرـ جـيـشـ الـمـنـافـقـينـ ، لـكـنـ بـنـىـ قـرـيـظـةـ رـفـضـواـ نـقـضـ الـعـهـدـ ، وـقـالـ زـعـيمـهـمـ كـعـبـ بـنـ أـسـدـ : « يـنـقـضـ الـعـهـدـ رـجـلـ مـنـ بـنـىـ قـرـيـظـةـ وـأـنـاـ حـىـ » ، وـلـمـ يـعـنـهـمـ بـمـالـ وـلـاـ سـلـاحـ .

٤ - وـقـطـعـتـ النـخلـ ، فـقـطـعـتـ قـلـوبـهـمـ مـعـهـاـ ، فـهـىـ عـمـادـ ثـرـوـتـهـمـ ، فـغـرـعـ حـىـ وـأـرـادـ أـنـ يـوـقـفـ عـوـيـلـ النـسـاءـ عـلـىـ النـخـلـ ، فـكـيـفـ إـذـا فـقـدـواـ الـمـالـ وـالـمـيـتـ وـالـأـهـلـ ؟ !

٥ - وـعـادـ الـصـرـاعـ مـنـ جـدـيدـ بـيـنـ الـقـيـادـاتـ ، وـبـدـاـ خـطـلـ رـأـىـ حـىـ ، فـأـبـدـىـ اـسـتـعـدـادـهـ لـلـمـوـافـقـةـ عـلـىـ الـجـلـاءـ ، وـلـكـنـ هـيـهـاتـ ، كـانـ هـذـا قـبـلـ الـمـعرـكـةـ ، أـمـاـ الـآنـ فـلـاـ ، إـلـاـ أـنـ يـخـرـجـواـ مـنـزـوـعـىـ السـلـاحـ ، كـمـاـ قـالـ عـلـىـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ .

شـروـطـ عـسـرـةـ جـدـيـدةـ ، وـثـمـنـ باـهـظـ جـدـيدـ ، لـابـدـ أـنـ يـقـدـمـهـ الـمـخـادـونـ لـلـهـ وـرـسـوـلـهـ .

٦ - وـرـفـضـ حـىـ أـنـ يـقـبـلـ ، تـرـىـ هـلـ لـاـيـزالـ يـأـمـلـ فـيـ الثـيـاتـ سـنـةـ عـلـىـ الـحـصـارـ .

لـقـدـ اـبـدـأـتـ مـحاـولـةـ الـقـتـالـ ، فـأـخـفـقـتـ وـبـاءـتـ بـالـفـشـلـ الـذـرـيـعـ ، فـهـذـا بـطـلـهـمـ وـرـأـيـهـمـ عـزـوـكـ مـعـ الـفـدـائـيـنـ الـذـيـنـ غـادـرـوـاـ الـحـصـنـ لـتـحـدـىـ الـمـسـلـمـينـ وـقـتـالـهـمـ ، قـدـ اـنـتـهـيـاـتـهـمـ صـرـعـىـ عـلـىـ يـدـ عـلـىـ رـضـىـ اللـهـ عـنـهـ وـإـخـوـانـهـ مـنـ الـفـتـيـانـ الـأـنـصـارـ الـأـمـجـادـ ، فـلـاـ جـدـوىـ مـنـ الـمـقاـومـةـ .

(٣) المـقـازـىـ لـلـوـاقـدـىـ / ١٣٧ـ وـمـاـ بـعـدـهـ .

٧ - وأمام رفض حتى الجلاء بدون السلاح ، كانت الطامة الكبرى الجديدة ، فقد خرج اثنان من علية أصحابه يعلنان إسلامهما ، وينضمان للنبي ﷺ ، ويحرزان دماءهما وأموالهما ، إذن اتسع الخرق على الرافع .

الخليف تخلى والقداديون صرعي ، وفي ابتداء محاولات التسلل من خلفه ، سيسقط وتسقط زعامته ، والقادة الآخرون يهددونه أنه إن لم يقبل فليس أمامه إلا قتل المقاتلة : وسي النساء والذرية ، ووافق صاغراً ذليلاً على الجلاء بغير السلاح .

إن المسلم ليكتب هذه الأمجاد ، ويسيطر هذه الصفحات ، وفي قلبه لوعة ، وفي نفثاته حسراً ، حين يرى الصورة تنقلب اليوم من جديد ، فإذا اليهود يحتلون الأرض ، ويسلّمون العرض ، وإذا المهجرون المسلمين لا اليهود ، وإذا بالتقسيم الذي كان مطلباً يهودياً يرفضه العرب قبل أربعين عاماً ، إذا به اليوم مطلب عربي فلسطيني يطلبه العرب فلا تعطيه يهود .

لقد نال اليهود جزاء حربهم لله ورسوله وهم يعلمون أنه حق ، ويعروفونه كما يعرفون أبناءهم ونساءهم ، فكتب الله عليهم الذل والصغار لهذه المحاددة .

والاليوم يلقى العرب جزاء حربهم لله ورسوله . وجذار قتلامهم للذين يأمرؤون بالقسط من الناس ، فيحاصرون ويهجرون ، ويرجون قطعة أرض في هذا الوجود ، فلا تمن عليهم إسرائيل بشير من الأرض ، وتسميها الأرض المحررة ، وكتب الله عليهم الذل والصغار لهذه المحاددة .

﴿ ليس بأمانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يَجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١) .

لقد قذف الله تعالى الرعب في قلوب اليهود ، وماذا بعد ذلك ؟

﴿ يَخْرُبُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(وكانوا في حصارهم يخرّبون بيوتهم بأيديهم مما يليهم ، وكان المسلمون يخرّبون ما يليهم ويحرّقون حتى وقع الصلح ، فتحملوا يحملون الخشب ونحو الأبواب . وقال رسول الله ﷺ : لصفية بنت حبي رضي الله عنها : « لو رأيتني وأنا أشد الرحل خالك لحرى بن عمرو وأجلبه منها ! » .

(١) النساء / ١٢٣ .

وحملوا النساء والصبيان ، فخرجو على بلحارث بن الخزرج ، ثم على الجبلية ، ثم على الجسر ، حتى مروا بالصلى ثم شقوا سوق المدينة ، والنساء في الهوادج عليهم الحرير والديباج ، وقطف الخز الأخضر والحمر ، وقد صفت لهم الناس ، فجعلوا يمرون قطاراً إثر قطار ، فحملوا على ستمائة بعير .

يقول رسول الله ﷺ : « هؤلاء في قومهم منزلة بنى المغيرة من قريش » (١) .

﴿فاعتبروا يا أولى الأ بصار . ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

فلو أصروا على عدم الجلاء لكان الأمر كما قال رئيسهم سلام ، قتل المقاتلة وسيى النساء والذرية ، ولهم في الآخرة عذاب النار .

لقد كانوا هم الورثة لدين الله والحملة لكتابه ، وكان المقدر أن يكونوا هم الأنصار لله ولرسوله لما يجدونه مكتوباً عنه في كتبهم ، لا الأميين الذين كانوا يستفتون به عليهم . ولكنهم لما أصروا على كفرهم ومشاقتهم لله ورسوله ، فكان لهم الجلاء والذل ، ولهم في الآخرة النار .

وحيى بن أخطب هذا لم ينته دوره بعد ، ولكتنا نعرض له منذ لحظة وصول النبي ﷺ ، ونستمع لموقفه من فم ابنته صفية بنت حبي رضي الله عنها وأم المؤمنين في الأرض تقول :

( كت أحب ولد أبي إليه ، وإلى عمى أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدِيهما إلا أخذاني دونه ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، نزل قباء ، في بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حبي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين (٢) قالت : فلم يرجعا حتى كانوا مع غروب الشمس . قالت : فأئيا (٣) كاللين ، كسلانين ساقطين ، ييشيان الهوييني . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلى واحد منهمما ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمى أبي ياسر وهو يقول لأبي حبي : أهُوَ هُوَ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه وتثبته؟ قال : نعم قال : فما في نفسك منه؟ قال : عدواته والله ما بقيت ) (٤) .

(١) المازى للواقدى / ١ / ٣٧٤ .

(٢) مغلسين : مع الغلس أي قبيل الصبح .

(٤) السيرة النبوية لأبي هشام / ١١ / ٥١٨ .

(٣) كاللين : تعين .

يقول عز وجل :

﴿ ما قطعتم من لينة أو تركموها قائمة على أصولها فإذا ذكر الله وليخرى الفاسقين . وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسالته على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله ولرسول ولذى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾<sup>(١)</sup> .

لو كان حديثنا في السيرة ، لانتهى الحديث عن المعركة ، وما يقدمه العرض البشري للسيرة لا يعدو ذكر التضحيات والبطولات والمواقف المشرقة . ونشهد اليوم في صفتنا الإسلامية كثيراً من التضحيات لكننا لأنجذب الشمار والتنتائج المترتبة عليها ، وكثيراً ما تتفوق التضحيات والبطولات الشمار المرجوة من النصر والتمكن في الأرض ، ومرد ذلك - والله أعلم - إلى الخطأ في المنهج ، فلا بد أن نتلقى السيرة النبوية من خلال القرآن الكريم ابتداءً ؛ لأنه هو الذي يعرض الأحداث لا للعرض ، ولكن للتربية لتكون هدى ونوراً وموعظة ، وفي القرآن الكريم يكون التركيز كله على بناء هذه النفوس وتربية هذه القلوب ، فهي السلاح الذي لا يهزء ، وهي السيف التي لا تُفل ، وهي الحصن الذي لا يقتتحم حين يتحصن بالإيمان والعقيدة الحق ، والقرآن الكريم يعرض النفوس في ضعفها وفي قوتها ، في انحدارها وفي سموتها ، وتنتمي المعالجة على ضوء هذا العرض .

ولم تكن هذه الكلمات ابتداءً إلا تمهدًا للانتقال إلى عملية البناء الداخلي في القلوب ، والذي يتم استعراضه في الماقاطع التالية من السورة .

لقد قطعت النخيل ، وشار مع قطعها أقاويل كثيرة ، شكلت نوعاً من البلبلة في النفوس ، وقد أثار هذه البلبلة سرور بنى النضير التي انطلقت إلى هذه النفوس لتأخذ دورها :

كانوا يقولون : يا محمد ، كنت تنهى عن الفساد ، ولم تقطع النخل ؟

واستجواب رسول الله ﷺ لرجائهم ، وأوقف قطع النخل .

وساور القلق النفوس ، هل قطع النخيل هو الحق ، أم إيقاؤها هو الحق ؟ وجاء الجواب :

(١) المختصر ٥ - ٧ .

﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فليذن الله . وليخزى الفاسقين ﴾ .

فقد كان القطع حكمة - ويذن الله - حتى يضطر اليهود أن يخضعوا ويتنازلوا  
ويذعنوا.

وكان إبقاءه حكمة ، فهو في علم الله سيفي للمؤمنين فيئاً وغنية .

ونتيجة القطع والإبقاء واحدة هي : خزى الفاسقين في قطع نخيلهم يوم قطع ، وفي حرمانهم له يوم تم الجلاء .

( فقد أخرج عبد بن حميد ، عن قتادة قال : قطع المسلمين يومئذ التخل ، وأمسك أناساً كراهية أن يكون فساداً . فقال اليهود : آللله أذن لكم في الفساد ؟ فقال الله : ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ . قال : واللينة ما خلا العجوة من التخل إلى قوله : ﴿ وليخزى الفاسقين ﴾ . قال : لتغيظوهم ) <sup>(١)</sup> .

(وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذى ،  
وابن مردوه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ حرق نخل بنى  
النضير وقطع وهى البويرة ولا بقول حسان بن ثابت :

## فهان على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

«فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿مَا قطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ ترَكْمُوهَا .....﴾» (٢).

(وأخرج الترمذى وحسنه ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، فی قول الله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ﴾ قال : اللينة : النخلة ، ﴿ وليجزى الفاسقين ﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم وأمرروا بقطع النخل ، فحاك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضاً وتركتنا بعضاً ، فلتسألن رسول الله ﷺ ، هل لنا فيما قطعنا من أجر وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿ ما قطعتم من لينة ... ﴾ الآية )<sup>(3)</sup> .

(وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الدلائل ، عن مجاهد قال : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هي مغامم المسلمين ، وقال

٩١) المصطلح نفسه / (٢، ٣)

٩٨/٨ / الدار المشورة

الذين قطعوا : بل هي غيظ للعدو ، فنزل القرآن بتصديق من نهي عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم فقال : إنما قطعه وتركه بإذن الله )<sup>(١)</sup> .

وانتهت المعالجة الأولى ، لتبدأ المعالجة الثانية :

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَارْكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسْلِطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ )<sup>(٢)</sup> .

والمعالجة الثانية جاءت لتأكيد للصف المسلم ، أن في بنى النضير هو خالص لرسول الله ﷺ ، فلقد أعطاه الله تعالى إيه صرفاً من دون المسلمين ، والمسلمون لم يخوضوا من أجله معركة ولم يسوقوا خيلاً ولا ركاباً .

(أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن المنذر عن عمر ابن الخطاب قال : كانت أمواه بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ ، فكان ينفق على أهله منها نفقة ستتهم ، ثم يجعل ما بقى في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله )<sup>(٣)</sup> .

(وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد : ﴿فَمَا أَوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَكَابٍ﴾ قال : يذكرهم ربهم أنه نصرهم وكفاهم بغير عدة ولا كراع في قريظة وخمير )<sup>(٤)</sup> .

فقد قذف الله الرعب في قلوب بنى النضير ، واستسلموا دون قتال ، والأصل في غنيمة الحرب هي التي يقاتل المجاهدون عنها وينعمها ، وتقسم كما قسمت في بدر الخمس لله ورسوله ، والأخمس الأربعة للمجاهدين ، وحيث إن هذا الفيء قد غنمته المسلمين ولم يوجفوا عليه خيلاً ولا ركاباً ، إنما هو تسلط الله تعالى رسنه على الكافرين فينهارون ويستسلمون ، فبقى الغائم في هذه الحالة ملكاً لرسول الله ﷺ ، فقد أفاءها الله تعالى له ، وبذلك تنتهي الفكرة من ذهن الجندي المسلم ومدى أحقيته في الفيء .

وإذا كانت الأنفال في بدر حين راحوا يختصمون عليها جاءتهم المعاتبة مباشرة وزرعها الله من أيديهم وردها إلى الله ورسوله ، ثم أعادها إليهم بعد ذلك وجعل أربعة أخماسها للمجاهدين ، فلا غرو أن نجد هذا الإيضاح هنا لحالة تختلف عن حالة بدر ، في هذا الفيء الذي أفاءه الله تعالى على رسوله ، وحين يسمع أمر الله تعالى في أحقيه هذا المال فلن يجد بعد ذلك في نفسه ، أعطى أو منع .

. ٩٩ (٣ ، ٤) الدر المثور / ٨ .

. ٦ (٢) الحشر .

. ٩٦ (١) المصدر نفسه /

وتأنى المعالجة الثالثة ، عقب غزوة بنى النضير فى تحديد مصارف هذا الفيء :

﴿ ما أفاء الله على رسله من أهل القرى فلله ولرسول ولذى القرى واليتامى والمساكين و ابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾<sup>(١)</sup> .

( وبين هذه الآية الحكم الذى أسلفنا تفصيلاً ، ثم تعلل هذه القسمة فتضيع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى : ﴿ كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ ، كما تضيع قاعدة كبرى فى التشريع الدستورى للمجتمع الإسلامى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفيء وتوزيعه ، إلا أنهما تتجاوزان هذا الحادث الواقع إلى آماد كثيرة فى أسس النظام الاجتماعى الإسلامى .

**والقاعدة الأولى - قاعدة التنظيم الاقتصادى** — تمثل جانباً من أسس النظرية الاقتصادية فى الإسلام ، فالمملکية الفردية معترف بها فى هذه النظرية ، ولكنها محددة بهذه القاعدة ، قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، متنوعاً من التداول بين الفقراء ، فكل وضع ينتهى إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفاً من أهداف التنظيم الاجتماعى كله ، وجميع الارتباطات والمعاملات فى المجتمع الإسلامى يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع ، أو تبقى عليه إن وجد .

لقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة ، ففرض الزكاة ، وجعل حصيلتها فى العام اثنين ونصفاً فى المائة من أصل رؤوس الأموال النقدية ، وعشرة أو خمسة فى المائة من جميع الماحصلات ، وما يعادل ذلك من الأنعام ، وجعل الحصيلة فى الركاز وهو كنوز الأرض مثلها فى المال النقدى ، وهى نسب كبيرة ، ثم جعل أربعة أخماس القيمة للممجاهدين فقراء وأغنياء ، بينما جعل الفيء كله للفقراء ، وجعل نظامه المختار فى إيجار الأرض هو المزارعة - أى المشاركة فى الحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها - ، وجعل للإمام الحق فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء غير دها على الفقراء ، وأن يوظف فى أموال الأغنياء عند خلو بيت المال ، وحرم الاحتكار ، وحظر الربا ، وهما الوسائلتان الرئيستان لجعل المال دولة بين الأغنياء .

(١) الحشر / ٧ .

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى ، التي تعد قيداً أصيلاً على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى .

ومن ثم فالنظام الإسلامي نظام يبيع الملكية الفردية ، ولكنها ليس هو النظام الرأسمالي ، كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولاً عنه ، فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقاً بدون ربا وبدون احتكار ، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير ، نشاً وحده ، وسار وحده ، وبقى حتى اليوم وحده ، نظاماً فريداً ، متوازن الجوانب ، متعادل الحقوق والواجبات ، متناسقاً تناصق الكون كله ، منذ كان صدوره من خالق الكون ، والكون متناسق موزون .

**فأما القاعدة الثانية – قاعدة تلقى الشريعة من مصدر واحد :** ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ – فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية ، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ – قرآناً أو سنة – والأمة كلها ، والإمام معها لا تملك أن تخالف ما جاء به الرسول .. فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ؛ لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان ... وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشريع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان ، فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول ﷺ – والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها ، والإمام نائب عن الأمة في هذا – وفي هذا تنحصر حقوق الأمة ، فليس لها أن تخالف ما آتهاها الرسول في أي تشريع .

فاما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول ﷺ بخصوص أمر يعرض للأمة ، فسييلها أن تشريع له بما لا يخالف أصلاً من أصول ما جاء به الرسول ، وهذا لا ينقض تلك النظرية ، بل هو فرع عنها ، فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص ، وألا يخالف أصلاً من أصوله فيما لانص فيه ، وتنحصر سلطة الأمة – والإمام النائب عنها – في هذه الحدود ، وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية ، وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله ، وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له ، والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله ، كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح .

وتربط الآية هاتين القاعدتين في قلوب المؤمنين بمصدرها الأول .. وهو الله ،

فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله : ﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ وهذا هو الأضمان الأكبر الذي لا احتيال عليه ولا هروب منه ، فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر ، خبير بالأعمال ، وإليه المرجع والمتاب ، وعلموا أنه شديد العقاب ، وعلموا أنهم مكلفون أن لا يكون المال دولة بينهم وأن يأخذوا ما آتاهم الرسول عن رضى وطاعة ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه في غير ترخيص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب )<sup>(١)</sup> .

ولنشهد كيف وزع رسول الله ﷺ الفيء ، بحيث لا يكون دولة بين الأغنياء :

( فحدثني معمر عن الزهرى عن خارجة بن الزياد عن أم العلاء قالت :

صار لنا عثمان بن مظعون في القرعة ، وكان في منزلنا حتى توفي ، وكان المهاجرون في دورهم وأموالهم ، فلما غنم رسول الله ﷺ بني النضير ، دعا ثابت بن قيس بن شamas فقال : « ادع لي قومك ! » قال ثابت : الخزرج يا رسول الله ؟ قال : « الأنصار كلها ! » ، فدعا له الأوس والخزرج ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إليهم في منازلهم ، وأثرتهم على أنفسهم ، ثم قال :

« إن أحبتكم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله على بني النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحبتكم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » ، فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا :

يا رسول الله ، بل تقسيمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا .

ونادت الأنصار : رضينا وسلمتنا يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ :

« اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ! »

قسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه ، وأعطي المهاجرين . ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الفيء شيئاً ، إلا رجلين كانوا محتاجين - سهل بن حنيف ، وأبا دجانة . وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق ، وكان سيفاً له ذكر عندهم ... ووسع رسول الله ﷺ في الناس منها )<sup>(٢)</sup> .

إنه مجتمع يبني على غير طراز سبق في تاريخ البشرية ، مجتمع التحريم فيه أغنياؤه

(١) في ظلال القرآن / م ٦ / ج ٢٥٢٥ / ٣٧٩ . (٢) المغارى للواقدى / ١ .

وفقراءه ، وأصبح يمثل مجتمع الإيثار في الأرض . لقد تم التأكيد بداعع ذاتي ، لابقotope  
السلاح وإرهاب السلطان ، وقاسم الأنصار إخوانهم المهاجرين أرضهم وديارهم وأموالهم  
ونسائهم ، بطوعية ومرهوة عجبيين في تاريخ البشرية ، وهذا قد مر عاماً واثنان وثلاثة على  
هذا الوضع ، وسُنحت فرصة للمهاجرين بأن توزع عليهم ثروة ضخمة من فيء بنى  
النصر ، وتمت التجربة الفاقحة النجاح ، وأن الأوان لأن يعود للأنصار ماله وداره  
وأرضه ، ورسول الله ﷺ الذي قال من قبل : « تأزوا في الله أخوين أخوين » هو الذي  
قال الآن :

« وإن أحبتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » ، أو يشتراكوا في الفيء سواء .  
وكان الأمر معروضاً على سيد الأوس والخرج .

إن ضيفاً ينزل على الرجل أكثر من ثلاثة أيام يتناول الطعام عنده والمبيت ، يبدأ  
الإحساس لدى المضيف بالثقل والتبريم ، ويتناول الفرصة السانحة ليتحول عنه .

وهذه التجربة ليست ثلاثة أيام ، بل ثلاث سنوات ، والمشاركة في شطر الأموال  
والأراضي والبيوت ، ويستمع سيد الأوس والخرج للتحذير النبوى ، فينطلقان عن موقف  
موحد :

يا رسول الله بل تقسمه للمهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا .  
ولم يكن موقف زعامة مفروضة فحسب ، لقد كان موقفاً أبعد من ذلك  
وأعمق من ذلك :

كان موقف الأنصار جميعاً هو التأييد المطلق لموقف قيادتهم . لأنهم لم يقولوا فقط :  
سلمتنا يا رسول الله ، إنما قالوا : ( رضينا وسلمتنا يا رسول الله ) .

هذا المجتمع بهذه المواصفات ، وبهذه المعايير ، وبهذا المستوى من البناء في الحب  
والتفاني والود ، حق له أن يشترى رب العزة جل جلاله عليه ، وأن يصبح هذا الثناء قرآنآ يتلى  
في الأرض ويتبعد به في الوجود ، فجاء قوله عز وجل يصف المهاجرين الذين ضحوا  
بدنياهم في سبيل الله :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتغرون فضلاً من الله  
ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ (١) .

(١) المشر / ٨ .

وجاء قول الله عز وجل يصف الأنصار الذين ضحوا بدنياهم لإخوانهم في سبيل الله :

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَجْبُونَ مِنْ هَاجِرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مَا أُوتَوْا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَّاصَةٌ وَمَنْ يَوْقَنْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

لقد حملت الآية الأولى أربع شهادات تزكية من رب العالمين للمهاجرين :

- ١ - أخرجوا من ديارهم وأموالهم .
- ٢ - يتغرون فضلاً من الله ورضوانا .
- ٣ - وينصرُون الله ورسوله .
- ٤ - أولئك هم الصادقون .

وحملت الآية الثانية أربع شهادات تزكية من رب العالمين للأنصار :

- ١ - تبُّوءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ .
  - ٢ - يَجْبُونَ مِنْ هَاجِرَ إِلَيْهِمْ .
  - ٣ - وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مَا أُوتَوْا .
  - ٤ - وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَّاصَةٌ .
- ومن كان يحمل هذه الصفات الأربع ، فقد وُقِيَ شح نفسه وأفلح .
- ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

هذا هو المجتمع النموذج الذي تربى بكتاب الله وعلى يدي رسول الله ﷺ ، وإذا كان مجتمع المهاجرين من الرعيل الأول قد مر عليه ما ينوف عن ستة عشر عاماً وهو يتلقى هذه التربية ، فإن مجتمع الأنصار لم تتجاوز التربية فيه خمس سنوات<sup>(١)</sup> ، لكن مجتمع المهاجرين كان هو محضن التربية للأنصار الوافدين الجدد ، ورأوا بأعينهم المثل العليا للذين هجرُوا أرضهم وأموالهم وديارهم وأبناءهم في سبيل الله ، فاحتذوا حذوهم ،

(١) الحشر / ٩.

(١) إذا أخذنا بالحسنان فترة ستين قبل الهجرة ، والتي تمت خلالهما يتعذر العقبة الأولى والثانية .

وشاركوهם في أموالهم وديارهم ، وآثروهم على أنفسهم ، ولم يجدوا في صدورهم حاجة ولا غضاضة ، فلم يكن الأمر تكلاً ولا نفاقاً ولا هدفاً سياسياً ، بل كان صادراً عن حب حقيقى عميق كما قال جل شأنه :

﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ .

لقد خلصوا من حظ أنفسهم ، ومن العبودية لها ، وتحررت أنفسهم من الشعور والبخل وحب الذات والأثرة ، وبقيت ترتفق حتى وصلت مرحلة الإيثار في صف الأخوة ، وقام المجتمع على الحب والود ، ولم يقم على الإرهاب والضغط والنفاق السياسي ، وكشفت هذه الحقيقة تماماً يوم كان يدهم الخيار أن يستردوا ديارهم وأموالهم بتوجيهه نبوى ، فأبوا ذلك قائلين :

يار رسول الله تقسمه بينهم ، ويكونون في دورنا كما كانوا .

لقد بادلوهم الفضل ، فقد شعر الأنصار بدور المهاجرين في تربيتهم وتفقيههم في دين الله ، فأحبواهم وآثرواهم على أنفسهم ، وشهد الله تعالى لهم بذلك .

قد تكون العواطف صادقة في لحظة من اللحظات ، ويتم التصعيد بها ، لكن أن يستمر هذا الأمر حتى يصبح خلقاً يتصف به ، أو خلقة يتحلى بها ، فهنا مكمن العظمة .

إذا كان الأمر تسامياً في البداية ، واستمرت التجربة بعد ذلك ، فلا بد من النزول إلى أرض الواقع ، وكان استمرار هذا التسامي ثلاثة سنوات تجربة فريدة بحد ذاتها ، وكافية للحكم على تميز هذا المجتمع في الم وجود ، جاءت الفرصة لاختبار هذه التجربة من رب العالمين ، ورسول رب العالمين .

جاءت الفرصة بعد بدر لتعيد الأمور إلى نصابها ، وتعيد هذا التسامي إلى وضعه الفطري ، وجاء قول الله عز وجل :

﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى بعض في كتاب الله﴾ .

وقد انتهى التوارث بين المتأخرين ، وعاد التوازن إلى وضعه الطبيعي بين أولي الأرحام ، وجاء قول الرسول ﷺ :

« وإن أحببتم قسمته بين المهاجرين ، وتحولوا عن دياركم » .

ومع ذلك لم تكن القضية تسامياً عاطفياً فقط ، ولم تكن واجباً دينياً فقط ، بل أصبح

خلقاً وسجية ، أصبح حباً يتغلغل في الأفخدة ، وانخلاعاً عن شع النفس فلا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، وإشاراً في التعامل على النفس ولو كان بهم فاقة أو خصاصة .

لقد تمت وحدة بين شعبي مصر وسوريا عام ثمانية وخمسين وستمائة وألف للميلاد ، بتصعيد شعبي عاطفي ، غير فيها الشعب السوري عن مدى حبه لمصر وقادتها آنذاك . ولكن هذا التصعيد سرعان ما هبط ، وما أن حانت الفرصة حتى تم الانفصال بين الدولتين ، وهبطت حدة هذا الحب ، وساد الشقاق والخلاف بين الدولتين ولم يلتئم إلى اليوم ، وقد مر عليه قرابة ثلث قرن .

والذين جاءوا من بعدهم ، راحوا يأخذون من هذا المعين على تفاوت بين المستويين وهم يدينون بالحب والولاء للمهاجرين والأنصار الذين تربوا على أيديهم . لم يكونوا يملكون إلا الدعوة الخالصة لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ، ويضرعون إلى ربهم ألا يجعل في قلوبهم غلاً للمؤمنين :

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوكُمْ بَعْدَهُمْ يَقُولُونَ رَبِّنَا الْأَخْرَىٰ وَإِخْرَانَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ  
وَلَا تَجِدُ فِي قُلُوبِنَا غُلَاءً لِّلَّذِينَ آتَيْنَا رِبِّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

وجاءت شهادة رب العالمين لهذين الفريقين ، السابقين واللاحقين ، في آية أخرى :  
﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمْ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَعْدَ اللَّهُمَّ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ  
الْعَظِيمُ﴾ (٢) .

وجاءت الشهادة النبوية :

« خيركم قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... » (٣) .

ونؤكد فنقول : إن المجتمع الذي يقوم على هذه اللبنات بهذه الصياغة ، هو الذي يعطيه الله تعالى نصره وتأييده ، وين على المؤمنين به فيقول لهم :

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوْلَى الْحُشْرِ مَا ظَنَّتُمْ  
أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ مَا نَعْتَهُمْ حَصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حِيثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا  
وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعبُ يَخْرُبُونَ بِيَوْمِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيَ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأْوِي

(١) الحشر / ١٠٠ . (٢) التوبة / ١٠١ . (٣) رواه السنّة إلا ابن ماجة .

الأبصار . ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب )١( ، ويقول لهم :

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَكَابٍ وَلَكُنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ )٢( .

وحيث تساءل الحركة الإسلامية اليوم عن سبب فقدان النصر ، وعن سبب تخلي الله تعالى عنها ، في موطن أو مكان ، فستأخذ الجواب من هذا الواقع الإسلامي الأول ، وننظر إلى مدى نجاحها في تكوين لبناتها وصياغة أفرادها على هذا المستوى من الحب والود ، أم أن الغل والشقاق هو الذي يسود ؟ ؟ ؟

ومن الجانب النفسي إلى الجانب الحقوقى المادى ، يطالعنا فقه عمر رضى الله عنه فى الذين يستحقون الفيء ، وهى المشكلة العويصة التى واجهته حين طالبه المجاهدون المسلمين بتوزيع الأراضى التى غنموها فى الشام والعراق ، وكان فى حسه الإسلامى الذى تربى على أن لا يكون المال دولة بين الأغنياء فقط ، يرفض هذا التوزيع — ويهدد المجاهدون بأخذ حقهم بالسيف . ثم يعکف على كتاب الله ، ويعلن أن هذه الأرضى جمیعاً ليست من حق المجاهدين فقط ، بل هي حق المسلمين إلى قيام الساعة ، وحكمها حكم الفيء الذى أفاءه الله تعالى على رسوله فى بنى النضير .

(أخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن زنجويه معاً فى الأموال ، وعبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردوه والبيهقي فى سننه ، عن مالك بن أوس بن الحذثان قال :

قرأ عمر بن الخطاب : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ حتى بلغ ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَرْبَى ﴾ حتى بلغ : ﴿ لِلْفَقَرَاءِ الْمَهَاجِرِينَ ﴾ إلى آخر الآية فقال : هذه للمهاجرين ، ثم تلا : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية فقال : هذه للأنصار ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : استوبيت هذه المسلمين عامة ، وليس أحد إلا له فى هذا المال حق إلا ما تملكون من وصيتكم ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعى — وهو

.)٢( المختصر / ٦ - ٥ .

.)١( المختصر / ٢ - ٥ .

يسير حمره - نصيحة منها لم يعرف فيها جبيه )<sup>(١)</sup>.

( وأخرج ابن أبي شيبة وابن زنجويه في الأموال ، وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ماعلى وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا المال حق إلا ماملكت أيانكم )<sup>(٢)</sup>.

( وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في سننه عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : قسم عمر ذات يوم قسماً من المال ، فجعلوا يثنون عليه ، فقال : ما أحمقكم ! لو كان لى مأعطيتكم منه درهماً )<sup>(٣)</sup>.

وأخرج ابن سعد عن السائب بن يزيد : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول :

والذى لا إله إلا هو - ثلاثاً - مامن الناس أحد إلا له حق في هذا المال أعطيه أو مُنْعَه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد ملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله ، وقسمنا من رسول الله ﷺ ، فالرجل وبلاوه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناه في الإسلام ، والرجل وحاجته في الإسلام ، والله لئن بقيت ليائياً الراعي بجبل صنعاً حظه من هذا المال وهو مكانه )<sup>(٤)</sup>.

ولكن مجتمع المدينة وبعد أحد ، لم يعد فقط مجتمع الخلص من المهاجرين والأنصار ، إنما أصبح إليه مجتمع جديد هو مجتمع المنافقين ، يعرف بسمات أشخاصه لا يتميزهم في مجتمع منعزل . ويأخذ الحديث عن المنافقين شوطاً واسعاً ، لما كان لهم من دور تأمري رهيب ضد المسلمين فيبني النصيحة بعد دورهم الخنزى في أحد :

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوه يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخر جنم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوه لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينتصرون لهم ولئن نصرهم ليولن الأدبار ثم لا ينتصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى ممحونة أو من وراء جدر بأسمهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم فريا

١٠٣ / ٨ ) الدر المثور ( ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ )

ذاقوا وبالأمر لهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر  
قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهمما أنهما في النار خالدين  
فيها وذلك جزاء الظالمين <sup>(١)</sup> .

تأتي هذه الجبولة لتحدث من جديد عن اليهود والمنافقين ، حيث تعرض موقفهم من  
جهة ، وسماتهم من جهة ثانية ، وتوضح روايات السيرة المذكورة في القرآن  
الكرم بأجل بياني :

( ... وأخذوا في الجهاز - بنو النضير - في بينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول ابن  
أبي ، أتاهم سويد وداعس فقالا :

يقول عبد الله بن أبي : لا تخرجو من دياركم وأموالكم ، وأقيموا في حصنكم ،  
فإن معى ألفين من قومي وغيرهم من العرب ، يدخلون معكم في حصنكم فيimotoون عن  
آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريطة فإنهم لن يدخلوكم ، ويمدكم حلفاؤكم  
من غطفان ، وأرسل ابن أبي إلى كعب بن أسد يكلمه أن يمد أصحابه فقال : لا ينقض من  
بني قريطة رجل واحد العهد ، فيئس ابن أبي من قريطة ، وأراد أن يلجم الأمر فيما بينبني  
النضير ورسول الله عليه السلام ، فلم يزل يرسل إلى حبي حتى قال حبي : أنا أرسل إلى محمد  
فأعلمه أنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا فليصنع مابدله ، وطمع حبي فيما قال ابن أبي  
فقال سلام :

ليس قول ابن أبي بشيء ، إنما يريد ابن أبي أن يورطك في الهلاكة حتى تخارب  
محمدًا ، ثم يجلس في بيته ويترکك . قد أراد من كعب بن أسد النصر فأبى كعب وقال :  
لا ينقض العهد رجل منبني قريطة وأنا حبي ، وإلا فإن ابن أبي وعد حلفاءه منبني قينقاع  
مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد ، وحصروا أنفسهم في صياصيهم ، وانتظروا  
نصرة ابن أبي ، فجلس في بيته ، وسار محمد إليهم ، فحصرهم حتى نزلوا على حكمه ،  
فابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس كلهم ، ونحن لم ننزل نضر به بسيوفنا  
مع الأوس في حربهم كلها ، إلى أن تقطعت حربهم فقدم محمد فحجز بينهم ، وابن أبي  
لا يهودي على دين يهود ، ولا على دين محمد ، ولا هو على دين قومه ، فكيف تقبل  
قولاً قاله ؟ .

قال حبي : تأبى نفسى إلا عداوة محمد ، وإن قتاله . . .

(١) المشر / ١١ - ١٧ .

وأرسل حبي أخاه جدي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ : إنا لانبرح من دارنا وأموالنا ، فاصنع مائنت صانع ، وأمره أن يأتي ابن أبي فيخبره برسالته إلى محمد ، ويأمره بتعجيل ما وعد من النصر ، فذهب جدي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ بالذى أرسله حبي ، ف جاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه فأخبره ، فأظهر رسول الله ﷺ التكبير ، وكبار المسلمين لتكبيره وقال : « حاربت اليهود ! »

وخرج جدي حتى دخل على ابن أبي وهو جالس فى بيته مع نفير من حلفائه ، وقد نادى منادى رسول الله ﷺ يأمرهم بالسير إلى بنى النضير ، فدخل عبد الله بن عبد الله ابن أبي على عبد الله أبيه ، وعلى التفر معه ، وعنه جدي بن أخطب ، فلبس درعه ، وأخذ سيفه فخرج يudo ، فقال جدي :

لما رأيت ابن أبي جالساً في ناحية البيت ، وابنه عليه السلاح ، يشتت من نصره ، فخرجت أعدوا إلى حبي ، فقال : ماوراءك ؟ قلت : الشر ! ساعة أخبرت محمداً بما أرسلت به إليه أظهر التكبير وقال : « حاربت اليهود ». فقال : هذه مكيدة منه . قال : وحدث ابن أبي فأعلمه ونادى منادى محمد بالسير إلى بنى النضير ، فقال : ومارد عليك ابن أبي ؟ . فقال جدي : لم أر عنده خيرا ، قال : أنا أرسل إلى حلفائك فيدخلون معكم .

وسار رسول الله ﷺ في أصحابه ، فصلى العصر في فناء بنى النضير ، فلما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا على جدر حصونهم معهم التبل والحجارة . واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم بسلاح ولا رجال ولم يقربوهم . . .

وأنسوا فلم يقربهم ابن أبي ولا أحد من حلفائه ، وجلس في بيته ، ويشتت بنو النضير من نصره ، وجعل سلام بن مشكم وكتانة بن صويراء يقولان لحبي :

أين نصر ابن أبي كما زعمت ؟

قال حبي : فما أصنع ؟ هي ملحمة كتبت علينا . . . (١).

لقد أكد القرآن مرة ثانية الأخوة بين المنافقين والكافرين ، رغم زعمهم أنهم مسلمون ، ولكنها أخوة زائفة أقل وأذل من أن تتحقق بينهم المولاة والنصرة ، إذا جد الجد :

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أَخْرَجُوكُمْ لَا يُخْرِجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوْتُلُوكُمْ﴾

(١) المغازي للواقدي / ١ / ٣٦٨ - ٣٧١ متفقان .

لَا ينصرُونَهُمْ وَلَكُنْ نَصْرُوْهُمْ لِيُولُّنَ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١﴾ .

وبسبب ذلك الخوف الحقيقي من المؤمنين ، وهم ابتداءً ، لم يكونوا منافقين إلا بدفع الخوف والرعب والمصلحة ، وإلا فلم يظهرون ما لا يبطنون ! ولم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ؟ ! .

لَا سببٌ حَقِيقِيٌّ إِلَّا خَوْفٌ وَالْحَفَاظُ عَلَى الْمَصَالِحِ ، وَلَأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ ، وَلَا وُجُودَهُ فِي كِيَانِهِمْ . فَرَبِّهِمُ الْمُؤْمِنِينَ تَفُوقُ رَبِّهِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :  
﴿لَأَنَّمَا أَشَدُ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ .

والحديث عن هذا البناء النفسي لهم ضرورة قائمة أن يتعرف عليها المؤمنون ، ولا يفت ذلك في أعضادهم حين يرون مثل هذه التجمعات ، فقد عادت الآيات تزيد الموقف تشخيصاً ، والقلوب تحليلاً ، والنفوس تمحيصلاً لتكون عارية على حقيقتها :

﴿لَا يَقَاوِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرْبَىٰ مَحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدَرٍ بِأَسْهَمِهِمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتِيٌّ﴾ .

( وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في - تشخيص - حالة المنافقين وأهل الكتاب حينما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان ، بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصدق هذا الخبر بصورة عجيبة ، فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحسنة في أرض فلسطين ، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولو الأدبار كالجزدان ، حتى لكان هذه الآية نزلت فيهم ابتداءً ، وسيحان العليم الخير .

وتبقى الملامح النفسية الأخرى : ﴿بِأَسْهَمِهِمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتِيٌّ﴾ على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم ، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقُلُونَ﴾ .

والظاهر قد تخدع ، فترى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ، وترى عصبيتهم بعضهم البعض ، كما ترى تجمع المنافقين أحياناً في معسكر واحد ، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتيها بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم ؛ إنما هو مظهر خارجي خادع ، وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخادع ، فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع

(1) المختصر / ١١٢، ١١١ .

المنظور ، وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد ، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء ، وتصادم الاتجاهات ، وما صدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقاً إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب ، وهذا الرياء الذي لا يمثلحقيقة الحال ، وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظاهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار ، وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس في القلوب الشتيبة المترفة .

والقرآن يقر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين ، ليهون فيها من شأن أعدائهم ، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم ، فهو إيحاء قائم على حقيقة ، وتبعة روحية ترتكن إلى حق ثابت ، ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله ، وتبمعت قلوبهم في الصف الواحد ، فلم تقف لهم قوة في الحياة .

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركون حقيقة حالهم وحال أعدائهم ، فهذا نصف المعركة ، والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع ، وفي سياق التعقب عليه ، وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل شرعاً يفيد منه الذين شهدوا بذلك الحادث بعينه ، ويتدبره كل من جاء بعدهم ، وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة ! )<sup>(١)</sup> .

وحين نعرض الصورتين المتقابلتين للمجتمع المؤمن ، وللمجتمع الكافر والمنافق يتبيّن لنا تماماً الفوارق الشاسعة بينهما ، وذلك من خلال العرض القرآني نفسه .

فالمجتمع المؤمن يقوم على الحب والألفة والود والإيثار والالتحام بين كل أجياله :

١ - ﴿للقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتغدون فضلاً من الله ورضواننا ويصررون الله ورسوله وأولئك هم الصادقون﴾ .

٢ - ﴿والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويتذرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ .

٣ - ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغرانا والإخوان الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾ .

(١) في ظلال القرآن / ٦ / ج ٢٨ / ٣٥٢٩ .

حيث يقابل هذه الصورة تماماً وبعدها مباشرة صورة المجتمع الكافر والمنافق :

- ١ - ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .
- ٢ - ﴿لَئِنْ أَخْرَجُوكُمْ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُتْلُوكُمْ لَا يُصْرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصْرُوكُمْ لِيُولُوكُمْ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ .
- ٣ - ﴿لَأَنَّمَا أَشَدُ رُهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ .
- ٤ - ﴿لَا يَقَاطُلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْبٍ مَحْصَنٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدْرٍ بِأَسْهَمِهِمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتِيٌّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقُلُونَ﴾ .
- ٥ - ﴿كَمُثُلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ذَاقُوا وَبَالْأَمْرِ هُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ .
- ٦ - ﴿كَمُثُلَ الشَّيْطَانُ إِذَا قَالَ لِلْإِنْسَانَ أَكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بِرَبِّيْءِهِ مُنْكِرٌ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ الْخَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ .

إنها صورة متناسبة تمثل البون الكامل بين الفريقين ، وأمام هذا التباين والتمييز والمفاصلة يأتي التوجيه القرآني في ختام السورة ، ويركز على المعانى الإيمانية الثابتة المستقرة في النفس .

وفي أعماق الضمير : في نداءات متكررة ، تتبع عملية الصياغة والبناء :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَسْتَهِنُوْنَفْسًا مَا قَدْمَتْ لَغَدَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرُ مَا تَعْمَلُوْنَ﴾ .

والتشديد على تقوى الله عز وجل مرتبين في الآية الواحدة لم يأت أمرًا عارضاً ، إنما جاء ليؤكّد مبدأً شاملًا حول قضية التحام البناء .

فالمجتمع المنافق والكافر صار بأمسه بيته شديداً ، وتوزعت قلوبه من الخوف والرغبة ، لأنّه لم يتق الله ، ولم تنظر نفوسهم إلى اليوم الآخر النّظرة التي تملأ كيانهم ومشاعرهم ، وغدا خوف الله هو الذي يملك أفتادتهم ، ولأنّهم لم يكونوا كذلك ، ولم يكونوا يفقهون حقيقة التوحيد حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر ، فانهارت قلوبهم ، وتحطمـت حصون نفوسهم ، ووصفـهم الله تعالى أدق وصف :

﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴿، لأنهم لا يفهون حقيقة التوحيد ، ولا يفهون حقيقة اليوم الآخر ، ولا يفهون حقيقة اطلاع الله تعالى عليهم على ما يفعلون ، فضمر خوف الله من قلوبهم ، واحتفى تقوى الله من وجودهم ، فصارت رهبة العبيد هي التي تسيطر على قلوبهم .

فكانوا بناءً على هذا الفقدان لا يقاتلون إلا من وراء جدر ، وكانوا بأسمهم بينهم شديد ، وكانوا كما قال القرآن : ﴿تحسّبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ فهم ينطلقون في كل تصرفاتهم وأعمالهم رغبة في مصلحة ، وخوفاً من بلية ، وهذا هو ميزانهم فيما ليء المنافقون الكفار ، أملاً في انتصارهم ، وتحقيق مكاسب من معونتهم ، أما إذا لم تتحقق هذه المصلحة ، فيقيعون في جحورهم ولا يصرون لهم ، ولو نصروهم . فما هي إلا لحظات حتى يولن الأدبار ، خوفاً من المؤمنين الذين يقاتلونهم .

ولابد أن يبقى الأمران متقابلين في حس المسلم ؛ ليكون على بيته من أمره :  
﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ .

﴿اقروا الله ولتضر نفوس ماقدمت لغد واقروا الله إن الله خير بما تعملون﴾ .

وحين لا يتحقق هذا الشرط ، ويتناقص تقوى الله في القلوب ليحل محلها تقوى الناس ، وصار نظر العبد لصالحه الحاضر القائم لا لغده بين يدي الله عز وجل ، وضمر في حس المسلم خوفه من اطلاع الله تعالى على ما يفعل .

حينئذ تقل الفوارق ، ويتبلاشى التباين ، ويقترب الفريقان من بعضهم اقتراباً ، يكاد يجعلهم شيئاً واحداً . حينئذ يمكن أن يقع . ما قاله رب العزة :

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ (١) .  
وأى تربية في هذا الوجود أعظم من هذه التربية .

فالمجتمع المؤمن ، والمؤمنون ، لم يأخذوا المواقف السابقة من الحب والود والألفة والإيهار والالتحام ، والنصرة ، وانتزاع الغل من القلوب ؛ لأنهم يحملون إسم الإيمان ، أو ولدوا من نسل قوم مؤمنين ، فالمافقون مثلهم ، آمنوا يوم آمن الآخرون ، وحملوا اسم الإسلام كما حمله أولئك . . ومع ذلك بقى المؤمنون مؤمنين ، وتحول زاعمو الإيمان إلى منافقين .

(١) المشر / ١٩ .

وَحِينَ يَتَوَجَّهُ الْخُطَابُ الْقُرْآنِيُّ إِلَى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَالَّذِينَ أَثْنَى عَلَيْهِمْ ثَنَاءً عَطْرَهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ تَوْجِيهِ التَّحْذِيرَاتِ الصَّارِمَةِ لَهُمْ إِذَا أَخْلَوُا بِالشُّروطِ مِنْ نَزَعِ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِذَا أَخْلَوُا بِتَقْرُى اللَّهِ ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ ، وَالْخَوْفِ مِنْ مَعَاصِيهِ ، وَالْخَوْفِ مِنْ لَقَائِهِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْخَوْفِ مِنْ خَبْرَتِهِ بِعَمَلِهِمْ وَأَنَّهُمْ مَحَاسِبُونَ عَلَيْهِ . إِنَّ هَذَا الشَّرْطَ إِذَا ضَعَفَ ، ضَعَفَتْ مَعَهُ النَّتَائِجُ الَّتِي كَانَتْ مَتَّحِقَّةَ عَلَى قُوَّةِ الإِيمَانِ ، وَقَدْ يَسْتَمِرُ الضَّعْفُ أَكْثَرُ وَتَرَاجِعُ النَّتَائِجُ أَكْثَرُ إِلَى دَرْجَةٍ . تَتَقَلَّلُ مِنْ :

تَقْوَى اللَّهِ إِلَى نَسْيَانِ اللَّهِ .

وَعِنْدَئِذٍ يَنْقَلِبُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْمَعْسِكِ الْآخِرِ ، مَعْسِكِ الْمَنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ .

وَلَابِدُ مِنْ تَنْمِيَةِ تَقْوَى اللَّهِ فِي الْقُلُوبِ وَلِتَزَكُّوْ وَنَزَدَادُ وَتَنَاصِلُ ، وَتَبْقَى لَهَا الرَّعَايَا وَالْمَتَابِعَةُ وَالْمَحَافَظَةُ عَلَيْهَا ، لِتَحَافَظَ عَلَى النَّتَائِجِ الَّتِي أَسْفَرَتْ عَنْهَا ، وَتَحَافَظَ عَلَى الثَّمَارِ الَّتِي جَنَّتْهَا .

أَمَا لَوْتَرَكَتْ بِلَا رَعَايَا وَبِلَا مَتَابِعَةٍ ، فَسُوفَ تَضَمِرُ وَتَضَمِرُ ، وَتَضَعُفُ وَتَضَعُفُ ، ثُمَّ تَتَلَاهِي ، وَتَحُولُ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ إِلَى نَسْيَانِ اللَّهِ ، وَعِنْدَئِذٍ يَصْبِحُ الْمُثَلُ هُوَ (الْفَاسِقُونَ) :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسَوا اللَّهَ فَإِنْ سَاهَمُوا أَنفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

وَالنَّقْلَةُ رَهِيَّةٌ ، فَلَيْسَ التَّنَازُلُ عَنِ التَّرْبِيَّةِ وَالتَّهَاوُنُ فِيهَا وَالْإِسْتَخْفَافُ فِيهَا أَمْرًا ثَانِوِيًّا فِي عَمَلِيَّةِ الْبَنَاءِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَسْتَمِرَ دُونَ انْقِطَاعٍ . . .

إِنَّ هَذَا التَّهَاوُنُ وَهَذَا الإِهْمَالُ وَهَذَا الْوَهْنُ ، سُوفَ يَقُودُ إِلَى النَّارِ ، وَسُوفَ يَحُولُ مَعْسِكَ الْذِينَ آمَنُوا إِلَى الْفَاسِقِينَ ، وَعِنْدَهَا تَكُونُ الْخَسَارَةُ ضَخْمَةً ، ضَخْمَةً لَا تَقْدِرُ بِشَمْنِ :

﴿لَا يُسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائزُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

وَلَابِدُ أَنْ يَعْيَى الْمُؤْمِنُونَ هَذَا الدَّرْسَ ، وَلَابِدُ أَنْ يَعْيَى الدُّعَاءُ إِلَى اللَّهِ هَذَا الدَّرْسُ ، حِينَ يَنْظَرُونَ إِلَى وَاقْعِهِمْ فِي لَحْظَاتٍ ، وَقَدْ أَهْمَلُوا تَرْبِيَّتِهِمْ ، أَوْ نَسُوا اللَّهَ فَإِنْ سَاهَمُوا أَنفُسُهُمْ ، فَإِذَا النَّصْرُ هَزِيمَةٌ ، وَالْحُبُّ حَقْدٌ ، وَالْإِيَّارُ أُثْرَةٌ وَبَغْيٌ ، وَالْجَمْعَةُ فَرَقةٌ ، وَذَاتُ الْبَيْنِ فَاسِدَةٌ ، قَدْ حَلَّتْ بِهَا الْحَالَقَةُ ، فَحَلَقَتِ الدِّينُ لَا الشِّعْرُ . . . وَأَصْبَحُوا وَالْفَاسِقُونَ مَثَلُهُمْ ، فِي تَفْرِقَ كَلْمَتِهِمْ ، وَصَرَاعَ أَهْوَائِهِمْ ، وَاحْتَلَافُ مُشَارِبِهِمْ ، وَتَبَانِ

(١) المشر / ٢٠.

قاعدتهم ، وإذا هم مفضوحون أمام أعدائهم ، تحولت معركتهم لداخلهم ، واستشرى السرطان في جسدهم ، وراحوا يندبون حظهم ، لم هذا ؟

﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ .

فما أحرانا أن نعي إلى هذا الدرس ، وأن نتيقظ على هذه التحذيرات ، وأن المواقف قد تتغير تغيراً جذرياً في الصفة المؤمن نفسه ، فإذا هم كالفاشين ، وإذا هم أصحاب النار .

وَمَا الْعِلاجُ؟

العلاج كان في هذا القرآن ، الذي هو جبل الله المتن ، وكلماته التامة ، والذي يفعل فعله في التربية ، فيحول من كان على شفا جرف هار إلى الحصن الحصين والقلعة الحصينة ، هو الذي يفتت كل عوامل الانحراف كما تفتت الجبال :

﴿لَوْأَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مَتَصْدِعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَلَكَ الْأَمْثَالُ نَضَرْبُهَا لِلنَّاسِ لَعْلَمَ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(۱)</sup> .

هذا القرآن ، هو هدى ونور وشفاء وموעظة للمتقين .

أما الكافرون ، فهو عليهم عمي ، وأولئك في ضلال مبين .

فالأمر إذن مع هذا القرآن ، أمر تفاعل وتاثير ، وعندئذ تقع المعجزة أما عندما يسد القلب :

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وتقفل القلوب عنه ، فلا يجد مدخلًا له بعد أن ران الكفر على القلب واستحوذ عليه ، عندئذ لا جدوى :

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهُنَّ كَالْحَجَارَةِ أَوْ أَشَدُ قَسْوَةً إِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ لَمَا يَسْفَرَ جَرَاحُهُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقْ فَيُخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(۲)</sup> .

فالجلب يفتت ويهبط من خشية الله ، ويكون خاشعاً متصدعاً ، ولا يتحرك هذا القلب ولا يستجيب ولا يتفاعل ولا يتاثر ، فقد أغلق وانتهى أمره حين يكون قد نسي الله فأنساه نفسه .

(۱) البقرة / ۷۴ .

(۲) الحشر / ۲۱ .

ويحضرني موقف ماؤذك أشد منه إيلاماً في النفس ، فقد كان بعض الدعاة ذات يوم في جلسة مغلقة ، يحسبهم العدو جميعاً وكانت قلوبهم شتى ، وهم في معركة مع عدوهم ، أكلت أحضرهم وبابتهم ، وأبادت خضراءهم ، وأفت أهلهم ، وقد اجتمعوا ليختاروا أميراً لهم ، يسمعون له ويطاعون ، ويعاهدون معه عدوهم . ومر قرابة أسبوع كامل . وهم عاجزون عن اختيار الأمير .

ولكن الأنكى من ذلك كله ، أنهم كانوا يتغايرون الكلمات ، يذكرون أنفسهم بقوى الله ، ورغبة الفرق ، وعاقبة الشفاق ، ويلقون الكلمات المؤثرة ، وفيهم الخطباء والفصحاء وفرسان المنابر ، وعلى يديهم اهتدى كثير من خلق الله ، ولكن دون جدوى ، وافتقرعوا على غير لقاء ، وكان آخر لقاءاتهم حين انقسموا بعدها فريقين وحزبين وجماعتين ، لقد كنت جزءاً من هذه المرحلة ، وشهدت بعيني كيف تقسو القلوب وتتقلل ، ويتجرع (الذين آمنوا) عاقبة نسيان الله وبروز حظ النفس ، خسائر ودماء وتضحيات ، وسيطرة الطغاة وتمكنهم في رقاب المؤمنين .

﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار التكبر سبحانه الله عما يشركون . هو الله الخالق الباريء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿<sup>(١)</sup> .

وكيف لا يتصدع الجبل ويخر خائعاً متصدعاً من خشية الله .

﴿ الله الذي لا إله إلا هو ﴾ ، فهو خالقه وخالق البشر والوجود كله ، وخلق الأكوان كلها ، وهو ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ ، فلا تخفي عليه خافية الحاضر والماضى والمستقبل ، المشهود والمغيَّب عن البشر وغيرهم في هذا الوجود كله يعلم الله .

﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ الذي أقام هذا الوجود ، بفريض رحمته ، ورعاه بفريض رحمته ، وأخضعه له بفريض رحمته ، ورحمته سبقت غضبه ، ورحمته وسعت كل شيء .

وهذا هو المدعوون لتقواه وخوفه والخشية منه .

﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ مرة ثانية ؛ لتأكد أن لا حاكم في هذا الوجود

(١) الحشر / ٢٢ - ٢٤ .

إلا الله ، ولا سلطان إلا لله ، فهو ﴿الملك﴾ ملك السماوات والأرض وملك يوم الدين .

﴿القدوس﴾ وهو اسم يشع القداسة المطلقة والطهارة المطلقة ، ويلقى في ضمير المؤمن هذا الإشاع الطهور ، فينطفئ قلبه هو ويظهره ، ليصبح صالحًا لتلقى فيوض الملك القدس ، والتسبيح له والتقديس .

﴿السلام﴾ وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة في جنبات الوجود ، وفي قلب المؤمن تجاه ربها ، فهو آمن في جواره ، سالم في كنهه ، وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء ويُؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان ، وقد هدأت شرته ، وسكن ببلائه وجنح إلى المواعدة والسلام .

﴿المؤمن﴾ واهب الأمن وواهب الإيمان ، ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقي فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله ، ويرتفع إلى الملا الأعلى بصفة الإيمان .

﴿المهيمن﴾ وهذا بدأً صفحة جديدة في تصور صفة الله سبحانه ، إذا كانت الصفات السابقة ( القدس السلام المؤمن ) صفات تتعلق مجرد بذات الله ، فأما هذه فتتعلق بذات الله فاعلة في الكون والناس ، توحي بالسلطان والرقابة .

وكذلك ﴿العزيز ، الجبار ، المتكبر﴾ فهي صفات توحي بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء ، فلا عزيز إلا هو ، ولا جبار إلا هو ، ولا متكبر إلا هو ، وما يشاركه أحد في صفاته هذه ، وما يتصف بها سواه فهو المتفرد بها بلا شريك .

ومن ثم يجيء ختام الآية ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ :

ثم يبدأ المقطع الأخير في التسبيبة الجديدة : ﴿هو الله﴾ فهي الألوهية الواحدة ، وليس غيره إلّا ، ﴿الخالق الباري﴾ والخلق : التصميم والتقدير ، والبرء : التنفيذ والإخراج ، فهما صفتان متصلتان ، والفارق بينهما لطيف دقيق . ﴿المصور﴾ وهي كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها ، ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة .

وتتوالى هذه الصفات المتراقبة اللطيفة الفروق يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج ، مرحلة مرحلة – حسب التصور الإنساني - فأما في عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات ، وما نعرفه عن مدلول هذه الصفات ليس هو

حقيقة المطلقة ، فهذه لا يعرفها إلا الله ، إنما نحن ندرك شيئاً من آثارها هو الذي نعرفها به في حدود طاقتنا الصغيرة .

﴿لِهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى﴾ الحسنى في ذاتها بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ، ولا توقف على استحسانهم ، والحسنى التي توحى بالحسن للقلوب وتفيضه عليها ، وهي الأسماء التي يتذمّرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائهما واتجاهها ، إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصرف بها ، وأن يتدرج في مراقبة وهو يتطلع إليها .

وختامة هذه التسبيبة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مع مدلولاتها الموجبة ، وفيوضها العجيبة - هي مشهد التسبيع لله يشيع في جنبات هذا الوجود وينبعث من كل موجود .

﴿يَسْبُحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ، ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء ، كما يتلاقى فيه المطلع والختام في تناسق والثمام )<sup>(١)</sup> .

ونشير إلى أن عرض هذه الصفات العلي لله رب العالمين ، هو الذي صحق مفهوم الألوهية في البشرية التائهة الضالة ، كما كان أهل الكتاب يعرضون الله تعالى في تصوراتهم البشرية القاصرة ، وهؤلاء اليهود الذين قدموا الله تعالى للبشرية بعد أن كتبوا الكتاب بأيديهم ، قدموه بالمنتقم الشائر الذي يغلبه العبيد أحياناً فيثار منهم لنفسه ، وأن الصراع بينه وبينهم أحياناً ، وبينه وبين أعدائهم ، وهابهم وعلى رأسهم حسني بن أخطب ووراءه بنو النضير يحدّدون الله تعالى ، ويحاربون رسوله وهم يعلمون أنه حق ، ويواجهون قدر الله تعالى بحجّة واهية : تأبى نفسى إلا اعداؤه محمد وإلّا قتاله .

و حين يقع بهم البلاء يقولون على لسان حسيبي ، أبي جهل اليهود :  
ما أصنع ؟ هي ملحمة كتبت علينا .

هذه الصورة التي نفرت الناس من دين الله ، ومن شريعته ، حين جعلوا الإله لهم وحدهم ، وقد خلقهم ليستبعد بقية خلقه فيهم .

كانت هذه الآيات التي عرضت صفات الله العلي وأسماءه الحسنى ، هي التي

(١) في ظلال القرآن / ٦ / جـ ٢٨ / ٣٥٣٤ .

أعادت إلى الأرض وإلى البشرية التصور الصحيح عن إلهها وحالها .

فهو الرحمن الرحيم ، الملك القدس السلام المؤمن .

وهو المهيمن العزيز الجبار المتكبر .

وهو الخالق الباري المصور ، له مافي السموات والأرض .

وبالعودة إلى بداية السورة ، في قوله عز وجل :

﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظنتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقد في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾ .

بهذه الآيات ، انهارت المقوله اليهودية كلها التي تجعل من الله تعالى إله الشعب المختار فقط ، فإذا الشعب المختار ينهزم ويحاصر ويحلى ، وإذا هو الذين كفروا ، وإذا هو الذي يقذف في قلبه الرعب ، وإذا هو الذي يخرب بيته بيده ، وإذا الأميون هم الذين آمنوا ، وهم المفلحون ، وهم الذين يفسي الله تعالى عليهم كمز الشعوب المختار .

لقد كانت السورة كلها تسبيحة واحدة ، لإعادة العقيدة إلى البشرية من جديد إلى ربها ، وتصحيح مفاهيم العقيدة المغلوطة في هذه الأرض ، وتحطيم المقوله الفاسدة التي أفسدت البشرية منذ قرون ، وشاركت بها انحرافات النصرانية كذلك ، ليعود النور إلى الأرض ، والهدى إلى الأرض ، ويستمع البشر إلى صفات الله العلي وأسمائه الحسنى كما أنزل وذكرها جل وعلا ، وتعود الحاكمة الحقيقية لهذه الأمة ، القوامة على عقيدة البشرية وتتصوراتها وشريعتها ، في كتاب ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وتجاوיב البشرية وتتناغم أرجاء الوجود ، مع هذه الحقائق الخالدة المطلقة الباقيه : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ .

## سورة محمد ﷺ

وتحتاج متابعة التربية بعد أحد لهذا الجيل المسلم الذي يصنع على عين الله ، وتشتد  
الحملة على المنافقين ، والمحث على الجهاد في سبيل الله ، ورفع معنويات المؤمنين .  
نستمع إلى صاحب الظلال رحمة الله وهو يعطينا أجواء السورة ، وأجواء المعركة  
ومحورها الرئيسي فيقول :

( هذه السورة مدنية ، ولها اسم آخر اسمها سورة القتال ، وهو اسم حقيقي لها ، فالقتال هو موضوعها ، والقتال هو العنصر البارز فيها ، والقتال في صورها وظلالها ، والقتال في جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها ، فهى تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا ، وحقيقة الذين آمنوا في صيغة هجوم أدى على الذين كفروا ، وتجيد كذلك للذين آمنوا ، مع إيحاء بأن الله عدو للأولين ، ولـى للآخرين ، وأن هذه حقيقة ثابتة في تقدير الله سبحانه ، فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول في السورة : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعملهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ .

وَعَقْبَ إِعْلَانِ هَذَا الْحَرْبِ مِنَ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، أَمْرٌ صَرِيعٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا  
بِخَوْضِ الْحَرْبِ ضَدْهُمْ فِي صِيَغَةِ رَنَانَةِ قُوَّةٍ، مَعَ بَيَانِ حُكْمِ الْأَسْرَى بَعْدِ الإِثْخَانِ فِي  
الْمَرْكَةِ وَالتَّقْنِيَّلِ الْعَنِيفِ: ﴿فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاضْرِبُوهُمْ الرِّقَابَ . حَتَّى إِذَا  
أَنْخَتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مِنْهُمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ يُفْدَى هُنَّى تَضَعُّ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا﴾ .

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال ، وتجسيع عليه وتكريم للاستشهاد فيه ، ووعد من الله يأكراهم الشهداء ، وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصاراً لله ، وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم : ﴿ ذلِكَ وَلُوْيَاشَ اللَّهَ لَا تَنْصُرُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيْسُوا بِعِضٍ كُمْ بَعْضٌ وَالَّذِينَ قُتِلُوا

في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهدى لهم ويصلح بهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم .  
يأيها الذين آمنوا إن تتصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فاتعسأ لهم  
وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهو ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ۝ .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين ، وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين ، وضياع  
الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي  
الْأَرْضِ ... ۝ ﴿ ... فَلَا نَاصِرٌ لَهُم ۝ .

ثم تمضي السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر في ألوان من الحديث حول الكفر  
والإيمان ، وحال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة ، فتفرق بين متابع المؤمن  
بالطيبات ، وتنعم الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ  
الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مُثْوِي لَهُمْ ۝ .. كما تصف متابع المؤمنين في الجنة بشتى الأشربة الشهية من  
ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمر لذة للشاربين ، وعسل مصفي ، في وفر  
وفيض ... في صورة أنهار جارية ، ذلك مع ثستى الشمرات ، ومع المغفرة والرضوان ، ثم  
سؤال : أهؤلاء ﴿ كَمْنَ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسَقَوْا مَاءً حَمِيمًا فَقُطِعَ أَمْعَاهُمْ ۝ ؟

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى من المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين ،  
أعقبها في السورة جولة مع المنافقين ، الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطراً على  
الجماعة الإسلامية الناشئة ، لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها  
من القبائل في تلك الفترة ، التي يبدو من الواقع التي تشير إليها السورة أنها كانت بعد  
غزوة بدر ، وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود وضعف مركز  
المنافقين - كما ذكرنا في تفسير سورة الأحزاب - ...

وفي الجولة الثالثة والأخيرة في السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود  
وهجوم عليهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ  
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضْرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسِيَحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَتَحذير للذين آمنوا أن  
يصيبهم مثل ما أصاب أعداءهم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا  
تَبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَفْرَغَ  
اللَّهُ لَهُمْ ۝ وَتحضيض لهم على الشبات عند القتال : ﴿ فَلَا تَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ  
الْأَعْلَوْنُ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝ .

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها ، وحضر على البذل الذي يسره الله ، ولم يجعله استهانًا للمال كله رأفة بهم ، وهو يعرف شح نفوسهم البشرية ، وتبصرها وopicتها لو أحفاظهم في السؤال : ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَؤْمِنُوا وَتَقُولُوا أَجُورُكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ . إِنْ يَسْأَلُوكُمْ هَا فِي حِكْمَتِنَا بَخْلُونَا وَيَخْرُجُ أَضْغَانَكُمْ﴾ .

وتختتم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إنهم بخلوا بإنفاق المال ، وبالبذل في القتال : ﴿هُنَّا أَنْتُمُ أُولَاءِ تَدْعُونَ لِتُقْتَلُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْكُمْ مَنْ يَخْلُدُ إِنَّمَا يَخْلُدُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْفَقَاءِ وَإِنْ تَوْلُوا يَسْتَبِدُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (١) .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيَّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحُوا بَالَّهُمَّ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (٢) .

إعلان المفاصلة العقائدية ابتداء بين الفريقين ، لكل منهما شرعة ومنهاج مختلف عن الآخر ولا يلتقيان أبداً ، بعد أن تفارقا في قضية العقيدة .

فالذين كفروا بالله وصدوا عن سبيله ، وضلوا عنه ، لا عجب أن يكون عملهم ضلال كله ، فقد واجهوا الهدى ، وصدوا عنه غيرهم إذ لم يكتفوا بمواجهتهم له فقط .

والذين آمنوا ، وأتبعوا هذا الإيمان بالعمل الصالح ، وآمنوا بالوحى الذى نزل على رسول الله ﷺ كله ، وآمنوا بكل ما جاءهم به نبيهم الصادق الأمين ، ومحمد هو الحق من ربهم ، وما جاء به محمد هو الحق من ربهم ، فهو لاءٌ كافرٌ عنهم سيئاتهم ، وأصلح بالهم .

والسبب فى هاتين الترتيبتين المختلفتين هو :

أن الذين كفروا اتبعوا الباطل .

وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ حتى تعرف البشرية أين تسير وكيف تسير .

(١) في ظلال القرآن / م ٦ / ج ٢٦ - ٣٢٧٨ - ٣٢٨١ . (٢) محمد / ١ - ٣ .

وإن كان التفسير المأثور ربطها بوقت نزولها :

( فقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردوية ، عن ابن عباس في قوله : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ قال : هم أهل مكة قريش نزلت فيهم ، ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال : هم أهل المدينة الأنصار ، ﴿وأصلح بالهم﴾ قال : أمرهم )<sup>(١)</sup> .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿أضل أعمالهم﴾ كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملاً )<sup>(٢)</sup> .

( وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن مجاهد في قوله : ﴿وأصلح بالهم﴾ قال : شأنهم . وفي قوله : ﴿ذلك بأن الذين كفروا واتبعوا الباطل﴾ قال : الشيطان )<sup>(٣)</sup> .  
﴿إِنَّمَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابُ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشَدُوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِمَّا فَدَاءً حَتَّى تَضَعُ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا ذَلِكُولَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ . ولَكُمْ لِيَلُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا . وَالَّذِينَ قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يَضْلُلَ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيَصْلِحُ بَالَّهُمْ وَيَدْخُلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرْفَهَا لَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> .

لقد جاءت آيات الأنفال في بدر لتقول :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَبَثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأْلَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾<sup>(٥)</sup> .

وجاءت آيات آل عمران عن أحد لتقول للمؤمنين أن يحملوا هم لواء القتل :

﴿وَلَقَدْ صَدَقْتُمُ اللَّهَ وَعْدَهُ إِذْ تَحسُنُونَهُمْ بِإِذْنِهِ . . .﴾ .

وجاءت الأوامر العامة للمؤمنين تقول لهم :

﴿كَتَبْ عَلَيْكُمُ الْقَتْلَ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَحْبُوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٦)</sup> .

وجاءت الآيات في النساء تحت المؤمنين على القتل والقتال .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه / ٧ / ٤٥٧ .

(٤) الدر المنثور / ٤٥٧ .

(٥) الأنفال / ١٢ .

(٦) البقرة / ٢١٦ .

(٧) محمد / ٤ ، ٥ .

وهنا دعوة حارة بعد تلك المفاصلة بين الفريقين على إعلان الحرب والمواجهة عليهم ، فالذين يعلنون حربهم لله ورسوله فيما يعتقدون ، لابد أن ينضم المؤمنون إلى ربهم يجاهدون في سبيله ، ويقاتلون أعداءه ، بدون أن تأخذهم رأفة فيهم :

﴿فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابَ﴾ .

للقضاء على قوتهم وتجمعهم وخضد شوكتهم ، وتحطيم جيشهم .

﴿هَتَّىٰ إِذَا أَلْخَتَمُوهُمْ فَشَدُوا الْوَثَاقَ﴾ :

أى لا تلتجئوا إلى الأسر قبل أن تشنعوا في قتل الكفار ، وتمعنوا في القضاء عليهم ، وحين ينهار الجيش ، وتفل القوة ، وتتفرق الجموع مشخنة بالجراح عندئذ يمكن الأسر ، وهذا مادعت إليه الآيات في بدر واعتبرت به رسول الله ﷺ :

﴿مَا كَانَ لَنِبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يَشْخُنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآتِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كَتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسْكِمٍ فِيمَا أَخْذَتُمْ عَذَابًا عَظِيمًا﴾<sup>(١)</sup> .

فكان العتاب على أخذ الأسرى قبل الإثخان في القتل .

فعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لَنِبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يَشْخُنَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال : (ذلك يوم بدر وال المسلمين يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا في الأسرى : ﴿إِنَّمَا مَنَا بَعْدَ وَإِنَّمَا فَدَاءَ﴾ فجعل الله النبي والمؤمنين في الأسرى بالخير إن شاعوا قتلواهم ، وإن شاعوا استعبدوهم وإن شاعوا فادوهم) <sup>(٢)</sup> .

( وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿هَتَّىٰ إِذَا أَلْخَتَمُوهُمْ فَشَدُوا الْوَثَاقَ﴾ قال : لاتأسروهم ولا تفadoxهم حتى تشنعوا بالسيف ) <sup>(٣)</sup> .

( وأخرج ابن المنذر عن ابن حريج في قوله : ﴿فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابَ﴾ قال : مشركي العرب ، يقول : ﴿فَضْرِبُ الرِّقَابَ﴾ حتى يقولوا لإله إلا الله ) <sup>(٤)</sup> .

(١) الأنفال / ٦٨ . (٢) الدر المنشور / ٤ / ج ١٠ / ٤٥٧ . (٣) الدر المنشور / ٤ / ج ١٠ / ٤٥٧ . (٤)

و حين لم ير أكثر المفسرين أى تعارض بين آيات الأسرى في بدر و آيات الأسرى في سورة محمد ، إذ أنها تصب جمياً باتجاه واحد هو : أن يكون الأسر بعد الإثخان في القتل .

فقد اختلفوا حول آيات سورة محمد و سورة براءة : ﴿فِإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمَانُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ...﴾ .

و جمهور المفسرين على أن آيات سورة التوبه قد نسخت هذه الآيات ، حين أمرت بقتل المشركين . و روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما و قتادة و الضحاك و مجاهد والسدي .

فقد ( أخرج ابن مردوهه و ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿فِإِمَّا مَنَا بَعْدَ وَإِمَّا فَدَاءً﴾ ) قال : هذا منسوخ نسختها : ﴿فِإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمَانُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ (١) (٢) .

( وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿فِإِمَّا مَنَا بَعْدَ وَإِمَّا فَدَاءً﴾ ) قال : فرخص لهم أن يمنوا على من شاءوا منهم ، نسخ الله ذلك بعد في براءة فقال : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوكُمْ﴾ (٣) .

( وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال : نسخت : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوكُمْ﴾ ما كان قبل ذلك من فداء أو من ) (٤) .

( وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، و ابن المنذر ، و ابن مردوهه ، عن ليث رضي الله عنه قال : قلت لمجاهد : بلغني أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يحل قتل الأسرى ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿فِإِمَّا مَنَا بَعْدَ وَإِمَّا فَدَاءً﴾ ) فقال مجاهد : لاتعبأ بهذا شيئاً ، أدركت أصحاب رسول الله وكلهم ينكر هذا . ويقول : هذه منسوخة ، إنما كانت في الهداية التي كانت بين رسول الله وبين المشركين ، فأماماليوم فلا . يقول الله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوكُمْ﴾ ويقول : ﴿فِإِذَا لَقِيتُمُ الظَّالِمِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابَ﴾ فإن كانوا من مشركي العرب لم يقبل منهم شيء إلا الإسلام ، فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإذا أسروا فالمسلمون فيهم بال الخيار إن شاءوا قتلهم ، وإن شاءوا

(١) التوبه / ٥ .

(٢) الدر المنشور / ٧ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٤) المصدر نفسه / ٤٥٩ .

(٣) الدر المنشور / ٧ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

استحيوهم ، وإن شاءوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم ، فإن أظهروا الإسلام لم يفدوا ، ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفاني )<sup>(١)</sup> .

يبينما روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه لم يكن يرى قتل الأسرى :

فقد (أخرج ابن جرير ، وأبن مروي ، عن الحسن رضي الله عنه قال : أتى الحجاج بأسرى ، فدفع إلى ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يقتله . فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا ، إنما قال الله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخْتَمُوهُمْ فَشَدُوا الْوَثَاقَ إِنَّمَا بَعْدَهُ إِلَّا فَدَاءٌ ﴾ )<sup>(٢)</sup> .

(وأخرج ابن مروي ، والبيهقي في سننه ، عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما : أعتق ولد زانية وقال : قد أمرنا الله ورسوله أن نمن على من هو شر من هذا قال : ﴿ إِنَّمَا مَنَّا بَعْدَهُ إِلَّا فَدَاءٌ ﴾ )<sup>(٣)</sup> .

ويرى الشهيد سيد قطب رحمة الله هذا الرأي فيقول :

(والخلاصة التي ننتهي إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى ، وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر ، وأنه هو الأصل الدائم للمسألة ، وما يقع بالفعل خارجاً عنه كان لمعالجة حالات خاصة وأوضاع وقته ، فقتل بعض الأسرى كان في حالات فردية يمكن أن يكون دائمًا لها ظائز ، وقد أخذناها بأعمال سابقة على الأسر ، لا بمجرد خروجهم للقتال ولم يكن ممكناً أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام : ﴿ إِنَّمَا مَنَّا بَعْدَهُ إِلَّا فَدَاءٌ ﴾ في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين ، ومن ثم طبقة الرسول ﷺ في بعض الحالات ، فأطلق بعض الأسرى منها ، وقادى بعضهم بالمال ، وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة ل تعالج بغير هذا الإجراء .

إذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقة الأسرى ، فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهي : ﴿ إِنَّمَا مَنَّا بَعْدَهُ إِلَّا فَدَاءٌ ﴾ ؛ لأنقضاء الأوضاع التي كانت تقتضي الاسترقاق . فليس الاسترقاق حتمياً ، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام ، وهذا هو الرأي الذي نستوحيه من النص القرآني الحاسم ، ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث .

. ٤٥٨ / ٢ ، ٣) المصدر نفسه .

(١) الدر المثور / ٧ / ٤٥٨ .

ويحسن أن يكون مفهوماً أنتي أجنح إلى هذا الرأى ؛ لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفيها يؤيده ، لا لأنه يهجس في خاطرى أن استرقاق الأسرى تهمة أحارول أن أجرىء الإسلام منها ! ، إن مثل هذا الخاطر لا يهجس في نفسى أبداً . فلو كان الإسلام رأى هذا وكان هو الخير ؟ لأنه ما من إنسان يعرف شيئاً من الأدب يملك أن يقول : إنه يرى خيراً مما يرى الله ، إنما أنا أسيء مع نص القرآن وروحه ، فأجنح إلى هذا الرأى بإيحاء النص والتجاهه )<sup>(١)</sup> .

### ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .

وهنا يتضح مفهوم جديد من مفاهيم الجهاد في الإسلام ، فضرب الرقاب وإثخان القتل ، وشد الوثاق - عملية مستمرة ، لا تقطع حتى تضع الحرب أوزارها .

فمتى تضع الحرب أوزارها في المفهوم الإسلامي ؟

حين لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة رضى الله عنه في قوله : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال : حتى لا يكون شرك )<sup>(٢)</sup> .

( وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضى الله عنه : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال : حتى يعبد الله ولا يشرك به )<sup>(٣)</sup> .

ونسائل متى يكون هذا الوقت ؟ أى متى لا يكون شرك ؟ ومتى يعبد الله ولا يشرك به شيئاً ؟

يجيبنا على ذلك نصوص مروية أخرى عن صحابة رسول الله والتابعين :

فقد (أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سنته ، عن مجاهد رضى الله عنه في قوله : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال : حتى يخرج عيسى ابن مريم فيسلم كل يهودي ونصراني وصاحب ملة ، وتأمين الشاة من الذئب ، ولا تفرض فأرة جراباً ، وتذهب العداوة بين الناس كلها . ذلك ظهور الإسلام على الدين كله ، وينعم الرجل المسلم حتى تقطر رجله دمأ إذا وضعها )<sup>(٤)</sup> .

(١) في ظلال القرآن / ٨ / ٣٢٨٥ .

(٢) الدر المنشور / ٧ / ٤٥٩ .

(٣) الدر المنشور / ٧ / ٤٦٠ .

(وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال : يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهدياً وحكماً عدلاً ، فليكس الصisel ، ويقتلا الخنزير ، وتوضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها )<sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن سعد والنسائي وأحمد والبغوي والطبراني وأبي ماردة ، عن سلمة بن نفيل رضي الله عنه قال : ( بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال : يارسول الله ، إن الخيل قد سُيِّبت ووضع السلاح ، وزعم أقوام أن لاقتال ، وأن قد وضع الحرب أو زارها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كذبوا ، فالآن جاء القتال ، ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم يزيغ الله قلوب أقوام ليبرز قهم منهم ويقاتلون حتى تقوم الساعة ، ولا تزال الخيل معقوداً في نواصيها الخير حتى تقوم الساعة ، ولا تضع الحرب أو زارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج » ) (٢) .

وفي رواية الإمام أحمد : « ألا إن عقر دار المؤمنين بالشام ، والخليل معقود في نواصيها  
الخير إلى يوم القيمة » (٣) .

هذه معالم الجهاد في الإسلام من خلال النصوص القرآنية ونصوص الحديث ، تلقاها  
الجييل الأول ، وتركت نفوسيهم على أن المخنة والابتلاء والتمحیص لاتغنى أبداً من  
متابعة الطريق اللاحب إلى منتهاه ، وتركت نفوسيهم على أن الجهاد ليس أمراً عارضاً ، أو  
حدثاً مؤقتاً ، أو تراجعاً تحت مطارات المخنة . لابد من السير على هذا الطريق مهما كان  
الثمن باهظاً ، لأن سلعة الله غالبة ، ألا إن سلعة الله الجنة ، ولا مهر للجنة دون المال  
والنفس ، ولقاء الكافرين أمر حتمي ، وصراعتهم قدر لا ينتهي إلى قيام الساعة ، فلو سبيت  
الخيول ، وألقي السلاح ، فهذا تراجع عن الطريق ، وتنكب له ، وليس إذناً ربانياً بالقعود  
والتخاذل .

«كذبوا فلأن جاء القتال . ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون في سبيل الله . . . .

حتى تقوم الساعة ، ولا تضم الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج و Majogog » .

وها قد مر على هذه الآيات خمسة عشر قرناً ، ولما تضع الحرب أوزارها بعد ، والدعاة إلى الله مضطهدون ، وشريعة الله مقصاة عن الحياة ، والشرك ضارب أطنابه في كل أرض فأنني تضع الحرب أوزارها بعد .

(٣) مسند الإمام أحمد / ٤ / ١٠٤.

(١) المصدر نفسه / ٦٤ . (٢) المصدر نفسه / ٦٥ .

وتأنى الشام في أكثر من نص نبوى تكون معقل المسلمين ، ورباط المجاهدين إلى يوم القيامة . فهى عقر دار المؤمنين ، وهى فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى ، وفي غوطة دمشق بالذات . وسيبعث جيل عقب جيل ، يحمل لواء الجهاد . قد يتغىظ ، وقد يخطئ ، وقد يجتمع ، وقد يزيف فيأتى الجيل الذى بعده ليقوم الطريق ، ويسيير على الجادة .

### ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ :

فقد كان بالإمكان أن تبقى الدولة للMuslimين في أحد ، ولكن على حساب المبدأ الذى يثبت المخالفين ، وينصر من يريد في الدنيا ، ويجزى المتنازعين والفاشلين خيراً وموثبة ، وهذا يخالف سنن الله تعالى في بناء الأُمّ ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا .

فتادة يقول : (إِنَّ اللَّهَ بِجَنُودِهِ الْكَثِيرَةِ ، كُلُّ خَلْقِهِ لَهُ جَنَدٌ ، فَلَوْ سُلْطَنٌ أَضَعُفَ خَلْقَهُ لَكَانَ لَهُ جَنَدًا) <sup>(١)</sup> .

وابن حجر في قوله تعالى : ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ قال : (لأرسل عليهم ملكاً قد مر عليهم . وفي قوله : ﴿الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ قال : نزلت فيما قتل من أصحاب النبي ﷺ يوم أحد) <sup>(٢)</sup> .

( وأخرج عبد الرزاق ، وابن حميد ، وابن حجر ، وابن أبي حاتم عن فتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب ، وقد فشت فيها الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذ : أعل هبل . ونادى المسلمين : الله أعلى وأجل . فنادى المشركون : يوم بيوم بدر ، وإن الحرب سجال ، لنا عزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله ﷺ : «قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ، إن القتلى مختلفة ، أما قتلانا فأحياء يرزقون ، وأما قتلناكم ففي النار يعذبون») <sup>(٣)</sup> .

### ﴿فلن يضل أعمالهم . سيهدى لهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ :

أما الذين كفروا فقد أضل أعمالهم ، بينما المؤمنون ولو أخطئوا ولو عثروا ولو زلوا ، فلن يضلهم الله تعالى ، سيهدى لهم ، ويصلح بالهم ، فيزيل العاشية عنهم ، ويهدى بالهم ، ويرضيهم بقضائه وقدره . هؤلاء الأحياء منهم ، أما الشهداء فسيرون أمام أعينهم قرة عينهم بسلامة عملهم لهم ، وإصلاح بالهم في زف الجنة لهم ، ويدخلهم الجنة (فيهدي

(١) الدر المشور / ٧ / ٤٦١ .

(٢) الدر المشور / ٧ / ٤٦١ .

أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لا يخططون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحدا )<sup>(١)</sup> .

فهذا قول مجاهد رضى الله عنه ، أما قول مقاتل فقال : ( بلغنا أن الملك الذى كان وكل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله فى الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزلة فى الجنة . دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه )<sup>(٢)</sup> .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهو ما أنزل الله فأحبط أعمالهم . أفلم يسيراً في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولي لهم ﴾<sup>(٣)</sup> .

إنه شرط وجاء ، فنصرة دين الله هي الشرط ، وجزاؤه نصر المؤمنين وتشييت أقدامهم . هذه السنة الثانية الدائمة في النصر والهزيمة ، لكن هناك سنة استثنائية حين لا تطرد هذه السنة ولا تتحقق مواصفاتها ، وذلك حين يكون الانتصار للنفس ، والقتال للغنية والمال ، والرغبة في الدنيا ، كما تم في أحد من نفر خالق وعصى ، وترك موقعه للغنية – هذه هي السنة الاستثنائية للمؤمنين أنفسهم حين يفقدون بعض شروط النصر من خلوص النفس من حظوظها ، وخلوص النفس من شهواتها ، فعندئذ يكون التمييز ، ويكون الابتلاء ، وتكون مشيئة الله تعالى أن لا يتصر من الكافرين ، وأن يبلو بعضهم ببعض ، ويتحذ الشهداء إلى الجنة ، ويتنظر المنتظرون الجولة الثانية بعد من قضى نحبهم .

هاتان الستنان هما اللتان تحكمان جند الله تعالى في النصر والهزيمة .

أما سنة الكفار فلا .

﴿ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ﴾<sup>(٤)</sup> .

إنها التعasse في الدنيا ، حتى ولو انتصروا النصر الطارئ المؤقت ، فهم لا بد منهزمون ، والتعasse في الآخرة ؛ لأنهم كرهو ما أنزل الله وحاربوه ، فكرههم الله وأحبط أعمالهم ، فليس لهم في آخرتهم شيء ، والذين قتلوا منهم فسيضلون أعمالهم في الآخرة ، ولن

(١) (٤٦٢، ٤٦١) المصدر نفسه .

(٢) محمد / ٨ .

(٣) محمد / ٧ - ١١ .

يجدوا شيئاً لهم إلا مائماً وغمراً ، وتكون النار عاقبهم على كرههم لما أنزل الله وحرفهم لأوليائه .

إنها معان تتعمل أكثر وأكثر في هذا الجيل الرباني الأول ، ولا يكتفى القرآن بعرضها مرة واحدة فقط ، إنها تعرض مرة وثانية وثالثة لتأصل بالنفس البشرية المسلمة ، وتعرض كل مرة بلون ، وكل مرة بإطار ، وكل مرة بسياق ، حتى تixer في الأعماق حفراً لا يقبل التزعزع ، ولا عجب ، فالله تعالى هو مولى الذين آمنوا ، هو حاميهم وناصرهم ، والزائد عنهم لأنهم جنده . أما الكافرون ولو كان معهم كل أساطيل الأرض ، وكل عنة الدنيا . وكل جبروت الطغاة – فلا مولى لهم ، كل هؤلاء ليسوا قادرين على تحقيق نصر أو تحقيق مكسب ، طالما أن الله تعالى مع جنده المؤمنين ، ولا غالب إلا الله ، ولا ناصر إلا الله . لقد فقه هذا المعنى عتاة قريش أنفسهم يوم صد الله أربه عنهم وهم ضعاف عزل ، فقال شاعرهم :

أين المفر والإله الغالب  
والأشرم المطلوب ليس الطالب

بل قال أشدتهم عتوا على الله ورسوله قالها أبو جهل :

(لئن كنا إنما نقاتل الله . فلعمري لأحد بالله من قبل ولا طاقة) .

وكما أن المستتين الثابتين مع المؤمنين . هما اللتان تحكمهما . فكذلك هذه السنة التي تحكم الكافرين في كل عصر ومصر :

﴿أَلَمْ يسِيرَا فِي الْأَرْضِ فَيُنِظِّرَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾<sup>(١)</sup> .

فيما مضى ، وفيما سيأتي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

تتصل الدنيا بالآخرة ، والأرض بالسماء بالنسبة للمؤمنين :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ﴾<sup>(٢)</sup> .

أما الذين يتظرون نعيمهم في دنياهم ، فأولئك كالبهائم ثم يرثون ، ومثلهم ينعمون ، يأكلون ويسربون ويستمدون . وتنظرهم النار في الآخرة :

(١) محمد / ١٠ . (٢) محمد / ١٢ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مُثْوِي لَهُمْ﴾ (١).

فهناك نهاية رحلتهم وخاتمة مطافهم ، حيث ينزلون في النار المترى الأخير .

وقد تختلف المظاهر في الدنيا . فيبدو الكافرون أقوىاء متمكنين ، كما هي قريش يوم عادت منتشرة بعد أحد ، ورأى أنها ثارت بيوم بدر ، وهي تحمل هبلاها وعزتها ، وكان المظاهر توحى أنها لن تنزلزل ولن تترزع ، فهي القوية القادرة المتمكنة ، فهلا انساح النظر ، وانفرج المشهد إلى القرى التي مثلها في بطون التاريخ ، كانت أشد عتواً من قريش ، وأكثر تجرأً منها فقدت كأس الدابر ، وصارت أحاديث ، ومزقت كل ممزق :

﴿وَكَأْيَنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَ أَهْلَكَنَا هُمْ فَلَا نَاصِرٌ لَهُمْ﴾ (٢) .

ويأتي التعبير القرآني للحضرة النبوية .

فهي قريته ، وأهلها أخرجوه منها ، تماماً كما قال عليه الصلاة والسلام :

«إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إلى ، ولو لا أن أهلك أخرجوني ماخرجت» .

وسيهلك الأهل المتجررون الخارجون على الله ورسوله ، وتبقى القرية أم القرى وموطن أول بيت وضع للناس .

(أخرج عبد بن حميد ، وأبو يعلى ، وأبي جرير ، وأبي حاتم ، وأبي مروي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : «أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلى ، ولو لا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك فأعطي الأعداء من عدا على الله في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخول أهل الجاهلية » فأنزل الله تعالى : ﴿وَكَأْيَنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَ أَهْلَكَنَا هُمْ فَلَا نَاصِرٌ لَهُمْ﴾ (٣) .

فقد تلقى عليه الصلاة والسلام بشاره النصر ولما يغادر مكة بعد إلى الغار .

ويفترق بعدها الفريقان ، إلى الذي يتلقى عن رب البينة ، والذى يتلقى من شيطانه تزيين عمله ، فيتبع هواه ، ويحسب نفسه على هدى . وبين من يتابع الهدى من ربها ، ومن يتبع

(٣) الدر المنثور / ٧ / ٤٦٣ .

(٢) محمد / ١٣ / ٤٦٣ .

(١) محمد / ١٢ .

الهوى من نفسه وشيطانه افتراق كبير ، وهو لاتردم ، ولا يلتقيان أبدا ، ولا يستويان أبدا : ﴿أَفَمِنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّهِ كَمْنَ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

لا يستويان في الدنيا ، ولا يستويان في الآخرة ، ففي الدنيا الهلاك والدمار للكافرين ؟ لأنهم حادوا الله ورسوله فلا ناصر له منهم ، واتبعوا أهواهم ، وفي الآخرة النار مشوّى لهم ، وتنأكده هذه المعانى ثانية وثالثة :

﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَقْوِنَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيِّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عُسلٍ مَصْفَىٰ وَلِهِمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ كَمْنَ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسَقَوْا مَاءً حَمِيمًا فَقَطْعٌ أَمْعَاءَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> .  
فكلما الفريقين يشربان ويأكلان .

فللمؤمنين (﴿أَنْهَارٌ مِّنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيِّرْ طَعْمُهُ﴾) : لم يخرج من بين فرش ودم (﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشارِبِينَ﴾) لم تدنسه الرجال بأرجلهم (﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عُسلٍ مَصْفَىٰ﴾) لم يخرج من بطون النحل )<sup>(٣)</sup> .

( وأخرج أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور ، عن معاوية بن حيدة رضى الله عنه : سمعت رسول الله يقول : « فى الجنة : بحر اللبن وبحر الماء وببحر العسل وببحر الخمر ، ثم تشتق الأنهار بعده » )<sup>(٤)</sup> .

(١) محمد / ١٤ .

(٢) محمد / ١٥ .

(٣) الدر المشور / ٧ / ٤٦٤ .

(٤) الدر المشور / ٧ / ٤٦٤ .

## الجولة الثانية : مع المنافقين

بعد المعركة المفتوحة بين المؤمنين والكافرين ، يأتي الحديث عن المعركة العنيفة الداخلية بين المؤمنين والمنافقين ، ومنذ أحد وقضية المنافقين تأخذ حيزاً ضخماً في التربية القرآنية ، يتناسب مع خطورة هذا المعسرك ودوره ، ويأتي القرآن الكريم كشافاً يحرق كل الأساليب الملتوية التي يلجأ إليها المنافقون ، ويقاد بحرقهم معه ، لو لا خيط رفيع يسعى لإنقاذهم به من هذا المستنقع الأسن :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمْعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عَنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أَوْتَوْا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنَفَاٰ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءِهِمْ . وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادُهُمْ هَدِيًّاٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ . فَهَلْ يَنْظَرُونَ إِلَى السَّاعَةِ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَإِنَّا لَهُمْ إِذَا جَاءُهُمْ ذَكْرًا هُمْ . فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَتَّقْبِلَكُمْ وَمَثُواكُمْ ﴾ (١) .

(أخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج رضي الله عنه قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ فيسлушونه ما يقول ويعونه ، ويسمعونه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : ماذا قال آنفاً؟ فنزلت : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمْعُ إِلَيْكَ﴾ ) (٢) .

(وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة رضي الله عنه قال : كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس رضي الله عنهما : ماذا قال آنفاً؟ فيقول : كذا وكذا . وكان ابن عباس رضي الله عنهما من الذين أوتوا العلم ) (٣) .

إن الصورة الأولى الشاخصة لهم أنهم لا يفقهون ما أنزل الله ، رغم أنهم يشترون كون في السمعان مع المؤمنين ، وهم يمثلون الأرض القيعان التي لا تمسك ماءً ولا تثبت كلاماً ، وإن كانوا يتظاهرون عكس ذلك ، وإن كانوا يتظاهرون بالاهتمام فيسألون أهل العلم : ماذا قال آنفاً . وقد يسألون مع خبث طويتهم من باب التهكم أن رسول الله ﷺ يقول

(١) محمد / ١٦ - ١٩ . (٢) ، (٣) الدر المشور / ٧ / ٤٦٦ / ٢٦ .

ما لا يُفهم ، وهو لا يستطيع أن يُفهّم الناس في دين الله . إن الآية تحتمل كل هذه المعانى ، لكن الذى أكده القرآن – وبغض النظر عن بواعثهم ونواياهم – أنهم قد طبع الله على قلوبهم ، فلا يتأثرون ، ولا يتفقهون ، ولا يتفاعلون مع هذا القرآن رغم سماعهم له صباح مساء ، وهذا الختم على القلوب لم يأت عرضاً أو مصادفة ، فقد جاء مرتبطاً بوعي وتصميم عن اتباع الهوى والانقياد إليه .

إن القرآن الذى يتلى واحد ، فهو للمؤمنين نور وشفاء وهدى وموعظة وبيان .

وهو للمنافقين عمى ؛ لأن أهواهم التى سيطرت عليهم جعلت هذا الحجاب الكثيف بين قلوبهم وبين القرآن ، وإن المرء ليعجب فى الحقيقة من هؤلاء الناس الذين يستمعون إلى أشرف خلق الله ، ينطق بكلام الله العربى المبين ، فلا يتحرك لهم وتر ، ولا يخفق لهم خافق ، وإلا فكيف يستمرون على نفاقهم ؟ بينما يفعل فى نفوس المؤمنين فعل السحر ، يتحركون به ، ويتعظون به ، ويسارعون فى تطبيق أحكامه .

وفي الآية مؤشر آخر ، على أن الذين يتبعون أهواهم سواءً كانوا كفاراً أو منافقين يظهرون الإسلام ويبطئون الكفر ، أو عصاة المؤمنين الذين يسمعون كلام الله فلا يجاوز آذانهم ؛ لأن الذنوب المتراءكة قد شكلت الران الذى حدثنا عنه عليه الصلاة والسلام :

« إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه ، وهو الران الذى ذكره الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ » (١) .

أما الذين اهتدوا فيزيدتهم القرآن هدىً وبصيرة ، ويحرك في قلوبهم نوازع الخير ، فكأنما يعطون التقوى إعطاءً ربانياً : ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ .

وأولئك المنافقون الذين يعيشون في ظهراني المؤمنين ، هل يحسبون أنهم لن يموتون ، ولن يلاقوا ربهم حتى انغمسو في أهواهم هذا الانغمام ، واتبعوا مصالحهم هذا الاتباع ، ماذا ينتظرون ؟ :

﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ .

(١) أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة وهو حديث حسن .

إنهم يكذبون بالساعة في أعماقهم ، ويتظاهرن بالإيمان بها في ظاهرهم . . فكيف يكذبون بالساعة واليوم الآخر وقد جاءت النذر الأولى ، وجاءت أشراماً الساعة ، وعلاماتها ، وجاء النبي الخاتم الذي ختمت به الرسالات ، كما بشر بذلك أهل الكتاب ، وبشر بذلك التوراة والإنجيل ، فهو عليه الصلاة والسلام . كما قال عن نفسه :

« أنا محمد وأنا أحمد ، والمفتي ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي المرحمة ، ونبي الملحمة »<sup>(١)</sup> .

( والحاشر هو الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي . كما فسرها الحسن البصري رحمه الله )<sup>(٢)</sup> .

وهو عليه الصلاة السلام بعث بين يدي الساعة ، إذاناً بقربها فهو أول أشراطها عليه الصلاة والسلام .

فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذى عن أنس رضى الله عنه قال :  
« بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

وأخرج أحمد عن بريدة رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت تسبقني »<sup>(٣)</sup> .

فإذا لم يفقه هؤلاء المنافقون من سيد ولد آدم ، ومن خاتم الأنبياء ، ومن نذير الساعة ، ومن الخاتم والمفتي والحاشر ، فمنمن يفهون ؟ !! وهل لهم من عذر عندما تأتيهم الساعة بغية فتبهتهم ؟ ! .

والمهتدون الصالحون قد يقع منهم الخطأ والزلل والتقصير ، وهؤلاء أمة غير أمة المنافقين ، ومع أن القرآن يزيدهم هدى ، لكن الطبيعة البشرية لاتغافلهم من الخطأ . . فها هو جل شأنه يدعو نبيه محمداً ﷺ ؛ لتأكيد الوحдانية للبشر جميعاً يقلها ويعلمها ، فهي أثقل مافي هذا الوجود ، وحق هذه الوحدانية وحق الربوبية أنى للبشر أن يؤدّوه ، وأنى لهم أن يبلغوا عشر معشار واجبهم نحو لا إله إلا الله . فلا غرو أن يكلف سيدهم عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات :

. (٢) تفسير ابن كثير / ٦ / ٣١٩ .

(١) رواه أحمد ومسلم وهو حديث صحيح .

(٣) مسند الإمام أحمد / ٥ / ٣٤٨ .

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمْ مُتَقْلِبَكُمْ وَمُشَوِّا كُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

إنه من حق الله تعالى أن يقوم العبيد بواجب العبودية نحو ربهم وحالاتهم ، فإذا ساروا في الطريق جادين جاهدين فالله تعالى يغفر لهم الزلات ويغفو عن العثرات ، طالما أنهم موحدون موقتون .

لكن الذين طبع على قلوبهم فلهم شأن آخر غير شأن المؤمنين .

وهذا موقفهم من العلم الذي جاء به رسول الله ﷺ .

فما هو موقفهم من الجهاد ؟

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلْتَ سُورَةً إِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً مُحَكَّمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْقَتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ يَنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُمْرَضُونَ طَاعَةً وَقَوْلًا مَعْرُوفًا إِذَا عَزَمُ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسِيتُمْ إِنْ تَوْلِيْتُمْ أَنْ تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ أَوْ لَئِكَ الَّذِينَ لَعْنَهُمُ اللَّهُ فَأَصْنَمْهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

المؤمنون يتظرون الوحي انتظار الأرض العطشى للمطر ، فقد جاءهم ما يحببهم ، وغدا القرآن حياتهم ، ويتجهون يسألون : ﴿لَوْلَا نَزَّلْتَ سُورَةً﴾.

و خاصة في بعض القضايا التي يرجون من الله تعالى أن يحكم فيها ، فهم في جاهلية ، ويبدون الحكم في كل أمر ، يتظرون التعليمات للتنفيذ ، فهم جند الله تعالى . ويشارك المنافقون في هذه الرغبة ظاهراً ، ولا يستطيعون أن يتخلوا عن هذه المشاركة ، فهل يمكن أن يظهروا بعزو فهم عن كتاب الله ! ! ! إنه تصرف واضح يفضحهم ويدينهم .

وتأتي السورة ، تدعوا إلى ربط الدعوى بالعمل ، إلى ربط الإيمان بالتطبيق العملي ، تدعوا إلى الجهاد ، وقتل المشركين ، وتكون الطامة ؛ فالدعوى ستكتشف ، والادعاء سيسقط ، ويتحطمون تحت مطارق الصدق ومسؤوليات القتال في سبيل الله .

(١) محمد / ١٩ .

(٢) محمد / ٢٠ - ٢٤ .

ويأتي التعبير القرآني ليصفعهم صفة تخرج كلي ذرة من ذرات الشجاعة في قلوبهم  
ـ إن كان فيها شيء من الشجاعة ـ و كانوا ماضون للمعركة :

﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى  
لهم طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ .

( وهو تعبير لا تكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى ، وهو يرسم الخوف  
إلى حد الهلع ، والضعف إلى حد الرعشة ، والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبيّن بعد ذلك  
متفرداً حافلاً بالظلال والحركة التي تشغف الخيال ! وهي صورة خالدة لكل نفس لا  
تعتصم بيمان ، ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياة تتجمل به أمام الخطر وهي هي طبيعة المرض  
والنفاق )<sup>(١)</sup> .

وتبقى التربية هي الهدف الرئيسي للقرآن الكريم ، وبعد هذا التشخيص للداء الذي  
يعتمل في صدور المناقين ، وتحطيم القناعات الزائفة في نفوسهم والسفينة التي تصور لهم  
إمكان إخفاء مافي نفوسهم عن الله عز وجل ، وعن رسوله ، وعن جماعة المؤمنين . وحين  
تبدأ النفس بعد هذا الخزي تود أن تنزل في عالم الحقد والبأس ، والسقوط ، تقف الآية  
الكريمة لتلوى عنانهم مباشرة ، وترفهم من وهذه السقوط ، وتمسك بتلابيهم قبل الهاوية  
لتقودهم إلى النور .

إن الطريق مفتوحة إلى الهدى والنور ، ولا يكلفهم الأمر غالياً أبداً .

﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ .

إنه كتاب الله المعجز الصادر عن باريء النفس ومصوّرها ، وعن خالق الوجود  
والعليم بمكتونات الصدور ، وصانع هذه النفس ، القادرة على الانحدار والسمو ، إنها  
الصلة النفسية المباشرة التي تمسك بهذا القلب مباشرة . مع أعنف أحواله .

من صورة المغشى عليه من الموت .

وعوضاً عن أن نتابع الغشية عنده فيموت في نتن النفاق وأهله يمسك به مباشرة ، ولما  
تم الآية : ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ .

وتوضح الآية التالية مغبة الإصرار على التدنى ، والخوف من الجهاد والتخلّي عنه :

(١) في ظلال القرآن / ٦ / ج ٢٢٩٦ .

﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وقطعوا أرحامكم﴾ .

(أخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه : ﴿فهل عسيتم إن توليتم . . .﴾ الآية قال : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ؟ ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن ! ) <sup>(١)</sup> .

وعن قتادة كذلك : ( كل سورة أنزل فيها الجهاد فهي ممحكة ، وهي أشد القرآن على المنافقين ) <sup>(٢)</sup> .

وعن ابن جريج رضي الله عنه قال : ( كان المؤمنون يستاون إلى كتاب الله تعالى ، وإلى بيان ما ينزل عليه فيه ، فإذا أزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يا محمد المنافقين ﴿ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم﴾ قال : وعيد من الله لهم ) <sup>(٣)</sup> .

وصلة الآية بالجهاد صلة وثيقة ، لعل ابن رحمة الله هو الذي ذكر ذلك فقال :

( قوله سبحانه وتعالى : ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ أي عن jihad واتكلتم عنه ﴿أن تفسدوا في الأرض وقطعوا أرحامكم﴾ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء ، تسفكون الدماء ، وقطعون الأرحام ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال . وقد وردت الأحاديث الصلاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، قال البخاري : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان ، حدثني معاوية بن أبي مزرد ، عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :

« خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحمة فأخذت بحقوق الرحمن عز وجل . فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائد بك من القطيعة . فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلتك وأقطع من قطعك : قالت : بلى . قال : فذلك لك ». قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرؤوا إن شئتم : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وقطعوا أرحامكم﴾ ثم رواه البخاري من طريقين آخرين عن معاوية بن أبي مزرد به قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في

(١) (٢٠١) : الدر المشور / م / ٧ / ٤٩٦، ٤٩٧ .

الأرض وقطعوا أرحامكم ﴿٤﴾ ، ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرد به )<sup>(١)</sup> .  
والفساد في الأرض أن يكون ثمرة التولى عن الجهاد والتخلى عنه – قرره القرآن في  
مكان آخر في سورة البقرة في قوله عز وجل .

﴿.. ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل  
على العالمين ﴿٥﴾ .

وأما تقطيع الأرحام ، فنظرة واحدة إلى العرب قبل الإسلام ، وإلى ما يسمى أيام  
العرب في الجاهلية ، يعطينا أوضح صورة عن هذا التقطيع ، حيث تأكل الحرب الأخضر  
والبياض ، وتغنى الشباب ، وتحل القتل والدمار بين الإخوة والقبائل المجاورة المتحدرة من  
أصل واحد ، وتبدىء الفناء في العشيرة الواحدة ؛ لأن القتال آنذاك كان للدنيا وللسمعة  
للرياء ولم يكن لله ، وكانت الثارات وذحول الجاهلية هي التي تحكم في الناس ،  
تقطع أرحامهم ، وتغزو أوصالهم ، وتفسد ذات بينهم ، وتفتت ما بقي بينهم من أواصر .

والإفساد في الأرض وقطع الأرحام هو خروج عن منهج الخلافة في الأرض :

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أجعل فيها من  
يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا  
تعلمون ﴿٦﴾ .

وهؤلاء المفسدون يستحقون لعنة الله وغضبه :

﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿٧﴾ .

وعطفاً على بداية المقطع ، عن الذين يستمعون إلى رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من  
عنه قالوا : ماذا قال آنفاً ، فهم الذين أصمهم وأعمى أبصارهم ؟ لأنهم لا يتذرون  
القرآن ، وكيف يتذرون آيات الله ، والأقوال على قلوبهم وسمعيهم وأبصارهم ؟ لقد  
اختاروا ابتداء الكفر ، وأقدموا على رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان ، فنعت حقيقتهم ،  
لا يفهون ما يقولون : ﴿لهم قلوب لا يفهون بها ولهم أعين لا يصررون بها ولهم آذان  
لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴿٨﴾ .

(١) تفسير ابن كثير / ٦ / ٣١٨ .

(٢) البقرة / ٢٥١ .

(٣) الأعراف / ١٧٩ .

(٤) البقرة / ٣٠ .

وتأئي صورة ثلاثة من صور المنافقين ، لتطاردهم فى خلواتهم وتخطيطهم وتفضحهم بما مكرروا من أمر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىُ الشَّيْطَانُ سُوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مِنْ زُلْلَ اللَّهِ سُنْنَتِنَا كُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ . فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا سُخْطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾<sup>(١)</sup> .

وتشير هذه الآيات من جديد إلى التخطيط المشترك بين فريقين ، فريق المنافقين وفريق اليهود .

أما المنافقون ، فلم يتبعوا مسيرهم على طريق الهدى بعد إذ عرفوه ، ودخلوا في هذا الدين ، لقد نكسوا على أعقابهم ، وارتدوا على أدبارهم ، وقد تبين لهم الهدى فتذكروا له . ويحلل القرآن سبب هذا الموقف ، وذلك لوجود قوة مكافحة للقوة المسلمة ، هي قوة اليهود ، وإن كانت التصفية قد نزلت بيني قينقاع وبني النضير ، فلا يزال بنو قريطة في قلاعهم وحصونهم ، واتجاه المنافقين هو أن يمسكوا العصا من الوسط ، ولا يقطعوا حبالهم مع أحد ، فيقولون لليهود : ﴿ لَا سُنْنَتِنَا كُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ ، والله يعلم ما يخونون وما يعلنون .

ولابد أن تكون العقوبة متناسبة مع الجريمة ، وملاذك العذاب الذين يتناولونهم من لحظات مغادرتهم دنياهم يضربون وجوههم وأدبارهم ، فكما ارتدوا على أدبارهم فلأنهم العذاب على وجوههم وأدبارهم جزاءً نكالاً ؛ لموافقهم المشينة .

لقد كان الحب والود عميقاً بين الفريقين . نأخذ من صور هذا الحب هذه اللقطة بين زيد بن رفاعة وعبد الله بن أبي ، تحدثنا عن حزنهم على بنى النضير :

( ولقى المنافقون عليهم يوم خرجوا حزناً شديداً ، لقد لقيت زيد بن رفاعة بن التابوت وهو مع عبد الله بن أبي وهو يناجيه في بنى غنم وهو يقول :

توحشت بشرب لفقد بنى النضير ، ولكنهم يخرجون إلى عز وثروة من حلفائهم ، وإلى حصون منيعة شامخة في رعوس الجبال ليست كما هنا .

(١) محمد / ٢٥ - ٢٨

قال : فاستمعت : إِلَيْهِمَا سَاعَةً . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَاصَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ )<sup>(١)</sup> .  
وَتَلِكَ صُورُ أُخْرَى مُشَابِهَةٍ فِي مَوْقِفٍ آخَرَ ، عَنْدَ خَرْوَجِ بْنِ الْمُضِيرِ كَذَلِكَ :  
قَالَ الصَّحَّاْكُ بْنُ خَلِيفَةَ - وَهُوَ يَرَى خَرْوَجَهُمْ - :  
( وَاصْبَاحَاهُ ، نَفْسِي فَدَاؤُكُمْ مَاذَا تَحْمَلْتُمْ بِهِ مِنْ السُّؤُدُدِ ، وَالْبَهَاءِ ، وَالنِّجَادَةِ ،  
وَالسَّخَاءِ ؟

وَيَقُولُ نَعِيمُ بْنُ مُسْعُودَ الْأَشْجَعِي : فَدَاءُ لَهُنَّهُ الْوَجْهُ الَّتِي كَانُوا مُصَابِعَهُنَّ ظَاعِنِينَ مِنْ  
يَثْرَبَ مِنْ لِلْمُجَتَدِي الْمَلْهُوفَ ؟ وَمِنْ لِلْطَّارِقِ السَّغْبَانَ ؟ وَمِنْ يَسْقِي الْعَقَارَ ؟ وَمِنْ يَطْعَمُ  
الشَّحْمَ فَوْقَ الْلَّحْمِ ؟ مَا لَنَا بِيَثْرَبَ بَعْدَكُمْ مَقَامٌ .

يَقُولُ أَبُو عَيْسَى بْنُ جَبْرٍ وَهُوَ يَسْمَعُ كَلَامَهُ : نَعَمْ فَالْحَقُّهُمْ حَتَّى تَدْخُلَ مَعَهُمُ النَّارَ .  
قَالَ نَعِيمٌ : مَا هَذَا جَزَاؤُهُمْ مِنْكُمْ ، لَقَدْ اسْتَتْصَرُوكُمْ فَنَصَرُوكُمْ عَلَى الْخَرْجِ ، وَلَقَدْ  
اسْتَتْصَرْتُمْ سَائِرَ الْعَرَبَ بِهِ فَأَبْوَا ذَلِكَ عَلَيْكُمْ .  
قَالَ أَبُو عَيْسَى : قَطْعُ الْإِسْلَامِ الْعَهُودِ )<sup>(٢)</sup> .

فَقَدْ اتَّبَعَ الْمَنَافِقُونَ مَا أَسْخَطَ اللَّهُ فِي الْوَلَاءِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ ،  
وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فِي الْوَلَاءِ الْخَالِصِ لِلَّهِ ، فَفَقَدُوا رَأْسَ الْمَلِمَهُ كُلَّهُ ، وَأَحْبَطُوا اللَّهَ أَعْمَالَهُمْ  
بِذَلِكَ .

هَذَا التَّفْسِيرُ هُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ أَبُو عَيْسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَمَا أَخْرَجَ أَبْنَ جَرِيرٍ عَنْهُ  
قَالَ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ...﴾ إِلَى : ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ هُمْ أَهْلُ النَّفَاقِ )<sup>(٣)</sup> .  
وَإِنْ كَانَ قَنَادِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا رَوَى عَنْهُ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَّلَتْ فِي الْيَهُودِ ،  
وَكَذَلِكَ أَبُو جَرِيرٍ - لَكِنَّ الْمُتَوَافِقُ مَعَ سِيَاقِ الْآيَاتِ هُوَ التَّفْسِيرُ الْمَرْوُى عَنْ أَبُو عَيْسَى  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

﴿أَمْ حَسِبُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ أَنْ لَنْ يَخْرُجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ  
لَأَرِيَنَا كُلَّهُمْ فَلَعْنَفُهُمْ بِسِيمَاهِمْ وَلَتَعْرِفُهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ . وَلَبَلُونَكُمْ

(١) نَعْدَى الْمَوَاقِدِ / ٢ / ٣٧٤ .

(٢) نَعْدَى الْمَوَاقِدِ / ٢ / ٣٧٤ .

(٣) تَفْسِيرُ أَبْنِ جَرِيرٍ / ١١ / ٣٧١ .

حتى نعلم المخاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴿١﴾ .

والمنافقون في هذه المرحلة ، لم يكن الاتجاه القرآني يمضي بكشف أشخاصهم ليتيح الفرصة لهم للعودة إلى الصف ، وعدم تحديد هوياتهم بأشخاصهم وأعيانهم ، يبقى الباب مفتوحاً لديهم للتراجع عن مواقفهم ، والالتحاق بالصف المسلم ، لكن هذا لا يعني أنهم مغمورون غير معروفين ، ينفذون مؤامراتهم ، ويدسون الدسسة في الصف المسلم ، فيظنون أن الله لا يخرج أضعانهم ، وكما يقول ابن كثير رحمة الله :

(أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوق البصائر .

والإضغان جمع ضغف وهو ما في النفوس من الحقد والحسد للإسلام وأهله والقائمين بنصره ، قوله : ﴿ولو نشاء لأربناكم فلعرفthem بسيماهم﴾ يقول عز وجل : ولو نشاء يامحمد لأربناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً . ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترأ منه على خلقه ، وحملأ للأمور على ظاهر السلامة ، ورداً للسراير إلى عالمها )<sup>(٢)</sup> .

وكما روى عن ابن عباس رضي الله عنهمَا في هذه الآية : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ أَنْ لَا يُخْرِجَ اللَّهُ أَعْسَانَهُمْ﴾ قال : (أعمالهم ، خبيثهم والحسد الذي في قلوبهم )<sup>(٣)</sup> .

(لقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فـ النفاق ، وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين ، فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافياً ، ويهددهم بـ كشف حالهم وإظهار أضعانهم وأحقادهم على المسلمين ، ويقول لرسول الله ﷺ : ﴿ولو نشاء لأربناكم فلعرفthem بسيماهم﴾ أي لو نشاء لكشفنا عنك بـ ذواتهم وأشخاصهم ، حتى لترى أحدهم فـ تعرفه من ملامحه - وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم - ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم ، وإيمانـ لهم للـ قول عن استقامته وانحرافـ منطقـهم في خطابـكـ سـيدـلكـ علىـ نـفـاقـهمـ : ﴿ولـ تـعـرـفـهـمـ فـيـ لـ حـنـ القـوـلـ﴾ .

ويـ عـرـجـ عـلـىـ عـلـمـ اللـهـ الشـامـلـ بـ الـأـعـمـالـ وـ بـوـاعـثـهـاـ : ﴿وـ اللـهـ يـعـلـمـ أـعـمـالـكـ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) محمد / ٢٩٣ .

(٢) تفسير ابن كثير / ٦ / ٣٢٢ .

(٣) الدر المنشور / ٧ / ٥٠٣ .

(٤) في ظلال القرآن / م / ٦ / ٢٦ / ج / ٣٢٩٩ .

﴿ ولبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأوا أخباركم ﴾ :

والابتلاء هو السبيل الوحيد لتمييز المؤمنين عن المنافقين ، وهو السبيل الوحيد لمعرفة الصابرين على الأداء والضراء وحين الضراء ، والقضية إن كانت مخصوصة في العبادة والصلاوة فمن السهل حضور جماعة المسلمين ، والمحافظة عليها - وإن كانت الصلاة نفسها ابتلاء فما يختلف عن صلاة الجماعة في ذلك المجتمع الرباني إلا منافق مغموم علية في النفاق ، وأنقل الصلاة على المنافقين صلاة الفجر وصلاة العشاء . . - لكن الأصعب والأشد هو الجهاد والصبر على طعن القنا وضرب السيف في سبيل الله ، فلا بد أن يبرز المجاهدون والصابرون ، ولا يتساون مع المتخاذلين والمنافقين .

وال المسلم يسأل الله تعالى العافية ، لكن إن وقع الابتلاء فلابد أن يكون عند حسن ظن ربه به ، كما قال البراء بن مالك رضي الله عنه : ( ليربن الله ما أصنع ) .

« لا تمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، وإذا لقيتموه فثبتوا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيف » <sup>(١)</sup> .

والابتلاء مستمر في كل المراحل ، ابتداءً من الإيمان وانتهاء بالجهاد .

فعن سيرة بن الفاكه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال :

« إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك فعصاه فأسلم فففر له ، فقعد له بطريق الهجرة ، فقال له : تهاجر وتذر دارك وأرضك وسماءك فعصاه فهاجر ، فقعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد وهو جهد النفس والمآل فقاتل فتنكح المرأة ، ويغنم المال فعصاه فجاهد » ثم قال رسول الله ﷺ :

« فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابتة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » <sup>(٢)</sup> .

حتى للصف المؤمن على الجهاد :

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقولا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحيط بأعمالهم . يأيها الذين آمنوا أطعوا الله وأطععوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم

(٢) رواه النسائي وابن حبان .

(١) متفق عليه .

كفار فلن يغفر الله لهم . فلا تهنو وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يترکم أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعب ولهم وإن تؤمنوا وتشروا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحلفكم تخلوا ويبخر أضفانكم . ها أنتم هؤلاء تدعون لتفقروا في سبيل الله فمنكم من يدخل ومن يدخل فإنا يدخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿١﴾ .

بعد أن زحزح المنافقون من الساحة تبقى المعركة الحقيقة بين المؤمنين والكافرين .

فالكافرون يقول تعالى عنهم :

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقو الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحيط بأعمالهم ﴾ .

فالذين كفروا سواءً أكانوا من اليهود الذين يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم وقد تبين لهم الهدى فانحرفا عنه ، أو كانوا من المشركين الذين يعرفون صدق رسولهم . وأنهم ماجربوا عليه كذباً فقط ، إنما حاربوه استعلاً واستكباراً لأن يكونوا تبعاً له ، ولم يكتفوا بعدم إيمانهم فقط ، إنما حملوا لواء الحرب لله ورسوله ، وحرب المؤمنين في كل مكان وجدوا فيه ، فصدوا عن سبيل الله . هؤلاء جميعاً مهما كانت قوتهم وجبروتهم وطغيانهم لن يضروا الله شيئاً ، ولن يحولوا دون انتشار هذا الدين في الآفاق ، ولن يطفئوا نور الله بأفواهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . لكنهم يحرقون أنفسهم في الدنيا والآخرة ، ويسيلقون جراء محادتهم لله ورسوله أن يحيط عملهم كلهم ، وإن كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . لن يعني عنهم أن يكونوا من أهل الكتاب وأنهم من نسل الأنبياء ، وأنهم . . أو أن يكونوا حماة البيت ، يحملون لواء سقاية البيت وعمارة المسجد الحرام ، فالعمل سيحيط للفريقين ، ماداموا كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، وماداموا حرباً لله ورسوله والمستضعفين من المؤمنين .

ولابد من أن يتضح هذا الأمر في ذهن العصبة المؤمنة ، حتى تتخلى نهائياً عن خط الكفر وأهله ، ولا تساورها الشكوك كما ساوردت المنافقين في محاولة تقديم المصلحة على الهدى ، ومحاولات إطاعة الكافرين في بعض الأمر والمؤمنين في بعض الأمر ، لابد من موقف حاسم واضح بين .

﴿.. أطعوا الله وأطعوا الرسول ولا بطلوا أعمالكم﴾ :

وإبطال العمل هو كما تم التحذير عنه من قبل ، في محاولة التوفيق بين المؤمنين والكافرين ، وتجزئة الطاعة بين المؤمنين والكافرين .

ثم يأتي التحذير الثاني بعد التحذير الأول ، ليحس المسلم بالماضلة الكاملة بينه وبين الكافرين :

﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾ .

التحذير من التأثير بالأحياء من الكفار أو بالموتى منهم ، فالأخياء سيحيط أعمالهم ، والموتى لن يغفر الله لهم ، وكلاهما سيكون حطباً للنار يوم القيمة .

ولا يجوز أن تلين القناة أو تهين العزيمة ، أمام هذه القوة العاتية الطاغية الباغية التي تحيط المسلمين من كل موقع ، وفي الأجواء بعد أحد لابد من التركيز على هذا البناء النفسي .

فكم قال الله تعالى لهم في أحد :

﴿ولا تهنووا، ولا تخزنوها وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ .

يتبع هذا الخط ، ويتابع هذا البناء بقوله عز وجل :

﴿ولا تهنووا وتدعوا إلى السلم﴾ .

فلا سلم مع هؤلاء الكفار الذين لا يرضون منكم إلا سلماً على دخن تركون فيه دينكم أو تساومون عليه ، ولا يضركم أن تكونوا هزمتم في معركة ، أو خسرتم حرباً ، فلاتزالون أنتم الأعلون . والعلو ليس بالضرورة بالانتصار ، قد يكون العدو - رغم الجراح والآلام والتضحيات - هو الثبات والصبر ، كما صبر الصالحون من قبلنا ، فسيبقى سجل الأعمال وافراً بالأجر لن ينقص منه شيئاً ، سواءً كانت النتيجة النصر على العدو ، أو الاستشهاد في المعركة ، أو الجرح في سبيل الله .

«تضمن الله من خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيله وإيمان بي وتصديق برسله فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة ، والذى نفس محمد بيده مامن كلام - جرح - يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم

القيامة كهيئته يوم كلام ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك ، والذى نفس محمد بيده لولا  
أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا ، ولكن لا أحد سمع  
فأحملهم ، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخللوا عنى ، والذى نفس محمد بيده  
لوددت أنى أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل »<sup>(١)</sup> .

وإذا كان الذى يتحول دون الجهاد الركون إلى الدنيا والتشاقل إلى الأرض - فالدنيا  
أهون من أن تحول دون الجهاد :

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهم وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم  
أموالكم ﴾ .

والدنيا عندما تكون مطية للآخرة ، فيمكن أن يتحول كل مافيها خيراً وزخراً  
للمؤمنين . وعظمة هذا الدين أنه يخاطب النفس البشرية في كل أبعادها ، فليس خاصاً  
بالنخبة من البشر . إنه يريد أن يرفع البشر جميعاً كلاً حسب طاقته ، وليس بالضرورة أن  
يكون الإيمان والتقوى تخلياً عن الدنيا ، فالمال مدخلة مجينة : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾  
و ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير متوعاً ﴾<sup>(٢)</sup> .

والذين يتحررون من هذه الغرائز المصلون : ﴿ إلا المصلين ﴾ ، والمؤمنون المتقوون .

﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ .

فليست الطبيعة البشرية رغم الإيمان والتقوى فيها ، أن يقدم المال كله إنفاقاً ، فلننفس  
حظ ، وللولد والأهل نصيب ، ولو سئل المؤمنون أموالهم لسقطوا في الامتحان ، ولتزيل  
الكثيرون عن مواقعهم :

﴿ إن يسألكموها في حكمكم تخلوا ويخرج أضعانكم ﴾ .

(أى إن يحرجكم تخلوا ويخرج أضعانكم) قال قنادة : قد علم الله تعالى أن  
في إخراج الأموال إخراج الأضنان ، وصدق قنادة ، فإن المال محظوظ ولا يصرف إلا فيما  
هو أحب إلى الشخص منه )<sup>(٣)</sup> .

وحيث لم يسأل الله تعالى المال كله ، فهذا لا يعني أن لا يسأل الجهاد بالمال :

(١) رواه مسلم .

(٢) المزارج / ١٩ - ٢١ .

(٣) تفسير ابن كثير / ٦ - ٣٢٥ .

﴿ هَأْتُمْ هُؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْكُمْ مَنْ يَسْخُلُ وَمَنْ يَسْخُلُ إِنَّمَا يَسْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَفْنَى وَأَتْسَمَ الْفَقَرَاءِ . . . ﴾ (١) .

« من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا » (٢) .

« من جهز غازياً في سبيل الله أو خلفه في أهله كتب له مثل أجره حتى لا ينقص من أجرا الغازي شيء » (٣) .

وَعَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ :

« طوبى لمن أكثر من الجهاد في سبيل الله من ذكر الله فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف ، مع الذي له عند الله من المزيد » فقيل : يا رسول الله ، النفقه ؟ قال : « النفقه على قدر ذلك » قال عبد الرحمن : فقلت لمعاذ : إنما النفقه بسبعين أضعاف . قال معاذ : قل فهمك ، إنما ذاك إذا أنفقوها وهم مقيمون في أهلهم غير غزاة ، فإذا غزوا وأنفقوا أخباً الله لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عنه علم العباد وصفتهم ، فأولئك حزب الله وحزب الله هم الغالبون » . (٤) .

﴿ . . . وَإِنْ تَتَوَلُوا يَسْتَبِدُ قَوْمًا غَيْرَ كُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ :

لقد نزلت هذه الآية تناطح الجيل القرآني الفريد ، خير أهل الأرض على الأرض ، وإن كانت ماضية تناطح كل الأجيال إلى يوم الدين ، ولعل كثيراً من الأجيال سقطت في الابلاء ، فأبدل الله تعالى خيراً منها ، وبقي لواء هذا الدين مرفوعاً إلى يوم القيمة .  
ولاشك أن الجيل الأول قد أصبح طباق الأرض ثم التابعين وتابعهم .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأُولَوْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَعْدَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

أما بعد تلك الأجيال الثلاثة من السلف الصالح رضي الله عنهم ، فبقيت الطائفة التي تقاتل عن الحق وتزود عنه في كل جيل ، وحين تتولى الجماهير الغافلة عن الدين والجهاد في سبيله ، فالله تعالى يخرج من بين ظهرانيها من يتبع الجهاد حتى تقوم الساعة وهم على ذلك .

(١) محمد / ٣٨ .

(٢) متفق عليه .

(٣) ابن حبان .

(٤) أخرجه الطبراني ، وفيه روا لم يسم .

ونستطيع القول أن الانتقال من الأمة المسلمة إلى الطائفة المسلمة قد تم بعد القرون الثلاثة الأولى .

« خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن »<sup>(١)</sup> .

فستبقى الحيرية في الأمة بعدها كما يقول عليه الصلاة والسلام :

« لاتزال طائفة من أمتي منصورين ، لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة »<sup>(٢)</sup> .

وفي رواية : « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيمة ، فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم : تعال ، صل لنا فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمير ، تكرمة الله لهذه الأمة »<sup>(٣)</sup> .

ونؤكد إذن أن الجيل الأول الذي نزلت عليه هذه الآية لم يتول ولم يتوان ، بل كان على منهج الله وشرعه حتى انتشر الدين في الأرض كلها ، وكان الدين كله لله . ولعلنا نعرض نموذجاً من هذا الجيل وذلك في الفترة التي تواكب فيها نزول هذه الآيات .

نموذجًا خاصاً ، ونموذجًا عاماً ، نودع بهما الفترة بين أحد والحدائق ، ونشهد من خلالهما ثمرة هذا التوجيه القرآني في الحث على الجهاد في سبيل الله ، والحث على البذل والإتفاق في سبيل الله .

أما المودج الخاص : فهو مقتل أبي رافع اليهودي .

وكان لابد من الوصول إلى خير من جند محمد ﷺ بعد أن أوت إليها بنى النضير ، وقد تحدثهم نفسهم بغزو المدينة ، والثار لكرامتهم المهدورة وأرضهم المسلوبة التي جعلها الله فيهاً للمسلمين .

وقد خرجوا بأمر رسول الله ﷺ لأربع خلوت من ذى الحجة على رأس ستة وأربعين شهراً ، وغابوا عشرة أيام .

عن عبد الله بن أنيس قال : ( خرجنا من المدينة حتى أتينا خير قال : ( وقد كانت أم

(١) متفق عليه .

(٢) رواه ابن ماجة وهو صحيح .

(٣) رواه مسلم والإمام أحمد .

عبد الله بن عتيك ، بخبير يهودية أرضعته ) وقد بعثنا رسول الله ﷺ خمسة نفر : عبد الله ابن عتيك ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة ، والأسود بن خزاعي ، ومسعود بن سنان . قال : فانتهينا إلى خبير . وبعث عبد الله إلى أمه فأعلمها مكانه فخررت إلينا بحراب مملوء تمراً كبيساً وخبراً ، فأكلنا منه ثم قال لها : يا أماه قد أمسينا بيتك فأدخلينا خبير . فقالت : كيف تطبق خبير ، وفيها أربعة آلاف مقاتل ؟ ومن تريد فيها ؟ قال : أبي رافع . فقالت : لا تقدر عليه . قال : والله لأقتلنه أو لأقتلن دونه قبل ذلك . قالت : فادخلوا على ليلاً . فدخلوا عليها ، فلما نام أهل خير ، وقد قالت لهم ادخلوا في خمر <sup>(١)</sup> الناس ، فإذا هدأت الرجل فاكمنوا ! ففعلوا ودخلوا عليها ، ثم قالت : إن اليهود لاتغلق أبوابها عليها فرقاً أن يأتيها ضيف ، فيصبح أحدهم بالفناء ولم يضف ، فيجد الباب مفتوحاً فيدخل فيتعشى . فلما هدأت الرجل قالت : انطلقوا حتى تستفتحوا على أبي رافع فقولوا : إننا جئنا لأبي رافع بهدية فإنهم سيفتحون لكم فعلوا ذلك . ثم خرجنوا لامرون بباب من بيوت خير إلا أغلقوه ، حتى أغلقوا بيوت القرية كلها حتى انتهوا إلى عجلة <sup>(٢)</sup> عند قصر سلام <sup>(٣)</sup> قال : فصعدنا وقدمنا عبد الله بن عتيك ؟ لأنه كان يرطن باليهودية ، ثم استفتحوا على أبي رافع فجاءت أمرأته ، فقالت : ما شئت ؟ فقال عبد الله ابن عتيك ورطن باليهودية : جئت أبي رافع بهدية ، ففتحت له ، فلما رأت السلاح أرادت تصريح . قال عبد الله بن أنيس : وازدحمنا على الباب أينما ييدر له ، فأرادت أن تصريح . قال : فأشرت إليها السيف قال : وأنا أكره أن يسبقني أصحابي إليه . قال : فسكنت ساعة ثم قلت لها : أين أبو رافع ؟ ولا ضربتك بالسيف . قالت : هو ذاك في البيت . فدخلنا عليه فما عرفناه إلا بياضه كأنهقطنة ملقأة فلعوناه بأسيافنا فصاحت أمرأته ، فهم بعضاً أن يخرج إليها ثم ذكرنا أن رسول الله ﷺ نهانا عن قتل النساء . قال : فلما انتهينا جعل سملك <sup>(٤)</sup> البيت يقصر علينا ، وجعلت سيفنا ترجع .

قال ابن أنيس : وكنت رجلاً أعشى لا أبصر بالليل إلا بضرراً ضعيفاً . قال فتأملته كأنه قمر فأتكىء بسيفي على بطنه حتى سمعت خشه <sup>(٥)</sup> في الفراش ، وعرفت أنه قد قضى . قال : وجعل القوم يضربونه جميعاً . ثم نزلنا ونسى أبو قتادة قوسه فذكرها بعد ما نزل ، فقال أصحابه : دع القوس ، فأبى فرجع فأخذ قوسه . وانفك رجله فاحتملوه بينهم ،

(١) في خمر الناس : في جماعتهم وكثرتهم . (٢) عجلة : درجة من التخل .

(٣) سلام بن أبي الحقيق : هو أبو رافع .

(٤) سملك البيت : سقفه .

(٥) خشه : صوت شقة للفراش .

فصاحب أمرأته ، فتصابع أهل الدار بعد مقتل ، فلم يفتح أهل البيوت عن أنفسهم ليلًا طويلاً ، واحتباً القوم في بعض منابر <sup>(١)</sup> خير ، وأقبلت اليهود ، وأقبل الحارث أبو زينب ، فخرجت إليه أمرأته ، فقالت : خرج القوم الآن . فخرج الحارث في ثلاثة آلاف في آثارنا ، يطلبوننا بالتيران في شعل <sup>(٢)</sup> السعف ولربما وطئوا في النهر ، فتحن في بطنه وهم على ظهره فلا يروننا . فلما أوعوا في الطلب فلم يروا شيئاً رجعوا إلى أمرأته فقالوا لها : هل تعرفين منهم أحداً؟ قالت : سمعت منهم كلام عبد الله بن عتيبة ، فإن كان في بلادنا هذه فهو معهم ، فكروا الطلب الثانية وقال القوم فيما بينهم : لو أنا بعضنا آتاهم فنظر هل مات الرجل أم لا . فخرج الأسود بن خزاعي حتى دخل مع القوم وتشبه بهم . فجعل في يده شعلة كشعالهم حتى كر القوم الثانية إلى القصر وكر معهم ، ويجد الدار قد شحنت . قال : فأقبلوا جميعاً ينظرون إلى أبي رافع مافعل ، فأقبلت امرأته معها شعلة من نار ثم أحتت عليه تنظر أحى أم ميت هو ، فقالت : فاظ <sup>(٣)</sup> وإله موسى ! قال : ثم كرحت أن أرجع إلا بأمر بين ، فدخلت الثانية معهم ، فإذا الرجل لا يتحرك منه عرق ، فخرجت اليهود في صيحة واحدة . قال : وأخذوا في جهازه يدفونه ، وخرجت معهم وقد أبطأه على أصحابي بعض الإبطاء ، فانحدرت عليهم في النهر فخرتهم ، فمكثنا في مكاننا يومين حتى سكن عنا الطلب ، ثم خرجننا مقبلين إلى المدينة ، كلنا يدعى قتله ، فقدمنا على النبي عليه السلام وهو على المنبر ، فلما رأينا قال : «أفلحت الوجوه» ! فقلنا : أفلح وجهك يا رسول الله ! قال : «أقتلتكموه؟» قلنا : نعم ، وكلنا يدعى قتله . قال : «عجلوا علىَّ بأسيافككم» . فأتينا بأسيافنا ثم قال : «هذا قتله ، هذا أثر الطعام في سيف عبد الله بن أنيس» قال : وكان ابن أبي الحقيق قد أجلب في غطفان ومن حوله من مشركى العرب ، وجعل لهم الجعل العظيم لحرب رسول الله عليه السلام ، فبعث النبي عليه السلام إليه هؤلاء النفر . . . .

ويقال كانت السرية في شهر رمضان سنة ست <sup>(٤)</sup> .

لقد أوقفت هذه العملية غزوًا للمدينة ، أو أجلته على الأقل ، إذ أن العدو قد تکالب على المسلمين من كل جانب ، وكل يخطط لحربيهم والقضاء عليهم ، والعين النبوية الساهرة ترقب الأخبار من كل مكان ، وتضع الخطة المناسبة للمواجهة ، والجنود المسلمون

(١) منابر : جمع منبر شق في الحصن تأخذ يخرج منه الماء .

(٢) شعل السعف : قطعة من خشب تشنق فيها النار ، والسعف أغصان النخلة .

(٣) فاظ : مات .

(٤) المغارى للواقدى / ١ - ٣٩١ - ٣٩٥ .

من المهاجرين والأنصار يتسابقون في الفداء . فقد كانت هذه العملية أصلاً مكافحة لعملية اغتيال كعب الأشرف بعد بدر .

فعن ابن إسحاق قال : ( حدثني الزهرى ، عن كعب بن مالك قال : كان مما صنع الله لرسوله ﷺ ؛ أن هذين الحيين من الأنصار كانوا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلىن ، لاتصنع الأوس شيئاً فيه غناه عن رسول الله ﷺ إلا قالت الخزرج : والله لاتذهبون بها فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام ، فلا يتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك .

وما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج : والله لاتذهبون بها فضلاً علينا ، فذاكروا من رجل لرسول الله ﷺ كابن الأشرف ، فذكروا ابن الحقيق وهو بخير ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فأذن لهم ، فخرج إليه من الخزرج خمسة من بنى سلمة )<sup>(١)</sup> .

هذا على المستوى الخاص بينما تطالعنا على المستوى العام غزو تان كبرitan هما غزوة دومة الجندل وغزوة المريسيع - غزوة بنى المصطلق - وكلامها لصد هجوم مبيت .

---

(١) المغازي للذهبي / ٣٤١ .

## ١ - غزوة دومة الجندل

كانت السنة الرابعة قد انصرمت ، وأزفت السنة الخامسة ، ولازال الحشود من كل مكان تجتمع ، فينهد لها رسول الله ﷺ ومن معه .

(قيل سميت بدومني بن إسماعيل عليه السلام ؛ لكونها كانت منزلة ، ودومة بالفتح موضع آخر ، وهذه الغزوة كانت في ربيع الأول ، ورجع النبي ﷺ قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً .

وقال المدائني : خرج رسول الله ﷺ في المحرم يريد أكيدر دومة ، فهرب أكيدر وانصرف النبي ﷺ .

وقال الواقدي - عن رواته - : أراد رسول الله ﷺ أن يقرب إلى أدنى الشام ليرهب قصر ، وذكر له أن بدومة الجندل جمعاً عظيماً يظلمون من مرّ بهم ، وكان بها سوق وتجار ، فخرج رسول الله بألف من المسلمين ، فكان يسير الليل ويكمّن النهار ودليله مذكور العذرى ، فنكب عن طريقهم ، فلما كان بينه وبين دومة يوم قوى قال له : يا رسول الله إن سوائمهم ترعى عندك ، فأقم حتى أنظر . وسار مذكور حتى وجد آثار النعم ، فرجع وقد عرف مواضعهم ، فهجم النبي ﷺ على ما شيتهم ورعايthem فأصاب من أصاب وجاء الخبر إلى دومة ففرقوا ، ورجع النبي ﷺ .

وهي عن المدينة ستة عشر يوماً وبينها وبين دمشق خمس ليال للْمُجَدّ ، وبينها وبين الكوفة سبع ليال ، وهي أرض ذات نخل ، يزرعون الشعير وغيره ، ويستقون على النواضح ، وبها عين ماء<sup>(١)</sup> .

(١) الأذى للذهبي / ١ / ٢٥٨ - ٢٥٧ ، وعند الواقدي / ١ / ٤٠١ - ٤٠٤ ، وعن ابن إسحاق / ٢ / ٢١٣ .

## ٢ - غزوة المريسيع

( وتسمى غزوة بنى المصطلق ، كانت فى شعبان سنة خمس على الصحيح ، بل المجزوم به .

قال الواقدى : استخلف النبي ﷺ على المدينة زيد بن حارثة . .

فحديثى شعيب عن عباد عن المسور بن رفاعة قال : خرج رسول الله ﷺ فى سبعمائة .

وقال يونس بن بكر : قال ابن إسحاق : حدثنى . . . قالوا :

خرج رسول الله ﷺ وبلغه أن بنى المصطلق يجتمعون له ، وقادهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية أم المؤمنين ، فسار النبي ﷺ حتى نزل بالمرسيع ماء من مياهم ، فأعدوا لرسول الله ﷺ . فتراحت الناس فاقتتلوا . فهزم رسول الله ﷺ بنى المصطلق وقتل منهم من قتل منهم ونفل نسائهم وأبناءهم وأموالهم ، وأقام عليهم من ناحية قديد<sup>(١)</sup> والساحل .

وقال الواقدى عن معمر وغيره : إن بنى المصطلق من خزاعة كانوا ينزلون ناحية الفرع<sup>(٢)</sup> ، وهم حلفاء بنى مدلج ، وكان رأسهم الحارث بن ضرار ، وكان قد سار فى قومه ومن قدر عليه ، وابتعوا خيلاً وسلاحاً وتهيأ للمسير إلى رسول الله ﷺ .

قال الواقدى : وحدثنى سعيد بن عبد الله بن أبي الأبيض عن أبيه عن جدهه وهى مولاية جويرية قالت : سمعت جويرية تقول : أتانا رسول الله ﷺ ونحن على المرسيع فأسمع أبي يقول : أتانا ما لا قبل لنا به . قالت : وكنت أرى من الناس والخيل والعدد أصف من الكثرة ، فلما أُسلمت وتزوجتى رسول الله ﷺ ورجعنا ، جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى فعرفت أنه رب من الله . وكان رجل منهم قد أسلم يقول : لقد كنا نرى رجالاً يبدأ على خيل بلق ما كنا نراهم قبل ولا بعد .

(١) قديد : قرية جامعة بين مكة والمدينة ، كثيرة المياه ، وقيل موضع قرب مكة .

(٢) الفرع : تبعد عن المدينة جنوباً .

قال الواقدي : ونزل رسول الله ﷺ الماء ، وضربت له قبة من أدم ومعه عائشة وأم سلمة ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، ثم أمر عمر فنادى فيهم قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ففعل عمر ، فأبوا ، فكان أول من رمى رجل منهم بسهم ، فرمى المسلمين ساعة بالتبلي ، ثم إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا ، فحملوا ، فما أفلت منهم إنسان ، وقتل منهم عشرة ، وأسر سائرهم ، وقتل من المسلمين رجل واحد<sup>(١)</sup> .

لقد كان تحرك النبي ﷺ إلى أقصى الشمال حتى دومة الجنديل وإلى الجنوب قرب مكة ، وذلك ليطهر المنطقة كلها من الجحود التي تستعد لمواجهته والانقضاض على المدينة ، وكان المسلمون يتركون للقاء العدو ، فقد أصبحت الأعداد الضخمة هي سمة التحرك ، فكمارأينا أن قرابة الألف قد اتجهوا الدومة الجنديل ، والسبعيناً لبني المصطلق ، وهما جيشان يدعان جيش أحد ، وهذا يعني أن التربية الجهادية قد أخذت مداها ، والدعوة إلى الجهاد والصبر على لقاء العدو قد أثمرت وأيّنت كذلك .

غير أنها ونحن نقف في قلب الصف المسلم ، ونشهد جوانب التربية من حاله ونشهد الحرب غير المعلنة بين المنافقين والمؤمنين – نلاحظ أن معسكر المنافقين بدأ يتقلص شيئاً فشيئاً ، ويمتد معسكر الإيمان ليضم العديد من أفراده ، ولا يقف معسكر المنافقين مكتوف الأيدي وعلى رأسه عبد الله بن أبي ، وهو يجد التناقض والتقلص يتسلل إلى معسكره .

لقد فشل مع بنى قينقاع وبنى النضير ، وقد أكبـر حليفـين له داخلـ المدينة ، فلا بدـ أن يتجـهـ إلى ضـربـ الصـفـ المـسـلمـ المـتـامـسـكـ ، وإـثـارـةـ الفـرـقةـ وـالـخـلـافـ فـيـهـ ، لـعـلهـ يـسـتـطـعـ أنـ يـعـيدـ تـرـيـيـهـ مـنـ جـدـيدـ ، فـيـضـمـ قـوـمـ الـخـزـرـجـ إـلـيـهـ عـلـىـ الـأـقـلـ ، وـأـرـادـ أـنـ يـضـرـبـ صـرـبـتهـ الذـكـرـيـةـ التـيـ لـوـجـحـتـ مـعـهـ لـتـغـيرـ وـضـعـ الإـسـلـامـ كـلـهـ ، وـلـكـنـ عـظـمـةـ الـمـؤـمـنـينـ وـتـغـلـلـ الإـيمـانـ فـيـ أـعـماـقـهـ وـاجـهـ هـذـهـ الضـرـبةـ ، وـتـحـولـتـ القـضـيـةـ ، حتـىـ كـادـتـ تـجـهزـ عـلـىـ الـمـنـافـقـينـ ، وـلـمـ يـعـدـ لـهـمـ مـعـسـكـرـ بـعـدـ ذـلـكـ .

فـماـ الذـىـ جـرـىـ فـيـ هـذـهـ الـمـرـحـلـةـ ، حتـىـ انـقـلـبـتـ الـمـواـزـيـنـ ، وـتـحـطـمـ مـعـسـكـرـ الـمـنـافـقـينـ ؟ !

(١) المازى للذهبي / ١ / ٢٥٨ - ٢٦٠ ، وعند الواقدي / ١ / ٤٠٤ - ٤١٣ ، وفي السيرة النبوية لابن هشام / ٢ /

( قال ابن عيينة : حدثنا عمرو بن دينار ، سمعت جابرًا يقول : كنا مع النبي ﷺ في غزوة ، فكسع <sup>(١)</sup> رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا أنصار ، وقال المهاجرى : يالله المهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : « مابال دعوى الجاهلية ؟ دعواها فإنها متنعة ». فقال عبد الله بن أبي بن سلول : أؤقد فعلوها ؟ لعن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ». قال : وكانت الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم النبي ﷺ ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه » <sup>(٢)</sup> . )

ومن زيد بن أرقم قال : ( غزونا مع رسول الله ﷺ ، وكان معنا ناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكانت الأعراب يسبكوننا ، فيسبق الأعرابي أصحابه ، فيملأ الموضع ويجعل حوله حجارة ، و يجعل النطع حتى يجيء أصحابه . فأتى الأنصارى فأرخي زمام ناقته لشرب فمنعه ، فانتزع حجرًا فقضى الماء ، فرفع الأعرابي خشبة ، فضرب بها رأس الأنصارى فشجه ، فأتى عبد الله بن أبي فأخبره فغضب ، وقال : لاتفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله ؛ يعني الأعراب . وقال : لعن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال زيد : فسمعته فأخبرت عمى ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فحلف وجد ، فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني ، ف جاء إلى عمى فقال : مأردت أن مقتلك رسول الله أو كذبك المسلمين ، فوقع على من الغمّ ما لم يقع على أحد قط ، فيينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ ، وقد خفقت برأسى من لهم ، إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني ، وضحك في وجهي . فما كان يسرنى أن لي بها الخلد أو الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقنى فقال : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قلت : ما قال لي شيئاً ، فقال : أبشر . فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين حتى بلغ منها **﴿الأذل﴾** <sup>(٣)</sup> . )

وقال إسرايل عن أبي إسحاق عن زيد بن أرقم ، قال :

( سمعت عبد الله بن أبي يقول لأصحابه : لاتفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال : لعن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فذكرت ذلك

(١) كسع : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٢) البخارى / كتاب التفسير / ٦٥ / ٦٦ سورة المنافقون ، وصحیح مسلم (٢٥٨٤) ، والغازى للذهبي / ٢٦٤ .

(٣) صحيح البخارى / كتاب التفسير / ٦ / ٥٦ سورة المنافقون .

لعمي ، فذكره لرسول الله ﷺ ، فحلفو ما قالوا ، فصدقُهم وكذبُني ، فأصاببني هم ، فأنزَلَ الله تعالى : «إِذَا جاءكَ الْمُنَافِقُونَ» فَأَرْسَلَ إِلَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَىٰ وَقَالَ «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَقَكَ يَازِيدَ» (١).

(وقال أنس بن مالك : زيد بن أرقم هو الذي يقول له رسول الله ﷺ : «هذا الذي أوفى الله بِأَذْنِه») (٢).

ونستمع إلى سورة المنافقون تنصر الغلام زيد ، وتکذب فحل قومه عبد الله بن أبي ، وتصفعه مع أتباعه حتى تخربهم بشررها :

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَالله يَشَهِدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جَنَّةً فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتُمْ تَعْجِبَكَ أَجْسَامَهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَحْبٌ مَسْنَدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحَّةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوُّ فَاحذِرُهُمْ قَاتِلُهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ﴾ (٣).

لقد جاءت شهادة رب العالمين بتکذيب ابن أبي ، تصدق شهادة الغلام زيد بن أرقم :

﴿وَالله يَشَهِدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جَنَّةً فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ولنعد إلى تفصيل أوسع عند الواقعى : يجعلى لنا صورة الصد عن سبيل الله ، وصورة الأيمان التي اتخذوها جنة ، وسوء عملهم وصنعيهم .

قالوا : (فيينا المسلمون على ماء المريسيع قد انقطعت الحرب وهو ماء ظنون (٤) ، إنما يخرج في الدلو نصفه أقبل سنان بن وبر الجهنمي - وهو حليف فيبني سالم - ومعه قبيان منبني سالم يستقون فيجدون على الماء جمعاً من العسكر من المهاجرين والأنصار ؛ وكان جهجاه بن سعيد الغفارى أجيرًا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأدلى سنان وأدلى جهجاه دلوه ، وكان جهجاه أقرب السقاء إلى سنان بن وبر ، فالتبس دلو سنان ودلوجهجاه ، فخرجت إحدى الدلوين وهى دلو سنان بن وبر . قال سنان : فقلت :

(١) صحيح البخارى / كتاب التفسير / ٦ / ٥٦ سورة المنافقون .

(٤) الظنون : القليل .

دلوى ، فقال جهجاه : والله ما هي إلا دلوى . فتنازعوا إلى أن رفع جهجاه يده فضرب سناناً فسال الدم ، فنادى : يا آل خزرج ! وثارت الرجال . قال سنان : وأعجزني جهجاه هرباً وأعجز أصحابي ، وجعل ينادي في العسكر : يا آل قريش ، يا آل كنانة ! فأقبلت إليه قريش سرعاً . قال سنان : فلما رأيت مارأيت ناديت الأنصار . قال : فأقبلت الأوس والخزرج وشهروا السلاح حتى خشيت أن تكون فتنة عظيمة ، حتى جاءوني ناس من المهاجرين يقولون : اترك حلقك ! .

قال سنان : وإذا ضربته لم يضرني شيئاً . قال سنان : فجعلت لا أستطيع أفتات على حلفائي بالغفو لكلام المهاجرين ، وقومي يأبون أن أغفر إلا بأمر رسول الله ﷺ ، أو أقص من جهجاه ، ثم إن المهاجرين كلموا حلفائي ، فكلموا عبادة بن الصامت وناساً من حلفائي ، فكلمني حلفائي فترك ذلك ولم أرفعه إلى النبي ﷺ .<sup>(١)</sup>

كان من الممكن مثل هذه الحادثة أن تحول العسكر الإسلامي إلى بحيرة من الدماء ، وتعود يوماً من أيام العرب في الجاهلية التي تفاني فيها العرب - غير أن هذا الدين الجديد الذي صاغ هذه الأمة صياغة جديدة ، وأصبح الصف كله يحتمكم إلى الله ورسوله ، هو الذي حصن هذا الصف من هذه الكارثة .

قد تقع الخطيبة الفردية ، وقد يخرج مسلم عن طوره ، فيتشاجر مع آخر ، وقد تند كلمات ، لا تمثل المستوى الإسلامي المطلوب ، وقد تقع تصرفات تخرج عن التوجيه الإسلامي الأمثل - من فرد أو أكثر - لكن هذا المجتمع الذي تلقى هذه التربية لم يعد من السهل عليه الانجراف وراء العصبية والثأر .

لقد وصلت القضية إلى الذروة ، واجتمع الخزرج وانضم إليهم الأوس ، واجتمع المهاجرون ، والسلام بآيديهم ، فهم قادمون من معركة ، لكن القيادات العظيمة لم تعد تنطق من عصبيتها . إذا انطلق بعض الأفراد من ذلك تبقى مالكة صمام الأمان أن يفلت من أيديها ، وجل مأوقع الخلاف عليه أن ترفع القضية لرسول الله ﷺ أو تنهي الفتنة دون إشغال النبي ﷺ بها .

الفريقان مدجحان بالسلاح ، لكن عبادة بن الصامت الذي أنزل الله تعالى به في محكم كتابه :

(١) المغازى / ٢ / ٤٦٦ .

﴿يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزه على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾<sup>(١)</sup> .

هذا القائد لن يدع الأمر يفلت من يديه ، أو يترك سُمِّ الجاهلية يستشرى في جسد هذه الأمة ، فتصرف التصرف المناسب ، واستجاب الصُّف المُؤمن من المترافق الملاحم له ، ودفت الفتنة في مهدها .

أما رفيق صباح عبد الله بن أبي ، زعيم النفاق والذى أنزل الله تعالى فيه :

﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصيحو على ما أسرروا في أنفسهم نادمين ﴾<sup>(٢)</sup> .

عبد الله بن أبي هذا له اتجاه آخر ، ومشرب آخر ، ي يريد أن تشتعل النار ، وتدق طبول الحرب ، ويتفجر الصُّف لتعود له زعامته . ها هو يبذل كل ما في قلبه من حقد ، وما في نفسه من سُم ، وما في عقله من تخضيط ، وما في مشاعره من كراهة ، ليصل إلى مبتغاه ، وهو بين رهطه من المافقين فماذا يتحقق ؟

( وكان ابن أبي جالساً في عشرة من المافقين : ابن أبي ، ومالك ، وداعس ، وسويد ، وأوس بن قيظي ، ومنتبر بن قشیر ، وزيد بن الصبيت ، وعبد الله بن نبيل - وفي القوم زيد بن أرقم غلام لم يبلغ أو قد بلغ ، فبلغه صياح جهجه ، فغضب ابن أبي غضباً شديداً ، وكان مما ظهر من كلامه وسمع منه أن قال :

والله ما رأيت كال يوم مذلة ! والله إن كنت لكارهاً لوجهى هذا ، ولكن قومى غلبونى ! أ وقد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرلونا في بلادنا وأنكروا ملتتنا ، والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال المثل : سمن كلبك بأكلك ، والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما هتف به جهجه وأنا حاضر ، لا يكون لذلك منى

(١) سورة المائدة / ٥٤ - ٥٦ . (٢) سورة المائدة / ٥١ ، ٥٢ .

غَيْرُ ، وَاللَّهُ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعْزَمُونَهَا الْأَذْلَ ! ثُمَّ أُقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ قَوْمَهُ فَقَالَ :

هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنفُسِكُمْ أَحْلَلْتُمُوهُ بِلَادِكُمْ فَنَزَلُوا مَنَازِلَكُمْ ، وَآسِيَمُوهُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ حَتَّى اسْتَغْنَوُا ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَمْسِكْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ لَتَحْولُوا إِلَى غَيْرِ بِلَادِكُمْ ، ثُمَّ لَمْ يَرْضُوا بِمَا فَعَلْتُمْ حَتَّى جَعَلْتُمْ أَنفُسِكُمْ أَغْرِاصًا لِلْمَنَابِيَا فَقُتِلْتُمْ دُونَهُ ، فَأَيْتَمْتُمْ أَوْلَادَكُمْ وَقَلَّتُمْ وَكَثَرُوا )<sup>(١)</sup> .

لَقَدْ نَفَخَ أَبُو أَبِي فِي الْفَتْنَةِ بِأَضْحَمِ مَا يُسْتَطِيعُ ، فَهُوَ يَمْثُلُ التَّيَارَ الْمَنَافِقِ ، وَلَيْسَ بَيْنَ يَدِيهِ فَرْصَةً ذَهَبِيَّةً عَلَى مَسْتَوِيِّ هَذِهِ الْفَرْصَةِ ، وَأَفْصَحَ عَنْ كُلِّ مَا يَعْتَلِجُ فِي نَفْسِهِ مِنْ حَدَّ وَكَرَاهِيَّةٍ وَبَغْضٍ ، وَرَاحَ يَسْتَغْزِلُ كُوَّانِ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهَا مِنْ مَرْقَدِهَا حَتَّى تَنْطَلِقَ فَتَأْكُلَ كُلَّ شَيْءٍ .

- فَهُوَ يَرْكَزُ ابْتِدَاءً عَلَى الْذَلَّةِ الَّتِي نَالَهُ وَنَالَتْ قَوْمَهُ ، وَالْعَرَبِيُّ يَأْبَى الصَّبِيمِ وَيَرْفَضُ الذَّلَّ ، وَيُؤْكِدُ أَنَّهُ مَا حَضَرَ لَهُذِهِ الْغَزْوَةِ إِلَّا كَارَهَا مَغْلُوبًا عَلَى أَمْرِهِ لَا عِتَّارَاتِ سِيَاسِيَّةٍ أَطَاعَ بِهَا قَوْمَهُ .

- وَلَمْ يَتُورِعْ فِي سَفَاهَتِهِ وَحَدَّدَهُ عَنْ تَشْبِيهِ الْمُسْلِمِينَ بِالْكَلْبِ السَّمِينِ الَّذِي تَطَعَّمَهُ فَيَأْكُلُهُ فِي مَا بَعْدِ ، فَهُوَ لَا يَحْمِلُ حَتَّى مَوَاضِعَ الْوَفَاءِ مِنَ الْكَلْبِ الْعَادِيِّ ، الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِكَ وَيَفْدِيكَ إِذَا أَطْعَمْتَهُ .

- وَهُوَ يَرِى أَنَّ الْمَوْتَ أَهُونُ مِنْ هَذِهِ الذَّلَّةِ ، أَنْ يَرْتَفِعَ فِي صَفَوْفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ يَدِعُ قَرِيشًا لِثَارَاتِهَا ، وَيَدْعُو الْمُهَاجِرِينَ لِمَوَاجِهَةِ الْأَنْصَارِ وَيَهْتَفُ بِهَا وَهُوَ حَيٌّ .

- وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ قَمَةُ الذَّلَّ عِنْدَهُ ، فَهَلْ يَقْبِلُ هَذَا الْوَاقِعُ ؟ أَبْدَأَ إِنَّهُ يَقْسِمُ لَوْ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ - إِلَى رَهْطِهِ وَحَزْبِهِ ، وَجِيشهُ - لِيَقْلِبَنَّ الْمَدِينَةَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ ، وَلِيُخْرِجَنَّ الْأَعْزَمُونَهَا الْأَذْلَ .

أَتَرَى حَقًّا أَنَّهُ يَشْقَى بِنَفْسِهِ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ ؟ ! أَمْ أَنَّهُ النَّفَخُ وَالْعَجَيْبُ الْفَارَغُ الْكَاذِبُ ، عَلَّمَ يَصْلِي إِلَى أَنْ يَشْعُلَ نَارًا فِي قَلْبِ أَحَدِ الْحَاضِرِينَ فَيُثَأِرَ لَهُ وَلِكُرَامَتِهِ ، وَتَنْطَلِقَ الْفَتْنَةُ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا يَهْدُأُ أَوْارِهَا إِلَّا بِالْحَرْبِ الْضَّرُورِيِّ الَّتِي تَأْكُلُ الْأَخْضَرَ وَالْأَيْاضَ .

- ثُمَّ عَادَ فَكَرَرَ حَدَّدَهُ عَلَى اسْتِقْبَالِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَحْبِهِ مِنْ قَوْمَهُ وَمَشَارِكِهِمْ

(١) المغازى للواقدى / ٤١٦ / ٢ .

في الأموال والبيوت والبلاد ، ثم زادوا على ذلك بأنهم يقتلون دونهم ، ويحاربون الأحرار والأسود من أجلهم ، حتى يكون فناء قومه وضآلتهم عددهم أمام تزايد قوة المهاجرين عدداً ونفوذاً.

وحيث نراجع الدول التي انهارت في التاريخ ، والوحدات التي تحطمـت وتفكـكت ، والمحروـبـات التي قـامتـ في الصـفـ الواحدـ ، نجـدـ أنـ هـذـهـ الأمـورـ هـىـ التـىـ يـنـطـلـقـ منهاـ المـتـحـارـبـونـ لـتـبـرـيرـ مـوـقـفـهـمـ ، وـهـىـ موـطـنـ الصـرـاعـ الحـقـيقـىـ فـيـ التـفـوسـ الـجـاهـلـيةـ .

وفي التغلغل في أعماق ابن أبي نلحظ مايلـى :

ـ أنه لم يتكلـمـ هـذـاـ الكـلامـ إـلاـ ضـمـنـ مـجـمـوعـةـ مـحـدـودـةـ مـنـ الـمـنـافـقـينـ ،ـ وـالـذـينـ يـطـمـئـنـ إـلـىـ وـلـائـهـمـ التـامـ لـهـ .ـ عـدـاـ زـيـدـ بـنـ أـرـقـمـ الـذـىـ يـرـىـ حـبـهـ لـهـ ،ـ فـلـمـ يـعـرـ لـهـ التـفـاتـاـ مـنـ جـهـةـ لـصـغـرـ سـنـهـ ،ـ وـيـرـىـ مـنـهـ مـدـىـ تـعـظـيمـهـ لـهـ ،ـ إـذـ يـقـولـ زـيـدـ فـيـ مـكـانـ آـخـرـ عـنـ مـكـانـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ أـبـىـ نـفـسـهـ :

( قال : والله ما كان في الخزرج رجل واحد أحب إلى من عبد الله بن أبي ، والله لو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ )<sup>(١)</sup>.

ـ وـبـنـاءـ عـلـىـ هـذـهـ القـالـةـ ،ـ فـلـمـ تـكـنـ تـعـدوـ لـدـىـ اـبـىـ أـكـثـرـ مـنـ نـفـثـ سـمـومـهـ وـحـقـدهـ بـيـنـ هـذـهـ الـجـمـوعـةـ الصـغـيرـةـ الـتـيـ يـتـقـ بـوـلـائـهـ لـهـ ،ـ وـإـنـ كـانـ يـطـمـعـ أـنـ يـحـرـكـ فـيـهـمـ وـلـوـ بـوـاحـدـ مـنـهـمـ ثـورـةـ عـارـمـةـ ،ـ تـدـفعـهـ إـلـىـ قـتـلـ أـحـدـ الـمـهـاجـرـينـ ،ـ فـتـنـطـلـقـ الـفـتـنـةـ مـنـ عـقـالـهـاـ دـوـنـ قـيـدـ ،ـ وـيـتـحـقـقـ الـهـدـفـ فـيـ أـنـ يـعـودـ الـخـزـرجـ لـحـمـةـ وـاحـدـةـ ضـدـ الـمـهـاجـرـينـ ،ـ وـيـلـوـهـ قـيـادـهـمـ ،ـ فـيـعـودـ لـهـ مـجـدـهـ الـمـسـلـوبـ ،ـ وـعـزـهـ الـمـهـضـومـ .

ـ وـيـظـهـرـ أـنـهـ عـلـىـ ثـقـةـ بـمـجـمـوعـةـ كـبـيرـةـ فـيـ دـاـخـلـ الـمـدـيـنـةـ ،ـ هـوـ قـادـرـ عـلـىـ تـحـريـكـهـاـ لـإـحـدـاـتـ الـانـقلـابـ الـمـطـلـوبـ ،ـ الـذـىـ يـصـلـ إـلـىـ حدـ إـخـرـاجـ الـمـسـلـمـينـ الـمـهـاجـرـينـ مـنـ يـثـرـبـ .ـ أـوـ أـنـهـ عـمـلـيـةـ تـعمـيقـ لـلـثـقـةـ بـهـ فـيـ هـذـهـ الـجـمـوعـةـ الصـغـيرـةـ لـيـكـونـواـ عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ لـتـابـعـةـ مـسـيـرـهـ وـثـقـتـهـ بـوـجـاهـتـهـ وـقـوـتـهـ وـقـدـرـتـهـ فـلـاـ يـنـفـضـوـاـ عـنـهـ ،ـ لـكـنـ حـقـيقـةـ الـجـنـ وـالـخـورـ الـتـىـ تـتـلـكـهـمـ ،ـ لـمـ تـدـفعـ بـأـحـدـ مـنـهـمـ أـنـ يـتـخـذـ مـوـقـفـاـ وـاحـدـاـ يـؤـيدـ قـنـاعـتـهـ ،ـ وـكـمـاـ يـقـولـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ عـنـ الـمـنـافـقـينـ :

﴿وـ الـمـنـافـقـونـ وـ الـمـنـاقـفـاتـ بـعـضـهـمـ بـعـضـ ..﴾<sup>(٢)</sup>.

(٢) التوبة من الآية / ٦٧ .

(١) المازى للواقدى / ٤١٧ / ٢ .

إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض ، فالولاية تحتاج إلى نجدة وإلى شجاعة وإلى تعاون وإلى تكاليف ، وطبيعة التفاق تأبى ذلك كله ، ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على ما يبذلو من تشابه بينهم في الطبيعة والخلق والسلوك . والتعبير القرآني الدقيق .

لايغفل هذا المعنى في وصف هؤلاء وهؤلاء :

﴿ والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ .

﴿ المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ .

أما كيف انتقلت هذه المعلومات إلى رسول الله صلوات الله عليه ، وما هي أبعادها في الصف الإسلامي ؟ فهذا كما يلى :

(فقام زيد بن أرقم بهذا الحديث كله إلى رسول الله ﷺ ، فيجد عنده نفرًا من أصحابه من المهاجرين والأنصار - أبا بكر وعثمان وسعدا ومحمد بن مسلمة ، وأوس بن حولي ، وعبد بن بشر - فأخبره الخبر ، فكره رسول الله ﷺ خبره ، وتغير وجهه ، ثم قال رسول الله ﷺ : « ياغلام ، لعلك غضبت عليه ». قال : والله لقد سمعت منه ، قال : « لعله أخطأ سمعك ». قال : لا يانبي الله . قال : « لعله شبه عليك » ! قال : لا يانبي الله ، لقد سمعته منه يارسول الله ، وشاع في العسكر ما قال ابن أبي ، وليس للناس حديث إلا ما قاله ابن أبي ، وجعل الرهط من الأنصار يؤذبون الغلام ويقولون : عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل ، وقد ظلمت وقطعت الرحم ! فقال زيد : والله لقد سمعت منه ! ... وقام النفر من الأنصار الذين سمعوا قول النبي ﷺ ورده على الغلام ، فجاءوا إلى ابن أبي فأخبروه ، وقال أوس بن حولي : يا أبا الحباب ، إن كنت قلت فأخبر النبي يستغفر لك ، ولا تجحده فينزل ما يكذبك ، وإن كنت لم تقله فأنت رسول الله فاعتذر إليه وأحلف لرسول الله ماقلته ، فاحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئاً . ثم إن ابن أبي أتى إلى رسول الله ﷺ ، قال : « يابن أبي ، إن كانت سلفت منك مقالة فتب ». فجعل يحلف بالله . ماقلت مقال زيد ، ولا تكلمت به ! وكان في قومه شريفاً ، فكان يظن أنه قد صدق . . .

قال : فيينا رسول الله ﷺ يسیر من يومه ذلك ، و زید بن ارقم يعارض النبی ﷺ  
براحلته يريد وجهه فی المسیر ، و رسول الله ﷺ يستحث راحلته فهو مغد فی السیر ، إذ  
نزل علیه الوھی . قال زید بن ارقم : فما هو إلا أن رأیت رسول الله ﷺ تأخذہ البراء ،  
و يعرق جبینه ، و تشقیل يدا راحلته حتى ما کاد ينقلها ، عرفت رسول الله ﷺ يوحی إلیه ،  
ورجوت أن يكون ينزل علیه تصدقی خبری . قال زید بن ارقم : فسری عن رسول الله  
ﷺ ، فأخذ بأذنی وأنا علی راحلتي حتى ارتفعت من مقعدي ، ويرفعها إلی السماء وهو  
يقول : « وفت أذنك ياغلام ، وصدق الله حديثك ». ونزل فی ابن أبي السورة من أولها  
إلی آخرها : ﴿إِذَا جاءكَ الْمُنَافِقُونَ . . .﴾ (١) .

فی هذا الجو التفصیلی نفقه أبعاد معانی الآیات فی سورة (المنافقون) .

﴿اتخذوا أیامهم جنة فصدوا عن سبل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ :

فها هو يحلف کاذباً أنه ما قال ما قال أمام أوس بن خولي ، وأمام رسول الله ﷺ ،  
ويصدقه قومه لشرفه ، ويود أن يحافظ على هذا الشرف بهذه الأیمان الخائنة الكاذبة .

لکتنا نتسائل : هل يمكن لمسلم فی قلبه ذرة واحدة من الإيمان بأن رسول الله ﷺ  
يوحی إلیه ، ويجزو علی هذه الأیمان الكاذبة ؟ ! يستحیل ذلك ، ومن أجل هذا جاءت  
الآلية اللاحقة لتقول بوضوح وصراحة ونصاعة :

﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ .

إنه إعلان لأول مرة عن المنافقين أنهم قد ارتدوا عن دینهم بعد إيمانهم ، وثبتوا على  
هذه الردة فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون شيئاً من کلام الله و کلام رسوله .

ثم يأتي الوصف المزري لهم ، بحيث يحيط كل مظاهرهم الخارجية التي ينتفشوون  
فيها بعد أن فقدوا عنصر الإيمان الذي يجعلهم أعضاء فی الصف المسلم :

﴿وإذا رأيتمهم تعجبوا أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم . . .﴾ (٢) .

هذا هو ظاهرهم فهم يصطفون مع القيادات ، كما رأينا فی ابن أبي قبل نزول  
الآیات ، وكيف توجهت قيادات الخرچ لللوم زید رضی الله عنه لما افکات به على سید

(١) المغازی للواقدی / ٤١٦ - ٤٢٠ ، ٤١٨ . (٢) من الآیة / ٤ من سورة المنافقون .

قومه ، ويحلفون فيصدقون ويكذب غيرهم .

وإن يقولوا يسمع لقولهم .. وأجسامهم وها كلهم تؤهلهم لتبوئ موطن القيادة .

أما بعد نزول الآيات ، وبعد تعرية داخلهم ، وهتك سريرتهم ، فمنهم ؟

﴿كأنهم خشب مستندة يحسبون كل صيحة عليهم﴾ .

فهم لا يملكون إلا مظاهر الرجولة أما مقوماتها فلا ، وهم يتحسّنون من كل كلمة ومن كل موقف .

ونقود دليلاً على ذلك : ما جرى بين ابن أبي وسادة المؤمنين من قومه بعد الآيات :

( وحدثني يونس بن محمد الظفرى عن أبيه ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال :

مر عبادة بن الصامت بعد الله بن أبي عشية راح النبي ﷺ من المريسيع . وقد نزل على النبي ﷺ سورة «النافقون» فلم يسلم عليه ، ثم مرَّ أوس بن خولي فلم يسلم عليه ، فقال ابن أبي : إن هذا الأمر قد تماً علىه ، فرجعا إليه فاتباوه وبكتاه بما صنع ، وبما نزل من القرآن إكذاباً لحديثه ، وجعل أوس بن خولي يقول : لا أكذب عنك أبداً حتى أعلم أن قد تركت مائة عليه وتبت إلى الله ، إنا أقبلنا على زيد بن أرقم نلومه ونقول له : كذبت على رجل من قومك ، حتى نزل القرآن بتصديق حديث زيد وإكذاب حديثك ، وجعل ابن أبي يقول : لا أعود أبداً ...) (١) .

﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ .

ويأتي الحكم الربانى الصارم عليهم بعد إثبات ردتهم وإصرارهم عليها ، ليؤكده حكمًا جديداً آخر :

﴿.. هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أني يؤفكون﴾ .

ومنذ الآن فجميع المؤمنين يتعاملون مع ابن أبي وحزبه الذين سمعوه ولم ينكروا عليه وغيرهم - على أنهم هم العدو الحقيقي ، قاتلهم الله . على إفکهم ، والمؤمنون إذن في

(١) المغارى للواقدى / ٢ / ٤٢٠ .

حزب الله ورسوله يقاتلونهم .

﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفروا لكم رسول الله لروا رؤوسهم ورأيهم يصدون  
وهم مستكرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله  
لا يهدى القوم الفاسقين ﴾<sup>(١)</sup> :

ولهذا الاستغفار فضة ، تجلی هاتين الآيتين :

( فحدثني عبد الله بن الهرير ، عن أبيه ، عن رافع بن خديج ، قال : سمعت عبادة  
ابن الصامت يقول يومئذ لابن أبي قبل أن ينزل فيه القرآن : إيت رسول الله يستغفر لك .  
قال : فرأيته يلوى رأسه معرضاً . يقول عبادة :  
أما والله لينزلن في لى رأسك قرآن يصلى به )<sup>(٢)</sup> .

ونزل في لى رأسه قرآن يصلى به ، لم يصف الحادثة فقط ، إنما تحدث عن أبعادها  
الرهيبة في الصفة المؤمن ، وفي نظرته نحو هؤلاء المنافقين :

﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى  
القوم الفاسقين ﴾<sup>(٣)</sup> .

فهم الكافرون ، وهم المرتدون وهم الأفاكون الكاذبون ، وهم الفاسقون ..

وحاجات بقية الآيات بعد أن صدرت الأحكام الربانية عليهم ، لهذا الغلام المؤمن  
فتصدق نقله من فوق سبع سموات كما سمع :

﴿هم الذين يقولون لا تتفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .. ﴾<sup>(٤)</sup> .

وفات هؤلاء المهازيل الأرجاس ، أن الله تعالى عنده خزائن السموات والأرض ،  
لكن أئن يفهون ذلك ؟ !

﴿... ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفهون ﴾<sup>(٥)</sup> .

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل .. ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) المنافقون / ٤ ، ٥ . (٢) المغارى للواقدى / ٢ ، ٤٢٠ .

(٤) المنافقون / ٧ . (٥) المنافقون / ٨ .

وفات هؤلاء المهازيل الأرجاس ، أن عزة المؤمنين مستقاة من عزة الله عز وجل ، فكيف يعتز المنافق ويذل المؤمن ؟! . ولكن هؤلاء أئمَّا لهم أن يعلموا ذلك بعد ردهم عن دينهم وكفرهم بعد إيمانهم ؟!

﴿... ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾<sup>(١)</sup> .

وحقيقة الأمر لا يعلمون .

فبمن يعتز عبد الله بن أبي ؟! لا شك أن أكبر سند له هو ابنه ، فماذا كان موقف

ابنه ؟

( ) وبلغ ابنته عبد الله بن عبد الله بن أبي مقالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ من محمد بن مسلمة يأتك برأسه . فجاء إلى النبي ﷺ فقال :

يا رسول الله ، إن كنت ت يريد قتل أبي فيما بلغك عنه فمرني ، فوالله لأحملنَّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبُرَّ بولد مني ، وما أكل طعاماً منذ كذا وكم من الدهر ، ولا يشرب شراباً إلا بيدي ، وإنى لأنخشى يا رسول الله أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأدخل النار ، وعفوك أفضل ، ومنك أعظم .

قال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله ، ما أردت قتله ولا أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا » فقال عبد الله :

يا رسول الله ، إن أبي كانت هذه البحرة<sup>(٢)</sup> قد اتسقوا عليه ليتوجهوا عليهم ، فجاء الله بك فوضعه الله ، ورفعنا بك ، ومعه قوم يطيفون به ويدركون أموراً قد غلب الله عليها<sup>(٣)</sup> .

فهذا هو العز الأول الذي يرکن إليه عبد الله بن أبي ، وقد غرَّه ما رأى من برَّ ابنه به ، حتى ليكون الخادم المذلل له لطعامه وشرابه ، وكانت المفاجأة الصاعقة له أن يستعد ابنه ليطبع رأسه عن جسده لو أمر رسول الله ﷺ بذلك .

وبقي في ذهن عبد الله بن أبي أن يجد من ينصره في المدينة ، فقد كان يهدد بحزبه هناك : لكن عدنا إلى المدينة ليخرجون الأعز منها الأذل .

(١) المنافقون / ٨ . ٤٢١/٢ (٢) المغازى /

البلدة .

(٣) البحرة :

فماذا كان عند دخولها ؟ !

( ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما ، أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة - أى ابن عبد الله بن أبي - واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك ! فقال مالك ويلك ؟ فقال :

والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة ، فشكى إليه عبد الله بن أبي ابنته ، فقال ابنته عبد الله : والله يارسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ فقال :

أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن ) (١) .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى فى مستنده : ( حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا أبو هارون المدنى ، قال : قال عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل . قال : وجاء النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، إنه بلغنى أنى تريد قتل أبي ، فوالذى بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ولعن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك ، فإنـى أكره أن أرى قاتل أبي ) (٢) .

وندع للإمام السهيلي التعليق على هذه الحادثة بقوله :

( وذكر مقالة عبد الله بن أبي ، وأن ابنته عبد الله بن عبد الله استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه من أجل تلك المقالة ، وفي هذا العلم العظيم والبرهان النير من أعلام النبوة ، فإن العرب كانوا أشد خلق الله حمية وتعصباً . فبلغ الإيمان منهم ، ونور اليقين من قلوبهم إلى أن يرحب الرجل منهم في قتل أبيه وولده تقرباً إلى الله ، وتزلقاً إلى رسوله ﷺ ، مع أن الرسول ﷺ أبعد الناس نسباً منهم ، وما أخر إسلام قومه وبني عمّه ، وسيق إلى الإيمان به الأبعد إلا لحكمة عظيمة ، إذ لو بادر أهله وأقربوه إلى الإيمان به لقليل : قوم أرادوا الفخر برجل منهم ، وتعصبوه ، فلما بادر إليه الأبعد ، وقاتلوا على حبه من كان منهم أو من غيرهم ، علم أن ذلك عن بصيرة صادقة ، ويقين قد تغلغل في قلوبهم ، ورهبة من الله أزالت صفة قد كانت سدكت ) (٣) في نفوسهم من أخلاق الجاهلية لا يستطيع إزالتها إلا

(٢) تفسير ابن كثير / ٢٣/٧ / تفسير سورة المناقون .

(٣) سدكت : ثبت ولزمت .

الذى فطر الفطرة الأولى ، وهو القادر على ما يشاء .

وأما عبد الله بن عبد الله ، فكان من كتاب النبي ﷺ ، وكان اسمه حباب ، وبه كان يكتنأ أبوه ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . مات شهيداً باليمامة رضي الله عنه .

وروى الدارقطنى مسندًا أن النبي ﷺ مر على جماعة فيهم عبد الله بن أبي فسلم عليهم ثم ولى ، فقال عبد الله : لقد عثنا ابن أبي كبشة في هذه البلاد ، فسمعها ابنه عبد الله ، فاستأذن النبي ﷺ في أن يأتيه برأس أبيه فقال : « لا ، لكن برأباك » <sup>(١)</sup> .

لقد كانت هذه الآيات إيزاناً بأفول نجم عبد الله بن أبي ، وكانت قد قتلتة معنوياً لا جسدياً ، ومن أجل ذلك ، وبعد دخوله المدينة ، و موقف ابنه منه ، تغير حاله ليعاني من الاحتراق البطيء في قومه .

( وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحديث كان قومه هم الذين يعتابونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلتُ يوم قلتَ لي اقتلْه ، لأرعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلتُه » قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى ) <sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الحديث قد انتهى مع المنافقين وعنهم - فهم الذين كفروا بعد ما آمنوا ، وهم العدو ، وهم الفاسقون وهم الذين يُؤفكون ، وهم الذين لا يفقهون ، وهم الذين لا يعلمون - يتوجه الحديث إلى المؤمنين ليكونوا على مستوى إيمانهم ، فلا ينحدروا مع المنافقين ، وإنما يكون الانحدار بصورتين :

**الأولى** : الانشغال بالأهل والولد والمال عن ذكر الله تعالى والجهاد في سبيله .

**الثانية** : البخل بما في اليد عن الإنفاق في سبيل الله .

وكما ختمت سورة « محمد » ﷺ تختتم سورة « المنافقون » ويركزان على المعانى نفسها ، على الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا آخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) الروض الأنف للسهيلي / ٤ / ١٨ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢٩٣ / ٢٧ . (٣) المنافقون / ٩ - ١١ .

وكذلك جاءت آيات سورة القتال :

﴿هَا أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخْلُ فِي نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي الْأَنْفُسِ وَأَنْتُمُ الْفَقَرَاءُ وَإِنْ تَسْتَوْلُوا يُسْتَبَدِّلُ قَوْمًا غَيْرَ كُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

ولا بد لنا قبل أن نودع سورة «المافقون» وغزوة المربيع أن نستعرض على ذيولها مواقف ثلاثة .

**الموقف الأول :** جرى أثناء الغزوة ، وهو محاولة تشكيك في إدخال الصدف المسلم من بعض المنافقين ، يمثل ثوذاً من عمليات انحسار النفاق .

( حدثني عبد الحميد بن جعفر ، عن ابن رومان ، ومحمد بن صالح عن عاصم بن عمرو بن قنادة قالا : وقدرت ناقة رسول الله عليهما السلام القصواء من بين الإبل ، فجعل المسلمين يطلبونها في كل وجه ، فقال زيد بن الصبيت - وكان منافقاً وهو في رفقة قوم من الأنصار ، منهم عباد بن بشر بن وقش ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، وأسيد بن حضير - فقال : أين يذهب هؤلاء في كل وجه؟ قالوا : يطلبون ناقة رسول الله قد ضلت . قال : أفلأ يخبره الله بمكان ناقته؟ فأنكر القوم ذلك عليه فقالوا : قاتلك الله يا عدو الله ، نافت ، ثم أقبل عليه أسيد بن حضير فقال : والله لو لا أدرى ما يوافق رسول الله من ذلك لأنفدت خصيتك بالرمح يا عدو الله ، فلم خرجت معنا وهذا في نفسك؟ . قال : خرجت لأطلب من عرض الدنيا ، ولعمري إن محمدآ ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة ، يخبرنا عن أمر السماء .

فوقعوا به جميعاً وقالوا : والله لا يكون منك سبيل أبداً ، ولا يظلانا وإياك ظل أبداً ، ولو علمتنا مافي نفسك ما صحبتنا ساعة من نهار ، ثم وثبت هارباً منهزاً منهم أن يقعوا به ، ونبذوا متابعاً ، فعمد لرسول الله عليهما السلام فجلس معه فراراً من أصحابه متعدزاً به ، وقد جاء رسول الله عليهما السلام خبر ما قال من السماء ، فقال رسول الله عليهما السلام والمنافق يسمع : «إن رجلاً من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله وقال : ألا يخبره الله بمكانها؟ — فلعمري إن محمدآ ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة! — لا يعلم الغيب إلا الله . وإن الله تعالى أخبرنى بمكانها ، وإنها في هذا الشعب مقابلكم ، قد تعلق زمامها بشجرة فاعمدوا عدتها» .

فذهبوا فأتوا بها من حيث قال رسول الله عليهما السلام : ، فلما نظر المنافق إليها قام سريعاً إلى

(١) القتال / ٣٨ .

رفقاء الذين كانوا معه ، فإذا رحله منبوز ، وإذا هم جلوس لم يقم رجل من مجلسه فقالوا له حين دنا : لا تدن منا ! قال : أكلمكم ! فدنا فقال : أذكّركم بالله ، هل أتى أحد منكم محمداً فأخبره بالذى قلت ؟ قالوا : لا والله ، ولا قمنا من مجلسنا هذا :

قال : فإنني قد وجدت عند القوم ماتكلمت به ، وتتكلّم به رسول الله ﷺ -  
وأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ ، وإنه قد أتى بناقهته - وإنني قد كنت في شنك من شأن محمد فأشهد أنه رسول الله ، والله لكوني لم أسلم إلا اليوم .

قالوا له : فاذذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فذهب إلى رسول الله ﷺ فاستغفر له واعترف بذنبه )<sup>(١)</sup> .

وتمثل هذه الصورة نموذجاً من نماذج كثيرة كانت منافقة أو مخدوعة بالمنافقين ،  
وحين ترى الآيات الباهرات تدخل الإسلام عن يقين ثابت ، وتجدد إسلامها من  
جديد .<sup>(٢)</sup>

**الموقف الثاني** : وهو الذي أدى كذلك إلى انحسار الفاق ، هو موت كبير زعمائهم  
زيد بن رفاعة :

(فحدثني عبد الله بن الهبرير عن أبيه عن رافع بن خديج قال : لما رجعنا من المريسيع قبل الرواى كان المجهد بنا يومنا وليلتنا ، ما أنا في رجل إلا لحاجته أو لصلة يصليها ، وإن رسول الله ﷺ يستحث راحلته ، ويختلف بالوسط في مراقبها حتى أصبحنا ، ومدتنا يومنا حتى اتصف النهار أو كرب . ولقد راح الناس وهم يتحدثون بمقالة ابن أبي وما كان منه ، فما هو إلا أن أحذهم السهر والتعب بالمسير ، فما نزلوا حتى مايسمع لقول ابن أبي في أفواههم - يعني ذكرأ - وإنما أسرع رسول الله ﷺ بالناس ليدعوه حديث ابن أبي ، فلما نزلوا وجدوا مس الأرض فوقعوا نياً ، ثم راح رسول الله ﷺ بالناس مبرداً ، فنزل من الغد ماء يقال له : « بقعاء » فوق التقيع ، وسرح الناس ظهرهم فأخذتهم ريح شديد حتى أشفق الناس منها ، وسألوا عنها رسول الله ﷺ ، وخافوا أن يكون عبيدة بن حصن قد خالف إلى المدينة ، وقالوا : لم تهج هذه الريح إلا من حدث ! وإنما بالمدينة الذراري والصبيان وكانت بين النبي ﷺ مدة - هدنة - فكان ذلك حين انقضائهما . فدخلهم أشد

(١) المغازى للواقدى / ٢ - ٤٢٤ / ٤٢٥ .

(٢) ذكر الواقعى في رواية مرجوحة عنده أن زيداً بقى على نفاته فقال : ( ويقال إنه لم يزل فسلاً - الردى ، الرذيل - حتى مات وصنع مثل هذان في بيوك ) وأورد ابن إسحاق عنه في بيوك قوله : ( فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك ، قال بعض الناس : لم يزل متهمًا بشر حتى هلك ) .

الخوف . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ خوفهم فقال : « ليس عليكم بأس منها ، ما بالمدينة من نقب إلا عليه ملك يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، ولكنه مات اليوم منافق عظيم النفاق في المدينة ، فلذلك عصفت الريح ، وكان موته للمنافقين غيظاً شديداً ، وهو زيد بن رفاعة بن التابوت مات ذلك اليوم » .

( وحدثني خارجة بن الحارث عن عباس بن سهل عن جابر بن عبد الله قال : كانت الريح يومئذ أشد ما كانت قط إلى أن زالت الشمس ، ثم سكت آخر النهار ، فسألت حين قدّمت قبل أن أدخل بيتي : من مات ؟ فقالوا : زيد بن رفاعة بن التابوت . وذكر أهل المدينة أنهم وجدوا مثل ذلك من شدة الريح حتى دفن عدو الله فسكت الريح ) <sup>(١)</sup> .

أما ماذا كان وقع هذا الخبر على ابن أبي ، فنشهده من هذه الرواية :

( حدثني عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه قال : قال عبادة بن الصامت يومئذ لابن أبي : أبا حباب ، مات خليلك ! قال : أى أخلاقي ؟ قال : من موته فتح للإسلام وأهله . قال : من ؟ قال : زيد بن رفاعة بن التابوت . قال : يأويلاه ، كان والله وكان ! فجعل يذكر ، فقلت : اعتصمت بالذنب الأبتر . قال : من أخبرك يا أبا الوليد بموته ؟ قلت : رسول الله ﷺ أخبرنا الساعة أنه مات الساعة ، قال : فأسقط في يده وانصرف كثييراً حزيناً . قالوا : وسكتت الريح آخر النهار فجمع الناس ظهورهم ) <sup>(٢)</sup> .

لقد قتل عبد الله ثلث مرات :

**الأولى** : بعد أن فضحه القرآن وكذبه ، وصدق بن أرقم .

**الثانية** : حين وصله استعداد ابنه لقتله ، ويوم أن وضع السيف على عنقه ليعرف بأنه الأذل وأن محمداً هو الأعز ، ولم يدعه يدخل المدينة حتى أذن له رسول الله ﷺ .

**الثالثة** : يوم مات كهفه وساعدته زيد بن رفاعة الذي كان موته كما قال عبادة رضي الله عنه فتحاً للإسلام وأهله ، وكان من بنى قينقاع ، وكان قد أظهر الإسلام ، وكان كهفاً للمنافقين .

**الموقف الثالث** : وقد ثار فيه عبد الله بن أبي لنفسه يوم أن أطلق قالة الإفك في عائشة رضي الله عنها ، وتولى كبر هذا الحديث ، حيث ززع الصف المسلم ،

(١) المغازي للواقدي / ٢ / ٤٢٢ .

(٢) المغازي للواقدي / ٢ / ٤٢٣ . وساقها الذهبي في مغازيه من الصحاح / ١ / ٢٦٧ .

وأهاج الفتنة فيه ، ثم فقه الله تعالى وأذله كما أذله مع زيد يوم نزلت براءة عائشة رضي الله عنها من السماء :

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِلْفَكَ عَصَبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَخْسِيْهُ شَرًا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَكُلِّ  
أَمْرٍ إِذْ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تُولِي كُبُرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

( وقام رسول الله ﷺ فاستذر من عبد الله بن أبي بن سلول . فقال وهو على المنبر : « يا معاشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغنى أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكر وارجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معى » - فقام سعد بن معاذ فقال : يارسول الله ، أنا أذرك منه . إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا . ولكن احتماته الحمية ، فقال : كذبت لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حبيب وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال : كذبت لعمر الله لقتلته ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين فشاور الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخوضهم حتى سكتوا وسكت )<sup>(٢)</sup> .

لقد كان ابن أبي كা�لحية الرقطاء ، ينفث سمه وحقده أني كان ، وكاد أن يوقع الفتنة من جديد بين الحيين ، لو لا أن تدارك رسول الله ﷺ الأمر .

لكتنا نلاحظ انحدار المستوى لابن أبي ، وبعد أن كان الشرييف الذي لا يكذب ، ولا يمس ، غدا الجرم الذي يدافع عنه أن لا يقتل .

وكى يمسح رسول الله ﷺ آثار هذه الفتنة :

( مكث أياماً ثم أخذ يهد سعد بن معاذ في نفر ، فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عبادة ومن معه ، فتحدى عنده ساعة ، وقرب سعد بن عبادة طعاماً فأصاب منه رسول الله ﷺ وسعد بن معاذ ومن معه ، ثم خرج رسول الله ﷺ فمكث أياماً ، ثم أخذ يهد سعد بن عبادة ونفر معه ، فانطلق به حتى دخل منزل سعد بن معاذ ، فتحدى ساعة ، وقرب سعد بن معاذ طعاماً فأصاب رسول الله ﷺ وسعد بن عبادة ومن معهم ، ثم خرج رسول الله ﷺ . وإنما فعل ذلك لأن يذهب ما كان في أنفسهم من ذلك القول الذي

(٢) البخاري / ٢ / ج ٥ . غرفة الإفك / ١٥١ .

(١) التور / ١١ .

نقاولاً<sup>(١)</sup>.

وأحسن سعد بن عبادة رضي الله عنه بعد ذلك بخطأ موقفه . وتخلى عن عبد الله بن أبي بعد هذا الموقف الانفعالي وحسم فتنة بين الخزرج والماهجرين فداء لرسول الله ﷺ وعل حساب قومه ، وانقمع ابن أبي خزيماً لا يؤبه له ، وذلك كله قبل نزول براءة عائشة رضي الله عنها .

كانت هذه الفتنة على ذيول أقوال عبد الله بن أبي في الغزو ، وقد تورط حسان بن ثابت رضي الله عنه في الحديث في الإفك ، ونال من صفوان بن المعطل وجعيل بن سراقة فقال :

أمسى الجلايب<sup>(٢)</sup> قد عزوا وقد كثروا  
وابن الفريعة أمسى بيضة البلد  
لقد ذكرها ابن أبي فقال :

ما صرنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . وغضب صفوان بن المعطل فجاء بسيفه وضرب حسان فقال :

تلق ذبابة السيف مني فإنني غلام إذا هوجيت لست بشاعر .

(فوثبت الأنصار إليه فأوثقوه رباطاً - وكان الذي ولد ذلك منهم ثابت بن قيس بن شماس - وأسروه أسرًا قبيحاً ، فمر بهم عمارة بن حزم فقال : ما تصنعون؟ أين أمر رسول الله ورضائه أم من أمر فعلتموه؟ قالوا : ما علم به رسول الله ﷺ . قال : لقد اجترأت ، خل عنك ! ثم جاء به وبثابت إلى رسول الله ﷺ يسوقهم ، فأراد ثابت أن ينصرف ، فأبى عمارة حتى جاء إلى رسول الله ﷺ فقال حسان :

يارسول الله ، شهر على السيف في نادي قومي ثم ضربني لأنّي ميتاً من جراحتي ، فأقبل رسول الله ﷺ على صفوان . فقال : « ولم ضربته ، وحملت السلاح عليه؟ » وتغفيظ رسول الله ﷺ . فقال :

يارسول الله ، آذاني ، وهجانى وسفه على وحسدنى على الإسلام .

ثم أقبل رسول الله ﷺ على حسان فقال :

(١) المعاذى للواقى / ٤٣٥ / ٢.

(٢) الجلايب : لقب لم يكان أسلم من المهاجرين ، لقبهم بذلك المشركون ، وأصل الجلايب الأزر الغلاظ ، واحدها جلباب ، وكانوا يتحفون بها ، فلقبوهم بذلك .

«أسفهت على قوم أسلموا؟». ثم قال رسول الله ﷺ: «احبسوا صفوان، فإن مات حسان فاقتلوه به»<sup>(١)</sup>.

إلى هنا والأمر قد تداركته يد النبوة العظيمة، ورسول الله ﷺ يعاني أشد المعاناة من النيل من أهله وصحابه، ولكنه كان فوق جراحاته، وأمر بحبس صفوان بن المعتل، لما قام به من ضرب حسان.

أما ماذا فعلته التربية النبوية في هذا الجيل بعد ذلك، فنشهد لها من خلال سعد بن عبادة رضي الله عنه، ومدى تراجعه عن موقفه السابق.

(فخرجوها بصفوان، فبلغ سعد بن عبادة ما صنع صفوان، فخرج في قومه من الخزرج حتى أتاهم فقال: عمدتم إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ تؤذونه وتهجونه بالشعر وتشتمونه، فغضب لما قيل له، ثم أسرتموه أقبح الإسار، ورسول الله بين أظهركم! قالوا: فإن رسول الله أمرنا بحبسه وقال: «إن مات صاحبكم فاقتلوه»)<sup>(٢)</sup>.

وهنا تبدو عظمة سعد الذي يدرك مهوى قلب النبي ﷺ، فيؤثر هواه على قومه ونفسه وعلى الناس أجمعين.

يقول سعد: والله إن أحب إلى رسول الله ﷺ للغفو، ولكن رسول الله قد قضى بينكم بالحق، وإن رسول الله ليحب أن يترك صفوان، والله لا أربح حتى يطلق!

فقال حسان: ما كان لي من حق فهو لك يا أبا ثابت.

وأبي قومه، فغضب قيس بن سعد ابنه غضباً شديداً فقال: عجبًا لكم ما رأيت كاليم! إن حسان قد ترك حقه وتأنبون أنتم، ما ظننت أن أحداً من الخزرج يرد أبا ثابت في أمر يهواه.

فاستحيى القوم وأطلقوه من الوثاق.

فذهب به سعد إلى بيته فكساه حلة.

ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلّى فيه، فرأاه رسول الله ﷺ فقال: «صفوان؟» قالوا: نعم يارسول الله. قال «من كساه؟» قالوا: سعد بن عبادة: فقال: «كساه الله من حل الجنة».

(٢) المغازى للواقدي / ٤٣٧ / ٢.

(١) المغازى للواقدي / ٤٣٦ / ٢.

ثم كلام سعد بن عبادة حسان بن ثابت فقال :

لا أكلمك أبدا حتى تذهب إلى رسول الله فتقول : كل حق لي قبل صفوان فهو لك يارسول الله . فأقبل حسان في قومه حتى وقف بين يدي رسول الله عليه السلام فقال : يارسول الله ، كل حق لي قبل صفوان بن المعطل فهو لك . قال . عليه الصلاة والسلام : « قد أحسنت وقبلت ذلك » .

فأعطاه رسول الله عليه السلام أرضاً براحاً ، وهي بيرحاء وما حولها ، وأعطاه سعد بن عبادة حائطاً كان يجذب مالاً كثيرة عوضاً عما عفا من حقه )<sup>(١)</sup> .

وما ساقه البخاري عن دور عبد الله بن أبي عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قولها .

( وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول . قال عروة : أخبرت أنه كان يشاع عضاه ويتحدث به عنده ، فيقرئه ويستمعه ويستوشبه ، وقال عروة أيضاً : لم يسم من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت ، ومسطح بن ثابتة وحمنة بنت جحش في آناس آخرين لا علم لى بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى ، وإن كبر ذلك يقال عبد الله بن أبي ابن سلول ) .

وانتهت غزوة المريسيع بكل ما حملت من محن ، وما أثير بها وعلى أعقابها من فتن ، لتمتحن الصف الإسلامي فتفرز المنافقين فيه ، وتحاصرهم من كل جانب ، وتسقطهم من المجتمع .

وحاول النفاق من خلال حديث الإفك أن يعيد الخلخلة من جديد إلى الصف الإسلامي ، لكنه باء بالخذلان ، فتحطمته على صخرة هذا المجتمع مؤامرات النفاق والمنافقين ، وعادت اللحمة من جديد بعد تربية مستمرة طويلة استمرت ثلاث سنين متواليات ، لتهيء المجتمع الإسلامي إلى الخنة الأعظم إلى غزوة الخندق ، حيث تبلغ هذه المرحلة ذروة المحن ، كما نشهد ذلك في الفصل التالي بإذن الله .

(١) المغازي للواقدي / ٤٣٨ / ٢ .

## من سورة الأحزاب غزوة الأحزاب

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرُوهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

إن العرض القرآني المعجز للمعركة في آية واحدة ، ابتداءً وانتهاءً ، وتأتي الآيات التالية بعد ذلك لتعرض النفوس على المشرحة ، وتحدد مواطن القوة ومواطن الضعف ، و تعالج هذه النفوس بهذا الدرس العظيم ، فتضفي عملية البناء راسخة عميقـة الجذور قديماً إلى الأمام ، ويرتفع البناء الصلب الشاهق محكماً قوياً قد عولجت كل ثغراته وفجواته .  
لو جتنا لكل كتب السيرة ، لوجدنا الصورة تختلف في العرض ، ووجدنا الحيز الذي عالجه القرآن لا يعدو فيها عشر الأحداث الضخمة المتالية في الغزوة ، فالهدف في كتب السيرة والعرض البشري فيها هو تسلسل الأحداث . ومتابعتها والتشويق في عرضها ، أما الهدف القرآني فيختلف تماماً عنه في العرض البشري هناك ؛ لأن الهدف هنا هو ربط المؤمنين بالله عز وجل واهب النصر ، والتبرؤ من الحول والقوة البشرية ، وسندور مع القرآن حيث دار .

﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ..﴾

فمن هذه الجنود ؟

يقول الواقدي بسنده عن رواته :

( قالوا : لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ساروا إلى خيبر ، وكان بها من اليهود قوم أهل عدد وجلد ، وليس لهم من البيوت والأحساب ما للبني النضير - كان بنى النضير سرهم وقريظة من ولد الكاهن من بنى هارون - فلما قدموا خيبر ، خرج حبي بن

(١) سورة الأحزاب // ٩ .

أخطب ، وكتانة بن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلى من الأولين من بنى خطمة وأبو عامر الراهب فى بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد عليه السلام . فقالوا لقريش : نحن معكم حتى نستأصل محمداً . قال أبو سفيان : هذا الذى أقدمكم ونزعكم ؟ قالوا نعم ، جئنا لنحالفككم على عداوة محمد وقتاله . قال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، أحب الناس إلينا من أغاننا على عداوة محمد . قال النفر : فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها أنت فيهم ، وندخل نحن وأنت بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها . ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضاً ، ولن تكونن كلامتنا واحدة على هذا الرجل ما بقى منا رجل ، ففعلوا ، فتحالفوا على ذلك وتعاقدوا . ثم قالت قريش بعضها لبعض :

قد جاءكم رؤساء أهل يشرب وأهل العلم والكتاب الأول ، فسلوهم عما نحن عليه  
ومحمد أينا أهدى ؟ قالت قريش : نعم . فقال أبو سفيان :  
يا معاشر اليهود ، أنتم أهل الكتاب الأول والعلم ، أخبرونا عما أصبحنا نحن فيه  
ومحمد ، ديننا خير أم دين محمد ؟ فنحن عمار البيت ، ونحر الكوم<sup>(١)</sup> ونسقي  
الحجيج ، ونبعد الأصنام .

قالوا : اللهم أنتم أولى بالحق منه ، إنكم لتعظمون هذا البيت ، وتقومون على  
السقاية ، وتحترون البدن ، وتعبدون ما كان عليه آباءكم ، فأنتم أولى بالحق منه .  
فأنزل الله تعالى : ﴿أَلم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمدون بالجبن  
والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبلاً﴾<sup>(٢)</sup> .

فأعادوا الوقت وقوه . فقال صفوان بن أمية : يا معاشر قريش ، إنكم قد وعدتم هؤلاء  
ال القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه ، فقول لهم به ! لا يكون هذا كما كان ، وعدنا محمداً  
بدر الصفراء فلم نف بموعده ، واجترأ علينا بذلك ، وقد كنت كارهاً لم يعاد أبي سفيان  
يومئذ .

فخرجت اليهود حتى أتت غطفان ، وأخذت قريش في الجهاز ، وسیرت في العرب  
تدعواهم إلى نصرها وألبوا أحابيشهم ومنتبعهم ، ثم خرجت اليهود حتى جاءوا بني  
سليم ، فوعدوهم يخرجون معهم إذا سارت قريش ، ثم ساروا في غطفان فجعلوا لهم تم

(٢) النساء / ٥١ .

(١) الكوم : جمع كوماء ، وهي الثقة العظيمة السنام .

خبير سنة ، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا ، فأنعمت بذلك غطفان ، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن .

وخرجت قريش ومنتبعها من أحابيشها أربعة آلاف ، وعقدوا اللواء في دار الندوة ، وقادوا معهم ثلاثة فرس ، وكان معهم من الظهر ألف بعير وخمسة مائة بعير ، وأقبلت سليم فلاقوهم بمهر الظهران . وبين سليم يومئذ سبعمائة ، يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية – وهو أبو الأعور الذي كان مع معاوية بصفين – وخرجت قريش يقودها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت بنو أسد يقودها طليحة بن خويلد الأسدى ، وخرجت بنو فراراً وأوّلعت<sup>(١)</sup> يقودهم عيينة بن حصن ، وخرجت أشجع وقادتها مسعود بن رخيلاً وهم أربعمائة ، لم توعب أشجع ، وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بنى مرة وهم أربعمائة .

ما أجمعـت غطفان السير أبي الحارث بن عوف المسير وقال لقومه : تفرقوا في بلادكم ولا تسيرا إلى محمد ، فإنـى أرى أنـى مـحمدـاً أمرـه ظاهر ، ولو نـاوـأـهـ منـ بينـ المـشـرـقـ والمـغـربـ لـكـانـتـ لهـ العـاقـبةـ فـتـرـقـوـاـ فـيـ بـلـادـهـ ،ـ وـلـمـ يـحـضـرـ وـاحـدـ مـنـهـ ،ـ وـهـكـذاـ روـىـ الرـهـرـىـ وـرـوـتـ بـنـىـ مرـةـ :

حدثـىـ عبدـ الرـحـمـنـ بنـ عبدـ العـزـيزـ ،ـ عنـ عبدـ اللهـ بنـ أبيـ بـكرـ بنـ عمـروـ بنـ حـزمـ ،ـ وـعـاصـمـ بنـ عمـروـ بنـ قـتـادةـ قـالـاـ :ـ شـهـدـتـ بـنـوـ مـرـدـ الخـندـقـ وـهـمـ أـرـبـعـمـائـةـ ،ـ وـقـائـدـهـمـ الحـارـثـ ابنـ عـوفـ المـرـىـ ،ـ وـهـجـاهـ حـسـانـ وـأـنـشـدـ شـعـراـ ،ـ وـذـكـرـوـاـ مـجاـوـرـةـ النـبـيـ عـلـىـهـ يـوـمـئـذـ ،ـ فـكـانـ هـذـاـ أـثـبـتـ عـنـدـنـاـ أـنـ شـهـدـ الخـندـقـ فـيـ قـوـمـهـ ،ـ وـلـكـنـهـ كـانـ أـمـثـلـ تـقـيـةـ مـنـ عـيـنةـ .ـ

قالـواـ :ـ وـكـانـ الـقـوـمـ جـمـيعـاـ الـذـيـنـ وـافـواـ الخـندـقـ مـنـ قـريـشـ وـسـلـيمـ وـغـطـفـانـ وـأـسـدـ عـشـرةـ آـلـافـ ،ـ فـهـىـ عـسـاـكـرـ ثـلـاثـةـ وـعـنـاجـ<sup>(٢)</sup> الـأـمـرـ إـلـىـ أـبـوـ سـفـيـانـ .ـ

فـأـقـبـلـواـ ،ـ فـنـزـلتـ قـريـشـ بـرـوـمـةـ<sup>(٣)</sup> وـوـادـىـ عـقـيقـ فـيـ أـحـابـيشـهاـ وـمـنـ ضـوـىـ إـلـيـهاـ الـعـربـ ،ـ وـأـقـبـلـ غـطـفـانـ فـيـ قـادـتهاـ حـتـىـ نـزـلـواـ بـالـزـغـاـبـةـ إـلـىـ جـانـبـ أـحـدـ ،ـ وـجـعـلـتـ قـريـشـ تـسـرـحـ رـكـابـهاـ فـيـ وـادـىـ الـعـقـيقـ فـيـ عـضـاهـ<sup>(٤)</sup> ،ـ وـلـيـسـ هـنـاكـ شـىـءـ لـلـخـيلـ إـلـاـ مـاـ حـامـلـوـهـ مـعـهـمـ مـنـ عـلـفـ – وـكـانـ عـلـفـهـمـ الـذـرـةـ – وـسـرـحـتـ غـطـفـانـ إـلـيـهاـ إـلـىـ الـغـاـبـةـ فـيـ أـثـلـهـاـ وـطـرـفـائـهـاـ فـيـ

(١) أوّلعت : خرجت بأجتمعها . (٢) عناج الأمر : ملاك الأمر .

(٣) رومة : أرض بالمدينة بين الحرف وزغابة ، وبها البقر المشهور .

(٤) عضاه : جمع عضاء وهي الشجر الضخم ، أو كل ذات شوك .

عضاه الجرف ، وقدموا فى زمان ليس فى العرض<sup>(١)</sup> زرع ، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر ، فأدخلوا حصادهم وأثابتهم ، وكانت غطfan ترسل خيلها فى أثر الحصاد – وكانت خيل غطfan ثلاثة – بالعرض فيمسك ذلك من خيلهم .

وكادت إبلهم تهلك من الهزال ، وكانت المدينة ليالى قدموا جديبة .

فلما فصلت قريش من مكة إلى المدينة خرج ركب من خزاعة إلى النبي ﷺ فأخبروه بفصول قريش ، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً ، فذلك حين ندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم فى أمرهم بالجند والجهاد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا ، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله<sup>(٢)</sup> .

لقد أوعدت الجزيرة العربية – أو الحجاز بتعبير أدق – فى جمع قبائلها ورجالها لحرب محمد ﷺ ، وقد أبوسفيان جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل ، لم تشهد الجزيرة العربية له شيئاً من قبل واستنفر كل العرب حوله ليكونوا صفاً واحداً ضد محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان لقيادات بني النضير التى أخرجت من المدينة الدور الأكبر فى التعبئة ، وخاصة حى بن أخطب أبو جهل اليهود . والحاقد الأكبر فىهم ، ولخس أبو سفيان مبدأ فى هذه الحرب قائلاً :

(أحب الناس إلينا من أعنانا على حرب محمد) .

وبلغ الحقد اليهودى مداه يوم أعطى قادة يهود فتوthem للمشركين ، بأنهم أهدى سبيلاً من محمد ، ولا أدل على جحودهم وكذبهم من روایة صفية أم المؤمنين رضى الله عنها عن أبيها حىى بن أخطب وماجرى من حوار بينه وبين أخيه أبي ياسر ، عندما رأيا رسول الله ﷺ أول مرة .

(قال أبو ياسر : أهو هو ؟

حبي : نعم والله .

أبو ياسر : أتعرفه وتتبته ؟

حبي : نعم .

أبو ياسر : فما في نفسك منه ؟

(١) العرض : كل واد فيه قُرى وعياه .

(٢) المازى للواقدى / ٤٤١ / ٢ .

حيى : عداوه والله ما بقيت )<sup>(١)</sup> .

﴿ .. يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. ﴾<sup>(٢)</sup> .

ومع كل هذا لم يمنعهم ذلك من أن يقولوا لأبي سفيان وحزبه : أنت أهدي من محمد .

هؤلاء العشرةآلاف في ميزان الله ، وقد تجتمعوا وتتألبوا من كل حرب وصوب ، هم (جنود) هم أقل من أن يعرفوا بالجنود ، وقد يكونوا ثلاثة ، وقد يكونوا عشرةآلاف ، وقد يكونوا الملايين وملايين الملايين ، فماذا هم في ميزان الله ؟ (جنود) .

وماذا يقابلهم ؟ لقد قابلهم الله تعالى (بجنود) .

والمؤمنون لهم يرونهم .

يا لها من عظمة معجزة .

﴿ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها ﴾ .

فماذا هم عن هؤلاء الجنود ؟ وماذا عن هذه الريح ؟

١ - أخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، وأبو نعيم ، والبيهقي  
كلاهما في الدلائل من طرق ، عن حذيفة قال :

(لقد رأينا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود .... ما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ،  
ولا أشد ريحًا منها ، أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحد منها  
إصبعه .... حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد ، وإذا بدخل  
أدهم ضخم يقول بيده على النار ، ويسع خاصرته ويقول : الرحيل الرحيل . ثم دخل  
العسكر فإذا في الناس رجال منبني عامر يقولون : الرحيل الرحيل يا آل عامر لامقام  
لكم ، وإذا الرحيل في عسكركم ما يجاوز عسكركم شبرا فوالله إني لأسمع صوت  
الحجارة في رحالهم ، ومن بينهم الريح يضر بهم بها ، ثم خرجت نحو النبي ﷺ . فلما  
انتصفت في الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرین فارسًا متعممين ، فقالوا : أخبر  
صاحبك أن الله كفاه القوم ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو يشتمل في شملة يصلى ،  
وكان إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم أنى تركتهم يرتحلون ، فأنزل الله :

(١) انظر السيرة : لابن هشام / م ٥١٨ .

(٢) من الآية ١٤٦ من سورة البقرة .

﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود . . .﴾ )<sup>(١)</sup>.

٢ - (عن عبد الله بن عمر قال : أرسلني خالى عثمان بن مظعون ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة فقال : اتنا بطعام ولاف . قال : فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال : « من لقيت من أصحابي فمرهم أن يرجعوا » قال : فذهبت الريح تسفى كل شئ فجعلت لا ألقى أحدا إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ . قال : فما يلوى أحد منهم عنقه ، وكان معى ترس لى فكانت الريح تضرره على ، وكان فيه حديد ، فضربه الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على يدى كفى فأنفذها إلى الأرض )<sup>(٢)</sup>.

٣ - (ومن مجاهد قوله ﴿إذ جاءتكم جنود . . .﴾ قال : عبيدة بن بدر وأبو سفيان وقريطة ، قوله : ﴿فأرسلنا عليهم ريح﴾ قال : ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى كفأت قدورهم على أفواهها ، ونزعت فساطيطهم حتى أطعنتهم ، قوله : ﴿وجنوداً لم تروها﴾ قال : يعني الملائكة ولم تقاتل يومئذ )<sup>(٣)</sup>.

٤ - (وأخرج ابن جرير ، وأبن أبي حاتم ، والحاكم في الكني ، وأبن مردويه ، وأبو الشيخ في العظمة ، وأبو نعيم في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كانت ليلة الأحزاب جاءت الشمال (ريح الشمال) إلى الجنوب ، قالت : انطلقى فإنصرى الله ورسوله فقالت الجنوب : إن الحرة لا تسرى بالليل ، فغضب الله عليها وجعلها عقيما ، فأرسل الله عليهم الصبا فأطافت نيرانهم ، وقطعت أطنابهم فقال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور ». فذلك قوله : ﴿فأرسلنا عليهم ريح وجنوداً لم تروها﴾ )<sup>(٤)</sup>.

٥ - قال ابن إسحاق : . . . فقال : « ياحذيفة ، قم فادخل في القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، ولا تخذن شيئاً حتى تأتينا » قال : فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدرأ ولا ناراً ولا بناه . فقام أبو سفيان ، فقال : يامشر قريش ،

(١) الدر المنشور / ٦ / ٥٧١ . (٢) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبرى / م / ٨٠ .

(٣) المصدر نفسه / ٨٠ .

(٤) الدر المنشور / ٦ / ٥٧٢ . ونص الحديث عند البزار : عن ابن عباس قال : « أنت الصبا الشمال ليلة الأحزاب . فقلت : مرى حتى تصرى رسول الله ﷺ . قالت الشمال : إن الحرة لا تسرى بالليل . فكانت الريح التي نصر بها الرسول ﷺ الصبا » مجمع الزوائد للهيثمى / ٦ / ١٣٩ ، وقال فيه : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة : فأخذت يد الرجل الذى كان إلى جانبي ، فقلت : من أنت؟ قال : فلان بن فلان .

ثم قال أبو سفيان :

يامعشر قريش ، إنكم والله ما أصبتكم بدار مقام ، لقد هلك الكراع<sup>(١)</sup> والخف<sup>(٢)</sup> ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون ، ماتطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتخلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولو لا عهد رسول الله عليه<sup>صلوات الله عليه</sup> إلى أن لا تحدث شيئاً حتى تأتينى ، ثم شئت لقتلته بسهم ، فرجعت إلى رسول الله عليه<sup>صلوات الله عليه</sup> وهو قائم يصلى في مطر<sup>(٣)</sup> لبعض نسائه مراجل .

فلما رأى أدخلنى إلى رجليه ، وطرح على طرف المطر ، ثم رجع وسجد وإنى فيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطfan بما فعلت قريش ، فانشروا راجعين إلى بلادهم<sup>(٤)</sup> .

٦ - ( وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : «إذ جاءوك من فوقكم ومن أسفل منكم » قال : نزلت هذه الآية يوم الأحزاب ، وقد حصر رسول الله عليه<sup>صلوات الله عليه</sup> شهراً ، فخندق رسول الله عليه<sup>صلوات الله عليه</sup> ، وأقبل أبو سفيان بقريش ومن معه من الناس حتى نزلوا بعفة رسول الله عليه<sup>صلوات الله عليه</sup> ، وأقبل عبيدة بن حصن أخوه بنى بدر بغطfan ومن تبعه حتى نزلوا بعفة رسول الله عليه<sup>صلوات الله عليه</sup> ، وكانت اليهود أبا سفيان ظاهروه ، وبعث الله عليهم الرعب والريح ، فذكر أنهم كانوا كلما بنوا بناء قطع الله أطناه ، وكلما ربطوا دابة قطع الله رباطها ، وكلما أودعوا ناراً أطفأها الله ، حتى لقد ذكر لنا أن سيد كل حي يقول : يابنى فلان ، هلم إلى ، حتى إذا اجتمعوا عنده قال : السجدة النجاة ، أتيتم لما بعث الله عليّم الرعب )<sup>(٥)</sup> ..

لقد رأينا آثار جند الله تعالى ، وهى الريح ، وكم فعلت فى القوم ، ورأيناها إعصاراً تدمى كل شىء ، تقلب القدور ، وتهدم البيوت ، وتقطع الأطتاب ، وتطفىء النار . وإن أهلكت الدبور عاداً ، لكنها لم تنشط لنصر الله ورسوله ، وما أروع تلك المناجاة بينها وبين

(١) الكراع : الخيل .

(٢) الخف : البعير .

(٣) مطر ، مراجل : كساء من وسقى العين .

(٤) الدر المنشور / ٦ / ٥٧٦ .

أختها الصبا . إننا لنحس ونحن نقرأ النص أن الوجود كله يشارك في المعركة ، وأن لهذا الوجود مشاعره . لم ينقل لنا إلا مشاعر الصبا وغيرتها أن تنصر الله ورسوله ، وكيف تحث أختها الدبور لتشارك فتعذر عن النصرة ، وتتعلل بقولها : إن الحرة لاتسيير بليل ، فتantal عقوبة التخاذل عن نصرة رسول الله صلوات الله عليه ، ويجعلها عقيماً ، لاتحمل مطراً ولا غيضاً ، وتندفع الصبا لتشارك في المعركة ، فتصبح لنا نحن المسلمين ، ويشن علىها الحبيب المصطفى صلوات الله عليه . فيقول : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور »<sup>(١)</sup> .

وكان الجندي الثاني هو الرعب ، كما رأينا في النص السابق رقم « ٦ » :

(بعث الله عليهم الرعب والريح . . . )

وحدثنا عن فعل الريح ، وأما فعل الرعب فقال عنه :

( حتى لقد ذكر لنا سيد كل حي يقول : يابني فلان . هلم إلى ، حتى إذا اجتمعوا عنده قال : النجاة النجاة ، أتيتم لما بعث الله عليهم من الرعب ) .

وهو جند ثان قال عنه عليه الصلاة والسلام : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر »<sup>(٢)</sup> .

وتلك شهادة ثانية عن جيش الرعب الذي يرسله الله تعالى على أعدائه .

عن معاوية بن حيدة القشيري قال : أتيت النبي ﷺ فلما دفعت إليه قال :

« أما إني سألت الله أن يغبني بالسنة تحفيكم <sup>(٣)</sup> ، وبالرعب يجعله في قلوبكم » فقال بيده جميماً – أي معاوية – أما إني قد حلفت هكذا وهكذا أن لا أؤمن بك . فما زالت السنة تحفيني ، وما زال الرعب يجعل في قلبي حتى قمت بين يديك <sup>(٤)</sup> .

وكان الجندي الثالث سيد من سادات بني غطفان ، نعيم بن مسعود الأشعري :

( حدثنا عبد الله بن عاصم الأشعري عن أبيه . قال : قال نعيم بن مسعود :

كانت بنو قريطة أهل شرف وأموال ، وكنا قوماً عرباً ، لا نخل لنا ولا كرم ، وإنما

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط ، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ / ٦٥ : (ورجاله ثقات) ، وهو عن أنس . وقال عن حديث ابن عباس : (رواهم الطبراني في الأوسط بإسنادين – رجال أحدهما ثقات) .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٣) السنة تحفيكم : الجدب يتزل بمكتملكم .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ٦ / ٦٦ ، وقال : (رواهم النسائي وغيره غير ذكر الرعب والسنة ، ورواهم الطبراني في الأوسط بإسناده حسن) .

نحن أهل شاة وبعير ، فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم . وأكل من طعامهم . ثم يحملونني ترأ على ركابي ما كانت ، فأرجع إلى أهلي . فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله ﷺ سرت مع قومي وأنا على ديني ، وقد كان رسول الله ﷺ عارفاً ، فأقامت الأحزاب مأقامت حتى أجدب الجناب وهلك الكراع والخف ، وقدف الله عز وجل في قلبي الإسلام ، وكتمت قومي إسلامي ، فأنخرج حتى آتى رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء وأجده يصلى ، فلما رأني جلس ثم قال : « ماجاء بك يانعيم ؟ » قلت : إنني جئت أصدقك وأشهد أن ماجئت به هو الحق ، فمرني بما شئت يارسول الله ، فوالله ما تأمرني بأمر إلا مضيت له ؛ قومي لا يعلمون بإسلامي ولا غيرهم . قال « ما استطعت أن تخذل الناس فخذل » قال : قلت : أفعل ، ولكن يارسول الله أقول ؟ . فأذن لي . قال : « قل ما بدا لك فأنت في حل » .

قال : فذهبت حتى جئت ببني قريظة ، فلما رأوني ، رحبو وأكرموا وحيوا ، وعرضوا على الطعام والشراب . قلت : إنني لم آت لشيء من هذا إنما جئتكم نصباً بأمركم ، وتخوفاً عليكم لأشير عليكم برأي وقد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . فقالوا : قد عرفنا ذلك وأنت عندنا على ماتحب من الصدق والبر . قال : فاكتموا عنى . قالوا : نفعل . قال : إن أمر هذا الرجل بلاء صنع مارأيتم في بني قينقاع وبني النضير ، وأجلالهم عن بلادهم بعد قبض الأموال ، وكان ابن أبي الحقيق قد سار فينا ، فاجتمعنا معه لننصركم ، وأرى الأمر قد تطاول كما ترون ، وإنكم والله مائنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة ؛ أما قريش وغطفان فهم قوم قد جاءوا سيارة حتى نزلوا حيث رأيتم ، فإن وجدوا فرصة انتهزوها ، وإن كانت الحرب أو أصحابهم ما يكرهون اشمروا إلى بلادهم ، وأنتم لا تقدرون على ذلك ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، وقد غلط عليهم جانب محمد ، أجلبوا عليه أمس إلى الليل ، فقتل رأسهم عمرو بن عبد وهربوا منه ، مجرحين وهم لا غناء بهم عنكم لما تعرفون عندكم . فلا تقاتلوا مع غطفان وقريش حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم تستوثقون به منهم . قالوا : أشرت بالرأي علينا والنصح ، ودعوا له وشكروا وقالوا : نحن فاعلون . قال : لكن اكتموا عنى . قالوا : نعم ، نفعل .

ثم خرج إلى أبي سفيان بن حرب في رجال من قريش فقال : يا أبو سفيان ، قد جئتكم

بنصيحة فاكتم عنى . قال : أفعل . قال : تعلم أن قريطة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وأرادوا إصلاحه ومراجعةه ، أرسلوا إليه وأنا عندهم : إننا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نسلّمهم إليك تضرب أعناقهم ، وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم - يعنون بني النضير - ونكون معلّك على قريش حتى نردهم عنك ، فإن بعثوا إليك يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم أحداً واحدروهم على أشرافكم ، ولكن اكتموا عنى ولا تذكروا من هذا حرفًا . قالوا : لأنذركه .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، إنّي رجل منكم فاكتموا عنى ، واعلموا أن قريطة بعثوا إلى محمد . وقال لهم مثل ما قال لقريش - فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم ، وكان رجلاً منهم فصدقوه .

وأرسلت اليهود غزال بن سموأل إلى أبي سفيان بن حرب وأشراف قريش : إن ثواءكم قد طال . ولم تصنعوا شيئاً ، وليس الذي تصنعون برأي ، إنكم لو وعدتمونا يوماً تزحفون فيه إلى محمد . فتأتون من وجه وتأتي غطفان من وجه ، ونخرج نحن من وجه آخر - لم يفلت من بعضاً ، ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا برهاناً من أشرافكم يكونون عندنا ، فإننا نخاف إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهون شمرتم وتركتمونا في عقر دارنا وقد نابذنا محمداً بالعداوة ، فانصرف الرسول إلى بني قريطة . ولم يرجعوا إليهم شيئاً . وقال أبو سفيان : هذا ما قاله نعيم )<sup>(١)</sup> .

( فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريطة قالت قريش وغطفان : والله لقد حدثكم نعيم بن مسعود بحق فأرسلوا إلى بني قريطة . إنّا والله ماندفع إليكم رجلاً من رجالنا ، فإن كتمت تريدون القتال فاخروا فقاتلوا . قالت بنو قريطة حين انتهت إليهم الرسل بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم الحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها . وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنّا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً : فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم )<sup>(٢)</sup> .

ونعود إلى نص الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نَعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جِنُودًا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجَنُودًا لَمْ تَرُوهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

(١) المغازى للواقدى / ٢٤٨٠ و ما بعدها . (٢) تاريخ الإسلام للذهبي - المغازى / ٢٩٤ .

فتجد الهدف الرئيسي منها هوربط هذه القلوب المؤمنة بالله عز وجل ، الذي أرسل الريح والجنود ، فهزم الأحزاب وحده . وبذلك تقطع القلوب من الاعتماد على الأسباب وتتصل برب الأرباب ، وحده لا شريك له ، وهو المقصود من هذا العرض القرآني - والله أعلم .

وتأتي الآية الثانية لتضع على الساحة الذروة التي وصلت إليها المخنة ، حية شاخصة كأنها تعاد في عرض حي جديد ، والجديد فيه ليس مظاهره فقط ، إنما عرضه من داخل أعماق القلوب ، وكأن القلوب نفسها تشخص ، والروح والفزع يجسد ، والزلزلة القلبية والنفسية تعرض حسب مراحل غليانها :

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَاجِرُ وَتَظْنُونَ بِاللهِ الظُّنُونَ، هَنالِكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّلُوا زَلَّالًا شَدِيدًا﴾<sup>(١)</sup> .

ونستعرض من الأحداث مايسعف في تجليه هذه الصورة :

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِكُمْ﴾ :

أخرج ابن إسحاق ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل الله في شأن الجندي ، وذكر نعمه عليهم ، وكفايته إياهم عدوهم بعد سوء الطن ، ومقالة من تكلم من أهل النفاق : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نَعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِبْحًا وَجَنُودًا لَمْ تَرُوهَا ..﴾ و كانت الجنود التي أتت المسلمين أسد و غطفان و سليمان ، وكانت الجنود التي بعث الله عليهم من الريح والملائكة فقال : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِكُمْ ..﴾ ، فكان الذين جاءوهم من فوقهم بنى قريطة ، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريشاً و غطفان وأسداً ..<sup>(٢)</sup> .

ولنشهد كيف جاءت بنو قريطة من فوقهم ، بعد أن شهدنا كيف جاءت قريش غطفان .

قال ابن إسحاق : ( وخرج عدو الله حبي بن أخطب النضرى ، حتى أتى كعب بن أسد القرطى ، صاحب عقد بنى قريطة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه ، وعاقده على ذلك وعااهده ، فلما سمع كعب حبي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه . فأبى أن يفتح له ، فناداه حبي : ويحك يا كعب ! افتح لي ، قال :

. (٢) الدر المثور / ٦٤ / ٥٧٤ .

. (١) الأحزاب / ١٠ ، ١١ .

ويحك يا حبي : إنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه . ولم أر منه إلا وفاء وصدقأً . قال : ويحك افتح لي أكلمك ، قال : ما أنا بفاعل ، قال : والله إن أغفلت دوني إلا عن جشيشتك <sup>(١)</sup> أن آكل معك منها : فأحفظ <sup>(٢)</sup> الرجل . ففتح له . فقال : ويحك ياكعب ، جئتكم بعزم الدهر وبحرطام <sup>(٣)</sup> ، جئتكم بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسياح من رومة ، وبغطfan على قادتها وسادتها حتى أزلتهم بذتب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . قال ، فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام <sup>(٤)</sup> قد هراق ماؤه ، فهو يرعد وويريق ، ليس فيه شيء ، ويحك يا حبي فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقأً .

فلم يزل حبي بكعب يقتله فى النروة والغارب <sup>(٥)</sup> حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وعطفان ، ولم يصيروا محمداً أدخل معك فى حصنك حتى يصيى ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله عليه السلام .

فلما انتهى إلى رسول الله عليه السلام الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله عليه السلام سعد بن معاذ ابن العمأن وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة بن دليم ، أحد بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، أخو بنى الحارث بن الخزرج ، وخوات بن جبير ، أخو بنى عمرو بن عوف فقال : « انطلقو حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا إلى لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس ». .

قال : فخرجو حتى أتوهم ، فوجدوهم على أختب ما بلغهم عنهم ، فيما نالوا من رسول الله عليه السلام ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، فشاتهم سعد بن معاذ وشاتوه ، وكان رجلاً فيه حدة . فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله عليه السلام ، فسلموا عليه ، ثم قالوا : عضل والقارة ، أى عذر كقدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ،

(١) جشيشتك : هو البر يطحن غليظاً . (٢) أحفظه : أغضبه .

(٣) طام : مرتفع ويريد كثرة الرجال . (٤) المهام : السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه .

(٥) النروة والغارب : هذا مثل وأصله في البعير يستصعب عليك فتأخذ القراءة من ذروته وغارب سنته وتقتل هناك . فيجد البعير لذلة ، فيأنس عند ذلك ، فضرب هذا الكلام مثلاً في المراوضة والمخاتلة .

خبيب وأصحابه : فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، أبشروا يا معاشر المسلمين » (١) .  
 لقد أوضحت هذه الرواية كيف تم غدر اليهود بال المسلمين ، ونقضهم للعهد ، وما هو دور حبي بن أخطب في ذلك ، لكن رواية الواقدي تلقي أضواء أكثر على النفسية اليهودية التي حاربت المسلمين من دون أن تخرج في إطارها العام عنها ، ومنهجنا هو الحرص على روایات الواقدي حين لا تعارض مع الروایات المعتمدة ، لكنها تقدم تفصيلات هامة ذات بال ، تعمق جوانب البحث ، وتضيء كثيراً من النقاط الجزئية ، فيتضح مدلول الآية أكثر فأكثر .

يقول الواقدي : ( فحدثني أبو أيوب بن النعمان ، عن أبيه ، قال : كان حبي بن أخطب يقول لأبي سفيان بن حرب ولقریش في مسيرة معهم : إن قومي قريطة معكم ، وهم أهل حلقة وافرة ، هم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلاً ، فلما دنوا قال أبو سفيان لحبي ابن أخطب : أئت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد ، فذهب حبي حتى أتى بني قريطة ، وكان رسول الله ﷺ حين قدم صالح قريطة والنضير ومن بالمدينة من اليهود ألا يكونوا معه ولا عليه . ويقال : صالحهم على أن ينصروه من دهمه منهم ، ويقيموا على معاقلهم الأولى التي بين الأوس والخررج ، ويقال إن حبي بن أخطب عدل من ذي الخليفة ، فسلك على العصبة حتى طرق كعب بن أسد ، وكان كعب صاحب عقد بني قريطة وعهدهما ) (٢) .

لقد أشعل هذه الفتنة كلها حبي بن أخطب زعيم بني النضير ، وشاركه أبو سفيان ابن حرب ، وكان اتجاههما أن لا يتراکا أحداً من العرب أو اليهود إلا ويضمأ إلى هذا الجيش للجح ، ودخول بني قريطة الحرب ضد رسول الله ﷺ هو أعظم نجاح يتحققه ابن أخطب في تصور أبي سفيان ، وهو أن ينقض الأمر على محمد داخل المدينة ، ويتم الانقضاض عليه فيصبح بين فكي الكماشة ، ويستأصل بين براثن الأسد ولذلك استحب أبو سفيان حياً لذلك ، وعدل عن ذي الخليفة ليسرع الخطأ فيلقى زعيم بني قريطة وينهى معه هذا الأمر .

( فكان محمد بن كعب القرظى يحدث فيقول : كان حبي بن أخطب رجلاً مشهوراً ، هو شأم بني النضير قومه ، وشأم قريطة حتى قتلوا ، وكان يحب الرئاسة والشرف عليهم - وله في قريش شبه : أبو جهل بن هشام - ، فلما أتى حبي إلى بني

(٢) المغازى للواقدي / ٤٥٤ / ٢.

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢٢٠ / ٢.

قريطة كرحت بنو قريطة دخوله دارهم ، فكان أول من لقيه غزال بن سموأل ، فقال له حبي : قد جئتكم بما تستريح به من محمد ، هذه قريش قد حلّت وادى العقيق ، وغضفان بالر غابة . قال غزال : جئتنا والله بذل الدهر : قال حبي : لا تقل هذا .

ثم وَجَهَ إِلَى بَابِ كَعْبَ بْنِ أَسْدٍ فَدَقَّ عَلَيْهِ ، فَعَرَفَهُ كَعْبٌ وَقَالَ : مَا أَصْنَعُ بِدُخُولِ حَبِّي عَلَى ، رَجُلٌ مُشْئُومٌ قَدْ شَأْمَ قَوْمَهُ ، وَهُوَ الْآنَ يَدْعُونِي إِلَى نَفْضِ الْعَهْدِ ! قَالَ : فَدَقَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ كَعْبٌ : إِنَّكَ امْرُؤٌ مُشْئُومٌ قَدْ شَأْمَتْ قَوْمَكَ حَتَّى أَهْلَكُوكُمْ ، فَارْجِعْ عَنَا ، إِنَّكَ إِنَّمَا تَرِيدُ هَلَاكَى وَهَلَاكَ قَوْمِي !

فَأَبَى حَبِّي أَنْ يَرْجِعَ . فَقَالَ كَعْبٌ : يَا حَبِّي ، إِنِّي عَاقَدْتُ مُحَمَّداً وَعَاهَدْتَهُ ، فَلَمْ نَرْ مِنْهُ إِلَّا صَدِقاً وَاللهُ مَا أَخْفَرْ لَنَا ذَمَّةً ، وَلَا هَتَّكْ لَنَا سَرَّاً ، وَلَقَدْ أَحْسَنْ جَوَارِنَا . فَقَالَ حَبِّي : وَيَحْكُ ، إِنِّي قَدْ جَئْتُكَ بِحَرْطَامِ وَبِعَزِ الدَّهْرِ ، جَئْتُكَ . بَقْرِيشَ عَلَى قَادِتَهَا وَسَادَتَهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِالرَّغَابَةِ إِلَى نَقْمَى ، قَدْ قَادُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَّوْا إِلَيْلَ ، وَالْعَدُوُّ عَشْرَةَ آلَافَ ، وَالْخَيْلُ أَلْفَ فَرَسٍ ، وَسِلَاحٌ كَثِيرٌ ، وَمُحَمَّدٌ لَا يَفْلُتُ فِي فُورَنَا هَذَا ، وَقَدْ تَعَاقَدُوا وَتَعَااهَدُوا أَلَا يَرْجِعُوا حَتَّى يَسْتَأْصلُوا مُحَمَّداً وَمِنْ مَعِهِ .

قَالَ كَعْبٌ : وَيَحْكُ ، جَئْتُنِي وَاللهُ بذل الدهر ، وبسحاب يرق ويعد ليس فيه شَيْءٌ ، وَأَنَا فِي بَحْرِ لَحْيٍ لَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَرْسِمَ دَارِي ، وَمَالِي مَعِي وَالصَّبِيَانُ وَالنِّسَاءُ ، فَارْجِعْ عَنِّي ، إِنَّهُ لَا حَاجَةٌ لِي فِيمَا جَئْتُنِي بِهِ . قَالَ حَبِّي : وَيَحْكُ ، أَكَلَّمُكَ . قَالَ كَعْبٌ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ . قَالَ : وَاللهُ مَا أَغْلَقْتُ دُونِي إِلَّا لِجَشِيشِتِكَ أَنْ آكُلَّ مَعْكَ فِيهَا ، فَلَكَ أَلَا أَدْخُلَ يَدِي فِيهَا . قَالَ : فَأَحْفَظْهُ ، فَفَتَحَ الْبَابَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ .

فَلَمْ يَرِلْ يَفْتَلْهُ فِي النَّدْرَوَةِ وَالْفَارَبِ حَتَّى لَانَ لَهُ ، وَقَالَ : ارْجِعْ عَنِّي يَوْمَكَ هَذَا حَتَّى أَشَوَّرْ رُؤَسَاءَ الْيَهُودَ فَقَالَ : قَدْ جَعَلُوا الْعَدْدَ وَالْعَهْدَ إِلَيْكَ فَأَنْتَ تَرِي لَهُمْ ، وَجَعَلْ يَلْعَبْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَلَهُ عَنْ رَأِيهِ .

فَقَالَ كَعْبَ بْنَ أَسْدٍ : يَا حَبِّي ، قَدْ دَخَلْتُ فِيمَا تَرَى كَارَهَا لَهُ ، وَأَنَا أَخْشَى أَلَا يَقْتَلُ مُحَمَّدٌ ، وَتَنْصَرُفُ قَرِيشَ إِلَى بَلَادِهَا ، وَتَرْجِعُ أَنْتَ إِلَى أَهْلَكَ ، وَأَبْقِي فِي عَقْرِ الدَّارِ ، وَأَقْتَلُ وَمَنْ مَعِي ؟ فَقَالَ حَبِّي : لَكَ مَا فِي التُّورَةِ الَّتِي أَنْزَلْتَ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سِينَاءَ ، لَكَ لَمْ يَقْتَلْ مُحَمَّدٌ فِي هَذِهِ الْفُورَةِ وَرَجَعْتُ قَرِيشَ وَغَطْفَانَ قَبْلَ أَنْ يَصْبِيُوا مُحَمَّداً ، لَأُدْخِلَنَ حَصْنَكَ حَتَّى يَصْبِيَنِي مَا أَصَابَكَ .

فتقضى كعب العهد الذى كان بينه وبين رسول الله ﷺ ودعا حبى بالكتاب الذى كتب رسول الله ﷺ بينهم فشقه حبى ، فلما شقه حبى علم أن الأمر قد لحم وفسد ، فخرج على بني قريظة وهم حلق حول منزل كعب بن أسد ، فخبرهم الخبر . يقول الزبير ابن باطا : واهلاك يهود . وتولى قريش وغطفان ويتراكون فى عقر دارنا وأموالنا وذارينا ، ولا قوة لنا بمحمد إما بات يهودى على حزم فقط ، ولا قامت يهودية بشرب أبداً .

ثم أرسل كعب بن أسد إلى نفر من رؤساء اليهود الخمسة - الزبير باطاء ، ونباش بن قيس ، وغزال بن سموأل ، وعقبة بن زيد ، وكعب بن زيد - فخبرهم خبر حبى ، وما أعطاه حبى أن يرجع إليه فيدخل معه فيصيبه ما أصابه ، يقول الزبير بن باطا : وما حاجتك إلى أن تُقتل ويُقتل معك حبى ! قال : فأسكت كعب وقال القوم : نحن نكره نزري برأيك أو نخالفك وحبى من قد عرفت شؤمه ، وندم كعب بن أسد على ماصنع من تقضى العهد ، ولحم الأمر ، لما أراد الله تعالى من هلاكهم )<sup>(١)</sup>.

لعن شَبَّه حبى بن أخطب بأبي جهل قريش ، فقد كان كعب بن أسد يشبه عتبة بن ربيعة ، وخاصة لاتحاد الموقف . وذلك حينما وقف عتبة بن ربيعة يدعو قومه إلى العودة إلى مكة قبل الحرب مع محمد رسول الله ﷺ ، ويقول :

( يامعشر قريش إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجالاً من عشيرته ، فارجعوا واحلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصحابه فذلك الذي أردمت ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ماتريدون )<sup>(٢)</sup>.

وهو الموقف الذى أثنى عليه رسول الله ﷺ فقال :

«إن يطيعوا صاحب الجمل الأحمر يهتدوا» وفي رواية :

«إن يك فى أحد من القوم خير ففى صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا»<sup>(٣)</sup>.

ولعن عَبْر حبى بن أخطب كعب بن أسد بالدخل فقال له :  
ما أغفلت دوني إلا لجشيشتك أن آكل معك منها .

(١) المغازى / ٢ / ٤٥٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٦٢٢ / ٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٦٢١ .

فقد عَيْرَ أبو جهل عتبة بن ربيعة بالجبن ، حين دعا إلى السلم مع محمد ، فقال عنه : انتفح والله سحره .

وغضب كعب أن عَيْرَ بالبخل ، ففتح الباب لحمى ، وما زال حمى به حتى نقض العهد .

وغضب عتبة أن عَيْرَ بالجبن ، فلبس عمامته ، ودعا إلى المبارزة ، وكان من أول القتلى في المعركة وكم تفعل العصبية في النفوس فتقود إلى النار أناساً أحلامهم مثل الجبال وشهادة كعب أنه لم ير من رسول الله ﷺ إلا صدقأً وفاء ، لها وزنها في عالم الحروب والأمم ، فرغم كل كيد وحقد ، فهو يعترف أنه لم ير إلا وفاء .

وإغراء حمى لکعب بتصفية محمد ﷺ لاقت هو في نفس کعب ، ومن هنا أتيَ الرجل فالخقد هو الذي يحركه ، وهو المترسب في الأعمق ، واستطاع حمى أن يوقف كل مافي نفس الرجل من شر ، وهاهو دور شياطين الإنس والجبن :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ النَّاسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بِعُضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ زَرْفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْشَاءَ رَبِّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

وشاءت إرادة الله تعالى هلاك هذه الأمة ، يوم استجابت لنوازع الشر .

وكان التخطيط الخبيث من حمى أن دفع كعباً لتمزيق الكتاب ، واتخاذ الموقف قبل أن يتشارو مع قادات اليهود ، فإذا الرجل قد تورط ، وصعب عليه الرجوع ، ورغم أن إشارة قادة قريظة كانت بعدم نقض العهد ، إلا أن العصبية العميماء لزعماء كعب حالت بينهم وبين تدارك الموقف ، وساهموا بسلبيتهم في هلاك قومهم حين لم يزروا برأى سيدهم کعب بن أسد .

( فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي الْخَنْدَقِ ، أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي قَبْتِهِ .. فَقَالَ : بَلَغْنِي أَنَّ بَنِي قَرِيظَةَ قَدْ نَقْضَتِ الْعَهْدَ وَحَارَبَتْ .

فأشتد ذلك على رسول الله ﷺ ، وقال : « من نبعث يعلم لنا علمهم؟ » فقال عمر : الزبير بن العوام ، فكان أول الناس بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ، فقال : « اذهب

(١) الأعماں / ١١٢ .

إلى بني قريظة » فذهب الزبير فنظر ، ثم رجع فقال : يارسول الله ، رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرفهم ، وقد جمعوا ما شئتم <sup>(١)</sup> .. ثم دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، فقال : « إنه قد بلغنى أن بني قريظة قد نقضوا العهد الذى بيننا وبينهم وحاربوا . فاذهبوا وانظروا إن كان مابلغنى حقاً ؛ فإن كان باطلًا فأظهروا القول ، وإن كان حقاً فتكلموا بكلام تلحنون لي به أعرفه ؛ لا تفتوا في أعضاد الناس ». .

فلما انتهوا إلى كعب بن أسد وجدوا القوم قد نقضوا العهد ، فناشدوهم الله والعهد الذى كان بينهم أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك قبل أن يتاحم الأمر ، وألا يطيعوا حبي بن أخطب . فقال كعب : لانرده أبداً ؛ قد قطعته كما قطعت هذا القبال لقبال نعله ووقع كعب بسعد بن معاذ يسبه فقال أسيد بن الحضير :

تسب سيدك يا عدو الله ؟ ما أنت له بكفء ! أما والله يابن اليهود لتولين قريش إن شاء الله منهزمة وتركلك في عقر دارك فنسير إليك فتنزل في حرك هذا على حكمنا ، وإنك لتعلم التضير ، كانوا أعز منك وأعظم بهذه البلدة ، ديتكم نصف ديتهم ، وقد رأيت ما صنع الله بهم ، وقبل ذلك بنو قنيقاع ، نزلوا على حكمنا .

قال كعب : يابن الحضير ! تخوفني بالمسير إلى ؟ أما والتوراة ، لقد رأى أبوك يوم بعاث . لو لا نحن لأجلته الخزرج منها ، إنكم والله ما لقيتم أحداً يحسن القتال ولا يعرفه ، نحن والله نحسن قتالكم ، ونالوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين أقبع الكلام ، وشتموا سعد بن عبادة شتماً قبيحاً حتى أغضبوه فقال سعد بن معاذ : دعهم فإنما لم نأت لهذا ، ما بيننا وبينهم أشد من المشاتمة - السيف ! .

وكان الذي يشتم سعد بن عبادة نباش بن قيس فقال : عضضت بيظرك أملك : فانتفض سعد بن عبادة غضباً . فقال سعد بن معاذ : إني أحاف عليكم مثل بني النضير . قال غزال ابن سموأل : أكلت أير أريك : قال سعد بن معاذ : غير هذا القول أحسن منه .

قال : ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ ، فلما انتهوا إليه قال سعد بن عبادة : عضل والقارة وسكت الرجال .. ثم جلسوا فكثروا رسول الله ﷺ وقال : « أبشروا يامعشر

(١) في البخاري باب غزوة الخندق ٤٩ عن ابن المكدر قال : سمعت جابر يقول : قال رسول الله ﷺ : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير : أنا . فقال : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير أنا . فقال : « إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير ». .

<sup>(١)</sup> المسلمين بنصر الله وعونه ))

أما كيف وصل الخبر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ فلا ندري، لكن الأمر يدل على وجود بعض المتعاطفين مع المسلمين في قلببني قريطة. وهو الذي نقل الخبر إلى عمر رضي الله عنه. وكانت الخطوة الأولى أن انتدب رسول الله عليه السلام الزبير بن العوام، بإشارة عمر رضي الله عنهمما، وقال بعد عودته: رأيتم يصلحون حصونهم ويذربون طرقوهم وقد جمعوا ما شيتهم.

وهذه المظاهر التي طرأت عليهم توحى بقوة احتمال صحة الخبر الذى جاء به عمر رضى الله عنه ، وإلى هنا يتنهى دور المهاجرين فى هذا المجال ، فلا علاقة البتة بين اليهود والمهاجرين ، ويأتى دور الأنصار فى معالجة الموقف ؛ لأن العهود والمواثيق والولاءات السابقة ، كانت بين اليهود وبين الأوس والخزرج .

وحتى يقطع رسول الله ﷺ دابر الشك باليقين دعا سعد بن معاذ وأبيه بن الحصير سيدى الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، ليمضوا إلى بنى قريظة ، ويتأكدوا من صحة الخبر .

وهذا الاختيار لم يأت عرضا من رسول الله ﷺ .

فبنو قريطة ابتداءً هم حلفاء الأوس ، وإذا كان أحد قادرًا على ثنيهم عن عزمهم على نقض العهد ، فهما سيدا الأوس سعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ، فالمهمة مزدوجة وهي التأكيد من صحة الخبر ومحاولة ثنيهم عن غدرهم ، وتحميلهم مغبة هذا الغدر .

ومشاركة سعد بن عبادة في الوفد ذات دلالة ضخمة ، وهي أن الأوس والخزرج يد واحدة على عدوهم ، و موقف واحد وجيش واحد وراء رسول الله ﷺ ، وذلك ليتأكد اليهود من ذلك ، فلا يعلو أنفسهم بالانقسام الداخلي في الصف الإسلامي ، خاصة وقد نقلت لهم جواسيسهم من المنافقين مadar بين السعدين قبل فترة قريبة أثناء حديث الإفك ، فباتت هذه المهمة المشتركة لقطع دابر السنة المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، وتأكد وحدة الصف الإسلامي بعد تلك الأزمة العابرة .

ودلالة ثالثة كذلك ، هي أن يتحمل سيدا الأوس والخزرج مسئولية الموقف مشتركين ، فهذه أول مهمة تأئي يشتهر كان فيها معاً . بعد تلك الملاسنة الحشنة بينهما ،

(١) المغازى / ٤٥٧ و ما بعدها .

وذلك لتزيل ما يحتمل أن يبقى في قلبيهما من جراح ، وتوحد الحنة بينهما من جديد ، ويكونا رواداً لقومهما في المواجهة أمام اليهود والشركين .

وكانت المقابلة العاصفة التي كشفت النفسية اليهودية الخبيثة اللئيمة الحسيبة من جديد ، فإذا كعب بن أسد الذي لم ير من رسول الله ﷺ إلا وفاءً وصدقًا ، هو الذي يتصدى للمواجهة ، ويعلن في صفاقة وخشة . لا نرده أبداً ، قد قطعته كما قطعت هذه القبال - لقبال نعله - ووقع بسعده بن معاذ يسبه .

إنه يعلن برأتين في وقت واحد براءة من حلف محمد ﷺ وبراءة ثانية من حلف الأوس ، ومن أجل هذا يتبعج ، فينال من سيد الأوس سعد . وتحتفى الحياة الرقطاء - حسي - بوجهها الأصفر الكالح ، لتدع هذا الأحمق المنتفشي يتحمل مسئولية الموقف الذي سيقود قومه إلى الذبح بهذه العصبية الجنونة . وقد أدرك أسيد بن حضير رضي الله عنه - السيد الثاني للأوس - الموقف بكل أبعاده وأسمع كعباً وقاده قريظة من خلفه ما يقتضيه الموقف .

فقد سفه كعباً وهو ينال من سيده سعد ، ليؤكد لليهود أن الأوس كلهم رجال واحد خلف سعد بن معاذ ، فإن كان يخطر ببال كعب بن أسد القرظي أن التنافس بين سعد وأسيد قد يقود إلى الشقاوة في صف الأوس ، فقد وئدت هذه الأحلام إلى الأبد ، فكان الرد صفععة تناسب سفاهة سيدبني قريظة ، وأشار من طرف خفي إلى أن المصير المحتوم الذي سيلقاه هو الدمار له ولقومه ، فليس أقوى من بني النضير وقد أجلوا صاغرين عن المدينة ، وليس أقوى من بني قينقاع ، وقد أجلوا صاغرين عن المدينة ، وإن كان يعتمد على قريش وقوتها وجبروتها ، فقرىش سوف تتسحب منهزمة .

إن هذا الرأى في الحقيقة هو رأى سادة بني قريظة جميماً ، لكن الحقد الذي ينزع من قلوبهم جعلهم يركبون رعوسمهم سفهاءً ، ويصررون على المواجهة مع المسلمين .

وبذلك أدى أسيد الدور المطلوب ، وهو محاولة شتيهم عن العذر الذي يبتوه ، وذلك بما أوضح لهم من مغبة نتائج هذا الأمر ، ويؤكد لهم أن الذلة والصغار ستكون ثمرة هذا الموقف الخناظل . ويصر كعب على عنجهيته ، وشيطانه حسي يوغر بصدره ، ويبصحه إلى نفسه ، فيندفع كالمعتوه لا يدرى ما يقول : يابن الحضير تخوفوني بالمسير إلى؟ أما والتوراة لقد رأني أبوك يوم بعاث ، لو لا نحن لأجلته الخزرج منها .

إنه بذلك يريد أن يبعث الحاھلية من جديد ، ويحرک أحقاد بعاث ، حیة بين الحیین ، ولكن هیهات ، قد كان هذا في بداية الأمر والإسلام جديد لم تختلط بشاشته بعد القلوب ، أما الآن فدون ذلك خوض البحار ، بحار الإيمان والحب التي ربطت بين هذین الحیین بالإسلام . فإذا الذى يدافع عن سعد بن عبادة سعد بن معاذ ، وحين یعیر المسلمين بالجهل بالحرب ، فهذا یدکی نار الالتحام من جديد .

ثم تحول القضية من الحوار الھادف والكلام الجدى إلى شتائم مقدعة حقيرة ، قام بها سادة یهود لا سفهاؤهم ، فإذا القوم سادتهم كسفهائهم ..  
عضضت بیظر أملك .  
أكلت أیر أبيك .

هذا کلام السوقه والسافلين ، وهم كذلك حين تكتشف نفسيتهم الحاقدة اللثيمة ، فلا بد أن یرورو اغريزة حقدھم ، وجسم سعد بن معاذ رضي الله عنه الموقف :  
ما یبتنا وینهم أربى من المشائمة أى - السيف - .

فلكل مقاالت . وسيشهد بنو قريطة الرد على هذا الغدر المبیت والسفاهة للمرذولة .

وحسب توجيهات النبي ﷺ أن یلحنوا له لحننا یعرفه إن كان الخبر صحيحا في نقض قريطة للعهد ، فلتکن كلمة السر بينهم حتى لا یفت الخبر في أعضاد المسلمين ، ويحطم نفسيتهم فكان الرد كلمتين عضل والقارة .

وفهمها عليه الصلاة والسلام على حقيقتها ، ففي عضل والقارة .. تم الغدر بخیب وأصحابه ، وكذلك الأمر في یهود اليوم ، فاكفى عليه الصلاة والسلام بقوله :

« الله أكبر ، أبشروا يا معاشر المسلمين بنصر الله وعونه » لقد أديت المهمة ، وتأكد الغدر المبیت ، وكشف الحقد عن أنیابه : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْکُمْ..﴾  
﴿.. وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرَ وَتَظَنُونَ بِاللهِ الظَّنُونَا﴾ :

أ - (﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾) أى : شخصت ، وقيل : مالت ، فلم تلتفت إلا إلى عدوها دھشًا من فرط الھول ، (﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرَ﴾) أى : زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الخناجر وهي الحالقيم ، واحدتها حنجرة ، فلو لا أن الحلق ضاقت عنها لخرجت ، قاله قنادة . وقيل : هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمamar

كاد ، قال :

إذا ما غضبنا غضبة مصرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

أى كادت تقطر ، ويقال : إن الرئة تتنفس عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلاً ؛ ولهذا يقال للجبان : انتفع سحره ، وقيل : إنه مثل مضروب من شدة الخوف ببلوغ القلوب الخناجر وإن لم تزل عن أماكنها معبقاء الحياة ، قال معناه عكرمه . روى حماد بن زيد ، عن أبوب ، عن عكرمه قال : بلغ فزعها ، والأظاهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته ، أى لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة .. )<sup>(١)</sup> .

ب - (أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿وَلَمْ يَأْتِهِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرُ﴾ قال : شخصت من مكانها ، فلو لا أنه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت )<sup>(٢)</sup> .

( وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن عكرمة في قوله ﴿وَلَمْ يَأْتِهِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرُ﴾ قال : فزعها . ولفظ ابن أبي شيبة قال : إن القلوب لو تحركت أو زالت خرجت نفسه ، ولكن إنما هو الفرع )<sup>(٣)</sup> .

وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن حاتم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يوم الحندق : يا رسول الله هل من شيء نقول ، فقد بلغت القلوب الخناجر ؟ قال : «نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا» قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح فهو مفهم الله بالريح )<sup>(٤)</sup> .

ج - ( قالوا : ونجم النفاق ، وفشل الناس ، وعظم البلاء ، واشتد الخوف ، وخيف على الذراوى والنساء وكأنوا كما قال الله تعالى : ﴿إِذْ جَاءَهُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِهِمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَمْ يَأْتِهِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرُ﴾ ورسول الله ﷺ وال المسلمين وجاه العدو ، لا يستطيعون الزوال عن مكانهم يعتقدون خندقهم ويحرسونه ...) )<sup>(٥)</sup>

د - تقول أم سلمة رضي الله عنها : ( قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف - المريض وخير ، وكنا في الحديبية ، وفي الفتح ، وفي حنين - لم يكن من ذلك شيء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الحندق ، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي / م / ٧ / ١٤٤ ، ١٤٥ . (٢) الدر المشور / ٦ / ٥٧٦ .

(٣) المعازى للواقدى / ٢ / ٤٥٩ .

(٤) الدر المشور / ٦ / ٥٧٣ .

الحرجة ، وأن قريطة لا تأمنها على الذراري ، والمدينة تحرس حتى الصباح ، يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفا حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال )<sup>(١)</sup>.

هـ - ويقول الصديق رضي الله عنه : ( لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بنى قريطة أشد من خوفنا من قريش وغطفان ، ولقد كنت أوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة ، فإذا رأيتهم هادين حمدت الله عز وجل ، فكان مما رد الله به قريطة عما أرادوا أن المدينة تحرس )<sup>(٢)</sup>.

و - ويقول حذيفة رضي الله عنه : ( لقد رأينا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقر . فقال رسول الله ﷺ : « ألا رجل يأتينى بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيمة ؟ » فسكننا ، فلم يجيء منا أحد . ثم قال : « ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيمة ؟ » فسكننا فلم يجيء منا أحد . ثم قال : « ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيمة ؟ » فسكننا فلم يجيء منا أحد . فقال : « قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم » فلم أجد بدأ حين دعاني باسمى أن أقوم . قال : « فاذهب فائتنا بخبر القوم ولا تذعرهم على »<sup>(٣)</sup> فلما وليت من عنده جعلت كائناً أمشى في حمام حتى أتيتهم ، فرأيت أبي سفيان يصلى ظهره بالنار ، فوضعت سهماً في كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولا تذعرهم على » ولو رميته لأصبهته ، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام ، فلما أتيته بخبر القوم وفرغت ، قررت<sup>(٤)</sup> ، فالبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كان يصلى بها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت ، فلما أصبحت قال : « قم يانومان »<sup>(٥)</sup> .

ومن هذه النصوص المتعددة يبدو لنا مدى الخوف الذي وصل بال المسلمين وبالمؤمنين ، والحديث عنهم ، وقد قرره القرآن في هذه الغزوة دون الغزوات الأخرى ، في أجل صورة حسية ومعنوية : « **وإذ زاغت الأ بصار وبلغت القلوب الحناجر** » .

(١) المغارى / ٤٦٧/٢ .

(٢) المصدر نفسه / ٤٦٠ .

(٣) لاتذعرهم على : لاتهيجهم على وفسرها الحديث الآخر : لا تحدث فيهم حدثاً حتى تأيني .

(٤) قررت : بردت .

(٥) مسلم / ج ٤ كتاب الجهاد والسير . / باب ٣٦ / ج ٩٩ / ص ١٤١٤ .

والبالغات البشرية أحياناً تنفي الحدود في الصف الإسلامي ، وتعتبره يتناقض مع الإيمان وهذا المد الشعورى الطاغى كثيراً ما يجعل الإحباط يسيطر على النفس البشرية ، ويبدأ التشكيك بالأخ ويسحب الحكم على الجماعة المسلمة وسقوطها نتيجة هذه الظاهرة ، ونتيجة ذلك الحكم المغالى فى الفهم ، والمجافى ل الواقع البشري ، ولقد شهدنا نموذجاً من هذا الشعور فى الجيل الثانى الذى تلقى عن جيل الصحابة ، فالذى كان يسأل حذيفة رضى الله عنه يقول له :

( يا أبا عبد الله ، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحابته ؟ قال : نعم يابن أخي ، قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . فقال : والله لو أدر كناه ماتر كناه يمشى على الأرض ، وحملناه على أعناقنا ) (١) .

فتخيل الأمور شيء ، ومعاينة الواقع شيء آخر ، والحديث عن الإسلام وبطولاته شيء ، . والتطبيق الحى العملى للإسلام شيء آخر .

وهذه القضية من أكبر القضايا التى عانت منها الجماعات المسلمة التى تسعى لإعادة التمكين فى الأرض ، إنها حين تتحدث عن البيئة الخبيثة ، والأحزاب المعادية ، والحكومات القائمة ، تتحدث من على وبنقاء وطهر ، وهى تقيم لوثات تلك الأحزاب الجاهلية ، وتصدر الأحكام المبرمة على الناس والأشخاص والأحداث ، وتلصق كل الانحرافات بالخصوم ، وتتصور أنها بمجرد أن يباح لها الحكم فسوف تعيد سيرة الشيختين أبي بكر وعمر ، وسوف يكون شبابها ورجالها في طهر الملائكة ، خالين من الهوى والأناية وحب الذات والاختلاف ، وستتحرر الأرض كلها بهم ، فليس فيهم إلا الشجاعة والنجدة والإيثار والتضحية والنبل والارتفاع فوق الذات ، والعدل للشخص والصديق ، إلى آخر تلك القيم التى يمثلها الإسلام .

وحين يعالج الأمر على ضوء الواقع ، نلاحظ أن هذه الحركات الإسلامية قد مرّ على بعضها ما ينوف عن نصف قرن ، ولم تتمكن في الأرض ، ولم تتحقق موعود الله فيها ، وحين يُسأل عن ذلك يكون الجواب جاهزاً وحاضراً في البديهة ، إنه العدو ، الاستعمار ، إسرائيل ، القوى الكبرى في الأرض ، وهم الذين يحولون دون تمكين الجماعة المسلمة وتحكيم شريعة الله في الأرض .

(١) السيرة النبوية لأبن هشام / ٢٣١ / ٢٤٠ .

هذا حق ، وسيقى أعداء الله في وجه هذه الدعوة إلى قيام الساعة .

ولكنه جزء من الحقيقة ، وليس الحقيقة كلها ، والجانب الآخر هو سلامه البناء الداخلى للجماعة ، وصححة الطريق الذى تسير إليه ، وارتفاع الجماعة إلى مستوى القوم الذين ذكرهم الله تعالى أنهم البديل : ﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم . . . ﴾ إلى آخر الآية .

وأحوج ما تحتاج إليه الحركة الإسلامية اليوم هو أن تنكفىء على ذاتها ، وتقييم مسيرتها وأنساقها ومستوى تربيتها وتفقه الخلل فيها ؛ لترتفع إلى المستوى المطلوب .

ولعل نجاح التجربة الأفغانية ، وعظمة المجاهدين الأفغان الذين هزموا أعظم قوة عاتية في الأرض ، دليل واضح على أن العدو مهمماً عتنا وتجبر فهو عاجز عن أن يهد الحركة المسلمة ، ويوقف المسيرة .

ونعود إلى نقطة الانطلاق ، فالحديث عن خيرة أهل الأرض ، وعن خير القرون فيها ، ويحدثنا القرآن عن مستوى هذه الحسنة فيقول في وصف صفة البشر :

﴿ . . . إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرُ . . . ﴾

ورأينا مصداق هذه الآية في الفقرات الآتية الذكر ، لتم التربية على ضوء ذلك .

( إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص وأعيان الذوات ؛ ليصور نماذج البشر ، وأنماط الطياع ويعفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الواقع ، ليصور القيم الثابتة والستن الباقية ، هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث ، ولا تقطع بذهاب الأشخاص ، ولا تقتضى بانقضاء الملابسات ، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل ولكل قبيل ، ويحمل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير )<sup>(1)</sup> .

﴿ . . . وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ . . . ﴾

والأرجح أن هذه الظنون خصت المنافقين في الصف الإسلامي ، والذين سيأتى الحديث التفصيلي عنهم فيما بعد ، كما هي الرواية عن مجاهد :

(1) في ظلال القرآن / ٥٠ / ٢٨٣٥ .

(أخرج ابن جرير ، والغريابي ، وابن المذذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : «**وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**» هم المنافقون يظنون بالله ظنوناً مختلفة ) <sup>(١)</sup>.

قال ابن جرير : ( ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سي فعل ذلك ) <sup>(٢)</sup> ، ( قوله : «**وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**» الظنون الكاذبة وذلك كظن من ظن منهم أن رسول الله ﷺ يغلب ، وأن ما وعده الله من النصر أن لا يكون ، ونحو ذلك من ظنونهم الكاذبة التي ظنها من ظن من كان مع رسول ﷺ في عسكره ) <sup>(٣)</sup> .

أما الرواية عن الحسن كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه : ( «**وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**» قال : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله ورسوله حق أنه سيظهر على الدين كله ) <sup>(٤)</sup> .

«**هَنالكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّ لَوْا زَلَّ الْأَشْدِيدَا**» .

ويحدثنا سيد قطب رحمة الله عن هذه الحالة فيقول : ( إنها صورة الهول الذي روع المدينة ، والكرب الذي شملها ، والذى لم ينج منه أحد من أهلها ، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب من أعلىها وأسفلها ، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول من قلب إلى قلب ، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب ، وظنها بالله وسلوكها بالشدة ، وتصوراتها للقيم والأسباب والتائج ، ومن ثم كان البتلاء كاملاً ، والامتحان دقيقاً وتمييزاً بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لاتردد فيه . وننظر اليوم فرى الموقف بكل سماته ، وكل انفعالاته ، وكل خلجانه ، وكل حركاته ، ماثلاً أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير .

نظر فرى الموقف من خارجه : «**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ**» .

ثم ننظر فرى أثر الموقف في النفوس : «**وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرُ**» . . وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق ، يرسمها بلامع الوجه وحركات القلوب . «**وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**» ولا يفصل في هذه الظنون . ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب في المشاعر والخلوال ، وذهابها كل مذهب ، واختلاف التصورات في شتى القلوب . ثم تزيد سمات الموقف بروزاً ، وتزيد خصائص الهول فيه

(١) الدر المنشور / ٦ / ٥٧٧ . (٢) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبرى / م / ١٠ / ٨٤ .

(٤) الدر المنشور / ٦ / ٧٧٥ ، وابن جرير / ١٠ / ٨٤ .

وضوحاً : ﴿هَنالكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّ لَوَا زَلَّ إِلَّا شَدِيدًا﴾ والهول الذي ينزلزل المؤمنين لا بد أن يكون هولاً مروعًا رعيباً ، قال محمد بن سلمة : كان ليانا بالخندق نهاراً ، وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً ، ويغدو خالد بن الوليد يوماً ، ويغدو عمرو بن العاص يوماً ، ويغدو هيبة بن أبي وهب يوماً ، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً ، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً ، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً<sup>(١)</sup> .

وسنف ياسهاب وتفصيل للحديث عن ابتلاءات المؤمنين في الخندق من خلال أحداث المعركة .

## ١- في قدم العدو :

فلما فصلت قريش من مكة إلى المدينة ، خرج ركب من خزاعة إلى النبي ﷺ فأخبروه بوصول قريش ، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً ، فذلك حين ندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم في أمرهم بالجذ والجهاد ، ووعدهم النصر إنهم صبروا واتقوا ، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله ، وشاورهم رسول الله ﷺ - وكان رسول الله يكثر مشاورتهم في الحرب - فقال : أنبِرْزْ لهم من المدينة ، أم نكون فيها ونخندقها علينا ، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل ؟ فاختلقو ، فقالت طائفة : نكون مما يلي بعاث إلى ثنية الوداع إلى الجرف . فقال قائل : ندع المدينة خلوة ، فقال سلمان : يارسول الله ، إنما إذا كنا بأرض فارس وتحوينا الخيل خندقا علينا ، فهل لك يارسول الله أن تخندق ؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين . وذكروا حين دعاهم النبي ﷺ أن يقيموا ولا يخرجوا . فكره المسلمون الخروج ، وأحبوا الثبات في المدينة<sup>(٢)</sup> .

## ٢- الجهاد في حفر الخندق :

أ - ( فحدثني أبو بكر بن أبي سيرة قال : حدثني أبو بكر بن عبد الله بن جهم أن رسول الله ﷺ ركب فرساً له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فارتاد موضعياً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعاً<sup>(٣)</sup> خلف ظهره ويخندق من

(١) في ظلال القرآن / م ٥ / ٢٨٣٧ .

(٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٤٤ .

(٣) سلع : الجبل المعروف الذى بسوق المدينة .

المزاد<sup>(١)</sup> إلى ذباب<sup>(٢)</sup> إلى راتج<sup>(٣)</sup> ، فعمل يومئذ في الخندق ، وندب الناس ، فخبرهم بدنو عدوهم وعسکرهم إلى سفع سلع ، وجعل المسلمين يعلمون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم ، وأخذ رسول الله ﷺ ي عمل معهم في الخندق لينشط المسلمين ، وعملوا ، واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحي<sup>(٤)</sup> وكرازين<sup>(٥)</sup> ومكاتل<sup>(٦)</sup> ، يحفرون به الخندق ، وهم يومئذ سلم للنبي ﷺ يكرهون قدوم قريش ، و وكل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونها ، فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذباب ، وكانت الأنصار تحفر من ذباب إلى جبل بنى عبيد ، وكان سائر المدينة مشبكأ بالبنيان.

فحدثني محمد بن يحيى بن سهل ، عن أبيه ، عن جده ، قال :

ب - كنت أنظر إلى المسلمين والشباب ينقلون التراب ، والخندق بسطة<sup>(٧)</sup> أو نحوها ، وكان المهاجرون والأنصار ينقلون على رعو سهم في المكاتل ، وكانوا إذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة يأتون بها من جبل سلع و كانوا يجعلون التراب مما يلى النبي ﷺ وأصحابه ، وكانوا يسطرون الحجارة مما يليهم كأنها حبال التمر ، وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم يرمونهم بها) <sup>(٨)</sup> .

ج - (فحدثني ابن أبي سيرة ، عن مروان بن أبي سعيد ، قال : كان رسول الله ﷺ يومئذ يحمل التراب في المكاتل ويطرحه ، والقوم يرتجزون ورسول الله ﷺ يقول :

« هذا الجمال لا جمال خبيث     هذا أبْر رِبَّنا وأَطْهَر »

وجعل المسلمين يومئذ إذا رأوا من الرجل فتوراً ضحكوا منه ، وتنافس الناس يومئذ في سلمان الفارسي ، فقال المهاجرون : سلمان منا ! وكان قوياً عارفاً بحفر الخنادق ، وقالت الأنصار :

(١) المزاد : اسم أطم لبني حرام من بنى سلمة غربى مسجد الفتح .

(٢) ذباب : أكمة في المدينة إذا خرجت منها كانت ذباب على يمينك وسلع على يسارك من ثيبة الوداع .

(٣) راتج : الجبل الذى إلى جنب جبل بنى عبيد غربى بطحان .

(٤) مساحي : جمع مساحة وهى المحرفة من الحديد .

(٥) كرازين : جمع كرزن وهو الفأس .

(٦) مكاتل : جمع مككل وهى الزبنيل الكبير وقيل إنه يسع خمسة عشر صاعاً .

(٧) بسطة : قامة الرجل .

(٨) المغارى للواقدى / ٢ / ٤٤٧ .

هو منا ونحن أحق به ! فبلغ رسول الله ﷺ قولهم فقال :  
« سلمان رجل من أهل البيت ». .

ولقد كان يومئذ يعمل عمل عشرة رجال حتى عانه<sup>(١)</sup> يومئذ قيس بن أبي صعصعة فلُبِطَ<sup>(٢)</sup> به ، فسألوا رسول الله ﷺ فقال : « مروه فليتوصل له ، وليتسل به ، ويكتفأ إليناء خلفه » ، ففعل فكأنما حلَّ من عقال .<sup>(٣)</sup>

وعن الفضيل بن بشر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : لقد كنت أرى سلمان يومئذ ، وقد جعلوا له خمسة أزرع طولاً وخمساً في الأرض ، فما تحييته حتى فرغ وحده وهو يقول :

« اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .<sup>(٤)</sup>

د - وعن أبي إسحاق قال : ( سمعت البراء يحدث قال : لما كان يوم الأحزاب ، وخدنق رسول الله ﷺ ، رأيه ينفل من تراب الخندق ، حتى وارى عيني الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينفل من التراب يقول :

ولاتصدقنا ولا صلينا	« اللهم لولا أنت ما اهتدينا
وثبت الأقدام إن لاقينا	فأنزلن سكينة علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا »	إن الأولى قد بغوا علينا

قال : ثم يمد صوته بآخرها )<sup>(٥)</sup> .

ه - ( عن أبي واقد الليثي قال : رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلامان وهو يحرفر الخندق ، فأجاز من أحجاز ، ورد من رد ، وكان الغلامان يعملون معه ، الذين لم يبلغوا ولم يجزهم ، ولكنه لما حلم الأمر ، أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع النرارى ، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، فلقد كنت أرى رسول الله ﷺ ، وإنه ليضرب مرة بالمulous ، ومرة يعرف بالمسحاة التراب ، ومرة يحمل التراب في المكشل ، ولقد رأيته يوماً بلغ<sup>(٦)</sup> منه ، فجلس رسول الله ﷺ ، ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به .

(١) عانه : أصابه بالعين ، والعين حق . (٢) لُبِطَ به : أي صُرِعَ وسقط إلى الأرض .

(٣) حلَّ من عقال : كأنما حلَّ وثاقه . (٤) المغازي للواقدي / ٢ / ٤٤٦ وما بعدها .

(٥) البخاري / كتاب ٦٤ / باب غزوة الخندق / ج ٥ / ١٤٠ .

(٦) بلغَ به : أي بلغ به التعب بملغاً عظيماً .

النوم ، فرأيت أبا بكر وعمر وافقين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه ، وأنا  
قربت منه ، ففزع ووشب ، فقال : ألا أفرعنونى ! فأخذ الكرزن يضرب به وإنه ليقول :

فاغفر للأنصار والهاجرة  
اللهم إن العيش عيش الآخرة  
اللهم العن عضلاً والقاراء  
فهم كلفوني نقل الحجارة »

فكان من أجاز رسول الله عليه السلام يومئذ ابن عمر ، وهو ابن خمس عشر سنة ، وزيد بن ثابت وهو ابن خمس عشرة ، والبراء بن عازب وهو ابن خمس عشرة )<sup>(١)</sup>.

و - ( وعن عبد الحميد جعفر ، عن أبيه قال : لما فرغ رسول الله عليه السلام من الحندق ،  
وكان حفره ستة أيام وحصنه ، ونزل رسول الله عليه السلام دبر سلع ، فجعله خلف ظهره ،  
والخندق أمامه ، وكان عسكره هنالك ، وضرب قبة من أدم ، وكانت القبة عند المسجد  
الأعلى الذي بأصل الجبل - جبل الأحزاب - وكان النبي عليه السلام يعقب بين نسائه ، فتكون  
عائشة أيامًا ، ثم تكون أم سلمة ، ثم تكون زينب بنت جحش ، فكان هؤلاء الثلاث  
اللاتي يعقب بينهن في الخندق ، وسائر نسائه في أطم بني حارثة ، ويقال : كُنَّ في المسير  
أطم بني زريق ، وكان حصنًا ، ويقال كان بعضهن في فارغ ، وكل ذلك قد  
سمعناد )<sup>(٢)</sup>.

### ٣- الجموع في حفر الخندق ، والمعجزات النبوية :

أ- عن أنس رضي الله عنه قال : ( جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول  
المدينة ، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون :

نحن الذين بايعوا محمداً      على الجهاد ما بقينا أبداً  
قال : يقول النبي عليه السلام : وهو يحييهم :

« اللهم إله لا خير إلا خير الآخرة      فبارك في الأنصار والهاجرة »

قال : يؤتون بملء كفى من الشعير ، فيصنع لهم بإهالة )<sup>(٣)</sup> سُنْحَة<sup>(٤)</sup> ، توضع بين يدي  
القوم ، وال القوم جياع ، وهي بشعة في الحلق ، ولها ريح منتن )<sup>(٥)</sup>.

(١) (٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٥٣ وما بعدها.

(٣) إهالة : الدهن الذي يؤتمد به ، سواءً كان زيتاً أو سمناً أو شحاماً.

(٤) سُنْحَة : تغير لونها وطعمها من قدمها.

(٥) البخارى / ٦٤ / باب غزو الخندق ٥ / ١٣٨.

ب - عن عبد الواحد بن أيمن ، عن أبيه ، قال : أتيت جابرًا رضي الله عنه فقال :

( إننا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدية <sup>(١)</sup> شديدة ، فجاء النبي ﷺ فقالوا : هذه كُدية عرضت في الخندق ، فقال : « أنا نازل » ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبسنا ثلاثة أيام لا نذوق ذوقاً ، فأخذ النبي ﷺ المعلول ، فضرب ، فعاد كثيماً أهيل <sup>(٢)</sup> أو أهيم . فقلت : يا رسول الله ، ائذن لي إلى البيت . فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ماكنا في ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ قالت : عندي شعر وعناق <sup>(٣)</sup> . فذبحت العناق ، وطحنت الشعير ، حتى جعلنا اللحم في البرمة ، ثم جشت النبي ﷺ ، والعجين قد انكسر ، والبرمة <sup>(٤)</sup> بين الأثافي <sup>(٥)</sup> قد كادت أن تنضح ، فقلت : طعيم لي . فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، قال : « كم هو ؟ » فذكرت له . قال : « كثير طيب » . قال : « قل لها : لاتنزع البرمة ، ولا الخبر من التنور حتى آتى » . فقال : « قوموا » ، فقام المهاجرون والأنصار ، فلما دخل على امرأته قال :

ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم .

قالت : هل سألك ؟ . قلت : نعم ، فقال : ادخلوا ولا تضاغطوا <sup>(٦)</sup> .

فجعل يكسر الخبر ، ويجعل عليه اللحم ، ويحرق البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبر ، ويعرف حتى شبعوا ، وبقي بقية ، قال : « كل هذا وأهدي ، فإن الناس أصابتهم مجاعة » <sup>(٧)</sup> .

وفي رواية أخرى عنه قال : ( لما حفر الخندق رأيت النبي ﷺ خمساً <sup>(٨)</sup> شديداً فانكشفت <sup>(٩)</sup> إلى امرأته ، فقلت : هل عندك شيء فإني رأيت برسول الله ﷺ خمساً شديداً فأخرجت إلى جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بهيمة داجن فذبحتها ، وطحنت الشعير ، ففرغت إلى فراغي ، وقطعتها في برمتها ، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت : لاتفضحني برسول الله ﷺ وبن عنده ، فجشت فساراته ، فقلت : يا رسول الله ، ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح النبي ﷺ :

(٢) كثيماً أهيل : صار رملاً يسيل ولا يتعاسك .

(١) كُدية : القطعة الشديدة الصلبة من الأرض .

(٤) البرمة : القدر .

(٣) عنق : الأنثى من المعز .

(٦) تضاغطوا : ترددموا .

(٥) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدر .

(٨) خمساً : جوعاً .

(٧) المصدر نفسه / ٥ ١٣٨ .

(٩) انكشفت : انقلبت .

« يا أهل الخندق ، إن جابرًا قد صنع سوراً <sup>(١)</sup> فحي <sup>(٢)</sup> هلا بكم » .

فقال رسول الله ﷺ : « لا تنزلن برمتكم ، ولا تخبرن عجينكم حتى أجبيء » فجئت ، وجاء رسول الله ﷺ يقدُّم الناس حتى جئت امرأتي . فقالت : بك وبك . فقلت : قد فعلت الذي قلت . فأخرجت له عجينًا فبصق فيه وبارك ، ثم عمد إلى برمتنا وبصق وبارك ثم قال : « أدع خابرة فلتخبر معي ، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها » ، وهم ألف . فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفو <sup>(٣)</sup> ، وإن برمتنا لتعطِّ <sup>(٤)</sup> كما هي ، وإن عجيننا ليخزى كما هو <sup>(٥)</sup> .

ج - ( وحدثني سعيد بن منياء ، أنه حدث أن ابنة لبشرير بن سعد قالت :

دعتني أمي عمرة بنت رواحة ، فأعطيتني حفنة من تمر في ثوبى ، ثم قالت : أى بنيه اذهبى إلى أبيك وحالك ، عبد الله بعذائهم ، فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا أنس أبى وخالي . فقال : « ما هذا معك ؟ » قلت : تمر بعشت به أمى إلى أبى وخالي ، قال : « هاتيه » ، فصبتته في كفى رسول الله ﷺ فما ملأتهما ، ثم أمر بشوب فبسط ، ثم دحا بالتمر عليه ، فتبعد فوق الشوب ، ثم قال لإنسان عنده : « اصرخ في أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء ، فاجتمعوا فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب <sup>(٦)</sup> .

د - ( عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء ؟ قالت : نعم . فأخرجت أقراصاً من شعير ، ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولا تنتي بيضه <sup>(٧)</sup> ، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ . قال : فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال لي رسول الله ﷺ : « أرسلك أبو طلحة ؟ » قلت : نعم ، قال : « بطعام » . قلت : نعم . فقال لمن معه : « قوموا » . فانطلقا ، وانطلقت بين أيديهم . حتى جئت أبا طلحة فأخبرته

(١) سورة : هو هنا الصنبع بالخشيشة ، وقيل : العرس بالفارسية .

(٢) حي هلا : هي كلمة استدعاء ، فيها حث ، أى هلموا مسرعين .

(٣) انحرفو : مالوا عن الطعام . (٤) لتعطِّ : تعلى وتغور .

(٥) البخارى / كتاب ٦٤ / باب غزوة الخندق ٥ / ١٣٩ .

(٦) المغازى للذهبي / ٢٨٦ وهو في السيرة / م ٢ / ٢١٨ .

(٧) لانتنى به : أى لفتنى ببعضه وهو الخمار .

قال أبو طلحة : أيام سليم ، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس ، وليس عندنا ما نطعمهم .  
 قالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ . فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه فقال رسول الله ﷺ : « هلمي يا أم سليم عُكّة » . فأتت بذلك الخبر فأمر به رسول الله ﷺ ففُتِّ ، وعصرت أم سليم عُكّة <sup>(١)</sup> فأدمنتها <sup>(٢)</sup> ، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقول ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً <sup>(٣)</sup> .

#### ٤ - جهاد العدو في غزوة الخندق :

أ - (عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعد ماغربت الشمس ، جعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله ، ماكدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، قال النبي ﷺ ، « والله ما ماصليتها » . فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان ، فتووضأ للصلاوة وتوضأ لها ، فصلى العصر بعد ماغربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب) <sup>(٤)</sup> .

ب - (عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال : قال عبد الله بن مسعود : إن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ماشاء الله ، ثم أمر بلاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء) <sup>(٥)</sup> .

(قال : وفي الباب عن أبي سعيد ، وجابر ، وعن النسائي عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فحبسنا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فاشتد ذلك على فقلت في نفسي : نحن مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله ، فأمر رسول الله ﷺ بلاً فأقام فصلى

(١) عُكّة : إماء من جلد مستدير يجعل فيه السمن غالباً والعسل .

(٢) أدمته : أي صبرت ماخراً من العكّة له إداماً .

(٣) البخاري / كتاب علامات النبوة ٦١ / ٤ / ٢٣٤ . وقد أوردته في الخندق رغم عدم إشارة النص لذلك ، أخذها برأى ابن حجر العسقلاني رحمة الله في فتح الباري ٦ / ٥٨٨ إذ يقول : (والمراد بالمسجد الموضع الذي أعدد النبي ﷺ للصلاة فيه حين محاصرة الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق) .

(٤) البخاري / كتاب ٦٤ / باب غزوة الأحزاب ٥ / ١٤١ .

(٥) الترمذى / باب ماجاء في الرجل تقوته الصلاة ٥ / ١٣٢ / ٣٣٧ .

بنا الظهر ، ثم أقام فصلٍ بنا العصر ، ثم أقام فصلٍ بنا المغرب ، ثم أقام فصلٍ بنا العشاء ، ثم طاف علينا فقال :

« ماعلى الأرض عصابة يذكرون الله غيركم » (١) .

ج - ( فحدثني ابن أبي سيرة ، عن الحارث بن فضيل ، قال : همَّتْ بنو قريطة أن يغروا على بيضة المدينة ليلةً ، فأرسلوا حبيبي بن خطيب إلى قريش أن يأتيهم منهم ألف رجل ، ومن غطfan ألف ، فيغروا بهم ، فجاء رسول الله ﷺ الخبر بذلك فعظم البلاد ، فكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم بن حرثيش الأشهلي في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثة يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير ، ومعهم خيل المسلمين ، فإذا أصبحوا أمنوا ، فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول :

لقد خفنا على الذراري في المدينة من بنى قريطة أشد من خوفنا من قريش وغطfan ، ولقد كنت أوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة ، فإذا رأيتم هادين حمدت الله عز وجل ، فكان مارداً الله به قريطة مما أراد وأن المدينة كانت تحرس ) (٢) .

د - ( وحدثني أبو بكر بن أبي سيرة ، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، قال : خرج نباش بن قيس ليلة من حصنه ب يريد المدينة ، ومعه عشرة من اليهود من أشدائهم وهم يقولون : عسى أن نصيب منهم غرة ، فانتهوا إلى بقيع الغرقد ، فيجدون نفرًا من المسلمين من أصحاب سلمة بن أسلم بن حرثيش ، فناهضوه فرأموهم ساعة بالتبلي ، ثم انكشف القرظيون مولين ، وبلغ سلمة بن أسلم وهم بناحية بني حارثة ، فأقبل في أصحابه حتى انتهوا إلى حصونهم ، فجعلوا يطيفون بحصونهم حتى خافت اليهود ، وأقدوا البيران على أطامهم وقالوا : البيات ! وهدموا قرنى (٣) بئر لهم وهو رواها (٤) عليهم ، فلم يقدروا يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفاً شديداً ) (٥) .

ه - ( وحدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر ، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، قالت أم سلمة : كنت مع رسول الله ﷺ في الخندق فلم أفارقه مقامه كله ، وكان يحرس بنفسه في الخندق ، وكنا في قر شديد ، فإني لأنظر إليه قام فصلٍ ماشاء الله أن يصلى في قبته ، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول : « يا عباد بن بشر ». فقال عباد :

(١) سنن النسائي / باب كيف يقضى الفائت الصلاة ١ / ٢٤٠ . (٢) المعازي للواقدي / ٢ / ٤٦٠ .

(٣) القرآن : منارات تبنيان على رأس البئر ، ويوضع فوقهما خشبة تعلق البكرة فيها .

(٤) المصدر السابق / ٢ / ٤٦٢ .

(٥) هوروها : هدموها .

لبيك . قال : «أمعك أحد؟» قال : نعم ، أنا في نفر من أصحابي كُنَّا حول قبتك . قال : «فانطلق في أصحابك فأطاف بالخندق . فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم يطمعون أن يصيروا منكم غرة . اللهم ادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم ، واغلبهم لا يغلبهم غيرك » . فخرج عباد بن بشر في أصحابه ، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق ، وقد نذر بهم المسلمون ، فرمواهم بالحجارة والنبل ، فوقفنا معهم فرميئاهم حتى أذلقناهم<sup>(١)</sup> بالرمى فانكشفوا راجعين إلى منزلهم ، ورجعت إلى رسول الله ﷺ فأجده يصلى فأخبرته .

قالت أم سلمة : فنام حتى سمعت غطيشه ، فما تحرك حتى سمعت بلاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر ، فخرج فصلى بال المسلمين ، فكانت تقول : يرحم الله عباد بن بشر ، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبة رسول الله يحرسها أبداً<sup>(٢)</sup> .

( فحدثني أبوبن النعمان ، عن أبيه ، قال : كان أسيد بن الحضير يحرس الخندق في أصحابه ، فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفره الخيل ، فإذا طليعة من المشركين مائة فارس أو نحوها عليهم عمرو بن العاص يريدون أن يغيروا إلى المسلمين ، فقام أسيد بن حضير عليها بأصحابه ، فرمواهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوا وولوا ، وكان في المسلمين تلك الليلة سلمان الفارسي ، فقال لأسيد : إن هذا مكان في الخندق تتقارب ونحن نخاف تطفره خيلهم - وكان الناس عجلوا في حفره - وبادروا فباتوا يوسعونه حتى صار كهيئة الخندق وأمنوا أن تطفره خيلهم ، وكان المسلمون يتندبون الحراسة ، وكانوا في قر شديد وجوع )<sup>(٣)</sup> .

و - ( فحدثني إبراهيم بن جعفر ، عن أبيه ، قال . قال محمد بن مسلمة : أقبل خالد ابن الوليد تلك الليلة في مائة فارس ، فأقبلوا من العقيق حتى وقفوا بالمزاد وجاه قبة النبي ﷺ ، فندرت بالقوم ، فقلت لعباد بن بشر - وكان على حرس قبة الرسى ﷺ وكان فائماً يصلي - قلت : أثبت ! فركع ثم سجد . وأقبل خالد في ثلاثة نفر هو رابعهم . فأسمعهم يقولون : هذه قبة محمد ، أرموا ، فرموا ، فناهضناهم حتى وقفنا على شفير الخندق ، وهم بشفير الخندق من الجانب الآخر فترامينا ، وثاب إلينا أصحابنا ، وثاب إليهم أصحابهم ، وكثرت الجراحة بيننا وبينهم ، ثم اتبعوا الخندق على حافيه وتبناهم ، والمسلمون على محارسهم ، فكلما نهر بحرس نهض معنا طائفة وثبت طائفة ، حتى انتهينا إلى راجح ،

---

(١) أذلقناهم : أضعناهم . (٢) المغازى للواقدي / ٤٦٣ / ٢ . (٣) المصدر نفسه / ٤٦٥ .

فوقوا وقفة طويلة ، وهم يتظرون قريظة ، يريدون أن يغيروا على بيضة المدينة ، فما شعرنا إلا بخيل سلمة بن أسلم بن حريش يحرس ، فيأتون من خلف راتج ، فلاقوا خالد بن الوليد فاقتلوه واختلطوا ، فما كان إلا حلب شاة حتى نظرت إلى خيل خالد مولية وتبعه سلمة بن أسلم حتى رده من حيث جاء ، فأصبح خالد وقربيش وغطفان تزري عليه وتقول : ما صنعت شيئاً فيمن في الخندق ولا فيمن أصحر<sup>(١)</sup> لك . فقال خالد : أنا أعد الليلة ، وابعوا خيلاً حتى أنظر أى شيء تصنع .

فحدثني ابن أبي سرة ، عن عبيد الواحد بن أبي عون ، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ .  
قالت : والله إنى لفی جوف الليل فی قبة النبی ﷺ وهو نائم إلی أَن سمعت الهیعة وقائل يقول : ياخيل الله – وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين : ياخيل الله – ففرغ رسول الله ﷺ بصوته ، فخرج من القبة ، فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها ، منهم عباد بن بشر . فقال : « مابال الناس؟ » قال عباد :

يا رسول الله ، هذا صوت عمر بن الخطاب ؛ الليلة نوبته ينادي : ياخيل الله ، والناس يشوبون إليه وهو من ناحية حسبكة مابين ذباب ومسجد الفتح . فقال رسول الله ﷺ لعباد بن بشر : « اذهب فانظر ، ثم ارجع إلی إن شاء الله فأخبرني ». قالت أم سلمة : قفمت على باب القبة أسمع كل ما يتكلمان به . قالت : فلم يزل رسول الله ﷺ قائماً حتى جاء عباد بن بشر فقال : يا رسول الله هذا عمرو بن عبد في خيل المشركين ، معه مسعود بن رفية في خيل غطfan ، وال المسلمين يرافقونهم بالليل والحجارة . قالت : فدخل رسول الله ﷺ فلبس درعه ومغفره ، وركب فرسه ، وخرج معه أصحابه حتى أتى تلك الشغرة ، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال : « حرفهم الله »<sup>(٢)</sup> وقد كثرت فيهم الجراحة . قالت : فنام حتى سمعت غطيشه ، وسمعت هائعة أخرى ففرغ فوثب فصاح : « يا عباد بن بشر » قال : ليبيك ! قال : « انظر ما هذا » ، فذهب ثم رجع فقال : هذا ضرار بن الخطاب في خيل من المشركين ، معه عبيدة بن حصن في خيل غطfan عند جبل بنى عبيد وال المسلمين يرافقونهم بالحجارة والليل ، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه ، وركب فرسه ، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الشغرة ، فلم يأتنا حتى كان السحر فرجع وهو يقول : « رجعوا مغلولين ، قد كثرت فيهم الجراحة » ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس<sup>(٣)</sup> .

(١) أصحر لك : يرز لك . (٢) حرفهم : صرفهم . (٣) المغارى للواقدى / ٤٦٥ / ٢ - ٤٦٧ .

## ٥ - محاولة فك الحصار :

( فلما اشتد على الناس البلاء ، بعث رسول الله ﷺ - كما حدثى عاصم بن عمرو ابن قتادة ومن لا أنهم ، عن محمد بن مسلم الزهرى - إلى عبيدة بن حصن ، إلى الحارت ابن عوف وهما قائداً غطfan ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعاً من معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا العزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا : يا رسول الله ، أمرأ تجبه فتصنعه أم شيء أمرك الله به ، لابد لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ؟ فقال : « بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما » فقال له سعد ابن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن و هؤلاء القوم على الشرك بالله و عبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرئ أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ! ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؛ قال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك ». فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا )<sup>(١)</sup> .

أما في رواية الواقدي فعنده عن محمد بن عبد الله ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، قال : حُصِّرَ رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة حتى خلص إلى كل أمرء منهم الكرب ، وقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أتشدك عهلك ووعدك ، اللهم إناك إن تشاء لا تعبد ». فيينا هم على ذلك من الحال أرسل رسول الله ﷺ إلى عبيدة بن حصن ، وإلى الحارت بن عوف قال : « أرأيت إن جعلت لكم ثلث ثمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب ؟ » قالا : تعطينا نصف ثمر المدينة ، فأبي رسول الله ﷺ أن يزيدهما عن الثلث ، فرضيا بذلك وجاء بعشرة من قومهما حين تقارب الأمر ، فجاءوا وقد أحضر رسول الله ﷺ أصحابه ، وأحضر الصحيفة والدواة ، وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة وهو يريد أن يكتب الصلح بينهم ، وعباد بن بشر قائم على رأس رسول الله ﷺ مقنع في الحديد ، فأقبل أسيد بن الحضير إلى رسول الله ﷺ ولا يدرى بما كان من الكلام ، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وجاء عبيده ماداً رجليه بين يدي رسول الله ﷺ وعلم ما يريدون فقال :

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢٤٣ / ٢م

ياعين الهجرس<sup>(١)</sup> اقبح رجليك ! أتهد رجليك بين يدي رسول الله ﷺ ؟ ومعه الرمح - والله لو لا رسول الله ﷺ لأنفدت خصيتك بالرمح ! ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، إن كان أمراً من السماء فامض له ، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف ... فقام عبيدة وهو يقول :

أما والله للتي تركم خير لكم من الخطة التي أخذتم ، وما لكم بالقوم من طاقة .

قال عباد بن بشر : ياعبيدة ، أبالسيف تخوفنا ؟ ستعلم أينما أجزع ...

قال النبي ﷺ : « ارجعوا ، بيتنا السيف » ! رافعاً صوته .

فرجع عبيدة والحارث وهم يقولان : والله ما أرى أن ندرك منهم شيئاً ، ولقد انهجت القوم بصائرهم ، والله ما حضرت إلا كرهاً قوم غلبونى ، وما مقامنا بشيء ، مع أن قريشاً إن علمت بما عرضنا على محمد عرفت أنا خذلناها ولم ننصرها .

قال عبيدة : هو والله ذلك :

قال الحارث : أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد ، والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكون الأمر فيها دون سائر العرب ، مع أى أمر محمد أمراً ظاهراً ، والله لقد كان أحبار يهود خيراً ، وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كتابهم أنه يبعثنبي من الحرم على صفتة .

قال عبيدة : إنا والله ما جتنا نصر قريشاً ، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا ، ولا خرجت معنا من حرمها ، ولكنني كنت أطمع أن نأخذ ثغر المدينة فيكون لنا به ذكر ، مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة ، مع إتنا ننصر حلفاءنا من اليهود ، فهم جلبونا إلى هاهنا ، قال الحارث : قد والله أبى الأوس والخزرج إلا السيف والله لنقاتلن عن هذا السعف ، مابقى منها رجل مقيم ، وقد أجدب الجناب ، وهلك الخف والكراع .

قال عبيدة : لا شيء .

فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا : ماوراءكم ؟ قالوا : لم يتم الأمر ؛ رأينا قوماً على بصيرة وبذل أنفسهم دون أصحابهم ، وقد هلكنا وهلكت قريش ، وقريش تنصرف ولا تكلم محمداً ! وإنما يقع حر محمد بيني قريظة ، إذا ولينا جثيم عليهم فحصرهم جمعاً حتى يعطوا ما بأيديهم . قال الحارث : بعداً وسحقاً ! محمد أحب إلينا من اليهود<sup>(٢)</sup> .

(١) عين الهجرس : ولد العسلب ، والهجرس أيضاً القرد .

(٢) المعاذى للواقدى / ٤٧٧ / ٢ وما بعدها .

وستنفف بعض الوقفات أمام هذا الابتلاء الذي نزل بالمؤمنين وزلزلهم زلزالاً شديداً.

١ - لأول مرة يحضر سلمان الفارسي رضي الله عنه معركة مع المسلمين ، وسلمان طراز خاص وطاقات جديدة أضيفت إلى الطاقات الإسلامية ، وخبرات عالمية ، فهو ابن دهقان فارس ، وهو الذي عاش في بلاط الحضارة الفارسية ، وهو الذي تنقل في أقصى المعمور يبحث عن النور ، وكان أن أضاف أول خبراته في حفر الخندق من الناحية النظرية ، وساهم في التنفيذ العملي ، وكان له دور بارز واضح في الحفر نفسه ، حتى ليتسابق عليه الأنصار والماهاجرون يعتبرونه منهم ، لما أبرز من قوة عضلية ، وخبرة عملية في الحفر ، فيحسم الأمر رسول الله ﷺ بقوله : « سلمان منا أهل البيت » .

ولا ننفي الأثر النفسي الذي عاش فيه المسلمون بعد أحد ، ولا يزالون يعيشون في أجواءه . ومن أجل هذا كانوا مهيبين لأية فكرة تدعوه إلى الإقامة في المدينة . بعدهما ذاقوا مرارة الخروج منها في أحد ، ومرارة الخروج على رأي رسول الله ﷺ ، فكان الدرس العملي أبلغ بكثير من التحذير النظري ، ورغم متابعته حفر الخندق ومشاقها ، فكانوا على استعداد للاستجابة إلى هذا الأمر ، وخاصة أنه عليه الصلاة والسلام حدد الواقع ووزع العمل واستعدت المدينة لأمر ماسبق لها في حياتها مثل له .

٢ - وقد بذلوا جهوداً فائقة ولا شك في حفر الخندق ، وبرزت النفسيات واضحة جلية خلال ذلك وارتبط هذا الأمر ارتباطاً وثيقاً بالإيمان .

ولكن القائد الذي يحرص على نجاح خطته هو القائد الفذ الذي يعيش فرداً من أمته ، ويتعجب ويكتد معها ولا يستعلى عليها ، وسيد القادة في الأرض عليه الصلاة والسلام ، لا يرضى وأحد من أمته في النار .

إن مازاه اليوم من القيادات يمثل هذه المناسبات هو أن تترشّف بوضع حجر الأساس لأى مشروع ، ثم يبقى الجهد والكد والمشقة على الجمهرة الكادحة من الأمة ، ومع ذلك ترضى الأمة هذا الواقع . إن المسلمين في الخندق هم في غنى عن جهد رسول الله ﷺ وتعبه ، وإذا كان المقياس والميزان هو الحب ، فلم تعرف البشرية حباً مثل حب رسول الله ﷺ . وال المسلمين الذين يقدمون دماءهم رخيصة فدى لقائهم ورسولهم محمد عليه الصلاة والسلام ليسوا بعاجزين أن يقدموا جدهم وتعبه ، ويوفروا خدمة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام ، بل هم على استعداد أن يفنوا عن آخرهم ولا يمسّ محمداً عليه الصلاة والسلام شوكة تؤذيه في رجله ، وقد فعلوا ذلك وما بخلوا به .

ولكن هل رضى رسول الله ﷺ بهذا الواقع دون أن يشارك صحبه وجيشه تعبه وجهده ؟ ؟ أبداً ، لقد حمل بالمكتل ، وغضى الغبار جلدة بطنه وحفر بالفأس ، ونقل الصخر ، وكان الملاجأ لصحابه عند العجز ، وبهذه الروح النبوية ، وبهذه التربية العملية ، استطاع عليه الصلاة والسلام أن يحفر الخندق في هذه المدة الوجيزة الوجيز ، وينتهي منه قبل وصول العدو .

وبرزت النقوس عارية كذلك في هذه التجربة وقد تجلت هذه الصورة أوضاع ما يكون في سورة النور ، بأجلٍ بيان حيث يقول عز وجل :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهِبُوْا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا اسْتَأْذَنُوكُمْ لَعْبَضَ شَأْنِهِمْ فَأَذِنُ لَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَادِيَّ فَلَيَحْذِرُ الَّذِينَ يَخْالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فَتْتَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فَيُبَيِّنُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(١)</sup> .

يقول الإمام السيوطي : (أخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر ، والبيهقي في الدلائل ، عن عروة ومحمد بن كعب القرظي ، قالا : لما أقبلت قريش عام الأحزاب ، نزلوا بمجمع الأسياح من بصر رومة بالمدينة ، قائدتها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بعمرين إلى جانب أحد ، وجاء رسول الله ﷺ الخبر وضرب الخندق حول المدينة ، وعمل فيه ، وعمل المسلمون فيه ، وأبطأ رجال من المنافقين . وجعلوا يورون بالضعف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابتة النائبة من الحاجة التي لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، ويستأذنه في اللحوق حاجته ، فإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل الله في أولئك المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .

لقد ارتبط الإيمان هنا بالإذن ، فالذين يستأذنون هم الذين يؤمنون بالله ورسوله

(١) النور / ٦٤ - ٦٥ .

(٢) الدر المنثور / ٦ / ٢٢٩ .

وجاءت حسراً في بداية الآية : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرِ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ .

فعدل الإيمان بالله ورسوله طاعة رسول الله ﷺ واستئذانه .

وهو عليه الصلاة والسلام يأذن لمن يشاء منهم .

أما الذين يخالفون ، ويسللون لواذاً ، فليحذروا أن تصيبهم فتنة فيتكسوا مع المنافقين ، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة لعصيتم لله ورسوله .

(أخرج عبد الرزاق في المصنف عن يحيى بن أبي كثير قال : نهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يقاتلو ناحيته من خير ، فانصرف الرجال عنهم وبقي رجل فقاتلهم فرموه ، فقتلوه ، فجبيه به إلى النبي ﷺ فقال : « أبعد مانهينا عن القتال ؟ » قالوا : نعم . فتركه فلم يصل عليه )<sup>(١)</sup> .

(وأخرج عبد الرزاق ، عن مجاهد قال : أشد حديث سمعناه عن النبي ﷺ قوله في سعد بن معاذ في أمر القبر ، ولما كانت غزوة تبوك قال : « لا يخرج معنا إلا رجل مقر » فخرج رجل على بكر له صعب ، فصرعه فمات فقال الناس : الشهيد الشهيد ، فأمر النبي ﷺ بلاً أن ينادي في الناس « لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يدخل الجنة عاص »<sup>(٢)</sup> .

(وأخرج عبد الرزاق عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ذات يوم وهو مستقبل العدو : لا يقاتل أحد منكم ، فعمد رجل منهم ورمى العدو وقاتلهم ، فقتلوه ، فقيل للنبي ﷺ : استشهد فلان . فقال : « أبعد مانهيت عن القتال ؟ » قالوا : نعم . قال : « لا يدخل الجنة عاص »<sup>(٣)</sup> .

(وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك في قوله : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . قال : كان لا يستأذنه إذا غزا إلا المنافقون ، فكان لا يحل لأحد أن يستأذن رسول الله ﷺ أو يتخلف بعده إذا غزا ، ولا تطلق سربة إلا بإذنه ، ولم يجعل الله للنبي ﷺ أن يأذن لأحد حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرِ جَامِعٍ ﴾ يقول : أمر طاعة ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ فجعل الإذن إليه ، يأذن لمن يشاء ، فكان إذا جمع رسول الله ﷺ الناس لأمر يأمرهم وينهاهم صبر المؤمنون

(١) ٢٠، ٣ الدر المنشور / ٦٢٣ .

في مجالسهم ، وأحبوا ما أحدث لهم رسول الله ﷺ بما يوحى إليه ، وبما أحبوا وكرهوا فإذا كان شيء مما يكره المنافقون خرجوا يتسللون يلوذ الرجل بالرجل يستتر لكي لا يراه النبي ﷺ . فقال الله تعالى : إن الله يصر الذين يتسللون منكم لواذا . . . )<sup>(١)</sup>

وحتى يتجسد معنى هذه الآيات واقعياً اليوم ، وندرك مدى الالتزام بالمنهج القرآني والنبوى بالتربية ، وأثر الالتزام بهذا المنهج ، وأثر العدول عنه ، نجدنا مساقين لاستعراض تجربة جهادية أخفقت في عصرنا الحاضر . وبهذا الاستعراض تتجلّى معانٍ لهذه الآيات أكثر فأكثر والتي أدى تتبّعها إلى الفتنة والعقاب الأليم .

أ – ابتدأت هذه التجربة بحماس الشباب واندفاعه ضد طاغوت كافر لاشك في كفره وحربه لدين الله ، وكان هذا الشباب يملك العاطفة الصادقة ، والاستعداد للتضحية ، لكنه لا يملك العلم الشرعي الكافي يحدد من خلاله الحلال والحرام ، وكانت هذه المخالفة الأولى للمنهج ، فالذى يتصدى لقيادة الإسلام ويتصدر لها لا بد أن يكون عملاً مجتهداً كما نص الفقهاء على ذلك في أول شرط من شروط الأمير أو الخليفة ، ويمكن أن يشفع له هذا الجانب إن كان علیماً بالحرب بأن يؤول إلى عالم مجتهد .

ب – وكانت المخالفة الثانية للمنهج أن اجتمعوا على قيادة لا على قائد ، وعلى إمارة لا على أمير ، وكانت هذه القيادة متاحة في الظاهر مفككة في الباطن ، وكانت موزعة الأهواء مشتتة القناعات ، وهذه هي المخالفة الثانية للمنهج ، فالفهم الإسلامي لقيادة أن تنأى بأمير يكون له السمع والطاعة ، لا أن يكون الأمير واحداً من عشرة ، يعادل صوته صوتهم ، وتكون الأغلبية والأكثرية هي الميزان لا طاعة الأمير التي قال فيها رسول الله ﷺ :

« من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعصى الأمير فقد عصانى »<sup>(٢)</sup> .

وقد أدت هذه المخالفة إلى تعطيل كل قرار يمكن أن يدفع مواجهة هذا الطاغوت إلى الخطب الشرعي المطلوب ، والمحضن الجهادي الأصيل .

ج – وكانت هذه القيادة بعيدة عن ساحة المعركة ، توجه أوامرها من خارج موقع المعركة ، فهي قيادة عاجزة نظرياً عن التخطيط المحكم والدقيق للمواجهة ، وهي عاجزة عملياً عن التنفيذ الذي تريد طالما

(١) الدر المثور / ٦ / ٢٣٣ . (٢) رواه السنّة إلا ثرمي وأبو داود .

برأيها ، لكنها مضطرة لإعلان الطاعة ؛ لتصل إلى حاجاتها من المال والعتاد والسلاح ، وهذه هي المخالفة الثالثة للمنهج ، بتنوع القيادات واختلاف التوجه ؛ لأن الإسلام لا يقر إلا أميراً واحداً به عن إمارة ، بله عن إمارتين متبازنتين كما يقول عز وجل :

﴿وَلَا تَنَازِعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> .

د - وكان إعلان الحرب والمواجهة ضد الطاغوت ، لم تعد له العدة الكافية التي تكافئ هذا الإعلان ، وسارت الحرب على مستوى العمليات ضد موقعه وأذلاته ، من دون أن تملك أرضاً محررة تسيطر عليها ، واستطاع الطاغوت أن يجهض كثيراً من العمليات ، ويقتل كثيراً من المجاهدين المرابطين في مواقعهم ويكشف كثيراً من الخيوط التي تدل على قوادهم ، ويذرع بذلك ليفتك بالآمنين ولكل من يساعدهم معنوياً أو مادياً ، فيقطع عنهم المعونة والمدد ، وكانت هذه المخالفة الرابعة للمنهج الإسلامي التي في المواجهة والتي تقوم على الإعداد الكافي لها :

﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عُدُوَّ اللَّهِ وَعُدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِي إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

ه - وأصبح القتل بالظنة ، وكانت هذه المخالفة الخامسة للمنهج ، وذلك يدل أن توجيه العمليات إلى قتل قيادات الطاغوت التي تتولى كبر هذا الكفر ، والتي لا يتطرق الشك إلى أحد بکفرها ومحادتها للله ورسوله ، واستهان المجاهدون بذلك - على اجتهد خاطئ مسهم - وانحرف المسار كله عن الهدف الرئيسي ، وأصبحت كلمة التوحيد لاتكفى لتعصم الدم والمال : « فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى »<sup>(٣)</sup> .

وغاب عنهم ذلك الأمر القاطع الحاسم الذي ينهى عن قتل المؤمنين حسب الظاهر ، والله أعلم بالسرائر ، حتى وصل الأمر إلى قتل بعض العلماء أو التخطيط لقتلهم ؛ لأنهم يحاربون السلطان الطاغي أو يسكنون عليه ، عدا عن الأفراد العاديين الذين ينفذون أوامر الحاكم لكسب قوتهم .

و - ولم يعد الأمر خالصاً لله ، فقد خالطته نوازع النفس ، والأثرة وحب الذات والشهرة ، وهذا يحول دون النصر ، وكانت هذه المخالفة السادسة للمنهج :

(١) الأنفال / ٤٦ . (٢) الأعمال / ٦٠ . (٣) متفق عليه .

﴿ حتى إذا فشلتكم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أرراكم ماتخبون منكم من ي يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾<sup>(١)</sup>

ما حدا ببعض الخارجين على القيادة - خارج ساحة المعركة - أن يبلغ معلومات خاطئة ، وتعليمات كاذبة ، ويقنع المجاهدين في ساحة المعركة بالمواجهة السافرة المباشرة مع العدو ، واستتبع الكذب الصراح الحرام باسم مصلحة الدعوة ومصلحة الإسلام .

ز - وقد عنصر السمع والطاعة للقيادة - على الخلل الذي فيها - فوافت المواجهة السافرة المباشرة مع العدو ، الذي استغل هذا الإعلان ليسفر عن وجهه الحاقد الكالح الجرم ، فيذبح الآمنين ، ويقتل الرجال والنساء والأطفال ، ويدك المدينة المسلمة بالطائرات وقاذفات الصواريخ ويهد الناس أحياء أو بجرأحتهم قبل وفاتهم . ويتحقق فيه قول الله عز وجل :

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد أخصام . وإذا تولى سعي في الأرض ليفسد فيها وبهلك الحرج والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له أتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وليس المهد ﴾<sup>(٢)</sup>

بينما انطلق المجاهدون يدفعون عن أنفسهم ، ويذلون أرواحهم في سبيل الله ، يتمثل بهم قول الله عز وجل :

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ﴾<sup>(٣)</sup>

لكن هذا لم يعف قيادة هؤلاء المجاهدين من المخالفه والمعصية ، ومترب على ذلك من نتائج حالت دون التمكين في الأرض ، وكانت هذه هي المخالفه السابعة للمنهج ، إذ لم تأتهم أوامر بالإذن بالمواجهة من القيادة التي بايعوها على السمع والطاعة ، بينما استجابوا الأخ خارج عن هذه القيادة .

ح - وأقدمت قيادة الحركة على التوقيع على حلف مع خصومها الفكررين من قبل لمحاربة هذا الطاغوت ، ودفعهم إلى الوقوف معها ضده ، وإن كان بيان هذا التوقيع يحمل الإقرار بدين الدولة الإسلام ، وبالشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع ، لكنه يعيد القبول بذلك ؛ لا لأنه متزل من عند الله ، بل لأنه تراث هذه الأمة الأصيل ، وكانت هذه المخالفه الثامنة للمنهج .

(١) آل عمران / ١٥٢ . (٢) البقرة / ٤٠٤ - ٢٠٦ . (٣) البقرة / ٢٠٧ .

ومع ضعف هذا الإعلان ، فقد سار هذا التحالف في كل بياناته فيما بعد بعيداً عن المنطلق الإسلامي ، وأصبح المنطلق الوطني والقومي هو الذي يحكم هذه البيانات جمياً ، والتحرّكات جميعاً ، وبذلك اختلفت الرأيـة المعلنة من رأيـة إسلامية إلى رأيـة وطنية ، وهذا انحراف خطير جداً يصل إلى القتال تحت رأيـة عميـة جاهـلـية .

« من قتل تحت رأيـة عميـة ، ينصر العصبيـة ، ويغضـب للعصبيـة فقتلـته جاهـلـية »<sup>(١)</sup> .

ط - وساد واقع هذه الحركة - دون إعلان - سيطرة النوازع الإقليمية بين بلد وبلد ، وغدت التجمعـات والتـحزـبات فيها تـخـوـها العصـبيـة لمـديـنة أو جـزـءـ منـ المـديـنة ، وتـوزـعت المـسـؤـليـات فيها حـسـبـ موقعـ بعضـ هـذـهـ الـقيـادـات ؛ لتـزـعـعـ الثـقـةـ الكـامـلـةـ بـينـ قـوـاعـدـ هـذـهـ الـجـمـاعـةـ وـقـيـادـاتـها ، وـيفـقـدـ العـدـلـ الـذـيـ قـامـتـ الجـمـاعـةـ لـتـحـقـيقـهـ فـىـ الـأـرـضـ دـاخـلـ صـفـهاـ نـفـسـهـ ، وـكـانـتـ هـذـهـ الـخـالـفـةـ التـاسـعـةـ لـلـمـنـهـجـ .

« إنـماـ أـهـلـكـ الـذـينـ قـبـلـكـ كـانـواـ إـذـاـ سـرـقـ فـيـهـمـ الـضـعـيفـ قـطـعـوهـ ، وـإـذـاـ سـرـقـ فـيـهـمـ الشـرـيفـ تـرـكـوهـ »<sup>(٢)</sup> .

ـ يـ وـبـلـغـ التـمـزـقـ وـالتـناـحرـ فـيـ دـاخـلـ صـفـ هـذـهـ الـحـرـكـةـ أـنـ وـصـلـتـ لـتـسـعـيـنـ بـحـلـفـائـهـ عـلـىـ أـبـنـائـهـ ، وـتـطـرـحـ أـمـامـهـ أـسـرـارـهـ ، وـيـتـسـابـقـ بـعـضـ قـيـادـاتـهـ فـيـ الـهـجـومـ عـلـىـ بـعـضـهـمـ لـكـسـبـ مـوـالـةـ الـحـلـفـاءـ لـفـرـيقـ عـلـىـ فـرـيقـ ، حـتـىـ لـيـسـجـنـ بـعـضـ أـبـنـائـهـ ، وـيـطـرـدـ الـبـعـضـ الـآـخـرـ ، بـسـعـيـ بـعـضـ قـيـادـاتـهـ لـدـىـ السـلـطـةـ الـخـلـيفـةـ وـبـأـمـرـ وـتـوـجـيهـ مـنـهـ ، حـتـىـ اـنـتـهـيـ الـأـمـرـ بـهـاـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ الـانـقـسـامـ وـالـتـشـرـذـمـ ، وـتـعـجزـ عـنـ إـصـلاحـ صـفـهاـ بـطـرـدـ الـمـفـسـدـيـنـ مـنـهـ ، وـكـانـتـ هـذـهـ الـخـالـفـةـ الـعاـشرـةـ لـلـمـنـهـجـ الـذـيـ يـقـولـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـهـ :

﴿ يـأـيـهـاـ الـذـينـ آـمـنـواـ لـاـ تـخـذـلـوـاـ الـذـينـ اـتـخـذـوـاـ دـيـنـكـمـ هـزـواـ وـلـعـباـ مـنـ الـذـينـ أـوـتـواـ الـكـتـابـ مـنـ قـبـلـكـ وـالـكـفـارـ أـوـلـيـاءـ وـاتـقـواـ اللـهـ إـنـ كـنـتـمـ مـؤـمـنـينـ . وـإـذـاـ نـادـيـتـمـ إـلـىـ الـصـلاـةـ اـتـخـذـوـهـاـ هـزـواـ وـلـعـباـ ذـلـكـ بـأـنـهـمـ قـوـمـ لـاـ يـعـقـلـونـ ﴾<sup>(٣)</sup> .

هـذـهـ الـخـالـفـةـ الـعـشـرـ الضـخـمـةـ ، وـغـيرـهـ ، قدـ حـاـولـتـ دـونـ التـمـكـينـ وـالـنـصـرـ لـهـذـهـ الـحـرـكـةـ وـالـتـىـ كـانـتـ مـحـطـ آـمـالـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ الـأـرـضـ . وـمـعـ ذـلـكـ لـابـدـ مـنـ الإـشـارـةـ إـلـىـ الـمـلـاحـظـاتـ التـالـيـةـ :

أـ لـيـسـ هـذـهـ الـعـرـضـ تـقـيـيـمـاـ شـامـلـاـ لـهـذـهـ الـحـرـكـةـ الـجـهـادـيـةـ ، إـنـماـ هـوـ حـدـيـثـ مـحـصـورـ

(١) روـاهـ مـسـلـمـ وـالـنسـائـيـ . (٢) مـتـقـعـ عـلـيـهـ . (٣) المـائـدـةـ / ٥٧، ٥٨ .

بالمخالفات التي وقعت خارجة عن المنهج الإسلامي ، ومخالفة واحدة منها في الإسلام تحول دون تحقيق النصر على العدو ، فكيف إذا وجدت جميعها داخل هذا الصف المجاهد ؟

أما التقييم الشامل لإيجابيات هذه الحركة وسلبياتها ، لتكون درساً بين يدي العاملين والمجاهدين في سبيل الله ، فمكانه غير هذا المكان ، وهذه أمانة في عنق أبناء هذه الحركة ، ليفسخ العاملون الخلصون في الأرض الإسلامية منها ، ومن خبراتها وطاقاتها ، ويتجنبوا أخطاءها وزلاتها .

ب - إن وجود هذه المخالفات لا يعني أنها سمة عامة لدى جميع أفرادها وقياداتها ، بل يوجد فيها نماذج عالية من الفقهاء والعلماء والخلصين ، وفيها قطاع ضخم من الجنود العاملين المجاهدين الذين قدموا حياتهم ويقدمونها رخيصة في سبيل الله .

ج - إن الحرب الشرسة من أعداء الإسلام في الأرض ، والتي تحول دون إمكانية التربية والتوجيه الكافيين ، وتلاحق العاملين للإسلام في وطنهم ورزرقهم ، وتود أن تفتنهم عن دينهم ، وتلاحقهم في كل صفع للقضاء عليهم - هذه الحرب لها دور كبير في الخيلولة دون تحقيق أهداف الجماعة المسلمة .

د - إن وجود الخطأ أو الانحراف في التجربة لا يلغى التجربة كاملة ، وقد حفل التاريخ الإسلامي بتجارب كثيرة قامت للهدف نفسه - تمكين الإسلام في الأرض - وأخفقت هذه التجارب ، وبقيت رصيداً للأمة المسلمة تدرسها بعناية ، فتفخر بشهدائها وطاقاتها العالية ، والنماذج التطبيقية للإسلام فيها ، وتجنب عثراتها ، وتبرأ من انحرافاتها التي تمثل أشخاصها الذين زالوا عن المنهج ، ولا تزال المنهج نفسه .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ابلاء المؤمنين في الخندق :

٣ - هذا الجهد الذي بذله المسلمون في الخندق لم يكونوا يألفو نه من قبل ، ورفاق ذلك جوع شديد ، فالمسلمون يربطون على بطونهم الحجارة من الجوع ، وهم العصابة المؤمنة في الأرض ، أترك سدى نهبة للجهاد والمحصار والجوع ؟

﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتם وكان الله شاكراً عليما ﴾<sup>(١)</sup> .

فكانت تلك المعجزات الربانية في إطعامهم وإسقائهم من زاد لا يكفي إلا القليل ، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، وثقة بربهم عز وجل ، وتبذر من خلال تلك الأحداث نفسية

(١) النساء / ١٤٧

المرأة المسلمة التي تعيش في قلب المعركة ، فهذا جابر الشاب الذي سمعنا قصة زواجه بالمرأة الثيب الجامدة لترعى أخواته الست ، تحرص على أن ينالها شرف استضافة رسول الله عليه صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ ، وعندما يبلغها الخبر بهذا الجمع الهائل القادم عليها .

قالت جابر : هل سألك ؟ قال : نعم .

وانتهى الأمر بهذا السؤال أمام جيش من الضيوف على عنق وقليل من حيز الشعير .  
وفي رواية : قلت : والله إنها الفضيحة ! فأتيت المرأة فأخبرتها . فقالت : أنت دعوتهن أو هو دعاهم ؟ قلت : بل هو دعاهم : قالت : دعهم هو أعلم .  
ويقول ابن حجر رحمة الله وهو يعدد هذه الروايات :

وفي هذا السياق اختصار وبيانه في رواية يونس ، قال : فلقيت من الحباء ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وقلت : جاء الخلق على صاع من شعير وعنق ، فدخلت على امرأة أقول : افتضحت ، جاءك رسول الله عليه صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ بالخندق أجمعين ، فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ قلت : نعم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، ونحن قد أخبرناه بما عندنا ، فكشفت عنى غمًا شديداً . وفي الرواية التي تلى هذه : فجئت امرأة فقالت : بك وبك ، قلت : قد فعلت الذي قلت . وكان قد ذكر في أولها أنها قالت له : لا تفضحني برسول الله وبن معه فجئت وساررته . ويجمع بينهما بأنها أوصته أولاً بأن يعلمه بالصورة ، فلما قال لها إنه جاء بالجميع ظنت أنه لم يعلمه فخاصمته ، فلما أعلمهما أنه أعلم سكن ماعندها لعلمهما بإمكان حرق العادة ، ودل ذلك على وفور عقلها وكمال فضلها . وقد وقع لها مع جابر في قصة التمر : أن جابرًا أو صاحبها لما زارهم رسول الله عليه صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ أن لا تكلمه ، فلما أراد رسول الله عليه صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ الانصراف ناديه يارسول الله ، صل علىه وعلى زوجي ، فقال : « صلي الله عليك وعلى زوجك » ، فاعتبرها جابر ، فقالت له : أكنت تظن أن الله يورد رسوله بيته ثم يخرج ولا أسأله الدعاء ! . آخر جه أحمد بإسناد حسن في حديث طويل ، ووقع في رواية أبي الزبير عن جابر في نحو هذه القصة أنها قالت لجابر : فارجع فين له ، فأتيته فقالت : يا رسول الله ، إنما هي عنق وصاع من شعير قال : فارجع فلا تخر كن شيئاً من التنور ولا القدر حتى آتيها واستعر صحاها . <sup>(١)</sup>

ورسول الله عليه صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ هو الذي يطعم الناس ويخدمهم بيديه ، إنها بركته عليه الصلاة والسلام ، وبصاقه الشريف هو الذي كان السبب في هذا النماء والبركة .

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري / ٦ / ٣٩٨ .

إننا حين نتحدث عن المائدة التي أنزلها الله تعالى من السماء ، استجابة لدعوة عيسى عليه الصلاة والسلام . وأكل منها الحواريون ، وعلى صدق نبيهم – لتذهبنا هذه المعجزة ، أو ليست هذه مائدة من السماء لحوالي ألف من الحواريين ، استضافهم ربهم عز وجل بيد نبيه عليه السلام ؟ !

لقد بقى الطعام كما هو ( وهم ألف ، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى ترکوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتعطض كما هي ، وإن عجينا ليخبز ) .

وفي رواية ثمر عمرة بنت رواحة رضي الله عنها ( . . حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب ) .

٤ - كان لابد لهذا الطعام حتى يتمكن المسلمين من جهاد عدوهم ويقوون عليه ، فعظمة المعجزات في الإسلام أنها لم تأت لترفع المسئولية والجهد البشري عن المسلمين ، ويعيشوا بالدعاء فقط .

إن الله تعالى الذي أطعم الألف من أهل الخندق ، كان بالإمكان أن يطعمهم بمائدة تنزل من السماء ، وأن ينصرهم بالملائكة التي تقاتل عنهم من السماء وهم ينظرون ، لكن لو تم هذا فكيف يستقيم أمر هذا الدين بعد ذلك ؟

إن الله تعالى شاءت إرادته أن يختبر صبر المسلمين على الجوع ، وصبرهم على البرد ، وصبرهم على الحوف ، وصبرهم على الجهاد ، ليكونوا أسوة لمن بعدهم في كل شيء ، وصبرهم على الفاقة ، وإيشار حبيبهم على أنفسهم ب الطعام وإكرامه ، وصبرهم على المشقة والتعب والجهد في الحفر ، حتى تعلم الأجيال بعد ذلك أن المسؤولية البشرية قائمة ، لم يُف منها سيد خلق الله عليه الصلاة والسلام وصفوةخلق معه ، والدعاء وحده لا يكفي ماله يرافقه بذل الجهود ، وتحمل الابتلاء ، والإعداد للمواجهة ، والتخطيط لتفتيت كيان العدو ، فقد وزع عليه الصلاة والسلام خياته ، وأعاد قسماً منها إلى المدينة ، على رأسها سلمة بن أسلم رضي الله عنه ، بعد غدر بنى قريظة لاقبله ، يمضون ليتهم بالتكبير حتى الصباح ، حتى لاتطبع قريظة بالهجوم على المدينة ، ولم يكتف سلمة رضي الله عنه بصد الهجوم المباغت القرطي ، بل مضى يطاردهم داخل حصونهم ، حتى هو موافق في بشر لهم وهو رواها<sup>(١)</sup> عليهم فلم يقدروا يطلعون من حصونهم وخافوا خوفاً شديداً .

(١) هروها عليهم : أسلقوها عليهم .

وكانت حراسة الخندق شغل رسول الله ﷺ الشاغل ، يطلب من عباد بن بشر رضى الله عنه أن يدع قيمته ويمضى لحراسة الخندق فى جميع الاتجاهات .

لم تكن المحاولات قليلة ، فلم تكن تمر ليلة إلا وهجوم مباغت يأتي على الخندق من طرف من أطراقه ، وبالليل والجاجة يصد المشركون ، وتتوزع المسؤوليات بين الأحزاب ، قريش وغطفان وقريبة ، فى محاولات مستمرة لاقتحام الخندق ، وتطويق المسلمين ، غير أن الوعى والاستعداد فاق تصورات العدو ، بمواجهة مباشرة أو غير مباشرة .

ويكفى أن نعلم أن الهجوم الشديد الأول انتهى وكانت صلاة العصر تفوت المسلمين .

أما الهجوم الشامل فقد استمر طيلة النهار وهو يأمن الليل ، والمسلمون يقاتلون ويواجهون ويصدون ، حتى ليصلى عليه الصلاة والسلام بالمسلمين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بعد صد ذلك الهجوم الشرس ، ويغادر عليه الصلاة والسلام قبة ثلاثة مرات ، وقد لبس سلاحه وركب فرسه عندما سمع صوت الحطمة ، والاشتباك بين المسلمين وأعدائهم .

والدعاء لا ينقطع . والمواجهة لا تنتقطع .

﴿هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ .

٥ - وكانت محاولة رسول الله ﷺ في فك الحصار عن المسلمين ، والاتصال السرى بقيادات غطفان ومراوبيهم على ثلث ثمار المدينة .

لقد أشفق عليه الصلاة والسلام على جنده ، الذين لم يدخلوا جهداً ولا روحًا ولا مالاً وقدموه في سبيل الله ، والبرد والخوف والجوع يعصف بهم ، فكانت هذه الصفات ، تذليلاً لفك الحصار .

والقضية تعنى أول ما تعنى الأنصار فهم جمهرة المقاتلين ، وذراريهم ونساؤهم محاصرون في الآستان ، فلا بد من أن يؤدي الفكر البشري دوره في محاولة تفتيت هذه الحرب الضروس ، وتفريق كلمة المشركين فيها ، لكنه عليه الصلاة والسلام لم يجاوز المراوحة حتى يضع بين يدي سيدى الأنصار الأمر في حكمان فيه . لم يحملهم عليه الصلاة والسلام مسئولية تهيئة هذا الموضوع ، فقد قام به وحده وقدمه بين يديهم جاهزاً ، حتى لا يكونوا في حرج من السعي له .

وكان جواب السعديين :

( يا رسول الله أمر تحبه فتصنعنيه ؟ أم شيء أمرك الله به لابد من العمل به ؟ أم شيء تصنعنيه لنا ؟ ).

إنها قمة الأدب مع رسول الله ﷺ : فإن كان أمراً من الله فلا مجال فيه للرأي .  
لكن الجديد في الأمر : يارسول الله أمر تحبه فتصنعنيه .

فيكتفى أن يكون لرسول الله ﷺ هوَ فيه أو حب ، فهم جاهزون كذلك للتنفيذ ، ولو لم يكن هناك وحى ، ولو أدى الأمر إلى أن يعطى ثلث ثمارهم لعدوهم . أو كل ثرهم ، أو كل أموالهم .

فقد محضوه الحب ، ومحضوه الولاء ، وفدوه بالولد والأهل والنفس ، فيكتفى أن يحب ذلك وييهواه حتى ينفذوه .

وأما إن كان مصلحتهم هم ، فعندما يكون لهم كلام مناسب .

يقول عليه الصلاة والسلام « بل شيء أصنع لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رموكم عن قوس واحدة ، وكاليوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرها ». .

إذاً كان البلاء قد بلغ ذروته فلا بد من هذه المحاولات ، لتخفييف حدته وشدته ، لكن هل نفذ صبر المؤمنين ؟ وهل نزل بهم الوهن والعجز حتى يساوموا على أموالهم لإنقاذ أنفسهم من الخصار ؟

أبداً لقد كان الموقف عنيفاً وشديداً :

يا رسول الله إن كانوا ليأكلون العلوز في الجاهلية من الجهد ، ماطمعوا بهذا منا قط ،  
أن يأخذوا تمرة إلا بشري أو قري . فحين أتانا الله تعالى بك ، وأكرمنا بك ، وهدانا بك ،  
نعطي الدنيا ! لا نعطيهم أبداً إلا السيف ! فقال رسول الله ﷺ : « شقَ الكتاب » فتفل  
سعد فيه ، ثم شقه وقال : بيتنا السيف .

وحاول عيينة بن حصن أن يراوغ ويهدد ، فجاءه الجواب المناسب :  
يا عيينة ، أبالسيف تخوفنا ، ستعلم أينا أجزع : .. أما والله لو لا مكان رسول الله  
ماوصلتم إلى قومكم ، فقال النبي ﷺ : « ارجعوا بيتنا السيف » رافعاً صوته .

لقد امتحن الله المؤمنين بالجوع فصبروا ، وبالخوف فثبتوا ، وبالجهد فحفروا وعملوا ،  
وبالقتال فقاتلوا واستبسلاوا ، وبالبرد فصبروا ، حتى أذن الله بعد ذلك بتفريح الكرب ،  
واستجابة الدعاء ونصر الله .

## الجولة الثانية مع المنافقين

أ— الداعين إلى الفرار :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْهُلُ بِالثَّرْبِ لِمَقَامِكُمْ فَارْجُعوا وَيُسْتَأْذِنُ فِرْقَةٍ مِّنْهُمُ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بَيْوَنَنَا عُورَةٌ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فَرَارًا . وَلَوْ دَخَلْتُمْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَلَّوْتُمُ الْفَتَّةَ لِأَتُوْهَا وَمَا تَلْبَثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُولُونَ الْأَدْبَارِ ، وَكَانُوا عَاهَدُ اللَّهِ مَسْئُولاً . قُلْ لَنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ إِذَا لَا تَعْتَنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوَقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَاتِلِينَ لِإِخْرَانِهِمْ هَلْمٌ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ بِالْأَبْسِ إِلَّا قَلِيلًا . أَشْحَةُ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخُوفُ رَأَيْتُهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَيْكُمْ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يَغْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخُوفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّنَةِ حَدَادُ أَشْحَةِ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَئِكَ لَمْ يَؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتُ الْأَحْزَابَ يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَبْنَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيْكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾<sup>(١)</sup> .

لقد أخذ الحديث عن المنافقين قرابة نصف الآيات التي نزلت في الأحزاب ، مع أن كتب السيرة لا تشير إلا إلى أفراد في هذا الجيش بروز منهم النفاق ، ولكن المنهج القرآني في التربية من خلال أحداث السيرة يطارد هؤلاء المنافقين ، ويحصرهم حتى ينهيهم عن آخرهم .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

(عن ابن زيد قال : قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبي ﷺ :

(١) الأحزاب / ٢٠ - ١٢ .

يا فلان ، أرأيت إذ يقول رسول الله ﷺ إذا هلك قيسرا فلا قيسرا بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله ، فأين هذا من هذا ، وأحدنا لا يستطيع أن يخرج بیول من الخوف ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا )<sup>(١)</sup>.

وفي رواية ثانية : أن المتكلم أكثر من واحد ، فمن قتادة في قوله ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ...﴾ قال :

( قال ذلك أناس من المنافقين ، قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم وقد حصرنا هاهنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز حاجته ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا )<sup>(٢)</sup>.

ـ وأما هذا الوعد فمتى تم وكيف ؟ فهو ما نراه في رواية الطبرى عن عمرو بن عوف قال :

( خط رسول الله ﷺ الخندق عام ذكرت الأحزاب من أجم الشيختين <sup>(٣)</sup> طرف بني حارثة حتى بلغ المذاد ، ثم جعل أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختطف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً ، فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون سلمان منا . فقال النبي ﷺ : « سلمان من أهل البيت ». قال عمرو بن عوف : فكنت أنا وسلمان وحديفة بن اليمان والنعمان بن مقرن المزنى وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً ، فحفروا تحت ثلاثة دوابر حتى بلغنا الصربى آخرج الله من بطنه الخندق صخرة بيضاء مروءة . فكسرت حديدنا وشققت علينا . فقلنا : يا سلمان ، ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة ، فإما أن نُتعديل عنها فإن المعدل قريب ، وإما أن يأمرنا فيها بأمره فإننا لانحب أن نجاوز خطه ، فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فقال : يا رسول الله ، بأينما أنت وأمنا ، خرجت صخرة بيضاء من بطنه الخندق مروءة فكسرت حديدنا وشققت علينا حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فما زلت أنا ونجادل نجاوز خطك .

فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق ، ورقينا نحن التسعة على شفة الخندق فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعاها . وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم . فكثير رسول الله ﷺ

(١) جامع البيان في تفسير القرآن لابن حجر الطبرى / م ١٠ / ٨٤ .

(٢) تفسير الطبرى / م ١٠ / ٨٥ .

(٣) الشيختين : موضع بين المدينة وجبل أحد .

تكبير فتح ، وكبُر المسلمين ، ثم ضربها الرسول ﷺ الثانية ، فصدى لها ، وبرقت منها برقه أضاءات مابين لابتيها حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم ، فكبُر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبُر المسلمين ، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة فكسرها ، وبرقت منها برقه أضاءات ما بين لابتيها حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبُر رسول الله ﷺ تكبير فتح ، ثم أخذ ييد سلمان فرقى . فقال سلمان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً مارأيته قط ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال : « هلرأيتم مايقول سلمان ؟ ». قالوا : نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا ، قد رأيناكم تضربون فيخرج برق كالموج فرأيناكم تكبُر فنكبر ولا نرى شيئاً غير ذلك . قال :

« صدقتم ، ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم ، أضاء لى منه قصور الحيرة ومداهن كسرى كأنها أنبياء الكلاب فأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق لي الذي رأيتم ، أضاء لى منه قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنبياء الكلاب ، وأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتي الثالثة وبرق منها الذي رأيتم ، أضاءت لى منها قصور صناعة كأنها أنبياء الكلاب ، وأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر » فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله موعدنا صدق بأن وعدنا النصر بعد الحصار . فطبقت الأحزاب فقال المسلمون : ﴿ هذَا مَا وعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ الآية ، وقال المنافقون : ألا تعجبون ، يُحَدِّثُكُمْ وَيُمْنِيْكُمْ وَيُعَدِّكُمْ الْبَاطِلُ ، يخبركم أنه ينصر من يشرب قصور الحيرة ومداهن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم تخافون الخندق من الفرق <sup>(١)</sup> ولا تستطيعون أن تبرزوا وأنزل القرآن :

**﴿ إِذَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِغْرِرُوا ﴾ <sup>(٢)</sup>**

ورواية رابعة تحدد الشخص الذي قال هذا الكلام وهو معتب بن قشير :

(وعظم عند ذلك البلاء واشتد الحuff ، وآتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن

(١) الفرق : الحuff .

(٢) جامع البيان في تفاسير القرآن للإمام ابن جرير الطبرى / ١٠ / ٨٥ ، وفي فتح البارى / ٧ / ٣٩٧ . قوله : (وآخر جه البهقى مطولاً من طريق كثير بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن جده وفي أوله : خط رسول الله ...).

قشير ، أخوبني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط )<sup>(١)</sup> .

لكتنا نجد عند القرطبي رواية غريبة ترفع عدد هؤلاء المنافقين والمتكلمين في هذا الموضوع إلى السبعين :

( قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ ﴾ أى شك ونفاق ، ﴿ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ إِلَّا غَرُورًا ﴾ أى باطلًا من القول ، وذلك أن طعمة بن أبي رق ومعتب بن قشير ، وجماعة نحو سبعين رجلاً قالوا يوم الخندق : كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز ؟ وإنما قالوا ذلك لما فشوا في أصحاب النبي ﷺ من قوله عند ضرب الصخرة على متقدم في حديث النسائي فأنزل الله تعالى هذه الآية )<sup>(٢)</sup> .

ومع الأخذ بهذه الرواية التي ترفع عدد المنافقين إلى سبعين شخصاً ، دون أن توجد رواية أخرى تعضدها ، فيمكن القول أن النسبة انخفضت كثيراً . فنسبة سبعين إلى ثلاثة آلاف ، تختلف كثيراً عن نسبة ثلاثة إلى تسعمائة ، ففي أحد تقاد تجمع الروايات عن انسحاب ثلث الجيش الإسلامي . مع عبد الله بن أبي ، غير المنافقين الذين بقوا في الجيش ، وأظهروا نفاقهم بعد هجوم خالد ومحنة الجيش الإسلامي ، وهذا يؤكّد عظمّة التربية التي تمت من خلال القرآن الكريم ، وعلى يدي رسول الله ﷺ حتى ليقى أمراً نزاراً ومستنكرًا وجود النفاق والمنافقين .

وفي قلب هذه الحسنة التي اشتد فيها الخوف إلى أقصاه ، كشفت هذه النفوس الخبيثة - التي وصفها القرآن الكريم بأن فيها مرض ، وكان هذا المرض هو الشك بالله ورسوله وصدق موعده .

وثلاث سنوات من التوجيه الرباني ، والرعاية النبوية والجهد الدعوي من الصف الإسلامي قلص عدد المنافقين إلى اثنين في المائة بعد أن كان ثلاثة في المائة .

و واضح كذلك أنهم فقدوا قوة التأثير فيمن حولهم ، وهم لا يظهرون إلا في قلب الحسنة .

ونعود مع القرآن الكريم لتابعة مواقفهم النفسية من وراء هذه المقولات التي

(١) السيرة النبوية لأبن هشام / م ٢٢٢ / ٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / م ٧ / ج ٤ / ١٤٦ .

يطرحوها ، والتى لا يدع القرآن منها شاردة ولا واردة إلا ويسجلها ، ويحصى عليهم أنفاسهم ، ويسجل حركاتهم وقناعاتهم ومشاعرهم .

( فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة في الخناق ، فرصة للكشف عن خبيثة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد ، وفرصة للتوهين والتخديل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله ، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون ، فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك ، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل ، وروع نفوسهم ترويعاً لا يثبت له إيمانهم الملهل ! فجئروا بحقيقة ما يشعرون غير مقيدين ولا متجملين ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة ! و موقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء ، فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان ) <sup>(١)</sup> .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْهُلُ يَشْرُبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجُوا وَيَسْأَذْنُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ النَّى يَقُولُونَ إِنَّ بَيْوَنَتَا عُورَةٌ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فَرَارًا . وَلَوْ دَخَلْتُمْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلْتُمُوهَا لَأَتُوْهَا وَمَا تَلْبَسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يَوْلُونَ الْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا . قُلْ لَنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَعْتَوْنَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْهُلُ يَشْرُبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجُوا وَيَسْأَذْنُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ النَّى يَقُولُونَ إِنَّ بَيْوَنَتَا عُورَةٌ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فَرَارًا ﴾ .

فقد روى عن ابن عباس ومجاهد وقنادة في ذلك قولهم :

( قالوا : بيوتنا مخلية تخشى عليها السرق .

ويقول الطبرى : يقول تعالى ذكره : ويستأذن بعضهم رسول الله ﷺ في الإذن بالانصراف عنه إلى منزله ، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله ﷺ ) <sup>(٣)</sup> .

ثم تختلف الروايات بعدها إن كان الذين طلبوا الإذن هما رجلان فقط ، أو بنو حارثة جميعاً ، وإن كان المؤدى واحداً في ذلك .

(١) في ظلال القرآن / م / ٥ / ٢٨٣٨ . (٢) الأحزاب / ١٣ - ١٧ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن / م / ١٠ / ٨٦ .

( فقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْهُلُ بِشَرْبِ لَامِقَامٍ لَكُمْ فَارْجُعوا ﴾ قال : إلى المدينة عن قتال أبي سفيان ﴿ وَيَسْأَدُنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ الْنَّبِيُّ ﴾ قال : جاءه رجال من الأنصار ومن بنى حارثة أحد هما يدعى أبو عراقة بن أوس ، والآخر يدعى أوس بن قيظى ، فقالا : يا رسول الله ﴿ إِنَّ بَيْوَتَنَا عُورَةٌ ﴾ يعنون أنها ذليلة الحيطان ، وهى في أقصى المدينة ، ونحن نخاف السرق فائذن لنا ، فقال الله : ﴿ مَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فَرَارًا ﴾ ) <sup>(١)</sup> .

( وأخرج ابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَيَسْأَدُنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ الْنَّبِيُّ ﴾ قال : إن الذين قالوا بيوتنا عورة يوم الخندق : بنو حارثة بن الحارث ) <sup>(٢)</sup> .

وفي رواية ثالثة عند القرطبي : إن الذين قالوا ذلك هم بنو حارثة وبنو سلمة يقول :

( وحکى النقاش أن هذه الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار بنى حارثة وبنى سلمة ، دهموا أن يترکوا مراكزهم يوم الخندق ، وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ إِذْ هَمْتُ طَائِفَتَنَّكُمْ أَنْ تَفْشِلُوا ﴾ ، فلما نزلت هذه الآية قالوا : والله مساءنا ما كنا همنا به إذ الله ولينا . وقال السدي : الذي استأذنه منهم رجال من الأنصار من بنى حارثة أحد هما أبو عراقة بن أوس ، والآخر أوس بن قيظى .

قال الضحاك : ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه ) <sup>(٣)</sup> .

والمرجع أن أبو عراقة بن أوس وأوس بن قيظى قد جاءا يستأذنان رسول الله ﷺ في العودة إلى بيوتهم على ملأ من بنى حارثة ، والإذن لبني حارثة جميعاً ، وليس لهما فقط ، كما ذكر الواقدي في مغازييه :

( واجتمعت بنو حارثة فبعثوا أوس بن قيظى إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ، وليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم علينا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا ، فأذن لهم رسول الله ﷺ وتهيؤوا للانصراف ، فبلغ سعد بن معاذ ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ؛ إنما والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا ، ثم أقبل عليهم فقال لبني حارثة : هذا لنا منكم أبداً ، ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا . فرد لهم رسول الله ﷺ ) <sup>(٤)</sup> .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / م ١٤٨ / ٧ / ١٤٨ .

(٢) الدر المشور / ٦ / ٥٧٨ .

(٣) المغارى للواقدى / ٢ / ٤٦٣ .

ورواية الضحاك عند القرطبي تشير إلى أنهم بعد منعهم دخلوا المدينة بغير إذنه : ( ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه ) .

والظاهر أن الذين يمثلون النفاق ، سواء الذين قالوا : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ أو الذين قالوا ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾ و ﴿ يأهل يشرب لا مقام لكم ﴾ كان عددهم حوالي ثمانين شخصاً ، وذلك في أعلى الأرقام التي ذكرت عنهم .

( وجاء القرآن الكريم مصدقاً قول سعد ، فليس الخوف على بيوتهم حقيقة ومن عدوهم ، إنما يريدون الفرار ، ( فأنذبهم الله تعالى بقوله : ﴿ وما هي بعورة ﴾ ، ثم أظهر ما تكن صدورهم فقال : ﴿ إن يريدون إلا فراراً ﴾ )<sup>(١)</sup> .

وروى عن ابن عباس أن الذي قال : ﴿ يأهل يشرب لا مقام لكم فارجعوا ﴾ هم اليهود :

( قالت اليهود لعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين : ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه ! فارجعوا إلى المدينة فإنما مع القوم فأنتم آمنون )<sup>(٢)</sup> .

﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأنوتها ومالتبوا بها إلا يسيراً ﴾ .

( عن ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ﴾ يقول : ولو دخلت المدينة عليهم من نواحيها ثم سئلوا الفتنة لأنوتها ، سئلوا أن يكفروا لکفروا . قال : هؤلاء المنافقون لو دخلت عليهم الجيوش والذين يريدون قتالهم ثم سئلوا أن يكفروا لکفروا . قال : والفتنة الكفر وهي التي يقول الله : ﴿ الفتنة أشد من القتل ﴾ أي الكفر ، يقول : يحملهم عليه الخوف منهم ، وخيث الفتنة التي هم عليها من النفاق على أن يكفروا به )<sup>(٣)</sup> .

ويقول الإمام النيسابوري : ( ﴿ ولو دخلت ﴾ أي المدينة ، ﴿ عليهم من أقطارها ﴾ أو دخلت عليهم بيوتهم من جوانبها وأكناها ، ﴿ ثم سئلوا الفتنة ﴾ أي الارتداد والرجوع إلى الكفر وقتال المسلمين ﴿ لأنوتها ﴾ والحاصل أنهم يتعللون بأعوار بيوتهم ليغروا عن نصرة رسول الله ﷺ ، ولو دخلت عليهم هذه العساكر المتحزبة - التي يفرون منها -

(١) تفسير غرائب القرآن للنيسابوري حاشية الطبرى / ١٠ / ٨٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / ٧ / ١٤٨ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبرى / م / ٨٦ .

مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها لأجل النهب والسرقة ثم عرض عليهم الكفر ويقال لهم كونوا على المسلمين لتسارعوا إليه وما تعلموا بشيء . ويمكن أن يراد أن ذلك الفرار والرجوع ليس لأجل حفظ البيوت ؛ لأن من يفعل فعلًا لغرض فإذا فاته الغرض لا يفعله كمن يبذل المال لكثرا يؤخذ منه بيته ، فإذا أخذ منه البيت لا يذله ، فأكذبهم الله تعالى بأن الأحزاب لو دخلت بيوتهم وأخذوها منهم لرجعوا عن نصرة المؤمنين ، فتبين أن رجوعهم عنك ليس إلا لكرفهم ومقتهم الإسلام ﴿وَمَا تَلْبَثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ يرجع إلى الفتنة أى لم يلبثوا بإثبات الفتنة أو بإعطائها إلا زماناً يسيرًا ربما يكون السؤال والجواب أو لم يقيموها إلا قليلاً ثم تزول والعاقبة للمتقين ، ويحتمل عود الضمير إلى المدينة ، أى وما يلبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا قليلاً ، فإن الله يهلككم )<sup>(١)</sup> .

ويتحدث سيد قطب رحمة الله عن هذا العرض النفسي لهم فيقول :

( ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة ل موقف البلبلة والفرع والرواقة . يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض . صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة ، وخور القلب ، والاستعداد للانسلاخ من الصدق بمجرد مصادقة غير ميقن على شيء ، ولا متجملين لشيء :

﴿وَلَوْ دَخَلْتُ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلْوُا الْفَتَنَةَ لِأَتُوْهَا وَمَا تَلْبَثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ .

ذلك كان شأنهم والأعداء بعد خارج المدينة ، ولم تقتحم عليهم بعد . ومهما يكن الشر والفرع ، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع ، فأما لو وقع واقتتحمت عليهم المدينة من أطرافها .. ﴿ثُمَّ سَأَلْوُا الْفَتَنَةَ﴾ وطلبت إليهم الردة عن دينهم ﴿لِأَتُوْهَا﴾ سرعاً غير متلبثين ، ولا متربدين ﴿إِلَّا قليلاً﴾ من الوقت ، أو إلا قليلاً منهم يتلبثون شيئاً ما قبل أن يستجيبوا ويسسلموا ويرتدوا كفاراً ، فهي عقيدة واهنة لا تثبت ، وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة !

هكذا يكشفهم القرآن ؛ ويقف نفوسهم عارية من كل ستار .. ثم يصدمهم بعد هذا بنقض العهد وخلف الوعد . ومع من ؟ مع الله الذي عاهدوه من قبل على غير هذا شم لم يراعوا مع الله عهداً )<sup>(٢)</sup> .

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُولُونَ الْأَدْبَارِ وَكَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مَسْئُولاً﴾ .

(١) المصدر نفسه ، حاشية التفسير / ١٠ / ٢٨٣٩ .

(أى من قبل غزوة الخندق وبعد بدر . قال قتادة : وذلك أنهم غابوا عن غزوة بدر ورأوا ما أعطى الله لأهل بدر من الكرامة والنصر ، فقالوا : لعن أشهادنا الله قائلاً لنقاتلن . وقال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم منزل عاهدوا الله أن لا يعودوا مثلها ، فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم : «وكان عهد الله مسئولاً» أى مسئولاً عنه )<sup>(١)</sup>.

فاما يوم أحد فقد تداركهم الله برحمته ورعايته ، وثبتهم وعصمهم من عواقب الفشل ، وكان ذلك درساً من دروس التربية في أوائل العهد بالجهاد ، فاما اليوم وبعد الزمان الطويل والتجربة الكافية ، فالقرآن يواجههم هذه المواجهة العنيفة .

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . قل من ذا الذي يعصكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولیاً ولا نصيراً<sup>(٢)</sup>.

( يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء الذين يستأذنونك في الانصراف عنك ويقولون إن بيوتنا عورة ﴿لَنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ يقول : لأن ذلك أو ما كتب الله منها وأصل إليكم بكل حال كرهتم أو أحببتم ﴿وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول : إن فررت من الموت أو القتل لم يزد فراركم ذلك في أعماركم وآجالكم إنما تنتعون في هذه الدنيا إلى الوقت الذي كتب لكم وعليكم )<sup>(٣)</sup> . عن قتادة : (﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ : وإنما الدنيا كلها قليل )<sup>(٤)</sup>.

و (عن ربيع بن حشيم : ﴿وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال : إلى آجالهم )<sup>(٥)</sup> . وفي رواية : (﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما بينهم وبين الأجل )<sup>(٦)</sup>.

( و قوله : ﴿مِنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ..﴾ يقول تعالى ذكره : قيل يا محمد لهؤلاء الذين يستأذنونك ويقولون إن بيوتنا عورة هرباً من القتل ، من ذا الذي يمنعكم من الله إن هو أراد بكم سوءاً في أنفسكم من

(١) الماجمع لأحكام القرآن للقرطبي / ٧ / ١٤ / ١٥٠ .

(٢) جامع البيان في تفاسير القرآن للإمام الطبرى / ١٠ / ٨٨ .

(٣) الدر المثور / ٦ / ٥٨٠ .

قتل أو بلاء أو غير ذلك . أو عافية وسلامة ، وهل ما يكون بكم في أنفسكم من سوء أو رحمة إلا من قبلكم . . وقوله : ﴿وَلَا يجذون لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول تعالى ذكره : ولا يحد هؤلاء المنافقون إن أراد الله بهم سوءاً في أنفسهم وأموالهم من دون الله وللياً باليهم بالكافية ، ولا نصيراً ينصرهم من الله فيدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء في ذلك )<sup>(١)</sup> .

( وعند هذا المقطع ، وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجاة من الخطر والأمان من الفزع - يقرر القرآن إحدى القيم الباقية التي يقررها في أوانها ، وبصحب التصور الذي يدعوهם إلى نقض العهد والفرار :

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بَكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بَكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجذون لَهُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها في الطريق المرسوم ، ويتهى بها إلى النهاية المحتومة . والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر ، ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن فار ، فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب ، في موعده القريب . وكل موعد في الدنيا قريب ، وكل متع فيها قليل ، ولا عاصم من الله ، ولا من يحول دون نفاذ مشيئته ، سواء أراد بهم سوءاً أم أراد بهم رحمة ، ولا مولى لهم ولا نصیر من دون الله يحميهم وينعهم من قدر الله ، فالاستسلام والاستسلام ، والطاعة الطاعة ، والوفاء الوفاء بالعهد مع الله في السراء والضراء ، ورجوع الأمر إليه ، والتوكّل الكامل عليه ثم يفعل الله ما يشاء )<sup>(٢)</sup> .

## ب - المعوقين :

﴿قُدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقُونَ مِنْكُمْ وَالْقَاتِلُونَ لِإِخْوَانِهِمْ هُلْمَ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشْحَةُ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخُوفُ رَأَيْتُمُهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَيْكُمْ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يَغْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخُوفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّنَةِ حَدَادُ أَشْحَةٍ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ لَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَبْيَانِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ )<sup>(٣)</sup> .

(١) جامع البيان للطبرى / ١٠ / ٨٨ . (٢) في ظلال القرآن / ٥ / ٢٨٣٩ . (٣) الأحزاب / ١٨ - ٢٠ .

﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون بالأس إلا قليلا﴾ .

( أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه ، في قوله : ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم ..﴾ قال : هذا يوم الأحزاب ، انصرف رجل من عند النبي ﷺ ، فوجد أخاه بين يديه شواء ، ورغيف فقال له : أنت هنا في الشواء والرغيف والنبي ، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف . قال : هلم إلى ، لقد بلغ بك وبصاحبك ، والذى يحلف به ، لا يستقى لنا محمد أبداً . قال : كذبت ، والذى يحلف به - وكان أخاه من أبيه وأمه - والله لأنخبرن النبي ﷺ بأمرك ، وذهب إلى النبي ﷺ يخبره ، فوجده قد نزل جبريل عليه السلام يخبره : ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون بالأس إلا قليلا﴾ ) <sup>(١)</sup> .

( وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ قال : هؤلاء أناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحمًا لا لتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك ، ﴿والقائلين لإخوانهم﴾ أى من المؤمنين ، ﴿هلم إلينا﴾ أى دعوا محمداً وأصحابه فإنه هالك مقتول ، ﴿ولا يأتون بالأس إلا قليلا﴾ قال : لا يحضرون القتال إلا كارهين ، وإن حضروه كانت أيديهم من المسلمين وقلوبهم من المشركين ) <sup>(٢)</sup> .

وعند القرطبي فيها ثلاثة أقوال :

( أحدها : أنهم المنافقون قالوا للMuslimين : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا .

الثاني : أنهم اليهود من بنى قريظة ، قالوا لإخوانهم من المنافقين : هلم إلينا ، أى تعالوا إلينا ، وفارقوا محمداً فإنه هالك ، وأن أبو سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحداً .

والثالث : ما حكاه ابن زيد : إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بين الرماح والسيوف فقال له أخوه . وكان من أمه وأبيه : هلم إلى قد تبع بك وبصاحبك ، أى قد أحبط بك وبصاحبك . قال : كذبت ، والله لأنخبرنه بأمرك ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ ) <sup>(٣)</sup> .

(١) الدر المشور / ٦ (٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / ٧٤ / ١٤ / ١٥٤ (٣)

ثم تأخذ الريشة المعجزة في رسم سمات هذا النموذج .

﴿أشحة عليكم﴾ ففي نفوسهم كرازة على المسلمين ، كرازة بالجهد ، وكرازة بالمال ، وكرازة في العواطف والمشاعر على السواء : ﴿إذا جاء الخوف رأيهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ .

وهي صورة شاذة ، واضحة الملامح ، متحركة الجوارح ، وهي في الوقت ذاته مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجين المرتعش الخوار .

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويحيى الأمان : ﴿إذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد﴾ فخرجو من الجحور وارتفعت أصواتهم بعد الارتفاع ، وانتفتحت أبواباً لهم بالعظمة ، ونفسوا بعد الانزواء ، وادعوا في غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء في القتال والفضل في الأعمال والشجاعة والاستبسال . ثم هم ﴿أشحة على الخير﴾ ، فلا يذلون شيئاً من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان !

وهذا النموذج من الناس لا ينقطع في جيل ولا قبيل ، فهو موجود دائماً ، وهو شجاع فصيح بارز حيالاً كان هناك أمن ورخاء ، وهو جبان صامت متزو حيالاً كان هناك شدة وخوف ، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لا يبالهم منهم إلا سلاطة اللسان ﴿أولئك لم يؤمروا فأحبط الله أعمالهم﴾ ، فهذه هي العلة الأولى ، العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان ، ولم تهتد بنوره ، ولم تسلك منهجه : ﴿ فأحبط الله أعمالهم﴾ ، ولم ينجحوا ؛ لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك : ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ .

وليس هناك عسير على الله ، وكان أمر الله مفعولاً ، فأما يوم الأحزاب فيمضي النص في تصويرهم صورة مضحكة مزارية .

﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ : فهم مایزلون يرتعشون ويتأذلون ويخذلون ! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت ، وأنه قد ذهب الخوف وجاء الأمان !

﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم﴾ . يا للسخرية ! ويا للتوصير الزرى ! وباللصورة المضحكة : وإن يأت الأحزاب يود

هؤلاء الجناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوماً من الأيام .. ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية لا يشاركون أهل المدينة في حياة ولا مصير ، ولا يعلمون - حتى - ما يجري عند أهلها ، إنما هم يجهلونه ، ويسألون عنه سؤال الغريب ! مبالغة في البعد والانفصال ؛ والتوجة من الأهوال !

يتمنون هذه الأمنيات المضحكة ، مع أنهم قاعدون ، بعيدون عن المعركة ، لا يتعرضون لها مباشرة ، إنما هو الخوف من بعيد ! والفزع والهلع من بعيد ! ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾ .

وبهذا الخط ينتهي رسم الصورة ، صورة ذلك النموذج الذي كان عائشأً في الجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة ، والذي ما يزال ينكر في كل جيل وكل قبيل ، بنفس الملامح ، وذات السمات ينتهي رسم الصورة وقد تركت في التفوس الاحتقار لهذا النموذج ، والساخرية منه ، والابتعاد عنه ، وهو انه على الله وعلى الناس )<sup>(١)</sup> .

ولابد من العديد من الملاحظات بعد الحديث عن المنافقين في هذا الوطن :

١ - تظهر خطة المنافقين مفضوحة من خلال العرض القرآني أثناء المعارك ، فبعضهم يبقى داخل الصد ليقوم بدور التثبيط والتخديل ، وبعضهم يبقى مع القاعدين خارج الصد الجهادي ، ليعيق الانضمام للجهاد ، وقد برزت هذه الخطة واضحة من خلال الصورتين التي عرضهما القرآن الكريم في أحد والخندق .

فالذين كانوا داخل الصد في أحد ، قال عنهم القرآن الكريم :

﴿... وطائفة قد أهتمهم أنفسهم بظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ...﴾<sup>(٢)</sup> والذين كانوا داخل الصد في الخندق هم الذين بثوا الإشاعات ، وشكروا في النصر ، ودعوا إلى الفرار والانسحاب :

﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذا قالت طائفة منهم يأهل الشرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾ .

(١) في ظلال القرآن / ٥٢١ / الآية ١٥٤ .

(٢) آيات عمران الآية ٢٨٤ .

أما الذين كانوا مع الخالفين والقاعددين عن الجماد في أحد فقد كان لهم دور آخر ،  
وهو الحيلولة دون الانضمام لل المجاهدين .

﴿ وَلِيَعْلَمُ الَّذِينَ نَفَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَاتَلُوا لَوْ نَعْلَمْ  
قَاتَلًا لَا تَبْغُنَاكُمْ هُمُ الْكُفَّارُ يُوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَاتَلُوا إِلَيْهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قَلْ فَادْرُؤُوا  
عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وهم يؤدون الدوز نفسه في الخندق :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَاتِلِينَ لِإِخْرَانِهِمْ هَلْمَ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ  
إِلَّا قَلِيلًا . أَشْحَةُ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخُوفَ رَأَيْتُمْهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَيْكُمْ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي  
يَغْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخُوفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّنَةِ حَدَادٍ ﴾ (٢) .

٢ - هذا عن خطة المنافقين ، أما عن سماتهم ، فقد أصبحت بعد العرض القرآني  
مكتشوفة عارية مفضوحة ، وعلى رأس هذه السمات الجبن الهالع الذي يدفعهم إلى  
التخلّى عن الجهاد ، وتخذيل المؤمنين عنه ، والخوف من الموت ، ويعرض القرآن هذه  
الصفة دائماً ، ويتبعها بالإيمان بالقدر والأجل المحتوم المحدد :

﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيْوَتِكُمْ لَبِرْزَ الَّذِينَ كَتَبَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَعْمَالِهِمْ لَكُمْ مُضَاجِعَهُمْ .. ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَاتَلُوا لِإِخْرَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوهُمْ فِي  
الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَّى لَوْ كَانُوا عَنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قَاتَلُوا لَيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي  
قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَحْسِنُ وَيَمْسِي وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

﴿ الَّذِينَ قَاتَلُوا إِلَيْهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قَلْ فَادْرُؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمْ  
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

هذا في أحد ، والصورة تتكرر في الخندق :

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَعْتَنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مِنْ

(١) آل عمران / ١٦٧، ١٦٨، ١٨، ١٩.

(٢) آل عمران / ١٦٨.

(٣) آل عمران / ١٥٦.

(٤) آل عمران / ١٥٦.

ذا الذي يعصكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولِيأولا نصيراً ﴿١﴾ .

٣ - وإذا كانت سمات المنافقين تتشابه فلابد من الإشارة إلى نقطة هامة ، هي أن هذه الصفات والسمات قد تبرز لدى ضعاف الإيمان ، الخوف من الموت ، والفرار خوفاً من القتل والرعب من لقاء العدو . وبروز هذه السمات لدى ضعاف الإيمان لا تبيح لنا وصمهم بالتفاق ، ورائتنا في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منها كان فيه خصلة من التفاق حتى يدعها » <sup>(١)</sup> .

فيتمكن القول حين نجد بعض السمات تتشابه بين المنافقين وبين ضعاف الإيمان أن ضعيف الإيمان لديه خصلة من خصال المنافقين ؛ لأن القرآن أكد وراء هذه السمات ، أن هؤلاء القوم غير مؤمنين ، وذلك في أكثر من موطن .

فقد كان وصفهم في أحد :

﴿... هم للّكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ .

لكنهم أوغلوا في هذا الخط ، ودخلوا في الكفر بعد ذلك ، إذ وصفوا في سورة (المنافقون) التي نزلت على أعقاب غزوة بنى المصطلق : ﴿.. ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يؤمنون﴾ .

وكان وصفهم في الخندق نفي الإيمان أصلاً عنهم :

﴿.. أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾ .

وكان الإيمان السابق هو تظاهر بالإيمان ، وليس إيماناً حقيقياً ، كما تقول بداية سورة المنافقون :

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ .

٤ - والظاهرة التي نشهدها بشكل عام من خلال تتبع أوضاع المنافقين هي تقلص أعدادهم ، وبهذا التقلص يرز المغموسون بالتفاق أكثر فأكثر ، ولاتضيع القضية ، فيتمكن

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم .

التحديد للتحرّكات من المنافقين والخذر منهم وملائحة نشاطاتهم وفضحها . غير أنّ بني حارثة نجد تطوراً أو ضاعهم نشازاً بالنسبة لبقية المنافقين .

فقد عصّهم الله في أحد ولم ينضموا للمنافقين ، ورغم أن القرآن الكريم عرض بهم لكن أبقى لهم باب الالتحام بالصف مفتوحاً ، وتولاهم برعايته هم وبني سلمة :

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيهِمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيٰ تَوْكِلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

غير أن إحدى هاتين الطائفتين قد استفادت من هذه الفرصة ، والتحمت مع الصفة المسلم ، بينما فوت بنو حارثة هذه الفرصة ، فجاء التقرير القرآني عليهم عنيفاً في الخندق ، الذي فضح الموقف كله :

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْهُلُ بِثَرْبٍ لِّامْقَامٍ لَّكُمْ فَارْجِعُوهُمْ وَيَسْأَذُنُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بَيْوَنَنَا عُورَةٌ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فَرَارًا﴾ .

فقد كشف القرآن الكريم مخبئهم ، وكشف كذلك نقاط الضعف التي يتخون وراءها :

﴿وَلَوْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَئَلُوكُمُ الْفَتَنَةُ لَأَتُوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُولُونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْتَوِلًا﴾ .

فهم قد نقضوا عهدهم أن لا يولوا الأدبار ثم نكثوا هذا العهد ، وأوغلو في الأمر فجاء القرآن ليؤكّد خوفهم وفزّعهم من لقاء العدو .

٥ - والمنافقون ومن هم على شاكلتهم ، إذا ذكر الرجال فهم دون مستوى الرجال ، فالشجاعة لا يتصف بها المؤمنون وحدهم ، وإن كان المؤمنون أجدر بالشجاعة من غيرهم ، فقد يكون الكافر شجاعاً ، وقد يقاتل عن عصبية جاهلية ويريق دمه من أجلها ، أما الجبان الرعديد الخوار ، فالنساء أكرم منه وأرفع .

لقد كان أكثر ما يعيّب العربي في الجاهلية أن يوصم بالجبن والبخل ، وقد حوى المنافقون هاتين الصفتين فسقطوا في ميزان الرجال ﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا جَاءَ الْخُوفُ رَأَيْهِمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكُمْ تَدُورُ أَعْيُنَهُمْ كَالَّذِي يَغْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِنَّمَا ذَهَبَ الْخُوفُ

(١) آل عمران / ١٢٢ .

سلقوكم بـالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ) ١ )

٦ - ولهذا السقوط ، فهم لا يؤمنون على حماية مال ولا أرض ولا وطن ولا عرض ، إنهم الساقطون العارون من القيم ، وهم عملاء العدو في كل وقت ، وقد أبز القرآن هذه الصفة فيهم ، وأكَد أنهم يتخلون عن أوطانهم ، وعن دينهم ، وعن ديارهم إذا دهمهم العدو :

﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سلوا الفتنة لأتوها وما تبتوها إلا يسيراً﴾ .

﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أبنائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ .

٧ - وقد يتسائل المرء أحياناً فيقول : لماذا اتبع القرآن هذا المنهج في التربية . فكشف عوراتهم ، وفضح مواقفهم ، وعرى مظاهرهم ، وهناك العدو المتربي من الخارج الذي يشمت بالمؤمنين وبالصف المؤمن حين تظهر فيه مثل هذه العورات ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فقد يمعن هؤلاء في نفاقهم وكفرهم وتأخذهم العصبية لذاتهم ونفسهم ، فيزدادون حقداً على الإسلام وأهله .

إننا نرى اليوم موقفاً يقفه الدعاة إلى الله - والحركات الإسلامية كذلك - هو الحرص على التبرير للأخطاء ، وإنزال كل إخفاق يقع أو فشل يتم بالعدو أنه هو السبب في ذلك .  
وهذا الخط يخالف القرآني في التربية .

فقد كان القرآن يتنزل مباشرة على رسول الله ﷺ بعد كل موقف ، وبعد كل معركة بين الخطأ ، ويحدد المسئولية ، ويكشف التامر والزيف من المنافقين ، وبالإمكان أن يصل هذا القرآن إلى صنوف المشركين ، ويشهروا بالصف المؤمن لذلك ، وما كان هذا يضر المؤمنين بشيء ، لأن الأمر ليس أمر كسب دعابة رخيصة ، أو سمعة عالية ، الأمر أمر منهج رباني ، يعرض عليه المؤمنون ويتحنون ، ويقي دائماً الخلل في الشخص لا في المنهج .

ولذلك حين يصل المؤمنون إلى مرحلة الفشل والعجز فالله تعالى يستبدل بهم غيرهم :

﴿وَإِن تَنْوِلُوا يَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ ) ١ ) .

(١) محمد / ٣٨ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَنَا مِنْ بَنِيهِنَّ مَنْ كُمْ عَنِ دِينِهِ ، فَسُوفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يَجْهَهُمْ وَيَحْبُّوْنَهُ . . . ﴾<sup>(١)</sup>

وحتى لا يمس المنهج ، فلا بد من إيضاح الخطأ في التطبيق أو الانحراف عنه ؛ لأن سلامة المنهج أهم بكثير من سلامة الحركات والأشخاص .

إننا نفاجأ اليوم بفكرة يتکيء عليها أعداء الإسلام وهي : أن الإسلام لا يصلح للحياة البشرية ، وحجتهم في ذلك أن دعاء الإسلام عجزوا عن إقامة المجتمع الإسلامي النموذج ، والدولة الإسلامية ، المثل . ونحن نرد عليهم مباشرة : أن الخلل ليس من الدعوة ، وليس التقصير أو الانحراف من الحركات ، إنما هو من الحرب الطاحنة التي يشنها الأعداء على الدعوة والعاملين للإسلام .

هذا جزء من الحقيقة ، لكن الحقيقة كاملة هي أن الدعوة لم يكونوا على مستوى المنهج الرباني ، فتحليل بينهم وبين التمكين ، ولا بد من تكرار المحاولات ، وتجنب الأخطاء والعثرات ، حتى يصلوا إلى المستوى المطلوب .

وهذا هو المنهج القرآني في التربية الذي يشدد في المحاسبة على زلة اللسان ، وال موقف الخطأ ، والهفوة النفسية ، كما يشدد على فضح الانحراف ، والتآمر ، والكيد داخل الصف المسلم . وبذلك يحمل الخطأ الخاطئين ، ويعرى المنافقين ، ويُشَنِّ على السابقين الربانين المجاهدين ، ويبقى دين الله تعالى هو خط السير للسائرين . على الدرب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(١) المائدة / من الآية ٥٤ .

### الجولة الثالثة : المؤمنون الصادقون

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ مَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذِكْرَ اللَّهِ كَثِيرًا . وَلَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا : هَذَا مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُوهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قُضِيَ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْتَظَرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ (١).

لقد كان رسول الله ﷺ سيد المجاهدين وسيد العابدين وسيد الصابرين في الأرض ، ولهذا كان الأسوة الحسنة لأصحابه .

يقول الإمام ابن جرير : ( هذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله ﷺ وعسكره بالمدينة من المؤمنين به ، يقول لهم جل ثناؤه . ) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أَنْ تَتَأْسُوا بِهِ ، وَتَكُونُوا مَعَهُ حِيثُ كَانُ ، وَلَا تَتَخَلَّفُوا عَنْهُ ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ يقول : فإن من يرجو ثواب الله ورحمته في الآخرة لا يرغب بنفسه ولكن تكون له به أسوة في أن يكون معه حيث هو ) (٢) .

( وعن يزيد بن رومان قال : ثم أقبل على المؤمنين فقال : ) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ مَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أَنْ لَا يَرْغُبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا عَنْ مَكَانِهِ ، ﴿وَذِكْرُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ يقول : وأكثُر ذكر الله في الخوف والشدة والرخاء ) (٣) .

( وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه ، في قوله : ) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ . قال : مواساة عند القتال ) (٤) .

( وأخرج ابن مردوه والخطيب ، في رواة مالك وابن عساكر وابن النجاشي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله : ) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ . قال : في جوع رسول الله ﷺ ) (٥) .

(١) الأحزاب / ٢١ - ٢٢ .  
(٢) ، (٣) جامع البيان في تفسير القرآن لابن حجر الطبرى / ١٠ / ٩٠ .

(٤) ، (٥) الدر المثور / ٦ / ٥٨٢ .

و عند القرطبي : ( الثانية : قوله تعالى **﴿أَسْوَةٌ﴾** الأسوة ، القدوة ، والأسوة مaitأسى به ، أى يتعزى به ، فيقتدى به فى جميع أفعاله ، ويتعزى به فى جميع أحواله ، فلقد شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وقتل عمه حمزة ، وجاء بطنه ولم يلف إلا صابراً محتسماً ، وشاكرأراضيا ) <sup>(١)</sup> .

ولابد من عرض نماذج من هذه الأسوة الحسنة فى هذه المواقف العصيبة :

### ١ - في حفر الخندق :

( كان البراء بن عازب يقول : ما رأيت أحداً أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ ، فإنه كان أبيض شديد البياض ، كثير الشعر ، يضرب الشعر منكبيه ، ولقد رأيته يومئذ يحمل التراب على ظهره حتى حال الغبار بيني وبينه ، وإنى لأنظر إلى بياض بطنه ) <sup>(٢)</sup> .

( وقال أبو سعيد الخدري : لكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحفر في الخندق مع المسلمين ، والتراب على صدره وبين عكته ، وإنه ليقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا      ولا تصدقنا ولا صلينا  
يردد ذلك ) <sup>(٣)</sup> .

( وعن أبي واقد الليثي قال : رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحضر الخندق ، فأجاز من أجاز ، ورد من رد ، وكان الغلمان يعملون معه ، الذين لم يبلغوا ولم يجزهم . ولكنه لما حرم الأمر ، أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطم مع الذراري ، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، فلقد كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمغول ، ومرة يغرس بالمساحة التراب ، ومرة يحمل التراب في المكتل ، ولقد رأيته يوماً يبلغ منه فجلس رسول الله ﷺ ، ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به النوم ، فرأيت أبي بكر وعمر واقفين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه ، وأنا قربت منه ، ففزع ووثب ، فقال : « ألا أفترعنوني ! » فأخذ الكرزن يضرب به ، وإنه ليقول :

« اللهم إن العيش عيش الآخرة      فاغفر للأنصار والهاجرة  
فهـم كلفونـي أنقل الحـجـارـة » ) <sup>(٤)</sup> .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / ٧ / ١٤ / ١٥٥ .

(٢) المعاذى للواقدي / ٢ / ٤٤٩ .

(٣) المعاذى للواقدي / ٢ / ٤٥٣ .

## ٤ - خوفه على المسلمين :

( وكانت عائشة زوج النبي ﷺ تقول : لقد رأيت لسعد بن أبي وقاص ليلة ونحن بالخندق لا أزال أحبه أبداً . قالت : كان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثلثة في الخندق يحرسها ، حتى إذا آذاه البرد جاءني فأدفأته في حضني ، فإذا دفني خرج إلى تلك الثلثة يحرسها ويقول :

« ما أخشى أن يؤتي الناس إلا منها ». فيينا رسول الله ﷺ في حضني قد دفني وهو يقول : « ليت رجلاً صالحاً يحرسني الليلة ». قالت : إلى أن سمعت صوت السلاح وقعقة الحديد ، فقال رسول الله ﷺ : « من هذا؟ ». فقال سعد بن أبي وقاص . قال : « عليك بهذه الثلثة فاحرسها ». قالت : ونام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيشه )١( .

وقالت أم سلمة : ( كتت مع رسول الله ﷺ في الخندق فلم أفارقه مقامه كله ، وكان يحرس بنفسه في الخندق ، وكنا في قر شديد ، فإني لأنظر إليه قام فصلني ماشاء الله أمن يصلي في قبته ، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول : « هذه خيل المشركين تعطيف بالخندق ، من لهم؟ » ، ثم نادى : « يا عباد بن بشر ». فقال عباد : ليبيك ! قال : « أمعك أحد؟ ». قال : نعم ، أنا في نفر من أصحابي كنا حول قبتك . قال : « فانطلق في أصحابك فأاطاف بالخندق . فهذه خيل من خيلهم تعطيف بكم ، يطمعون أن يصيروا منكم غرة . اللهم ادفع عننا شرهم ، وانصرنا عليهم وأغلبهم لا يغلبهم غيرك » ، فخرج عباد بن بشر في أصحابه ، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق ، وقد نذر بهم المسلمين ، فرمواهم بالحجارة والنبل ، فوقتنا معهم فرميتم حتى أزلقناهم بالرمي ، فانكشفوا راجعين إلى منزلهم ، ورجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأوجده يصلني فأخبرته . قالت أم سلمة : فنام حتى سمعت غطيشه مما تحرك حتى سمعت بلاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر ، فخرج فصلني بال المسلمين . فكانت تقول : يرحم الله عباد بن بشر ، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبة رسول الله يحرسها أبداً )٢( .

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : ( والله إنني لفي جوف الليل في قبة النبي ﷺ وهو نائم إلى أن سمعت الهيجة ، وسائل يقول :

(١) المغازى للواقدى / ٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

ياخيل الله ! وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين : « ياخيل الله ». ففزع رسول الله ﷺ بصوته ، فخرج من القبة ، فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها ، منهم عباد بن بشر . فقال : « مايال الناس ؟ » قال عباد : يا رسول الله ، هذا صوت عمر بن الخطاب ، الليلة نوبته ينادي « ياخيل الله » والناس يثوبون إليه ، وهو من ناحية حسبكة ما بين ذباب ومسجد الفتح . فقال رسول الله ﷺ . لعباد بن بشر : « اذهب فانظر ، ثم ارجع إلى إن شاء الله فأخبرني ! » .

قالت أم سلمة : فقمت على باب القبة أسمع كل ماتكلمان به . قالت : فلم يزل رسول الله ﷺ قائماً حتى جاءه عباد بن بشر . فقال : يا رسول الله ، هذا عمرو بن عبد ود في خيل المشركين ، ومعه مسعود بن رحية . . . في خيل غطفان ، وال المسلمين يرافقونهم بالنبل والحجارة .

قالت : فدخل رسول الله ﷺ ، فلبس درعه ومغفره ، وركب فرسه ، وخرج معه أصحابه ، حتى أتى تلك الثغرة ، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال : « صرفهم الله ، وقد كثرت فيهم الجراحه ». قالت : فنام حتى سمعت غطيطه ، وسمعت هائعة أخرى ففزع ووثب فصاح : « ياعباد بن بشر ». قال : ليبيك ! قال : « انظر ما هذا ؟ » فذهب ثم رجع فقال : هذا ضرار بن الخطاب في خيل من المشركين ، معه عيينة بن حصن في خيل غطفان عند جبل بنى عبيد ، وال المسلمين يرافقونهم بالحجارة والنبل ، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه ، وركب فرسه ، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة ، فلم يأتنا حتى كان السحر ، فرجع وهو يقول : « رجعوا مغلولين ، قد كثرت فيهم الجراحه » ، ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس )<sup>(١)</sup> .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَأُهُنَّةً﴾ .

فرسول الله ﷺ القدوة لصحبه ، يجوع أكثر مما يجوعون ، ويتعذب أكثر مما يتذعون ، ويقوم بنفسه عليه الصلاة والسلام على ثلامة الخندق فيحرسها ، ولا تذوق عينه الغمض عندما يسمع الهيبة ، فينهض فرعاً ، وعندما يتأكد عن الاتصال مع العدو يدع فراشه ، ويلبس درعه ومغفره ، ويمتنى فرسه ، ويمضي إلى ساحة التزال حتى يطمئن على هزيمة المشركين ، وقد يتم ذلك في الليلة الواحدة مرة ومرات ، ويستبick المسلمين في القتال فيكون على رأس الجيش ، حتى ليحال بينه وبين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٦٦ .

وهم في اشتباكهم مع العدو ، وحين يود أن يطعم لا يرضي أن يطعم لوحده بل ينادي : « يأهل الخندق ، إن أحاكم جابر قد صنع لكم طعاماً ». ويقوم هو عليه الصلاة والسلام بذاته الشريفة يطعم أصحابه ، يغفر من البرمة ، ويتناول الخبز ، حتى يتنهوا عن آخرهم وهم قرابة ألف أو يزيدون ، حتى وعندما يكون الطعام تغيرات يد جارية أنصارية صغيرة لا يرضي إلا أن ينادي المسلمين إلى هذا الطعام ، ويقدمه لهم بشوبه ، ويأكل بعد أن يصدرروا جميعاً شباعاً ، وحين تدلهم الخطوب ، وتشتد المحن يتصل بقيادات غطفان في محاولة لتفتيت الصف المشرك ، ويتابع الأخبار داخل المدينة ، الذراري النساء ، ويبعث من يحرسهم طيلة الليل ، لقد كان عليه الصلاة والسلام سيد الصابرين وسيد المجاهدين ، وأول الماجعين ، وأشد العاملين ، فلا غرو أن يفتدي به صحبه آباءهم وأمهاتهم وأنفسهم وأرواحهم ، فتأسوا به ، واقتفوا بهديه ، واقتدوا بسته .

ولقد رأينا ذلك التأسي العظيم برسول الله ﷺ ، ففي الوقت الذي لا يرقى لرسول الله ﷺ حضن خوفاً على جنده أن يأتيهم عدوهم من تلك الثلعة ، لا يرقى لسعد بن أبي وقاص جفن خوفاً على قائده عليه الصلاة والسلام فيكون في بهيم الليل حول قبته يحرسه ، وفي الوقت الذي يلبس رسول الله ﷺ سلاحه ودرعه ومفره ، ويمتنع فرسه ليشارك جنده القتال ، كانت عين عباد بن بشر وصحبه الذين معه باتت تحرس رسول الله ﷺ في الليل والنهار ، ومع الإشارة أو الكلمة يكون عباد بين يدي قائده يتلقى منه التوجيهات والأوامر ، وكذلك كان المسلمون جميعاً ، مما من محاولة للتسلل والانقضاض من أي جهة من جهات الخندق ، إلا وصدت بعنف وصلابة ، حتى يعود المشركون متخين بالجرح ، وعندما دعا داعي المواجهة كان الجيش الإسلامي كله يواجه ، ويتلقي عنف الحرب وضراوة المعركة ، حتى ليعجز عن صلاة الأوقات الأربع ، وهو يصد الهجوم الكبير والرمح الرهيب .

﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُوهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ .

ألا ياروعة الشفاء على هؤلاء المؤمنين .

وكم الهوة سقيقة ، والبون شاسع بين من يقولون : ﴿مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .

وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُونَ : ﴿هَذَا مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَصَدِقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًاً وَتَسْلِيمًا﴾ .

فهل أحس المنافقون بثقل المخنة فقط؟ .

أبداً، لقد كانت المخنة شديدة الوطأة على الفريقين معاً، وكلما الفريقين نزل به الخوف والفرغ، لكن المنافقين نجم نفاقهم، وتزعرع إيمانهم، وكشفوا خبث طويتهم .  
أما المؤمنون فقد زادوا تمسكاً بدينهם، وثقة بربهم، وتسليماً لقدره، وإيماناً بنصره وتمكينه :

﴿وَلَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَصَدِقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ .

( أخرج ابن حجرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿وَلَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ . . .﴾ إلى آخر الآية قال : إن الله تعالى قال لهم في سورة البقرة : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَا يَأْتُكُمْ مِثْلُ الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مُسْتَهْمِنِ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنْ نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فلما مسهم البلاء حيث رابط الأحزاب في الخندق ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَصَدِقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فتأول المؤمنون ذلك ، فلم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً )<sup>(1)</sup> .

فلم يحس المؤمنون باقتراب نصر الله إلا مع هول المخنة وشدتها ، ولم يروا هذه الآية :  
﴿وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَصْرُ اللَّهِ . . .﴾ إلا في هذه الشدة وهذا الكرب ، فزادهم ثقة بربهم أنهم صاروا على وشك النصر : ﴿أَلَا إِنْ نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ .

وقول ثان رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده قال : ( خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال : « أخبرني حبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها - يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى - فأبشروا بالنصر » فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله ، موعد صادق ، إذ وعدنا النصر بعد الحصار ، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : ﴿هَذَا مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾ ذكره الماوردي .. ﴿وَمَا زَادُهُمْ

(1) الدر المشور / 6 / ٥٨٥ .

﴿إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ قال الفراء : وما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيماناً وتسليماً ..  
والمعنى : ما زادهم الرؤية إلا إيماناً بالرب وتصديقاً بالقضاء ، قاله الحسن . . . ولما اشتد  
الأمر على المسلمين ، وطال المقام في الخندق ، قام عليه الصلاة والسلام على التل الذي  
عليه مسجد الفتح في بعض الليالي ، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : « من يذهب  
لتأتينا بخبرهم وله الجنة » فلم يجده أحد ، وقال ثانياً وثالثاً فلم يجده أحد ، فنظر إلى جانبه  
وقال : « من هذا؟ » فقال : حذيفة . فقال : « ألم تسمع كلامي منذ الليلة؟ » قال حذيفة :  
فقلت يا رسول الله ، معنني أن أجيبك الضر والضر . قال :

« انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم ، اللهم احفظه من  
بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماليه حتى ترده إلى ، انطلق ولا تحدث شيئاً  
حتى تأتيني ». .

فانطلق حذيفة بصلاحه ، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول : « يا صريخ المكرورين ،  
ويا مجيب المضطرين ، اكشف همي وغمي وكربي ، فقد ترى حالى وحال أصحابى »  
فنزل جبريل وقال :

« إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك ». .

فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه ، وأرخي عينيه وهو يقول :  
« شكرأً شكرأً كما رحمتني ورحمت أصحابي ». .

وأنجبه جبريل أن الله تعالى مرسلاً عليهم ريحًا ، فبشر أصحابه بذلك .

قال حذيفة : فانتهيت إليهم ، وإذا نيرانهم تنقد ، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء ،  
فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها ، ولا بناء إلا طرحته ، وجعلوا يتtersون في الحصباء .

وقام أبو سفيان إلى راحلته ، وصاح في قريش : النجاء النجاء ! وفعل كذلك عيينة بن  
حسن والحارث بن عوف والأقرع بن حabis ، وتفرقـت الأحزاب ، وأصبح رسول الله  
ﷺ فعاد إلى المدينة ، وبه من الشعـث ماشاء الله ، فجاءـته فاطمة بـغسـولٍ فـكـانت تـغـسل  
رأـسـه ، فـأـتـاهـ جـبـرـيـلـ قـفـالـ : « وـضـعـتـ السـلاحـ وـلـمـ تـضـعـهـ أـهـلـ السـمـاءـ ، مـازـلـتـ أـتـبـعـهـمـ حتـىـ  
جاـوزـتـ بـهـمـ الروـحـاءـ ». ثم قال : « انهض إلى بني قريظة ». .

وقال أبو سفيان : مازلت أسمع قفعـةـ السـلاحـ حتـىـ جـاـوزـتـ الروـحـاءـ )<sup>(1)</sup> .

(1) الحامـعـ لأـحكـامـ الـقـرـآنـ لـإـلـامـ الـقـرـطـبـيـ / ١٤ / ٧ / ١٥٧ .

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظرون ما بدلوا تبديلا ﴾ .

ونقف مع هذه الآية من ثلاثة جوانب : سبب نزولها ، وتعدد معناها ، ونماذج من هؤلاء الرجال الذين استحقوا هذا التقرير و الشفاء من ربهم عز وجل .

روى البخاري ومسلم والترمذى عن أنس قال : (عمرى أنس بن النضر - سميت به - ولم يشهد بدرأً مع رسول الله ﷺ فكبر عليه فقال : أول مشهد شهد رسول الله ﷺ غبت عنه ، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرى الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واهـا لريح الجنة : أجدها دون أحد ؛ فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون مائين ضربة وطعنة ورمية . فقلـت عـمتـى الـرـبـيع بـنـتـ النـضـرـ : فـمـاـ عـرـفـتـ أـخـيـ إـلـاـ بـيـانـهـ .

ونزلت هذه الآية : ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظرون ما بدلوا تبديلا ﴾ لفظ الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح <sup>(١)</sup> .

( وروى البيهقى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مرّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودعاه ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ﴾ إلى ﴿ تبديلا . ثم قال رسول الله ﷺ :

«أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيمة فأتوهم وزوروهم ، والذى نفسي بيده لا يسلـمـ عـلـيـهـ أحـدـ إـلـىـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ إـلـاـ رـدـواـ عـلـيـهـ » <sup>(٢)</sup> .

وفي معنى الآية :

( القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظرون ما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيمـاـ ﴾ يقول تعالى ذكره :

(١) المصدر نفسه / ١٤ / ٧ / ١٨٩ . وهو عند الترمذى ، كـ تفسير القرآن / ب / ٣٤ / ٣٢٠٠ جـ ٥ / صـ ٣٤٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطى / ٧ / ٤ / ١٨٩ ، والدر المنشور / ٦ / ٥٨٦ ، وقال : أخرجـهـ الحـاـكـمـ وـصـحـحـهـ وـتـعـقـبـهـ الذـهـبـىـ ، والـبـيـهـقـىـ فـىـ الدـلـائـلـ عـنـ أـبـىـ هـرـيرـةـ .

من المؤمنين بالله ورسوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، يقول : أوفوا بما عاهدوه عليه من الصبر على اليساء والضراء وحين البأس ، فمنهم من قضى نحبه ، يقول فمنهم من فرغ من العمل الذى كان نذره لله ، وأوجبه له على نفسه ، فاستشهد بعض يوم بدر ، وبعض يوم أحد ، وبعض فى غير ذلك من المواطن ، ومنهم من يتضرر قضاءه والفراغ منه كما قضى من قصوى منهم على الوفاء لله بعهده ، والنصر من الله الظفر على عدوه .

والنحب : النذر فى كلام العرب ، وللنحب أيضاً فى كلامهم وجوه غير ذلك ، منها الموت كما قال الشاعر : قضى نحبه فى ملتقى القوم هزبر .

يعنى منيته نفسه ، ومنها الخطر العظيم كما قال جرير :

بطخفة جالدنا الملوك وخينا      عشية بسطام جرين على نحب

أى على خطر عظيم ، ومنها النحيب ، يقال : نحب فى سيره يومه أجمع ، إذا مد فلم ينزل يومه وليلته .. وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل )<sup>(١)</sup> .

وأخرج الترمذى ، عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل : سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسأله يوقرونه ويهابونه ، فسألته الأعرابي فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ، ثم إنى اطلعت من باب المسجد وعلى ثياب حضر ، فلما رأى رسول الله ﷺ قال : « أين السائل عمن قضى نحبه؟ ». قال : أنا يا رسول الله . قال :

« هذا من قضى نحبه ». .

وقال : هذا حديث حسن غريب لانعرف إلا من حديث يونس بن بكير )<sup>(٢)</sup> :

فإذا كان النحب الأجل ، فهو ينطق على أنس بن النضر ومصعب بن عمير ، شهداء المسلمين الذين قصوا أجلهم ، واستشهدوا فى المعركة على الوفاء بعهدهم الذى عاهدوا ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ومؤمنون الصادقون يتذمرون أجلهم وهم على ما هم عليه .

وإذا كان النحب العهد ، فهو ينطق على طلحة بن عبيد الله الذى وفى بما عاهد عليه

(١) تفسير الطبرى م / ١٠ ج / ٩٢ .

(٢) الترمذى كتاب تفسير القرآن / باب ٣٤ / ج ٥ / ح ٣٢٠٣ / ص ٣٥٠ .

الله ، وأمثاله الذين جاهدوا في الله حق جهاده .

وطلحة رضي الله عنه الذي فاز بهذه الشهادة ، هو الذي أسماه رسول الله ﷺ بالشهيد الحى ، كما ورد في الحديث :

« من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله ». <sup>(١)</sup>

ولايغيب عن البال كذلك أن أحداً إذا ذكرت أمام أبي بكر رضي الله عنه كان يقول :

ذلك يوم كله لطلحة .

وهو الذي جاهد جهاد الأحد عشر أنصارياً وحده ، وهو يذب عن رسول الله ﷺ .  
وحين نعلم أن هذه الآية قد نزلت في أحد ، ثم نزلت ثانية في آيات الأحزاب ، أو  
وضعت فيها بأمر رسول الله ﷺ ، وأنها كادت تُفقد ، كما في الحديث الذي أخرجه  
أحمد ، وعبد الرزاق ، والبخاري ، والترمذى ، والنسائى ، وابن أبي داود في المصاحف ،  
والبغوى ، وابن مردويه ، والبيهقي في سنته ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

( لما نسخنا المصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع  
رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل  
رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ صَدَقَ مَا عَاهَدَ اللَّهَ عَلَيْهِ . . . . ﴾ فألحقتها في سورتها في المصحف ) <sup>(٢)</sup> .

حين نعلم ذلك لا بد لنا أن نرجع على نماذج من قضايا نجدهم في الخندق وصدقوا  
ما عاهدوا الله عليه .

من النماذج في الخندق :

أ - من نماذج الأنصار : خوات بن جبير . قال :

دعاني رسول الله ﷺ ونحن محاصرون في الخندق ، فقال : « انطلق إلى بنى قريظة  
فانظر هل ترى لهم غرة أو خللاً من موضع فتخبرني » قال : فخرجت من عنده عند

(١) الترمذى ، كتاب المناقب ٥٠ / ب ٢٦ / ج ٥ / ح ٣٩٣٩ / ص ٦٤٤ ، وقال : حديث غريب .

(٢) الدر المثور ٦ / ٥٨٦ ، وهو في البخارى كتاب التفسير / الأحزاب / ج ٥ / ص ١٤٦ .

غروب الشمس ، فتدلىت من سُلْعٍ وغربت لى الشمس فصليت المغرب ، ثم خرجت حتى أخذت في راتح ، ثم على عبد الأشهل ، ثم في زهرة ، ثم على بعاث ، فلما دنوت من القوم قلت : أكبم لهم ، فكمنت ورفعت الحصون ساعة ، ثم ذهب بي النوم فلمأشعر إلا برجل قد احتملني وأنا نائم ، فوضعني على عنقه ثم انطلق يمشي . قال : ففرزعت ورجل يمشي بي على عاتقه فعرفت أنه طليعة من قريطة ، واستحييت تلك الساعة من رسول الله ﷺ حياءً شديداً ، حيث ضيعت ثغراً أمرني به ، ثم ذكرت غلبة النوم . قال : والرجل يرقل بي إلى حصونهم ، فتكلم باليهودية فعرفته قال : أبشر بجزرة سمينة ! – يزيد أنه سيفته مقتلة عظيمة .

قال : وذكرت وجعلت أضرب يدي – وعهدى بهم لا يخرج أحد منهم إلا بمعول في وسطه . قال : فأضع يدي على المعول فأتنزعه ، وشغل بكلام رجل من فوق الحصن ، فانتزعته فوجأت به كبده فاسترخي وصاح : السبع ! فأوقدت اليهود النار على آطامها بشعل السعف ، ووقع ميتاً وانكشف ، فكنت لا أدرك ، وأقبل من طريقى التي جئت منها . وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : « ظفرت يا خوات » ! ثمخرج فأخبر أصحابه فقال : « كان من أمر خوات كذا وكذا » .

وأتي رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه وهم يتحدثون ، فلما رأني قال : « أفلح وجهك » ! قلت : ووجهك يارسول الله ! قال : « أخبرني خبرك » ، فأخبرته ، فقال النبي ﷺ : « هكذا أخبرني جبريل » ، وقال القوم : هكذا حدثنا رسول الله ﷺ .

وفي رواية قال خوات : فرأيتني وأنا أذكر سوء أثرى عندهم بعد مالحة وخلصية منى لهم . فقلت : هم يمثلون بي كل المثل حتى ذكرت المعول )<sup>(۱)</sup> .

### ب - من نماذج المهاجرين :

( ثم إن رؤسائهم أجمعوا أن يغدو جميعاً ، فغدا أبو سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبي وهب ، ونوفل بن عبد الله المخزومي ، وعمرو بن عبد – ونوفل بن معاوية الديلي ، في عدة فجعلوا يطيفون بالخندق ، ومعهم رؤسائهم غطفان : عبيدة بن حصن ، ومسعود بن رخيلا ، والحارث بن عوف ، ومن سليم رؤسائهم ، ومن بنى أسد طليحة بن خويلد ، وتركوا

(۱) المقازي للواقدي / ۲ / ۴۶۰ .

الرجال منهم خلوفاً ، يطلبون مضيفاً يريدون يقتربون خيلهم إلى النبي ﷺ وأصحابه ، فانتهوا إلى مكان قد أغفله المسلمون ، فجعلوا يكرهون خيلهم ويقولون : هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدوها ، قالوا : إن معه رجلاً فارسياً فهو الذي أشار عليهم بهذا . قالوا : فمن هناك إذاً . فعبر عكرمة بن أبي جهل ، ونوفل بن عبد الله ، وضرار بن الخطاب ، وهبيرة بن وهب ، وعمرو بن عبد ، وقام سائر المشركين من وراء الخندق لا يعبرون ، وقيل لأبي سفيان : ألا تعبّر ؟ قال : قد عبرتم ، فإن احتجتم إلينا عبرنا )<sup>(١)</sup> .

قال ابن إسحاق : ( وكان عمرو بن عبد و قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه )<sup>(٢)</sup> .

ووقع في مغازى ابن إسحاق من غير رواية ابن هشام عن البكائى فيها زيادة حسنة رأيت أن أوردها هنا تتميماً للخبر :

قال ابن إسحاق : ( إن عمرو بن ود خرج فنادى : هل من مبارز ؟ فقام على - رضى الله عنه - وهو مقنع بال الحديد فقال : أنا له يابني الله ، فقال : « إنه عمرو اجلس ». ونادى عمرو : ألا رجل - يؤنبهم - ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ، أفلأ تبررون لي رجلاً . فقام على ، فقال : أنا له يارسول الله ، فقال : « اجلس إنه عمرو » ، ثم نادى الثالثة وقال :

ولقد بحثت من النداء بجمعكم هل من مبارز ؟  
ووقفت إذ جن المشجع موقف القرن المناجر  
وكذاك إنى لم أزل متسرعاً قبل الهراء  
إن الشجاعة في الفتى ، والجود من خير الغرائز

فقام على فقال : يارسول الله ، أنا له . فقال « إنه عمرو ». قال : وإن كان عمراً ، فأذن له النبي ﷺ - فمشى إليه على حتى آتاه وهو يقول :  
لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز  
ذو نبة وبصيرة ، والصدق منجي كل فائز  
إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز  
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهراء

---

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٤٧٠ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام / م / ٢٢٠ .

فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا على ، قال : ابن عبد مناف ؟ . فقال : أنا ابن أبي طالب . فقال : غيرك يابن أخي من أعمامك من هو أحسن منك ، فإني أكره أن أهريق دمك . فقال له على رضي الله عنه : ولكن والله لا أكره أن أهريق دمك . فغضب ونزل فسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو على مغضباً ، وذكر أنه كان على فرسه ، فقال له على : كيف أقاتلك ، وأنت على فرسك ، ولكن انزل معى فنزل عن فرسه ثم أقبل نحو على ..

وقول عمرو لعلى : والله ما أحب أن أقتلك زاد فيه غيره : فإن أباك لي صديقاً ، قال الزبير : كان أبو طالب ينادم مسافر بن أبي عمرو فلما هلك اتخد عمرو بن ود نديماً . فلذلك قال لعلى حين بارزه ما قال )<sup>(١)</sup>.

وعند الواقدي : ( وأقبل عمرو يومئذ وهو فارس وعلى راجل فقال له على : إنك كنت تقول في الجاهلية : لا يدعوني أحد إلى واحدة من ثلات إلا قبلتها ! قال : أجل . قال على : فإني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتسليم لله رب العالمين . قال : يابن أخي آخر هذا عنى . قال فأخرى ترجع إلى بلادك فإن يكن محمد صادقاً كنت أسعد الناس به ، وإن كان غير ذلك كان الذي تريده . قال : هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً ، وقد نذرت مانذرت وحرمت الدهن . قال : فالثالثة ؟ قال : البراز . قال : فضحك عمرو ثم قال : إن هذه الخصلة ما كتبت أظن أحداً من العرب يرومني عليها . إنني لأكره أن أقتل مثلك وكان أبوك لي نديماً ؛ فارجع فأنت غلام حدث ، إنما أردت شيخي قريش ! أبا بكر وعمر . قال . فقال على عليه السلام : فإني أدعوك إلى المبارزة فإنما أحب أن أقتلك . فأسف عمرو ونزل وعقل فرسه .

فكان جابر يحدث فيقول :

فدننا أحدهما من صاحبه وثارت بينهما غبرة فما نراهما ، فسمعنا التكبير تختها ، فعرفنا أن علياً قتلها . فانكشف أصحابه الذين في الخندق هاربين )<sup>(٢)</sup> .

وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو فقال حسان بن ثابت في ذلك :

فر وألقى لنا رمحه      لعلك عكرم لم تفعل

(١) الروض الأنف للسهيلي / م ٢ / ج ٢ . ٢٧٩ .

(٢) المنغاري للواقدي .

ووليت تعدو كعدو الظليم (١)  
ما إن تجسور عن المعدل  
ولم تلق ظهرك مستائساً  
كأن قفاك قفا فرع (٢) (٣).

وعن على بن أبي طالب إلى الزبير بن العوام ابن عمته :

عن ابن المنكدر قال : ( سمعت جابر يقول : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « من يأتينا بخبر القوم » ) (٤). فقال الزبير : أنا . ثم قال « من يأتينا بخبر القوم ؟ ». فقال الزبير أنا ، ثم قال : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير أنا . ثم قال « إن لكل نبى حوارى ، وحوارى الزبير » (٥).

وعنه كذلك : أنه حمل على نوفل بن عبيد الله المخزومى بالسيف حتى شقه باثنتين ، وقطع أندوج سرجه - والأندوج اللbd الذى يكون تحت السرج - ويقال : إلى كاهل الفرس . فقيل : يا أبا عبد الله ، ما رأينا سيفاً مثل سيفك ! فيقول : والله ما هو بالسيف ولكنها الساعد . وهرب عكرمة وهبيرة فلحقا بأبي سفيان ، وحمل الزبير على هبيرة فضرب ثغر فرسه (٦) فقطع ثغر فرسه ، وسقطت درع كان محققاً لفرس فأخذ الزبير الدرع ، وفر عكرمة وألقى رمحه .

ومن الزبير بن العوام رضى الله عنه إلى أمه صفية بنت عبد المطلب :

قال ابن إسحاق : ( وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال : كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت قالت : وكان حسان معنا فيه النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد

(١) الظليم : ذكر العام . (٢) الفرع : ولد الضبع .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦.

(٤) في التحقيق أن المقصود بخبر القوم هنا هم بنو قريطة ونقضهم للعهد ، حيث ورد عنه رضي الله عنه ذلك وجاء بأخبارهم وكى لا تتعارض مع الأخبار الصلاح الواردة عن حدثة رضي الله عنه في خبر قريش عند اشتداد الريح ويقطع بهذا المعنى ما رواه البخارى رحمة الله عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء ، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريطة مرتين أو ثلاثة ، فلما رجعت قلت : يا أبايت : رأيتك تختلف قال : أو هل رأيتي يابنى ؟ قلت : نعم ، قال : كان رسول الله ﷺ قال : « من يأتى ببني قريطة فيأتينى بخبرهم » فانطلقت ، فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه فقال : « فداك أبى وأمى » انظر : كتاب ٦ / جه / ص ٢٧ .

(٥) البخارى كتاب المناقب / ب / غزوة الخندق / ج ٥ ص ١٤٢ .

(٦) ثغر الفرس : السير في مؤخر السرج .

حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عننا ، ورسول الله ﷺ وال المسلمين في نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا وإن أثنا آت . قالت . فقلت : يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحسن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فائز إله فاقتله ، قال : يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا : قالت : فلما قال لي ذلك ، ولم أر عنده شيئا ، احتجزت ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلتة . قالت : فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن قلت : يا حسان ، انزل إليه فاسليه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . قال : مالى بسلبه من حاجة يابنة عبد المطلب )<sup>(١)</sup> .

وتبقى هذه الآية أبد الدهر ، تصف الرجال من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، وممضى إلى ربه ، ووفى بذمته وعهده ، ومنهم من ينتظر أن يحين الأوان للوفاء بعهده ، والجهاد في سبيل الله عز وجل ، وما بدلوا تبديلا .

( لِيَجزِي اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصَدْقِهِمْ ) أى أمر الله بالجهاد ليجزى الصادقين في الآخرة بصدقهم ( وَيَعْذِبُ الْمُنَافِقِينَ ) في الآخرة ( إِنْ شَاءَ ) أى إن شاء أن يعذبهم لم يوفهم للتوبة وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا )<sup>(٢)</sup> .

(١) السيرة النبوية لأبي هشام / ٢٢٨ / ٢ . هذا وقد اختلفت آراء العلماء في هذه الرواية ، قال : السهيلي في الروض الأنف م ٢ / ٢٨١ ج ٣ : ( ومجمل هذا الحديث عند الناس أن حساناً كان جباناً شديد الجبن ، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكروا ، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد ، وقال : لو صع هذا لهجي به حسان ، فإنه كان يهاجي الشعراء كضرار و ابن الزبير وغيرهما ، وكانتا يناظرنه ويردون عليه فيما غيره أحد بجين ولا وسمه به ، فدل هذا على ضعف حديث ابن إسحاق ، وإن صع فلعل حساناً أن يكون معتلاً بعلة منعه من شهود القتال . وهذا أولى متأولاً .. ومن أنكر أن يكون هذا صحيحًا أبو عمر رحمة الله في كتاب الدرر له ) .

أما الررقاني فقال في شرحه على المواهب اللدنية ٢ / ١١٢ ( وإنما كان أولى لأن ابن إسحاق لم ينفرد به بل جاء بسند حسن متصل كما علم فاعتضد حديثه ، وقد قال ابن السراج : سكت الشعرا عن تعبيره بذلك من أعلام النبوة ؛ لأنه شاعره )<sup>(٣)</sup> .

وأضيف : إن حساناً رضي الله عنه كان في الحصن ابتداءً مع النساء ، وقد كان كبيراً في سنه حيث تجاوز الخامسة والستين من عمره ، هذا إضافة إلى ما ورد من أنه شلت أصابعه في حرب بعاث ، فلا يستطيع الإمام بالسيف ، ولهذا عندما كان يغير الآخرين بالجبن لم يقابله أحد بذلك ، لاستفاضة ذلك عنه . وقد غير عكرمة بن أبي جهل في فراره عن عمرو بن عبد ود في هذه المعركة .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٧ . ١٩٠ .

وهكذا نجد في ختام هذه الآية التلويع للمنافقين أن يؤبوا إلى الله ، فلا يزال باب التوبة مفتوحاً إذا انسلخوا من ذلك المستنقع الآسن الذي يخوضون فيه ، ومغفرة الله ورحمته يمكن أن تشملهم لو انضموا إلى الصف المؤمن ، انضماماً صادقاً مخلصاً ، بعيداً عن التبذيب والرياء والمصلحة .

حيث وضح لهم الطريق في ختام آيات المنافقين في النساء :

﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾<sup>(١)</sup> .

إن المستويات الإيمانية تدرج ، والإيمان يزيد وينقص ، وكان لابد من إبراز النماذج الإيمانية العالية في هذه المعركة وفي معركة أحد ، فكان أن اختبر من المؤمنين رجال :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. ﴾ .

وهذا الطراز الرفيع من المؤمنين . يستوى فيه من استشهد . ومن بقى على العهد يتضرر الفرصة المواتية لি�تابع الطريق الشاق الطويل ، المهم أن لا يبدل ولا يغير ، ويبقى على العهد إلى أن يلقى ربه ويقضى نحبه .

ومن أعلى المستويات الإيمانية : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ إلى الدرك الأسفل من الرجال في الدنيا وهم المنافقون – والدرك الأسفل في النار من التعذيب لهؤلاء المنافقين . ولكن هل هذا قدر لازب لا يتغير على هؤلاء المنافقين ، وبذلك يقف المؤمن عند ذروته ، ويقف المنافق عند دركه الأسفل .

أبداً ، ففي منهج التربية القرآنية لابد من الاعتصام بالله عز وجل .

فالطراز العالى من الرجال ، والنماذج الرفيعة من المؤمنين ، حتى تحافظ على مستواها ، لابد من الثبات ومن الاستقامة على النهج لتحافظ على هذه الرتبة : ﴿ وما بدلوا تبديلاً ﴾ .

أما إذا بدلوا وغيروا وضفروا عن قضاء نحبهم والوفاء بعهدهم ، فقد يهبطون إلى المستوى العادى من المؤمنين ، ولو بدلوا أكثر فأكثر . وانسلخوا من آيات الله واتبعوا

(١) النساء / ١٤٥ - ١٤٧ .

هواهم ، فقد يتبعون الهبوط إلى المستوى الأدنى ، إلى المنافقين ويكون جزاؤهم التعذيب .

ليست القضية في ميزان الله عز وجل ، قضية أوسمة وبناثين . وطبقية موروثة .  
لابد من تأدية الضريبة الباهظة للموقع العالى ، ضريبة الصدق والوفاء بالعهد ، ودفع الدم  
والروح ثمناً لهذا الدين ﴿وَمَا بَدُلو تَبْدِيلًا﴾ .

وفي الصورة المقابلة ، فالطريق مفتوح أمام الدرك الأسفل للارتفاع والسمو .

ليس قدراً وليس أمراً وراثياً مضروباً عليهم ، مفروضاً عليهم أن يبقوا هناك . إن  
إمكانية التخلص من الوحل قائمة ، وإمكانية التدارك للتخلص من العذاب قائمة إذا ﴿تَابُوا  
وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فسيكونون مع المؤمنين .

وسينتقلون وبالتالي : من العذاب الشديد إلى الأجر العظيم : ﴿وَسُوفَ يُؤْتَنَ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعِذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتَمْ﴾ .

إنها عظمة هذا الدين ، وعظمة هذا المنهج ، وهذا هو ما انحرض على إبرازه  
وجلائه ، ونحن نأخذ من التربية القرآنية مباشرة ، ونضع أحدهات السيرة في خدمة  
النص القرآني يجعلى معانيه ويوضح غامضه ، ويأخذ بيد الضعفاء إلى السمو والارتفاع ،  
ويمسك بالأقوباء أن يقعوا أو ينحدروا .

وتتأتي صورة المجتمع النبوى العظيم الذى برزت فيه آثار هذه التربية ، فالذين سقطوا  
بعد السمو ، أفراد قد لا يتجاوزون عدد أصابع اليad الواحدة ، أما الذين ارتفعوا وارتقاوا ،  
وأخلصوا دينهم لله ، وصاروا مع المؤمنين فقد كانوا بالمقاتل ، واستطاع المجتمع القوى  
السليم أن يرتفع بهم إلى مستوى ويصهرهم في بوتقته ، ويصبحوا من اللبنات الأساسية فى  
البناء الإسلامى .

﴿وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقَتَالَ  
وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (١) .

( قوله تعالى : ﴿وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْرًا ..﴾ قال محمد بن

(١) الأحزاب / ٢٥ .

عمرو يرفعه إلى عائشة : قالت : ﴿الذين كفروا﴾ ها هنا أبو سفيان وعبيدة بن بدر ، ورجع أبو سفيان إلى تهامة ، ورجع عبيدة إلى نجد ، ﴿وَكفى الله المؤمنين القتال﴾ بأن أرسل عليهم رحمةً وجندوا حتى رجعوا ، ورجعت بنو قريطة إلى صياصيهم فكفى أمر قريطة بالرعب ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ أمره ﴿عَزِيزًا﴾ لا يغلب )<sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال : لما كان يوم الأحزاب حضر النبي ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل أمراء منهم الكرب ، وحتى قال النبي ﷺ : « اللهم إني أنسدك عهديك وعدك ، اللهم إنك إن شئت لا تعبد » فيبينما هم على ذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشعري ، وكان يأمهن الفريقان جميعاً ، فخذل بين الناس ، فانطلق الأحزاب منهزمين بغیر قتال فذلك قوله : ﴿وَكفى الله المؤمنين القتال﴾ )<sup>(٢)</sup>.

( وأخرج ابن مardonيه ، عن جابر رضى الله عنه قال ، لما كان يوم الأحزاب رد لهم الله ﴿بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ فقال النبي ﷺ : « من يحمي أعراض المسلمين؟ » قال كعب رضى الله عنه : أنا يا رسول الله . قال عبد الله بن رواحة : أنا يا رسول الله . فقال : « إنك تحسن الشعر ». فقال حسان : أنا يا رسول الله فقال : « نعم اهجهم أنت ، فإنه سيعينك عليهم روح القدس معك » )<sup>(٣)</sup>.

يقول تعالى ذكره ﴿وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ به وبرسوله من قريش وغطفان ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ يقول : بكر بهم وغمهم بقوتهم ما أملوا من الظفر ، وخبيتهم مما كانوا طمعوا فيه من الغلبة ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ يقول : لم يصيروا من المسلمين مالا ولا إساراً ، ﴿وَكفى الله المؤمنين القتال﴾ بجنود من الملائكة والرياح التي بعثها عليهم وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل )<sup>(٤)</sup>.

وعن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري ، عن أبيه ، قال : حبسنا يوم الخندق عن الصلاة فلم نصل الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ، حتى كان بعد العشاء بهوى كفينا وأنزل الله : ﴿وَكفى الله المؤمنين القتال وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ فأمر رسول الله ﷺ بلا فأقام الصلاة وصلى الظهر فأحسن صلاتها كما كان يصليها في وقتها ، ثم صلى

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي / ١٤ / ٧ - ١٩٠.

(٢، ٣) الدر المشور / ٦ / ٥٩٠.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبرى / م / ١٠٠ ، ج / ١ ، ص ٩٤ .

العصر كذلك ، ثم صلى المغرب كذلك ، ثم صلى العشاء كذلك . جعل لكل صلاة إقامة وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ) .

هذا أهم ما أوردته كتب التفسير حول هذه الآية ، ونعود إلى السيرة لنشهد اللحظات الأخيرة من المعركة ، وكيف رد الله الذين كفروا بغيظهم وكفى الله المؤمنين القتال .

( فلما رجعوا إلى أبي سفيان قال : هذا يوم لم يكن لنا فيه شيء ارجعوا ، فنفرت قريش إلى العقيق ، ورجعت غطفان إلى منازلها ، واتعدوا يغدون جميعاً ولا يتخلّف منهم أحد ، فباتت قريش يعيشون أصحابهم ، ووافوا رسول الله ﷺ بالخندق قبل طلوع الشمس ، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وحضتهم على القتال ، ووعدهم النصر إن صبروا ، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم ، فأخذنوا بكل وجه من الخندق .

فحديثي الضحاك بن عثمان ، عن عبيد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قاتلوانا يومهم ، وفرقوا كتائبهم ، ونحووا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد ، فقاتلهم يوم ذلك ، إلى هوى من الليل وما يقدر رسول الله ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم ، وما يقدر رسول الله ﷺ على صلاة الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ، فجعل أصحابه يقولون : يا رسول الله ، ما صلينا : فيقول : « ولا أنا والله ما صليت » ! حتى كشفهم الله تعالى فرجعوا متفرقين ، فرجعت قريش إلى منازلها ، ورجعت غطفان إلى منازلها ، وانصرف المسلمون إلى قبة النبي ﷺ ، وأقام أسميد بن حضير على الخندق في مائتين من المسلمين . فهم على شفير الخندق إذ كرت خيل من المشركين يطلبون غرفة عليهم خالد بن الوليد ، فناوشوهم ساعة ومع المشركين ، وحشى فزرق الطفيلي بن النعمان من بنى سلمة بمزرقه فقتله . فكان يقول : أكرم الله تعالى حمزة والطفيلي بحربي ولم يهني بأيديهما ، فلما صار رسول الله ﷺ إلى موضع قبته أمر بلا فأذن ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : أمره رسول الله ﷺ فأذن وأقام للظهور ، وأقام بعد لكل صلاة إقامة إقامة )<sup>(١)</sup> .

وكان عبد الله بن أبي أوفى يحدث أن رسول الله ﷺ دعا على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم » .

(١) المغارى للواقدى / ٢ / ٤٧٢ .

( فحدثني كثير بن زيد ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن جابر ابن عبد الله ، قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب في مسجد الأحزاب يوم الإثنين ، ويوم الثلاثاء ، ويوم الأربعاء ، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء . قال : فعرفنا السرور في وجهه . قال جابر : فما نزل بي أمر غائب لهم إلا تحيطت تلك الساعة من ذلك اليوم فأدعوه الله ، فأعرف الإجابة ) <sup>(١)</sup> .

وقال أبو نعيم بسنده عن حذيفة : ( إن الناس تفرقوا عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب ، فلم يبق معه إلا إثنا عشر رجلاً ، فأتاني رسول الله ﷺ وأنا جاث من البرد فقال : « انطلق إلى عسكر الأحزاب » فقلت : والذى بعثك بالحق ، ما قمت إليك من البرد إلا لحياء منك . قال « فانطلق يابن اليمان فلاباس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلى » . فانطلقت إلى عساكرهم فوجدت أبي سفيان يوقد النار في عصبة حوله ، قد تفرق الأحزاب عنه ، حتى إذا جلست فيهم حسأ أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم ، فقال : يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه . قال : فضررت بيدى على الذى عن يمينى فأخذت بيده ، ثم ضربت بيدى إلى الذى عن يسارى فأخذت بيده ، فكنت فيهم هنئها ، ثم قمت فاتيت رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى ، فأواما إلى بيده أن ادن فدنوت ، ثم أواما إلى فدنوت ، حتى أسلى على من الثوب الذى عليه وهو يصلى ، فلما فرغ قال : « ما الخبر ؟ » قلت : تفرق الناس عن أبي سفيان ، فلم يبق إلا في عصبة يوقد النار ، قد صب الله عليه من البرد مثل الذى صب علينا ، ولكننا نرجو من الله ما لا يرجو ) <sup>(٢)</sup> .

وفي رواية الواقدى : ققام أبو سفيان فقال : احذروا الجوايس والعيون ولينظر كل رجل جليسه . قال : فالتفت إلى عمرو بن العاص فقلت : من أنت ؟ وهو عن يمينى ، فقال : عمرو بن العاص . والتفت إلى معاوية بن أبي سفيان ، فقلت : من أنت ؟ فقال : معاوية بن أبي سفيان . ثم قال أبو سفيان :

إنكم والله لستم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخلف ، وأجدب الجناب <sup>(٣)</sup> وأخلفتنا بنو قريطة وبلغنا عنهم الذى نكره ، وقد لقينا من الريح ماترون : والله ما ياشت لنا بناء ولا تطمئن لنا قدر ، فارتخلوا فإني مرتخل . وقام أبو سفيان وجلس على بعيره وهو معقول ، ثم ضربه فوثب على ثلاثة قوائم ، فما أطلق عقاله إلا من بعد مقام ، ولو لا عهد

(٢) المعازى : للإمام الذهبي / ٣٠٢ .

(١) المصير نفسه / ٤٨٨ / ٢ .

(٣) الجناب : القباء أو الناحية .

رسول الله ﷺ إلى : لا تحدث شيئاً حتى تأتى ، ثم شئت ، لقتلته . فناداه عكرمة بن أبي جهل : إنك رأس القوم وقائدهم ، تقشع وتترك الناس ؟ فاستحيا أبو سفيان فأناخ بحمله ونزل عنه وأخذ بزمامه وهو يقوده ، وقال : ارحلوا !

قال : فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خفَّ العسكر . ثم قال عمرو بن العاص : يا أبا عبد الله ، لا بدَّ لي ولك أنْ تُقيِّم في جريدة من خيل يزاَءَ محمد وأصحابه ، فإنما لا تأمن أنْ نطلب حتى ينفد العسكر فقال : أنا أقيِّم . وقال خالد بن الوليد : ماترى يا أبا سليمان ؟ فقال : أنا أيضاً أقيِّم . فأقام عمرو وخالد في مائتى فارس ، وسار العسكر إلى هذه الجريدة على متون الخيل .

قالوا : وذهب حذيفة إلى غطفان فوجدهم قد ارتحلوا ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، وأقامت الخيل حتى كان السحر ، ثم مضوا فلحقوا الأثقال والعسكر مع ارتفاع النهار بملل . فغدوا إلى السيالة ، وكانت غطفان لما ارتحلت وقف مسعود بن رخيلة في خيل من أصحابه ، ووقف الحارث بن عوف في خيل من أصحابه ، ووقف فرسان منبني سليم في أصحابهم . ثم تحملوا جميعاً في الطريق واحدة وكرهوا أن يتفرقوا حتى أتوا على المرض ، ثم تفرق كل قبيلة إلى محالها .

حدَّثني عبد الله بن جعفر ، عن عثمان - يعني ابن محمد الأحسنى - قال :

لما انصرف عمرو بن العاص قال : قد علم كل ذي عقل أنَّ محمداً لم يكذب . فقال عكرمة بن أبي جهل : أنت أحق الناس ألا يقول هذا . قال عمرو : لم ؟ قال : لأنَّه نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك - ويقال : الذي تكلم بهذا خالد بن الوليد ، ولا ندرى ، لعلهما قد تكلما بذلك جميعاً .

قال خالد بن الوليد : قد علم كل حليم أنَّ محمداً لم يكذب قط . قال أبو سفيان بن حرب : إنَّ أحق الناس ألا يقول هذا أنت . قال : ولم ؟ قال : نزل على شرف أبيك ، وقتل سيد قومك أبي جهل .

حدَّثني محمد بن عبد الله ، عن الزهرى عن ابن المسيب قال :

كانت محاصرة المشركين رسول الله ﷺ في الخندق بضعة عشر يوماً ... فلما أصبح رسول الله ﷺ بالخندق ، أصبح وليس بحضرته أحد من العسكر قد هربوا وذهبوا ، وجاء رسول الله ﷺ ثبت أنهم انقضوا إلى يладهم ، ولما أصبحوا أذن رسول

الله ﷺ للMuslimين في الانصراف إلى منازلهم ، فخرجو مبادرين مسرورين بذلك ، وكـره رسول الله ﷺ أن تعلم بنـى قريـطة رجـعتـهم إلى منـازـلـهـم ، فأـمـرـ بـرـ دـهـم ، وـبـعـثـ منـيـادـىـ فـىـ أـثـرـهـم ، فـماـرـجـعـ رـجـلـ وـاحـدـ ، فـكـانـ مـنـ يـرـدـهـمـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ عـمـرـ ، أـمـرـهـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ قـالـ عـبـدـ اللـهـ : فـجـعـلـتـ أـصـيـحـ فـىـ أـثـرـهـمـ فـىـ كـلـ نـاـحـيـةـ : إـنـ رـسـولـ اللـهـ أـمـرـ كـمـ أـنـ تـرـجـعـواـ . فـمـاـرـجـعـ رـجـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ مـنـ الـقـرـ وـالـجـوـعـ فـكـانـ يـقـولـ : كـرـهـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ يـرـىـ سـرـعـتـهـمـ . وـكـرـهـ أـنـ يـكـونـ لـقـرـيـشـ عـيـونـ . قـالـ جـابـرـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ :

أـمـرـنـىـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ أـنـ أـرـدـهـمـ ، فـجـعـلـتـ أـصـيـحـ بـهـمـ فـمـاـيـرـجـعـ أـحـدـ ، فـانـطـلـقـتـ فـىـ أـثـرـ بـنـىـ حـارـثـةـ ، فـوـالـلـهـ مـاـأـدـرـ كـتـنـهـمـ حـتـىـ دـخـلـوـ بـيـوتـهـمـ ، وـلـقـدـ صـحـتـ فـمـاـيـخـرـجـ إـلـىـ أـحـدـ مـنـ جـهـدـ الـجـوـعـ وـالـقـرـ ، فـرـجـعـتـ إـلـىـ النـبـىـ ﷺ ، فـأـخـبـرـتـهـ ، فـضـحـكـ عـلـىـ (١) .

**﴿ وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنْلَوْ أَخْيَرًا .. ﴾**

ولا شيء يعبر عن هذه النفسية المغناطة . كما عبر رسالة أبي سفيان لرسول الله ﷺ . وكيف مضوا يجترون حقدـهـمـ وقدـسـقطـ فـىـ أـيـدـيهـمـ :

( وـحدـثـناـ مـوـسـىـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ إـبـراهـيمـ عـنـ أـبـيـ وـجـزـةـ قـالـ : لـمـ مـلـتـ قـرـيـشـ المـقـامـ ، وـأـجـدـ بـالـحـنـابـ ، وـضـاقـوـ بـالـخـنـدقـ ، وـكـانـ أـبـوـ سـفـيـانـ عـلـىـ طـمـعـ أـنـ يـغـيـرـ عـلـىـ الـمـدـيـنـةـ كـتـبـ كـتـابـ فـيـهـ :

بـاسـمـكـ اللـهـمـ ، فـإـنـيـ أـحـلـفـ بـالـلـاتـ وـالـعـزـىـ ، لـقـدـ سـرـتـ إـلـيـكـ فـيـ جـمـعـنـاـ ، وـإـنـاـ نـرـيدـ أـلـاـ نـعـودـ إـلـيـكـ أـبـداـ حـتـىـ نـسـتـأـصـلـكـ ، فـرـأـيـتـكـ قـدـ كـرـهـتـ لـقـاءـنـاـ ، وـجـعـلـتـ مـضـايـقـ وـخـنـادـقـ ، فـلـيـتـ شـعـرـىـ مـنـ عـلـمـكـ هـذـاـ ؟ فـإـنـ نـرـجـعـ عـنـكـمـ فـلـكـمـ مـاـ يـوـمـ كـيـومـ أـحـدـ ، تـبـقـرـ فـيـ النـسـاءـ .

وـبـعـثـ بـالـكـتـابـ مـعـ أـبـيـ أـسـمـةـ الـجـشـمـىـ ، فـلـمـ أـتـىـ بـالـكـتـابـ دـعـاـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ أـبـيـ اـبـنـ كـعبـ ، فـدـخـلـ مـعـ قـبـتـهـ ، فـقـرـأـ عـلـيـهـ كـتـابـ سـفـيـانـ ، وـكـتـبـ إـلـيـهـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ : « مـنـ مـحـمـدـ رـسـولـ اللـهـ إـلـىـ أـبـيـ سـفـيـانـ بـنـ حـرـبـ ... أـمـاـ بـعـدـ فـقـدـيـمـكـ غـرـكـ بـالـلـهـ الـفـرـرـوـرـ ، أـمـاـ مـاـ ذـكـرـتـ أـنـكـ سـرـتـ إـلـيـنـاـ فـيـ جـمـعـكـ ، وـأـنـكـ لـاـ تـرـيـدـ أـنـ تـعـودـ حـتـىـ تـسـتـأـصـلـنـاـ ، فـذـلـكـ أـمـرـ اللـهـ يـحـولـ بـيـنـكـ وـبـيـنـهـ ، وـيـجـعـلـ لـنـاـ الـعـاقـبـةـ حـتـىـ لـاـ تـذـكـرـ الـلـاتـ وـالـعـزـىـ ، وـأـمـاـ قـولـكـ : مـنـ

(١) المغازى الموقدى / ٤٨٩ / ٢ وما بعدها .

علمك الذي صنعنا من الخندق ، فإن الله تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، ول يأتيك يوم تدافعنـى بالراح<sup>(١)</sup> ، ول يأتيك يوم أكسر فيه الـلات والعـزى وإسـاف ونـائلة وهـل حتى ذـكرك ذـلك<sup>(٢)</sup> .

وتعقيبا على غزوـة الخندق واستعراضـها من خـلال القرآنـ الكريم ، تـرد المـلاحظـات التـالية :

**١ -** لقد تـشابـهـت الآية الأولى والأـية الأخيرة في العـرض القرـآنـي حول غـزوـة الأـحزـاب :

﴿ يـأـيـهـا الـذـينـ آـمـنـوا اـذـكـرـوا نـعـمـةـ اللـهـ عـلـيـكـمـ إـذـ جـاءـتـكـمـ جـنـودـ فـأـرـسـلـنـا عـلـيـهـمـ رـيحـاـ وـجـنـودـاـ لـمـ تـرـوـهـاـ وـكـانـ اللـهـ بـمـاـ تـعـمـلـونـ بـصـيرـاـ ﴾ .

﴿ وـرـدـ اللـهـ الـذـينـ كـفـرـوا بـغـيـظـهـمـ لـمـ يـنـالـوا خـيـراـ وـكـفـىـ اللـهـ الـمـؤـمـنـينـ الـقـتـالـ وـكـانـ اللـهـ قـوـيـاـ عـزـيزـاـ ﴾ .

وـبـينـ هـاتـيـنـ الـآـيـيـنـ تـمـ التـركـيزـ عـلـىـ ضـرـاوـةـ الـخـنـدـقـ ، وـشـدـةـ الـابـلـاءـ ، وـمـوـقـفـ الـمـؤـمـنـينـ فـيـهـ ، وـمـوـقـفـ الـمـنـافـقـينـ وـتـمـ تـوـضـيـحـ هـذـهـ الـمـوـاقـفـ ، وـتـمـ تـوـضـيـحـ هـذـهـ الـمـوـاقـفـ ، وـمـوـقـفـ الـمـؤـمـنـينـ فـيـهـ .

**٢ -** لقد شـارـكـ فـيـ الـحـرـبـ خـمـسـةـ عـنـاصـرـ اـنـتـهـتـاـ لـصـالـحـ الـمـسـلـمـينـ ، وـكـفـىـ اللـهـ بـهـاـ الـمـؤـمـنـينـ الـقـتـالـ :

**أ - الجنـود :** وـهـمـ الـمـلـائـكـةـ الـذـينـ حـضـرـواـ الـحـرـبـ وـبـشـواـ الرـعـبـ فـيـ قـلـوبـ الـكـافـرـينـ ، وـأـكـثـرـواـ سـوـادـ الـمـسـلـمـينـ ، وـلـمـ يـشـارـكـواـ فـيـ الـقـتـالـ ، وـالـأـحـادـيـثـ الصـحـيـحةـ التـيـ تـؤـكـدـ قولـ جـبـرـيلـ فـيـمـاـ بـعـدـ ، تـؤـكـدـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ .

« وضعـتـ السـلاحـ وـلـمـ تـضـعـ الـمـلـائـكـةـ السـلاحـ بـعـدـ ، إـنـىـ مـاضـ إـلـىـ بـنـىـ قـرـيـظـةـ فـمـزـلـلـ مـنـ حـصـونـهـمـ » .

**ب - الـرـيـح :** وقد رأـيـناـ فعلـهاـ الشـدـيدـ الـذـيـ نـصـرـتـ بـهـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ اللـهـ عـلـيـهـ اللـهـ عـلـيـهـ ، وـقدـ ذـكـرـهـاـ أـبـوـ سـفـيـانـ عـنـصـرـاـ مـنـ أـهـمـ الـعـنـاصـرـ الرـئـيـسـيـةـ فـيـ اـنـسـحـابـهـ :

وـقـدـ لـقـيـنـاـ مـنـ الـرـيـحـ مـاتـرـونـ وـالـلـهـ مـاـيـشـتـ لـنـاـ بـنـاءـ ، وـلـاـ تـطـمـئـنـ لـنـاـ قـدـرـ .

**جـ - نـعـيمـ بـنـ مـسـعـودـ ،** وـدـورـهـ الرـئـيـسـيـ فـيـ تـخـذـيلـ الـمـشـرـكـينـ وـالـيـهـودـ عـنـ الـصـفـ

(١) الـرـاـحـ : الأـيـديـ .

(٢) المـغـازـىـ لـلـوـاـقـدـىـ / ٤٩٢ / ٢ .

ال المسلم : وتشير بعض الروايات لذلك وهي التي أخرجها ابن سعد عن سعيد بن المسيب :  
في بينما هم على ذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعى وكان يأمنه الفريقان  
جميعاً ، فخذل بين الناس ، فانطلق الأحزاب منهزمين من غير قتال ، فذلك قوله :  
**﴿وَكَفَى اللَّهُ مُؤْمِنِينَ القَتْالَ﴾**.

د - دعاء الرسول ﷺ وتضرعه إلى ربه عز وجل : دعا رسول الله ﷺ على  
الأحزاب في مسجد الأحزاب يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، فاستجيب له بين  
الظهر والعصر يوم الأربعاء ، فعرفنا السرور في وجهه ) .

ه - صمود المسلمين العظيم وثباتهم : ففي الهجوم الأخير الذي رصد المشركون  
له كل قواتهم ، وجيشوا كل أبطالهم ، وأتوا الخندق من كل جانب واستمرت المواجهة  
من الظهر إلى هوى من الليل وعجزوا أن يرحرحوا المسلمين شيئاً عن مواقعهم ، وتشير  
بعض الروايات إلى ذلك :

وقد حدثني ابن ذئب - وهو أثبت الحديثين عندنا - قال : أخبرني المقبرى عن  
عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدرى ، عن أبيه قال : جلسنا يوم الخندق حتى كان بعد  
المغرب بهوى من الليل حتى كفينا بذلك قول الله عز وجل : **﴿وَكَفَى اللَّهُ مُؤْمِنِينَ القَتْالَ**  
وكان الله قوياً عزيزاً ) ، فدعا رسول الله ﷺ بلاً فأمره ، فأقام صلاة الظهر فصلاحتها  
كأحسن ما يصلحها في وقتها ، ثم أقام صلاة العصر .. إلى آخر الحديث ) .

و - البطولات العظيمة من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فيقظة عباد بن  
بشر رضي الله عنه قائداً حرس النبي ﷺ . وقتل الزبير نوفل بن عبد الله المخزومي ،  
ومصرع عمرو بن عبد العامري ، أنهى كل تفكير لدى العدو في مغامرات يكسب بها  
أى جولة ، فاقتحام الفرسان الخندق وهم أبطال قريش ، ومقتل اثنين منهم ، قلب الموازين  
كلها في صفوهم .

لقد أراد خالد بن الوليد مرات أن يعيد قصة أحد ، ويكرر على الجيش من خلفه  
فيأخذه بغتة ، ولكنه فشل في كل هذه المحاولات .

وحاولت قريطة كذلك أن تقض على المسلمين من الخلف ، لكن يقظة خيالة  
المسلمين وعلى رأسها سلمة بن أسلم بن حريش ، والمحاولات الفردية التي قام بها  
مغامرون يهود ، فاصطدمت بالبطولات الخارقة من المسلمين ، التي مثلها الزبير بن العوام

وهو يصول ويحول في صفوفهم ، وحوارات بن جبير الذي ذبح اليهودي الذي يحمله ، وصفية بنت عبد المطلب التي هشمت رأس المغامر اليهودي الذي طاف بالحصن ، كل هذه البطولات قد هللت قلوب الأقوياء من المشركين واليهود ، ونجد بعض الروايات تشير إلى ذلك :

(أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ هذا الحرف : ﴿ وَكَفِى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ القَتَالَ ﴾ بعلى بن أبي طالب )<sup>(١)</sup>.

٣ - وحين نعدد هذه العناصر لابد أن نربط بينها الرابط المنطقي الموضعي .

فتبايات المؤمنين ابتداءً كما وصفهم الله عز وجل : ﴿ وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُوهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ .

هذا الوصف الذي نال صفهم العام ، ووصف الصفة منهم : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قُضِيَ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

هذا الوصف الرباني لهم يجعلهم أهلاً لنصر الله وعونه وتأييده ، يطعمهم ويسقيهم ويبعث لهم ملائكته وجنده من الرياح والرعب ليتحقق بهم موعده ، ويمكن لهم في الأرض .

فالعناصر الأخرى إذن هي ثمرة سلامـة الصـفـ، وقوـة تـريـيـتهـ، وعـظمـة إـيمـانـهـ، ومـدى تـجرـدهـ. واعـتمـادـهـ عـلـىـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ، حتـىـ ليـثـقـ بـمـوـعـدـ اللـهـ حـينـ تـصـلـ الـخـنـةـ إـلـىـ الـذـرـوـةـ، ويـقـولـونـ: هـذـاـ مـاـ وـعـدـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ، مـتـأـولـينـ قولـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ فـيـ سـوـرـةـ الـبـرـقـةـ: ﴿ أَمْ حـسـبـتـ أـنـ تـدـخـلـواـ الجـنـةـ وـلـمـ يـأـنـكـمـ مـثـلـ الـذـيـنـ خـلـوـاـ مـنـ قـبـلـكـمـ مـسـتـهـمـ الـبـأـسـاءـ وـالـضـرـاءـ وـزـلـلـواـ حـتـىـ يـقـولـ الرـسـوـلـ وـالـذـيـنـ آـمـنـواـ مـعـهـ مـتـىـ نـصـرـ اللـهـ أـلـاـ إـنـ نـصـرـ اللـهـ قـرـيبـ ﴾<sup>(٢)</sup>.

فاستدلوا على اقتراب النصر بالزلزلة وشدة الخـنـةـ التي نـزـلتـ بـهـمـ .

فـكـانـ العـنـاصـرـ الـبـاقـيـةـ عـنـاصـرـ خـارـجـيـةـ، وـأـمـادـ رـبـانـيـةـ، لـاـ يـمـلـكـونـهاـ بـقـوـتهمـ الـبـشـرـيـةـ . الـرـيـاحـ، وـالـمـلـائـكـةـ، وـالـرـعـبـ، وـتـحـذـيلـ نـعـيمـ بـنـ مـسـعـودـ ، كـلـهـ عـنـاصـرـ مـبـنـيـةـ عـلـىـ سـلـامـةـ الـعـنـصـرـ الـأـوـلـ: وـهـوـ: أـنـ الصـفـ الإـيمـانـيـ بـلـغـ مـنـ التـلـاحـمـ، وـالـقـوـةـ وـالـثـباتـ ماـ يـجـعـلـهـ

(١) الدر المنشور / ٥٩٠/٦ .

(٢) البقرة / ٢١٤ .

مؤهلاً لنصر الله وتمكينه في الأرض .

٤ - وفي مقارنة بين أحد والخندق نلحظ الصفين معاً ، وكيف استحق الصف التائج المترتبة على مستوىه .

فالصف المؤمن في أحد كما وصفه الله تعالى :

﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم يا ذئنه حتى إذا فشلتكم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتخبون منكم من يريده الدنيا ومنكم من يريده الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾<sup>(١)</sup> .

هذا الصف ، حيل بينه وبين النصر لكونه بهذه المواصفات .

أما الصف المؤمن في الخندق :

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ .

فلم ترهبه قوة العدو ، ولم تلن قاته ضغوط الكفار والمرتكبين ، ولم يشن عزمه أو يوهن إيمانه الجنود الذين جاءوه من فوقه ومن أسفل منه ، وقد بلغ به الخوف مبلغه :  
﴿زاغت الأ بصار وبلغت القلوب الحناجر وتطلون بالله الظنوна . هنا لك ابتي المؤمنون وزنلوا زلزالاً شديداً﴾ لكنه رغم هذا كله بقي على التزامه ، وعلى طاعته ، وعلى ولائه ، وعلى ثباته ، فجاءه نصر الله .

٥ - وجود المستويات الإيمانية الفائقة في المعركتين ، وبروز بطولاتها فيها ، قد يخفف من وطأة الحنة ، وقد يخفف من شدة البلاء ، لكنه لا يغير قوانين النصر والهزيمة ، فالحكم ابتداءً هو على المستوى العام للصف كله ، ويكتفى أن نعلم أن الآية التي تحدثت عن المستويات الإيمانية الفائقة ، هي هي نفسها ، وردت في أحد ووردت في الخندق :  
﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فعنهم من قضى نحبه ومنهم من يتضرر وما بدلوا ابداً﴾ .

٦ - وكما أن وجود المستويات الإيمانية الفائقة في الصف المسلم لا يؤثر على قوانين النصر والهزيمة ، فكذلك وجود الطابور الخامس من المنافقين لا يؤثر على نتيجة المعركة عند سلامه الصف الداخلي وقوته ، فقد تحدث القرآن الكريم عنهم في الخندق أكثر مما تحدث

(١) آل عمران / ١٥٢ .

عنهم في أحد وفضحهم وعراهم ، ومع ذلك لم يحولوا دون تحقيق نصر الله ؛ لأن تأثيرهم محصور عليهم ، وتعریتهم حتى لا تتجاوز مواقفهم غيرهم ، بل نجد أكثر من ذلك أن بعض هؤلاء عصم في أحد ، وزل في الخندق ، لكن هذا كله لم يحل دون نصر الله عز وجل .

لقد كان تأثير المنافقين في أحد على الصفة المؤمن كبيراً فخلخله ، فدفع بعض أفراده إلى الفرار ، وبعضهم إلى إلقاء السلاح ، وبعضهم إلى الارتباك ، وبعضهم إلى أن يهم بالتخاذل مع ابن أبي وحزبه ، لكنه في الخندق لم يتجاوز أولئك المغمومسين في البفاق ، والذين حوصروا من كل جهة ، ونقلت أخبارهم إلى القيادة النبوية ، وكانت مخططاتهم مكشوفة وكيدهم ضعيف حقير لا يقوى على زعزعة الصف المسلم .

٧ - ولا شيء أروع من إيضاح ما كفى الله به المؤمنين القتال ، مثل دراسة خسائر المعركة . لقد كان حصار خمسة عشر يوماً من المشركيين واليهود لل المسلمين ، مقتل ستة أشخاص فقط ، رُموا بحرابة أو بسهم وهم :

- سعد بن معاذ رضي الله عنه ، ورماه حبان بن العرفة ، فانفجر جرحه ومات متاثراً فيه .

- أنس بن أوس الأشہلی ، ورماه خالد بن الوليد بسهم .

- عبد الله بن سهل الأشہلی ، ورماه رجل من بنى عويف وقتلها . وثلاثتهم أوسيون وأشہلیون .

- الطفيلي بن التعمان ، وقتلها وحشى بحرابته .

- ثعلبة بن غنممة من نمای ، وقتلها هبيرة بن أبي وهب الخزومي .

- كعب بن زيد من بنى دينار ، وقتلها ضرار بن الخطاب الفهري . وكان قد ارث في بئر معونة .

والثلاثة هؤلاء خزر جيرون .

وأن تنتهي معركة بهذه الضخامة ، واللحنة والمواجهة ، ويحشد لها عشرة آلاف مقاتل وتنتهي بستة قتلى ، ليؤكد فعلاً أن الله تعالى كفى المؤمنين القتال ، وأن الأمر كان بالنسبة لهم محنّة وابتلاء ، ثبتوا فيه وصبروا وتحملوا ، فوقاهم الله سيئات مكر الكافرين .

وحيث نذكر أن معركة أحد التي لم تتجاوز يوماً واحداً ، قد انتهت بسبعين من

الشهداء المسلمين ، نلاحظ الفرق بين الغزوتين ، وأن الجانب النفسي والبناء التربوي في أحد هو المقصود الأساسي من العرض الرباني لها .

ولاتنسى كذلك أنه قتل من المشركين ثلاثة فقط هم :

- عمرو بن ود العامري ، وقتلته على بن أبي طالب .

- ونوفل بن عبد الله المخزومي ، وقتله الزبير (أو على رضى الله عنه أو رمى بالحجارة) .

- ومن بنى عبد الدار عثمان بن منهى بن عبيد ، ومات بمكة من رمية رميها في الخندق .

٨ - وفي قصة حذيفة رضى الله عنه وخروجه للإتيان بخبر القوم ، لا يفوتنا الحديث عن هذا الالتزام العجيب الذي صبغ الصفة المسلم كلها ، فأمام الخوف والبرد حين كان الأمر متراوحاً لحرية المسلمين لم يتحرك أحد ، مع أن رسول الله عليه شرط لهم العودة والرفقة في الجنة ، وبذلك نلحظ مدى الخوف والبرد الذي عاشه هذا الجيش ، لكن عندما صدر الأمر صراحة لحذيفة ، لم يكن له بد أن يقوم . ونجده روعة الالتزام عنده ، وقد مُكِّن من قتل قائده جيش العدو ، ولا يكلفه الأمر إلا سهماً واحداً فقط ، لكنه تذكر أمر رسول الله عليه أن لا يحدث حدثاً ، فتوقف عن ذلك .

ونجد هذا الالتزام لدى قيادات الأنصار ، فإن كان إعطاء ثلات ثمار المدينة لغطافان هو لرسول الله عليه يحب أن يصنعه فلا نقاش لهم في ذلك ، وإن كان أمراً يصنعه لهم فلهم رأى آخر .

ونجد هذا الالتزام لدى هذه الآلاف وهي تحفر في الخندق ، رغم الحجوع الشديد والبرد الشديد :

(فقد ليثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً) .

وهي لا تتحرك إلا بإذن ، ولا تمضى إلى بيوتها إلا بإذن .

ونجد هذا الالتزام المشوب بالحب والفاء والتضحية لدى الأبطال الذين يرزوا في ساح المعركة ، على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، وعبداد بن بشر ، وأبي سعيد بن حضير وغيرهم كثير من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

٩ - وحين نذكر الالتزام ، لابد أن نذكر بالمقابل المخالفة للذين في قلوبهم مرض ،

والذين ذكرهم القرآن . أنهم يتسللون لواذاً دون أمر رسول الله ﷺ ، والذين يتعللون أن بيوتهم عورة ، ولابد أن نذكر حالة ذكرتها كتب السيرة ، لاتتحدث عن الذين في قلوبهم مرض إنما تحدث عن الجيش كله .

( وكره رسول الله ﷺ أن تعلم بنو قريظة رجعتهم إلى منازلهم ، فأمر بردهم ، وبعث من ينادي في أثرهم فما رجع رجل واحد . فكان من يردهم عبد الله بن عمر ، أمره رسول الله ﷺ . قال عبد الله : فجعلت أصيبح في أثرهم في كل ناحية : إن رسول الله أمركم أن ترجعوا ، فما رجع رجل واحد منهم من القر والجوع ، فكان يقول : كره رسول الله ﷺ يرى سرعتهم ، وكره أن يكون لقريش عيون . قال جابر : أمرني رسول الله ﷺ أن أردهم ، فجعلت أصيبح بهم فما يرجع أحد ، فانطلقت في أثر بني حارثة ، فوالله ما دركتهم حتى دخلوا بيوتهم ، ولقد صحت مما يخرج إلى أحد من جهد الجوع والقر ، فرجعت إلى النبي ﷺ فلقاء في بني حرام منصرفاً ، فأخبرته ، فضحك ﷺ )<sup>(١)</sup> .

لقد جاء النداء بعد الأوامر الصريحة بالانصراف ، وبعد أن كفى الله المؤمنين القتال ، ورد الذين كفروا بغضفهم لم ينالوا خيراً ، وبعد أن تفرق الجميع إلى بيوتهم ، دون تحديد ساعة محددة أو وقت محدد للعودة .

وكان حرص كل رجل على أن يأوي لبيته بعد خمسة عشر يوماً من الجوع والقر ، قد سجل ببطنا في التنفيذ لدى الجميع ، ولا ننسى أن المنادي هو عبد الله بن عمر وهو صبي يجاوز لأول مرة بحضور المعركة ، حيث رد في أحد وأجيز في الخندق ، وجابر الذي لم يجر في أحد ، وأجيز بعدها ، والظاهر أن الأمر ليس محدوداً في ذلك ، فما رجع أحد .

لكن حتى لا تعتبر ظاهرة عامة لابد أن نذكر أنه عندما صدر النداء في اليوم نفسه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة » لم يختلف أحد من المسلمين ، ووصل بعضهم قبل فوات العصر ، وبعضهم بعد المغرب ، لكن التنفيذ لبعضه جيش قوامه ثلاثة آلاف ، وتحركه لخصوص بنى قريظة ، ومسافة عدة ساعات ، احتاج هذا التحرك لبعض ساعات ، قد لا تتجاوز الخمسة .

(١) المغارى للواقدى / ٢ / ٤٩١ .

وهذا في التعبئة العسكرية وضع مثالى لا يجاري ، وذلك بعد إذن لم يتجاوز الساعات كذلك في رؤية الأهل ، وتناول بعض الطعام الخشن يتقوى به المسلم على المواجهة .

١٠ - ونذكر الحديث الصحيح الذى أنهى به رسول الله ﷺ مرحلة اختتمت من الجهاد والعناء ، إلى مرحلة جديدة كل الجدة فى معالها ، وخطوتها ، حيث تم الانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ، وجاء نصر الله بعد أن جاءهم مثل الذين خلوا من قبلهم . فقد جاء فى البخارى :

( سمعت أبا إسحاق يقول : سمعت سليمان بن صرر يقول : سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه : « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم » )<sup>(١)</sup> .

وانتهت بذلك تلك المرحلة الصعبة العنيفة ، التى عاشها المسلمون قرابة ثلاثة سنوات ، شديدة الوطأة ، صبر بها المسلمون وصابروا ، وعانوا من الآلام والجرح والتضحيات وثبتوا ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وابتدأت مرحلة جديدة ، تنتقل بال المسلمين إلى احتلال الواقع الجديدة بعد أن ثبتوا الواقع الأولى ، وهو من جانب آخر تصديق لنبوة النبي ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى .

فرغم زعم أبي سفيان أنه سيعيد الكراة - كما ذكر فى رسالته إلى رسول الله ﷺ .

( فإن نرجع عنكم فلكلمنا يوم كيوم أحد ) لكنه كان عاجزاً بعدها عن أن يجيئ أي جيش يتحرك به نحو المدينة ، فقد بذل المشركون واليهود قاطبة كل مائملكون ، وحزبوا الأحزاب من الأرض العربية كلها ، وكما يقول عليه الصلاة والسلام :

« رأيت العرب قد كالبوكم ورموكم عن قوس واحدة » .

ومع ذلك - وبعد حصار الخمسة عشر يوماً ، كانت النتيجة أن ردهم الله بغرضهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال ، ولم تقم لهم بعد قائمة ، أو يتحرك لهم كتيبة .

١١ - لقد دعا عليه الصلاة والسلام فقال :

---

(١) البخارى / ٢ / ٥ / ١٤١ .

« اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »<sup>(١)</sup> .

وذلك بعد أن تبرأ المسلمين من قوتهم ، وتضرعوا إلى رسول الله ﷺ أن يدعوا لهم ليكشف عنهم فقالوا :

يا رسول الله ، مانقول : فقد بلغت القلوب المخاجر .

قال : « قولوا : اللهم آمن روعاتنا . واستر عوراتنا » .

ومن أجل ذلك عندما تم النصر الرباني بالجند والرياح ، قال عليه الصلاة والسلام :

« إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، لاشيء قبله ولا شيء بعده »<sup>(٢)</sup> .

وبقى أثر هذا النصر في نفس النبي ﷺ عميق الغور ، بحيث يبقى مرافقاً له طيلة حياته ، كما يروى عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ فيكرب ثلاث مرات ثم يقول : « إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر ، آييون ، تائيون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »<sup>(٣)</sup> .

ومضى هذا الدعاء خالداً يردد المُسلمون في أقطار الأرض في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يرددونه إذا حجوا أو اعتمروا أو قفلوا من غزو ، وترسخ هذا المعنى التربوي الجهادي في أذهانهم بأجل صورة وأوضح بيان ، وأنصع تعبير :

« إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قبله ولا شيء بعده » .

(١) البخاري ج ٥ / ص ١٤١ ، باب غزوة الأحزاب .

(٢) المصدر نفسه / ص ١٤٢ .

## غزوة بنى قريظة

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتَلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ .. ﴾

ولنقرأ قصة الذين ظاهروهم من أهل الكتاب كيف أنزلهم الله من حصونهم وقذف في قلوبهم الرعب ..

( لما انصرف المشركون عن الخندق ، وخففت بتو قريظة خوفاً شديداً ، وقالوا : محمد يزحف إلينا ! وكان رسول الله ﷺ لم يؤمر بقتالهم حتى جاءه جبريل عليه السلام ، وكانت امرأة نباش بن قيس قد رأت - وال المسلمين في حصار الخندق - قالت : أرى الخندق ليس به أحد ، وأرى الناس تحولوا إلينا ونحن في حصوننا قد ذبحنا ذبح الغنم ، فذكرت ذلك لزوجها ، فخرج زوجها فذكرها للزبير بن باطا ، فقال الزبير : ما لها لانامت عينها . تولى قريش ويحصرنا محمد ! والتوراة . ولما بعد الحصار أنسد منه )<sup>(٢)</sup> .

روى الإمام أحمد ، والشیخان - مختصراً - والبیهقی ، والحاکم فی صحيحه مطولاً ، و .. أبو نعیم ، وابن سعد<sup>(٣)</sup> وابن جریر ، ومحمد بن عمر عن شیوخه :

( لما رجع عن الخندق ، وال المسلمين وقد عضهم الحصار ، فرجعوا مجهودين فوضعوا السلاح ، ووضعه رسول الله ﷺ ، ودخل بيت عائشة ، ودعا بماء فأخذ يغسل رأسه قال ابن عقبة : قدر جل أحد شقيقه .

قال محمد بن عمر : غسل رأسه واغتسل ، ودعا بالمجمرة ليتبخر ، وقد صلى الظهر .. قالت عائشة : فسلم علينا رجل ونحن في البيت .

(١) الأحزاب / ٢٦ ، ٢٧ . (٢) المغازي للواقدي / ٢ / ٤٩٦ .

(٣) حذفنا أسماء الرواة من الصحابة الذين رروا هذا الحديث أو من التابعين كما وردوا في السيرة الشامية .

قال محمد بن عمر : وقف موضع الجنائز ، فنادى : عذيرك من محارب فقام رسول الله عليه عليه فرعاً . فوثب وثبة شديدة ، فخرج إليه ، وقامت في أثره أنظر من خلل الباب ، فإذا هو بدحية الكلبي - فيما كنت أرى - وهو ينفض العبار عن وجهه وهو معتم .

قال ابن إسحاق : معتجر بعمامة ، وقال الماجشون كما رواه أبو نعيم سوداء من استرق ، مرخ من عمامة بين كتفيه ، على بغلة شبهاء - وفي لفظ : فرس - عليها رحالة<sup>(١)</sup> ، وعليها قطيفة من ديباج - قال الماجشون : على ثيابه أثر الغبار - وفي رواية : قد عصب رأسه الغبار - عليه لأمه ، فاتكأ رسول الله عليه على عرف الدابة ، فقال : يارسول الله ، مأسركم ماحلتم ، عذيرك من محارب ! عفا الله عنك - وفي لفظ غفر الله لك - أو قد وضعتم السلاح قبل أن نضعه ؟ فقال رسول الله عليه : « نعم » قال : فوالله ما وضعناه - وفي لفظ : « ما وضع الملائكة السلاح منذ نزل بك العدو ، ومارجعنا الآن إلا من طلب القوم حتى بلغنا حمراء الأسد - يعني الأحزاب - وقد هزمهم الله تعالى ، إن الله تعالى يأمرك بقتال بنى قريظة ، وأنا عاقد إليهم بمن معى من الملائكة لأزلزل بهم الخصون ، فاخراج بالناس » .

قال حميد بن هلال : فقال رسول الله عليه : « فإن في أصحابي جهداً فلو أنظرتهم أياماً » .

قال جبريل : « انهض إليهم فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا ، لأنقضعنها ». فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار . قال أنس رضي الله عنه : - فيما رواه البخاري - : كأنى أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم ، موكب جبريل حين سار إلى بنى قريظة ..

قالت عائشة : فرجعت فلما دخل قلت يارسول الله ، من ذاك الرجل الذي كنت تكلمه ؟ قال : « ورأيته » ؟ قلت : نعم . قال : « من تشبهت ؟ »<sup>(٢)</sup> قلت : بدحية بن خليفة الكلبي ، قال :

« ذاك جبريل أمرني أن أمضي إلى بنى قريظة » .

قال قتادة - فيما رواه ابن عائذ - : إن رسول الله عليه بعث يومئذ منادياً ينادي :

(١) الرحالة : سرج من جلد ليس فيه خشب .

(٢) من تشبهت ؟ : أي من تشبه به من الناس ؟

«يا خيل الله اركبى» وأمر رسول الله ﷺ بلاً فأذن في الناس :  
«من كان ساماً مطيناً فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة» .

وروى الشیخان عن ابن عمر ، والبیهقی عن عائشة ، والبیهقی عن الرھری وعن ابن عقبة ، والطبرانی عن کعب بن مالک ، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه :

«عزمت عليکم ألا تصلوا صلاة العصر . . .» ، ووقع في رواية مسلم في حديث ابن عمر : صلاة الظهر ، فأدرك بعضهم صلاة العصر - وفي لفظ الظهر - في الطريق . فقال بعضهم : لانصلیها حتى نأتی بنی قريظة ، إنا لفی عزیمة رسول الله ﷺ وما علينا من إثم ، فصلوا العصر في بنی قريظة حين وصلوها بعد غروب الشمس . وقال بعضهم : بل نصلی لم يرد منا أن ندع الصلاة ، فصلوا . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فلم يعنّف واحداً من الفريقین ، ودعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ، فدفع إليه لواءه ، وكان اللواء على حاله لم يحلّ من مرجعه من الخندق ، فابتدره الناس .

ذكر مسيرة رسول الله ﷺ إلى بنی قريظة :

قال محمد بن عمر ، وابن سعد ، والبلاذری ، وابن هشام ، : فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم .

قال محمد بن عمر : خرج رسول الله ﷺ إليهم لسبعين من ذی القعدة ، ولبس رسول الله ﷺ السلاح والدرع والمغفر <sup>(١)</sup> والبیضة <sup>(٢)</sup> ، وأخذ قناء بيده ، وتقلد الترس ، وركب فرسه اللحيف <sup>(٣)</sup> ، وحف به أصحابه ، قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل ، وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً ، وسار رسول الله ﷺ في أصحابه ، والخيل والرجالة حوله .

قال ابن سعد : وكان معه ﷺ ثلاثة ثلاثة آلاف . قلت : كذا ذكر محمد بن عمر : أن رسول الله ﷺ ركب فرساً . وروى الطبرانی في الأوسط بسنده رجاله ثقات عن أبي رافع وابن سعد عن البیهقی وغيره ، والطبرانی عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أتى بنی قريظة ركب على حمار عُرى . يقال له يغفور ، والناس حوله .

وروى الحاکم والبیهقی وأبو نعيم عن عائشة وابن إسحاق .... ومحمد بن عمر عن شیوخه : أن رسول الله ﷺ من بنی النجار بالصورین ، فيهم حارثة بن النعمان قد

(١) المغفر : زرد من الدرع يلبس تحت القلسوة .

(٢) الحديد الذي يوضع على الرأس .

(٣) اسم الفرس .

صفوا ، عليهم السلاح فقال : « هل من بكم أحد؟ » قالوا : نعم . دحية الكلبي مرّ على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من استبرق ، وأمرنا بحمل السلاح سلاحنا ، فأخذنا وصفتنا وقال لنا : « هذا رسول الله عليه السلام يطلع عليكم الآن ». قال حارثة بن النعمان ، وكنا صفين . فقال رسول الله عليه السلام : « ذاك جبريل ، بعث إلىبني قريظة ليزلزل بهم حضونهم ، ويقذف الرعب في قلوبهم » .

وسبق على في نفر من المهاجرين والأنصار فيهم أبو قتادة إلىبني قريظة .

روى محمد بن عمر عن أبي قتادة قال : انتهينا إلىبني قريظة ، فلما رأوا ناً أيقنوا بالشر ، وغرز على الراية عند أصل الحصن ، فاستقبلوا ناً في صياصفهم يشتمون رسول الله عليه السلام وأزواجه ، قال أبو قتادة : وسكتنا وقلنا السيف بيننا وبينكم ، وانتهى رسول الله عليه السلام إلىبني قريظة ، فنزل قريباً من حصنهم على بغر أنا<sup>(١)</sup> بأسفل حرةبني قريظة ، فلما رأه على رضي الله عنه رجع إلى رسول الله عليه السلام وأمرني أن أرمي اللواء فلزمته ، وكره أن يسمع رسول الله عليه السلام أذاهم وشتمهم ، فقال لرسول الله عليه السلام : لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخاب ، فإن الله تعالى كافيك اليهود ، فقال رسول الله عليه السلام : « لم تأمرني بالرجوع؟ » فكتمه ماسمع . فقال :

« أظنك سمعت منهم لى أذى؟ » . فقال : نعم يا رسول الله . قال : « لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً » .

فسار رسول الله عليه السلام إليهم وتقىدهم أسيد بن الحضير فقال :

يا أعداء الله ، لأنبرح عن حصنكم حتى تموتوا جوعاً ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر فقالوا : يا بن الحضير ، نحن مواليك دون الخزرج ، وخاروا ، وقال : لاعهد بيني وبينكم ولا إله ولا ذمة :

ودنـا رسول الله عليه السلام ، وترسـناـ عـنهـ ، ونـادـىـ بـأـعـلـىـ صـوـتهـ نـفـرـاـ مـنـ أـشـرـافـهـ حتـىـ أـسـعـهـمـ فـقـالـ : « أـجـبـواـ إـلـىـ الـقـرـدـةـ وـالـخـنـازـيرـ وـعـبـدـةـ الطـاغـوتـ ، هـلـ أـخـرـاـكـمـ اللـهـ وـأـنـزـلـ بـكـمـ نـقـمـتـهـ ، أـتـشـتـمـونـنـىـ؟ـ .ـ » .ـ فـجـعـلـوـاـ يـحـلـفـونـ مـاـفـعـلـنـاـ وـيـقـولـونـ :

يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً ، وفي لفظ : ما كنت فاحشاً .

وأجتمع المسلمون عند رسول الله عليه السلام عشاءً ، وبعث سعد بن عبادة رضي الله عنه

(١) اسم البتر .

بأحمال تمر لرسول الله عليه السلام وال المسلمين فكان طعامهم . وقال رسول الله عليه السلام يومئذ :

« نعم الطعام التمر » .

### ذكر محاصرة المسلمين لبني قريظة :

( غدا رسول الله عليه سحراً ، وقدم الرماة ، وعبا أصحابه فأحاطوا بمحصون يهود ، ورمومهم بالنبيل والحجارة ، وهم يرمون من محصونهم حتى أمسوا ، فباتوا حول المحصون ، وجعل المسلمون يعقبون بعضهم بعضاً ، فما برح رسول الله عليه يرميهم حتى أيقنوا بالهلاكة ، وتركوا رمي المسلمين ، وقالوا : دعونا نكلمهم . فقال رسول الله عليه : « نعم » .

فأنزلوا نباش بن قيس فكلم رسول الله عليه على أن ينزلوا على مانزلت عليه بنو النضير من الأموال والحلقة <sup>(١)</sup> وتحقن دماءنا ، ونخرج من بلادك النساء والذراري ، ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة .

فأبى رسول الله عليه . فقال : تحقن دمائنا وتسليم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل ، فأبى رسول الله عليه إلا أن ينزلوا على حكمه ، وعاد نباش إليهم بذلك ) <sup>(٢)</sup> .

١ - لقد جهد المسلمين في الخندق ، ومضوا صباح هذا اليوم إلى أهليهم ، وانصرف المشركون خائبين بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وحرص رسول الله عليه على البطء بالانسحاب من الخندق ، حفظاً على الروح المعنوية العالية عند المسلمين ، وحتى لا تشهد بني قريظة هذا المنظر فردي فيه وهذا في الصف الإسلامي . ونادى عبد الله بن عمر وجابر ابن عبد الله في محاولة لإعادة التجمع ، لكنها لم تجد ، فماذا كان ؟

كان أن الملائكة المقربين على رأسهم جبريل عليه الصلاة والسلام قاموا بهمتي ضخمتين عوضاً عن المسلمين .

المهمة الأولى : ملاحقة قريش وغطfan إلى حمراء الأسد وتعقبهم حتى لا يفكروا في إعادة الكرة ثانية على المدينة ، فقد قام المسلمون بهذه المهمة رغم جراحاتهم بعد أحد بيوم ، وأقاموا بحمراء الأسد لصد أي كرّ محتمل عليهم ، أما اليوم فقد أدى ملائكة السماء هذه المهمة عن جنود الرحمن في الأرض .

(١) السلاح . (٢) سبل الهدى والرشاد / ج ٥ - ٧ - ١٢ مقتطفان .

المهمة الثانية : غزو بني قريطة قبل الجيش الإسلامي ، وزلزلة الحصون بهم ، وقدف الرعب في قلوبهم . لقد حدد جبريل عليه السلام هذه المهمة :

«أَنَا عَامِدٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعِيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؛ لِأَزْلُولَ بَهْمَ الْحَصُونَ ، فَأَخْرُجَ بِالنَّاسِ ». .

وشهد المسلمون موكب الملائكة الذين حضروا بصورة فرسان مدججين بالسلاح ، على رأسهم دحية بن خليفة الكلبي ، الذي حسبه المسلمون ذلك ولم يكن إلا جبريل أمير الملائكة المقربين في السماء .

قال أنس رضي الله عنه : كأنى أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم - موكب جبريل حين سار إلى بني قريطة .

وشهد هذا الموكب كذلك بني النجار أنحوال رسول الله ﷺ ، وكتيبة الفدائى ، وما خرجنوا بسلاحيهم واصطفوا للمعركة إلا بأمره ، وأكده لهم رسول الله ﷺ مهمة الكتبة الفدائى الأولى من الملائكة : « ذاك جبريل بعث إلى بني قريطة ليزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم » .

وأدلت ملائكة السماء المهمتين الصعبتين عن الجيش الإسلامي ريشما يأخذ قسطاً قليلاً من الراحة .

وبقيت كتبة من الجيش الإسلامي تحمل السلاح ولم تلقه ، حين ألقى الجيش الإسلامي سلاحه ، هي كتبة جبريل عليه الصلة والسلام .

٢ - وساعات فقط هي التي أعطيت للجيش الإسلامي ، بعد المخنة العصبية التي استمرت خمسة عشر يوماً . فقد كان نداء بلال الناطق الرسمي باسم الرسول ﷺ :

« من كان ساماً مطيناً فلا يصلين العصر إلا في بني قريطة ». .

وتحركت الآلاف الثلاثة تلبى النداء على تبعيتها الكاملة ، حيث مضى بعضهم وصلى العصر بعد غروب الشمس تنفيذاً للنص النبوى ، « لا يصلين العصر إلا في قريطة ». .

ومضى البعض الآخر بعد أن صلى العصر على الطريق ، تنفيذاً لروح النص النبوى الذى يدعوهם إلى المبادرة بالاتصال بالجيش الإسلامي .

وحيث أنها تتحدث عن المواجهة مع اليهود ، لابد من هذه المقارنة .

لقد كتب الله تعالى على اليهود الذل والهوان ، وحرمهم أربعين عاماً من النصر يضربون في التيه حين قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام : « اذهب أنت وربك فقاتلنا إننا هاهنا قاعدون » .

لكن هذه الأمة نفسها والتي تلقتآلاف العقوبات الربانية . انتبهت لهذه الناحية في القرن العشرين وعندما وجّه نداء التفير لحرب العرب المسلمين عام ١٩٧٣ من الإذاعة ، التحق بجيش اليهود في اليوم الثاني مائة ألف جندي<sup>(١)</sup> واستطاعوا بهذه المبادرة . أن يعيدوا الكفة على الجيش العربي . بعد الهزيمة في بداية المعركة ، وبقيت الأرض العربية كلها تحت وطأتهم .

وأمنتنا بالأمس حين توجه النداء لها بلسان المذيع النبوى :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة » .

تحرك الجيش الإسلامي كله خلال ساعات ، وكان على أسوار قريظة وحصونهم ، واستجاب كله لقادته عليه الصلاة والسلام قائلاً بلسان الحال : « اذهب أنت وربك فقاتلنا إنما معكم مقاتلون » .

فكانت ثمرة هذا الالتزام أن تتحقق النصر الضخم : « فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم .. » .

وأمنتا اليوم ، حين لا يرتفع النداء للتغیر باسم الإسلام طيلة هذا القرن . وتلرجأ إلى النداء باسم كل الجاهليات المعاصرة . ولا تسير إلى المعركة إلا بقوة السلاح والإرهاب من الطغاة – لم تتمكن أن تسترد الأرض المقدسة التي كتب الله لها ، بل أعطت أرضاً جديدة لليهود الذين يحاربونها ، وكان الناطقون الرسميون باسم الحكام يمثلون مهمة أكثر ضخامة في التهيئة للهزيمة النكراء ، هذه المهمة هي قتل الذين يأمرؤون بالقسط من الناس ، وإعدامهم وملحقتهم في كل أرض . فكانت الثمرة المرة كما قال تعالى :

« إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرؤون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين »<sup>(٢)</sup> .

(١) عن كتاب التقصير . للفيف من الصحفين اليهود . ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت .

(٢) آل عمران / ٢١ ، ٢٢ .

ولم يأبه العدو لهذه الأمة أو يعترف بها إلا عندما تحركت داخل الأرض الإسلامية المحتلة تحمل شعار التوحيد ، وتعلن انتفاضتها الباسلة ضد اليهود المحتلين ، فيجزع العدو لذلك ، ويتبته العالم كله إلى حقيقة هذه الأمة ، ويعجز العدو بكل طائراته ودباباته وأسلحته أن يخمد ثورة الإسلام في الأرض المقدسة ، وما كان ذلك إلا ثمرة للجهاد الإسلامي في أقصى الأرض الإسلامية ، وعلى الحدود المتاخمة للاتحاد السوفياتي . في أفغانستان ، فراح العالم كله يشهد لهذا الجهاد بالحق ويعامل معه واقعاً يفرض وجوده في الساحة الإسلامية .

٣ - وتحقق موعد الله عن المرحلة الجديدة خلال ساعات كما أنيا بذلك عليه الصلاة والسلام :

«الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم» .

فقبل ساعات كان المسلمون محاصرون . وقبل ليلة واحدة ما كان يجرؤ أحدٌ منهم أن يغادر رحله من الخوف والبرد ، ورسول الله ﷺ يعدد بالسلامة والرفقة والختنة ، وهذه الليلة المسلمين هم المحاصرون لبني قريظة ، وتم الانتقال العجيب بهذا القدر الإلهي الخامس من :

﴿إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب  
النماجر . . .﴾ إلى : ﴿ وأنزل الذين كفروا من صياصيهم وقدف في قلوبهم الرعب  
فريقاً تقلدون وتأسرون فريقاً . . .﴾.

فالمؤمنون اليوم هم الذين يهددون الكفار بأن يميتوهم جوعاً .

والمؤمنون اليوم يأتي إليهم وفد اليهود ، ويعرض الجلاء بما حملت الإبل وتحقن لهم الدماء ، وتحفظ الذراري والنساء فلا يعطون ، ثم يتزاولون أكثر فيعرضون الجلاء صفر اليدين وتحقن لهم الدماء ، وتحفظ الذراري والنساء ، فلا يعطون ، وليس أمامهم إلا النزول على حكم رسول الله عليه الصلاة والسلام .

٤ - وحسب اليهود أن الحماية مضمونة لهم من حلفائهم الأوس ومن أجل ذلك كان موقف أسيد بن حضير رضي الله عنه الرجل الثاني في الأوس ، قاصمة الظهر بالنسبة لهم ، فالأوس حلفاؤهم ، وحليفهم يقول لهم :

( يا أعداء الله لانبرح عن حصنكم حتى تموتوا جوعا ) .

وكان المناسب أن يكون هو المتكلم الأول لهم حتى تنهد عزائمهم ، وتحطم آمالهم ، كجزء من المعركة المعنية وقدف الرعب في قلوبهم .

وإذا باليهود الأرجاس يطالبون الأوس بعهدهم وحلفهم في الجاهلية ، ويتناسون حلف رسول الله عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم أن لا يعيروا عليه عدوا ، بل أن يكونوا معه على من دهم يشرب ، ولا يجدون عاراً أن يقولوا لأسيد :

( يابن الحضير نحن مواليك دون الخزرج ) .

( وخاروا ) قبل أن يسمعوا الجواب ، وجاء الجواب « لاعهد بيني وبينكم ولا إله إلا ذمة » ، ويحق لأسيد بن الحضير رضي الله عنه أن يقف هذا الموقف ، فهو علاوة على أنه مسلم متزمت بدينه هو الذي شهد غدربني قريظة بعينه ، ونعيد هنا جزءاً من حواره مع كعب بن أسد سيدبني قريظة :

( ووقع كعب بسعد بن معاذ يسبه فقال أسيد بن الحضير : تسب سيدك يا عدو الله؟ ما أنت له بكفاء ! أما والله يابن اليهود لتولين قريش إن شاء الله منهزمة وتركتك في عقر دارك ، فنسير إليك ، فتنزل من جحرك هذا على حكمنا . وإنك لتعلم النضير ، كانوا أعز منك وأعظم بهذه البلدة وديتك نصف ديتهم ، وقد رأيت ما صنع الله بهم ، وقبل ذلك بنو قينقاع نزلوا على حكمنا .

كعب : يابن الحضير تخويني بالمسير إلى ؟ أما والتوراة لقد رأني أبوك يوم بعاث -  
لولا نحن لأجلته الخزرج منها ، إنكم والله ما لقيتم أحداً يحسن القتال ولا يعرفه ، نحن والله نحسن قتالكم .

ونالوا من رسول الله عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن المسلمين أقبح الكلام ) <sup>(١)</sup> .

وجاء أسيد بن الحضير رضي الله عنه ليتحقق نبوءته ويتحقق فراسته وثقة بنصر الله عز وجل ، وولت قريش ، وتركت كعباً في عقر داره ، وها هو يرجو أسيداً العون والنصر ، وها هو الوفد اليهودي يطالب بالجلاء وحقن الدماء ، ولا شيء إلا ما قاله أسيد رضي الله عنه : ( أن ينزلوا على حكم المسلمين ) .

---

(١) المغازي للواقدي / ٢ / ٤٥٨ .

إنها الفرصة المواتية لأسيد أن يشفى الله تعالى صدره ، ويذهب غيظه ، ويكون هو الناطق الأول بلسان رسول الله ﷺ ، ويهددهم بالموت جوعاً حتى ينزلوا على حكم الله ورسوله .

٥ - وجاء رسول الله ﷺ بشخصه ليكلمهم ، وذلك بعد أن أبدوا خبئتهم ولؤمهم حين رأوا على بن أبي طالب رضي الله عنه ونفراً من المسلمين يضعون الرایة حول حصونهم ، وحسبوا أن هذا الجيش الإسلامي كله ، فمضوا ينفثون حقدهم ويسبون رسول الله عليه الصلاة والسلام ويحرضون سيد الفدائين على رضي الله عنه على أن لا يسمع رسول الله ﷺ كلمة تؤذيه من هؤلاء الأخباث فيطمئنه عليه الصلاة والسلام أنهم أجبن وأخس من أن يواجهوه ، ويناديهم سيد الخلق قائلاً :

«أجيروا يا إخوة القردة والخنازير ، وعبدة الطاغوت ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته؟» .

وماذا يجيب إخوة القردة والخنازير ؟

أين تحدّيهم ، وسبابهم ، وقدفهم المسلمين ، واستهزاؤهم بالإسلام : أين ذهب هذا كله ، لقد مضى مع الرعب الذي قذفه الله فيهم على يد سيد الملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام .

فيتصنعون الحكمة ، ويتمسون المداراة ، ولا يجرؤون على أن يقولوا أكثر من هذا القول بعد أن يذكرهم رسول الله ﷺ بخستهم وندالتهم . «أتشتمونني؟» .

لم يملكوّا أن يقولوا إلا : ( يا أبا القاسم ما كنت جهولا ) ، ويحلفون الأيمان أنهم مافقوا بذلك والله يشهد إنهم لكاذبون : ( اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ) .

٦ - وحين كان أسيد بن الحضير رضي الله عنه سيد الأوس يبلغ اليهود القرار الخامس في حربهم ، كان سعد بن عبادة سيد الخزرج يقول الجيش الإسلامي بالطعام ، ويمرث بأحمل التمر إلى المسلمين ، وهم يحاصرون بني قريظة ، وإذا بالتمر الذي كان يتلمظ له عبيدة بن حصن سيد غطفان يبقى كله بيد المسلمين ، ولا يصل إلى تمرة واحدة منه ، وإذا بأحمل التمر تقد إلى الجيش الإسلامي لتطعمه ، و «نعم الطعام التمر»<sup>(١)</sup> .

(١) في الحديث : نعم السحور التمر . انظر صحيح الجامع الصغير / ٦ / ٣٠ ، وقد رواه البهقى وابن حبان .

٦٠ . فريقاً قتلون وتأسرون فريقاً . ﴿

( فلما عاد نباش إلى قومه وأخبرهم الخبر ، قال كعب بن أسد :

يامعشر بنى قريطة ، والله قد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإنى عارض عليكم خلاة ثلاثة ، فخذنوا ما شئتم منها . قالوا : وماهى ؟ قال :

تابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم ، والله إنكم لا تعلمون أن محمداً نبى ، ومامتنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن نبياً من بنى إسرائيل ، فهو حيث جعله الله ، ولقد كتت كارهاً لنقض العهد والعقد ولكن البلاء والشوم من هذا الجالس - يعني حبي بن أخطب - ولقد كان حبي بن أخطب دخل معهم في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ، وفاء لكتاب بن أسد بما كان عاهده عليه - أتذكرون ما قال لكم ابن جواس حين قدم عليكم : تركت الخمر والخمير والتمير ، وأجئت إلى السقاء والتمر والشعير . قالوا : وماذاك ؟ قال : إنه يخرج بهذه القرية نبى ، فإن يخرج وأنا حى أتبعه وأنصره ، وإن خرج بعدي ، فإياكم أن تخدعوا عنه . واتبعوه فكونوا أنصاره وأولياءه ، وقد آمنتكم بالكتابين ، كليهما الأول والآخر ، وأقرؤوه مني السلام . وأخبروه أنى مصدق به .

قال كعب : فتعالوا فلتتابعوا ولنصدقه .

قالوا : لأنفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبitem على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتى السيف ، ولم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً تخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء .

قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟

قال : فإن أبitem على هذه ، فإن الليلة ليلة السبت ، وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها . فأنزلوا ، لعلنا نصيّب من محمد وأصحابه غرة .

قالوا : نفسد سبتنا ونُحدث فيه ما لم يحدث فيه من قبلنا إلا من قد علمت فأصحابه ما لم يخف عليك من المسخ !

قال : مابات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

قال ثعلبة وأسيد ابنا سعية : وأسيد بن عبيد ابن عمهم - وهم نفر من هذيل ليسوا من بني قريطة ولا النضير ، نسبهم فوق ذلك وهم بني عم القوم -

يامعشر بني قريطة ، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأن صفتة عندنا ، وحدثنا به علماؤنا ، وعلماء بني النضير ، هذا أولهم - يعني حبي بن أخطب - مع جبير بن الهيّان أنه أصدق الناس عندنا ، هو خبّرنا بصفتة عند موته .

قالوا : لأنفارق التوراة .

فلما رأى هؤلاء النفر إباءهم نزلوا في تلك الليلة التي في صبحها نزلت بنو قريطة فأسلموا ، وأمنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

وقال عمرو بن سعدى : يامعشر يهود ، إنكم قد حالفتم محمداً على ما حلفتموه عليه ، فنقضتم عهده الذى كان بينكم وبينه ، فلم أدخل فيه . ولم أشر لكم فى غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه ، فاثبتو على اليهودية ، وأعطوا الجزية ، فوالله ما أدرى أيقبلها أم لا .

قالوا : فنحن لأنقذ العرب بخرج فى رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

قال : فإني برىء منكم .

وخرج فى تلك الليلة مع ابنى سعية ، فمر يحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد ابن مسلمة . فقال محمد : من هذا ؟ قال : عمرو بن سعدى ، قال محمد : مر ، اللهم لا تحرمنى إقالة عشرات الكرام ، وخلى سبيله ، وخرج حتى أتي مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح ، فلما أصبح غدا فلم يدر أنى هو حتى الساعة ، فذكر شأنه لرسول الله ﷺ قال : ذاك رجل نجاه الله بوفائه .

ذكر طلب يهود أبا لبابة وما وقع له ونزول توبيه :

قال أهل المغارى :

وقدّ رسول الله فى حصارهم ، فلما اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ ليلة السبت أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر فنستشيره فى أمرنا ، فأرسله إليهم رسول

الله ﷺ . فلما رأوه قام إليه الرجال ، وبهش إليه النساء والصبيان ييكونون في وجهه فرقاً لهم . فقال كعب بن أسد :

يا أبي لبابة ، إننا قد اختنناك على غيرك ، إن محمدًا قد أبى إلا أن ننزل على حكمه ، أفترى أن ننزل على حكمه ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقة (أى أنه الذبح) .

قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدمائى عن مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله ، فندمت واسترجعت ، فنزلت ، وإن لحيتى لم بتلة من الدموع ، والناس يتظرون رجوعى إليهم حتى أخذت من وراء الحصن طريقة أخرى ، حتى جئت إلى المسجد ، ولم آت رسول الله ﷺ ، فارتبطت وكان ارتباطي على الاسطوانة المخلقة التي يقال لها اسطوانة التوبة ، وقلت : لا أبرح من مكانى حتى أموت أو يتوب الله علىَّ مما صنعت ، وعاهدت الله تعالى بآلاً أطأ أرض بنى قريظة أبداً ، ولا رى في بلد خنت الله تعالى ورسوله ﷺ فيه أبداً . وبلغ رسول الله ﷺ ذهابي وما صنعت ، فقال : دعوه حتى يحدث الله تعالى فيه ما شاء ، لو كان جاءنى استغفرت له . فإذا لم يأتني وذهب فدعوه .

وأنزل الله تعالى : «**يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**». قال أبو لبابة : فكنت في أمر عظيم ، في حر شديد عدة ليال لا أكل فيها ولا شرب . وقلت : لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا ، أو يتوب الله علىَّ ، وأذكر رؤيا رأيتها في النوم ونحن محاصرون بنى قريظة . كأنى في حمامٍ آسنة ، فلم أخرج منها حتى كدت أموت من ريحها ، ثم أرى نهرًا جاريًّا ، فارانى اغتنست فيه حتى استنقست ، وأراني أجد ريحًا طيبة ، فاستعبرتها أبا بكر ، فقال : لتدخلن في أمر تغتم له ، ثم يفرج عندئذ ، فكنت أذكر قول أبي بكر وأنا مرتبط فأرجو أن ينزل الله تعالى توبتى ، فلم أزل كذلك حتى مأسمع الصوت من الجهد ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى .

قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط :

إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو في بيت أم سلمة . قالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك . قالت : فقلت : يا رسول الله ، مم تضحك ؟ أضحك الله سنك ؟ . قال : «**تيب على أبي لبابة**» . قلت : ألا أبشره يا رسول الله ؟ قال «**بلى إن شئت**» . قال : فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن

يضرب عليهم الحجاب ، فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك ؟ فسار الناس إليه ليطلقواه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله عليه السلام هو الذي يطلقني بيده ، فلما مرَّ عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

### نزول بنى قريظة على حكم رسول الله عليه السلام :

فلما جدهم الحصار ، نزلوا على حكم رسول الله عليه السلام ، فأمر رسول الله بأسراهم فكتفوا رباطاً ، وجعل على كتفهم محمد بن مسلمة ، ونحوها ناحية ، وأخرجوا النساء والذرية من الحصون فكانوا ناحية ، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام ، وجمعت أمتعتهم وما وجد في حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب ، ووجدوا فيها ألفاً وخمسين سيفاً وثلاثمائة درع ، وألفي رمح ، وألفاً وخمسمائة ترس وحجفة <sup>(١)</sup> ، وأثاثاً كثيراً ، وأنية كبيرة ، وخمراً ، وجراراً ، وسکراً ، فهريق ذلك كله ولم يخسسه ، ووجد من الجمال البراضع عدة ، ومن الماشية شيئاً كثيراً ، فجمع هذا كله .

وتحى رسول الله عليه السلام وجلس وتثبت الأوس إلى رسول الله عليه السلام . فقالوا : يا رسول الله ، حلفاؤنا دون الخزرج ، وقد رأيت ما صنعت بيني وبينك بالآمس حلفاء ابن أبي ، وهبت له ثلاثمائة حاسر ، وأربعمائة دارع ، وقد ندم حلفاؤنا على ما كان من تضليلهم للعهد ، فهبة لهم لنا . ورسول الله عليه السلام ساكت لا يتكلم حتى أكثروا عليه وألحوا ونطقت الأوس كلها ، فقال رسول الله عليه السلام : أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم ؟ قالوا بلى . قال : « فذلك إلى سعد بن معاذ ». .

وقال ابن عقبة : فقال رسول الله عليه السلام : « اختاروا من شئتم من أصحابي ». .

فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك رسول الله عليه السلام ، وسعد يومئذ في المسجد بالمدينة ، في خيمة كمية بنت سعيد الإسلامية . وكانت تداوى الحجرى وتلم الشعث وتقوم على الضائع الذى لا أحد له ، وكان لها خيمة في المسجد ، وكان رسول الله عليه السلام جعل سعد بن معاذ فيها ليعوده من قريب ، فلما جعل رسول الله عليه السلام الحكم إلى سعد خرجت الأوس حتى جاءوه ، فحملوه على حمار بأعرابى بشندة <sup>(٢)</sup> من ليف . وعلى الحمار قطيفة فوق الشندة ، وخطامه من ليف ، وكان رجلاً جسیماً ، فخرجوه حوله يقولون :

(١) الحجفة : الترس من جلد .

(٢) بشندة من ليف : تشبه الإكاف - الحمار - بحعر تقدمته حنوة وهو السرج .

يا أبا عمرو ، إن رسول الله ﷺ قد ولّك أمر مواليك لتحسين فيهم ، فقد رأيت ابن أبي وما صنعوا في حلفائه ، وأكثروا من هذا وشبهه ، وهو لا يتكلّم ، حتى إذا أكثروا عليه قال سعد: قد آن لسعد أن لا تأخذني في الله لومة لائم . فقال الضحاك بن خليفة الأنصاري: واقوماه ! وقال غيره منهم نحو ذلك ، ثم رجع الضحاك إلى الأوس فتعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه ، وأقبل سعد إلى رسول الله ﷺ والناس حول رسول الله ﷺ جلوس ، فلما طلع سعد بن معاذ – وفي الصحيحين : فلما دنا من المسجد – أى الذي كان فيه رسول الله ﷺ ، أعده ببني قريظة أيام حصارهم للصلوة – قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » – وفي لفظ « خيركم .. » – فأما المهاجرون من قريش فإنما يقولون : إنما أراد الأنصار . وأما الأنصار فيقولون : قد دعم بها رسول الله ﷺ المسلمين ، وعند الإمام أحمد : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . وكان رجال من بني عبد الأشهل يقولون : قمنا له على أرجلنا صفين ، يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ .

وفي حديث جابر رضي الله عنه عند ابن عائذ : فقال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم ياسعد ». فقال : الله ورسوله أحق بالحكم . قال : « قد أمرك الله أن تحكم فيهم ». وقالت الأوس الذين بقوا عند رسول الله ﷺ : يا أبا عمرو ، إن رسول الله ﷺ قد ولّك الحكم في أمر مواليك فأحسن فيهم ، واذكر بلاءهم عندك .

قال سعد : أترضون حكمي ؟ – لبني قريظة – قالوا : نعم قد رضينا بحكمك وأنت غائب عنا اختياراً مثلك ، ورجاء أن تمن علينا كما فعل غيرك بحلفائه بني قينقاع ، وأثرنا عندك أثراً وأحوج ما كنا اليوم إلى مجازاتك . فقال سعد : مالوككم جهداً .

قالوا : مايعنى قوله هذا ؟ ثم قال سعد : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ماحكمت ؟

قالوا : نعم . ثم قال سعد للناحية التي فيها رسول الله ﷺ : وعلى من هاهنا مثل ذلك ؟

قال رسول الله ﷺ ومن معه : نعم .

قال سعد : فإني أحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه الموسي ، وتسبى النساء والذرية ، وتقسم الأموال وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار . فقالت الأنصار :

إخواننا كنا معهم . فقال : أحببت أن يستغنو عنكم .  
قال رسول الله ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع  
سموات » .

وذكر ابن إسحاق في غير رواية البكائي : أن رسول الله ﷺ قال في حكم سعد :  
« بذلك طرقني الملك سحراً ». وكان سعد بن معاذ في الليلة التي في صبيحتها نزلت بنو  
قريظة على حكم رسول الله ﷺ قد دعا فقال : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش  
 شيئاً فأبقني لها فإنه لاقوم أحب إلى من أن أقاتلهم من قوم كذبوا رسولك وأذوه  
وأخرجوه ، وإن كانت الحرب قد وضعت أوزارها علينا وعنهم فاجعلها لى شهادة ،  
ولاتنتنني حتى تقر عيني من بنى قريظة .

فأقر الله تعالى عينه منهم .

### ذكر قتلهم وسي ذراريهم وأخذ أموالهم :

فلما حكم سعد بما حكم ، وانصرف رسول الله ﷺ يوم الخميس لتسع ليال – كما  
ذكر محمد بن عمر وابن سعد وجزم به الدمياطي ، وقيل لخمس ، كما جزم به في  
الإشارة – خلون من ذى الحجة ، وأمر بهم فأدخلوا المدينة ، وأمر رسول الله ﷺ بالسبى  
فسiquوا إلى دار أسامة بن زيد والنساء والذرية إلى دار رملة بنت الحارث ، ويقال : حبسوا  
جميعاً في دار رملة ، وأمر لهم رسول الله ﷺ بأعمال تمر فشرت لهم ، فباتوا يكدمونها  
كدم الحمر ، وأمر بالسلاح والأثاث والمتابع والثياب فحمل إلى دار ابنة الحارث وبالإبل  
والغنم ترعى هناك في الشجر . فلما أصبح رسول الله ﷺ غداً إلى السوق ، فأمر بأحدود  
فخدت في السوق ما بين موضع دار أبي الجهم العدوى إلى أحجار الزيت ، فكان  
 أصحابه هناك يحفرون ، وجلس رسول الله ﷺ ومعه عليه أصحابه ، ودعا برجالبني  
قريظة ، فكانوا يخرجون أرسلاً تضرب أعناقهم في تلك الخنادق فقالوا لکعب بن أسد –  
وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسلاً – يا کعب ، ماترى محمدًا يصنع بنا ؟

قال : مايسوءكم ، ويلكم ! على كل حال لاتعقلون ! ألا ترون الداعي لا ينزع ،  
 وأنه من ذهب منكم لا يرجع ؟ هو والله السيف ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبىتم على .  
قالوا : ليس هذا بحين عتاب . لو لا أنا كرهنا أن نزوى برأيك ما دخلنا في نقض العهد الذي  
كان بيننا وبين محمد .

قال حبي بن أخطب : اترکوا ماترون من التلاميذ فإنه لا يرد عنكم شيئاً ، واصبروا للسيف . وكان الذين يلون قلتهم على بن أبي طالب والزبير بن العوام .

وجاء سعد بن عبادة والحباب بن المنذر فقالا : يارسول الله ، إن الأوس قد كرمت قتل بني قريظة لمكان حلفهم . فقال سعد بن معاذ : ما كرمه من الأوس أحد في خير ، فمن كرمه فلا أرضاه الله . فقام أسيد بن الحضير فقال : يارسول الله ، لاتبقين داراً من دور الأوس إلا فرقتهم فيها ، فمن سخط فلا يرغم الله إلا أنفه ، فابعث إلى داري أول دورهم .

فرقهم في دور الأوس فقتلوهم .

ثم أتى بحبي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه عليه حلة شقجية – وقال ابن إسحاق : فجاجية – قد لبسها للقتل ، ثم عمد إليها فشقها أهلة أهلة لعلا يسلبه إياها أحد . فقال له رسول الله ﷺ حين طلع : « ألم يمكن الله منك يaidu الله؟ ». .

قال : بلى والله ، أما والله ما لست نفسي في عداوتك ، وقد التمست العز في مكانه فأبى الله إلا أن يمكنك ، ولقد قلقلت كل مقلقل ، ولكنه من يخذل الله يُخذل .

ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، لا يأس بأمر الله ، قدر وملحمة وكتاب كتبت على بني إسرائيل ، ثم جلس فضررت عنقه .

وأتى بنباش بن قيس وقد جايز الذى جاء به حتى قاتله فدقَّ الذى جاء به أنفه فأرعنده ، فقال رسول الله ﷺ للذى جاء به : « لم صنعت هذا به ؟ أما كان في السييف كفاية ؟ ». فقال : يارسول الله ، جايزنى لأن يهرب . فقال نباش : كذب والتوراة يا أبا القاسم ، لو خلاني متأخرت عن موطن قتل فيه قومي حتى أكون كأحدهم . فقال رسول الله ﷺ :

« أحسنوا إسارهم وقيلو لهم واسقوهم حتى يردوا ، فقتلوا من بقى ، لا تجتمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح ». وكان يوماً صائفاً . فقيلو لهم وسقوهم . فلما أبدوا راح رسول الله ﷺ ، فقتل من بقى ، وأتى رسول الله ﷺ بركعب بن أسد فقال رسول الله ﷺ : « كعب ؟ » قال : نعم يا أبا القاسم . قال :

« ما انتفعتم بنصح ابن جواس لكم ، وكان مصدقاً بي ، أما أمركم باتباعي ؟ وإن رأيتموني أن تقروني منه السلام »؟ قال : بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولو لا أن تغيرني يهود بالجزع من السييف لاتبعتك ، ولكنى على دين يهود .

قال رسول الله ﷺ «قدْمُه فاضرب عنقه» ، فأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أبنت منهم .

وروى ابن إسحاق ، والإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى في صحيحه ، والنمسائى ، عن عطية القرظى ، قال : كت غلاماً فوجدونى لم أبنت فخلوا سبلى .

وروى الطبرانى عن أسلم الأنصارى ، قال : جعلنى رسول الله ﷺ على أسرى قريظة ، فكنت أنظر إلى فرج الغلام فإن رأيته أبنت ضربت عنقه ، وإن لم أره جعلته فى مغانم المسلمين ، ولم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ فقتلوا إلى أن غاب الشفق ، ثم رد عليهم التراب فى الخندق . كل ذلك بعين سعد بن معاذ ، فاستجواب الله دعوته وأقر عينه ، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة من بنى النضير يقال لها نباته ؛ قتلت خلاد بن سويد بحجر رحى أقتله عليه فشدخت رأسه فمات )<sup>(١)</sup> .

﴿أَوْرثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَظْرُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .

( ولما اجتمعت المغانم أمر رسول الله ﷺ بالمتاع فبيع فيمن يريد ، وبيع السبي وقسمت النخل أسهماً ، وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً ، فأسههم للفرس بسبعين ، ولصاحبه سهم وللراجل سهم وقد قتل تحت الحصن ، وأسههم لأبي سنان بن محسن ، واحداً ، وأسههم لخلاد بن سويد وقد قتل تحت الحصن ، وأسههم لأبي سنان بن محسن ، مات ورسول الله ﷺ محاصراً بهم ، وكان يقاتل مع المسلمين ، وكان المسلمين ثلاثة آلاف وكانت سهامان الخيل والرجال على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً للفرس سهمان ولصاحبه سهم ، وكان السبي ألفاً من النساء والصبيان . فأنحرف رسول الله ﷺ خمسة قبل بيع المغنم ، فجزأ السبي خمسة أجزاء . فأخذ سهماً ، فأخذ خمساً ، وكان يعتقد منه ويذهب منه ويخدم من أراد ، وكذلك النخل عزل خمسة ، وكل ذلك يسهم عليه خمسة أجزاء ، ويكتب في سهم منها لله ثم يخرج السهم فحيث صار سهمه أخذه ولم يتخير ، وصار الخامس إلى مجمة بن جزء الزبيدي ، ثم فض أربعة أسههم على الناس . وأحدى رسول الله ﷺ النساء اللاتي حضرن القتال ولم يسهم لهن ، وهن صفية بنت عبد المطلب ، وأم عمارة نسيبة ، وأم سليم ، وأم العلاء الأنصارية ، والسميرة بنت قيس ، وأم سعد بن معاذ ، وكبشة بنت رافع .

(١) انظر سبل الهدى والرشاد للإمام محمد بن يوسف الصالحي السيرة الشامية / ج ٥ / ص ١٣ - ٢٥ .

ولما بيعت السبايا والذرية ، بعث رسول الله ﷺ بطائفة – قال محمد بن عمر – إلى الشام مع سعد بن عبدة يبيعهم ويشتري منهم سلاحاً وخيلأ . وقال ابن إسحاق وغيره : بعث سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي بسبايا من بنى قريظة إلى نجد ، وابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً ، واشترى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم طائفه فاقتسموا ، فسهمه عثمان بمال كثير ، وجعل عثمان على كل من اشتراه من سهمهم شيئاً موفياً ، فكان يوجد عند العجائز المال ولا يوجد عند الشعرا ر فربع عثمان مالاً كثيراً )١( .

﴿... وأرضاً لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ .

( وقال يزيد بن رومان ، وابن زيد ، ومقاتل : يعني حبينا ولم يكونوا نالوها : فوعدهم الله إياها .

وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة . وقال الحسن : هي فارس والروم . وقال غكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيمة ، ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾ فيه وجهان : أحدهما : على مأراد بعادي من نعمة أو عفو قدير ، قاله محمد بن إسحاق ، الثاني : على مأراد أن يفتحه من الخصون والقرى قدير ، قاله النقاش )٢( .

١ - ( لا يأس بأمر الله ، قدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ) .

هكذا لخص حبي بن أخطب مقتل بنى قريظة . إننا نشهد مصرع أمّة جزاءً بما كسبت نكالاً من عند الله ، ونشهد فناء جيل كامل عصى الله وحاد رسle ، وهي جزء من الأمة التي اصطفاها الله على العالمين ، وليس هذا جديداً على بنى إسرائيل :

﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون﴾ )٣( .

وقد حاولوا هنا بعد أن أدوا دور التكذيب للرسول الذي جاء بما لا تهوى أنفسهم ، حاولوا القتل والإبادة ، وأن يستأصلوا أخضراء هذا النبي ، وأن يفنوه وقومه عن بكرة أبيهم .

قال حبي لکعب : ( ويحك إني جئتكم بحر طام وبعز الدهر . جئتكم بقريش على قادتها وسادتها ، وجئتكم بكنانة حتى أنزلتهم بردمه ، وجئتكم بعطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بالزغابة ، قد قادوا الخيل . وامتطوا الإبل ، والعدد عشرة آلاف ، والخيل ألف

(١) سبل الهدى والرشاد ص / ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي / م / ١٤١ / ١٦١ .

(٣) البقرة من الآية ٨٧ .

فرس ، وسلاح كثير ، ومحمد لا يفلت في فورنا هذا ، وقد تعاقدوا وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ) .

بهذا التخطيط وبهذا المكر جاء زعيم يهود حبي وعلى هذا الأساس نقض كعب بن أسد العهد :

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرَهُمْ أَنَا دَمْرَنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

والله تعالى بالمرصاد لأعدائه ، ولكن الجديد الآن في الأمة الأخيرة ، الأمة الوارثة ، أمة محمد عليهما السلام ، أن يكتب الله عقاب أعدائها بيدها ، في حرب مباشرة عوان :

﴿فَاتُلُوهُمْ يَعْذِيبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَخْرُجُوهُمْ وَيَصْرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفُ صَدْرُهُمْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ . وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

لقد كانت سنة الله تعالى في الأمم الغابرة أن يهلكها بعذاب من عنده بعد الصراع الفكري الطويل ، وبعد إصرار الكافرين على كفرهم :

﴿فَكَلَّا أَخْذَنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَتْهُ الصِّحَّةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

وبني إسرائيل قد شهدوا هلاك عدوهم فرعون وقومه وهم في الجانب الآخر من البحر ، وخاضوا معارك قاتلوا فيها وقتلوا وانتصروا ، ومن أجل ذلك تترى الأجيال عندهم .

ليكونوا هم المعقابون لحرابهم لأنبيائهم ، ولا عجب فالقتل فيهم أصيل منذ المراحل الأولى لدعوتهم :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمَ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِأَنْخَذْتُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٦)</sup>.

(٣) التمل / ٥١ .

(٤) آل عمران / ٥٤ .

(١) إبراهيم / ٤٦ .

(٥) البقرة / ٤٠ .

(٦) العنكبوت / ٤٠ .

(٤) التوبية / ١٤ ، ١٥ .

لقد اخذوا العجل إلهاً من دون الله وموسى عليه الصلاة والسلام بين ظهاريهما ، وفي مناجاة ربه ، فلا غرو أن يأتي جيل من أجيالهم بعد قرون متطاولة فيخطط لقتل النبي الذي كانوا يستفتحون به على أعدائهم ، وأن يجتمعوا هؤلاء الأعداء جميعاً ويحيشوا الجيوش للفتك به وبالذين آمنوا معه ، وأن يقولوا العدة الأوثان - ضرورة تحركهم معهم - أتمن أهدي من محمد وأقوم سبلا :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمدون بالجحود والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبلا ﴾<sup>(١)</sup>.

لاغرابة بعد هذه المواقف جميعاً أن يقتل منهم كل من أنت ، أو كل من جرت عليه الموسى ، فلا يبقى منهم رجل غادر ، وأن تسبى ذراراً لهم ونساؤهم :

﴿ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾.

لقد لقوا هذا الجزاء من فرعون الطاغية :

﴿ وإذ أبغيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾<sup>(٢)</sup>.

ورفع الله عنهم هذا البلاء باتباعهم لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام ، وإذ بفرعون ييرز بين ظهاريهما بحبي بن أحطب ، فهو أبو جهل اليهود ، فيتعوه ، فينالوا المصير السابق نفسه ولكن على يد المؤمنين ، وعلى يد الرسول الذي أوصاهم موسى عليه الصلاة والسلام باتباعه .

فهل لنا نحن المؤمنين أن نتعظ بهذه المواقف ؟ حتى ولو كنا الدعاة وأبناء الحركة الإسلامية ؟

هل لنا بأن نتعظ ، فلا نلقى المصير المشؤوم نفسه يوم نحيد عن منهج الله ، ونحاد الله ورسوله .

لقد لقيت أمّة محمد اليوم جزاء محاداتها لله ورسوله على يد المشركين واليهود والنصارى ما استباحوا به بيضتهم ، وأخذوا أرضهم وديارهم وأموالهم ، وقتلوا أبناءهم ، وهذا القرن خير شاهد على ذلك .

. (١) النساء / ٥١ . (٢) البقرة / ٤٩ .

فسنة الله تعالى واحدة لمن أطاعه ولمن عصاه :

﴿لِيْسَ بِأَمَانِيْكُمْ وَلَا أَمَانِيْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ يَعْمَلُ سُوءًا يَجْزِيْهُ وَلَا يَجْدُلُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

٢ - وحين تتحدث عن الهلاك الجماعي للأمة ، لابد أن تتحدث عن دور القيادات فيها ، والتي تقودها إلى الهلاك أو النجاة ، وأى دراسة مثل هذه العقوبة بعيداً عن دراسة دور القيادات هي دراسة مبتورة ناقصة .

فقد جبَّ كعب بن أسد قومه بنى قريطة كل الأزمات السابقة بحكمته ، ووفاته مع محمد عليهما السلام ، في الوقت الذي ذلت قبله النضير ولقيت مصرعها ، وفي الوقت التي ذلت فيه قينقاع وأجلت عن المدينة .

لكن دخول هذا الأخطبوط اليهودي - حبي - عليه هو الذي صرעהه وصرع قومه ، ولقد كان يرى هذا رأى العين فيقول له :

( ويحك جتنى والله بذل الدهر ، وبسحاب ييرق ويرعد ليس فيه شيء ، وأنا في بحر لجي لا أقدر على أن أريم داري ، وما لي معى والصبيان والنساء ) .

وفي مقالة سابقة لحبي : (إنك امرؤ مشئوم قد شامت قومك حتى أهلكتهم ، فارجع عنا فإنك إنما تريد هلاكى وهلاك قومى .. إنى عاقدت محمداً وعاهدته . فلم نر منه إلا صدقاؤوفاء ، والله ما أخفر لنا ذمة ، ولا هتك لنا سترة ، وقد أحسن جوارنا ) .

ولو بقى القائد كعب على موقفه ، وأصر على طرد حبي لحب قومه هذه الكارثة الماحقة .

ولكن شيطان يهود - حبي - مازال به يقتله في الذروة والغارب حتى صرفه عن رأيه .

واستدعي كعب بن أسد أركان حرية الخمسة ، قيادات بنى قريطة . وهم : الزبير بن باطا ، ونباش بن قيس ، وغزال بن سموأل ، وعقبة بن زيد ، وكعب بن زيد ، وعرض عليهم الأمر . وكان رأيهم جميعاً خطأ هذا الرأى ، خاصة عندما قال الزبير بن باطا أمام إغراء حبي لكتبه بمقتله معه :

( وما حاجتك إلى أن تُقتل ويُقتل معك حبي ) .

(١) النساء / ١٢٣ .

فأسكت القوم .

لقد وضح للقيادة خطل القرار وخطورته وأنه قد يودي بقومهم جميعاً ، فلم يتخذوا الموقف الحاسم منه ، ويحولوا دون تنفيذه ، ولو أدى ذلك لترزع الثقة بقيادة كعب ، لقد كان الحرص على المركز والسمعة والجاه يحول دون تبصر العاقب ، وحرصاً على زعامة كعب وافقوا على الرأى :

( نحن نكره أن نزري برأيك أو نخالفك وحتى من قد عرفت شؤمه ) .

وكان الأخطبوط - حتى - الذى يربط الخيوط كلها من كل جانب قد أعلن نقض العهد فى صفوف بنى قريظة قبل استشارة هذه القيادات حتى لايدع مجالاً للتراجع :

( فخرج على بنى قريظة وهم حلق حول منزل كعب بن أسد فخبرهم الخبر ) .

والتراجع الآن يزرى بقيادة كعب بن أسد ، ويضعضع من مكانته ، فقررت قيادة قريظة تبني هذا الموقف الذىقادهم إلى حتفهم .

ثم كانت فرصة أخرى وأخيرة حين حاصرهم محمد عليه الصلاة والسلام ، وأراد كعب أن يكفر عن خطيبته وجريمته ، فنـى محاولة لاستنقاذ قومه بعد أن قادهم إلى الهلاك ، فأكـد لهم أن لانجـاة لهم إـلا بالإسلام والإيمـان بـمحمد عليهـ اللهـ ، وـهم يـعرفـونـ أنهـ حقـ ، وبـذـلـ جـهـداً مـضـنـياً لإـقـنـاعـهـمـ بـكـلـ ماـيـمـلـكـ منـ عـلـمـ وـمـعـرـفـةـ وـخـتـمـ كـلـامـهـ بـقولـهـ :

( فـتـعـالـوا فـلـتـتـابـعـهـ وـلـنـصـدـقـهـ وـلـنـؤـمـنـ بـهـ ، فـنـأـمـنـ عـلـىـ دـمـائـنـاـ وـأـبـنـائـنـاـ وـنسـائـنـاـ وـأـمـوـالـنـاـ فـنـكـونـ بـمـنـزـلـةـ مـعـهـ .

لكن الذين أشربوا فى قلوبهم العجل لا يسهل عليهم أن يستجيبوا للداعى الهدى :

( قالوا : لأنـكـونـ تـبـعـاـ لـغـيرـنـاـ ، نـحـنـ أـهـلـ الـكـتـابـ وـالـنـبـوـةـ ، وـنـكـونـ تـبـعـاـ لـغـيرـنـاـ ؟ فـجـعـلـ كـعبـ يـرـدـ عـلـيـهـمـ الـكـلـامـ بـالـنـصـيـحةـ لـهـمـ . قالـوا : لـافـارـقـ التـورـاـةـ أـبـداـ وـلـانـدـعـ مـاـكـنـاـ عـلـيـهـ مـنـ أـمـرـ مـوـسـىـ ) .

وبـذـلـكـ أـخـفـقـ كـعبـ أـيـمـاـ إـحـفـاقـ ، فـدـعـاـ لـأـنـ يـغـسلـ العـارـ عـنـ أـمـتـهـ ، بـأـنـ يـمـوتـواـ كـرامـاـ . فيـقـتـلـوـ أـوـلـادـهـمـ وـنـسـاءـهـمـ ، وـيـجـاهـدـوـ مـحـمـدـاـ عـنـ آخـرـ رـجـلـ مـنـهـمـ ، فـأـبـواـ ذـلـكـ ، وـدـعـاهـمـ لـمـحاـولةـ اـنـتـحـارـيـةـ بـأـنـ يـكـسـرـوـاـ السـبـتـ وـيـهـاجـمـوـاـ الـمـسـلـمـينـ فـتـازـعـوـاـ التـلـاـوـمـ بـيـنـهـمـ وـتـضـارـبـتـ الـآـرـاءـ .

وهذا الذى يقع عندما تخين الكارثة ، ويتحقق البلاء ، يحاول كل مسئول أن يرمى التبعة على غيره :

( فاختلفوا وسقط فى أيديهم ، وندموا على ما صنعوا ، ورقوا على النساء والصبيان ) .

وفي اللحظات الأخيرة حين كانوا يقادون إلى مصارعهم ، حاول كل واحد منهم أن يتخلص من مسئوليته حتى الجرم الأكبر حتى بن أخطب .

كعب يقول : ويلكم ! على كل حال لاتعقلون ، ألا ترون الداعي لا ينزع ، وأنه من ذهب منكم لا يرجع ، هو والله السيف ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأليتم .

القادة الأربع يقولون : ليس هذا بحين عتاب ، لو لا أن كرهنا أن نزري برأيك مادخلنا في نقض العهد الذي كان بيننا وبين محمد .

حيى بن أخطب : اتركوا ماترون من التلاؤم ، فإنه لا يريد عنكم شيئاً واصبروا للسيف .

ومضى الجميع إلى حتفهم وهم يرون مصرع قومهم .

ولابد أن نذكر أن هذه القيادات بعد أن اتخذت الموقف ، أخذتها العزة بالإثم ، وعندما جاءها وقد رسول الله عليه ناصحاً ومذراً أبرزت كل حقدها ولؤمها .

فنباش بن قيس يشتم سعد بن عبادة ويقول : عضضت بيظرك أمك .

وغزال بن سموأل يقول لسعد بن معاذ : أكلت أير أبيك .

فهم في النتيجة يتحملون جميعاً مسئولية مصرعهم ومصرع قومهم على أيديهم .

وهكذا تفعل القيادة التي تستعبدها العصبية وحب المركز والعزة بالإثم بقومها ، فتوردهم موارد الهلكة .

٣ - وفي مقارنة بين أمتين لابد لنا أن نجلى الصور المقابلة ؛ لندرك جوهر انتصار الأمة ، وجوهر فشلها وهزيمتها .

لقد كانت الأمة المسلمة وعلى رأسها محمد عليه تربى بالقرآن الكريم ، ووجدنا فضيل المنافقين الذى انفضح أمره ، ولم يتجاوز حسب الروايات التى ترفع عدده سبعين

أو ثمانين من ثلاثة آلاف ، واستطاعت التربية النبوية دور الصحب مع رسول الله ﷺ أن يغزوا هذا التجمع المنافق ، ويرفعوا كثيراً من أفراده إلى مستوى الصف الإيماني المسلم .

وحين تتحدث عن عظمة هذا البناء وندع المنافقين جانباً ، نجد أن المجتمع الإسلامي الفتى المبني بالقرآن والسنة ، والذى يربيه سيد الخلق عليه الصلاة والسلام – قد ارتفع بكل أفراده ، ولم يرزق فيه إلا نقطة ضعف واحدة ، مثلها فرد واحد هو أبو لبابة رضي الله عنه ، والذى تأثر في لحظة ضعف بجو اليهود وبكاء نسائهم ، وضع يده على حلقة مشيراً إلى اليهود أنه الذبح إن نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، وكما عبر رضي الله عنه عن هذا الموقف بقوله :

( فوالله ما زالت قدمائى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ) .

وهو موقف مشهود من العدو ، وهى نقطة الضعف الوحيدة التى بروزت فى هذا المجتمع النبوى الحالى ومن فرد واحد من المسلمين ، وسرعان ما تراجع عنها ، وأمضى أحلك أيامه حتى تاب الله عليه ، بينما بزد فى الصورة المقابلة أمة استهلكت وترغت فى الشر ، ونبت فى الضلال ، ولم يعد فى صفتها داعى هدى ، إلا تلك الأصوات الثلاثة التى استفاقت فى اللحظات الأخيرة ، وكان لها من القوة الداخلية فى أعماقها أن ترفض العذر بمحمد ﷺ ، وتعلن مفاصلة قومها وتسلل فى جنح الليل من أسوار بنى قريطة ، وتعلن براءتها من غدرهم ، وتتضمن إلى الصف الإسلامى فيما بعد ، وكانت هذه الأصوات الثلاثة هي التى مثلها الأخوان ابن سعية ثعلبة وأسید وابن عمهم الثالث أسد بن عبيد ، بعد أن أعلنوا كلمة الحق مدوية فى قلب يهود :

( يا عشر بنى قريطة ، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأن صفتكم عندنا ، وحدثنا به علماؤنا وعلماء بنى النضير ، هذا أولهم – يعني حبي بن أخطب مع جبير بن الهيبان : أنه أصدق الناس عندنا هو خيرنا بصفته عند موته ، قالوا : لا نفارق التوراة . فلما رأى أولئك النفر إباءهم نزلوا تلك الليلة التى فى صبحها نزلت بنو قريطة ، فأسلموا ، وأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم ) .

قد يكون فى صفات يهود من يحمل مثل هذه القناعات ، ولكنه يؤثر السلامة فى

قومه ، ويدين لقيادته بالولاء قبل أن يدين لقناعاته ، وهو أعجز عن المواجهة ، فكان مصيره مصير قياداته وأتباعهم .

والأمة التي تستحق الهلاك لا ينجو منها إلا الذين ينهون عن السوء :

﴿إِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لَمْ يَعْظُمُنَّ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مَعذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِّرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعْلَهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذَكَرُوا بِهِ أَنْجَبَنَا اللَّهُمَّ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ . فَلَمَّا عَتُوا عَمَّا نَهَوْنَا عَنْهُ قَلَّا لَهُمْ كُونُوا قَرْدَةٌ خَاسِئَينَ . إِذَا تَأذَنَ رَبُّكَ لِيُعِشَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ إِنْ رَبُّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

ولم يكن هذا العذاب الذي استؤصلت به بنو قريظة إلا حلقة من السلسلة التي تمثل عنتهم في التاريخ ، وجزءاً من العهد الذي قطعه الله تعالى على نفسه ﴿لِيُعِشَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ إذا استمروا على طغيانهم ، والله غفور رحيم لمن اهتدى وأناب ولو كان فرداً واحداً .

ونخلص من هذه المقارنة إلى أن المجتمع الإسلامي هو مجتمع قوى في إيمانه وبناء أفراده ، لم يشد فيه إلا فرد واحد ضعف في لحظة ضعف ، ثم عاد فارتفع إلى مستوى صفة الإيمانى .

والمجتمع اليهودي مجتمع منهار في عقيدته وبناء أفراده ، لم يشد فيه إلا أربعة نجاهم الله بوفائهم ، وانضموا إلى حظيرة الإسلام ، هم الأبناء الثلاثة المذكورون ، وعمرو بن سعدى الذى تبرأ من غدر يهود وغادر حضون بنى قريظة ، ولم يدر إلى أين ذهب وقال عنه عليه الصلاة والسلام :

«ذاك رجل نجا الله بوفائه» .

٤ - وبعد هذه الجولة على مستوى الجماعة والأمة ، لابد من الوقوف ملياً على مستوى التحليل النفسي للنماذج البشرية التى برزت فى غزوة بنى قريظة .

ويمكن القول أن لدينا رصيداً يمثل خمسة نماذج أو معادن ، كما استعمل التعبير القرآنى :

(١) الأعراف / ١٦٤ - ١٦٧ .

## أـ النموذج الرباني نموذج سعد بن معاذ رضي الله عنه :

ولسنا بصدق استعراض شخصه ، ولكننا ندرس دوره في غزوة بنى قريظة ، والمستوى الرفيع الذي مثله فيه ، فهو رضي الله عنه : دعاريه : ( ولا تنتن حتى تشفي من بنى قريظة ) .

إنهم حلفاؤه وهو الذي سمع منهم قذارتهم وتهكمهم برسول الله ﷺ ، وهو الذي تلقى من أحد قادتهم حين أخذهم الزهو والعزة بالإثم تلك الكلمة الخبيثة : أكلت أير أبيك .

وهو الذي حاول أن يحرك كوامن الخير فيهم لعلهم يرعنون مما زادوا إلا صلفاً واستعلاء على الله ورسوله ، وتركهم وقلبه يئن من الدماء لهذا الغدر المبيت الذي أقدموا عليه في أسوأ الظروف .

لهذه العوامل جميعاً ، وهو سيد قومه ، وسيد الأوس ، ومن أبرز سادات المسلمين - ضبط جميع انفعالاته وحدد موقفهم بقوله : ( ماينينا وبينهم أربى من المشاتة ) .

هذا القلب الموصول بالله ، هذا القلب الرباني ، استجابة الله تعالى له ، وإذا بسيد الخلق يدعوه ليحكم في بنى قريظة ، والأوس يختارونه ليحكم بينهم ، واليهود يختارونه ليحكم عليهم .

وكانت فرصة مواتية ، هيأت لسعد أن يبني عرش ذاته أمام هذا الإجماع الساحق عليه ، وهذا مادعاه إليه قومه وت婉أوا عليه يقولون :

( يا أبا عمرو ، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحسين فيهم ، فأحسن ، فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه ، وأكثروا من هذا وشبهه ) .

ولو فعل ذلك لأرضى قومه الأوس ورسخ قيادته فيهم ، ولأصبح اليهود من بنى قريظة يديرون له بالولاء طيلة حياتهم فقد أنقذهم من الموت ، والمسلمون جمیعاً يتحدون من خلال هذه الثقة التي أعطيت له عن أبعاد هذه الزعامه ، وتحقق انتصاراً ساحقاً على منافسه سعد بن عبادة ، إلى آخر هذه الأمجاد التي يتتسابق عليها القواد ويتنافس عليها الزعماء .

ولكن هذا الرجل الرباني حسم الموقف بكلمة واحدة ، فليس له ذات منفصلة عن

دينه ، لقد انصره في بوقته هذا الدين وصيغ في كل جزئية من جزئياته بهذه العقيدة ، ومسح كل ذرة من ذرات الجاهلية ، وخلع ربقة الجاهلية من عنقه ، وأعطي ولاءه لله وحده ولرسوله ، ورمي خلف ظهره كل أمجاد الجاهلية السابقة ، ورسم الأفق الأعلى للمؤمن :

وقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم .

إن سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام يعرف المعدن النفيس الذي ينتمي إليه سعد ، فلم يتردد لحظة واحدة في أن يترك حكمه عليه الصلاة والسلام وينزل عنه إلى حكم سعد ابن معاذ ، ويعلن هذا أمام الملأ جمِيعاً أنه يقبل بحكم سعد . إنه يعلم عليه الصلاة والسلام أى طراز من الرجال هو ، وبذلك رمى الأوس بقادتهم ليحكم بحلفائه بني قريظة .

وحين وقف رضي الله عنه بين الصفين ، بذلك اليهود كل ماتملك من إغراء ورجاء وتذلل وصغار لسعد على أمل أن ينقذهم ، وحرکوا فيه كل نوازع الرعامة السابقة ، ولم يدرُّوا أنها قد استؤصلت من نفسه منذ زمن بعيد .

قالوا : نعم قد رضينا بحكمك ، وأنت غائب عنا ، اختياراً منا لك ، ورجاء أن تمن علينا كما فعل غيرك بحلفائه من بني قينقاع ، وأثروا عندك أثراً ، وأحوج ما كنا اليوم إلى مجازاتك .

وخبرة الرسول ﷺ بنفسية سعد الربانية ، لم تجعل الشك يحوم لحظة واحدة فيه بجنديه الذي يعرض اليهود كل إغراءاتهم عليه ، ورضي وأول مرة في التاريخ أن يحكم جندي من جنوده بيته وبين عدوه ، ويعلن على الملأ قبوله بحكمه ، بقوله :

( وعلى من ها هنا مثل ذلك ) .

وعندما أصدر حكمه رضي الله عنه لم يراع أحد إلا الله ورسوله .

لم يراع رغبة قومه ، ولم يراع رغبة اليهود ، ولم يراع الرغبات المدفونة في نفسه ، والتي حاولت أن ترفع رأسها وتثبت سموها فيه . لقد رمى بذلك كله خلف ظهره وقال : أحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه الموسي ؛ وتسبي النساء والذرية ؛ وتقسم الأموال ، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار .

ولم تقبل مراجعة الأنصار حين قالوا : إخواننا كنا معهم .

فأكَد حُكْمَه بِقُولِه : أَحَبَّتْ أَنْ يَسْتَغْنُوا عَنْكُمْ .

وتكفيه شهادة رسول رب العالمين : « لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ». وَفِي رَوَايَةٍ : « بِذَلِكَ طَرْقَنِي الْمَلَكُ سَحْراً » .

هذا هو الموقف الأول ، والموقف الثاني الذي لاحق فيه تنفيذ هذا الحكم عندما قال سعد بن عبادة رضى الله عنه : إِنَّ الْأُوسَ قَدْ كَرِهْتَ قَتْلَ بْنِ قَرِيبَةَ لِمَكَانِ حَلْفِهِمْ . فَقَالَ : مَا كَرِهْتَهُ مِنَ الْأُوسَ أَحَدٌ فِيهِ خَيْرٌ ، فَمَنْ كَرِهْتَهُ فَلَا أَرْضَاهُ اللَّهُ .

وَحِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ سَعْدِ بْنِ مَعَاذَ لَابْدَ أَنْ نَتَحَدَّثُ عَنْ دُورِ الْقِيَادَاتِ كَذَلِكَ فِي الصَّفِ الإِسْلَامِيِّ ، فَمَوْقِفُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فِي بَنِي قَيْنَاقَاعَ كَانَ مَوْقِعاً سِيَّئَا مِزْقَ الصَّفِ الإِسْلَامِيِّ . وَتَحْمِلُ الصَّفِ عَقَابِهِ فِي لَقَاءِ أَحَدٍ . وَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَخَلْفُ السَّعْدِيْنِ فِي الرَّأْيِ ، سَعْدُ بْنُ مَعَاذَ ، وَسَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ يُمْكِنُ أَنْ يَمْزِقَ الصَّفِ الإِسْلَامِيَّ كَذَلِكَ وَيَنْدِرَ بِكَارَثَةَ فِيهِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا فِي حَدِيثِ الْإِفْلَكِ شِيَّئاً مِنْ هَذَا ، تَدَارَكَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِحُكْمِهِ ، وَإِبْرَازُ ظَاهِرَةِ الْأُوسَ ، وَعَدْمُ رَضَاهِمْ بِقَتْلِ بَنِي قَرِيبَةَ - لَوْ تَرَكَتْ تَنْمُو وَتَسْتَفْحِلُ لَأَوْجَدَتْ هَوَةً فِي الصَّفِ الإِسْلَامِيِّ يَصْعَبُ رَدْمَهَا وَقَدْ تَجَرَّى إِلَى مَوَاقِفَ أَسْوَأَ .

فَكَانَ الْحَسْمُ الْعَظِيمُ مِنْ سَيِّدِ الْأُوسَ ، قَطْعًا لِلْفَتْنَةِ مِنْ دَابِرِهَا ، وَلَمْ يَكُنْ مَوْقِفُ أَسِيدِ ابْنِ حَضِيرِ أَدْنَى مِنْ مَوْقِفِ أَخِيهِ سَعْدٍ ، بَلْ دَعَا إِلَى الْحَسْمِ الْعَمَلِيِّ لِلْفَتْنَةِ ، بَأْنَ دَعَا إِلَى أَنْ يَبْاشِرَ الْأُوسَ قَتْلَ حَلْفَائِهِمْ مِنْ بَنِي قَرِيبَةَ ، لَشَدَّ هَذِهِ الْفَكْرَةَ فِي مَهْدَهَا ، فَتَوَحَّدَ مَوْقِفُ الْقَادِيْنَ لِلْأُوسَ ، سَعْدٌ وَأَسِيدٌ . وَقِيَامِهِمْ بِالإِشْرَافِ عَلَى تَنْفِيذِ الْحُكْمِ بِأَيْدِيْ أُوسِيَّةٍ ، اقْتَلَعَتِ الْفَتْنَةُ مِنْ جُذُورِهَا ، وَالتَّحَمَّتِ الْقُلُوبُ كُلُّهَا حَوْلَ قَائِدَهَا ، وَارْتَفَعَ الصَّفِ الإِسْلَامِيُّ بِهَذِهِ التَّرْبِيَّةِ الْرِّبَانِيَّةِ آفَاقًاً جَدِيدًاً .

## بـ النموذج البشري الرباني :

وَنَقْصَدُ فِي هَذَا النَّمُوذِجِ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذِي تَحْرُكُ أَحْيَانًا نَوَازِعَهُ الْبَشَرِيَّةُ فِي دَاخِلِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لِهَذِهِ النَّوَازِعِ ، وَيَتَجَاهِزُهَا مُلْتَزِماً بِالْمَوْقِفِ الإِسْلَامِيِّ الْأَصِيلِ ، وَقَدْ شَهَدْنَا نَمَاذِجَ مِنْ هَذِهِ الْمَعَادِنِ الْرَّاقِيَّةِ مِنْ خَلَالِ الْأُوسَ أَنْفُسِهِمْ أَوْ قَسْمِهِمْ عَلَى الْأَقْلَى ، فَهُمْ قَدْ سَيَطَرُ عَلَيْهِمْ فِي لَحْظَةٍ مِنَ الْلَّحْظَاتِ أَنْ يَتَساوَلُوا مَعَ إِخْرَانِهِمُ الْخَزْرَجَ ، وَحَسِبُوا أَنْ سَلَامَةَ بَنِي قَيْنَاقَاعَ عَلَى يَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي هُوَ مِيزَةٌ لَابْنِ أَبِي وَالْخَزْرَجِ مِنْ وَرَائِهِ .

وأحوالها في مثل هذه الميزة ، ولا ينفرد بها إخوانهم الخزرج . واعتبروا تكليف سعد بالحكم تمثيلاً لهذه الميزة ، وأحوالها عليه في ذلك .

لكن عندما أصدر حكمه رضي الله عنه ، سرعان ما استجابوا له ، بل استجابوا كذلك . وهى قمة عالية في التربية ، إلى أن يباشروا قتل حلفائهم بأيديهم تنفيذاً لتوجيه سيديهم سعد وأسید ، ومثلوا صورة الالتزام الإسلامي الخالص .

جـ- النموذج الثالث : خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئاً :

ومثله أبو لبابة رضى الله عنه ، وليس أبو لبابة نكرة في الصف الإسلامي ، بينما لاحظنا أن النموذج الثاني ليس بين أيديينا بأسماء له .

أبو لبابة أحد النقباء الاثنى عشر . وأبو لبابة يقع اختيار اليهود عليه لاستشارته ، وثقة رسول الله ﷺ بجندية أبي لبابة ثقة عالية ، وحين نقول : إنه من النقباء الاثنى عشر ، فهذا يعني أنه من المستويات القيادية العالية في الصف الإسلامي ، وللهذا الموقع الذي يتبعه ولقدره تأثيره في قومه ، وأهميته في الصف الإسلامي حرص اليهود على استشارته ، وقد نقل لنا الواقدى رحمة الله صورة المباحثات هناك على لسان أبي لبابة نفسه رضي الله عنه :

( عن السائب بن أبي لبابة بن عبد المنذر عن أبيه قال : لما أرسلت بني قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلن إلهم ، دعاني رسول الله ﷺ فقال : « اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس » قال : فدخلت عليهم وقد اشتد عليهم الحصار ، فبهشوا إلى وقالوا : يا أبو لبابة ، نحن مواليك دون الناس كلهم . فقام كعب بن أسد فقال : أبا بشير ، قد علمت ما صنعتنا في أمرك وأمر قومك يوم الحداائق ويوم بعاث ، وكل حرب كتتم فيها ، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا ، ومحمد يأتي يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه ، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر ، ولم نطأ له حرًّا أبداً ، ولم نكثر عليه جمعاً أبداً ، قال أبو لبابة : أما ما كان هذا معكم فلا يدع هلاككم ، وأشارت إلى حسبي بن أخطب . قال كعب : هو والله أوردني ثم لم يصدرني فقال حسبي : ما أصنع ؟ كنت أطمع في أمره ، فلما أخطلني آسيتك بنفسك يصيبني ما أصابك . قال كعب : وما حاجتي إلى أن أقتل أنا وأنت وتتسى ذرارينا ؟ قال حسبي : ملحمة وبلاء كتب علينا . ثم قال كعب : ما ترى فإنما قد اخترناك على غيرك ؟ إنَّ مُحَمَّداً قد أبى إلا أن ننزل على حكمه ، أفتنزل ؟ قال : نعم فائزوا - وأوْمًا إلى حلقة - هو الذبيح . قال : فندمت

فاسترجمت ، فقال لي كعب : مالك يا أبا لبابة ؟ قلت : خنت الله ورسوله ، فنزلت وإن  
لحيتي لمبتلة بالدموع ، والناس يتظرون رجوعي إليهم ، حتى أخذت من وراء الحصن  
طريقا آخر ، حتى جئت إلى المسجد فارتبطت .. وبلغ رسول الله ﷺ ما صنعت ، فقال :  
« دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء لو كان جاءنى استغفرت له ، فأما إذا لم يأتني وذهب  
فدعوه ». قال أبو لبابة : فكنت في أمر عظيم خمس عشرة ليلة وأذكر رؤيا رأيتها ..  
فأرجو أن تنزل توبتى )<sup>(١)</sup>

هذا النموذج القيادى قد عاش فى جو عاطفى رهيب ، وكما تقول رواية ابن هشام :  
( فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرقاً  
لهم ) .

واختياره من بين الأوس جميعاً جعل فى نفسه دافعاً خفياً أن يرد هذا الجميل وينصح  
لهم ، وفي غمرة هذه المشاعر المتدافعه ، تصرف بلسانه ما يقتضيه دينه ، وأشار بيده إلى  
حلقه ، تأثراً بهذا الجو العاطفى الشديد ، وكأنه يحذرهم من التزول على حكم الله  
ورسوله وهو الذبح .

لكن دقة الإيمان القوية ، كانت كشافاً باهراً له ، أحرق كل محاولات المواقد  
الذابلة فى نفسه ، والتى ت يريد أن تحيا من جديد مواقد الزعامه والشهره والتكتل  
والتجتمع الذى يمثله ، فلم تنزل يده عن حلقه إلا عرف أنه خان الله ورسوله وأعلن  
ذلك على الملأ .

لقد بدا الخطأ أمامه من الجسامه والضخامة ، وهو من هو بين المسلمين ، بحيث لم  
يجرؤ على الوقوف بين يدي سيده عليه الصلاة والسلام ، ومضى حالاً إلى قاعة المحكمة ،  
 بحيث يراه جميع المسلمين ويعرفون زله ورأى أن يقدم حياته مقابل خططيته رجاء أن  
يتوب الله عليه .

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء  
والفحشاء إنه من عبادنا الخلصين ﴾ )<sup>(٢)</sup> .

لقد جاءه برهان ربه فانتسله من تلك الوهاد السحرية ، وأنى ليرتبط بسارية المسجد ،  
يتحدث بحديثه الغادى والرائع ، ولتكن العقوبة من جنس الذنب ، فإذا كانت ذاته قد

. ٢٤ / يوسف (٢)

(١) المغازى للواقدى / ٥٠٦ / ٢ .

تحركت لحظة ورقة للكفار ، فليحرق هذه النفس على مذبح الإيمان ، وليحطم شهرته وسمعته وموقعه وزعامته ، حتى تنزل توبه الله عليه .

إنه نموذج من أرفع المستويات الإيمانية لكنه زل ، وسرعان ما نجا من زلته ، واحتفل خمسة عشر يوماً من العذاب النفسي والجسدي حتى كادت أن تزهق روحه ، إلى أن جاءته البشرى بأن تيب على أبي لبابة .

إننا نرى أن صورة اليهود الأربعة الذين أعلنوا إسلامهم في اللحظة الحاسمة ، تقترب في المستوى الإيمانى من أبي لبابة مع الفارق في الدرجة لا في النوع .  
فقد كان أبو لبابة في القمة ، حيث زل لحظة ، وارتفع فوق زلته .

وكان اليهود الأربعة قد صحووا في اللحظة المناسبة ، فاستجابوا ليقظة ضميرهم ، وأعلنوا ولاءهم لله ورسوله ، حين أعلنوا براءتهم من غدر يهود ، وتعنت يهود في الإصرار على الباطل .

#### د - النموذج الرابع : غالب هو اهتمامه بالخير عنده :

ويمثله كعب بن أسد الذي استيقظ ضميره عدة مرات ، لكن نفسه كانت أكبر من ضميره ، فاستقر أخيراً على غيه . إنه يمثل ذلك الطراز من الرجال الذين تحرك في نفوسهم بوادر الخير ، لكن عندما تعارض هذه البوادر مع الرعامة والذات فهم ينحازون إلى جانب الرعامة والذات .

إن قيسر الروم ومقوس مصر وكعب بن أسد يهود وأبا طالب قريشى نماذج واحدة . لا يزال في نفسها بقايا خير . ولو توافقت هذه البقايا مع الحافظة على مركبها وزعامتها . فهى تستجيب لها ، بل تسعى لها ، لكن عندما تعارض ، فالمقتول الذات . والمنحر الرعامة . وهو ينتهي أخيراً خارج الصف الإسلامي .

لقد دعا قيسر قومه إلى الإسلام بعد أن تبين له أنه الحق ، وعندما نظر بطارقه ، ورأى أن زعامته أصبحت في مهب الريح ، تدارك الأمر وقال : أحببت أن أختبر صلابتكم في دينكم .

وسيد يهود كعب ، يدعو قومه بحرارة إلى الإسلام فلا يستجيبون ، وتتصارع زعامته وقناعاته ، فيمضي وراء زعامته ، وأتيحت له في اللحظة الأخيرة أن يسلم ، وجاشت في نفسه الرغبة ، ونشهد لها من خلال هذه المحادثة :

(رسول الله : كعب ؟ – قال : نعم يا أبا القاسم .

رسول الله : ما انتفعتم بنصح ابن جواس لكم كان مصدقاً بي ، أما أمركم باتباعي وإن رأيتمني أن تقروني منه السلام ؟ قال : بلى والتوراة يا أبا القاسم .  
ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لا تبعنك ) .

لقد قال رسول الله ﷺ لعنة على أئبي طالب : « قلها أشهد لك بها يوم القيمة » فقال :  
ولولا أن تعيرني قريش بأنني قلت لها خوفاً من الموت ، لقلتها أسرك بها ، ولكن على ملة  
عبد المطلب . والموقف نفسه مع كعب : ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف  
لاتبعنك ، ولكنني على دين يهود .

وصدر الحكم بعد الفرصة الأخيرة وقبل الموت : « قدمه فاضرب عنقه » .

هذه المعادن التي تحمل في ثناياها جوانب كثيرة من الخير ، بحاجة إلى رعاية  
وعناية ، فمن خلالها يمكن أن تستفيد الدعوة الكثير انطلاقاً من موقعها وموقع الخير  
عندها ، ومع ذلك قد تغلبها ذاتها فلا تدخل الحظيرة الإسلامية ، وقد تنتقل من طور إلى  
طور ومن موقع إلى موقع ، مع مصلحة زعامتها فتقرب من النموذج المنافق .

لقد نخرت بطارقة قاصر فتراءج .

ونخرت بطارقة النجاشى للحبشة . لكن كان إيمانه أقوى . فقال : وإن نخرتم . والله  
ما زاد عيسى على ما قالوا ولا هذه القشة .

هـ- النموذج الخامس : النموذج الشيطاني :

ويمثله أبو جهل يهود ، حبي بن أخطب ، فذاك يقتل دوافع الخير في نفسه كلما  
حاولت الظهور ؛ لأنه حليف كبير لجند إبليس .

﴿ و كذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض  
زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصفع إلىه أشددة  
الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليرغبوا ما هم مقترفون ﴾ . (١)

فهو الذي أعلن موقفه منذ اللحظة الأولى للقاء ، من خلال محادثاته مع أخيه أبي  
ياسر بن أخطب ، ونقلتها لنا السيدة أم المؤمنين صفية ابنته :

(١) الأنعام / ١١٢، ١١٣ .

أبو ياسر : أهو هو ؟

حبي : نعم والله .

أبو ياسر : أتعرف وتبته ؟

حبي : نعم .

أبو ياسر : فما في نفسك منه ؟

حبي : عداوه والله ما بقيت .

إنه مجبول من الشر وبالشر ، لقد قالها أبو جهل قبله :

( تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف . أطعمنوا فأطعمنا ، وسقونا فسقينا ، حتى إذا تخاذلنا على الركب وصرنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي ، لا والله لا يكون هذا أبدا ) .

ويعرض كبير الجرمين على الموت .

فيقول ابن مسعود لأبي جهل : هل أخراك الله ياددو الله ؟ فلا يتنازل عن عبودية ذاته وتأنيه نفسه ويقول :

أعمد من رجل قتلتموه ؟

أى : هل فعلتم أكثر من أنكم قتلتم عميد قومه .

وتكرر الصورة نفسها ، فيسأل رسول الله عليه السلام الشيطان الأكبر حبي ويقول له : « ألم يمكن الله منك يا عدو الله ؟ » .

حبي : بلى والله ، أما والله ما لست نفسي في عداوتك .

إنه مصر على كفره وعناده وهو مقدم على الموت ، ويعلم أنه يعادى الله ، وهل يفوز من يعادى الله ؟ ( وقد التمس العز في مكانه ، فأبى الله إلا أن يمكنك ، لقد قلقلت كل مقلقل ولكنه من يخذل الله يخذل ) .

ويعلن تحيره وهو يلقى مصرعه : ( لا بأس قدر وكتاب وملحمة كتبت علىبني إسرائيل ) .

وهذا أخت النماذج . وهو في الطرف التقىض من النموذج الربانى ، فهو العدو اللدود للأنبياء والرسل .

وسعده رضى الله عنه . الذى اهتز عرش الرحمن لوفاته ، يمثل فى المقابل :

﴿ وَكَأْنِينَ مِنْ نَبِيٍّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهْنَا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَيِّلِ اللَّهِ وَمَا ضَعْفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يَحْبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبُّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصَرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحَسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَحْبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾<sup>(١)</sup> .

إن معركة الحق والباطل قائمة . وإن كان الربانيون يمثلون دعوة الحق في هذا الوجود ، والشياطين من الإنس والجن يمثلون قادة الضلال . والباطل - قد بقى النماذج الثلاثة رمزاً للفريقين ، فالنموذج الثاني والثالث يمثللا جماهير دعوة الحق ، ويمثل النموذج الرابع جمهور دعوة الباطل ، والتربية الجهادية تعنى أكثر ماتعني بالسمو بالنماذجين الثاني والثالث ؛ ليقترب من النموذج الرباني . وحين تنتصر دعوة الحق يمكن للنموذج الرابع أن يكون هدفاً في التربية ، وينضم إلى الجماهير المؤمنة . وحتى يرتفع إلى المستوى الثالث أمامه آماد وآفاق ، قد يزيل ويسقط ، وقد يتذبذب بين الإيمان والكفر ، فيمثل النموذج المنافق ، وقد يعادى الدعوة حيناً بكل ما لديه من خبث ، وقد يهاذنها ببقية الخير عنده .

وتبقى المهمة الأولى دائماً وهي الدعوة إلى الله وراء الجهاد الذي يفسح الطريق أمامها لتغزو قلوب الناس ﴿ وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِعِصْمَتِ الْأَرْضِ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

سورة الفتح  
**الفتح المبين**



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيغْفِرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا تَأْخُرُ وَيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

في أي أجواء تزلت هذه السورة العظيمة؟ وما هو الوضع النفسي الصعب الذي جاءت السورة ل تعالجه؟

مكان النزول: في الطريق بين مكة والمدينة.

(أخرج ابن إسحاق والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها) <sup>(١)</sup>.

وأخرج أحمد ، والبخاري والترمذى والنسائى وابن حبان ، وابن ميردوه ، عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد على . فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب نزرت رسول الله ﷺ ثلاثة مرات فلم يرد عليك ، فحركت بعيри ثم تقدمت أمام الناس وخشيست أن ينزل في القرآن . فما نشبت أن سمعت صارخًا يصرخ بي ، فرجعت ، وأنا أظن أنه نزل في شيء . فقال النبي ﷺ : «لقد أُنْزِلَ عَلَيَّ اللَّيْلَةِ سُورَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا : ﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيغْفِرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا تَأْخُرُ..﴾» <sup>(٢)</sup>.

(أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن ميردوه ، والبيهقي في الدلائل ، عن مجتمع بن جارية الأنصارى قال :

شهدنا الحديبية ، فلما انتصرنا عنها إلى كراع الغميم إذا الناس يوجفنون الأباعر . فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس؟ قالوا أوحى إلى رسول الله ﷺ ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته على كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ،

(١) الدر المنشور / ٧، ٥٠٧، ٥٠٨.

فقرأ عليهم : ﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكُمْ فَتْحًا مِّبْنًا﴾ فقال رجل : يا رسول الله ، أوفتح هو ؟ قال : «والذى نفسى بيده إنه لفتح» <sup>(١)</sup>.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

(لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكتنا ، فنحن بين الحزن والكآبة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكُمْ فَتْحًا مِّبْنًا . لِيغْفِرَ لَكُمُ اللَّهُ مَا تَقْدَمْ مِنْ ذَنْبِكُمْ وَمَا تَأْخُرْ ، وَيَعْتَمِدُ عَلَيْكُمْ وَيَهْدِكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أو كما شاء الله ، فقال نبى الله ﷺ : لقد أنزلت على آية أحب إلى من الدنيا جميما » <sup>(٢)</sup>.

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك فى قوله : ﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكُمْ فَتْحًا مِّبْنًا﴾ قال : (نزلت على النبي ﷺ مرجعه من الحديبية ، وقد حيل بينهم وبين نسكتهم ، فتحر الهدى بالحدبية وأصحابه فخالطوا الكآبة والحزن فقال : «لقد أنزلت على آية أحب إلى من الدنيا جميما» فقرأ : ﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكُمْ فَتْحًا مِّبْنًا . لِيغْفِرَ لَكُمُ اللَّهُ مَا تَقْدَمْ مِنْ ذَنْبِكُمْ وَمَا تَأْخُرْ﴾ إلى قوله : ﴿عَزِيزًا﴾ فقال أصحابه : هبئا لك يا رسول الله ....) <sup>(٣)</sup>.

من خلال الروايات المذكورة لاحظنا أن السورة نزلت المسلمين تغشام الكآبة ، وبخالطهم الحزن ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يراجع رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، ولا يرد عليه الرسول ﷺ ولا خيار لنا من الوقوف عند حدوث صلح الحديبية الذى تم بكل تفصياته ، ونشهد من خلاله الأوضاع النفسية التى نزلت بال المسلمين على أثره ، وكيف جاء القرآن الكريم ليغسل هذا الأسى ويمحو هذه الكآبة ، ويسعد رسوله ﷺ بأحباب آية إليه .

روى ابن إسحاق ، وأبو عبيد ، وعبد الرزاق ، والإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، ومحمد بن عمر ، عن المسور بن مخرمة ، وموان بن الحكم ، والشيخان ، عن سهل بن حنيف : (أن عثمان لما قدم مكة هو ومن معه ، رجع سهيل بن عمرو وحوبيط ومكرز إلى قريش فأخبروه بما رأوا من سرعة أصحاب النبي ﷺ إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب - اشتدر عليهم ، فقال أهل الرأى منهم : ليس خير من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عن عame هذا ، ولا

(١) الدر المشور / ٧ / ٥٠٨.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبرى / م / ١١ / جـ ٢٦ / ٤٢، ٤٤.

يخلص إلى البيت حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أنا قد صدناه ، ويرجع قابلاً فيقيم ثلاثة وينحر هديه وينصرف ، ويقيم بيلدنا ولا يدخل علينا ، فأجمعوا على ذلك ، فلما أجمعوا على الصلح والموادعة بعثوا سهيل بن عمرو وحيطب ومكرز وقالوا لسهيل :

إيت محمداً فصالحه ، ول يكن في صلحك ألا يدخل عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة أبداً . فأتى سهيل رسول الله ﷺ ، فلما رأه رسول الله ﷺ قال :

«قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا» وفي لفظ : فقال رسول الله ﷺ : «سهيل أمركم» . وجلس رسول الله ﷺ متربيعاً ، وكان عباد بن بشر وسلمة بن أسلم بن حريش على رأسه ، وهما مقنعان بالحديد - فبرك سهيل على ركبتيه ، فكلم رسول الله ﷺ فأطال الكلام وتراجعا ، وارتقت الأصوات وانخفضت . وقال عباد بن بشر لسهيل : انخفض من صوتك عند رسول الله ﷺ . وال المسلمين حول رسول الله ﷺ جلوس ، فجرى بين رسول الله ﷺ وبين سهيل القول حتى وقع الصلح على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم ببعض ، وأن يرجع رسول الله ﷺ عامه هذا ، فإذا كان العام المقبل قدمها فدخل مكة ، فأقام فيها ثلاثة ، فلا يدخلها إلا بسلاح الراكب ، والسيوف في القرب لا يدخلها بغيرة . وأنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه - وإن كان على دين محمد - رده إلى وليه ، وأنه من أتى قريشاً من اتبع محمداً لم يردوه عليه ، وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة<sup>(١)</sup> مكفوفة ، وأنه لا إسلام<sup>(٢)</sup> ولا إغلال<sup>(٣)</sup> ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده ، فتواثبت خزانة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

فكره المسلمون هذه الشروط وامتنعوا منها ، وأبى سهيل إلا ذلك ، فلما اصطلاحوا ولم يبق إلا الكتاب ، وثبت عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، ألسنت نبي الله حقاً؟ قال : «بلى» قال : ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال : «بلى» قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلامهم في النار؟ . قال : «بلى» قال : علام نعط الدنيا في ديننا؟ ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟

(١) عيبة مكفوفة : أى تكف عنك ونكتف عنك .

(٢) الإسلام : السرقة .

(٣) الإغلال : الخيانة .

قال رسول الله ﷺ : «إني عبد الله ورسوله ، ولست أعصيه ولن يضيعني ، وهو ناصري ». قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنتي البيت فنطوف حقاً ؟ قال : «بلى ، فأأخبرتك أئلئك تأثيئه العام ؟ قال : لا : قال : «فإنك آتية ومطوف به» فذهب عمر إلى أبي بكر متغيطاً ولم يصبر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس هذا نبى الله حقاً ؟ قال : «بلى». قال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلامهم في النار ؟ قال : «بلى». قال : فعلام نعط الدنية في ديننا ، ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال أيها الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بعمرزه<sup>(١)</sup> حتى تموت .. فوالله إنه لعلى الحق - وفي لفظ : فإنه رسول الله - فقال عمر : وأناأشهد أنه رسول الله ، قال :

أوليس كان يحدثنا أنه سنتي البيت ونطوف به ؟ قال بلى . فأأخبرك أئلئك تأثيئه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتية ومطوف به . فلقي عمر من هذه الشروط أمراً عظيماً وقال كما في الصحيح : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، وجعل يرد على رسول الله ﷺ الكلام . فقال أبو عبيدة بن الحجاج : لا تسمع يابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول ، تعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك . قال عمر : فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان حياءً ، فما أصابني شيءٌ قط مثل ذلك اليوم ، وعملت بذلك أعمالاً - أى صالحة - لتکفر عنى مامضى من التوقف في امتنال الأمر ابتداءً . كما عند ابن إسحاق وابن عمر الإسلامي . قال عمر : فما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

وروى البزار عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اتهموا الرأى على الدين ، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأىي ، وما ألوت على الحق . قال : فرضي رسول الله ﷺ وأيُّتْ حتى قال : «يا عمر ، تراني رضيت وتأيي ؟ » .

قال سهيل : هات ، اكتب بيننا وبينك كتاباً ، فدعه رسول الله ﷺ علياً ، كما في حديث البراء عند البخاري في كتاب الصلح وكتاب الجزية ، ورواه إسحاق بن راهويه من حديث المسور ، ومروان ، وأحمد ، والنسائي ، والبيهقي ، والحاكم وصححه ، عن عبد الله بن مغفل المزنى ، فقال رسول الله ﷺ : «اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » . قال سهيل - وأسلم بعد ذلك : - أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدرى ما هو ، ولكن اكتب

(١) الغرز : بمنزلة الركاب للسرج والمراد : الرزم أمره .

باسمك اللهم كما كتت تكتب . اكتب في قضيتنا مانعرف . فقال المسلمين : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ » ، فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصدداك عن البيت ولا قاتلناك ، اكتب في قضيتنا مانعرف ، اكتب : محمد بن عبد الله . فقال رسول الله ﷺ لعلى : « امحه » فقال على : ما أنا بالذى أمحاه - وفي لفظ : أمحاك ، وفي حديث محمد بن كعب القرطبي : فجعل على يتلها . وأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله - ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد »<sup>(١)</sup> انتهى .

وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن الحضير وسعد بن عبادة أخذ بيده على ومنعاه أن يكتب إلا (محمد رسول الله) وإنما فالسيف بيننا وبينهم ، فارتقت الأصوات ، فجعل رسول الله ﷺ يخوضهم ويومئ به إليهم : اسكتوا . فقال : « أرنيه » فأرآه ، فمحاه رسول الله ﷺ بيده وقال : « اكتب : محمد بن عبد الله » .

قال الزهرى : وذلك لقوله ﷺ :

« لا يسألونى خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » .

قال رسول الله ﷺ « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فطوف » فقال سهيل : لا والله لا تحدث العرب أنا أخذنا ضغطة<sup>(٢)</sup> ، ولكن لك من العام المقبل . فكتب . فقال سهيل : على أن لا يأتيك من أحد بغير إذن وليه ، وإن كان على دينك إلا سددته إلينا .

قال المسلمين : سبحان الله ، أيكتب هذا ؟ كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم إنه من ذهب منا إليهم ، فأبعده الله ومن جاء منهم إلينا سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

وروى الإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، عن سلمة بن الأكوع قال : فيبينما الناس على ذلك إذ أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين ، وكان أبوه سهيل قد أوثقه في الحديد وسجنه ،

(١) يشير إلى ما وقع على رضى الله عنه يوم الحكمين ، فإنه لما كتب الكاتب هذا ما صالح عليه على أمير المؤمنين أرسل معاوية يقول : لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين بأيمته ، امحها واكتب على بن أبي طالب . فقال على : الله أكبر مثل بعثل ، امحها .

(٢) صُنْطَة : قهراً .

فخرج من السجن ، واجتنب الطريق ، وركب الجبال حتى أتى الحديبية ، فقام إليه المسلمون يرحبون به ويهنئونه فلما رأه أبو سهيل قام إليه فضرب وجهه بغضن شوك ، وأخذ بتلبية ثم قال : يامحمد ، هذا أول ما أقضيك عليه أن ترده . فقال رسول الله ﷺ : « إنما نقض الكتاب بعد » قال : فوالله إذن لا أصلحك على شيء أبداً . قال « فأجزه لي <sup>(١)</sup> » قال : مائنا بمجيئه لك . قال : « بل فافعل » . قال : ما أثنا بفاعل . فقال مكرز وحويطب : بل قد أجزناه لك . فأخذاه فأدخلاه فسطاطاً فأجازاه وكف عنه أبوه . فقال أبو جندل : أى معاشر المسلمين ، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذّب عذاباً شديداً ، فرفع رسول الله ﷺ صوته وقال : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطيتنيهم وأعطينا على ذلك عهداً ، وإننا لا نغدر » . ومشى عمر بن الخطاب إلى جنب أبي جندل وقال له : اصبر واحتسب فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . وجعل عمر يدلي قائم السيف منه . قال عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباءه . قال : فضن الرجل بأبيه .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فزادهم أمر أبي جندل على مابهم ، ونفذت القضية وشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين ، أبو بكر ، عمر ، عبد الرحمن بن عوف ، عبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمد بن مسلم ، وعلى بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، ومكرز بن حفص وهو مشرك .

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : « قوموا فانحرروا ثم احلقوا » ، فوالله ما قام رجل منهم ، حتى قال ذلك ثلث مرات ، فاشتد ذلك عليه ، فدخل على أم سلمة فقال : « هلك المسلمون ، أمرتهم أن ينحرروا ويحلقوا فلم يفعلوا » – وفي رواية : « ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي » ..

قالت : يا رسول الله ، لا تلهم ، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، ورجوهم بغير فتح . يابن الله ، اخرج ، ولا تكلم

(١) أجزه لي : امضى لي فعلى ولا أرده عليك واستثنى من القضية .

أحداً كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك .

فجعل الله تعالى عن الناس بأم سلمة .

فقام رسول الله ﷺ فاضطبع<sup>(١)</sup> بشوبه ، فخرج فأخذ الحرية ، ويتم هديه ، وأهوى بالحرية إلى البدن رافعاً صوته : « بسم الله والله أكبر » ونحر ، فتوابع المسلمين إلى الهدى وازدحموا عليه ينحرونه حتى كاد بعضهم يقع على بعض .

وروى ابن سعد ، عن جابر : فلما فرغ رسول الله ﷺ من نحر البدن ، دخل قبة له من أدم حمراء ، ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الكعبي ، فحلق رأسه . ورمي شعره على شجرة كانت إلى جنبه من سمرة خضراء ، فجعل الناس يأخذون الشعر من فوق الشجرة فيتماصونه ، وأنخذت أم عمارة طاقات من شعره ، فكانت تغسلها للمريض ، وتستقيه فيها ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً ، وحلق بعض المسلمين وقصر بعض . فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبته وهو يقول : « رحم الله المخلقين » قيل : يا رسول الله والمقصرين قال : « رحم الله المخلقين » ثالثاً ثم قال : « والمتصرين » . وروى ابن أبي شيبة عن ابن عباس أنهم قالوا : يا رسول الله ما بال المخلقين ظاهرت عليهم الترحيم ؟ قال « لأنهم لم يشكروا » رواه البيهقي مرفوعاً (٢) .

١ - لعل هذا العرض المسهب كله ، يستطيع أن يقدم صورة صادقة عن الوضع النفسي ، والأزمة العنيفة التي كان يعيشها المسلمون عند تنزيل الآيات ، وبعد عقد الحديبية ، وبالوقوف عند العوامل الرئيسية التي صعدت الأوضاع النفسية لديهم نجد ما يلي :

**أ - لقد خرجموا من المدينة وهم لا يشكون في الفتح ، وهم يعلمون أن رؤيا رسول الله عليه صلوات الله عليه وسلم حق . وحين يرى الرؤيا تأتي كفلك الصبح .**

( والسبب في ذلك ما رواه الفريابي ، وعبد بن حميد ، وأبي جرير ، عن قتادة ، والبيهقي عن مجاهد ، ومحمد بن عمر ، عن شيوخه قالوا : أرى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محليين رءوسهم ومقصريهم ، وأنه دخل البيت ، وأخذ مفتاحه ، وعرف مع المعرفين <sup>(٣)</sup> . <sup>(٤)</sup> )

(١) اضطجع بشوّه : أدخله تحت إبطه اليمني وألقاه على عاتقه الأيسر .

(٤) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي : / ٥ / مقتطفات من ص ٨٥ - ٩٤ .

(٣) عرف مع المعرفين : وقف بعرفات .

(٤) سبل الهدى والرشاد / ٥٥ .

ولم يخطر بذهن معظمهم أن هذا الأمر إلا واقع هذا العام ، خاصة وقد تحركوا على ضوء هذه الرؤيا .

ب - تصاعد الأحداث النفسية ، وأخذ البيعة على الموت ، أو على أن لا يفروا فقد عيّنت هذه البيعة النفوس وشحنتها إلى أعلى حدود التعبئة ، وأصبحت جاهزة للمواجهة ، وزادهم ثقة بنصر الله عز وجل وبين يديهم رؤيا رسول الله عليه عليهما السلام التي تأثرت كفلق الصبح .

ج - الانتقال المفاجيء من هذا الجو المتوتر العالى إلى عملية المصالحة ، وليس فيها دخول مكة . وفيها بعض الشروط المجنحة بحق المسلمين - كما يedo للوهلة الأولى - جعل الصف كله في شبه حالة انهيار كامل ، وعواطف مكظومة ، ومشاعر مكبوبة .

د - وجاء قدوم أبي جندل بن سهيل رضي الله عنه ، ليرفع الجو إلى درجة الانفجار ، فهذه أول ثمرة مرة من ثمار هذه الشروط المجنحة ، فأبا جندل يصرخ ويستغيث بالمسلمين :

يا معاشر المسلمين أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟

وهذا الموقف يعني أنه موقف كل مسلم يفتتن ويغذب في سبيل الله ، والمسلمون لا يحركون ساكنا نحوه ، وهم غير مضطربين إلى ذلك .

هـ - إضافة إلى تمادي سهيل بن عمرو الذي بلغ به التحدى لمشاعر المسلمين تحدياً سافراً ، فهو يقول لحبيهم ورسولهم عليه الصلة والسلام : اكتب : اسمك واسم أبيك ، وهو لا يعترف بالرحمن أبداً . فلم يقبلون هذا الضيم ، وهم قد بايعوا جميعاً على الموت ؟

٢ - وقد دفع هذا التوتر النفسي إلى موقف عام اشتراك به الجيش كله ، وهو تلاؤهم عن النحر والحلق ، حين وجه رسول الله عليه عليهما السلام أمره إليهم بذلك ، فلعل طارئاً يطرأ ، ويعيد المواجهة ، وتنعكس القضية ، ويلغى الصلح . فكان كل مسلم يتضرر أخيه الآخر ليحلق وينحر ، ومعنى النحر والحلق أنهم عادوا إلى المدينة خائبين ، فلم العجلة في ذلك ، وهو الموقف الذي أغم رسول الله عليه عليهما السلام حتى ليقول لزوجه أم سلمة رضي الله عنها : « ألا ترين إلى الناس ، آمرهم بالأمر فلا يفعلونه ، وهم يستمعون كلامي وينظرون وجهي؟ » فتجيئه بحكمتها وحصافتها رضي الله عنها :

( يا رسول الله لا تلهمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم ، مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، ورجو عهم بغير فتح .. ) .

لقد خصت أم سلمة رضي الله عنها الموقف تلخيصاً شاملأً حياً، استوعب الصورة كاملة . فهذا هو الوضع النفسي للجيش ، وهذا هو الذي دفعه إلى هذا التصرف ، وهو موقف يظهر لأول مرة في التاريخ الإسلامي كله ، ولا نستطيع أن نعتبر الموقف يوم الخندق من هذا المستوى ، حين دعا عليه الصلوة والسلام المسلمين ليأتى أحدهم بخبر القوم ، فرغم التلكؤ في ذلك الوقت: إلا أن الأمر يقوم على الطلب والحدث والتحضير ، وليس على التعيين ، ومن أجل ذلك عندما جاء على التحديد والتعيين لخديفة رضي الله عنه قال : (فلم يكن لي بد أن أقوم) .

أما الأمر هنا فهو أمر يخص كل جندي في الجيش الإسلامي ، ويطالبه بأمر محدد وهو أن يقوم فبحري بذاته ، ويحلق رأسه ، ولا مجال للتأنيل ، وللهذا الأمر قلنا : إنها صورة لم تظهر قبل الآن ، ولم تكرر بعد ذلك ، ومن هنا يمكن القول : إن المسلمين كانوا يعانون أعظم حالة من حالات التوتر النفسي . والانهيار المعنى مع بنود الصلح ، مرت بهم في تاريخهم كله .

لقد كان تاريخهم العام كله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، وقد يشوب هذه الحالة العامة بعض الحالات الاستثنائية الشاذة . لدى بعض التوعيات المدخولية أو المشبوهة أو الضعيفة ، لكنها لا تبلغ أبداً حالة ما يسمى : (الاستعصاء العام) إلا في هذه الحالة .

وأكيدتُ أن الدافع لهذا الموقف ليس أبداً فكرة معصية رسول الله ﷺ – وإن برزت بهذه الصورة - ، والدليل على ذلك سرعة الاستجابة بعد الموقف العملي من رسول الله عليه الصلوة والسلام ، إنما كانت هي آمال تراودهم ، لعل الصلح يتৎكس ، ويدخل المسلمون مكة ، فإذا تم النحر والحلق ، فهذا يعني أن الأمل قد انتهى وتحطم .

٣ - وإذا كان الجيش الإسلامي كله ينظر إلى هذه البنود بهذه النظرة ، ويعانى من حالة الإحباط المعنى ما يعاني ، ولا يفقه الحكم وراء الموقف النبوى الحاسم ، فلا غرو أن تأتى هذه الآيات في الموقف المناسب واللحظة المناسبة ، لتنصر رسول الله ﷺ في موقفه ، ويأتى الوحي ليؤكد للMuslimين . أن الأمر ليس صلحاً يعقد له مبرراته ، وتقدم وسائل الدفاع عنه .

إنما هو فتح مبين يتم ، ونصر عزيز يقع ، وأعلى مستوى تكريم رباني للنبي عليه الصلاة والسلام يتلقاه بعد هذا الموقف :

﴿ لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا تَأْخُرُ ، وَيَتَمَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

كانت هذه الآيات هي الجواب الحاسم لهذه النفوس المعيبة ، وهي العلاج التربوي لهذا القلق المعنوي العنف .

( ولقد فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة ، فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه ، فرح بالفتح المبين ، وفرح بالمغفرة الشاملة ، وفرح بالنعمة التامة ، وفرح بالهدى إلى صراط الله المستقيم ، وفرح بالنصر العزيز الكريم ، وفرح برضي الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل . وقال في رواية : « نزل على البارحة سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها » وفي رواية : « لقد أنزلت على الليلة سورة هي أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » ) . <sup>(١)</sup>

وشعر المسلمون بعظمته هذه المنة على قائدتهم عليه الصلاة والسلام ، فبادروا بهنئونه على ما أنعم الله عليه من الفتح والمغفرة والنصر .

( وروى عبد الرزاق ، والإمام أحمد ، وأبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والشیخان ، والترمذی ، وأبن جریر ، وأبن المنذر ، والحاکم ، عن أنس رضی الله عنه قال : لما رجعنا من الحدبیة قال رسول الله ﷺ : « أُنْزِلَتْ عَلَيَّ صَحْنَ آیَةٍ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعاً » ثلاثة . قلنا . وفي لفظ : قالوا - هنيئاً مريئاً لك يارسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت . وفي لفظ : فنزلت عليه : ﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمَنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ حتى بلغ ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ) <sup>(٢)</sup> .

ـ وحين نقف لتحليل الموقف العام ، لا بد أن يستوقفنا كثيراً بعض المواقف الخاصة التي برزت أثناء الصلح من أعظم الشخصيات الإسلامية ، وعلى رأسهم الرجل الثاني في الأمة بعد رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وهذه النماذج الأربع هي : عمر وعلى رضي الله عنهما من سادة المهاجرين ، وأسيد بن الحضير سيد الأوس ( بعد وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه ) ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج .

ـ أـ أما على وضوان الله عليه : ( فقال رسول الله ﷺ لعلى : « امحه » . فقال : على : ما أنا بالذى أمحاه . وفي لفظ : أمحاك . وفي حديث محمد بن كعب القرطبي .

(١) في ظلال القرآن / ٦ / ٣٣١٧ . (٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥ / ٩٧ .

فجعل على بتلکاً ، وأئبى أن يكتب إلا محمد رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد ».

**ب - سيد الأنصار :** وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن الحضير ، وسعد بن عبادة أخذدا بيد على ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله ، وإن فالسيف بيننا وبينهم ، وارتقت الأصوات ، فجعل رسول الله ﷺ يخوضهم ، ويومئه بيده إليهم : اسكتوا .

**ج - موقف عمر رضي الله عنه :** والذى استفاضت الروايات فيه .

فهذا المستوى العالى ، قد ندَّ منه بعض الكلمات أو بعض التصرفات ، وهى تصرفات من طراز معين ، لا يبرز إلا عند هذا المعدن النفيس من الرجال ، الذين اعتادوا على تقديم حياتهم ثمناً دون دينهم وكرامتهم ، ويأبون الهوان - كما بدا فى ظاهر الأمر - فقد كانوا على رأس المباغعين على الموت ، وكانوا من أشد الناس عندما أحسوا أن شيئاً ما يتم على حساب دينهم وعقيدتهم ، وهم غير مضطربين إلى ذلك .

وقد مثلَ عمر رضي الله عنه هذه الثورة المكبوتة في نفسه ، وخرج عن طوره كما عبر فيما بعد رضي الله عنه ، كما روى البزار عن عمر :

(اتهموا الرأى على الدين . فلقد رأيتى أرد أمر رسول الله ﷺ برأىي ، وما ألوت على الحق . قال : فرضي رسول الله ﷺ وأيست حتى قال : « يا عمر ، تُراني رضيت وتأنى ».

وقد تلقى جواب قائدہ عليه الصلاة والسلام من قبل :

« إنى عبد الله ولست أعصيه ، ولن يضيعنى وهو ناصرى ».

وتلقى جواب الصديق رضي الله عنه :

(أيها الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يعصى رب ، وهو ناصره ، فاستمسك بغزره حتى تموت ) .

وتلقى جواب أمين الأمة أبي عبيدة رضي الله عنه :

(ألا تسمع يا بن الخطاب ! رسول الله ﷺ يقول ما يقول ، تعوذ بالله من الشيطان ، واتهم رأيك ) لقد فقد عمر رضي الله عنه صوابه مرتين في تاريخه الإسلامي : مرّة عند صلح الحديبية ، ومرة عند وفاة قائدہ عليه الصلاة والسلام .

ونستطيع بذلك أن ندرك مدى ضغط هذا الصلح على أعضائه ، الذي بلغ به مبلغ غياب رسول الله ﷺ عن الوجود عنده .

ومن أجل هذا ومن معرفة رسول الله ﷺ بنفس صاحبه الفاروق عمر ، وهو الذي أعز الله به دينه ، وفرق به بين الحق والباطل ، من أجل ذلك ، كان أن استدعاه عليه الصلاة والسلام ليكون أول من يسمع وحي الله تعالى في الحديثة ، وأن رب العزة جل جلاله هو الذي أوحى إلى رسوله ﷺ بهذا الموقف ، وهو الذي سماه الفتح المبين ، والنصر العزيز ، وكافأ رسوله بأعظم مكافأة له في دنياه في مغفرة ذنبه ما تقدم منه وما تأخر .

٥ - وبعد تحليل الموقف النفسي العام والخاص ، نقف لنؤكّد عظمة التربية في هذه الأمة ، فأقصى ما بلغته المواجهة للموقف ، هو كلمة تندّ أو تلکؤ يقع ، دون أن يحول هذا من تنفيذ بنود الصلح كاملة .

وقد أذهل هذا الالتزام وقد قريش .

(وَجَعَلَ حُوَيْطَبَ يَتَعَجَّبُ مَا يَصْنَعُونَ ، وَيَقُلُّ عَلَى مَكْرُزِ بْنِ حَفْصٍ وَيَقُولُ : مَا رَأَيْتُ أَحَوْطَ لَدِينِهِمْ مِنْ هُؤُلَاءِ ) .<sup>(١)</sup>

ويعلقان على موقف المسلمين من أبي جندل بن سهيل رضي الله عنه :

(وَصَاحَ أَبُو جَنْدَلَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مُعَاشَ الْمُسْلِمِينَ أَرَدَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتَنُونِي فِي دِينِي؟ فَزَادَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ شَرًا إِلَى مَا بَهُمْ وَجَعَلُوا يَكُونُ لِكَلَامَ أَبِي جَنْدَلَ . قَالَ : يَقُولُ حُوَيْطَبَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِمَكْرُزَ بْنَ حَفْصٍ : مَا رَأَيْتُ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ حَبَّاً لِمَنْ دَخَلَ مَعْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ حَمْدًا ، وَبَعْضُهُمْ لَعْنَةٌ ! أَمَا إِنِّي أَقُولُ لَكَ : لَا تَأْخُذْ مِنْ مُحَمَّدٍ نَصَفًا أَبْدًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى يَدْخُلَهَا عَنْهُ . فَقَالَ مَكْرُزٌ : أَنَا أَرَى ذَلِكَ ) .<sup>(٢)</sup>

ويبرز الالتزام كذلك لدى قائد الثورة عمر رضي الله عنه وهو يقول لأبي جندل :

(اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف ، فرجوت أن يأخذ السيف ويضرب أباه فضن الرجل بأبيه . فقال عمر : يا أبا جندل ، إن الرجل يقتل أباه في الله ، والله لو أدركتنا أباءنا لقتلناهم في الله . فرجل برجل ، قال : وأقبل أبو جندل على عمر فقال : مالك لا تقتله أنت ؟ قال

. (٢) المصدر نفسه / ٢٠٨ / ٦١١ .

(١) المغازي للواقدي / ٢ / ٦١١ .

عمر : نهانى رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره . قال أبو جندل : ما أنت بأحق بطاعة رسول الله مني )<sup>(١)</sup> .

فكلما رأى الرجلين عملياً لا يمكن أن يخرج أحدهما عن الالتزام الشام . بموقف قيادتهم النبوية .  
وحين ننظر إلى شهود القضية ، نجد على رأس الشهود عمر رضي الله عنه في موقعه نفسه بعد أبي بكر رضي الله عنه .

٦ - وإذا كانت الأمة الفتية ، الأمة الربانية ، يبرز بعض الخلل في رجالاتها في ضبط انفعالاتهم عن مواجهة العدو ، كما رأينا من موقف سادة المسلمين الأربع - فالآلة المتحللة يبرز الخلل في صفتها من مواجهة العدو نفسه : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلُهَا حَتَّى يُخْرِجُوهَا مِنْهَا ، فَإِنْ يُخْرِجُوهَا مِنْهَا فَإِنَّا دَاهِلُونَ قَالَ رَجُلٌ مِّنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوهَا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ . وَعَلَى اللَّهِ فَوْكَلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَإِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُونَ . قَالَ رَبُّ إِنِّي لَا أُمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخْرِي فَافْرَقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ )<sup>(٢)</sup> .

وفي الأمة الفتية ، الأمة الربانية ، يكون رفع اليد عن السلاح أثقل وأشد كثيراً عليها من حمل السلاح ، وضبط النفس في تأخير المواجهة مع العدو ، أشق بكثير من دفعها إلى المواجهة ، والالتزام يbedo في قمته يوم تصدر الأوامر بتحمل أذى العدو أكثر مما يbedo منه في مواجهته .

٧ - ولا نستطيع أن ننسى القمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ، الذي تكلم بكلام رسوله عليه الصلة والسلام .

( فأجابه بمثل جوابه له ﷺ سواءً ، فدلَّ أنه أكمل الصحابة ، وأعرفهم بأحوال المصطفى ، وأعلمهم بأمور الدين ، وأشدهم موافقة لأمر الله تعالى ، ولجلالة قدر أبي بكر وسعة علمه عند عمر لم يراجع أحداً في ذلك بعده ﷺ غير الصديق ، وإنما سأله بعد المصطفى وجوابه له لشدة ما حصل له من الغيظ ، وقوته في نصر الدين وإذلال الكافرين ، كما أفصح عن ذلك سهل بن حنيف الصحابي بقوله : فرجع متغيطاً ، فلم يضر حتى جاء أبا بكر كما مر عن الصحيح ..

(٢) المائدة / ٢٢ - ٢٦ .

(١) المصدر نفسه / ٦٠٩ .

وأما جواب أبي بكر لعمر رضي الله عنهمما بمثل جواب النبي ﷺ حرفاً بحرف ، فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله ، وبارع علمه ، وزيادة عرفاته بأحوال المصطفى ، ورسوخه وزيادته في كل ذلك على غيره . ألا ترى أنه صرّح في الحديث أن المسلمين استنكروا الصلح المذكور ، وكأنوا على رأي عمر فلم يوافقهم أبو بكر ، بل كان قلبه على قلب رسول الله ﷺ . ومرة في الهجرة أن ابن الدغنة وصفه بما وصفت به خديجة النبي ﷺ سواءً من كونه يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويعين على نوائب الحق ، وغير ذلك ، فلما تشابهت صفاتهما من الابتداء استمر ذلك إلى الانتهاء . وفي البخاري : فقال عمر : فعملت لذلك أعمالاً . وعند ابن إسحاق : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً . وعند الواقدي عن ابن عباس : لقد أعتقدت بسبب ذلك رقاباً وصمت دهراً . وإنما عمل ذلك ، وإن كان معذوراً في جميع ما صدر منه بل مأجور ؟ لأنه مجتهد لتوقفه عن المبادرة في امتحان الأمر حتى قال : ما شككت متذلّسلت إلا هذه الساعة . قال السهيلي : هذا الشك هو ما لا يصرّ صاحبه عليه وإنما هو من باب الوسوسة التي قال فيها صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسه » فيه أن المؤمن قد يشك ثم يجدد النظر في دلائل الحق فيذهب شكه . قال الحافظ : لكن الذي يظهر أنه توقف منه ؛ ليقف على الحكمة في القضية ، وتنكشف عنه الشبه <sup>(١)</sup> .

ولا يغيب عن البال أن الموقفين اللذين فقد بهما الفاروق صوابه ، كان صمام الأمان فيما الصديق رضي الله عنه ، فهو في الحديث يقول لعمر : إنه رسول الله ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه .

ويقول يوم الوفاة : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

فقد كان الصديق رضي الله عنه أسبق إلى فقه حكمة الصلح من عمر رضي الله عنه ، ومن المسلمين جميعاً وهو أفضليهم ، بينما احتاج المسلمين إلى القرآن الكريم حتى تستقر قلوبهم بحكمة هذا الصلح وتطمئن به .

## ٨ - وندع الحديث عن الفتح المبين لرسول الله ﷺ والصحابة والتبعين وعلماء الأمة

بعد هم :

(١) شرح المواهب للزرقاوي / ٢٠٤، ٢٠٥

أ - روى موسى بن عقبة في حديثه عن الزهرى ، وأخرجه البيهقى عن عروة قال : ( أقبل النبي ﷺ راجعا ، فقال رجل من أصحابه : ما هذا بفتح ، لقد صدنا عن البيت ، وصد هدينا ورد رسول الله ﷺ رجلا من المؤمنين كانا خرجا إليه ، فبلغه ذلك ﷺ قال :

« بش الكلام ، بل هو أعظم الفتوح ، قد رضى المشركون أن يدفعوك بالراح عن بلادهم ، ويسألوكم القضية ، ويرغبون إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح ، أنسىتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في آخر لكم ! أنسىتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الخاجر وطنون بالله الظنون ؟ » !

فقال المسلمون صدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح ، والله يأنبى الله ما فكرنا في ما فكرت فيه ولا أنت أعلم بالله وبأمره منا ) . (١)

ب - في الصحيح عن البراء رضي الله عنه قال : ( تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة .. ) . (٢)

ج - روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله : « إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً » الآية قال : ( صلح الحديبية الذي قال فيه الزهرى : لم يكن في الإسلام فتح قبله أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة وضع الحرب ، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، لم يكلم أحد بالإسلام بعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر ) . (٣)

د - قال ابن هشام : ( ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم خرج في الحديبية في ألف وأربعين ألفاً ، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف ) . (٤)

ه - « إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً » الفتاح : الظفر بالبلد عنوة أو صلحًا بحرب أو

(١) المصدر نفسه / ٢٢١ ، ٢١٠ / ج ٥ .

(٢) البخاري / كتاب المغازي / ج ٥ . ١٥٦ .

(٣) شرح المواهب للزرقاني / ٢ / ٢١١ .

(٤) شرح المواهب للزرقاني / ٢ / ٢١١ .

بغيره ؛ لأنه ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به فقد فتح . وقد اختلف فيه ، قال ابن عباس وأنس والبراء بن عازب : الفتح هنا فتح الحديبة ووقوع الصلح . قال الحافظ : فإن الفتح في اللغة فتح المغلق ، والصلح كان مغلقاً حتى فتحه الله لهم ، فإن الناس للأمن الذي وقع فيهم اختلط بعضهم بعض من غير تكير ، وأسمع المسلمين المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين ، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية ، فظهر من كان يخفى إسلامه ، فذلِّل المشركون من حيث أرادوا العزة ، وفُهروا من حيث أرادوا الغلبة ، بعد أن كان المنافقون يظلون **﴿أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾** كما أخبر الله ، أى حسبوا أنهم لا يرجعون بل يقتلون كلهم .

وقيل : هو فتح مكة ، فنزلت مرجعه من الحديثة عزَّ له بفتحها ، أو أتى ماضياً لتحقيق وقوعه ، وفيه من الفخامة والدلالة على علو شأن الخبر به ما لا يخفى . وقيل : المعنى : قضينا لك قضاء بينما على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك قابلاً من الفتاحة – وهي الحكومة <sup>(١)</sup> .

و - (القول في تأويل قوله تعالى : **﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِّنْنَا﴾** ) . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً **﴿يُعْلَمُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ذِكْرَهُ لَنِبِيِّهِ مُحَمَّدَ ﷺ﴾** : **﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِّنْنَا﴾** يقول : إنا حكمتنا لك يا محمد حكماً يبين لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك . وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر لتشكر ربك وتحمدك على نعمته بقضائه لك عليهم وفتحه ما فتح لك ، ولتسبحه وتستغفره فيغفر لك بفعالك ذلك ربك **﴿مَا تَقْدِيمُ مِنْ ذَنْبٍ﴾** قبل فتحه لك ما فتح ، **﴿وَمَا تَأْخُرُ﴾** بعد فتحه لك ذلك ما شكرته واستغفرته .

وإنما اخترنا هذا القول في تأويل هذه الآية ؛ لدلالة قول الله عز وجل : **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْرَاجًا﴾** . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً **﴿عَلَى صَحَّتِهِ، إِذَا أَمْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُسْبِحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ إِذَا جَاءَهُ نَصْرُ اللَّهِ وَفَتْحُ مَكَّةَ، وَأَنْ يَسْتَغْفِرَهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ تَوَابٌ عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ﴾** .

ففي ذلك بيان واضح أن قوله تعالى ذِكْرُه : **﴿لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدِيمُ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا تَأْخُرُ﴾** إنما هو خبر من الله جل ثناؤه نبيه عليه الصلاة والسلام عن جزائه له على شكره على النعمة التي أنعم الله بها عليه من إظهاره له ما فتح ؛ لأن جزاء الله تعالى عباده على

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه / ٢١٠ .

أعمالهم دون غيرها .

وبعد : ففى صحة الخبر عنه عليهما أنَّه كَانَ يَقُومُ حَتَّى تَرْمِ قَدْمَاهُ - الدلالة الواضحة على أَنَّ الَّذِي قَلَنَا مِنْ ذَلِكَ هُوَ الصَّحِيحُ مِنَ الْقَوْلِ . وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا وَعَدَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً عَلَيْهِ السَّلَامُ غُفْرَانَ ذَنْبِهِ الْمُتَقْدِمَةِ ، فَتَحَقَّقَ مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَبَعْدِهِ عَلَى شَكْرِهِ لَهُ عَلَى نِعْمَةِ التَّى أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَلَيْهِ يَقُولُ :

«إِنِّي لَأُسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَائِةَ مَرَّةٍ» ، وَلَوْ كَانَ الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ خَبْرِ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيِّهِ أَنَّهُ قَدْ غُفرَ لَهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأْخُرُ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا ، لَمْ يَكُنْ لِأَمْرِهِ إِيَّاهُ بِالاستغفارِ بَعْدِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَلَا لِاستغفارِ نَبِيِّ اللَّهِ عَلَيْهِ رَبِّهِ جَلَّ جَلَالَهُ مِنْ ذَنْبِهِ بَعْدَهَا مَعْنَى يُعْقَلُ ؛ إِذَا اسْتَغْفَرَ مَعْنَاهُ : طَلَبُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ غُفْرَانَ ذَنْبِهِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَنْبُهُ تَغْفَرُ لَمْ يَكُنْ لِمَسْأَلَتِهِ إِيَّاهُ غُفْرَانَهَا مَعْنَى ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُحَالِّ أَنْ يَقُولَ : رَبُّ اغْفَرَ لِذَنْبِ الْأَعْمَلِ . وَقَدْ تَأْوِلَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْنَى : لِيَغْفِرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ قَبْلَ الرِّسَالَةِ وَمَا تَأْخُرُ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي قَالَ : «إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِبْنًا لِيَغْفِرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ» .

وَأَمَّا الْفَتْحُ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْعَدْدَةُ عَلَى شَكْرِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ فِيمَا ذَكَرَ الْهَدْنَةُ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ وَبَيْنَ مُشَرِّكِي قَرِيشٍ بِالْحَدِيبَيَّةِ ، وَذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ مُنْصَرِفًا مِنَ الْحَدِيبَيَّةِ بَعْدَ الْهَدْنَةِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ<sup>(۱)</sup> .

٩ - عِنْدَمَا يَضْرِعُ النَّبِيُّ إِلَى رَبِّهِ بِقَوْلِهِ : «رَبِّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمَنَا بِالْحَقِّ إِنْكَ أَنْتَ الْفَتَحُ الْعَلِيمُ» ، أَوْ «رَبِّنَا احْكَمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمَنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ احْكَمُ الْحَاكِمِينَ» - يَتَضَعَّجُ جَلِيلًا أَنَّ الضَّرَاعَةَ مَنْصَبَةٌ عَلَى طَلَبِ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ ، مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْفَتْحُ الرِّبَانِيُّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَحَزِيرَةِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَبَيْنَ قَوْمِهِ مِنْ مُشَرِّكِي مَكَّةَ ، إِذَا دَانَا عَالِيًّا بِتَحْوِلِ الْمَرْحَلَةِ إِلَى مَرْحَلَةِ الْفَتْحِ وَالْغَزوِ وَالنَّصْرِ ، وَالْتَّمْكِينِ وَالْغَلْبَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَكَانَ مَفْتَاحُ ذَلِكَ صَلْحَ الْحَدِيبَيَّةِ .

لَقَدْ كَانَ مَنْطِقُ الْكَافِرِينَ : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّسُولَهُمْ لِنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لِتَعُودُنَّ فِي مَلَتَنَا»<sup>(۲)</sup> .

(۱) جامع بيان القرآن للإمام الطبرى / ۱۱ / ج ۴۲ ، ۴۳ . (۲) إبراهيم / ۱۲ .

وقد أخرج المؤمنون من ديارهم ، فلم يكتف الكفار بذلك ، بل كان منطقهم :  
(لقد سرتُ إِلَيْكُ فِي جَمِيعِنَا ، وَإِنَّا نَرِيدُ أَلَا نَعُودُ إِلَيْكُ حَتَّى نَسْأَلُكُ .. ) كما كتب  
أبو سفيان لرسول الله ﷺ . أو بالتعبير القرآني : ﴿ سَقْلَ أَبْنَاءِهِمْ وَنَسْتَحْيِي نَسَاءِهِمْ وَإِنَّا  
فِوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١) .

وانتهت هذه المرحلة كما حدد ذلك عليه الصلاة والسلام : « الآن نغزوهم ولا  
يغزونا ، الآن نسير إليهم » ، وكما قال لأبي سفيان : « ولیأتینکم يوم تدافعنی بالراح ».  
وجاء هذا اليوم بعد أقل من عام ، ووقفت قريش تدافع رسول الله ﷺ بالراح لا  
بالسلاح ، وتفاوضه وترجوه أن لا يدخلها هذا العام عليهم عنوة ، وأن يدخل مكة في العام  
القادم .

وببدأ النصر يعقب بعضه بعضاً منذ ابتداء فتح مغاليق النصر من خلال هذا الصلح ،  
وببدأ الناس يقدمون إلى الإسلام ، وينضون تحت لوائه مختارين ، وكان هذا هو النصر  
العزيز الذي ابتدأ بالصلح لعشر سنين . يؤمن الناس بعضهم بعضاً ، وأصبح الإسلام شريكاً  
في كل شيء على الساحة العربية :

فمن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه .

ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه .

وكان هذا توطئة لليوم القادم : « ولیأتینکم يوم أكسر فيه الالات والعزى وإساف  
ونائلة وهبل حتى أذكر ذلك » .

وأعطي عليه الصلاة والسلام مع النصر العزيز والفتح المبين المغفرة لما تقدم من ذنبه  
وما تأخر ، ويتم نعمته عليه في النصر والتمكين في الدنيا له ولحزبه ودعوته ، وبالمغفرة  
لذنبه . وفي رواية ابن سعد عن مجمع بن جارية :

( لما كنا بضجيان راجعين من الحديبية رأيت الناس يركضون ، فإذا هم يقولون :  
أنزل على رسول الله ﷺ قرآن فركضت مع الناس حتى توافقنا عند رسول الله ﷺ ، فإذا  
هو يقرأ : ﴿ إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فِتْحًا مُّبِينًا ﴾ ، فلما نزل بها جبريل عليه السلام : قال : يهنيك  
يا رسول الله !

(١) الأعراف / ١٢٧ .

فلما هنأه جبريل هنأه المسلمين )<sup>(١)</sup>.

﴿ هو الذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكماً . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها ، ويُكفر عنهم سيّانهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً . ويعذب المنافقين والمنافقات والمرشكين والمرشكات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنة لهم وأعد لهم جهنم وساعات مصيراً . والله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكماً ﴾<sup>(٢)</sup>.

لا يعرف أحد طبيعة هذه السكينة وبردها على قلبه ، مثل الذى يموج قلبه بالاضطراب النفسي والانفعال القلبى ، حيث تأتى السكينة فتسْتَلِ منه هذا الانفعال ، وتطفىء هذا الاضطراب .

وعلى سبيل المقابلة :

ـ فما عرف المسلمون قيمة الأمان في أحد ، إلا بعد ذلك الغم والكرب : ﴿ فأثابكم بما بعْدَ ﴾<sup>(٣)</sup>.

ـ ومن بعد هذا الكرب العظيم الخانق كان : ﴿ ثم أَنْزَلْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغُمَّ أَمْنَةً نَعَاسًا يَقْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ ... ﴾<sup>(٤)</sup> بينما بقي الآخرون يفرقون فيه : ﴿ وَطَائِفَةً قَدْ أَهْمَتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظْنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ ... ﴾<sup>(٥)</sup>.

ـ ونجد الصورة الآن كذلك في أكبر مكانتها ، وبعد أن كادوا ينحررون بعضهم من غمهم لعودتهم عن مكة دون أن يدخلوها ، وبعد أن بلغت حميتهم لدينهم ذلك الحد الأعلى ، وهم يرون هذه الشروط المجنحة القاهرة في إعادة من أسلم منهم إلى المشركين ، وفي رفض الرحمن الرحيم ومحوهم لرسول الله ) ، وغير ذلك .

ـ جاء القرآن الكريم فسكب السكينة في قلوبهم ، فأصبحوا خلقاً آخر ، مطمئنين لخيره رسول الله ﷺ لهم ، والله تعالى زكي هذا الاختيار وقال لهم إنه الفتح المبين .

ـ لقد استُلِ ذلك القلق والاضطراب والأنفعال ، وسكبت فيهم السكينة ، فراحوا يسارعون لتهيئة رسول الله ﷺ بعد أن هنأه جبريل بذلك .

(١) التفسير بالتأثر / ٧ - ٥١٢ .

(٤) آل عمران / ٤٠ .

(٥) التفسير بالتأثر / ٤ - ٧ .

(٦) آل عمران / ١٥٣ .

ويحدثنا سيد قطب رحمة الله عن هذا المعنى فيقول :

( والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال ، والسكينة حين ينزلها الله في قلب تكون طمأنينة وراحة ويقيناً وثقة ، ووقاراً وثباتاً ، واستسلاماً ورضي .

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة . كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام ، ثم مواجهة موقف قريش ، وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت في هذا العام ، بعد الإحرام وبعد إشعار الهدى وتقليله كان هذا أمراً شاقاً على نفوسهم ما في ذلك من ريب ، وقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه جاء أبو بكر وهو مهتاج ، فكان مما قال له – غير ما أثبتناه في صلب روایة الحادث – : أو ليس كان يحدثنا أنا ستأتي البيت ونطوف به؟ قال أبو بكر – الموصول القلب بقلب رسول الله ﷺ ، الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ﷺ – :

بلى ، أفاربك أنا نائيه العام؟ قال : لا . قال : فإنك تأطيه وتطوف به . فتركه عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ، فقال له فيما قال : أو لست تحدثنا أنا ستأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ : « بلى ، أفاربك أنا نائيه العام؟ » قال : لا . قال : « فإنك تأطيه وتطوف به ». .

فهذه صورة مما كان يجيشه في القلوب .

وكان المؤمنون ضيقى الصدور بشروط قريش الأخرى ، من رد من يسلم ويائى محمداً بغير إذن وليه ، ومن حميتهما الجاهلية فى رد اسم الرحمن الرحيم ، وفي رد صفة رسول الله ﷺ . وقد روى أن علياً رضي الله عنه أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها ، فمحاها رسول الله ﷺ بنفسه وهو يقول : « اللهم إنك تعلم أنى رسولك ». .

وكانت حميتهما لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة . يبدو هذا في يعتهم الإجتماعية ، ثم انتهى الأمر إلى مصالحة والهدانة والرجوع ، فلم يكن هيناً على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه . يبدو هذا في تباطفهم بالنصر والخلق ، حتى قالها رسول الله ﷺ ثلاثة ثلاثاً ، وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامتثالاً ، كالذى حكاه عنهم لقريش عروة بن مسعود الثقفى ، ولم ينحرروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله ﷺ

يفعل هذا بنفسه ، فهزّتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزّهم القول ، وثابوا إلى الطاعة  
كالذى كان فى دهشة المأمور !

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة ، لا ينونون قتالاً ، ولم يستعدوا له  
نفسياً ولا عملياً ، ثم فوجعوا بموقف قريش ، وبما شاع من قتلها لعثمان ، وبيان النفر  
الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبيل والحجارة ، فلما عزم رسول الله ﷺ على  
المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم ، ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة  
على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له ، وهو بعض ما كان يعيش في قلوبهم من  
انفعالات وتأثرات وهم ألف وأربعين وقريش في دارها ومن خلفهم الأعراب  
والمرشكون .

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ  
السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويدوّن طعم اللفظ وطعم العبارة ، ويتصور الموقف يومئذ  
ويعيش فيه مع هذه النصوص ويحس برد السكينة وسلامها في تلك القلوب .

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان  
والحمى الإيمانية لأنفسهم ، ولا جاهلية فيهم ، فقد تفضل عليهم بهذه السكينة :  
﴿ لِيزَدَادُوا إِيمَانَهُمْ ﴾ ، والطمأنينة درجة بعد الحمى والحماسة ، فيها الثقة التي  
لاتغلق ، وفيها الرضى المطمئن باليقين .

ومن ثم يلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً ، بل كان هيئاً ويسيراً على  
الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنوداً لا  
تُحصى ولا تُغلب ، تدرك النصر ، وتحقق الغلب وقتها يشاء : ﴿ وَلِلَّهِ جَنُودٌ  
الْأَرْضُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا ﴾ ، فهي حكمته وهو علمه ، تُسَيِّرُ الأمور ،  
ففهمها ترید )<sup>(۱)</sup> .

وندّوّن مع ابن عباس رضي الله عنه طعماً آخر للسكينة ، وزيادة الإيمان ، وتحول  
إلى أفق آخر يمعن في هذا الأفق فيربط الآية بالإسلام كلّه ، بعيداً عن السبب الذي تنزلت  
فيه الآيات ، ومن دون أن يخرجه من هذا الأفق :

(أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ،

(۱) في ظلال القرآن / ۶ / ۳۲۱۸ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾  
قال : السكينة هي الرحمة في قوله : ﴿ لَيَزَدُ دَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ قال :

إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدقوا بها زادهم الزكاة ، فلما صدقوا بها زادهم الصيام ، فلما صدقوا به زادهم الحج ، فلما صدقوا به زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم فقال :

﴿ إِلَيْكُمْ أَكْمَلْتُ دِينَكُمْ وَأَقْمَتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيَارًا ﴾<sup>(١)</sup>.

قال ابن عباس رضى الله عنهما : فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله<sup>(٢)</sup>.

فقد ربط رضى الله عنه السكينة بدرج الأحكام ، وتناسبها مع النفس البشرية ، ومواءمتها للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وإن كانت تنطلق ابتداءً من شهادة أن لا إله إلا الله ، فهي أساس الإيمان ، وزيادة هذا الإيمان ، وزيادة هذا الصدق ، متناسقة مع كل عبادة جديدة .

فالإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية .

﴿ لِيدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمَنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَرْزًا عَظِيمًا ﴾.

(أخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذى ، وابن جرير ، وابن مردوية ، وأبو نعيم فى المعرفة ، عن أنس رضى الله عنه قال :

أنزلت على النبي ﷺ : ﴿ لِيغُفرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ ﴾ مرجعه من الحديثة فقال : « لقد أنزلت على آية هي أحب إلى ما على الأرض » ، ثم قرأها عليهم فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بَيِّنَ اللَّهُ لَكَ مَا ذَا يَفْعُلُ بِكَ ، فمَاذَا يَفْعُلُ بِنَا ؟ فنزلت عليه : ﴿ لِيدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمَنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ حتى بلغ : ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) المائدة / ٣ . (٢) الدر المشور / ٧ / ٤٥ . (٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥ / ٩٧ .

بلغ القلق عند عمر رضي الله عنه أن مضى بعيداً ، وتقديم أمام الناس . وقال : ( وخشيت أن ينزل في القرآن ) ، وكانت أصعب الظروف عنده يوم أن ناداه رسول الله ﷺ ، ( فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء ) ، وقد راودت هذه الأفكار المسلمين جميعاً ، حين تحرجوا في نفوسهم من الصلح ، وخالفتهم الحزن والكآبة ، كما ورد في النصوص الأخرى . وعندما تنزلت هذه الآيات الكريمة على قلب رسول الله ﷺ بتعزيز موقفه ، ونصر نبيه فيما أبرم من صلح ، وتسميته بالفتح المبين وعدته بالنصر العزيز والمغفرة لذنبه .

أمام هذا كله ، وبعد تهنئة المسلمين لنبيهم عليه الصلاة والسلام على ما أعطاه ، بقى الخوف والفزع يراودهم أن ينزل القرآن فيهم على الموقف النفسي الذي يحملونه ، وعلى التلاؤ الذي بدر منهم بعد الأمر النبوي بالخلق والتصر ، فسارعوا للقول يبحثون عن مصيرهم المخيف ، هل هم معاقبون أم قد نالهم العفو الرباني ، وبادروا بالسؤال : ( هنيئاً يا رسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا؟ ) .

إنه سؤال الفزع الخائف الوجل ، الذي يتضرر عقوبة عدلاً أو عفواً فضلاً :  
 ( وماذا يفعل بنا؟ ) .

وجاء الجواب الشافي لما في الصدور :

﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها ويُكفرُ عنهم سيّاتهم وَكَانَ ذَلِكَ عَنِ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .  
 إنهم يعلمون ذنب التحرج النفسي من أمر الله ورسوله :  
 ﴿ وَمَا كَانَ لَمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةً إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿ فَلَا وَرِيكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حِرْجًا مَا قَضَيْتُ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِمًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فجاء الشفاء الرباني : ﴿ يُكفرُ عَنْهُمْ سَيّاتِهِمْ ﴾ ويسبقها : ﴿ وَلَيدَخُلَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ .

(٢) النساء / ٦٥ .

(١) الأحزاب / ٣٦ .

ومن هنا جاءت السكينة ، بعد أن اطمأنوا على أنفسهم ، واطمأنوا على دعوتهم ، واطمأنوا على خطأ موقفهم – وقد غفر – وعظمة موقف نبيهم الذي هو الفتح المبين وقالوا :

وصدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح والله يا نبى الله ، ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبالآمور منا .

ويشير ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهم ، الذى فقهه الله فى الدين وعلمه التأويل ، إلى معنى لطيف فى الآيات : أن هذا الفتح المبين جاء ليغفر الله تعالى لنبيه ، ولينصره ، وليهديه الصراط المستقيم . وجاء كذلك ليدخل المؤمنين ، والمؤمنات جنات :

(عن ابن عباس رضي الله عنهمما فى قوله : ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلى قوله : ﴿.. وَيَكْفُرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ﴾ فأعلم الله سبحانه نبىه عليه السلام قوله : ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ على اللام من قوله : ﴿لِيَغْفِرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ...﴾ بتأويل تكرير الكلام :

﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَسْحًا مِّنْ بَيْنِ أَرْبَابِ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

﴿إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَسْحًا ..... لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ؛ ولذلك لم تدخل الواو التي تدخل في الكلام للعطف فلم يقل ﴿وليدخل المؤمنين﴾ )<sup>(۱)</sup>.

ويمكن القول بعد هذا الافتتاح للسورة أن القرآن جاء ليعالج واقعاً نفسياً يعانونه ، وليجيب على تساؤلات عنيفة تدور في صدورهم ، وما أنت هذه الإجابات ، حتى غدوا خلقاً آخر ، تنزلت عليهم السكينة ، لما فعل الله تعالى بنبيه ، بنصره ومغفرة ذنبه وهدايته الصراط المستقيم .

ولما فعل الله تعالى بهم من عذتهم وإدخالهم الجنات خالدين فيها ، وتكفير السيئات .

﴿وَيَعْذِبُ الْمَنَافِقِينَ وَالْمَنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظُنُونَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضْبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنَهُمْ وَأَعْدَ اللَّهُمْ جَهَنَّمْ وَسَاعَتْ مَصِيرًا . وَلَلَّهِ جَنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

(۱) جامع البيان في أحكام القرآن للإمام الطبرى . م / ۱۱ - ج / ۲۶ .

أما أولئك الفريق الآخر فلهم شأن آخر ، ذلك الفريق هو المنافقون والمنافقات ، والأصل أنهم اليوم عاجزون حتى عن إبداء آرائهم ، بله أن يتخدوا موقفاً محدداً يواجه المؤمنين ، لكنهم الآن يلاحقون على ما تكن نفوسهم وما تخفي من خبث ، فتندأعلنت الآية انضمامهم النفسي الكامل لعسكر المشركين ، ووحدة القاعدة التي ينطلقون منها :

﴿الظانين بالله ظن السوء ...﴾

وسيأتي تفصيل هذا الموقف فيما بعد ، لكنه يذكر الآن بالحجم الذي يناسب الإعداد التربوي والنفسي المطلوب ، ومصيرهم واحد طالما كانت نفوسهم واحدة ، هذا المصير يمثله المخازى الأربع :

﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ .

ويربط الإمام الطبرى رحمة الله هذه الآيات جميعاً في خيط واحد ، يقول :

(يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِّنْ بَيْنِ أَيْمَانِكَ لِيُغَفِّرَ لَكَ اللَّهُ﴾ وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تحرى من تحتها الأنهر وليعذب المنافقين والمنافقات بفتح الله لك يا محمد ما فتح لك من نصرك على مشركي قريش فيكتبوا لذلك ، ويحزنوا ، ويذيب رجاؤهم الذى كانوا يرجون من رؤيتهم فى أهل الإيمان بك ، من الضعف والوهن ، والمتولى عنك فى عاجل الدنيا ، وصلى النار والخلود فيها فى آجل الآخرة .

﴿ والمشركون والمشركات ﴾ : يقول : وليعذب المشركين والمشركات الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ، ولن يظهر كلامته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به .

وذلك كان السوء فى ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضوع )<sup>(١)</sup> .

(وقيل : لما جرى صلح الحديبية . قال ابن أبي : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فain فارس والروم ؟ ! فيبين الله عز وجل أن جنود السماوات والأرض أكثر من فارس والروم . وقيل : يدخل فيه جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : والله جنود السماوات : الملائكة . وجنود الأرض : المؤمنون . وأعاد « ذكر جنود الله عز وجل » ؛ لأن الذى سبق عقيب ذكر المشركين من قريش وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى / ١١ / ٤٦.

المشركين ، والمراد في الموضعين التخويف والتهديد ، فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك . ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى )<sup>(١)</sup> .

( وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين وفي أنهم جميعاً ﴿عليهم دائرة السوء﴾ ، فهم محصورون فيها ، وهي تدور عليهم وتقع بهم ، وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير . ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً ، بل إنها أحاط ؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مصدره ونوعه .

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله ، فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائماً ، يتوقع منه الخير في السراء والضراء ، ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين ، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله ، وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً ، فمتي اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصلية ، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق ، فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعون الصلة بالله ، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ، ولا يجدونها ، فيسوء ظنهم بالله وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ، وينيون عليها أحکامهم ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين ، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا ، على غير ثقة بقدر الله وقدرته ، وتدبره الخفي اللطيف .

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ؛ وبين حالهم عنده وما أعده لهم في النهاية ، ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته :

﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيم﴾ )<sup>(٢)</sup> .

﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتومنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً إن الذين يأيرونك إنما يأيرون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيماً﴾ )<sup>(٣)</sup> .

(١) جامع أحكام القرآن للإمام القرطبي / ٨ / ١٦ / ٢٦٦ .

(٢) في ظلال القرآن / ٦ / ٣٣١ .

(٣) الفتح / ٨ - ١٠ .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا...﴾ قال : شاهداً على أمته وشاهداً على الأنبياء أنهم قد بلغوا ، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ يبشر بالجنة من أطاع الله ، ﴿وَنذِيرًا﴾ ينذر النار من عصاه ، ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال : بوعده بالحساب وبالبعث بعد الموت ، ﴿وَتَعْزِيزُوهُ﴾ قال : تتصروه ، ﴿وَتَوَقُّرُوهُ﴾ قال : أمر بتسويفه وتفخيمه وترشيشه وتعظيمه . قال وكان في بعض القراءة « ويسبحوا الله بكرة وأصيلا » )<sup>(١)</sup> .

(وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهمَا في قوله : ﴿وَتَعْزِيزُوهُ﴾ يعني الإجلال ، ﴿وَتَوَقُّرُوهُ﴾ يعني التعظيم يعني محمدًا عليه السلام )<sup>(٢)</sup> .

، (وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم ، وابن مردوية ، والضياء في المختارة ، عن ابن عباس رضي الله عنهمَا في قوله : ﴿وَتَعْزِيزُوهُ﴾ قال : تضرروا بين يديه بالسيف )<sup>(٣)</sup> .

(وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معه بالسيف . وقال بعض أهل اللغة : تطيعوه ﴿وَتَوَقُّرُوهُ﴾ أي تسودوه ؛ قاله السدي . وقيل : تعظموه ، والتوقير : التعظيم والترزيع أيضاً ، والهاء فيما للنبي عليه السلام ، وهنا وقف تمام ، ثم تبتدئه ﴿وَتَسْبِحُوهُ﴾ أي تسبحوا الله ، ﴿بَكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي عشيا . وقيل الضمير كلها لله تعالى ، فعلى هذا يكون تأويل : ﴿تَعْزِيزُوهُ وَتَوَقُّرُوهُ﴾ أي ثبتوه صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك ، واختار هذا القول القشيري .

وال الأول قول الضحاك ، وعليه يكون بعض الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى وهو : ﴿وَتَسْبِحُوهُ﴾ من غير خلاف ، وبعضه راجعاً إلى رسوله عليه السلام وهو : ﴿وَتَعْزِيزُوهُ﴾ وتقوروه ) أي تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكتنية . وفي ﴿تَسْبِحُوهُ﴾ وجهان : أحدهما : تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح ، والثاني : هو فعل الصلاة التي فيها التسبيع ، ﴿بَكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي غدوة وعشيا ، وقد مضى القول فيه ، وقال الشاعر :

لعمري لأنـتـ الـبـيـتـ أـكـرمـ أـهـلـهـ وأـجـلسـ فـيـ أـفـيـائـهـ وـالأـصـائـلـ )<sup>(٤)</sup> .

وبيـنـ يـدـيـ رسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ السـلامـ أـمـتـهـ الـذـينـ عـاشـواـ مـعـهـ ، قدـ شـهـدـ الصـادـقـينـ مـنـهـمـ وـشـهـدـ

(١) ، (٢) ، (٣) الدر المشور / ٧/٥١٦ .

(٤) المجمع لأحكام القرآن للإمام القرطبي / ٨/١٦/٢٦٦ .

المنافقين ، والذين جاؤوا من بعدهم يشهد لكل من صدق بيديه فيشفع له الشفاعة التي  
تحوطه من النار ، وقد رأينا صورة من البشارة الندية في الآيات السابقة :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيًّا حَكِيمًا حِكْمَةً لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَكْفُرُ عَنْهُمْ سِيَّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

ورأينا صورة من النذارة الرهيبة الماحقة :

﴿ وَيَعْذِبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّافِنِينَ بِاللَّهِ ظُنُونَ السُّوءِ  
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضْبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنَهُمْ وَأَعْدَ اللَّهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاعَتْ مَصِيرًا وَلِلَّهِ  
جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

ومن الخطاب لرسوله ليصل إلى الخطاب للمؤمنين فيذكرهم بمسئوليتهم بعد أن أدى  
مسئوليته ويحملهم رسالتهم بعد أن أدى رسالته :

﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِرُوهُ وَتُوقَرُوهُ وَتُسْبِحُوهُ بَكْرَةً وَأَصْبِلًا ﴾ .

فللإيمان مقتضياته بنصر رسوله وتصديقه وتعظيمه وتفخيمه ، وهو نصر لله تعالى .  
وهذا النصر مرتبط دائمًا بالعبودية الحالصة والطاعة التامة لله بالتسبیح في الغداة  
والعشى .

ونقف عند التوقير وهو التعظيم والتفحيم والتسويد ، ونشهد من خلال صلح الحديبية  
جزءاً حياً من هذه الصورة التي تمثل بها المؤمنون ، بحيث يلتجم التعزير والتوقير ، أي  
يختلط الفداء والتضحية والقتال بين يديه بالسيف مع التعظيم والتفحيم الذي لم تشهد ألم  
الأرض مثيلًا له .

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية ، جاءه بدبل بن ورقاء - وأسلم بعد ذلك - في  
رجال من خزاعة منهم عمرو بن سالم وخراس بن أمية وخارجة بن كرز ويزيد بن أمية ،  
وكانوا عية <sup>(۱)</sup> نصع لرسول الله ﷺ بتهامة ، منهم المسلم ومنهم المwardع ، لا يخفون عنه  
بتهامة شيئاً ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ سلماً ، فقال بدبل بن ورقاء :

جئناك من عند قومك ، كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ، قد استنفروا لك الأحاديث <sup>(۲)</sup>

(۱) عية الرجل : خاصته وأصحاب سره .

ومن أطاعهم قد نزلوا أعداد<sup>(١)</sup> مياه الحديبة ، معهم العوذ المطافيل<sup>(٢)</sup> . والنساء والصبيان ، يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراءهم<sup>(٣)</sup> .

فقال رسول الله ﷺ :

« إنما نأى لقتال أحد ، إنما جتنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه . إن قريشاً قد أضرت بهم الحرب ونهكتهم<sup>(٤)</sup> . فإن شاعوا ماددهم<sup>(٥)</sup> مدة يؤمنون فيها ، ويخلون فيما بيننا وبين الناس - من كفار العرب وغيرهم ) ، والناس أكثر منهم - فإن أصابوني بذلك الذي أرادوا وإن ظهر أمرى على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يقاتلوا وقد جمو<sup>(٦)</sup> ، وإن هم أبوا فوالله لأجهدن على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى<sup>(٧)</sup> ، ولينفذن الله تعالى أمره » .

فوعى بديل مقالة رسول الله وقال : سأبلغهم ما نقول ، وعاد وركبه إلى قريش . فقال ناس منهم : هذا بديل وأصحابه ، وإنما يريدون أن يستخبروكم فلا تسألوهم عن حرف واحد ، فلما رأى بديل أنهم لا يستخربونه قال : إنما جتنا من عند محمد ، أتخبون أن نخبركم عنده ؟ فقال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص - وأسلموا بعد ذلك - : ما لنا حاجة بأن تخبرونا عنه ، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل .

فأشار عليهم عروة بن مسعود الثقفي - وأسلم بعد ذلك - بأن يسمعوا كلام بديل ، فإن أعجبهم قلوه ، وإلا تركوه ، فقال صفوان بن أمية والحارث بن هشام - وأسلموا بعد ذلك - : أخبرونا بالذىرأيتم وسمعتم . فقال بديل لهم : إنكم تعجلون على محمد ﷺ . إنه لم يأت لقتال ، وإنما جاء معتمرا ، وأنبئهم بمقالة النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال عروة :

يامعشر قريش ، أتهمنونى ؟ قالوا : لا قال : ألستم بالوالد : قالوا : بلى [ قال : ألسنت بالوالد ] ؟ قالوا : بلى [ وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس القرشية . قال :

(١) أعداد : جمع عد وهو الماء الذى لا انقطاع له ويطلق على الكثرة من الشيء .

(٢) العوذ المطافيل : الأمهات الالاتى معهن أولادهن .

(٣) تبيد خضراءهم : تقضى عليهم عن آخرهم .

(٤) نهكتهم : أضفت قواهم . (٥) ماددهم : جعلت بيني وبينهم مدة فيترك الحرب بيني وبينهم .

(٦) جموا : قروا واستراحو . (٧) السالفة : صفحة العنق ، وكفى بانفرادها عن الموت .

الستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ لنصركم فلما تبلحوا<sup>(١)</sup> على، نفرت إليكم بنفسى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: قد فعلت ما أنت عندنا بعثهم . قال : إنى لكم ناصح عليكم شقيق ، لا أدخل عنكم نصحاً ، فإن بديلاً قد جاءكم خطوة رشد لا يردها أحد أبداً إلا أحد شرّ منها ، فاقبلوها منه ، وابعثونى حتى آتكم بمصداقها من عنده وأكون لكم عيناً آتكم بخبره .

فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ فقال :

يا محمد ، تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى على أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، قد لبسوا جلود النمور ، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم ، وإنما أنت ومن قاتلهم بين أحد أمرين : أن تجتاح قومك ، ولم يسمع برجل اجتاج قومه وأهله قبلك . أو بين أن يخذلك من ترى معك ، وإنى والله لا أرى معك وجهاً ، ولكنني لا أرى معك إلا أبوياشاً - وفي رواية : فإنى لأرى أشواباً<sup>(٢)</sup> - من الناس لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم ، وخليقاً أن يغروا ويدعوك - وفي رواية : وكأى بهم وقد لقيت قريشاً أسلموك فتؤخذ أسيراً - فأى شئ أشد عليك من هذا؟ .

فضضب أبو بكر - وكان قاعداً خلف رسول الله ﷺ - فقال : أمصص بظر اللات<sup>(٣)</sup> ، أنحن نخذلك أو نفر عنه؟ ! فقال عروة : من ذا؟ قالوا : أبا بكر . فقال عروة : أما والله لولا يد لك عندى لم أجزك بها لأجيئنك - وكان عروة قد استعان في حمل دية فأعانه الرجل بالفريضتين<sup>(٤)</sup> والثلاث ، وأعانه أبو بكر بعشر فرائض ، فكانت هذه يد أبي بكر عند عروة - .

وطفق عروة كلما كلم رسول الله ﷺ مس لحية رسول الله . والمغيرة بن شعبة قائم على رأس رسول الله ﷺ بالسيف على وجهه المغفر - لما قدم عروة لبسها - فطفق

(١) أى لم يستجيبوا.

(٢) الأوشاپ : الأخلاط من أنواع شتى ، والأبوياش : الأخلاط من السفلة ، فالأبوياش أحسن من الأوشاپ .

(٣) امتصص بظر اللات : البظر قطعة تبقى بعد المثان في فرج المرأة ، واللات : اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثيق يعبدونها ، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأمر ، فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من بعد مقام أنه ، وحمله على ذلك ما أغضبه من نسبة المسلمين إلى الفرار .

(٤) الفريضة : الحقة من الإبل .

المغيرة كلما أهوى عروة بيده ليمس حية رسول الله ﷺ يقرع يده بنجل السيف ويقول : .  
اكفف يديك عن مس حية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك ، فإنه لا ينبغي لشرك أن  
يمسه ، فلما أكثر عليه غضب عروة وقال :

ويحك !! ما أفظلك وأغلظك ! وقال : ليت شعرى من هذا الذى آذانى من بين  
 أصحابك ؟ والله لا أحسب فيكم لأم منه ولا أشر منزلة . فبسم رسول الله ﷺ وقال :  
« هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » .

فقال عروة : وأنت بذلك يا أغدر ، لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر ..  
وجعل عروة يرمي أصحاب النبي ﷺ بعينه ، فوالله ما يتنخم رسول الله ﷺ نحاماً  
إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجده ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ،  
وإن توضأ كانوا يقتلون على وضوئه ، ولا يسقط شيء من شعره إلا أخذوه ، وإذا تكلم  
خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له .

فلما فرغ عروة من كلام رسول الله ﷺ ، ورد عليه رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل  
ابن ورقاء ، وكما عرض عليهم من المدة . فأتى عروة قريشاً فقال :

يا قوم ، إني وفدت على الملك كسرى وقيصر والنجاشى ، وإن الله ما رأيت ملكاً  
قط أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه ، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه  
 أصحابه ما يعظم أصحاب محمد مهدا ، وليس بملك ، والله ما تنخم نحاماً إلا وقعت  
في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجده ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا توضأ  
كانوا يقتلون على وضوئه أيهم يظفر منه بشيء ، ولا يسقط شيء من شعره إلا أخذوه ،  
وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ، ولا يتكلم رجل  
منهم حتى يستأذن ، فإن هو أذن له تكلم . وإن لم يأذن له سكت ، وقد عرض عليكم  
خطة رشد فاقبلوها .

قد حرزت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً لا  
ياليون ما يصنع بهم إذا منعمت صاحبهم ، والله لقد رأيت معه نساء - وفي مغازى الواقدى :  
نسيات - ما كنَّ ليسلمنه أبداً على حال ، فروا رأيكم ، فأتوه يا قوم ، واقبلوا ما عرض  
عليكم ، فإني لكم ناصح مع أنى أخاف أن لا تنصروا على رجل جاء زائراً لهذا البيت  
معظماً له ، معه الهدى ينحره وينصرف .

فقالت قريش : لا تتكلم بهذا يا أبا يغور لو غيرك تكلم بهذا؟ ولكن نرده عامنا هذا ، ويرجع إلى قابل ، فقال : ما أراكم تصييكم فارعة (إلا تصييكم ..) فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف .

فقام الحليس بن علقة الكناتي وكان من رعوس الأحابيش - لا أعلم له إسلاماً -  
قال : دعوني آتيه . فقالوا اته فلما أشرف على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ :  
« هذا فلان من قوم يعظمون البدن - وفي لفظ : الهدى - ويتألهون ، فابتعثوها له »  
فبعثت له ، فلما رأى الهدى يسلي عليه من عرض الوادي عليها قلائدها ، قد أكلت  
أوبارها من طول الحبس ، تُرجع الحين ، واستقبله الناس يلبون قد أقاموا نصف شهر ، وقد  
نفلوا وشققا صاح وقال :

ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أبي الله أن تحجّ لخم وجذام وكنانة وحمير ،  
ويمعن ابن عبد المطلب ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، هلكت قريش ورب الكعبة ،  
إن القوم إنما أتوا عماراً ، فقال رسول الله ﷺ : « أجل يا أخا بني كنانة » .

وذكر ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر ، وأبن سعد : أنه لم يصل إلى رسول الله ﷺ  
لما رأى ذلك ؛ إعظاماً لما رأى ، فيحتمل أن رسول الله ﷺ خاطبه من بعد فرجع إلى  
قريش . فقال : إنّي رأيت ما لا يحلّ منعه ، رأيت الهدى في قلائده قد أكل أبوباره معكوفاً  
عن محله ، والرجال قد نفلوا وعملوا أن يطوفوا بهذا البيت ، والله ما على هذا حالفناكم  
ولا عاقدناكم ، على أن تصدوا عن هذا البيت من جاء معيظاً له حرمته مؤدياً لحقه ، وساق  
الهدي معكوفاً أن يبلغ محله ، والذى نفسى بيده لتخلف بينه وبين ما جاء له ، أو لأنفون  
بالأحابيش نفراً رجل واحد فقالوا : كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به -  
وفي لفظ : اجلس إنما أنت أغرابي لا علم لك ، كل ما رأيت من محمد مكيدة .

فقام مكرز بن حفص فقال : دعوني آته . فلما طلع رآه رسول الله ﷺ قال : « هذا  
رجل غادر » ، وفي لفظ : « فاجر » فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ أخبرهم بما ردّ عليه  
رسول الله ﷺ .

١ - الملاحظ أن بديل بن ورقاء حليف غير معلن لرسول الله ﷺ ، وقد جاء ليضمه  
في الصورة التي يعيشها أهل مكة ، والغليان الشعوري الذي يعاونه ، وال فكرة الرئيسية

(١) الأحابيش : الأعراب من القبائل المحيطة بمكة .

التي طرحتها هي إصرار أهل مكة جمِيعاً على منع الرسول ﷺ من دخول مكة ، وقد كلفه الرسول ﷺ بصورة غير رسمية بإبلاغ رسالته لأهل مكة ، وأهم ما في الرسالة طرح فكرة الصلح عليهم لمدة معينة . وهذا الكلام قد فوجيء به المسلمين ، ويعني نوعاً من التبطئة لفتح مكة ، حيث يدور في خلدهم الآن أنهم سيدخلون مكة ويطوفون ، ويعرفون ، ونصر الله تعالى قادم لنبهه .

والملاحظ كذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام ، قد توقف عن استشارة المسلمين منذ تلقيه الناقة عن متابعة مسيرتها إلى مكة ، وقال المسلمين : خلأة الناقة . فقال عليه الصلاة والسلام :

« ماحلأته <sup>(١)</sup> القصواء وما ذلك لنا بعادة ، ولكن حبسها حabis الفيل عن مكة » ثم قال :

« والذى نفس محمد بيده لا يسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » ، ثم زجرها فقامت ، فولى راجعاً عوده على بدئه <sup>(٢)</sup> .

وكان قد استشارهم ابتداءً قبل بروك الناقة . فقال :

« أما بعد : يامعشر المسلمين ، أشيروا على <sup>\*</sup> : أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعنوهنهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين محروبين <sup>(٣)</sup> ، وإن يأتونا تكون عنقاً قطعها الله ، أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ ». فقال أبو بكر رضي الله عنه : الله ورسوله أعلم . يارسول الله ، إنما جتنا معتمرین ولم نجئ لقتال أحد ، ونرى أن نمضي لوجهنا ، فمن صدنا عن البيت قاتلناه .

ووافقه على ذلك أسيد بن الحضير <sup>(٤)</sup> .

فالرأى لدى قيادة المهاجرين والأنصار هو مواجهة من يصدّهم عن بيت الله ، بينما الرأى الجديد الذي يطرحه عليه الصلاة والسلام بعد بروك الناقة هو استعداده للمفاوضات وإيقاف الحرب مع قريش ، وهو رأى جديد التزم به المسلمين دون استشارة .

٢ - كان عروة بن مسعود سيد ثقيف عريقاً في الزعامة ، فهو أحد الرجلين اللذين أنزل الله تعالى فيهما :

(١) خلأة : بركت ، والخلأ من الإبل بمنزلة الحران من الدواب . (٢) سبل الهدى والرشاد ٥ / ٦٦ .

(٣) محربين : مسلوبين مهزومين . (٤) المصدر السابق ٥ / ٦٢ .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنَ عَظِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد أكرمه الله تعالى فيما بعد بالإسلام والشهادة ، وقد بذل ما في وسعه لنصرة قريش ، استجابة لرحمة الله لهم ، إذ إن أمه من قريش ، وقد استعمل كل دهائه وذكائه في المهمة التي مضى بها إلى محمد حيث حدد هدفه بنقاط أربع :

أ - صرف رسول الله ﷺ عن مكة بأى ثمن كان .

ب - التوهين للصف الإسلامي بذكر قوة قريش وإجماعها على حرب الرسول ﷺ .

ج - الحرب النفسية لأعصاب المسلمين بأنهم تجمع غير مهياً للقتال ، وسينفض مع أول مواجهة ، فهم أخلاقٌ من الناس والعرب لا تجمعهم عصبة واحدة .

د - وإن كان لا تخفي عليه حقيقة المسلمين وقوتهم فمن جهة أخرى راح يحذر بشدة من فتح مكة عنوة .

فسيكون الأمر سبة على محمد بين العرب ، أن جمع أو شاب الناس ليغزو بهم بلده وأهله .

فكيف استطاع الوعي الإسلامي في الصف المسلم أن يفوت أهداف عروة ؟ بل استطاع أن يحطّم نفسيته ، ويحول الجو بمكة لصالح المسلمين .

٣ - نجد الإجابة على هذا السؤال ابتداء بحرب نفسية على المستوى نفسه الذي مضى به عروة ، فحين راح يهون من شأن المسلمين وتخاذلهم عن رسول الله ﷺ ، أبدى المسلمين من ضروب القوة ماجعله ينهار أمامها . فهذا أبو بكر رضي الله عنه الحليم الكريم يسمعه ذلك الكلام المهين :

( امتص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ ) .

ولم يسمع بهذا العنف في حياته قط . ولكنَّ الذي لجمه عن الرد هو فضل أبو بكر عليه .

وكان الموقف الثاني أشد عليه وأعنف ، حين كان يقرع المغيرة بقائم السيف على يده قائلًا له :

(١) الزخرف / ٣١ .

( ارفع يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترتد إليك ) .  
وكان الذي يهدده ابن أخيه المغيرة بن شعبة .

لقد علم أنه في خطر على حياته ، إن فكر بالمساس بشخص رسول الله ﷺ مادياً أو معنوياً ، وأن المسلمين ليسوا مسلميهم بحال .

٤ - غير أن عروة لم يكن مجرد رسول قادم ، إنه داهية ثقيف ، وثقيف قوم منا كير ، وكأنهم دهاء العرب . فقد كان يرمي الجو كلها وهو يتحدث ، ويراقب كل أفراد الصفة الإسلامية . فرأى من مظاهر التعظيم والتفحيم لرسول الله ﷺ ما لم تره عين ولم تسمعه أذن ، وهو نزيل الملوك . وضيق الحاكمين ، ولاشك أن رسول الله ﷺ قد أدرك مرماه ، وقيادات المسلمين قد أدركت ذلك ، فأبدوا من ضروب الحب ، والوفاء والتعظيم لقائهم ما لا مثيل له في الوجود .

لا يرتفع صوت في مجلسه ، ولا يرتفع بصر نحوه هيبة له ، يتقاتلون على وضوئه ونخامته وشعره أيهم يفوز بها ، وأمثال هؤلاء يستحيل عليهم أن يبقى أحد منهم حياً وأن يمسي قائهم بشوكة تؤديه ، لقد كان يجول ببصره في المعسكر فيرى الموقف كله على حقيقته ، وأنه يروم الثريا في تحاذلهم عنه .

٥ - وحيث كان موقف عمير بن وهب يوم بدر يقول للمشركين :

( والله لقد رأيت البلايا تحمل المنايا ، نواضح يرب تحمل الموت الناقع ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون كأنهم الحصا تحت الجحف ، يتلمظون تلمظ الأفاعي ، والله ما أرى أن يقتل أحد منهم إلا قتل منا أعدادهم ، فما خيرة العيش بعدهم ، فروا رأيكم ) .

ويأتي تحذير عروة على المستوى نفسه :

( ياقوم إني وفدت إلى الملك ، كسرى وقيصر والنجانشى ، وإنى والله ما رأيت ملكاً أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد في أصحابه ، والله إن رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظهم أصحاب محمد مهماً وليس بملك ، والله ما تتخم تخاماً إلا وقعت في يد أحدهم فذلك بها وجهه وجلدته ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا توضاً كادوا يقتتلون على وضوئه أيهم يظفر منه بشيء ، ولا يسقط شيء من شعره إلا أخذنه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحددون النظر إليه تعظيمًا له . ولا يتكلم رجل منهم حتى يستأذن ، فإن هو أذن له تكلم ، وإن لم يأذن له سكت ) .

هذا في تعظيمه وحبه وتقديره ، أما في الدفاع والزود عنه :

( قد حزرت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعتم أصحابهم ، والله لقد رأيت معه نسيات ما كنَّ ليسلمنه بحال فروا رأيكم ) .

واستطاع عروة بن مسعود أن يغير موقف مكة كله ؛ لأن يهيعهم للمراؤضة والصلح ، وهو أكبر نجاح حققته الدبلوماسية الإسلامية في ذلك الوقت ، والذى سماه القرآن الكريم « الفتح المبين » .

وقد كان انسحابه من مكة إلى الطائف دافعاً أكبر للمضي في هذا الطريق .

٦ - إن سبب انسحاب عروة بن مسعود هو إصرار قريش على منع رسول الله ﷺ من دخوله مكة ، وقد كان هذا الموقف الإيجابي حاثاً لقيادات مكة أن يسارعوا في بعث وفد المفاوضة .

لقد سبق وقد المفاوضة ذهاب رجلين إلى رسول الله ﷺ قبله ، أما الأول : فالخليس ابن علقمة سيد الأحابيش ، وأما الثاني : فمكرز بن حفص . وذهاب الخليس كان تطوعاً شخصياً أكثر منه تكليفاً رسمياً ، وعرف عليه الصلاة والسلام شخصية الخليس ، وأدرك أغواره فقال للمسلمين :

« هذا فلان من قوم يعظمون البدن ويتألهون فابعثوها له » .

وكانت مهمة الصف الإسلامي الملتهم الآن تختلف عن مهمته بين يدي عروة بن مسعود . مهمته الآن أن يوجه الهدى في وجه الخليس ، وتحققت العملية بنجاح باهر . دفع الخليس إلى العودة قبل لقاء النبي ﷺ ، أو لقيه وناداه عن بعد ، ومضى الخليس وهو في قمة حماسه واندفاعه للسماح للنبي ﷺ أن يعتمر .

لقد وصف الرواية تنفيذ الأمر النبوى فقالوا :

( فبعثت له ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي عليها قلائدها ، قد أكلت أوبارها من طول الحبس ترجع الخفين ، واستقبله الناس يلبون ، قد أقاموا نصف شهر وقد تفلوا وشعروا .

أما موقفه أمام هذه الظاهرة العبادية فكان .

( سبحان الله ، ما ينبع لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت ، أئن الله أَن تُحْجَجْ لَهُمْ وَجَذَامْ وَكَنْدَةْ وَحَمِيرْ ، ويمنع ابن عبد المطلب ، ما ينبع لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت ، هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم إنما أتوا عماراً .

ففي الوقت الذي حرص الصف الإسلامي بتوجيه قائداته أن يدي القدرة والسيف والالتزام والتلذذ في الحرب أمام عروة ، فحبط مخططاته ، ويغزى نفسياً ويهرم قبل أن يحقق شيئاً من حربه النفسية لل المسلمين بكل مأواتي من ذكاء ودهاء - في الوقت نفسه أخفى المسلمين قوتهم وسيوفهم ، وأبرزوا تبذلهم وشعفهم ، وبعثوا الهدا في وجه الحليس ، فمضى صارخاً في أهل مكة يطالب بدخول المسلمين مكة ، وكما ذكر ابن إسحاق في السيرة : ( فقال لهم ذلك . فقالوا له : أجلس ، إنما أنت أعرابي لا علم لك ) .

قال ابن إسحاق : ( فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن الحليس غضب عند ذلك وقال : يامعشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ! والذى نفس الحليس بيده لتخلف بين محمد وبين ماجاه له ، أو لأنفرون بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له :

مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضي به )<sup>(١)</sup> .

وبذلك تأكّد موضوع المراوحة والمفاوضة أكثر ، وأن استعمال القدرة في منع محمد عليه من دخول مكة . قد يفتت الصف الداخلي فيها ، وي Mizq حلف الأحابيش مع قريش ، وينضمون إلى محمد عليه الصلاة والسلام .

أما الرجل الذي بعثته قريش مثلاً رسمياً لها ليدرس الموقف ، فهو مكرز بن حفص ، وقد وصفه عليه الصلاة والسلام بأنه رجل غادر ، وعندما رجع بالنتيجة نفسها التي رجع بها عروة والحليس استقر أمر قريش نهائياً على المفاوضة .

وكيف تفاعل الصف المسلم مع توجيه النبي عليه من مكرز أنه رجل غادر ؟ .

تفاعل هذا الصف الملتحم العجيب بأعلى حدود اليقظة ، وبالتعبير العسكري المعاصر : بالاستنفار وهو أعلى حدود الاستنفار .

فماذا فعل مكرز وقريش ؟ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢١٢ / م

لقد جاء مكرز رسولًا ابتداء ، ودرس وضع الصف المسلم ، وتعرف على موقعه وأشخاصه ، وكلّف بهمّة عسكرية جديدة من قريش ، هي غزو المسلمين في خمسين من رجالات مكة ..

( وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالحراسة بالليل ، فكان ثلاثة يتناوبون الحراسة : أوس بن خولي ، وعابد بن بشر ، ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم ، وكان محمد ابن مسلمة على حرس رسول الله ﷺ ليلة من الليالي وعثمان بن عفان بمكة ، وقد كانت قريش بعثت ليلاً خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ، وأمروه أن يطوفوا بالنبي ﷺ رجاء أن يصيروا منهم أحداً أو يصيروا منهم غرة )<sup>(١)</sup>.

إن المهمة هي أسر أو قتل بعض القيادات الإسلامية ، ومكرز على رأس هذه المجموعة الفدائية .

وبعد أن تعرف على موقع المسلمين فماذا كانت النتيجة ؟

( فأخذهم محمد بن مسلمة فجاء بهم رسول الله ﷺ ، وأفلت مكرز بن حفص . فخبر أصحابه وظهر قول النبي ﷺ كما تقدم أنه رجل غادر )<sup>(٢)</sup>.

ولا نزال بين يدي قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لَتَؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِزُوهُ وَتَوَقِّرُوهُ وَتَسْبِحُوهُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

٧ - وها نحن نجد التوقير والتعظيم والنصرة من وجه آخر ، من قبل موندي الرسول ﷺ إلى مكة ، خراش بن أمية الخزاعي ، وعثمان بن عفان الأموي ، وهي مهمّة خطيرة ، تصدى لها هذان الماجدان .

أما خراش فقد تعرض للقتل ، والذى حال بينه وبين القتل الأحابيش فى مكة ، الذى مضى سيدهم إلى الحديبية ورأى تعظيم المسلمين للبيت .

قال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما : ( بعث رسول الله ﷺ إلى خراش بن أمية على جمل لرسول الله ﷺ يقال له الثعلب ، ليبلغ عنه أشرافهم بما جاء له ، فقرر عكرمة بن أبي جهل الجمل ، وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى

. (٢،١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥، ٧٩، ٨٠ .

رسول الله ﷺ - ولم يكدر - فأخبر رسول الله بما لقى )١( .

وأمام هذه المهمة ، وأمام هذا الخطر ، شعر عليه الصلاة والسلام أن الرسالة التي يريد إبلاغها قريش لم تتم بعد ، وكان التزام خراش وجنديته في المستوى الأعلى ، لكن عدم وجود حماية له داخل مكة ، حالت دون ذلك ، وأقصى ما ممكن بالنسبة له هو الخيلولة دون قتله .

## ٨ - فكانت الدبلوماسية الجديدة لعثمان بن عفان رضي الله عنه .

(روى البيهقي عن عروة قال : لما نزل رسول الله ﷺ الحديبية فرعت قريش لنزوله إليهم ، فأحب أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى قريش ، فقال : يارسول الله ، إنني أخاف قريشاً على نفسي ، وقد عرفت قريش عداوتى لها ، وليس بها من بني عدى من يعنى ، وإن أحبت يارسول الله دخلت عليهم ، فلم يقل له رسول الله ﷺ شيئاً )٢( .

وما مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسد قريش يشك في رجولته أو شجاعته ، لكن الهدف الآن هو هدف سياسي وليس هدفاً عسكرياً ، وليس لعمر عشيرة تمنعه وبالتالي لن يتمكن من تحقيق الهدف ، وهو تبليغ الرسالة . وحقد قريش عليه قد تدفعه إلى القتل ، فيمضي دمه رخيصاً دون ثمن . وبعد أن أوضح رأيه عاد فوضع نفسه بين يدي قائده : ( وإن أحبت يارسول الله دخلت إليهم ) .

ولما لم يعد الكثرة عليه الصلاة والسلام على عمر بالمضى - فلم يقل له رسول الله ﷺ شيئاً - كانت الفرصة مواتية لإيضاح رأيه ، فقال عمر :

( يارسول الله ، ولكنك على رجل أعز بمكة مني ، وأكثر عشيرة وأمنع ، وأنه يبلغ لك ماأردت ، عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان فقال :

« اذهب إلى قريش وأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا عمّاراً ، وادعهم إلى الإسلام » ، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى وشيكًا أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان )٣( .

(١) ابن هشام / ٢٤ . وابن عمر الواقدي / ٢ / ٦٠٠ .

(٢) سيل الهدى والرشاد / ٥ / ٧٧ .

(٣) سيل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥ / ٧٨ . وهي عند البيهقي في الدلائل .

لقد كانت الرسالة مزدوجة وشاقة وخطيرة ، فعليه أن يأتي أشراف قريش جميعاً ويخبرهم برسالة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان عليه أن يتصل بالمستضعفين المؤمنين في مكة يبشرهم بالفتح ويدعوهم إلى الصبر والثبات على دينهم . إنه اتصال مباشر بحزب محمد في مكة ، ولا تدرك إن كانت هذه المهمة سرية أو علنية ، وعلى الأرجح أنها علنية .

فماذا فعل عثمان بها رضي الله عنه بهاتين الرسالتين ؟

( فانطلق عثمان إلى قريش فمر عليهم ببلده فقالوا : أين تريد ؟ . فقال : بعشى رسول الله ﷺ إليكم لأدعوكم إلى الإسلام وإلى الله جل شأنه ، وتدخلون في الدين كافة ، فإن الله تعالى مظهر دينه ، ومعزٌّ نبيه ، وأخرى تكتفون ويكون الذي يلى هذا الأمر منه غيركم ، فإن ظفر برسول الله ﷺ بذلك ما أردتم ، وإن ظفر كتم بالختيار بين أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم واخرون جامون . إن الحرب قد نهكم وأذهبت الأمثل منكم . وأخرى إن رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد ، إنما جاء معتمراً ، معه الهدى ، عليه القلائد يتحرر وينصرف )<sup>(١)</sup> .

لقد كانت بلده هي مكان تجمع قريش ، كما ذكر عروة وبديل أنهم خرجوا معهم العوذ المطافيل يعاودون الله لاندخلوها عليهم أبداً . وبلغ الرسالة تلبيناً عاماً بأفضل بيان وأنصع خطاب ، ووضع قريش بين الخيارات الثلاثة المروضة :

١ - الدخول في الإسلام كافة ، فالله تعالى مظاهر نبيه ومعزٌّ دينه .

والمسلم داعية إلى الله عز وجل قبل كل شيء .

٢ - الوقوف على الحياد في الحرب بين رسول الله ﷺ والعرب ، فإن كفته العرب فهو ماتريد قريش ، وإلا فما كانها حرية بعد أن تستجتمع قوتها وتستكمل تعبتها .

وكان عرض عثمان رضي الله عنه مغرياً في هذه الفقرة ، فلم يفته أن يشير إلى مقتل القيادات الضخمة في مكة ، كما لم يفته أن يدعو إلى الإسلام من جديد ، لو تم نصره وتمكينه ويسير أغوار قريش في حرصها على الثأر لدينها فتقاتل جاماً وافرة .

٣ - السماح لحمد وصحبه بالاعتمار ونحر الهدى والعودة إلى المدينة ، فالقوم جاءوا عمارأً ولم يجيئوا مقاتلين .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥ / ٧٨ . وهي عند السهقى في الدليل .

إنه مهما بلغ الرسالة النبوية أى مشرك ، فلن تصل بهذه الصياغة وهذا الوضوح ، وهذه البلاغة والدقة في العرض ما يبلغ عند عثمان رضي الله عنه .

غير أن الحمية الجاهلية قد ذكرت أنوفهم .

( فقالوا : قد سمعنا ماتقول ، ولا كان هذا أبدا ، ولادخلها علينا عنوة ، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا ) .

وهنا تتحقق فراسة الفاروق رضي الله عنه ، فالذى يقتسم التفوذ فى مكة فرعان : ؟  
فرع بنى عبد مناف ، بنو أمية ، وبنو مخزوم ، وإليهم انتهت مقايد القيادة فى مكة ، فالقائد العام فيها هو أبو سفيان بن حرب بن أمية .

والمعروف أن أبيا سفيان لم يكن آنذاك فى مكة ، فتنوعت القيادات والأسماء ، وبرز الرجل الثانى فى بنى أمية أبان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وعثمان هو ابن عفان بن العاص بن أمية ، فالقبيلة واحدة وهو أقرب أقربائه . برب أبان وتصدى لإتمام مهمة عثمان - عصبية قبلية - :

( ولقيه أبان بن سعيد ، فرحب به أبان وأجاره ، وقال : لانصر عن حاجتك ، ثم نزل عن فرس : كان عليه فحمل عثمان على السرج ، وردف وراءه وقال :

أقبل وأدبر لا تخف أحدا      بنو سعيد أعزت الحرم

فدخل به مكة ، فأتى عثمان أشراف قريش رجلاً رجلاً ، فجعلوا يردون عليه : إن  
محمدًا لا يدخلها علينا أبداً ) (١) .

وبهذا تم تبليغ الرسالة كاملة إلى قريش ، ثم مضى عثمان رضي الله عنه إلى المهمة الثانية :

( ودخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين بمكة فقال : إن رسول الله ﷺ يقول : « قد أظلّكم حتى لا يستخفى بمكة اليوم بالإيمان » ، ففرحوا بذلك وقالوا : أقرأ على رسول الله ﷺ السلام ) (٢) .

وما أعظمها من ظاهرة ، أن يدخل عثمان متهدياً بيوت المؤمنين فى مكة ، وهو فى جوار قائد من قادة الشرك أبان بن سعيد ، وتعجز مكة أن تفعل شيئاً أمام ذلك . إن الوجود

(٢) سيل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ ، ٧٨ ، ٧٩ .

(١) سيل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ٧٨ .

الإسلامي في مكة . والاتصال به وتبنيه من محمد عليه السلام هو أكبر تحدي سافر تواجهه مكة ، وغضت أناملها من الغيظ ، ولعلها تنتظر ساعة انتقام ، لكنها عاجزة الآن عن أن تفعل شيئاً أمام الرسالة النبوية .

وأدّيت الرسالة الثانية على أفضل وأكفاء ما يكون الأداء ، ثم كان بعدها الامتحان العسير لالتزام عثمان رضي الله عنه في قضية الطواف في البيت ، وكان على مستوى هذا الامتحان :

( ولنا فرع عثمان من رسالة رسول الله عليه السلام إلى قريش : قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف )<sup>(١)</sup> .

إنه إذن شخصي خاص لعثمان ويأجارة ابن عمه أبان ، وليس إذناً عاماً لقائده عليه الصلاة والسلام وإنوانه معه :

( فقال : ما كنت لأطوف حتى يطوف رسول الله عليه السلام )<sup>(٢)</sup> .

هذا البيت الذي كان الطواف به أماناً وأحلاماً ترفرف ، وعلى ضوء هذا الحلم تحرك الركب من المدينة ، وها قد تحول الملح إلى حقيقة ، والإذن قائم . . والمشاعر في أعلى توجهها أن يمس هذا البيت ويستلم الركن ، ويلتزم الباب ، ولكن هذه العواطف كلها يضعها عثمان رضي الله عنه خلف ظهره ، وييفي التزامه بدينه وتعظيمه وتوقيره لنبيه هو الذي يحكمه ، فيرفض الطواف في الوقت الذي ليس بين يديه نهي عن ذلك . توقع المسلمين أن يكون قد ارتوى من الطواف فيه ، والطواف عبادة وقربى من الله تعالى ، ولكن الحسن الإسلامي الصادق الذي تربى عليه عثمان رضي الله عنه رفض مناقشة الأمر ابتداءً :

( وقال المسلمون وهو بالحدبية قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان من بیننا إلى البيت فطاف به ، فقال رسول الله عليه السلام : « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » وقالوا : وما يمنعه يارسول الله وقد خلص إليه ؟ . قال : « ذلك ظنى به أن لا يطوف بالکعبه حتى نطوف » . وعند ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً : « لو مكث كذا وكم إذا سنته ما طاف حتى أطوف » )<sup>(٣)</sup> .

( فلما رجع عثمان إلى رسول الله عليه السلام قال المسلمون له : اشتفيت من البيت يا أبا

(١) ٣، ٢، ١ سبل الهدى والرشاد / ٥، ٧٨، ٧٩ .

عبد الله ! ! . فقال عثمان : بعس ماظنتم بي ! فوالذى نفسي بيده لو مكثت مقىماً بها سنة .  
ورسول الله عليه السلام مقيم بالحدبية ماطفت حتى يطوف رسول الله عليه السلام ، ولقد دعتنى قريش  
إلى أن أطوف بالبيت فأييت ؟ فقالوا : كان رسول الله عليه السلام أعلمنا وأحسننا ظناً .

وعاد عثمان رضى الله عنه ، يمثل الذروة من الدبلوماسية الرفيعة مع العدو ، ضمن  
 إطار الالتزام الإسلامي الحالص ، وقد بعث القوة والحيوية في نفوس المؤمنين بمكة ، وفوت  
 فرصة مكة في أن يغزوه بالطوفاف فيوقعوا بينه وبين قائدہ عليه الصلاة والسلام ، وهو  
 الممثل الشخصى والرسمى له .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْبَى عَوْنَكَ إِنَّمَا يَأْبَى عَوْنَكَ إِنَّمَا يَأْبَى عَوْنَكَ إِنَّمَا يَنْكُثُ  
عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وسبقى مع عثمان رضى الله عنه ؛ لأن إشاعة حبسه هي التي فجرت الحو ، ودعت  
إلى البيعة .

قال محمد بن عمر : ( وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله  
عليه السلام على أهلهم فبلغ رسول الله عليه السلام أن عثمان وأصحابه قد قتلوا ، فذلك حين دعا إلى  
البيعة ، وبلغ قريشاً حبس أصحابهم ) (٢) . فجاء جمع من قريش إلى النبي عليه السلام وأصحابه  
حتى ترموا بالليل والحجارة ، وأسروا أيضاً من المشركين حينئذ أسرى .

ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ، فأقبل  
رسول الله عليه السلام يومئذ منازل بنى مازن بن النجار ، وقد نزلت فى ناحية من الحديبية جميراً .  
قالت أم عمارة : والرسل تختلف بين رسول الله عليه السلام وبين قريش ، فمر بنا رسول الله عليه السلام  
يوماً فى منزلنا . قالت : فظنست أنه يريد حاجة ، فإذا هو قد بلغه أن عثمان بن عفان قد  
قتل ، فجلس فى رحالنا ثم قال : « إن الله أمرنى بالبيعة » .

قالت : فأقبل الناس يباعونه فى رحالنا حتى تدارك الناس ، فما بقى لنا متابع إلا  
وطيء ! وزوجها غزية بن عمرو . قالت فبائع رسول الله عليه السلام يومئذ ، فكأنى أنظر  
إلى المسلمين قد تلبسو السلاح ، وهو معنا قليل ، إنما خرجنا عماراً ، فلأنما أنظر إلى غزية  
ابن عمرو وقد توسع السيف ، فقمت إلى عمود كنا نستظل به ، فأخذته فى يدى ،  
ومعى سكين قد شددته فى وسطى ، قلت : إن دنا منى أحد رجوت أن أقتله ، فكان

(١) الفتح / ١٠ . (٢) هم الخمسون الذين أسروا من المسلمين عندما حاولوا غارة منهم .

رسول الله ﷺ يومئذ يباع الناس ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ بيده ، فباعهم على أن لا يفروا . وقال قائل : بائعهم على الموت . ويقال : أول الناس بائع سنان بن أبي سنان بن محسن فقال : يا رسول الله ، أبائعك على ما في نفسك ، فكان رسول الله ﷺ يباع الناس على بيعة سنان بن أبي سنان ، وكان المسلمين الذين دخلوا على أهليهم عشرة من المهاجرين ، كُرز بن جابر الفهرى ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعپاش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل ، وحاطب بن أبي سهيل ، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، وعبد الله بن حذافة ، وأبو الروم بن عمير ، وعمير بن وهب الجمحي ، وعبد الله بن أبي أمية بن وهب حليف سهيل فى بنى أسد بن عبد العزى )<sup>(١)</sup> .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع ، والبيهقي عن عروة ، وابن إسحاق عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه ، قال سلمة : ( بينما نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ :

«أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله » .

فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فباعناه .

وفى صحيح مسلم عنه قال : فباعته أول الناس ، ثم بائع وبائع حتى إذا كان فى وسط من الناس قال : « بائع ياسلمة ». قلت : قد بايعتك يارسول الله فى أول الناس . قال : « وأيضاً » قال : ورآنى رسول الله ﷺ عزلاً فأعطانى حجفة - أو درقة - ثم بائع حتى إذا كان فى آخر الناس قال : « ألا تباعنى يا سلمة ؟ قال : « قلت : يارسول الله ، قد بايعتك فى أول الناس وفي وسط الناس . قال : « وأيضاً » فباعته الثالثة . ثم قال لى : « يا سلمة ، أين حَجَفتُك - أو درقتك - التي أعطيتكم ؟ ». قال : قلت : يارسول الله ، لقينى عمى عامر عزلاً فأعطيته إياها . قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال : « إنك كالذى قال الأول : اللهم ابغنى حببياً هو أحب إلى من نفسي » .

وفى صحيح البخارى عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة . قيل : على أى شىء كنتم تبايعون ؟ قال : على الموت . وفي صحيح البخارى عن نافع قال : إن ابن عمر أسلم قبل أبيه وليس كذلك ، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند

(١) المغازي للواقدى / ٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٢

رحل من الأنصار يأتي به ليقاتل عليه ، ورسول الله ﷺ يباع عن الشجرة وعمر لا يدرى بذلك ، فباعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر ، وعمر يستلم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يباع تحت الشجرة . قال : فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ ، فهى التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر )<sup>(١)</sup> .

وفيه أيضاً عن نافع عن ابن عمر ، أن الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية تفرقوا في ظلال الشجر ، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ . فقال عمر : يا عبد الله ، انظر ما شأن الناس أحدقوا برسول الله ﷺ ؟ . فذهب فوجدهم يبايعون فبائع ثم رجع إلى عمر فخرج فبائع .

وروى الطبراني عن عطاء بن أبي رباح قال : قلت لابن عمر : أشهدت بيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قلت : فما كان عليه ؟ قال : قميص من قطن ، وجبة محسنة ، ورداء وسيف ، ورأيت العuman بن مقرن المازني قائم على رأسه ، قد رفع أوصان الشجرة عن رأسه يبايعونه .

وفي صحيح مسلم عن جابر قال : بايعنا رسول الله ﷺ ، وعمر آخذ بيده تحت شجرة وهى سمرة ، فباعناه غير الجد بن قيس الأنصاري احتفى تحت بطن بعيره . وعند ابن إسحاق عن جابر بن عبد الله : فكأنى أنظر إليه لاصقاً يابط ناقته ، قد خباء إليها يستتر بها من الناس . بايعناه على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت .

وروى الطبراني عن ابن عمر ، والبيهقي عن الشعبي ، وابن منده عن زر بن حبيش ، قالوا : لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدى ، فقال : ابسط يدك أبايعك . فقال رسول الله ﷺ : « علام تباعنى ؟ » . قال : على مافي نفسك . زاد ابن عمر : فقال النبي « وما في نفسى ؟ » . قال : أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل ، فباعه ، وباعه الناس على بيعة أبي سنان .

وروى البيهقي عن أنس ، وابن إسحاق عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما أمر رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، كان بعث عثمان رسول الله ﷺ إلى أهل مكة فباع الناس ، فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك ». 

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ٨١ .

فضرب يأحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خير لهم من أيديهم لأنفسهم .. فلما نظر سهيل بن عمرو وحيطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ومن كان معهم من عيون قريش من سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب ، اشتند ربهم وخوفهم ، وأسرعوا إلى القضية ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل )<sup>(١)</sup> .

١ - لقد كانت البيعة بتوجيه رباني ، وإن كان سببها كما يدو من تتابع الأحداث إشاعة مقتل عثمان رضى الله عنه وأصحابه . وكما مر معنا في بعض الروايات عن سلمة رضي الله عنه أن منادى رسول الله ﷺ نادى :

«أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس فاخروا على اسم الله » .

ومعنى هذا بصرىح العبارة أن البيعة كانت بروح من الله تعالى ، نزل بها روح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام ، والله جل جلاله يعلم أن أمر عثمان وإشاعة مقتله باطلة ، ويعلم جل جلاله - وهو علام الغيوب - أن الحرب لن تقع بين المسلمين والمشركين : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيْكُمْ عَنْهُمْ بِيَطْنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرْكُمْ عَلَيْهِمْ ..﴾<sup>(٢)</sup> .

ويتسائل المسلم أمام هذه الظاهرة : لم كانت البيعة إذن ؟ ولم نزل بها الوحي ؟ والله يعلم أن لا حرب مع قريش ، والله تعالى يعلم أن إشاعة مقتل عثمان باطلة ؟ ! لا شك أن الإدراك البشري أعجز عن أن يحيط بشيء من علم الله إلا ما أعلمنا الله تعالى به .

وروح الآيات تؤكّد أن القضية كلها امتحان رباني لهذا الصف المؤمن ، وتربيّة له في قلب المعركة . امتحان لهذا الصف المؤمن ، ومدى استعداده للتضحية في سبيل الله إن جد الجد ، ودعا داعي الجهاد ، والصف لم يخرج ابتداء لمعركة . إنما خرج معتمراً . وامتحان أصعب لهذا الصف في التزامه بكف اليد عن السلاح ، بعد أن أصبح موجهاً للقتال في أعلى حدود الجاهزية . إنها معركة نفوس ، وتربيّة قلوب ، وتحفيص المؤمنين من المنافقين .

إن هذا الصف لو تخلف عن الجهاد ساعة طلب البيعة ، وتعلّل بأنه خرج معتمراً ،

. ٢٤) الفتاح / (٢).

. ٨٥ / ٥) المصدر السابق / (١).

لسقوط الصف في الامتحان ، وقد يفوته النصر أربعين عاماً أخرى ، كما فات بنى إسرائيل حين تعلوا بأن فى الأرض المقدسة قوماً جبارين ، وقالوا لموسى عليه الصلاة والسلام .  
﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ .

ولو أن هذا الصف قاتل ساعة طلب منه أن يكف عن القتال لهلك الصف كله ، ورأينا مقالة رسول الله ﷺ في أدنى من ذلك حين تلکؤوا في البحر والحلق . ولم يضرروا بسيف ، ولم يسجل تاريخهم كله ، ولارمية سهم بعد الصلح وأثناءه ، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام لأم سلمة رضي الله عنها « هلك المسلمون ، أمرتهم أن ينحرروا ويحلقوا فلم يفعلوا » .

وقد أثني الله تعالى على المؤمنين يوم بايعوا ، وسجّل واقع هذا الصف مخالفة واحدة للجد بن قيس الذى احتفى هارباً من البيعة ، ومختبئاً في ظل بطن ناقته .

٢ - لقد كانت المسيرة كلها تدريباً تربوياً عنيفاً شاقاً . . وكان عليه الصلاة والسلام يحدثهم أحياناً مباشرة عن آثار ونتائج هذه التربية ، وأحياناً يؤخرها إلى الوقت المناسب ، وهذه صورة من صور التربية :

روى الواقدي عن شيوخه قال :

( صلى رسول الله ﷺ أول صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع ، ثم صلاها بعد بعسفان ، بينماما أربع سنين ؛ وهذا أثبت عندنا .

قالوا : فلما أمسى قال رسول الله ﷺ : « تيامنوا في هذا العَصَل <sup>(١)</sup> ، فإن عيون قريش بمـر الظهران أو بضجنان ، فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل ؟ » فقال بريدة بن الحصيب الأسلمي : أنا يا رسول الله عالم بها . قال رسول الله ﷺ : « اسلك أمامنا » . فأخذ به بريدة في العَصَل قبل جبال سراوع قبل المغرب . فسار قليلاً تنكبهُ الحجارة ، وتعلقه الشجر ، وحار حتى كأنه لم يعرفها قط . قال : فوالله إن كنت لأسلكها في الجمعة مراراً . فلما رأه رسول الله ﷺ لا يتوجه قال : اركب ! فركبت فقال ﷺ : « من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل <sup>(٢)</sup> ؟ » فنزل حمزة بن عمرو الأسلمي ، فقال : أنا يا رسول الله أدلك . فسار قليلاً ثم سقط في خمر <sup>(٣)</sup> الشجر . فلا يدرى أين يتوجه . فقال رسول

(١) العَصَل : الأعواج ومعناه هنا الرمل المعوج الملتوى .

(٢) ذات الحنظل : طريق بين جبلين .

(٣) خمر الشجر : كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره .

الله ﷺ : اركب ، ثم قال : من يدلنا على طريق ذات الخطل ؟ فنزل عمرو بن عبد نهم الأسلمي فقال : يارسول الله أنا أدلك . فقال : انطلق أمامنا فانطلق عمرو أمامهم حتى نظر رسول الله ﷺ إلى الشنية . فقال : « هذه ثنية ذات الخطل ؟ » فقال عمرو : نعم يارسول الله فلما وقف على رأسها تحدّر به . قال عمرو : والله إن كان ليهمني نفسي وجدي ، إنما كانت مثل الشراك<sup>(١)</sup> ، فاتسعت لي حتى بزرت فكانت محجة لا حبه<sup>(٢)</sup> .

ولقد كان النفر يسرون تلك الليلة جمِيعاً معطفين من سعتها يتحدثون ، وأضاءت تلك الليلة حتى كأنها في قمر ، فقال رسول الله ﷺ :

« والذى نفسي بيده ، ما مثل هذه الشية الليلة إلا مثل الباب الذى قال الله لبني إسرائيل : ﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة﴾ .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل : ( لا إله إلا الله ، وادخلوا الباب سجداً ) » . قال : باب بيت المقدس - فدخلوا من قبل استاههم وقالوا : حبة في شعيرة » . وعن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : قال رسول الله ﷺ :

« الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل أن يقولوا : نستغفر الله ونتوب إليه » .  
فكلما هذلين الحديثين قد روی .

قالوا : ثم قال رسول الله ﷺ : « لا يجوز هذه الشنية أحد إلا غفر الله له » . قال أبو سعيد الخدري : وكان أخي لأمي قنادة بن النعمان في آخر الناس . قال : فووقة على الشنية فجعلت أقول للناس : إن رسول الله ﷺ قال : « لا يجوز هذه الشنية أحد إلا غفر له » ، فجعل الناس يسرعون حتى جاز أخي في آخر الناس<sup>(٣)</sup> .

إنها دورة تربوية لهذه الأمة نجحت فيها من حيث سقط بنو إسرائيل :

﴿وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولأ غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) لاحبة : الطريق الواسع .

(٢) البقرة / ٥٨٣ ، ٥٩ .

(٣) المغازى للواقدى / ٢ / ٥٨٣ وما بعدها .

أما المؤمنون ، فكما روى ابن إسحاق :

( إن المسلمين لما خرجوا من الأرض الصعبة وأفضوا إلى أرض سهلة قال رسول الله ﷺ قولوا : « نستغفِرُ الله وننوب إليه » ، فقالوا ذلك ، فقال : « والله إنها للحظة التي عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها » ) <sup>(١)</sup> . وجازوا الثانية ، وتحقق موعد الله لهم ، وغفر لهم .

فقد روى مسلم عن جابر مختصرًا ، وأبو نعيم عن أبي سعيد وابن إسحاق عن الزهرى ، ومحمد بن عمر عن شيوخه : ( .. وقال جابر : قال رسول الله ﷺ : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » .

قال أبو سعيد : فطلب في العسكر فإذا هو عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، والرجل من بني ضمرة من أهل سيف البحر ، يظن أنه من أصحاب رسول الله ﷺ . فقيل لسعيد : إن رسول الله ﷺ قال كذا وكذا . فقال له سعيد : ويحك ، اذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك . وقال جابر : فقلنا له : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال : والله أجد ضالتي أحب إلى من أن يستغفر لي صاحبكم .

فانطلق يطلب بيته بعد أن استبرأ العسكر وطلبه فيهم ، فبينما هو في جبال سراوع إذ زلت به نعله فمات . فما علم به حتى أكلته السباع .

٣ - والموقع الذي اختاره الرسول ﷺ ليأخذ به البيعة هو في ديار بني النجار . وبنو النجار أخوال رسول الله ﷺ من الأنصار ، وهم الفدائيون العظام في الجيش الإسلامي ، فقد جعلهم عليه الصلة والسلام خير الأنصار بلا منازع .

( « خير دور الأنصار بني النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير » . فقال سعد : ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد فضل علينا ، فقيل : قد فضلتم على كثير ) . <sup>(٢)</sup>

لقد كان بني النجار في الأنصار بمثابة قريش في المهاجرين ، فهم الرهط الخاص للنبي ﷺ . وهو نقيبهم .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م ٣٠٩ .

(٢) مسلم / كتاب فضائل الصحابة ٤٤ / باب خير دور الأنصار ٤ / حديث ٢٥١١ ج ٤ / ص ١٩٤٩ .

فعن أنس رضي الله عنه قال :

(قدم النبي ﷺ المدينة ، فنزل أعلى المدينة في حى يقال لهم : بنو عمرو بن عوف ، فقام النبي ﷺ فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى بنى النجار ، فجاءوا متقلدي السيف ، كأنى أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته وأبو بكر رده ، وملا النجار حوله )<sup>(١)</sup> .

وتتصف لنا أم عمارة رضي الله عنها البيعة في رحالها ورحال قبيلتها فتقول : ( فمر بنا رسول الله ﷺ يوما في منزلنا ، فظننت أنه يريد حاجة ، فإذا هو قد بلغه أن عثمان بن عفان قد قتل ، فجلس في رحالنا ثم قال : « إن الله أمرني بالبيعة » ، فأقبل الناس يبايعونه في رحالنا حتى تدارك الناس ، مما بقي لنا متع إلا وطى .. ) .

وحين يتقدم ركب البيعة فرسان بنى النجار ، ويسارعون فيها ، يسارع الناس بعدهم إليها ، منهم الذين كانت فتاتهم أم عمارة تفدى رسول الله ﷺ بروحها وزوجها وأبنها وتذود عنه بالسيف ، وتسقط جريحة وبها اثنا عشر جرحا ، فداء لحبيبها عليه الصلاة والسلام ، وهاهي اليوم تختصر بخنجرها ، وتأخذ عمود الحجرة عوضاً عن السيف تستعد به للمواجهة ، ومنظرها مع صوتها حباتها هو الذي أذهل عروة بن مسعود حتى ليرى أن النسوة وحدهن لن يسلمنه بحال قبل أن يسقطن حوله صریعات .

(والله لقد رأيت نسيات معه - تصغير نسوة - إن كن ليسلمنه أبداً على حال) .

٤ - حين نذكر أن سبب البيعة هو إشاعة مقتل عثمان رضي الله عنه وحبس الذين مضوا يزرون أهلهم ، نعلم مدى قيمة الجندي المسلم عند قيادته ، فرسول الله ﷺ يشعل حريراً لمقتل جندي واحد ويتأهب الجيش كله للموت ثاراً لهذا الجندي ، وحين يرى الجندي هذا الاهتمام من قيادته سوف يقدم على الموت والفتاء ولا يتلوكاً لحظة واحدة .

ولم ينس رسول الله ﷺ عثمان حتى عند البيعة ، فقال :

« إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله ، فأنا أبأيع له » فضرب يمينه على شماله .

٥ - وتضافت الروايات على نوع البيعة ، على أن لا يفر المسلمين ، أو على الموت ، أو على مافي نفس رسول الله ﷺ ، أو على بيعة سنان بن أبي سنان ، وهذا

(١) متفق عليه ، البخاري / ٤٣٩ ، ٤٣٨ / ١ ، المساجد ، ومسلم (٥٢٤) في المساجد .

التعدد في الروايات يعني أن المسلمين استجابوا للبيعة دون تلعثم أو تردد ، وكانوا جميعا طوع أمر رسول الله ﷺ حتى دون أن يعرفوا بالضبط البيعة على أي شيء ، إلا أنها بالتأكيد في ذهن كل واحد منهم هو مواجهة العدو وحربه ، خاصة أن القوم قادمون للعمرة . فلم يكن الأمر موضع جدل أو تفكير أو حوار ، بل كان التنفيذ للتوجيه ، ولم يشد عنه إلا منافق واحد هو الجد بن قيس .

٦ - ومن النماذج الفردية التي برزت في البيعة أبو سنان الأسدى رضى الله عنه الذى كان أول من بايع رسول الله ﷺ .

(قال : ابسط يدك أبايعك . قال : « علام تبايني ؟ » . قال : على ما فى نفسك - وزاد ابن عمر - قال : « وما فى نفسى ؟ » قال : أضرب بسيفى بين يدك حتى يظهرك الله أو أقتل .

وباب الناس على بيعة أبي سنان .

إن هذا الإحساس هو الإحساس الطبيعي للجندي المسلم ، فلا داعي للحوار وفلسفة الأمور ، وتشقيق الكلام . لقد كانت البيعة ابتداء مع الله ورسوله ، وليس طرحها الآن إلا تجديدا لها ، وما فى نفس رسول الله ﷺ قد قاله في الحديبية نفسها :

« فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهم على الذي بعثني الله تعالى به ، حتى يظهره الله تعالى أو تنفرد هذه السالفه »<sup>(١)</sup> .

وعظمة القائد أن يتحدث عن منهجه واستعداده للجهاد ، حتى يلقى الله تعالى أو يظهر الله أمره والجندي حين يسمع قائده يقول هذا الكلام يعلم أنه هو الهدف المقصود بالتضحيه مع قائده فلن يترك قائده وحده في الساحة يمضى شهيداً وهو ينظر إليه ، إنما هو وكل إخوانه يسقطون شهداء ، قبل أن يمس قائهم بشوكة تؤذيه .

وهو المعنى نفسه الذي أكدته المقداد بن الأسود في الحديبية كما أبرزه في بدر .

(فقد روى ابن أبي شيبة عن هشام بن عروة عن أبيه ، ومحمد بن عمر عن شيوخه ، أن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال بعد كلام أبي بكر : (إنا والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها : ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم ما مقاتلون) <sup>(٢)</sup> .

١١ ) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ج٥ / ص ٦٢ ، ٦١ .

وتشهد من النماذج الفردية كذلك سلمة بن الأكوع رضى الله عنه الذى بايع ثلاث مرات بأمر رسول الله ﷺ ، كما فى صحيح مسلم :

( .. قال : فبأيته أول الناس ، ثم بايع وبابع حتى إذا كان في وسط الناس قال : « بايع يا سلمة ». قال : قلت : قد بایعتك يارسول الله في أول الناس . قال : « وأيضاً ». قال : ورأني رسول الله ﷺ عَزِلاً فأعطاني حجفة أو درقة - ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال : « ألا تبایعني يا سلمة ؟ ». قال قلت : يارسول الله قد بایعتك في أول الناس ووسط الناس . قال : « وأيضاً » فبأيته الثالثة ، ثم قال لي : « يا سلمة ، أين حجفتك - أو درقتك - التي أعطيتكم ؟ ». قلت : يارسول الله ، لقيني عمى عامر عَزِلاً فأعطيته إياها . قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال : « إنك كالذى قال : الأول : اللهم ابغنى حبيباً هو أحب إلى من نفسي ». وفي صحيح البخارى عنه قال : بایعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شيء كنتم تبایعون قال : على الموت ) .

لقد كان سلمة بن الأكوع رضى الله عنه الذى بايع على الموت ثلاث مرات وهو لا يملك شيئاً يقاتل به ، حتى ليعطيه رسول الله ﷺ درقة ، فيؤثر بها عمه الأعزل .

لقد كان لبيعته معنىًّا عميقاً في نفوس المسلمين ، فهو بطل غرفة الغابة التي سبقت غزوة الحديبية .

ولابد أن نشهد له هناك لنعرف البطولة الفذة التي أبرزها ، فنفقه هنا سبب بيعته ثلاث مرات في أول الناس ووسطهم وآخرهم .

فنزوة الغابة - أو ذى قرداً - كانت محاولة مضحكة لإعادة اعتبار غطفان بعد عودتها مدحورة مع قريش بعد الخندق ، وذلك بعد بضعة أشهر منها ، وكان على رأس هذه المحاولة عيينة بن حصن ، وهى أشبه ما تكون بغزو أبي سفيان لأطراف المدينة بعد بدر .

روى الشیخان ، والبیهقی ، ومسلم وابن سعد ، والبیهقی ، عن إیاس بن سلمة بن الأکوع ، كلّاهما عن سلمة رضى الله عنه ، وابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة ، ومحمد بن عمرو عن شیوخه ، وابن سعد عن رجاله ، أن لقاح رسول الله ﷺ كانت عشرين لِقحة<sup>(١)</sup> . وكانت ترعن البيضاء<sup>(٢)</sup> دون البيضاء إلى الجبل وهو طريق خير ،

(١) المِقْحَةُ : بكسر اللام والجمع لقاح . وهي ذوات الین القريبة العهد بالولادة بشهر واثنين وثلاثة .

(٢) البيضاء : اسم موضع عند الجبل .

فأجدب ما هنالك ، فقربوها إلى الغابة<sup>(١)</sup> تصيب من أثلها<sup>(٢)</sup> وطرفائها<sup>(٣)</sup> وتغدو في الشجر ، وكان الراعي يؤوب بلبنها كل يوم عند المغرب .

قال محمد بن عمر عن شيوخه : وقال سلمة بن الأكوع : خرجت قبل أن يؤذن بالأولى ، وكانت لقاح رسول الله ﷺ بذى قرد ، فبعث رسول الله ﷺ بظهره<sup>(٤)</sup> مع رياح - غلام رسول الله - وأنا معه ، وخرجت بفرس طلحة أندية<sup>(٥)</sup> مع الظهر ، فلقيت غلاماً لعبد الرحمن بن عوف كان في إبل لعبد الرحمن بن عوف فأخطئوا مكانها ، واهتدوا للقاح رسول الله ﷺ ، فأخبرني أن لقاح رسول الله ﷺ قد أغار عليها عينه ابن حصن في أربعين فارساً غطفان . قال محمد بن عمرو بن سعد : ليلة الأربعاء .

قال سلمة : قلت : يارياح ، اقعد على هذا الفرس فألحق بطلحة ، وأخبر رسول الله أن قد أغير على سرمه . وقمت على تل بناحية سلع ، فجعلت وجهي من قبل المدينة ، ثم ناديت ثلاثة مرات : يا أصحاباه ، أسمع ماين لابتها<sup>(٦)</sup> . ثم انبعث القوم ومعي سيفي ونبلي ، فجعلت أرديهم<sup>(٧)</sup> ، وفي لفظ أرميهم وأعقر بهم<sup>(٨)</sup> ، وذلك حين يكثر الشجر . فإذا رجع إلى فارس جلست له في أصل شجرة ، ثم رميت ، فلا يقبل على فارس إلا عقرت به . فجعلت أرميهم وأنا أقول :

أنا ابن الأكوع      واليوم يوم الرُّضَع<sup>(٩)</sup> .

فالحق رجلاً فأرميه وهو على رحله ، فيقع سهمي في الرجل حتى انتظمت كتفه . فقلت : خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَع . فإذا كتت بالشجر أحرقهم بالنبل وإذا تصايقت الشنايا علوت الجبل فرميthem بالحجارة ، فما زال ذلك شأنى وشأنهم أتبعهم وارتخيت حتى ما خلق الله تعالى شيئاً من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته من وراء ظهرى واستنفذته من أيديهم . قال : ثم لم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً وأكثر من ثلاثين بردة يستخفون منها ولا يلقون من ذلك شيئاً إلا جعلت عليه الحجارة وجمعته على طريق رسول الله ﷺ ، حتى إذا اشتد الضحى أتاهم عينه بن بدر الفزارى مددأ لهم فى وهم ثيبة ضيقة ، ثم علوت الجبل فأنا فوقهم . فقال عينه : ما هذا الذى أرى ؟

(١) الغابة : مال من أموال عوالى المدينة . (٢) الأتل : شجر عظيم لا ثمر له .

(٣) التعرفاء : شجر من شجر البادية . (٤) الظهر : الركاب الذى تحمل الأنقال فى السفر .

(٥) أندية : أن يورده الماء ساعة . (٦) لابتها : ثيبة لابة ، وهى الحرة ، وهى الأرض ذات الحجارة السوداء .

(٧) أرديهم : أرميهم . (٨) أعقر بهم : أقل دوابهم .

(٩) نير يوم الرُّضَع : اليوم يوم قتل اللقايم . قال السهيلي : يقال في اللؤم رضع بالفتح وبالكسر رضع المدى .

قالوا : لقينا من هذا البرح ، ما فارقنا بسحر حتى الآن ، وأخذ كل شيء بأيدينا ، وجعله وراء ظهره . فقال عيينة : لو لا أن يرى هذا وراءه طلباً لقد ترككم ، وقال : ليقم إليه نفر منكم .

فقام إلى أربعة منهم فصعدوا في الجبل ، فلما أسمعتهم الصوت قلت لهم : أتعرفونني ؟ . فقالوا : ومن أنت ؟ . قلت أنا ابن الأكوع ، والذى أكرم وجه محمد عليه السلام ، لا يطلبنى رجل منكم فيدركتنى ولا أطلبه فيفوتني ، فقال رجل منهم إنى أظن فارجعوا .

وبلغ رسول الله عليه السلام صلاح ابن الأكوع يصرخ بالمدينة : الفزع الفزع ، فترامت الحيوانات إلى رسول الله عليه السلام ، فكان أول من انتهى إليه المقداد بن الأسود ، فنودى : يا خليل الله أركبى ، وكان أول مانودى بها .. )<sup>(١)</sup> .

وروى ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر وابن سعد ، عن سلمة قال :

( .. فلما أصبحنا قال رسول الله عليه السلام : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة ». ثم أعطاني رسول الله عليه السلام سهم الفارس والراجل فجمعهما لي جميعا ، ثم أردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة ) .

هذا هو ابن الأكوع الذى استنقذ وحده لقاح رسول الله عليه السلام كلها من العدو الذى كان أربعين فارسا وغنم ثلاثة وثلاثين بردة ، ورد الفرسان الأربع ، ولما يأت المدد بعد من المدينة ، ولما تبدأ المعركة . وذلك فى مبادرة فردية ، اكتفى بإعلان النفير فى المدينة بعد أن صرخ من جبل سلع ومضى لمهمته العظيمة ، وأكرمه عليه الصلاة والسلام فأثنى عليه فى نهاية المعركة أنه خير الرجال ، وأرده خلفه ، وأعطاه سهم الراجل والفارس ، والمسلمون جميعا يرون بطولة ابن الأكوع ، فلا غرو أن يطلب منه رسول الله عليه السلام البيعة ثلاثة فى الحديبية .

٧ - ونقف أخيراً مع الآية نفسها بعد أن شهدنا البيعة :

﴿ إن الذين يأيرونك إنما يأيرون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ١٤٩/٥ وما بعدها . هذا وقد أورد الصالحي الغزوة بعد الحديبية . وذهب الذهبي وابن إسحاق إلى أنها قبل الحديبية بأشهر ، إذ هى فى ربيع الآخر سنة ست والحادية فى أواخر شوال وأوائل ذى القعدة من السنة نفسها .

على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا ﴿

فتفقه بعدًا أعمق منها بعد هذا العرض .

لقد نزلت الآية الكريمة بعد صلح الحديبية ، وبعد منصرف الناس منها ، فما الضرورة إلى الحديث فيها عن الوفاء والنكث وقد انتهت بيعة الحديبية دون قتال ؟ وهل بقي في عنق المؤمنين بيعة وقد عادوا إلى مكة وصالح رسول الله ﷺ بالمؤمنين ؟ ؟

لقد امتدت البيعة آمداً أبعد وأفاقاً أعظم ، فالبيعة ليست للحظة ولا لساعة ولا لمعركة إن البيعة خط صاعد ، ومنهج قائم ، كما قال أبو سنان :

(أبايعك على ما في نفسك ، أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل ) .

وباب الناس على بيعة أبي سنان .

وقفه أبطال الحديبية جمعاً ، أن هذه البيعة ليست خاصة بزمن ، أو مرتبطة بمعركة آتية في الحديبية أجلت المعركة فألغيت البيعة ، إنها منهج حياة وتحديد مصير ، إلى أن يلقوا ربهم يوم القيمة ، أن يقاتلوا المشركين في كل معركة ، وفي كل زمان ، حتى يظهر الله دينه ، أو يقتلوا دون ذلك .

ومن أجل هذا جاءت الآية تتحدث عن الوفاء والنكث حين تختل هذه البيعة ، ولو بعد سنين ، ولو بعد وفاة قائدتهم عليه الصلاة والسلام ، فالبيعة مع الله تعالى وله ، وشخص رسول الله ﷺ يزول والله تعالى باق لا يزول ، وبما أن البيعة مع الله تعالى وله ، فلا بد من الوفاء بها حتى آخر رمق ولا بد من تأدية التزاماتها فداءً وجهاداً وتضحية ، مازال في المؤمنين عين تطرف ، وإن فقد نكثوا بهذه البيعة ، ومن نكث فإما ينكث على نفسه .

وبقى رجال الحديبية على العهد ، ولم ينكث منهم أحد ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، كما نشهد في جولة أخرى فيما بعد .

وبربط البيعة مع الله عز وجل تجاوزت هذه البيعة الجيل الأول ، ومضت مع المؤمنين إلى قيام الساعة ، في كل بيعة يعقدها المؤمنون مع إمامهم على السمع والطاعة في المنشط والمكره .

﴿ فمن نكث فإما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا ﴾ .

ومن هذه القسم السامقة لأهل الخديبية ، ينطلق الحديث من جديد عن العناصر الجديدة الدخيلة في الإسلام ، في عملية جديدة للهدم والبناء ، لهدم قيم ومفاهيم الجاهلية وإعادة الصياغة من جديد على ضوء الإسلام وقيمه ومفاهيمه .

جولة مع الخلصين .

﴿ سيقول لك الخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلوна فاستغفر لنا يقولون بالستهم ماليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرأ أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خيراً . بل ظنتم أن لن يتقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكتتم قوماً بوراً . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنما أعتدنا للكافرين سعيراً . ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيم﴾ (١) .

الجو الذي تنزلت فيه الآيات اختلفت الصورة فيه تماماً عن جو المسير إلى الخديبية ، فعندما انطلق المسلمون عماراً إلى مكة وما يمض عام على غزوة الخندق ، كان هذا مثار الاستخفاف من القبائل العربية وكانت النظرة إلى مسيرتهم أنهم يسيرون إلى حتفهم .. والذين دخلوا في الإسلام من القبائل العربية المجاورة للمدينة كانوا يرون في هذا الخروج نهاية الإسلام والمسلمين .

قال مجاهد وابن عباس : قوله تعالى : ﴿ سيقول لك الخلفون من الأعراب ﴾ يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدليل ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ، تخلعوا عن رسول الله ﷺ حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استغفراً لهم ليخرجوا معه ، حذراً من قريش ، وأحرم بعمره وساق معه الهدى ، ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً ، فشققاً عنده ، واعتلو بالشغل . فنزلت . وإنما قال : ﴿ الخلفون ﴾ ، لأن الله خلفهم عن صحبة نبيه ، الخلف المتروك .

وقد مضى في « براءة » ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ أي ليس لنا من يقوم بهما ﴿ فاستغفر لنا ﴾ جاءوا يطلبون الاستئثار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ، فقضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ يقولون بالستهم ماليس في قلوبهم ﴾ وهذا هو النفاق الحضر ، ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرأ أو أراد بكم نفعاً ﴾ فرأ حمزة والكسائي

(١) الفتح / ١٤ - ١١ .

«ضُرًّا» بضم الضاد أيًّا يضركم . وقال ابن عباس : الهزيمة . والباقيون بالفتح .. أو أراد بكم نفعاً أيًّا نصراً أو غنِيَمة وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ، ويعجل لهم النفع )<sup>(١)</sup> .

(وأخرج عبد بن حميد وابن حجر وابن المنذر والبيهقي في الدلائل ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿سيقول لك الخلفون من الأعراَب﴾ قال : أغраб المدينة جهينة ومزينة استغراهم لخروجه إلى مكة ، فقالوا : نذهب معه إلى قوم جاءوا فقتلوا أصحابه فقاتلتهم في ديارهم فاعتلوه بالشغف )<sup>(٢)</sup> .

﴿بِلَ ظنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقُلِبُ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبْدَأَ﴾ وذلك أنهم قالوا : إنَّ مُحَمَّداً وأصحابه أكلة رأس لا يرجعون ، ﴿وَزِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التزير من الشيطان ، أو يخلق الله ذلك في قلوبهم ، ﴿وَظَنْتُمْ ظُنُونَ السُّوءِ﴾ أن الله لا ينصر رسوله ، ﴿وَكَتَمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكى . قال مجاهد . وقال قتادة : فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير )<sup>(٣)</sup> .

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المعتذرين إلى رسول الله ﷺ ، عند منصرفه من سفره إليهم بقولهم : شغلتنا أمونا وأهلونا : ما تخلفتم خلاف رسول الله ﷺ حين شخص عنكم وقعدتم عن صحبته من أجل انشغالكم بأموالكم وأهليكم ، بل تخلفتم بعده في منازلكم ظناً منكم أن رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه سيهلكون فلا يرجعون إليكم أبداً ، باستئصال العدو إياهم ، وزين ذلك في قلوبكم ، وحسن الشيطان ذلك في قلوبكم وصححه عندكم حتى حسن عندكم التخلف عنه فقعدتم عن صحبته ﴿وَظَنْتُمْ ظُنُونَ السُّوءِ﴾ يقول : وظنتم أن الله لن ينصر محمداً ﷺ وأصحابه المؤمنين على أعدائهم وأن العدو سيقهرونهم ويغلبونهم فيقتلونهم )<sup>(٤)</sup> .

وفي المعاذ للراقدى :

يجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستغراهم ، فيتشاغلون له بأموالهم وأبنائهم وذرياتهم ، وهم بني نصر وجهينة ومزينة ، فيقولون فيما بينهم :

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / ٨ / ٢٦٨ .

(٢) الدر المثور / ٥١٨ / ٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / ٨ / ٢٦٩ .

(٤) جامع البيان في تفاسير القرآن للإمام الطبرى / ١١ / ٢٧ / ٢٩ .

(أيريد محمد يغزو بنا إلى قوم معدين مؤيدين في الكراع والسلاح؟ وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور ! ، لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً ! قوم لا سلاح معهم ولا عدد ، وإنما يقدم على قوم حديث عهدهم من أصيب منهم بيدر )<sup>(١)</sup> .

(والقرآن لا يكتفى بحكاية أقوال الخلفين والرد عليها ، ولكن يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس وهو اجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً للعلاجها والطب لها ، ثم لإقرار الحقائق الباقة والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فالخلفون من الأعراب - وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأسلم وأشجع وأسلم وغيرهم من حول المدينة - سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم : « شفلتنا أموانا وأهلونا » .. وليس هذا بعذر ، فلنناس دائماً أهل وأموال ، ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها ، وسيقولون : « فاستغفر لنا » وهم ليسوا صادقين في طلب الاستغفار كما ينبيء الله رسوله عليه السلام : « يقولون بالستهم ما ليس في قلوبهم » .

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذي لا يدفعه تخلف ولا يغيره إقدام ، وبحقيقة القدرة التي تحيط بالناس وتتصرف في أقدارهم كما تشاء ، وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه :

« قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرأ أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خيراً » .

وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله ، والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلکؤ ، فالتوقف أو التلکؤ لن يدفع ضرراً ، ولا يؤخر نفعاً ، وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله ، ولا يؤثر في جزائه وفق علمه المحيط . وهو توجيه تربوي في وقته ، وفي جوه وفي مناسبته على طريقة القرآن .

« بل ظنتم أن لن يقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظنتم ظن السوء وكتتم قوماً بوراً »

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين وجهاً لوجه أمام ما أضمروا من نية ، وما ستروا من

(١) المغارى للواقدى / ٥٧٤ / ٢ .

تقدير ، وما ظنوا بالله من السوء ، وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهلיהם بالمدينة وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوهم في عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ! - يشيرون إلى أحد والأحزاب - ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمایته للصادقين المتجدين من عباده ، كما أنهم بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة - لم يقدروا أن الواجب هو الواجب بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت ، وأن طاعة رسول الله ﷺ يجب أن تكون بدون النظر إلى الربع الظاهري والخسارة الشكلية ، فهي واجب مفروض يؤدي دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه .

لقد ظنوا ظنهم وزين هذا الظن في قلوبهم حتى لم يروا غيره ولم يفكروا في سواه ، وكان هذا هو ظن السوء بالله ، الناشيء من أن قلوبهم بور ، وهو تعبر عجيب موح ، فالأرض البُور ميتة جرداء ، وكذلك قلوبهم ، وكذلك هم بكل كيانهم بور ، لا حياة ولا خصب ولا إثمار ، وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله ؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله ؟ يكون بوراً . ميتاً أجرد نهايته إلى البوار والدمار .

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة ، الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله ، البور الحالية قلوبهم من الروح والحياة ، هكذا يظنون دائماً بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة ، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال ، وأن المؤمنين قلة في العدد ، أو قلة في العدة ، أو قلة إذا هم واجهوا الباطل المفترش بقوته الظاهرة . ومن ثم يتتجنبون المؤمنين حباً للسلامة ، ويتوهون في كل لحظة أن يُستأصلوا وأن تنتهي دعوتهم فإذا حذرون هم الأحوط ويعودون عن طريقهم المحفوف بالمهالك ! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا ، ويدل المواقف والأحوال بمعرفته هو ، وبتدبريه هو ، حسب ميزان القوى الحقيقة ، الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية ، فيخفض به قوماً ويرفع به آخرين من حيث لا يعلم المناقرون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين .

إن الميزان هو ميزان الإيمان ، ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان ، مع التلویح لهم برحمة الله القريبة ، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة والتمتع بعفورة الله ورحمته .

﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا . وَلَلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ

والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء و كان الله غفوراً رحيمـاً ) .

لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم ، فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم في هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمّنوا بالله ورسوله ؟ إنهم كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين ، فإن الله الذي يوعدهم هذا الإياع ، هو مالك السموات والأرض وحده ، فهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء ، وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء . والله يجزى الناس بأعمالهم ، ولكن مشيّته مطلقة لا ظل عليها من قيد ، وهو يقرر هنا هذه الحقيقة ل تستقر في القلوب غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل ، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيّة ، ومغفرة الله ورحمته أقرب ، فليغتنمها من يريد ، قبل أن تتحقق كلمة الله بعذاب من لم يؤمّن بالله ورسوله بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين ) .<sup>(١)</sup>

وت رد ملاحظتان عقب هذه الآيات التي تتحدث عن الخلفين :

**الملاحظة الأولى :** أن الحديث لأول مرة ليس عن المنافقين داخل المدينة وداخل الصف المسلم ، إنما الحديث عن الأعراب المقيمين خارج المدينة ، وهذا انتقال واضح في التربية من داخل الصف إلى خارجه ، وأن التربية امتدت إلى الأفواج والعناصر الجديدة التي دخلت حديثاً إلى الصف المسلم ، ولم يكن الأعراب من قبل يدعون إلى الجهاد ، أما الآن فهم يستنفرون ويبطئون ويتخاذلون ، فتبداً معهم الجولة الجديدة في التربية وهذا يشمل الحديث كله عن الخلفين ، بينما لا نجد ذكرأً للمنافقين والحديث عنهم إلا بشكل عرضي وهذا يوحى من جهة ثانية أن الصف الإسلامي في المدينة قد نضج وانصهر والتجمّع كتلة واحدة ، وأن المنافقين بصفتهم أفراد غدوا عاجزين عن التأثير فيه ، وغير قادرين على الخروج عليه بشكل سافر حتى أثنا نجد عبد الله بن أبي زعيم النفاق يشارك مع المؤمنين في عمرة الحديبية ، ولا يجرؤ على التخلف .

**الملاحظة الثانية :** أن الخطاب للخلفين ، قد اتّخذ مراحل عدة في السورة ، بعد أن يدینهم ويفضح حبيبة نفوسهم ، ينتقل في المرحلة الثانية ليحدد لهم عقوبة هذا التخلف في فوات المغانم العظيمة التي وعدها الله المؤمنين ، وينتقل بهم في المرحلة الثالثة إلى إفساح المجال أمامهم من جديد للجهاد وخصوص غمرات الحرب ، فإن أدوا الأمانة وصدقوا جهادهم وبدلوا صفة بصفحة ، فالله تعالى يغير ما بهم بعد هذا التغيير .

(١) في ظلال القرآن م ٦ / ٣٣٢١ وما بعدها .

﴿ سيقول الخلفون إذا انطلقتكم إلى مغامن لتأخذوها ذروراً نتبعكم يريدون أن يدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل فسيقولون بل تخسدوننا بل كانوا لا يفهون إلا قليلاً ﴾ . (١)

( قوله تعالى : ﴿ سيقول الخلفون إذا انطلقتكم إلى مغامن لتأخذوها ﴾ ) يعني مغامن خير ، لأن الله عز وجل وعد أهل الحديبية فتح خير ، وأنها لهم خاصة من غاب منهم ومن حضر ، ولم يغب منهم عنها غير جابر بن عبد الله ، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضر . قال ابن إسحاق : وكان المtowerي للقسمة بخبير جبار بن صخر الأنصاري من بنى سلمة ، وزيد بن ثابت من بنى التجار كانا حاسبيين فاسمين . ﴿ ذروراً نتبعكم ﴾ أي دعونا . قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة فلما خرج النبي ﷺ وأخذ قوماً ووجه بهم قالوا : ذروراً نتبعكم فقاتل معكم . ﴿ يريدون أن يدلوا كلام الله ﴾ أي يغيروا ... وقيل : المعنى يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد لأهل الحديبية ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خير عوضاً عن فتح مكة إذا رجعوا من الحديبية على صلح ، قال مجاهد وقاتده واختاره الطبرى وعليه عاممة أهل التأویل ... ﴿ كذلك قال الله من قبل ﴾ أي من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خير لم شهد الحديبية خاصة . ﴿ فسيقولون بل تخسدوننا ﴾ أن نصيب معكم من الغنائم . وقيل : قال رسول الله ﷺ : « إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لاسهم لكم » . فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى : ﴿ بل تخسدوننا ﴾ فقال الله تعالى : ﴿ بل كانوا لا يفهون إلا قليلاً ﴾ وهو ترك القتال ) (٢) .

والأعراب الذين لا يفهون الأمر إلا غنيمة تؤخذ ، عندما وجدوا صدق موعد الله في نصر الحديبية وكيف عاد المسلمون آمنين لم يمسسهم سوء ، وسمعوا بموعد الله في الغنائم الكثيرة . فما أن حانت خير حتى تغير الوضع ونشطوا للخروج ، وسارعوا بالانضمام للجيش الإسلامي ، لكن الله تعالى حال بينهم وبين ذلك فالجزاء من جنس العقوبة ، والذين قدموا التضحيات في الحديبية هم أهل الفوز بالغنائم ، أما المشككون المتخاذلون فلا نصيب لهم فيها ، مهما كبرت دعواهم وتضخم زعمهم ، فلا حلق لهم في ذلك .

وهي تربية ذات مغزى لهؤلاء الأنواع من الناس الذين لا يتحرر كون إلا لصلحة وراء جاه أو غنيمة ، كي يلقو أثر هذا الحرمان على نفوسهم حين تخلوا عن الجهاد في سبيل الله :

(١) الفتح / ١٥ . (٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / م / ٨ / ١٦ - ٢٧٠ .

﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن طباعكم يؤتكم الله أجرًا حسناً وإن تتولوا كما توليت من قبل يعذبكم عذاباً أليماً . ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهر ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً ﴾<sup>(١)</sup> .

( فيه أربع مسائل :

**الأولى :** قوله تعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ﴾ أى قل لهؤلاء الذين تختلفوا عن الحديبية : ﴿ ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ﴾<sup>(٢)</sup> قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي ليلى وعطاء الخراسانى : هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبي ليلى : الروم وعن الحسن أيضاً : فارس والروم . وقال ابن جبير هوازن وثيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسلمة ، وقال رافع بن خديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى : ﴿ ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ﴾ فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعد ، وظاهر الآية يردده .

**الثانية :** في هذه الآية دليل على صحة إماماة أبي بكر وعمر رضي الله عنهم ، لأن أبي بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم ، وأما قول عكرمة وقتادة : إن ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين فلا ؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول عليه السلام ؛ لأنه قال : ﴿ لَنْ تُخْرِجُوهُ مَعِي أَبْدَا وَلَنْ تَقْاتِلُوهُ مَعِي عَدْوَا ﴾ ، فدل على أن المراد بالداعي غير النبي ﷺ<sup>(٣)</sup> ، وملعون أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي ﷺ إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهم . الزمخشرى : فإن صح ذلك عن قتادة - قتال هوازن وغطفان - فالمعني : لن تخرجوا معى أبداً مادمت على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين ، أو على قول مجاهد : كان الموعد أنهم لا يتبعون الرسول ﷺ إلا مطوعين لا نصيب لهم من المغنم .

(١) الفتح / ١٦، ١٧ . (٢) الفتح / ١١ - ١٤ .

(٣) الملاحظ أن هذه الآية : ﴿ لَنْ تُخْرِجُوهُ مَعِي أَبْدَا وَلَمْ تَقْاتِلُوهُ مَعِي عَدْوَا ﴾ إنما نزلت في تبوك ، وفي غير هؤلاء المخلفين ، فلا أرى داعياً للتأويل لما روى عن قتادة في كونهم هوازن وغطفان والله أعلم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجزية ، وهو معطوف على ﴿ تقاتلونهم ﴾ أي يكون أحد الأمراء إما المقاتلة وإما الإسلام لا ثالث لهما ...

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فإن تعطوا يؤتكم الله أجرا حسنا ﴾ الغنيمة والنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، ﴿ وإن ترولوا كما توليت من قبل ﴾ عام الحديبية ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ وهو عذاب النار .

قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج .. ﴾ :

قال ابن عباس : لما نزلت : ﴿ وإن ترولوا كما توليت من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ قال أهل الرماثة : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ أي لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد لعما هم وزماتهم وضعفهم . والعرج : آفة تعرض لرجل واحدة ، وإذا كان ذلك مؤثراً فخلل الرجلين أولى أن يؤثر . وقال مقاتل : هم الرماثة الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم ، أي من شاء أن يسير منهم معكم إلى خير فليفعل ، ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فيما أمره ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهر ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً ﴾ (١) .

( وأخرج الطبراني بسنده حسن عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، وإنى لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ الآية . قال : هذا في الجهاد وليس عليهم من جهاد إذا لم يطقوها ) (٢) .

والملاحظة الأخيرة بقصد الحديث عن الخلفين ، هي أن هذا الحديث جاء بين آياتي البيعة :

الآية الأولى : ﴿ إن الذين يأيرونك إنما يأيرون الله يد الله فوق أيديهم ... ﴾ .

الآية الثانية : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يأيرونك تحت الشجرة ... ﴾ .

- ولا غرابة في الحديث عن الخلفين بعد الآية الأولى ؛ لأنها تتحدث عن البيعة بشكل عام ، قد يصدق بعضهم فيها وقد ينكث ، أما الآية الثانية فتحدد صدق المبایعين

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي / م ١١ / ج ١٦ / ٢٧٢ .

(٢) الدر المنشور / م ٧ / ٥٢١ .

ورضى الله تعالى عنهم ، فلا بد من إخراج الخلفين من الساحة ، الذين عرف الله الغل في قلوبهم ، والغش للإسلام وال المسلمين في نفوسهم ، فبطّهم ، ولم يكونوا في الصف الإسلامي عند البيعة . والحديث طالما أنه حديث عن القلوب ، فقد تم فضح نفوس الخلفين الذين أدعوا الانشغال بأهليهم وأموالهم ، وكشف خبيثة نفوسهم وخبث طويتهم بأن الذي حال بينهم وبين الخروج هو تصورهم أن لن يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبهم حتى غداً حقيقة واقعة .

وبعد هذا العرض النفسي للمخلفين وطلاب الغنيمة والدنيا ، جاء الدور الجديد لعرض قلوب خيرة أهل الأرض ، بعد أهل بدر ، وهو الذين بايعوا تحت الشجرة .

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَأْبَى عَوْنَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ الْسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَحَارَّ قَرِيبًاً وَمَغَانِمَ كَثِيرًا يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

على الرغم من حدثنا عن البيعة في الآية السابقة إلا أنها هنا نعود لنعرض جوانب أخرى من خلال الآية الكريمة :

### ١ - ماذا فعلت البيعة :

( .. فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان وأصحابه قد قتلوا ، فذلك حين دعا إلى البيعة وبلغ قريشاً حبس أصحابهم ، فجاء جمع من قريش إلى النبي ﷺ وأصحابه حتى تراهم بالبلبل والحجارة ، وأسروا أيضاً من المشركين حينئذ أسرى ، ثم إن قريشاً بعنوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ، فأقبل رسول الله ﷺ يومئذ يوماً من منازل بنى مازن بن التجار ، وقد نزلت في ناحية من المدينة جميراً . قالت أم عمارة : والرسل تختلف بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فمر بنا رسول الله ﷺ يوماً في منزلنا . قالت : فظنت أنه يريد حاجة ، فإذا هو قد بلغه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قد قتل ، فجلس في رحالنا ثم قال : «إن الله أمرني بالبيعة ، فما بقي لنا متابع إلا وطيء ! وزوجهما غزية بن عمرو . وقالت : فباع رسول الله ﷺ الناس يومئذ . قالت : فكأنى أنظر إلى المسلمين قد تلبسو السلاح ، وهو معنا قليل ، إنما خرجنا عمaraً ، فأنا أنظر إلى غزية بن عمرو وقد توسع بالسيف ، فقمت إلى عمود كنا نستظل به ، فأخذته في يدي ومعي سكين قد شددته في وسطي ، فقلت : إن دنا مني أحد رجوت أن أقتله ، فكان رسول الله ﷺ يومئذ يباع الناس وعمر بن الخطاب رضي الله عنه آخذ بيده ، فباعهم على أن لا

يفرروا . وقال قائل : بايعلمهم على الموت ، ويقال : أول الناس بايعلمهم سنان بن أبي سنان بن محسن <sup>(١)</sup> . فقال : يارسول الله ، أبايعلمك على ما في نفسك . فكان رسول الله ﷺ يبايع الناس على بيعة سنان بن أبي سنان ..

فلما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : « سهل أمرهم » . قال : من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا ولا ذوى الأحلام منا ، بل كنا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ! فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة . والذين أسرت آخر مرة !

قال رسول الله ﷺ : « إنى غير مرسلهم حتى ترسل أصحابى » .

قال سهيل : أنصفتنا ! فبعث سهيل بن عمرو وحوىط بن عبد العزى ومكرز بن حفص إلى قريش الشتيم بن عبد مناف التيمى : إنكم جبستم رجالاً من أصحاب محمد بينكم وبينهم أرحام ، لم تقتلواهم وقد كنتم كذلك كارهين ! وقد أتى محمد أن يرسل من أسر من أصحابكم حتى ترسلوا أصحابه ، وقد أنصفنا ، وقد عرفتم أن محمداً يطلق لكم أصحابكم ، فعشوا إليه من كان عندهم ، وكانتوا أحد عشر رجلاً ، وأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم الذين أسرروا أول مرة وآخر مرة ، فكان فيما أسر أول مرة عمرو بن أبي سفيان ، وكان رسول الله ﷺ يبايع الناس يومئذ تحت شجرة خضراء ...

فلما نظرت قريش سهيل بن عمرو ، وحوىط بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ومن كان معه وعيون قريش إلى مارأت من سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم للحرب ، اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية .

فلما رجع عثمان رضى الله عنه أتى به رسول الله ﷺ إلى الشجرة فبايعه ، وقد كان قبل ذلك حين بايعلم الناس قال : « إن عثمان ذهب في حاجة الله ورسوله فأنا أبايعلم له » . فضرب بيمنيه على شماليه .

قال الواقدى : ( حدثى جابر بن سليم ، عن صفوان بن عثمان ، قال : فكانت قريش قد أرسلت إلى عبد الله بن أبي : إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل ، وابنه جالس عنده ، فقال له ابنه : يا أبايت أذكرك الله أن تفضلنا في كل موطن ، تطوف بالبيت ولم يطوف رسول الله ؟ فأبايت ابن أبي وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله ، فبلغ رسول

(١) وعند غير الواقدى هو أبو سنان الأسى نفسه وليس ولده .

الله ﷺ كلامه ذلك فسر به ، ورجع حويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو ومكرز بن حفص إلى قريش ، فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب رسول الله ﷺ إلى البيعة وما جعلوا له . فقال أهل الرأى منهم : ليس خيراً من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا ، عامه هذا ، ويرجع قابل فيقيم ثلاثة ، وينحر هديه وينصرف ، ويقيم بيلدنا ولا يدخل علينا ، فأجمعوا على ذلك .. )<sup>(١)</sup>.

فالبيعة إذن هي السبب المباشر الذي فت في أعضاد مكة ، ودعها إلى الصلح ، ولا ينكِر أثر موقف عروة بن مسعود والخليل بن علقمة قبلها فيما رأوا من الصف الملتزم بالتحريم المتعدد المترافق الفدائي .

وندع للشهيد سيد رحمة الله وصف هذا الصف ، والأجواء التي تنزلت فيها سورة الفتح .

( ومن سياق السورة وجوها ، وبالموازنة بينها وبين إيحاءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف ، يتبيّن مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة من موقفها كله من تغييرات عميقة ، في مدى السنوات الثلاث ، التي نرجع أنها تفرق بين السورتين في زمن النزول ، ويتبين مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سعدت بالشّوء والنمو في ظلال القرآن ، وفي رعاية النبوة ، فكانت ما كانت في تاريخ البشرية . الطويلة .

واضح في جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكيها للعقيدة ، وتجانست مستوياتها الإيمانية ، واطمأنت نفوسها لتكليف هذا الدين ، ولم تعد محتاجة إلى حواجز عنيفة الواقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال ، بل عادت محتاجة إلى من يغضض حميتها ، وينهنه حدتها ، ويأخذ بزمامها لتنسلل للهدوء والمهادنة بعض الوقت وفق حكمة القيادة العليا للدعوة .

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى : ﴿فَلَا تهנו وتدعوا إِلَى السُّلْطَنِ وَأَتَمْ  
الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَرْكُمْ أَعْمَالَكُم﴾<sup>(٢)</sup> ... ولا بمثل قوله تعالى : ﴿هَا أَنْتَمْ  
هُؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِسَفْقَوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْكُمْ مَنْ يَخْلُدُ مِنْ يَخْلُدُ عَنْ نَفْسِهِ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْفَغْنِيِّ وَأَنْتُمُ الْفَقْرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلُوا يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾<sup>(٣)</sup> .

٢٣ / محمد / تأث

$\tau_0 / \tau_{\text{max}}(\tau)$

(١) المفازى، للواقدى، / ٢٦٠٢ و ما بعدها .

ولم تعد في حاجة إلى حواجز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء ، وما أعد الله لهم من الكراهة ، ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ ذلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَلُو بَعْضُكُمْ بَعْضٌ وَالَّذِينَ قَلُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يَضُلُّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيَصْلِحُ بَالَّهُمْ . وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّةً عَرْفَاهُمْ ﴾<sup>(١)</sup> .

إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين ، أو أنزلها عليهم ، والمقصود بها تهدئة فورتهم ، وتحفيض حميتهم ، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله عليه السلام في المهادنة والملائنة وعن رضى الله عن المباعين تحت الشجرة . وكانت هذه الصورة الوضيعة في نهاية السورة للرسول ومن معه .

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها .. فالإيجاء فيها أكثر إلى تكريم المباعين وتعظيم شأن البيعة ، والإشارة إلى النكث جاءت مناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين ، وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات ، فهي إشارة عابرة تدل على ضعف موقف هذه الطائفة . وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها ، وعلى كل حال إشارة عابرة لا تشغله شيئاً مما شغله الحديث عن المنافقين في سورة محمد ، حيث كان للمنافقين شأنهم هم وخلفاؤهم اليهود ، وهذا تطور آخر في موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجي يساير ذلك التطور الذي تم في نفوسها من الداخل .

و واضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين في جو السورة كلها وفي آيات بنصها ، والإشارات إلى الفتوح المقبلة ، وإلى رغبة الخلفين في العنايم السهلة ، واعتذارهم ، وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله .. كلها تشي بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين نزول السورتين .

فهي حقيقة النفوس ، وفي حال الجماعة . وفي الظروف المحيطة بها ، حدث تطور واضح ، يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية . ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالته على أثر التربية القرآنية ، والتربية الحمدية . لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ . ثم إن لهذا التطور إيحاؤه للقائمين على الجماعات البشرية ، فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ، ورواسب الماضي ومخلفاته . وأثار البيئة والوسط ، وجواذب الأرض ، وقلة اللحم والدم .. وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة ، ولكنها مع

(١) محمد / ٤ - ٦ .

المثابة والحكمة والصبر على العلاج ، تأخذ في التحسن والتتطور والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور ، حين تأخذ فرصة للتربية والتوجيه ، وشيئاً فشيئاً تخف ثقلة الطين ، وتشف كثافة اللحم والدم ، وتتوارى آثار البيئة ، وتصفو رواسب الماضي ، وتستشرق القلوب . آفاقاً أعلى حتى ترى النور هناك على الأفق المضيء البعيد ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة . ولنا في المنهج القرآني صراط مستقيم )<sup>(١)</sup> .

٢ - وتأتي شهادة الله تعالى لهذا الجيل ولهذا الصف بالرضا عنه :

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَأْتِيُونَكُمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعُلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَتَاهُمْ فَحَاحَ قَرِيبًا﴾ .

وأى طمأنينة في هذا الوجود تعدل هذه الطمأنينة ، فليس الحكم على المظاهر ، فقد يأبى الرجل وينكث ، وقد يأبى ويغدر ، لكن الحكم على القلوب ، وبمعرفة الله تعالى بهذه الصفة من الخلق ، وبمستوى قلوبهم رضى عنهم ، وأنزل السكينة عليهم .

فالبيعة مظهر خارجي له حكمته ودلالته ، ومن أهم حكمه إرهاب العدو وإجباره على الصلح . لكن القلوب التي وراء البيعة والتي هي مناط الصلاح . قد رضى الله عنها ، وأعطها هذا الحكم .

ويعجزني التعبير عن هذا المعنى ، فأرجأ إلى الظلال وإلى سيد رحمه الله ليسعني في هذا التعبير ، فيقول :

( وإنى لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعينأة عام ، أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين ، أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة ، وضميره المكتوب ، وهو يتغابب جميعه بالقول الإلهى الكريم عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود .. وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بأذانهم ، أنهم هم بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم : لقد رضى عنهم . ويحدد المكان الذي كانوا فيه . والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : ﴿إِذْ يَأْتِيُونَكُمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدق ، على لسان رب العظيم الجليل . يالله ! كيف تلقوا أولئك السعداء تلك اللحظة القدسية

(١) في ظلال القرآن / م ٣٣١٤ / ٦ وما بعدها .

وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد في ذات نفسه ، ويقول له : أنت ، أنت بذاتك يبلغك الله لقد رضى عنك ، وأنت تباعع تحت الشجرة . وعلم ما في نفسك ، فأنزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع : ﴿الله ولی الذين آمنوا﴾ فيسعد ، يقول في نفسه : ألم أطمع أن أكون داخلًا في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع : ﴿إن الله مع الصابرين﴾ فيطمئن ، يقول في نفسه : ألم أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويلعون واحدًا واحدًا أن الله يقصده بهيه وبذاته ويلغه : لقد رضى عنه : وعلم ما في نفسه . ورضى عما في نفسه يا لله ! إنه أمر مهول (١) .

وتأتي شهادة رسول الله ﷺ لهذا الصف المؤمن الملائم المبايع :

فقد روى الإمام أحمد ، والترمذى ، وأبو داود ، عن جابر ومسلم عن أم المبشر قول رسول الله ﷺ :

«لا يدخل النار أحد من بايع تحت الشجرة» (٢) .

( وأنخرج سعيد بن منصور ، والبخارى ، ومسلم ، وابن مردويه ، والبيهقي فى الدلائل ، عن جابر رضى الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعينأة ، فقال لنا رسول الله ﷺ : «أنتم خير أهل الأرض») (٣) .

( وروى الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : لما كان يوم الحديبية . قال لنا رسول الله ﷺ : «لاتوقدوا ناراً بالليل» . فلما كان بعد ذلك قال : «أوقدوا واصطنعوا فإنه لا يدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مدكم») (٤) .

( وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «إنه سيأتي قوم تحقرن أعمالكم مع أعمالهم» فقيل : يا رسول الله ، قريش؟ قال : «لا ، ولكن أهل اليمن ، فإنهم أرق أفتدة ، وألين قلوباً» . قلت : يا رسول الله ، هم خير منا؟ . فقال بيده هكذا - ويصف هشام في الصفة كأنه يقول سواء . «إلا أن فضل ما بيننا وبين الناس : ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح﴾) (٥) .

(١) في ظلال القرآن / ٦ / ٣٢٢٥ .

(٢) صحيح الجامع الصغير / ٦ / ٢٢٨ ، وعند مسلم كتاب / ٤٤ / باب / ٣٧ / ج٥ / ص ١٩٤٢ / ح ٢٤٩٦ .

(٣) الدر المختار / ٧ / ٥٢٢ . (٤) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٨٤ . (٥) المغارى للواقدى / ٢ / ٥٨٦ .

( وَعَنْ جَيْرَ بْنِ مَطْعَمٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامَ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ : « أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنَ كَانُوهُمْ قَطَعَ السَّحَابَ ، هُمْ خَيْرُ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ ». قَالَ رَجُلٌ مِّنَ الْأَنْصَارِ : وَلَا نَحْنُ يَارَسُولَ اللَّهِ ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَةً ، ثُمَّ الرَّابِعَةَ قَالَ قَوْلًا ضَعِيفًا : « إِلَّا أَنْتُمْ » ) <sup>(١)</sup> .

### ٣— وَنَشَهَدُ هَذَا طَرِيقَةُ التَّرْبِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ بَيْنَ تَسْلِيسِ آيَتِ الْبَيْعَةِ :

فَالآيَةُ الْأُولَى تَحْدِثُ عَنِ الْبَيْعَةِ وَضَخَامَتْهَا وَمَسْؤُلِيَّتِهَا وَخَطَرِ النَّكَثِ فِيهَا ، وَتَجْعَلُ قُلُوبَ الْمَبَايِعِينَ مَعْلَقَةً بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، تَرْجُفُ هَذِهِ الْقُلُوبَ رُعَاً أَنْ تَنْكُثَ فِيمَا بَاعَتْ عَلَيْهِ ، فَقَدْ بَاعَتْ رَسُولَ الْعَالَمَيْنَ ، وَأَكَدَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ الْبَيْعَةَ لِرَسُولِ الْعَالَمَيْنَ هِيَ بَيْعَةُ لِرَبِّ الْعَالَمَيْنَ ، فِيدَ اللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، وَالنَّكَثُ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى الْمَبَايِعِ فَيَسْقُطُ وَيَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَذَكُرُ ابْتِدَاءَ ، وَمَعَ الْوَفَاءِ بِالْبَيْعَةِ يَكُونُ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ .

بَيْنَمَا نَجِدُ الآيَةَ الثَّانِيَةَ تَطْلُقُ حُكْمًا ثَابِتًا عَلَى الْمَبَايِعِينَ ، بِأَنَّهُمْ قَدْ حَازُوا عَلَى رَضْيِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَلَعِلَّهُ بِمَا فِيهَا وَلِصَلَاحِهَا وَتَقْوَاهَا حَازَتْ عَلَى رَضَا اللَّهِ ، وَتَمَتَّ الْمَكَافَأَةُ بِأَنَّهُمْ أَنْزَلُوا السَّكِينَةَ عَلَى هَذِهِ الْقُلُوبَ ، وَأَثَابُهَا الْفَتْحَ الْعَظِيمَ وَالْغَنَائِمَ الْكَثِيرَةَ .

الْأَصْلُ فِي الدِّينِ أَنَّهَا دَارَ عَمَلٌ ، وَالْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْجَزَاءِ ، وَإِنَّمَا تَصُدُّرُ النَّتَائِجُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ هَذِهِ الْحَفْنَةَ ، وَهَذِهِ الْعَصَابَةُ الْمُؤْمِنَةُ ، فَأَعْطَاهَا الْجَزَاءَ فِي الدِّينِ ، وَتَلَقَّتْ خَبْرَ الْفَوْزِ فِي الدَّارِيْنِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ الْعَالَمَيْنِ وَهِيَ لَا تَرَالْ تَعِيشُ عَلَى ظَهَرِ هَذِهِ الْأَرْضِ .

فَأَيْ سَكِينَةٌ وَأَيْ طَمَانِيَّةٌ فِي الْوِجْدَنِ تَعْدِلُ شَعُورَ الْمُسْلِمِ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَأَنَّهُ حَازَ عَلَى رَضَا اللَّهِ ! ! !

إِنَّا نَجِدُ هَذِهِ الصُّورَةَ قَدْ بَرَزَتْ فِي بَدْرٍ كَذَلِكَ .

فَبَعْدَ الْحِسَابِ الطَّوِيلِ وَالْعَتَابِ عَلَى مَا بَدَرَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ حَوْلَ الْغَنَائِمِ ، وَالَّتِي خَتَّمَتْ بِالآيَاتِ :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَعُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ درَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(٢) الْأَنْفَلُ / ٤٠٤ .

(١) الْمَازَرِيُّ لِلْوَاقِدِيِّ / ٢ / ٥٨٦ .

وبعد هذا التعليق بين الرجاء والخوف في بداية السورة ، جاء التأكيد الرباني في نهايتها :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آتُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (١).<sup>(١)</sup>

وجاء التأكيد النبوى بعد التأكيد الربانى .

« وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر . فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢) .

وهكذا بُرِزَتْ فِي الصُّفَحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَعْظَمُ طَبَقَتَيْنِ وَهُمَا :

طبقة أهل بدر ، وطبقة أصحاب بيعة الرضوان .

وسميت البيعة بيعة الرضوان ، انطلاقاً من هذه الآية : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا يَعُونُكَ ..﴾ .

٤- ونعود إلى الفتح القريب والمغامن التي جاءت ثمرة رضوان الله عز وجل للمباعين :

( قال قتادة وابن أبي ليلى : فتح خيبر . وقيل : فتح مكة . وقرئ ﴿وَاتَّاهُم﴾  
 ﴿وَمَغَامٌ كَثِيرٌ يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني أموال خيبر . وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت  
 بين الحديبية ومكة و « مغام » على هذا بدل من « فتحاً قريباً » والواو مقحمة . وقيل :  
 « مغام » فارس والروم )<sup>(3)</sup> .

(وأخرج ابن مارون ، عن ابن عباس قال : انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية إلى المدينة ، حتى إذا كان بين المدينة ومكة نزلت عليه سورة الفتح فقال : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إلى قوله : ﴿عَزِيزًا﴾ ، ثم ذكر الله الأعراب ومعخالفتهم للنبي ﷺ فقال : ﴿سِقْوْلُ لَكَ الْخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ إلى قوله ﴿خَبِيرًا﴾ ، ثم قال للأعراب : ﴿بَلْ طَنْسَمْ أَنْ لَنْ يَنْقُلَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله : ﴿سَعِيرًا﴾ ، ثم ذكر البيعة فقال : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله : ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ لفتح الحديبية )<sup>(٤)</sup> .

( وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد ، وهو أن الذى أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغامم الكثيرة من معانٍ خبير ، وذلك أن المسلمين لم

(١) الأنفال: ٧٤. (٢) مسلم كتاب حب ٤٤ / حب ج ٣٦ / ج ٥ / ج ٢٤٩٤ / ص ١٩٤١.

(٤) الدر المنشور / ٧ / ٢٧٨ . . . (٣) القرطبي / ٨ / ١٦ / ٥٢٤ .

يعنوا بعد الحديبية غنية ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بعثهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خير وغناها )<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا ، فكانت الشمرة من الفتح القريب هي فتح الحديبية نفسه ، بما فتح الله به من القلوب لشريعة الله ، وما أذن به من نصر بعد ذلك . أو فتح خير الذي دك قلاع اليهود جميعها ، أو فتح مكة القريب الذي تم بعد الحديبية بستين . وأرجح الأقوال على أن هذا الفتح القريب هو خير .

قال الحافظ (٢) رحمة الله : (يعنى قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكُمْ فَتْحًا مِّبْدَأً﴾ وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم : والتحقيق : أنه يختلف باختلاف المراد من الآيات قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكُمْ فَتْحًا مِّبْدَأً﴾ المراد بالفتح هنا الحديبية ، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين لما ترتب على الصلح الذي وقع من الأمن ورفع الحرب ؛ وتتمكن من كان يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك ، كما وقع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وغيرهم ، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح ... وأما قوله تعالى في هذه السورة : ﴿وَأَتَاهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فالمراد به فتح خير على الصحيح ، لأنها وقعت فيها المغامم الكثيرة ، وقسمت خير على أهل الحديبية ، وأما قوله تعالى : ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فالمراد به الحديبية ، وأما قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرًا نَّصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وقوله عليه السلام : «لا هجرة بعد الفتح» فالمراد به فتح مكة باتفاق ، فهذا يرتفع الإشكال وتجمع الأقوال )<sup>(٣)</sup> . بعون الله .

## فَأَتَاهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . فتح خير

### ١ - وقت الغزوة :

قال ابن عقبة وابن إسحاق : (إِذْلِكَ قَدْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمُبْلَغَةُ الْمُدْعَى إِلَيْهِ الْمَدِينَةُ مِنَ الْحَدِيبَيَةِ) - زاد ابن إسحاق في ذى الحجة - مكت بها عشرين ليلة أو قريباً منها ، ثم خرج غادياً إلى خير - زاد ابن إسحاق في الحرم - وكان الله عز وجل وعده إليها وهو بالحديبية ، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة . فأعطاه الله تعالى فيها خير : ﴿وَعَدَ كُمُّ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ خير .

(١) الطبرى / ١١ / ٥٦ . (٢) الحافظ هو ابن حجر العسقلانى رحمة الله .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ١٠٤ .

قال محمد بن عمر : أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج فجدوا في ذلك ، واستنفر من حوله من شهد الحديبية يغزون معه . وجاء المخلفون عنه في غرفة الحديبية ليخرجوها معه رجاء الغنيمة ، فقال : لا تخرجوا معى إلا راغبين في الجهاد ، فأما الغنيمة فلا )١( .

## ٢ - قوة اليهود في خير :

(روى محمد بن عمر عن شيوخه ، وأحمد ، والطبراني عن ابن أبي حدرد بسند صحيح ، أنه كان لأبي الشحم اليهودي خمسة دراهم . ولفظ الطبراني : أربعة دراهم في شعير أخذه لأهله – فلزمه فقال : أخْلَنِي ، فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حلقك إن شاء الله قد وعد الله تعالى نبيه أن يغنميه خير .

فقال أبو الشحم (حسداً وبغيًا) : أتخسبون أن قتال خيابر مثل ما تلقون من الأعراب ، فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل .

وترافقنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « أعطه حقه ». قال عبد الله : والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها . قال : « أعطه حقه ». قال : وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثة لم يراجع . قال عبد الله : فخرجت فبعثت أحد ثوابي بثلاثة دراهم . وطلبت بقية حقى ، وليس ثوابي الآخر ، وأعطانى ابن حريش ثوباً آخر .

ولفظ الطبراني : فخرج به ابن حدرد إلى السوق ، وعلى رأسه عصابة وهو يائز بمئزر ، فنزع العمامة عن رأسه فأتزّر بها ، ونزع البردة فقال : اشترا مني هذه ، فباعها منه بالدرهم ، فمررت عجوز فقالت : مالك يا صاحب رسول الله ؟ فأخبرها . فقالت : هادونك هذا البرد ، فطرحته عليه ، فخرجت في ثوبين مع المسلمين ، ونفلتى الله تعالى من خير ، وغنمته امرأة بينها وبين أبي الشحم قرابة فبعثتها منه )٢( .

## ٣ - وصول رسول الله ﷺ إلى خير :

(وبعث رسول الله ﷺ عباد بن بشر في فوارس طليعة ، فأخذ عيناً لليهود من أشجع . فقال له : من أنت ؟ . قال : بايع أباً تغى ابيرة ضلت لى . أنا على أثرها . قال له عباد : ألك علم بخير ؟ . قال عهدي بها حديث ، فبم تسألني عنه ؟ قال : عن اليهود . قال : نعم ، كان كنانة بن أبي الحقيقة وهو ذرة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان . وجعلوا لهم تمراً خيراً سنة ، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبية بن

(١) المصدر نفسه / ١٨٠ . (٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ١٨٢ .

بدر ، ودخلوا معهم في حصونهم ، وفيها عشرة آلاف مقاتل . وهم أهل الحصون التي لا ترام ، وسلاح وطعام كثير لو حوصروا سنين لكتفاهم ، وماء واتن<sup>(١)</sup> يشربون في حصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة .

فرفع عباد بن بشر السوط ، فضربه ضربات وقال : ما أنت إلا عين لهم ، اصدقني وإلا ضربت عنقك ! فقال الأعرابي : أفتؤمنتي على أن أصدقك ؟ . قال : نعم . فقال الأعرابي :

ال القوم مرعوبون منكم خائفون ، وجلون لما صنعتم من كان بيشرب من اليهود ، وإن يهود يشرب بعثوا ابن عم لي وجدوه بالمدينة . قد قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق يخبرونه بقتلهم ، وقلة خيلكم وسلاحكم ويقولون له : فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه لم يلق قوماً يحسنون القتال ! وقريش والعرب قد سروا بمسيرهم إليكم لما علمن من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم ! وقد تابعت قريش وغيرهم من يهوي هوى محمد ، تقول قريش . إن خير تظاهر ، ويقول آخرون : يظهر محمد ، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر ! قال الأعرابي : وأنا أسمع كل هذا ، فقال لي كنانة : اذهب معتراضاً الطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك ، واحذرهم لنا ، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به ، ثم ألق إليهم كثرة عدتنا ومادتنا ، فإنهم لن يدعوا سؤالك ، وعجل الرجفة إلينا بخبرهم . فأتى به عباد إلى النبي عليه السلام ، فأخبره الخبر فقال عمر : أضرب عنقه . قال عباد : جعلت له الأمان . فقال رسول الله عليه السلام : « أمسكه معلك يا عباد فأوثق رباطاً » فلما دخل رسول الله خير عرض عليه الإسلام وقال : « إني داعيك ثلاثة ، فإن لم تسلم لم يخرج الجبل عن عنقك إلا صعداً ! فأسلم الأعرابي<sup>(٢)</sup> .

وروى الإمام الشافعي ، وابن إسحاق ، والشيبان ، عن طريق أنس رضي الله عنه قال : (سار رسول الله عليه السلام إلى خير ، فانتهى إليها ليلاً ، وكان رسول الله إذا طرق قوماً بليل لم يُغُر عليهم حتى يصبح . فإذا سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم حتى يصبح ، فصلينا الصبح عند خير بخلس ، فلم نسمع أذاناً ، فلما أصبح ركب رسول الله عليه السلام ، وركب معه المسلمون ، وأنا رديف أبي طلحة ، فأجرى نبي الله عليه السلام . فانحرس عن فخذ رسول الله عليه السلام ، فإني لأرى بياض فخذه ، وإن قدمى لتمس قدمه .

وخرج أهل القرية إلى مزارعهم بمكانتهم ومساحيدهم ، فلما رأوا رسول الله عليه السلام

(١) أى داتم . (٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٤٠ .

قالوا : محمد والخميس ، فأدبروا هرباً . فقال رسول الله ﷺ - ورفع يديه - :

«الله أكبر ، خربت خير ، إنما إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » )<sup>(١)</sup> .

#### ٤ - المنزل الأول للجيش :

قال محمد بن عمر : ( وجاء الحباب فقال :

يا رسول الله ، إإنك نزلت منزلك هذا ، فإن كان من أمر أمرت به فلا تتكلم . وإن كان الرأى تكلمنا ، فقال رسول الله ﷺ « هو الرأى » . فقال :

يا رسول الله ، دنوت من الحصون ، ونزلت بين ظهرى النخل ، والنر )<sup>(٢)</sup> . مع أن أهل النطة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا ، ينالنا ببلهم ، ولا نأمن من بياتهم ، يدخلون في خمر النخل ، فتحول يا رسول الله إلى موضع برىء من النر ومن الوباء . نجعل الحرة بينما وبينهم حتى لا ينالنا بلهم ، ونأمن من بياتهم ، ونرتفع من النر . فقال رسول الله ﷺ : « أشرت بالرأى ، ولكن نقاتلهم هذا اليوم » .

ودعا رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة رضي الله عنه فقال : « انظر لنا منزلأ بعيدأ من حصونهم ، بريئاً من الوباء ، نأمن فيه من بياتهم » . فطاف محمد حتى أتى الرجيع )<sup>(٣)</sup> . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، وجدت لك منزلأ . فقال رسول الله ﷺ : « على بركة الله » )<sup>(٤)</sup> .

#### ٥ - ذكر ابتدائه ﷺ بأهل النطة :

( صف رسول الله ﷺ أصحابه ووعظهم ، وأنه لهم عن القتال حتى يأذن لهم ، فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودي ، وحمل عليه اليهودي فقتله . فقال الناس : استشهد فلان ، فقال رسول الله ﷺ : « أبعد ما نهيت عن القتال؟ ». قالوا : نعم . فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى في الناس « لا تخل الجنة ل العاص » .

وروى الطبراني في الصغير عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يومئذ : « لا تسموا لقاء العدو ، واسألوا الله تعالى العافية ، فإنكم لا تدركون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموهنقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ، وتواصينا ونواصيه بيدك ، وإنما نقاتلهم أنت ،

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥ / ١٨٥ . (٢) النر : ما ينجلب من الأرض من الماء .

(٣) الرجيع : وادِ قرب خير . (٤) المغازى للواقدي / ٢ / ٦٤٣ .

ثم الزموا الأرض جلوساً، فإذا غشوكم فانهضوا وكمروا».

قال ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر ، وابن سعد : وفرق رسول الله عليه الرأي ، ولم تكن الرأي إلا يوم خير ، وإنما كانت الألية .

وكان رأي رسول الله عليه سوداء من برد لعائشة رضى الله عنها تدعى العقاب ، ولواؤه أبيض ، دفعه إلى على بن أبي طالب . رضى الله عنه . ودفع رأي إلى الحباب بن المنذر ، ورأي إلى سعد بن عبادة ، وكان شعارهم : يامنصور أمت .

وأذن رسول الله عليه بالقتال ، وحثّهم على الصبر ، وأول حصن حاصره حصن ناعم ، وقاتل عليه يوم ذلك أشد القتال ، وقاتلته أهل النطة أشد القتال ، وترأس جماعة من أصحاب رسول الله عليه ، وعليه – كما قال محمد بن عمر – درعان وبضة ومغفر ، وهو على فرس : يقال له الظرب ، وفي يده قناة وترس )<sup>(١)</sup>.

## ٦ - ذكر فتحه عليه حصن الصعب بن معاذ :

روى ابن إسحاق عن بعض من من أسلم ، و Mohammad بن عمر رحمه الله عن معتبر الأسلمي رضى الله عنه قال : أصابتنا عشرة أسلم (٢) مجاعة حين قدمنا خير . وأقمنا عشرة أيام على حصن النطة لا نفتح شيئاً فيه طعام ، فأجمعت أسلم أى أرسلوا أسماء بن حارثة فقالوا : ائت رسول الله عليه فقل له : إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون : إننا جهدنا من الجوع والضعف ، فقال بريدة بن الحصيبي الأسلمي : والله إن (٣) رأيت كاليلم فقط من بين العرب من يصنعون هذا . فقال زيد بن حارثة أحو أسماء : والله إنني لأرجو أن يكون هذا البعث إلى رسول الله عليه مفتاح الخير ، فجاء أسماء فقال : يا رسول الله ، إن أسلم تقرأ عليك السلام وتقول : إننا جهدنا من الجوع والضعف ، فادع الله لنا ، فدع عليهم رسول الله عليه ثم قال : «والله ما يبدى ما أقويه به ، قد علمت حالهم ، وأنهم ليست لهم قوة» ثم قال : «اللهم فاقتح عليهم أعظم حصن فيها ، أكثرهم طعاماً . وأكثرها ودكاً» (٤) . ودفع اللواء إلى الحباب بن المنذر رضى الله عنه وندب الناس ، فما رجعنا حتى فتح الله علينا حصن الصعب بن معاذ .

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥ / ١٨٧ .

(٢) أسلم : قبيلة من القبائل المجاورة للمدينة ، وهي التي قال فيها رسول الله عليه : «أسلم سالمها الله» . وهم كانوا ثمن المسلمين في خير وفي الحديبية .

(٣) إن : يعني ما هنا . (٤) الودك : دسم اللحم ودهنه .

قالت أم مطاع الأسلمية رضي الله عنها : لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله عليهما ماشكوا من شدة الحال ، فندب رسول الله عليهما الناس فنهضوا ، فرأيت أسلم أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ ، فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتح الله تعالى ، وما بخبير حصن أكثر طعاماً وودكاً منه ، وكان عليه قتال شديد ، وبرز رجل من يهود يقال له يوشع ، يدعوه إلى البراز . فبرز له الحباب بن المنذر ، فاختلفا ضربات ، فقتله الحباب . وبرز له آخر يقال له الزياي ، فبرز له عمارة بن عقبة الغفارى ، فبادره الغفارى فضربه ضربة على هامته وهو يقول : خذها وأنا الغلام الغفارى . فقال الناس : بطل جهاده فبلغ ذلك رسول الله عليهما فقال : « ما بأس به ، يؤجر ويحمد » ..

وروى محمد بن عمر عن جابر رضي الله عنه : أنهم وجدوا في حصن الصعب من الطعام ما لم يكونوا يظنون أنه هناك من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك .

ونادى منادى رسول الله عليهما : « كلوا واعلفوا ولا تحملوا » يقول : لا تخرجوا به إلى بلادكم .

#### ٧ - ذكر محاصرته عليهما حصن الزبير بن العوام (الذى صار فى سهمه فيما بعد) :

روى البيهقي عن محمد بن عمر قال : لما تحولت يهود من حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ ، فأقام محاصرهم ثلاثة أيام . فجاء يهودي يدعى غزال . فقال : يا أبا القاسم ، تؤمنى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة . وتخرج إلى أهل الشق ، فإن أهل الشق قد هلكوا رعايا منك ؟ .

فأمنه رسول الله عليهما على أهله وماله فقال اليهودي :

إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ؛ لهم دبول<sup>(١)</sup> تحت الأرض يخرجون بالليل فيشرونون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت عليهم شربهم أصحراؤك ، فسار رسول الله عليهما إلى دبولهم فقطعها ، فلما قطع عليهم مشاربهم ، خرجوا وقاتلوا أشد قتال . وقتل من المسلمين يومئذ نفر ، وأصيب من اليهود في ذلك اليوم عشرة ، وافتتحه رسول الله عليهما ، وكان هذا آخر حصون النطاة ، فلما فرغ رسول الله عليهما من النطاة تحول إلى الشق .

(١) الدبول : جمع دبّل ، نهارات وقوارات وجداول .

## ٨ - ذكر انتقاله عليه السلام إلى محاصرة حصون الشق وفتحها :

روى البيهقي عن محمد بن عمر رحمة الله عن شيوخه رحمة الله قالوا :

لما تحول رسول الله عليه السلام إلى الشق ، وبه حصون ذات عدد ، فكان أول حصن بدأ به حصن أبي ، فقال رسول الله عليه السلام على قلعة يقال لها سموان ، فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً ، وخرج رجل من يهود يقال له غزول ، فدعا إلى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر فاقتلا فاختلما ضربات ، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع . فوقع السيف من يد غزول فبادر راجعاً منهزاً إلى الحصن فتبعه الحباب ، فقطع عرقه ، فوقع ذفف <sup>(١)</sup> عليه . فخرج آخر ، فصاح من يارز ، فبرز له رجل من المسلمين من آل جحش . فقتل الجحشى ، وقام مكانه يدعوه إلى البراز . فبرز له أبو دجابة ، وقد عصب رأسه بعصابته الحمراء ، فوق المغفر ، يختال في مشيته ، فبدره أبو دجابة رضي الله عنه فضربه فقطع رجله ثم ذفف عليه ، وأخذ سليه ، درعه وسيفه ، ف جاء به إلى رسول الله عليه السلام ، فنفله رسول الله ذلك ، وأحجم اليهود عن البراز ، فكثير المسلمين ، ثم تعلموا على الحصن فدخلوه ، يقدمهم أبو دجابة فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنىماً وطعاماً ، وهرب من كان فيه من المقاتلة ، وتقحموا الجدر كأنهم الظباء حتى صاروا إلى حصن النزال بالشق . وجعل يأتي من بقى من فل النطاة إلى حصن النزال . فغلقوه ، وامتنعوا فيه أشد الامتناع ، وزحف رسول الله عليه السلام إليهم في أصحابه فقاتلهم فكانوا أشد أهل الشق رمياً للمسلمين بالنبيل والحجارة ، ورسول الله عليه السلام معهم حتى أصابت النبيل ثياب رسول الله عليه السلام وعلقت به فأخذ رسول الله عليه السلام النبيل فجمعها ، ثم أخذ لهم كفاماً من حصى ، فحصل به حصنهم . فرجف الحصن بهم . ثم ساخ في الأرض ، حتى جاء المسلمين فأخذوا أهله أخذنا .

## ٩ - ذكر انتقاله عليه السلام إلى حصون الكتبية وبعثه السرايا :

لما فتح رسول الله عليه السلام حصون النطاة ، والشق ، انهزم من سلم منهم إلى حصون الكتبية . وأعظم حصونها القموص ، وكان حصنًا منيعاً .

ذكر موسى بن عقبة أن رسول الله عليه السلام حاصره قريباً من عشرين ليلة ، وكانت أرضاً وحمة .

وروى الشیخان ، والبخاری ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، عن عدد من الصحابة . والإمام أحمد ، وأبو يعلى والبيهقي عن علي رضي الله عنهما ، قال بريدة رضي الله عنه :

(١) ذفف عليه : أحجز عليه وحرقه .

كان رسول الله ﷺ تأخذه الشقيقة<sup>(١)</sup> فمكث اليوم واليومين لا يخرج ، فلما نزل خير أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس . فأرسل أبا بكر رضي الله عنه فأخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً ، ثم رجع ، ولم يكن فتح ، وقد جهد ، ثم أرسل عمر رضي الله عنه فأخذ راية رسول الله ﷺ فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول . ثم رجع ولم يكن فتح ، وفي حديث على عند البيهقي : أن الغلبة كانت لليهود في اليومين .

فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال : « لأعطي الرأبة غداً يفتح الله عليه ليس بفرار يحب الله ورسوله ، يأخذها عنوة ، وفي لفظ : « يفتح الله على يديه » . قال بريدة : فبتنا طيبة نفوسنا أن يفتح غداً . وبات الناس يدوكون<sup>(٢)</sup> ليت لهم أيهم يعطاهما . فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاهما . قال أبو هريرة . قال عمر : مما أحبيت الإمارة قط حتى كان يومئذ . قال بريدة : مما من رجل له من رسول الله ﷺ منزلة إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل ، حتى تطاولت أنوالها ، ورفعت رأسى منزلة كانت لى منه ، وليس ملة .

وفي حديث سلمة وجابر : وكان على تخلف عن رسول الله لرمد شديد كان به لا يضر ، فلما سار رسول الله ﷺ قال : لا ، أنا أتأخر عن رسول الله !! فخرج فلحق برسول الله ﷺ . قال بريدة : وجاء على رضي الله عنه حتى أناخ قريباً ، وهو رمد ، قد عصب عينيه بشق بروقطرى ، فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى العادة ، ثم دعا باللواء ، وقام قائماً . قال ابن شهاب : فوعظ الناس ثم قال : « أين على ؟ » . قالوا : يشتكي عينيه . قال : « فأرسلوا إليه » . قال سلمة ، فجئت به أقوده ، قالوا كلهم : فأتي به رسول الله ﷺ فقال له رسول الله : « مالك ؟ » قال : رمدت حتى لا أبصر ما قدامي . قال : « ادن مني » وفي حديث على عند الحاكم : فوضع رأسى عند حجره ، ثم برق في إلية<sup>(٣)</sup> يده فذلك بها عيني ، قالوا : فبراً كأن لم يكن به وجع قط ، فما وجمعهما على حتى مضى لسيله ، ودعاه وأعطاه الرأبة . قال سهل فقال على : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . فقال : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى وحق رسوله . فوالله لأن يهدى الله بك رجالاً واحداً خيراً لك من أن يكون لك حمر النعم » . وقال أبو هريرة : إن رسول الله ﷺ قال لعلى : « اذهب فقاتلهم حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت » . قال : علام أقاتل الناس ؟ قال :

(١) الشقيقة : وجع يأخذ نصف الرأس والوجه . (٢) يدوكون : يأتوا في اختلاط واختلاف .

(٣) إلية يديه : في بطنه يديه والإلية : اللحمة التي تحت الإبهام أو باطن الكف .

« قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإن فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ». فخرجو فخرج بهم والله يأبىح<sup>(١)</sup> بيهرون هرولة حتى رکزها تحت الحصن ، فاطلع يهودي من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ قال : على . فقال اليهودي : غلبتهم والذى أنزل التوراة على موسى . فما رجع حتى فتح الله على يديه .

قال أبو نعيم : فيه دلالة على أن فتح على لحسنهم مقدم في كتبهم بتوجيه من الله وجهه إليهم ، ويكون فتح الله تعالى على يديه .

١٠ - ذكر قتل على رضى الله عنه الحارث وأخاه مرحباً وعامراً وياسراً فرسان يهود وسبعنها :

روى محمد بن عمر عن جابر رضى الله عنه قال : أول من خرج من حصون خير مبارزاً للحارث أخو مرحباً في عاديته<sup>(٢)</sup> فقتلته على رضى الله عنه ، ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن ، وبرز عامر وكان رجلاً جسيناً طويلاً . فقال رسول الله ﷺ حين برز وطلع عامر : « أترونه خمسة أذرع ؟ » .

وهو يدعو إلى البراز ، فخرج إليه على بن أبي طالب رضى الله عنه فضربه ضربات ، كل ذلك لا يصنع شيئاً ، حتى ضرب ساقيه فبرك ، ثم ذفف عليه وأخذ سلاحه .

قال ابن إسحاق : ثم برز ياسر وهو يقول :

قد علمت خير أنى ياسر شاكى السلاح بطل مغامر

إذ الليوث أقبلت تبادر وأحجمت عن صولة المساور<sup>(٣)</sup>

إن حسامي فيه موت حاضر

قال محمد بن عمر : وكان من أشدائهم . وكان معه حرية يحوس<sup>(٤)</sup> الناس بها حوساً فبرز له على بن أبي طالب ، فقال له الزبير بن العوام : أقسمت إلا خليت بيني وبينه ففعل . فقالت صفية لما خرج إليه الزبير رضى الله عنه : يا رسول الله ، يقتل ابنى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يل ابنك يقتله إن شاء الله » ، فخرج إليه الزبير وهو يقول :

(١) يأبىح أو يأبىح : أى به نفس شديد من الإعباء والهرولة .

(٢) عاديته : الذين يدعون على أرجلهم ، والعادية : الخدة والغضب .

(٣) المساور : المهاجر خصمه . (٤) يحوس الناس : يجهضهم عن أفعالهم .

قد علمت خير أني زبار<sup>(١)</sup>

قرم لقرم غير نكس<sup>(٢)</sup> فرار

ابن حماة المجد ابن الأخيار

ياسر لا يفرك جمع الكفار

فجمعهم مثل السراب الخثار

ثم التقى فقتله الزبير . قال ابن إسحاق : وذكر أن علياً هو الذي قتل ياسراً .

قال محمد بن عمر : وقال رسول الله ﷺ للزبير لما قتل ياسراً :

« فداك عم وخال ثم قال : « لكل نبي حواري<sup>(٣)</sup> ، وحواري الزبير بن عمتى » .

قتل مرحباً :

حديث سلمة بن الأكوع عند مسلم والبيهقي أن مرحباً خرج وهو يخطر بسيفه ،  
وفى حديث ابن بريدة عن أبيه : خرج مرحباً عليه مغفر معصر يمانى ، وحجر قد ثقبه  
مثل البيض على رأسه وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خير أني مرحباً شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الليوث أقبلت تلهم

قال سلمة : فبرز له عامر<sup>(٤)</sup> وهو يقول :

قد علمت خير أني عامر شاكى السلاح بطل مغامر

قال : فاختلغا ضربتين ، فوقع سيف مرحباً في ترس عامر ، فذهب عامر يسفّل<sup>(٥)</sup> له وكان سيفه فيه قصر ، فرجع سيفه على نفسه ، فقطع أكحلاة<sup>(٦)</sup> ، وفي روایة عین<sup>(٧)</sup> ركبته . وكانت فيها نفسه .

وفي روایة مسلم : فلما قفلوا قال سلمة وهو آخذ بيدي ، قال : فلما رأني رسول الله ﷺ ساكتاً قال : « مالك؟ » قلت له : فداك أبي وأمى زعموا أن عامراً حبط عمله . قال : « من قاله؟ » قلت : فلان وفلان وأسيد بن حضير الأنصارى . فقال : « كذب من قال . إن له لأجران » ، وجمع بين أصحابيه : « إنه لجاهد مجاهد ، قل عربي مشى بها مثله » .

قال بريدة فبرز مرحباً وهو يقول :

(١) زبار : زبير . (٢) نكس : جبان ضعيف . (٣) الحواري الناصر والمعين .

(٤) هو عامر بن الأكوع رضى الله عنه عم سلمة بن الأكوع ، وقد يكون أخاه من الرضاة كذلك .

(٥) يسفّل له : يضر به من أسافله .

(٦)

أكحلاة : عرق . (٧) عین الركبة : طرفها من الأعلى .

قد علمت خير أى مرحبا  
إذا الليوث أقبلت تلهب  
فبرز له على بن أبي طالب رضي الله عنه وعليه جبه أرجوان<sup>(١)</sup> حمراء قد أخرج  
حملها ، وهو يقول :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة<sup>(٢)</sup>  
كليث غابات كريه المنظرة  
أو فيهم بالصاع كيل السندرة<sup>(٣)</sup>  
فضرب مرحبا ففرق رأسه ، وكان الفتح<sup>(٤)</sup> .

## ١١ - ذكر إسلام العبد الأسود وما وقع في ذلك من الآيات :

روى البيهقي عن جابر ، وعن أنس ، وعن عروة ، وعن موسى بن عقبة : أن عبداً حبيشاً لرجل من أهل خير كان يرعى غنماً لهم ، لما رأهم قد أخذوا السلاح واستعدوا لقتال رسول الله ﷺ ، سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد قتال هذا الرجل الذي يزعم أنهنبي . فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ فخرج بعنه ليرعاها فأخذه المسلمون ، فجاءوا به لرسول الله ﷺ ، وفي لفظ ابن عقبة : أنه عمد بعنه إلى رسول الله ﷺ ، فكلمه رسول الله ما شاء الله أن يكلمه ، فقال الرجل : ماذا تقول ؟ وماذا تدعوه إليه قال : « أدعوك إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وأن لا يعبد إلا الله » .

قال العبد : وماذا يكون لي إن شهدت بذلك ، وآمنت بالله تعالى ؟ قال رسول الله ﷺ : لك الجنة على ذلك » فأسلم العبد ، وقال : يارسول الله ، إنني رجل أسود اللون قبيح الوجه ، منتن الريح ، لا مال لي ، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة ؟ قال : « نعم » .  
قال : يارسول الله ، إن هذه الغنم عندي أمانة فكيف بها ؟ فقال رسول الله ﷺ :  
**« أخرجها من العسكر ، وارمها بالحصباء ، فإن الله عز وجل سيؤدي عنك أmantك »**

(١) الأرجوان : الأحمر . (٢) حيدرة : اسم من أسماء الأسد.

(٣) السندرة : شجرة يصنع منها مكابيل عظيمة .

(٤) انظر : سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ١٩٠ وما بعدها ، وقال : جزم جماعة من أصحاب المغارى بأن محمد ابن سلمة هو الذى قتل مرحباً ، ولكن ثبت فى صحيح مسلم ما تقدم عن سلمة بن الأكوع أن عليه هو الذى قتل مرحباً . وعلى تقدير صحة ما ذكره جابر عن محمد بن سلمة فما فى صحيح مسلم مقدم من وجهين : أحدهما : أنه أصح إسناداً ، الثاني : أن جابر لم يشهد خيراً كما ذكره ابن إسحاق ومحمد بن عمر ، وقد شهد لها سلمة وبريدة وأبورافع ، وهم أعلم من لم يشهد لها .

ففعل ، وأعجب رسول الله ﷺ كلمته ، فخرجت الغنم تشتد مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت كل شاة إلى أهلها ، فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم . ثم تقدم العبد الأسود إلى الصف . فقاتل فأصابه سهم فقتله ، ولم يصل لله تعالى سجدة قط . فاحتمله المسلمون إلى عسكرهم ، فقال رسول الله ﷺ : « أدخلوه الفسطاط » وفي لفظ : « الحباء » فأدخلوه حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ دخل عليه ثم خرج فقال : « لقد حسن إسلام أصحابكم ، لقد دخلت عليه وإن عنده لزوجتين له من الحور العين » .

وفي حديث أنس : فأتي عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول فقال :

لقد حَسَنَ اللَّهُ وَجْهَكَ ، وَطَيِّبَ رِيحَكَ ، وَكَثُرَ مَالُكَ ، لَقَدْ رَأَيْتَ زَوْجِيَّهُ مِنْ الْحُورِ  
الْعَيْنِ يَنْزَعَانِ جَبَتَهُ ، يَدْخُلَا لَنِّي فِيمَا بَيْنِ جَلْدِهِ وَجَبَتَهُ . » . وَعِنْ أَبْنَى إِسْحَاقَ : « يَنْفَضِّلُ  
الْتَّرَابُ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُانِ : تَرْبَ اللَّهُ وَجْهَ مَنْ تَرْبَكَ ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَكَ » .

## ١٢ - ذكر نهيء ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأنسيية :

روى الشیخان عن عبد الله بن أبي أوفی رضی الله عنه قال : أصابتنا مجاعة ليالي خیر . فلما كان يوم خیر وقفنا في الحمر الأنسيّة فانتحرناها ، فلما غلت القدر ، نادى منادی رسول الله ﷺ أن اكفوا القدر ولا تأكلوا من لحوم الحمر شيئاً .

وعن أنس رضی الله عنه قال : لما كان يوم خیر جاء فقال : يا رسول الله ، فنبت الحمر ، فأمر أبو طلحة فنادى إن الله ورسوله ينهاكم عن لحوم الحمر . رواه الدارمي بسند صحيح .

وعن ابن عباس رضی الله عنهمما قال : نهى رسول الله ﷺ يوم خیر عن بيع الغائم حتى تقسم ، وعن الحبالى أن توطاً حتى يضعن ما في بطونهن . قال : « لا تشق زرع غيرك » وعن لحوم الحمر الأهلية ، وعن كل ذى ناب من السبع . رواه الدارقطنى .

وعن أبي ثعلبة الخشنى رضی الله عنه قال : غزوت مع رسول الله ﷺ خیر . والناس جياع ، فأصبنا بها حمراً إنسية فذبحناها ، فأخیر النبي ﷺ ، فأمر عبد الرحمن بن عوف فنادى في الناس : « إن لحوم الحمر الإنسية لا تحمل لمن يشهد أنى رسول الله » . رواه الإمام أحمد والشیخان .

وعن سلمة رضی الله عنه . قال : أتينا خیر فحاصرناها حتى أصابتنا مخصصة شديدة - يعني الجواع الشديد - ثم إن الله فتحها علينا . فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي

فتحت عليهم ، أو قدوا نيرًا كثيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذه النيران ؟ على أي شيء توقدون ؟ قالوا : على لحم . قال : « على أي لحم ؟ ». قالوا : لحم حمر إنسية . فقال رسول الله ﷺ : « أهرقوها واكسرعوا الدنان ». فقال رجل : أو نهريقوها ونغلصلها ؟ قال : « أو ذاك ». رواه الشييخان .

وروى ابن عمر رحمة الله تعالى عن شيوخه : أن عدة الحمر التي ذبحوها كانت عشرين أو ثلاثين ، كذا رواه على الشك .

### ١٣ - ذكر فحمة ﷺ الوطح والسلام ، وكان آخر حصون خير فتحا :

(قال ابن إسحاق : وتدنى رسول الله ﷺ بالأموال يأخذها مالاً ، ويفتحها حصناً ، حتى انتهوا إلى ذينك الحصنين ، وجعلوا لا يطعون من حصنهم ، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق لما رأى من تغليقهم ، وأن لا يبرز منهم أحد . فلما أيقنوا بالهلاكة وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً ، سأله رسول الله ﷺ الصلح ، فأرسل كنانة بن الحقيق إلى رسول الله ﷺ رجلاً من يهود يقال له شماخ يقول : أنزل أكلمت ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » فنزل كنانة بن الحقيق . فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة . وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خير وأرضها بذراريهم . ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال أو أرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة ، وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً » فصالحوه على ذلك )<sup>(١)</sup> .

١ - فأثابهم فتحاً قريباً : لم يكن بين الحديبية والمسيير إلى خير إلا عشرون ليلة ، وبعد أن تمت الهدنة بين المسلمين وقريش ، وأمن رسول الله ﷺ جانبها ، كان لابد من التوجه نحو خير . فقد تجمع اليهود هناك . وقد عبوا أنفسهم للمواجهة ، وإذا صع زعمهم أن لديهم عشرة آلاف مقاتل منهم ومن حلفائهم ، فهذا يعني أن الخطر جاثم على المدينة في كل لحظة ، والمسافة بين خير والمدينة هي نصف المسافة أو أقل بين المدينة ومكة ، والتخطيط العسكري العظيم أن رسول الله ﷺ لم يفتح جهتين في وقت واحد ، وما مضى لخير إلا بعد هدنة أهل مكة وبذلك ضمن لا يأتوه من ظهره ، وهم الذين وصفهم القرآن بأنهم أشد عداوة للذين آمنوا . ووصف القرآن كيدهم وحقدتهم بما فيه غناء .

(١) انظر : سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥ / ٢٠١ وما بعدها .

٤ - والجديد في أمر خير وما يختلف عن الحرب السابقة ، هي حصونهم وقلائهم التي أقاموا بها ، فمحاولة الهجوم عليهم تتطلب جهداً ضخماً وتعبةً مناسبةً ومؤونةً كافية للجيش لفترة طويلة ، والمسلمون لا يملكون هذه الطاقات في مقابل اليهود الذين قيل عنهم : (وهم أهل الحصون التي لا ترام ، وسلاح وطعام كثير لو حصرها لستين لكتافهم وماء واتن يشربون في حصونهم ، ما أرى لأحد بهم من طاقة) .

والمسلمون لم يسبق لهم من قبل خبرة في قتال أهل الحصون إلا ما كان من بني قريظة يوم حربهم . ولئن كان المافقون قبل الحديبية والخلفون من الأعراب ظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبهم ، فهم أولى في هذا المسير أن يقولوا بذلك ، غير أن السمعة الدعائية الضخمة للحديبية ، والنصر المؤزر فيها قد فشا في الأرض العربية ، فأصبح الخلفون من الأعراب يحرصون على المسير من الجيش ، بعد أن وعد الجيش بالمحاصم الكثيرة . وهم الآن يصدرون موعد الله تعالى لهم بذلك ، وكانت الدعاية اليهودية تأخذ كذلك مجرها وأثراها ، وكانوا لا يتوانون عن عرض العضلات أمام القبائل العربية المجاورة ، (وكان يهود خير لا يظنو أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم : كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون : محمد يغزونا؟! هيهات هيهات : وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي ﷺ إلى خير : ما أمنع والله خير منكم ! لو رأيتم خير وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات في ذرى الجبال ، والماء فيها واتن . إن بخير لآلف دارع ، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم ، فأنتم تطيقون خير؟ فيقول أصحاب النبي ﷺ : قد وعد الله نبيه أن يغنم إياها) <sup>(١)</sup> .

وكان العرب جميعاً يتربون بحذر نتائج هذا المسير ، حتى ليتراهن القرشيون على نصر أى من الفريقين ، وكان على رأس المراهنين حويطب بن عبد العزى الذي كان عضواً في الوفد المفاوض عن قريش في الحديبية . يقول :

( انصرفت من صلح الحديبية . وأنا مستيقن أن محمداً ﷺ سيظهر على الخلق ، وتأتي حمية الشيطان إلا لزوم ديني ، فقدم علينا عباس بن مرداد السلامي ، يخبرنا أن محمداً ﷺ قد سار إلى خيابر ، وأن خيابر قد جمعت لرسول الله ﷺ ، فمحمد لا يفلت .

(١) انظر : المغازى للواقدى / ٢ / ٦٣٧ .

إلى أن قال عباس بن مرداس : من شاء بابنته أن مهدأ لا يفلت . قلت : أنا أخاطرك ، فقال صفوان بن أمية : أنا معك يا عباس ، وقال نوفل بن معاوية الديلمي أنا معك يا عباس ، وضوى إلى نفر من قريش ، فتخاطرنا مائة بغير أحمساً إلى مائة بغير ، أقول أنا وحزبي : يظهر محمد عليه السلام ، ويقول عباس وحزبه : تظهر غطفان . وجاء الخبر بظهور رسول الله عليه السلام فأخذ حويطب وحزبه الرهن )<sup>(١)</sup> .

٣ - في هذه الأجواء المعبأة تحرك الجيش الإسلامي برعاة الله تعالى ورسوله ، وهم نفسهم أهل الحديبية ، خيرة أهل الأرض ، وهم لا يشعرون التمر ، ولا يجدون ما يأكلون . وكانت الظاهرة الأولى من ظواهر النصر أن الاستعراضات العسكرية التي سبقت مقدم النبي عليه السلام قد انقطعت يوم وصوله إلى خيبر .

( فلما نزل رسول الله عليه السلام بساحتهم لم يتحرّكوا تلك الليلة . ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس . فأصبحوا وأفتدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم غادين معهم المساحي والكرازين والمكائيل ، فلما نظروا إلى رسول الله عليه السلام ولوا هاربين إلى حصونهم ) .

وفي رواية : ( فلما رأوا رسول الله عليه السلام قالوا : محمد والخميس ، فأدبروا هرباً فقال رسول الله عليه السلام : « الله أكبر ، خربت خيبر ، إنما إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

ورؤية اليهود للجيش الإسلامي ، قذفت الرعب في قلوبهم وأعداد مقاتليهم أضعاف المقاتلين المسلمين ، ولو لوا هاربين ، فكانت هذه الظاهرة الثانية ، هي البشري التي أعلنها عليه الصلاة والسلام .

« الله أكبر ، خربت خيبر » .

وساء صباح المنذرين حين نزول بساحتهم رسول الله صلوات الله عليه .

ولأن الحرب حرب عقيدة ، وحرب توحيد وشرك ، فكان الأدب النبوى في الحرب : أن لا يغیر عليه الصلاة والسلام حتى يصبح ، فإذا سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم حتى يصبح . والأذان هو الميزان الفاصل بين الإيمان والكفر .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥ / ٢١٦ . وقد رواه عن البيهقي عن عروة وعن موسى بن عقبة ، ورواه محمد بن عمر .

وعلى ضوئه تقوم الحرب ، ومن أجله تتم المواجهة ، ومهمة القتال في الإسلام ليست الغلبة ، وليس كسر شوكة العدو بهدف كسر شوكته فقط . فقد جلاها لنا على رضى الله عنه عندما استلم الرأية بأجلٍ ي بيان ، حين سأله قائدٌ عن الهدف من قتاله .

( فقال علي : يارسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال :

« انفذ على رسليك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام . وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى وحق رسوله ، فوالله لأن يهدى الله بك رجالاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم » .

وفي رواية : « اذهب فقاتلهم حتى يفتح الله عليك و لا تلتفت » قال : علام أقاتل الناس ؟ . قال : « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى » )<sup>(١)</sup> .

وبقى الهدایة هي الهدف الأعلى والأسمى من المعركة ، وهدایة رجل واحد خير من حمر النعم للذى كتب الله الهدایة على يديه . ومضى على رضى الله عنه ، وقد توضّح له وللامة من بعده علام يقاتل الناس .

٤ - وحين يكون القتال منطلقاً من شهوة القتال ، بعيداً عن الهدف ، فسيكون وبالاً على صاحبه . وما أحوج أبناء الدعوة والحركة أن يفقهوا هذه المعانى ، وأن يفقهوا أن حمل السلاح وإلقاءه . ليس اندفاعاً ذاتياً . ليس حمله تهوراً وشجاعة فائقة . وليس إلقاءه جيناً أو ضعفاً أو تخاذلاً . إن حمل السلاح وإلقاءه مهمة شرعية تنفذ بقرار الأمير لا بالقناعة الشخصية : ( وكان رسول الله ﷺ حين انتهى إلى حصن ناعم في النطأة وصف أصحابه نهى عن القتال حتى يأذن لهم ، فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودي ، وحمل عليه مرحباً فقتلته فقال الناس : يارسول الله ، استشهد فلان ! فقال رسول الله ﷺ : « أبعد ما نهيت عن القتال ؟ » فقالوا : نعم . فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي : « لا تحمل الجنة ل العاص ». ثم أذن رسول الله ﷺ في القتال وحث عليه )<sup>(٢)</sup> .

فهذا قاتل في ظاهر الأمر وقتل اليهودي ، لكنه قاتل بعد النهي عن القتال فحرمت الجنة عليه . وهو مسلم عريق في الإسلام .

إن التزام أمر القائد المسلم دين يلقى الله تعالى الجندي المسلم عليه :

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ١٩٥ . (٢) المغازي للواقدي / ٢ / ٦٤٨ .

« من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى الأمير فقد عصانى »<sup>(١)</sup> .

والالتزام الأمر في كل شيء وليس في القتال فقط أو الكف عنه :

روى الحارث بن أبي أسامة عن أبي أمامة والبيهقي عن ثوبان رضي الله عنهمما أن رسول الله ﷺ قال في غزوة خير : « من كان مضعفاً أو مصعباً فليرجع » ، وأمر بلاً فنادى بذلك . فرجع أناس وفي القوم رجل على صعب فمر من الليل على سواد فنفر به فصرعه . فلما جاءوا به رسول الله ﷺ قال : « ما شأن صاحبكم؟ » فأخبروه . فقال : « يابلاً ، ما كنت أذنت في الناس من كان مضعفاً أو مصعباً فليرجع » قال : نعم . فأبي أن يصلى عليه . زاد البيهقي : وأمر بلاً فنادى في الناس : « الجنة لا تحل ل العاص » ثلاثة .

فالأمر يطاع في الكف عن القتال أو في استعمال آلة . أو في الإذن فيه ، أو في مواجهة العدو ، وأى مخالفة شخصية هي معصية قد تحول بين الجنة وبين المihad .

٥ - واستجابة المسلمين لنداء رسول الله ﷺ رغم ما بهم من الجروح والفاقة ، فهم لا يجدون ما يأكلونه ، وعليهم أن يمضوا لحرب ضرورة ، لا يعلم إلا الله مداها . وهم ماضون إلى موعد الله في أن يعطيهم غنائم خير ، لكن متى؟ وكيف؟ فعلمها عند الله . وهما هم يحاصرون ، ويشتدد جوعهم ، ويشتد تعبيهم وإرهاقهم حتى ليضطروا إلى إعلام رسول الله ﷺ ، وكان الإعلام من أسلم . وأسلم من الجيش الإسلامي ، وما يملك لهم رسول الله ﷺ إلا الدعاء :

« والله ما يبدى ما أقويه به ، قد علمت حالهم وأنهم ليست لهم قوة » ثم قال : « اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيها ، أكثرها طعاماً ، وأكثرها ودكاً » .

وكانت المحاولة الأولى على الطريق في جمع الأزواج :

قال سعيد بن النعمان رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ لما وصل الصهباء – وهي أدنى خير – صلى العصر ، ثم دعا بالأزواج . فلم يؤت إلا بالسوق<sup>(٢)</sup> ، فأمر به فتري ، فأكل رسول الله ﷺ وأكلنا معه ، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا ثم صل ولم يتوضأ . البخاري .

وحين ابتدأوا القتال لم يكن لديهم ما يأكلونه :

(١) أحمد والسائباني وابن ماجة ، وهو صحيح . (٢) السوق : قبح أو شعير يغلى ثم يطحون .

(وكان الناس قد أقاموا أياماً يقاتلون ليس عندهم طعاماً إلا العلق<sup>(١)</sup> .

وكانت المحاولة الأولى قبل الفتح لإطعام الجيش بتوجيه النبي عليه السلام حين أقبلت غنم لرجل من يهود ترتع وراء حصنهم ، فقال رسول الله عليه السلام : « من رجل يطعمنا من هذه الغنم » .

فخرجت أعدو مثل الظلييم ، فلما نظر إلى رسول الله عليه السلام مولياً قال : « اللهم متعنا به » . فأدركـتـ الغـنمـ ،ـ وـقـدـ دـخـلـ أـولـهاـ الحـصـنـ فـأـخـذـتـ شـاتـينـ مـنـ آخرـهاـ فـاحـضـتـهـماـ تحتـ يـدـيـ ثمـ أـقـبـلـتـ أـعـدوـ كـأـنـ لـيـسـ مـعـيـ شـيـءـ حـتـىـ اـنـتـهـيـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ عـلـيـهـ ،ـ فـأـمـرـ بـهـماـ قـذـبـاـ ،ـ ثـمـ قـسـمـهـماـ ،ـ فـمـاـ بـقـىـ أـحـدـ فـيـ الـمـعـسـكـ الـذـيـنـ مـعـهـ مـحـاـصـرـيـنـ الـحـصـنـ إـلـاـ أـكـلـ مـنـهـماـ ،ـ فـقـيلـ لـأـيـيـ الـيـسـ :ـ كـمـ كـانـواـ ؟ـ قـالـ :ـ كـانـواـ عـدـدـاـ كـبـيرـاـ )<sup>(٢)</sup> .

كـانـتـ هـذـهـ الـمـعـجـزـةـ الـأـلـىـ فـيـ الطـعـامـ ،ـ لـيـتـقـوـيـ الـقـوـمـ عـلـىـ الـجـهـادـ وـالـقـتـالـ ،ـ وـكـانـتـ أـسـلـمـ عـلـىـ رـأـسـ الـمـقـاتـلـيـنـ ،ـ (ـ وـكـانـواـ أـوـلـاـ مـنـ اـنـتـهـيـ إـلـىـ حـصـنـ الصـعـبـ بـنـ مـعـاذـ ،ـ فـمـاـ غـابـتـ الـشـمـسـ مـنـذـ ذـلـكـ الـيـوـمـ حـتـىـ فـتـحـ اللـهـ تـعـالـيـ ،ـ وـمـاـ بـخـيـرـ حـصـنـ أـكـثـرـ طـعـامـاـ وـوـدـكـاـ مـنـهـ .ـ وـنـادـيـ مـنـادـيـ رـسـوـلـ اللهـ عـلـيـهـ :ـ كـلـواـ وـاعـلـفـواـ وـلـاـ تـحـمـلـواـ .ـ يـقـولـ :ـ لـاـ تـخـرـجـواـ مـنـ بـلـادـكـ )<sup>(٣)</sup> .

وـحـينـ قـدـمـواـ عـلـىـ الـأـكـلـ تـسـاـوـلـواـ التـمـرـ وـهـوـ أـخـضـرـ .ـ فـأـهـمـدـهـمـ الـحـمـىـ ،ـ (ـ فـشـكـوـاـ ذـلـكـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ عـلـيـهـ فـقـالـ :ـ « قـرـسـوـاـ الـمـاءـ فـيـ الشـنـانـ ،ـ إـنـذـاـ كـانـ بـيـنـ الـأـذـانـيـنـ فـأـحـدـرـوـاـ الـمـاءـ عـلـيـكـمـ حـدـرـاـ وـأـذـكـرـوـاـ اـسـمـ اللـهـ تـعـالـيـ »ـ فـفـعـلـوـاـ فـكـلـاـ نـشـطـوـاـ مـنـ عـقـالـ )<sup>(٤)</sup> .

وـكـانـتـ هـذـهـ الـمـعـجـزـةـ الثـالـثـةـ بـعـدـ الـفـتـحـ :

ثـمـ تـالـتـ الـحـصـونـ تـفـتـحـ .ـ وـالـخـيـرـاتـ تـغـمـرـ الـمـقـاتـلـيـنـ ،ـ وـاشـتـاقـوـاـ إـلـىـ الـلـحـمـ بـعـدـ التـمـرـ ،ـ وـكـانـ أـنـ وـجـدـواـ فـيـ بـعـضـ الـحـصـونـ حـمـيرـاـ ،ـ فـاخـتـارـوـاـ عـشـرـيـنـ مـنـهـاـ .ـ وـنـحـرـوـهـاـ ،ـ وـسـلـخـوـهـاـ ،ـ وـوـضـعـوـهـاـ فـيـ الـقـدـورـ ،ـ وـأـوـقـدـواـ تـحـتـهـاـ النـارـ ،ـ وـرـاحـتـ الـقـدـورـ تـغـلـىـ ،ـ وـبـطـونـهـمـ تـغـلـىـ مـعـهـاـ مـنـ الـجـمـوعـ .ـ وـحـينـ نـضـجـ الـلـحـمـ وـأـصـبـعـ جـاهـزاـ لـلـأـكـلـ ،ـ جـاءـ الـامـتـحـانـ الـرـيـانـيـ عـلـىـ لـسـانـ رـسـوـلـ اللهـ عـلـيـهـ :

(ـ فـأـمـرـ أـبـاـ طـلـحـةـ فـنـادـيـ :ـ « إـنـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ يـنـهـاـكـمـ عـنـ لـحـومـ الـحـمـرـ »ـ .ـ

(١) العلق : القليل من الشيء ، أو ما يتعمل به قبل الغداء .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ١٨٩ .

(٣) المصدر نفسه / ٥ / ١٨٨ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه / ٥ / ١٨٨ وما بعدها .

وقال أبو شعبة رضي الله عنه : غزوت مع رسول الله ﷺ خبير ، والناس جماع فأصبنا بها حمرأ إنسية فذبحناها ، فأخبار النبي ﷺ . فأمر عبد الرحمن بن عوف فنادي في الناس : « إن لحوم الحمر لا تحل لمن يشهد أنى رسول الله » الإمام أحمد والشيخان .

وفي رواية أخرى . جاء الأمر « أن اكفوا القدور ولا تأكلوا من لحوم الحمر شيئاً »<sup>(١)</sup> ولم يأت الأمر قبل النحر أو قبل السلخ أو قبل الطهوي ، إنما جاء الأمر الرباني بعد كل هذه الأمور في أعنوس امتحان للنفس البشرية ، والقدور تفور باللحم ، والجوع قد عضمهم بناه ، فما تردد منهم أحد ، ولم تقدر منهم مخالفه ، فاكفروا القدور ، ونفذوا الأمر بدون تردد .

ولعل هذا الامتحان كان ضرورياً للكشف من بقي في الصدف منافقاً خالصاً ، وثبت نقاط الصدف من هذه النماذج .

إنها تجربة عسيرة لا يحس بها إلا من يعاني أمثالها ، وقد اتجه الجميع للطعام ، ولا يعي أحد على أحد ، فكيف تكفا قدور اللحم . ولم يتناول مسلم ولو نهضة واحدة . ولكنه التنفيذ كاملاً من الجميع .

وإذا كانت عاطفة الجوع قوية ، فشهوة الفرج لا تقل قوة عن شهوة البطن ، وكما صدر الأمر النبوى بالامتناع عن أكل لحوم الحمر الأهلية ، صدر الأمر النبوى كذلك ، والمسلمون في جوع جنسى كبير بعد غياب عن أهلهم ، تجاوز الشهور واقترب من الشهرين ، وهذا هي النساء بين أيدييهن من السبايا .

وكان نكاح المتعة حلالاً . وما أن جاءوا يمارسوا الشهوة بعد هذا الغياب الطويل ، إلا وجاء تحريم المتعة ، وجاء النهى عن أن يسكنى أحد زرع غيره ، فكانت الحنة أشد وأقسى . وكان الالتزام كاملاً كذلك .

إنه جيل الحديبية ، خير أهل الأرض ، وإن الشمرة العظيمة للتربية القرآنية المتالية والتربية النبوية العظيمة .

وخير كلها وحصر حصونها تربية ، وغلى القدور باللحم وتحريمه والأمر بإهراقة تربية ، والنهى عن نكاح المتعة تربية ، والنهى عن إتيان الحبالى من النساء تربية ، والجوع والفاقة تربية ، وليس في هذا كله قتال أو نزال ، إنما هو لحم لهذه النفس أن تمضي مع

(١) المصدر نفسه / ٥ / ١٨٨ وما بعدها .

أهواها ، وأن تحمل مشاق الجهاد وتکاليفه ، والصبر على الجوع والعطش والجنس من أجل هدف أعلى وأرقى هو مرضاة الله سبحانه ، وطاعته فيما أمر ونهى .

٦ - وحين ت تعرض لليهود لا بد من التعرف على طبيعتهم وسجيتهم من خلال هذه المعركة الفاصلة ، التي حشدوا فيها أعظم قواتهم ، وخاضوا معارك ضارية طاحنة للحفاظ على وجودهم . وقد تسيطر علينا - مالم تعمق في فهمهم - صورتان متناقضتان :

**الصورة الأولى :** تمثل قوتهم ودقة تنظيمهم ، وإخلاصهم لبلدهم وأمتهم ، بحيث تضخم هذه الصورة فلا نرى حركة ولا سكتة في العالم إلا وهم مسيطرؤن عليها ، وأنهم فوق خلافاتهم وأهواهم ، وبذلك يصيّنا الشلل والعجز والخوف من مواجهتهم ، بحيث يظهرؤن أمامنا قدرًا لا يرد .

**الصورة الثانية :** وتمثل النظرة العجلی لهم ، فهم جبناء رعادي لا يقاتلون إلا من وراء جدر بأسهم بينهم شديد ، تستعبدهم شهوة الفرج وشهوة الحكم ، ضربت عليهم الذلة والمسكنة . مشردی الأرض ، حثالة البشر ، ونستمرىء هذه الصورة ونستهين بهم ، ونحسب أن الأمر لا يكلف إلا أن يكون دفة الحكم بيد الحركة الإسلامية ، فإذا بهم ينهارون في الضربة القاضية . وكلا الصورتين متناقضتان وخطئتان .

فاليهود منظمون ومخططون نعم .

وقد بز ذلك في حرب خير بشكل واضح ، حيث صمدوا للحصار النبوی قرابة شهرين حتى انهارت آخر حصونهم ، وقد رتبوا أمورهم أن يستمرؤا سنتين لوحوصروا دون تراجع . فالماء الجاری في أنهارهم ، والطعام والمؤونة ، والسلاح الوافر والعدة الثقيلة والتحالف القوى . والمدد العربي ، قد ظهر هذا كله في خير ، ويکفى أن نعلم أن هذه المعركة التي خاضها الرسول ﷺ هي أضخم المعارك قاطبة ، وأطولها وأشدّها .

فلا معنى للاستهانة باليهود . وتخفيطهم وتنظيمهم ، ودقّتهم وتعبّتهم ، وتحالفاتهم وخلفائهم ، كما نراهم اليوم في هذا العصر .

وحتى في القتال ، فقد بز رجالهم وصناديدهم ، وقتلوا من صناديد المسلمين وقتلوا ، ولم يكن قتلهم بالأمر السهل . ولا تقلب عليهم إلا أبطال صناديد يفوقونهم قوة وبطولة . فمرحب وياسر وعامر والحارث هم قادة كبار في تاريخ يهود ، وكذا يوشع وغزول وكان تحديهم ورجوزهم في الحرب لا يقل قوّة عن الرد الإسلامي :

قد علمت خير أى ياسر      شاكي السلاح بطل معاور  
 إذا الليوث أقبلت تبادر      وأحجمت عن صولة المساور  
 إن حسامي فيه موت حاضر      قد علمت خير أى مرحبا  
 شاكي السلاح بطل مجريب      إذا الليوث أقبلت تلهب  
 وأحجمت عن صولة المغلب      إن حمای للحمى لا يقرب  
 أطعن أحياناً وحينماً أضرب      شاكي السلاح بطل مغامر  
 قد علمت خير أى عامر      وبرز لهؤلاء الأبطال من يهود أبطال المهاجرين والأنصار . حتى أردوهم قتلى .  
 لكننا ومن خلال غزوة خير ، لاندع هذه الصورة تتضخم أكثر .  
 فهم على قوتهم حين يأتي جند العقيدة الحقة ، هم أضعف منهم وأقل .

وحين تأتى القيادة الحقة التى تخطط وتنظم ، فهى قادرة على ضرب مخططاتهم ،  
 وتهدم تنظيمهم ، وإتيان بنائهم من القواعد .

ففى خير التى برق فيها مرحبا وعامرا وياسرا والحارث ، برق فيها – كذلك – ذلك اليهودى الذى نزل من الحصن ، وأخذ الأمان من رسول الله ﷺ ، ودل على أنهارهم ققطعت مياهاها ، ووجد من اليهود أنفسهم من يتخلى عن يهوديته ، ويبيعها طمعاً فى أمان لنفسه أو زوجه . ووجد من اليهود أنفسهم من يستجيب للداعى الإسلام فيسلم ، وينضم للصف الإسلامى ، وإن كانوا أفراداً قلة .

ووجد من اليهود من أخذنه الرعب ، فسقط عنده الحصن دون قتال .  
 ووجد من يقاتل أشد قتال ، ويستعمل الرمى بالبobil والحجارة .

إنهم أمة كادت تستعصى على الهزيمة فى خير ، لو لا الثبات العظيم والصبر الفائق  
 الذى صبره المسلمون فى الحرب .

﴿إِن تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (١) .

## الأوسمة الخمسة :

٧ - وتبرز البطولات الإسلامية من الجيل الإسلامي الرائد ، فعلى ابن التاسعة يوم دخل الإسلام ، والزبير ابن الثانية عشرة يوم دخل الإسلام ، هما هما الآن يرزان لمواجهة عتاة اليهود وأبطالهم ويزدون على تحديهم كلاماً :

قد علمت خير أني زبار      قرم لقرم غير نكس فرار  
ابن حمزة المجد ابن الأخيار      ياسر لا يغرك جمع الكفار  
فجمعهم مثل السراب الخtar

ويفوز بأعلى قلادة نبوية ، بعد أن يقتل خصمه القرم العنيد ياسر « لكل نبى حوارى وحوارى الزبير » .

بينما يرز على رضى الله عنه الذى يعطى القلادة قبل خوض المعركة :  
رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » .

يعطاهما ، ولو كان أرمد ساعتين ، فليست بطولة على رضى الله عنه آتية . إنها بطولة متغللة في أعماقه وتركيبه ، تدخلت البركة النبوية لإبرازها وإجلالها يوم مسح على عينه ، فعاد صحيحاً معافى .

ولم تنشأ إرادة الله أن يسقط مرحب في دعوة من بركة النبي ﷺ ، إنما شاءت إرادة الله أن يرز القرم للقرم ، والجهاد البشري للجهاد البشري ، والبطولة للبطولة . فيقول على رضى الله عنه :

أنا الذى سمنتى أمى حيدرة      كليت أجام كريه المنظرة  
أوفيهم بالصاع كيل المسدرة

ويواجه مرحب بضربة تقد الحجر والمغفر ورأسه . وحين تتجمع قوى اليهود على ابن عم رسول الله ﷺ ت يريد أن تتأثر بشخصه من رسول الله عليه الصلاة والسلام ويطير الترس من يده ، فيترس بباب خير .

( فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ، فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل ،

حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد  
على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه )<sup>(١)</sup> .

ولا غرو في ذلك ، فقد يعجز على رضي الله عنه عن حمله بعد المعركة ، ولعل  
حمله كان كرامة من كراماته رضي الله عنه حين أصبح بين يدي سيف العدو ، وهو  
حبيب الله ورسوله ، فهل عجب أن يعطيه الله قوة حمل الباب ينزو عن نفسه به ،  
ويتحقق موعد الله به في فتح الحصن على يديه .

وكما شاءت إرادة الله أن تفتح الحصون كلها بالجهد البشري إلا حصناً واحداً قاتم  
اليهود فيه وهو حصن النزال بالشقا ، وتجمعت القوة اليهودية المحاذدة لله ورسوله فيه  
( فأغلقوه وامتنعوا فيه أشد الامتناع وزحف رسول الله عليه عليه إلينهم في أصحابه ، فقاتلتهم  
فكانوا أشد أهل الشق رميًّا لل المسلمين بالبلل والحجارة ورسول الله عليه معهم حتى أصابت  
البلل ثياب رسول الله عليه وعلقت به )<sup>(٢)</sup> .

أقول : شاءت إرادة الله تعالى أن يكون فتح هذا الحصن بغير القوة البشرية ،  
فالMuslimون في العراء يتلقون البلل والحجارة ، والMuslimون صابرون صامدون ، يزحفون بما  
يملكون من جهد بشري ، ويقاومون بما يملكون من جهد بشري ، وعندئذ يتدخل الأمر  
الرباني الذي تدخل في بدر :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكُنَ اللَّهُ رَمَى﴾ .

( فأخذ رسول الله عليه البلل فجمعها ، ثم أخذ لهم كفأً من حصباء فحصل به  
حصنهم فرجف الحصن بهم ، ثم ساخ في الأرض ، حتى جاء المسلمين فأخذوا أهله  
أخذًا )<sup>(٣)</sup> .

وهذا التقت الكراهة بالمعجزة بالجهد البشري ، وإرادة الله تعالى من فوق الجميع  
ترعى هذين الخصميين ، فتنتصر لجندها ورسلها والمؤمنين ، وتهزم اليهود الذين حادوا الله  
ورسوله .

ـ ٨ـ ولكن راعينا بطولتنا على والزبير فلا بد أن نقف عند استشهاد قرمين مؤمنين : عامر  
بن الأكوع والعبد الأسود .

أما عامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع وأخوه من الرضاعة ، فبطولاته لا تضارع ،

ـ ١ـ (٢، ٢، ١) سبل الهدى والرشاد / ٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣ .

تلك التي بربرت في غزوة الغابة ، وهو الذي أعطاه سلامة درقه ، وهو الذي قال عنه رسول الله ﷺ بلىسان سلامة : « رب ابغنى حبيباً أحب إلى من نفسي ». .

وهو الذي عبر عن مشاعر الحيل كله يوم مضوا إلى خير . وبحنين الإبل يوم راح يحدو لها .

قال سلامة : ( خرجنا مع النبي ﷺ إلى خير فسرنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر ابن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل يحدو بالقوم يقول :

اللهم لو لا أنت ما اهتدينا  
ولا تصدقا ولا صلينا  
فاغفر فداء لك ما انقينا  
وألقين سكينة علينا  
وثبت الأقدام إن لاقينا  
إنا إذا صبح بنا أثينا  
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : « من هذا السائق ؟ » قالوا : عامر بن الأكوع . قال : « يرحمه الله » ، وفي رواية : « غفر لك ربك » . قال : وما استغفر رسول الله لإنسان يخصه إلا استشهد . فقال عمر : وهو على جمل : وجبت يارسول الله ، لو لا أمتعتنا بعامر .

لقد كان يعد نفسه للشهادة في أي لحظة ، فقد لقبه قومه بها ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تكون شهادته بيده ، حيث يرتد السيف على ركبته وهو يبارز مرحباً ، فقطع أحلمه ويستشهد .

وانتشرت قالة في الجيش ، أن عامر بن الأكوع قد قتل نفسه وقد حبط عمله ، وحزن الناس ، وكان على رأس المفجوعين حبيبه سلامة ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، ليتلقى عن ابن عميه وأخيه وحبيبه عامر القلادة الثالثة الحالدة :

« إن له لأجران » . وجمع بين أصبعيه ثم قال :

« إنه لجاهد مجاهد ، قل أن مشى بها عربي مثله » .

وأي شهادة تكريم وتعظيم تفوق هذه الشهادة .

ولم تكن لتبلغنا هذه الشهادة ، ولو لم يكن ليتلقى هذه القلادة من نبيه لو لا حزن

– «ينفضان التراب عن وجهه ويقولان : ترب الله وجه من تربك . وقتل من قتلك » .

٩ – وكانت القلادة الخامسة للمرأة الغفارية ، نستمع لها دون أى تعليق :

(أيّت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار ، فقلنا : يا رسول الله ، أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا – وهو يسير إلى خير – فنداوى الجرحى ، ونعيّن المسلمين بما استطعنا فقال : « على بركة الله » . قالت : فخر جنا معه ، وكنت جارية حذنة ، فأرددني رسول الله ﷺ على حقيقة رحله ، فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح وأناخ وزلت عن حقيقة رحله ، وإذا بها دم مني ، وكانت أول حيضة حضرتها . قالت : فتقبضت إلى الناقة واستحببت ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم . قال : « مالك ؟ لعلك نفست ؟ » قالت : قلت : نعم ! قال : « فأصلحى من نفسك ، ثم خذى إماء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ، ثم اغسلى به ما أصاب الحقيقة من الدم ، ثم عودى لمركبك » .

قالت : فلما فتح رسول الله ﷺ خير ، رضخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطيتها ، وعلقها بيده في عنقى ، فوالله لا تفارقنى أبداً .

قالت : فكانت في عنقها حتى ماتت ، ثم أوصت أن تدفن معها ، وكانت لا تظهر من حيضة إلا جعلت في طهورها ملحاً . وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت<sup>(١)</sup> .

١٠ – ووصل إلى خير – بعد فتح الحديبية – أربعة وفود :

**الوفد الأول** : وفد مهاجرة الحبشة ، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه ، وذلك بأمر رسول الله ﷺ ، حيث تم التمكين بعد الحديبية ولم تعد المدينة عاصمة الإسلام على خطر ، فصار هذا الموقع الاحتياطي في الحبشة قليل الأهمية . ومن أجل ذلك استدعى عليه الصلاة والسلام جعفر وأصحابه ، وبقي النجاشي رضى الله عنه نفسه هو المسؤول عن هذا الموقع .

قال ابن إسحاق : (بعث ﷺ عمرو بن أمية الضميري إلى النجاشي فجعلهم في سفيتين ، وكان لوقع قدوم جعفر على النبي ﷺ من الفرح ما عادل فتح خير .

(١) السيرة النبوية لابن هشام / م ٣٤١ .

سلمة وقالت الناس أنه حبط عمله لما قتل نفسه بسيفه ، وفرق كبير بين قزمان الذي قتل نفسه يوم اشتدت جراحه فأخذ أسوأ شهادة : « إنه في النار » ، وبين من هو سيفه عليه بدل أن يهوى على مرحباً فقتل به ، فكان له أجران ، وقل أن مشى عربي يطولاته الفذة .

أما القلادة : الرابعة فكانت لشهيدنا الثاني : العبد الأسود .

لقد عرف في التاريخ باسم العبد الأسود . وعرف عنه أنه راعي غنم . فجاء الإسلام ليعرفه من أن يكون نكرة بين ملايين الرعاعة ، ليحتل أشرف الصفحات في التاريخ الإسلامي ، ولم يمض من عمره في الإسلام إلا ساعات أو سويعات لا تتحمل صلاة وقت من الأوقات . أسلم من هنا ويحمل مع إسلامه كما يقول :

يا رسول الله ، إنني رجل أسود اللون قبيح الوجه ، منتن الرياح . لا مال لي .

وأراد بهذه الموصفات كلها أن يدخل الجنة . وأراد أن يفتح حياته بهذا الدين برد الأمانات إلى أهلها : ( يا رسول الله ، إن هذه الغنم عندي أمانة فكيف بها ؟ ) .

فقال رسول الله ﷺ : « أخرجها من العسكر ، وارمها بالحصباء ، فإن الله عز وجل سيؤدي عنك أمانتك ». ففعل . فخرجت الغنم تشتد مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت كل شاة إلى أهلها . وكانت أول كراماته بعد لحظات من دخول هذا الدين .

واستعد ليبدأ صفحة جديدة من حياته سجل فيها هذه الكراهة ، ولم تمثله الشهادة ، فتقدم إلى الصف ، فقاتل ، فأصابه سهم فقتله .

ولم يصل لله تعالى سجدة قط .

وهل يدخل الجنة رجل لم يصل لله تعالى سجدة قط ؟ . نعم . العبد الأسود ، منتن الرياح ، قبيح الوجه ، الفقير الأدقع .

وكانت القلادة العظيمة التي نالها رضى الله عنه . من أعظم وأنفس القلائد :

- « لقد حسن إسلام صاحبكم . لقد دخلت عليه وإن عنده لزوجتين من الحور العين » .

- « لقد حسن الله وجهك ، وطيب ريحك ، وكثُر مالك ، لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ينزعان جبته يدخلان فيما بين جلده وجبته » .

روى البيهقي عن جابر رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ من خمير وقدم جعفر من الحبشة تلقاه رسول الله ﷺ ، فقبل جبهته ثم قال : « والله ما أدرى بأيهما أنا أفرح : بفتح خمير ، أم بقدوم جعفر » (١) .

**الوفد الثاني :** وفد الأشعريين ، الذي جاء ضمن وفد جعفر ، وهم أبو موسى الأشعري وأخوه ، وقد قدموا من اليمن .

( روى الشیخان ، والإسماعيلي ، وابن سعد ، وابن حبان ، وابن منده ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : لما بلغنا مخرج النبي ﷺ ، ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي .. في ثلاثة أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي – فألقتنا سفيتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده . فقال جعفر : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا . فأقموا معه حتى قدمنا جميعاً فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خمير ، فأسهم لنا ) (٢) .

**الوفد الثالث :** وفد الداريين : وإذا كان وفد الأشعريين من اليمن فإن وفد الداريين من الشام ، ( وهم بنو الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم ، الذين ساروا إلى رسول الله ﷺ من الشام . تميم بن أوس ، ونعميم بن أوس أخوه ، ويزيد بن قيس ، وعرفة بن مالك ، وأخوه مروان بن مالك ، وفاكه بن نعمان ، وجبلة بن مالك ، وأبو هند بن بر ، وأخوه الطيب بن بر ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وقد أوصى لهم رسول الله ﷺ من خمير ) (٣) .

**الوفد الرابع :** وهو أضخم الوفود .

( روى الإمام أحمد ، والبخاري في التاريخ ، وفي مجمع الرواية للهيثمي ، والطحاوي ، والحاكم ، والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قدمنا المدينة . ونحن ثمانون بيّنا من دوس ، فصلينا الصبح خلف سباع ابن عُرفة الغفارى ، فقرأ في الركعة الأولى بسورة مریم وفي الآخرة : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطْفَفِينَ ﴾ . فلما قرأ : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ قلت : تركت عمى بالسراة له مكيالان ، إذا اكتال اكتال بالأوفى . وإذا كمال كمال بالناقص . فلما فرغنا من صلاتنا قال قائل : رسول الله ﷺ

(١) سيل الهدى والرشاد / ٥ / ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه / ٥ / ٢١٠ .

(٣) السيرة النبوية لأبي هشام / م / ٢ / ٣٥٤ .

بخير ، وهو قادم عليكم . قلت : لا أسمع به في مكان إلا جئتني ، فزودنا سباع بن عُرفة ، وحملنا حتى جئنا بخير ، فنجد رسول الله ﷺ قد فتح النطة ، وهو محاصر الكتبية ، فأقمنا حتى فتح الله علينا )<sup>(١)</sup> .

وقد مثلت هذه الوفود أرجاء الجزيرة العربية ، وكانت توطئة ومقدمة لبقاء الوفود ، غير أن وفداً خامساً جاء إلى بخير ، كان قد حرّكه المصلحة ولم يحرّكه الإسلام . يحدّثنا عنه أبو شيبة المزني ، كما روى البيهقي عن شيوخه عنه . وكان قد أسلم وحسن إسلامه قال :

( لما نفرنا مع أهلنا إلى عبيدة بن حصن ، فرجع بنا عبيدة ، فلما كان دون بخير أعرسنا )<sup>(٢)</sup> من الليل ، ففرزعنا . فقال عبيدة : أبشرُوا ، إنِّي رأيت الليلة في النوم أنِّي أعطيت ذو الرقيبة - جبلاً بخير - قد وَالله أخذت برقبة محمد ﷺ . فلما أُنْ قدمنا بخير ، قدم عبيدة فوجدنا رسول الله ﷺ قد فتح بخير ، فقال عبيدة : يا محمد ، أعطني مما غنمْت من حلفائي ، فإني قد خرجت عنك وعن قاتلك . فقال له رسول الله ﷺ : « كذبت ولكنَّ الصياح الذي سمعت أنفك إلى أهلك » . قال : أخذني )<sup>(٣)</sup> يا محمد ؟ قال : « لك ذو الرقيبة » . قال عبيدة : وما ذو الرقيبة ؟ قال : « الجبل الذي رأيت في منامك أنك أخذته » .

فلما رجع إلى أهله جاء . الحارث بن عوف قال : ألم أقل لك إنك توضع في غير شيء ؟ والله ليظهرنَّ محمد على من بقي بين المشرق والمغارب . اليهود كانوا يخبروننا بذلك . أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول : إننا نحسد محمداً على النبوة ، حيث خرجت من بني هارون ، وهو نبي مرسلي ، واليهود لا تطاوعنِّي على هذا . ولنا منه ذبحان ، واحد بيشرب وآخر بخير . قال الحارث . قلت لسلام : يملك الأرض جميعاً ؟ قال : نعم ، والتوراة التي أنزلت على موسى ، وما أحب أن نعلم اليهود قولِي فيه )<sup>(٤)</sup> .

وكان عبيدة زعيم غطفان وحليف اليهود يطعم ويهدّد بالغزو ، وقد أراده عليه الصلاة والسلام ابتداءً على أن ( لا يعيّن لهم وسائلهم أن يخرجوها عنهم ولهم من خير كذا وكذا فأبوا عليه ، فلما أن فتح الله خير أتاهم من كان هناك من بني فراره . فقالوا : حظنا الذي وعدتنا . فقال رسول الله ﷺ : « لكم ذو الرقيبة » جبل من جبال بخير . فقالوا :

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢١٢ .

(٢) أعرسنا : أقمنا ليلة .

(٤) الغزارى للواقدى / ٢ / دلائل النبوة للبيهقي / ٤ / ٢٥٠ .

(٣) أحذاه : أعطاه .

إذن نقاتلك . فقال : « موعدكم جَنَّفَا »<sup>(١)</sup> . فلما أن سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ خرجوا هاربين .

لقد كانت غطfan حليفة قريش في الخندق ، وحليفة اليهود في خير ، وطبع زعيماً عينها مرتين ، مرة في تم المدينة ، ولم يعطه السعدان والمسلمون إلا السيف ، ومرة تم خير بعد خسارة حلفائه ، وعاد خالى الوفا ض ، أما شريكه في الزعامة . الحارث بن عوف فكان أبعد نظراً منه ، وقال له بعد الخندق كما قال له بعد خير :

والله لقد كانت أخبار يهود ، وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كتبهم أنه يبعث نبي من الحرم هذه صفتة .

وأدرك كما أدرك قادة قريش ذو النضر النافذ أن أمراً محمد يعلو ، حتى ليغادر عمرو ابن العاص إلى الجبعة بعد الخندق ، ويراهن حويطب بن عبد العزى على نصر محمد في خير . أما القادة الذين أكلتهم المغامم والمطامع فقد بقوا على موقفهم كمارأينا من عينة ، وعندما هدد بالمعركة ، وتحدد الموعد ولـي هارباً مع قومه .

## ١١ - آثار الفتح القريب :

- أ - رأينا من آثار الفتح القريب انهيار حلفاء يهود من غطfan .  
ب - ومن الآثار كذلك : مصالحة أهل فدك ، وهم يهود كذلك ولهم تجمعهم وقوتهم وشكيتهم .

( لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خير فدنا منها ، بعث محيصة بن مسعود الحارثي إلى فدك يدعوهـم إلى الإسلام . ويخوفـهم أن يغزوـهم كما غزاـ أهل خـير ، ويحلـ بـساحـتهم . قال مـحيصـة : فـجـتـهـم فأـقـمـتـعـنـهـمـ يومـينـ ، فـجـعـلـوـاـ يـتـرـبـصـونـ وـيـقـولـونـ بـالـنـطـاطـةـ : عـامـرـ وـيـاسـرـ وـالـحـارـثـ ، وـسـيـدـ الـيهـودـ مـرـحـبـ ، مـاـنـزـىـ مـحـمـداـ يـقـرـبـ حـراـمـ<sup>(٢)</sup> ، إـنـ بـهـاـ عـشـرـةـ آلـافـ مـقـاتـلـ . قال مـحيصـةـ : فـلـمـ رـأـيـتـ خـبـثـهـمـ أـرـدـتـ أـنـ أـرـجـعـ . فـقـالـوـاـ نـحـنـ نـرـسـلـ مـعـكـ رـجـالـاـ مـنـ يـأـخـذـونـ لـنـاـ الصـلـحـ ، وـيـظـنـوـنـ أـنـ يـهـودـ تـمـتنـعـ ، فـلـمـ يـزـالـواـ كـذـلـكـ حـتـىـ جاءـهـمـ قـتـلـ أـهـلـ حـصـنـ نـاعـمـ . وـأـهـلـ النـجـدةـ مـنـهـمـ ، فـقـتـ ذـلـكـ أـعـضـادـهـمـ قـدـمـ رـجـلـ مـنـ رـؤـسـائـهـمـ يـقـالـ لـهـ نـوـنـ بـنـ يـوـشـعـ فـيـ نـفـرـ مـنـ يـهـودـ ، فـصـالـحـوـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ عـلـىـ أـنـ يـحـقـنـ دـمـاءـهـمـ وـيـجـلـيـهـمـ ، وـيـخـلـوـاـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـأـمـوـالـ ... وـقـالـ لـهـمـ مـحـيـصـةـ : مـاـ لـكـمـ مـنـعـةـ وـلـاـ حـصـونـ

(١) جـنـفـاـ : مـاءـ مـنـ مـيـاهـ بـنـيـ فـزـارـةـ بـيـنـ خـيرـ وـفـدـكـ . (٢) حـراـمـ : أـرـضـ ذاتـ حـجـارـةـ ، وـحـراـمـ : جـمـعـ حـرـةـ .

ولا رجال ، ولو بعث إليكم رسول الله ﷺ مائة رجل لساقوكم إليه ، فوقع الصلح بينهم بأن لهم نصف الأرضين بتربيتها ، ولرسول الله ﷺ نصف الأرض وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك ولم يأتهم )<sup>(١)</sup> .

ج - وتمت ملاحقة التجمع اليهودي في جزيرة العرب إلى أقصاه ، وذلك في التوجّه نحو وادي القرى .

قال محمد بن عمر : ( لما انصرف رسول الله ﷺ عن خيبر ، وأتى الصهباء سلك على برمدة <sup>(٢)</sup> حتى انتهى إلى وادي القرى يريد من بها من يهود ... وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفهم ودفع لواه إلى سعد بن عبادة ورایة إلى الحباب بن المنذر ، ورایة إلى سهل بن حنيف ، ورایة إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله تعالى .

فبرز رجل منهم ، فبرز له الزبير بن العوام فقتله ، ثم برب آخر فبرز له الزبير فقتله ، ثم برب آخر ، فبرز له على بن أبي طالب فقتله ، ثم برب آخر ، فبرز له أبو دجانة فقتله ، حتى قتل منهم رسول الله ﷺ أحد عشر رجلاً كلما قُتل رجل دعا من بقي إلى الإسلام . ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس حتى أعطوا ما بأيديهم وفتحها رسول الله ﷺ عنوة ، وغنمته الله تعالى أموالهم ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كبيراً )<sup>(٣)</sup> .

د - قريش والفتح : وخير ما يقدم لنا الوضع النفسي عندهم وأثر الخبر عليهم رواية الحجاج بن علاط :

( روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه ، والبيهقي عن ابن إسحاق ، و محمد بن عمر عن شيوخه قالوا : كان الحجاج بن علاط السلمي خرج بغير في بعض غاراته ، فذكر له رسول الله ﷺ بخيبر فأسلم وحضر مع رسول الله ﷺ ، وكانت أم شيبة ابنة عمير بن هاشم أخت مصعب بن عمير العبدري امرأته . وكان الحجاج مكثراً له مال

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢١٤ وما بعدها .

(٢) برمدة : بين خيبر ووادي القرى .

(٣) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢٢٩ .

كثير ، وله معادن الذهب التي بأرضبني سليم . فقال : يا رسول الله ، ائذن لي فاذهب فاتخذ مالي عند امرأتي ، فإن علمت بإسلامي لم آخذ منه شيئاً . ومال لى متفرق في تجارة أهل مكة ، فأذن له رسول الله ﷺ . فقال : يا رسول الله ، إنه لا بد أن أقول قال : « قل ».

قال الحاجاج . فخرجت فلما انتهيت إلى الحرم ، هبطت فوجدهم بالشبة البيضاء ،<sup>(١)</sup> وإذا بها رجال من قريش يتسمعون الأخبار ، قد بلغهم أن رسول الله ﷺ قد سار إلى خير ، وعرفوا أنها قرية الحجاز آنفة ومنعة وريفاً ورجالاً وسلاماً ، فهم يتحسبون الأخبار ، مع ما كان بينهم من الرهان . فلما رأوني قالوا : الحاجاج بن علاط عنده والله الخبر - ولم يكونوا علمنا بإسلامي - يا حجاج ، إنه قد بلغنا أن القاطع<sup>(٢)</sup> قد سار إلى بلد يهود ، وريف الحجاز . فقلت : بلغنى أنه قد سار إليها وعندى من الخبر ما يسركم ، فالتبطوا<sup>(٣)</sup> بجانبي راحلتى يقولون : إيه يا حجاج ! قلت : لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتال غير أهل خيابر ، كانوا قد ساروا في العرب يجمعون له الجموع ، وجمعوا له عشرة آلاف فهزيمتهم لم يسمع بمثلها قط ، وأسر محمدًا وأسرا ، فقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فنقتله بين أظهرهم بين قتل هنا ومنهم ، ولهذا فإنهم يرجعون إليكم يطلبون الأمان من عشائرهم ، ويرجعون إلى ما كانوا عليه ، فلا تقبلوا منهم وقد صنعوا بكم ما صنعوا . قال : فصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، هذا محمد إنما تستظرون أن يُقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم . وقلت : أعينوني على جمع مالي على غرمائي فإني أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن تسقني التجار إلى ما هناك ، فقاموا فجمعوا إلى مالي كأحث جمع سمعت به ، وجئت صاحبتي فقلت لها : مالي ، لعل الحق بخير فأصيب من البيع قبل أن يسبقني التجار .

وفشاذلك بمكة ، وأظهر المشركون الفرح والسرور ، وانكسر من كان بمكة من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب ، فقد لا يستطيع أن يقوم فأشفق أن يدخل داره فيؤذى ، وعلم أنه يؤذى عند ذلك ، فأمر بباب داره أن يفتح وهو مستلق .. فأخذ ابنا له يقال له قثم ، واستلقى ووضعه على صدره وهو يقول :

(١) الشبة البيضاء : عقبة تهبط إلى فتح أسفل مكة .

(٢) القاطع : يعني به النبي ﷺ أي قاطع رحمه .

(٣) التبطوا : مشوا إلى حينها كمشي العرجاء لازدحامهم حولها .

فجعل يرتجز ويرفع صوته لثلا يشمت به الأعداء ، وحضر باب العباس بين مغيط ومحزون . وبين شامت . وبين مسلم ومسلمة مقهورين بظهور الكفر والبغى ، فلما رأى المسلمين العباس طيبة نفسه طابت أنفسهم ، واشتدت متهم<sup>(١)</sup> ، فدعا غلاماً يقال له أبو زبيبة .. فقال : اذهب إلى الحجاج فقل له : يقول لك العباس : الله أعلى وأجل من أن يكون الذى جئت به حقا . فقال له الحجاج : أقرأ على أبي الفضل السلام وقل له : ليخل لى بعض بيته : لآتىه بالخبر على ما يسره ، وأكتم عنى ، وأقبل أبو زبيبة يبشر العباس . فقال : أبشر أبا الفضل ، فوثب العباس فرحاً كأن لم يمسه شيء ، ودخل عليه أبو زبيبة ، واعتنه العباس وأعتقه ، وأخبره بالذى قاله .

قال العباس : لله على عتق عشر رقاب ، فلما كان ظهراً ، جاءه الحجاج ، فناشدته الله لتكتمن على ثلاثة أيام - ويقال يوماً وليلة - فوافقه العباس على ذلك . فقال : إنى أسلمت . ولى مال عند امرأتى ، ودين على الناس ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إلى ، وترك رسول الله ﷺ . وقد فتح خير . وجرت سهام الله تعالى ورسوله ﷺ فيها . وانتشر<sup>(٢)</sup> ما فيها ، وتركه عروساً بابنة مليكهم حتى بن أخطب وقتل ابن أبي الحقيق . فلما أمسى الحجاج من يومه خرج ، وطالت على العباس تلك الليلى ، فلما كان بعد ثلات ، والناس يموجون في شأن ما تبادعوا عليه ، عمد العباس إلى حلة فليس بها ، وتخلق<sup>(٣)</sup> بخلوق . وأخذ بيده قضيباً ، ثم أقبل يخطر<sup>(٤)</sup> حتى وقف على باب الحجاج بن علالط فقرعه ، فقالت زوجته : ألا تدخل يا أبا الفضل ؟ قال : فأين زوجك ؟ قالت : ذهب يوم كذا وكذا ، وقالت : لا يحزنك الله يا أبا الفضل ، لقد شق علينا الذي بلغك . قال : أجل لا يحزنني الله ، لم يكن بحمد الله إلا ما أحبتنا فتح الله على رسوله خير ، وجرت فيها سهام الله رسوله ، واصطفى رسول الله ﷺ صفة لنفسه ، فإن كان لك حاجة بزوجك فالحقى به ، قالت : أظنك والله صادقاً ، ثم ذهب حتى أتى مجلس قريش وهم يقولون إذا مرّ بهم : لا يصييك إلا خير يا أبا الفضل !! هذا والله التجلد لحر المصيبة ، قال : كلا والله الذى حلقت به . لم يصيئنى إلا خير بحمد الله ، أخبرنى الحجاج بن علالط أن خير فتحها الله على رسوله ، وجرى فيها سهام الله وسهام رسوله . فرد الله الكتابة التى كانت

(١) متهم : قوله      (٢) انتشر : استخرج .

(٣) الخلوق : الطبع .      (٤) يخطر : أقبل وأدبر كثيراً .

بالمسلمين على المشركين ، وخرج المسلمين من كان دخل في بيته مكتسباً حتى أتوا العباس فأخبرهم الخبر ، فسرّ المسلمين . وقال المشركون : يا عباد الله ، انفلت عدو الله – يعني الحجاج – أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم ينشروا أن جاءهم الخبر بذلك )<sup>(١)</sup> .

هـ – هذا وقع خير على مكة كما شاهدناه ، وقد امتد هذا الفتح عبر القرون ، وأنهى الوجود اليهودي في الأرض ، حتى كان جيلنا المتكود ، الذي لعب به كما لعب بقريش بعد حرب حزيران ، وقال له الحكماء ابتداء : لقد سقطت إسرائيل ، وأسقطت وسائل الإعلام العربية أكثر من سلاح الطيران اليهودي ، وزعموا أنهم رموا باليهود إلى البحر ، وإنكشف الغطاء بعد ستة أيام ، أن الحرب انتهت بعد ست ساعات من ابتدائها ، وأصبحت فلسطين محررة كلها بيد اليهود ، وهددوا القاهرة ودمشق وعمان . وقال مرحباً لليهود – موشى ديان – (هذه بخير) . عادوا وثاروا من جديد ، حين كان الإعلام العربي يتحدى الله ورسوله فيقول راجزهم :

ميراج طيارك هرب والبيع تتحدى القدر .

وحاولوا إطفاء نور الله بأفواهم فأطأفهم الله على يد اليهود ، الذين عانوا الذلة أربعة عشر قرناً ، لم يقم لهم قائمة في أرض الإسلام ، حتى هذا القرن ، حيث عادت خير من جديد والعرب يحدون الله ورسوله ، فأظهر الله عليهم من كتب عليهم الذلة . حتى تبدأ الجولة الجديدة ، ويعود جند محمد إلى الساحة ليثاروا في خير جديدة ، وقد بدلت ملامح هذا الجيل على الأفق .

وأول الغيث قطر ثم ينهر .

## ١٢ – ابتساز عمي يهود .

أما الحارث فكان أول زعمائهم قتلا ، حيث خرج بيارز فقتله على رضي الله عنه في ساحة المعركة ، أما الزعيم الثاني فكان حني بن أخطب الذي قتل صبراً لغدره ونكثه في بنى قريطة .

روى ابن سعد والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل خير صالحهم على أن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم ، وللنبي ﷺ البيضاء والصفراء والحلقة والسلام ويخرجون . وشرطوا للنبي ﷺ أن لا يكتموه شيئاً فإن فعلوا

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢١٦ .

فلا ذمه لهم . قال ابن عباس : فأتى بكنانة والربيع ، وكان كنانة زوج صفية والربيع أخوه أو ابن عمه فقال لهم رسول الله ﷺ : « أين آنستكمما التي كنتم تعبرونها أهل مكة ؟ » ف قالا : هربنا فلم تزل تضعننا أرض وترفعنا أخرى فذهب في نفقتنا كل شيء . فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بموضع الكنز فقال لكتنانة : « إنك لم تغتر بأمر السماء ». قال ابن عباس : فدعى رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار فقال : « اذهب إلى قراح كذا وكذا ، ثم ائت التخل فانظر نخلة عن يمينك أو عن يسارك مرفوعة . فأتنى بما فيها » ، فجاءه بالآنية والأموال فقومت بعشرة آلاف دينار ، فضرب أعناقهما وسيبي أهليهما بالنكت الذي نكثاه .

وكانت صفية بنت حبي و الزوج كنانة بن الحقيق ، قد اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه .

قال ابن إسحاق : ( ولما أعرض رسول الله ﷺ بخيير أو ببعض الطريق . وكانت التي جملتها لرسول الله ﷺ ومشطتها . وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان أم أنس ابن مالك فبات بها رسول الله ﷺ في قبة له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخوبني النجار متوضحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويظيف بالقبة حتى أصبح رسول الله ﷺ ، فلما رأى مكانه . قال : « مالك با أبيأيوب ؟ » . قال : يارسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حدثة عهد بकفر . فخفتها عليك ، فرعموا أن رسول الله ﷺ قال :

« اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني » )<sup>(١)</sup> .

وننتقل من أبي أيوب رضي الله عنه إلى صفية ، تحدثنا عن نفسها وزواجهما من رسول الله صلوات الله عليه :

( عن أبي حرمدة عن أخيه أم عبد الله ابنة أبي القين المزني قالت :

كنت ألف صفية من بين أزواج النبي ﷺ ، وكانت تحدثني عن قومها وما كانت تسمع منهم . قالت : خرجنا من المدينة حيث أجلانا رسول الله ﷺ فأقمنا بخيير ، فتروجني كنانة بن أبي الحقيق . فأعرس بي قبل قدوم رسول الله ﷺ بأيام ، وذبح جزاراً ودعا باليهود وحولني في حصنه بسلام ، فرأيت في النوم كأن قمراً أقبل من يشرب يسير

(١) السيرة النبوية لأبي هشام / ٢٤٠ .

حتى وقع في حجرى ، فذكرت ذلك لكتانة زوجى فلطم عينى فاخصرت ، فنظر إليها رسول الله ﷺ حين دخلت عليه فسألنى فأخبرته ، قالت : وجعلت اليهود ذارياها بالكتيبة . وجردوا حصن النطأة للمقاتلة ، فلما نزل رسول الله ﷺ خير وفتح حصون النطأة ، ودخل على كنانة فقال : قد فرغ محمد من النطأة . وليس لها هنا أحد يقاتل ، قد قتلت يهود حيث قُتل أهل النطأة ، وکذبنا العرب .

فحولى إلى حصن النزار بالشقة . قال : وهو أحسن مما عندنا ، فخرج حتى أدخلنى وابنة عمى ونسيات معنا ، فسار رسول الله ﷺ إلينا قبل الكتبية فسيّبت في النزار قبل أن ينتهي النبي ﷺ إلى الكتبية ، فأرسل بي إلى رحله ، ثم جاءنى حين أمسى فدعاني ، فجئت وأنا مقنعة حية ، فجلست بين يديه فقال : « إن أقمت على دينك لم أكرهك . وإن اخترت الله ورسوله فهو خير لك » .

قالت : اختارت الله ورسوله والإسلام ، فأعتقدتى رسول الله ﷺ وتزوجنى . وجعل عتقى مهرى ، فلما أراد أن يخرج إلى المدينة قال أصحابه : اليوم نعلم أزوحة أم سُرية ، فإن كانت امرأته فسيحجبها ، وإلا فهي سُرية ، فلما خرج أمر بستر فسُرت به فعرفت أنى زوجة ، ثم قدم إلى البعير ، وقدم فخذله لأضع رجلى عليها . فأعظمت ذلك ، ووضعت فخذلى على فخذله ثم ركبت ، وكنت ألقى من أزواجها يفخرن على ويقلن : يابنت اليهودى ، وكنت أرى رسول الله ﷺ يلطف بي ويكرمنى ، فدخل على يوماً وأنا أبكي فقال : « مالك ؟ » فقلت : أزواجك يفخرن على ويقلن يابنت اليهودى . قالت : فرأيت رسول الله ﷺ قد غضب ثم قال : « إذا قالوا لك أو فاخروك فقولي : أبي هارون وعمى موسى » <sup>(١)</sup> .

هذه الابنة الأولى التي انتهت أما للمؤمنين في الأرض ، واختارت الله والدار الآخرة ، واختارت رسول الله ﷺ ، رغم أنه قتل أباها وزوجها وعمها .

أما الابنة الثانية فهي زينب بنت الحارث التي قتل أبوها وزوجها وأعمامها ، فكان لها شأن آخر أرادت أن تنتقم من رسول الله ﷺ وتثار لقتلاها : الحارث وياسر وعامر ومرحب وسلم بن مكشم .

روى الشيبخان ، وأحمد ، وابن سعد ، والدارمى ، والبيهقي ، والطبرانى ، والحاكم ،

(١) المغازي للواقدى / ٦٤٧/٢ .

(أن رسول الله ﷺ لما افتح خير ، وقتل من قتل ، واطمأن الناس ، أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مكشم - وهي ابنة أخي مرحبا - لصفية امرأته شاة مصلية . وقد سألت أى عضو الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع . فما كثرت فيها من السم ، ثم سمعت سائر الشاة ، فدخل رسول الله ﷺ على صفية ومعه بشر بن البراء بن معروف ، فقدمت إليه الشاة المصلية ، فتناول رسول الله ﷺ الكتف ، وفي لفظ : الذراع ، وانتهش منها فلا يأكلها رسول الله ﷺ ، وتناول بشر بن البراء عظاما . فانتهش منه .

قال ابن إسحاق : فأما بشر فأساغها . وأما رسول الله ﷺ فاللهم فلنظها . وقال ابن شهاب : فلما استرط <sup>(١)</sup> رسول الله ﷺ لقمته استرط بشر بن البراء لقمته . فقال رسول الله ﷺ : «ارفعوا ما في أيديكم ، فإن كتف هذه الشاة تخبرني أنني نعيت فيها ». .

قال ابن شهاب : فقال بشر بن البراء : والذى أكل ركبتك لقد وجدت ذلك فى أكلتى التى أكلت فما معنى أن ألقطها إلا أنى أعظمت أن أغصنك طعامك . فلما سمعت ما فى فيك . لم أكن لأرغب بنفسي عن نفسك ورجوت ألا تكون استرطتها وفيها نعى ، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطليسان وماطله وجده حتى كان لا يتحول إلا أن حول . قال الزهرى قال جابر : واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله يومئذ ، حجمه أبو هند مولى بنى بياضة بالقرن والشفرة وبقى رسول الله بعد ثلاث سنين حتى كان وجده الذى توفي فيه .

قال : «ما زلت أجده من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خير عواداً حتى كان هذا وانقطع أبهري » فتوفى رسول الله ﷺ شهيداً (بلغظ ابن شهاب) .

وقال الصحابة السابق ذكرهم - رضي الله عنهم - : إن رسول الله ﷺ أرسل إلى اليهودية فقال : «أسممت هذه الشاة؟» فقلت : من أخبرك؟ قال : «أخبرتني هذه التى هي في يدى» وهى الذراع . قالت : نعم . قال : «ما حملتك على ما صنعت؟» قالت : بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحتنا منه ، وإن كان نبياً فسيخبر . فتجاوzen عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشر من أكلته التى أكل ولم يعاقبها .

وعن أبي سلمة ، عن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ لما مات بشر بن البراء أمر باليهودية فقتلت . رواه أبو داود <sup>(٢)</sup> .

(١) استرط : ازدرد .  
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ٢٠٨ وما بعدها .

وانتهت الابنة الثانية مقتولة بعد أن قتلت أحد الصحابة بالسم .

ولا شك أن هذه المحاولة من زينب بنت الحارث ، تنضم إلى المحاولات الأخرى التي يخطط فيها العدو للقضاء على رسول الله ﷺ ، وهي درس عام على أبناء الحركة الإسلامية أن يعوه ، ويأخذوا حذرهم دائمًا ، فليس لديهم العصمة التي أعطاها الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام :

﴿وَاللَّهُ يَعِظُكُمْ مِنَ النَّاسِ﴾ .

وهكذا شهدنا الفتح القريب بكل أبعاده النفسية والتربوية ، والدور الفاصل الذي مثله في إنهاء الوجود اليهودي في جزيرة العرب . ونقول بعد هذا كله : إنه ثمرة من ثمار الفتح المبين في الخديبية ، الذي حيد قريش . وهيا المجال ليتفرغ رسول الله ﷺ للقضاء على اليهود وإنهائهم من الساحة العربية كوجود عسكري ، وتحولهم إلى مزارعين لدى المسلمين .

يقول جل ثناؤه :

﴿وَمَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ تَأْخُذُونَهَا فَعُجِلُ لَكُمْ هَذِهِ وَكُفُّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ وَلَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِي كُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١) .

أما هذه المغانم بعد خير فكانت كما ذكر الشاهد الجديد من دوس أبو هريرة رضى الله عنه ، وهو الذي سيحضر معنا بشكل دائم بعد الآن ، فقد كان رأس وفد الدوسين الذين جاءوا في ثمانين بيتأ إلى المدينة ثم إلى خير .

( عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خير ، فلم يغنم ذهباً ولا فضة إلا الإبل والبقر والمتاع والحوائط . وفي رواية : إلا الأموال والثياب والمتاع . رواه مالك والشیخان . وأبو داود والنسائي ) (٢) .

( وقال ابن إسحاق : وكانت المقاس على أموال خير على الشق ونطة والكتيبة ، وكانت الشق ونطة في سهمان المسلمين . وكانت الكتبية خمس الله وسهم النبي ﷺ . وسهم ذوى القربي واليتامى والمساكين ، وطعم أزواج النبي ﷺ ، وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح منهم محصصة بن مسعود ، أعطاه رسول الله ﷺ )

(١) الفتح / ١٩ ، ٢٠ . (٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢٢٠ وما بعدها .

ثلاثين وسقاً<sup>(١)</sup> من شعير . وثلاثين وسقاً من تمر . وقسمت خير على أهل الحديبية من شهد خير ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقسم له رسول الله عليه كسم من حضرها و كان واديها . وادي السريرة ، ووادي خاص هما اللذان قسمت عليهما خير .

و كانت نصبة والشق ثمانية عشر سهماً ، نطأة من ذلك خمسة أسمهم والشق ثلاثة عشر سهماً ، وقسمت الشق والنطأة على ألف سهم وثمانمائة سهم ، وكانت عدة الذين قسمت عليهم خير من أصحاب رسول الله عليه ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم ، ل الرجال أربع عشرة مائة والخيل مائتا فرس ، فكان لكل فرس سهمنان ولفارسه سهم ، وكان لكل راجل سهم ، وكان لكل سهم رأس جمع إليه مائة رجل ، فكان ثمانية عشر سهماً جمع<sup>(٢)</sup> .

( ما ذكره ابن إسحاق من أن المقاديم كانت على الشق والنطأة والكتيبة أشبه ، فإن هذه الموضع الثالثة مفتوحة بالسيف عنوة من غير صلح ، وأما الوطبع والسلام فقد يكون هو الذى اصطفاه رسول الله عليه لما ينوب المسلمين ، ويترجع حينئذ قول موسى بن عقبة ومن قال بقوله : إن بعض خير كان صلحاً ، ويكون أحد الأشعرين ومن ذكر معهم من ذلك ، ويكون مشاورة رسول الله عليه أهل الحديبية فى إعطائهم ليس استنزالأ لهم عن شيء من حقوقهم ، وإنما هي المشورة العامة ( وشاورهم فى الأمر )<sup>(٣)</sup> .

( قال ابن إسحاق : وشهد خير مع رسول الله عليه من نساء المسلمين ، فرضخ لهن من الفتيء ولم يضرب لهن بسهم)<sup>(٤)</sup> .

( وخرج مع رسول الله عليه من المدينة عشرون امرأة ، أم سلمة زوجته ، وصفية بنت عبد المطلب . وأم أيمن ، وسلمى امرأة أبي رافع مولاية النبي عليه ، وأمرأة عاصم بن عدى ولدت سهلة بنت عاصم بخير ، وأم عمارة نسبية بنت كعب ، وأم منيع وهى أم شبات ، وكعبية بنت سعد الإسلامية ، وأم متاع الإسلامية . وأم سليم بنت ملحان . وأم الضحاك بنت مسعود الحارثية ، وهند بنت عمرو بن حرام ، وأم العلاء الأنصارية ، وأم عامر الأشهلية . وأم عطية الأنصارية . وأم سليط)<sup>(٥)</sup> .

(١) الوَسْقُ : ستون صاعاً أو حمل بعير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢٤٩ / ٣٤٩ وما بعدها .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ٢٢٢ .

(٤) السيرة لابن هشام / ٢ / ٣٤١ .

(٥) المغازى للراقدى / ٢ / ٦٨٥ .

ومن هذه المغامم الضخمة ، وبعد هذا التحول الكبير في الوضع المادى لل المسلمين ،  
أمكّن إعادة أموال الأنصار إليهم وهي التي شاركهم المهاجرون فيها خلال هذه السنوات  
الست :

روى الشیخان ، والحافظ ، ويعقوب بن سفيان عن أنس رضي الله عنه قال :

( لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء ، وكان الأنصار  
أهل أرض وعقار ، ففاسدتهم الأنصار على أن أعطوهن أنصاف ثمار أموالهم كل عام  
ويكتفون بالعمل والمؤونة . وكانت أم أنس أعطت رسول الله ﷺ أذاقاً لها ، فأعطاهن  
رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من أهل خيبر ،  
وانصرف إلى المدينة ، رد المهاجرون إلى الأنصار من أ时效هم التي كانوا قد منحوهن من  
ثمارهم ، ورد رسول الله ﷺ إلى أمي أذاقها ) <sup>(١)</sup> .

ولانتسى أن هذه المحاولة في رد المئاج كانت عقب بني النضير ، لكن الأنصار  
رفضوا ذلك رغم توزيع الغنائم على المهاجرين ، غير أنها كانت لا تذكر أمام مغامم خيبر .  
**﴿ وَعَدْكُمُ اللَّهُ مَغَامِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَمَجِلُ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ،  
وَلَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ .**

يقول ابن جرير رحمه الله : ( وأواني الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله  
مجاهد ، وهو أن الذى أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغامم الكثيرة من  
مغامم خيبر ، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الخديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من  
بيعتهم رسول الله ﷺ بالخديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها .

وأما قوله : **﴿ وَعَدْكُمُ اللَّهُ مَغَامِمَ كَثِيرَةً ﴾** فهي سائر المغامم التي غنمها الله بعد  
خيبر كغنائم هوازن وغضفان وفارس والروم . وإنما قلنا ذلك كذلك دون غنائم خيبر ،  
لأن الله أخبر أنه عجل لهم هذه التي أثابهم من مسيرهم الذي ساروه مع رسول الله ﷺ  
إلى مكة .

ولما علم من صحة نيتها في قتال أهلها إذ بايعوا رسول الله ﷺ على أن لا يفروا عنه  
ولا شك أن التي عجلت لهم غير التي لم تعجل لهم ) <sup>(٢)</sup> .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٢٢٢ .

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للطبرى / ١١ / ٢٧ / ٥٦ .

( وقال ابن زيد في قوله ﴿ وعدكم الله مفاصم كثيرة تأخذونها ﴾ قال : يوم خير . قال : كان أبي يقول ذلك . و قوله ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ اختلف أهل التأويل في التي عجلت لهم ، فقال جماعة : غنائم خير ، والمؤخرة : سائر فتوح المسلمين بعد ذلك إلى قيام الساعة ) <sup>(١)</sup> .

### ﴿ وَكَفَ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ :

( أخرج ابن مardonie عن ابن عباس .. ﴿ وَكَفَ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ يعني أهل مكة ، أن يستحلوا ما حرم الله أو يُستحل بكم وأنتم حرم ) <sup>(٢)</sup> .

( وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن قتادة : ﴿ فَعَجَلَ لَكُمْ هَذَا ﴾ قال : خير ، ﴿ وَكَفَ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ قال : عن بيضتهم وعن عيالهم بالمدينة حين ساروا عن المدينة إلى خير ) <sup>(٣)</sup> .

( وأخرج ابن المنذر عن جريج في قوله : ﴿ وَكَفَ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ قال : الخليفة أسد وغطفان عليهم عيينة بن حصن ، معه مالك بن عوف النصرى أبو النضر ، وأهل خير على بئر معونة ، فألقى الله في قلوبهم الرعب فانهزموا ولم يلقوا النبي ﷺ ) <sup>(٤)</sup> .

### ﴿ وَلَتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ :

و كانت آية للمؤمنين .

فحال صلح الحديبية بين إمداد قريش خير في حربها ضد رسول الله ﷺ .

وحال الرعب دون مشاركة غطفان وعلى رأسها عيينة بن حصن وأسد وعلى رأسها مالك بن عوف النصرى .

وحال الله بين قلوب العرب المجاورة وغزو المدينة بذراريها ، وقد أقام الجيش الإسلامي في خير قرابة الشهرين ، وفي بعض الروايات أن الإقامة بلغت ستة أشهر .

( والثاني عشر : اختلف في مدة إقامته ﷺ بأرض خير ، فروى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أقام بخير ستة أشهر يجمع بين الصلاتين ، وروى البيهقي أربعين يوماً وسنته ضعيف ) <sup>(٥)</sup> .

(١) المصدر نفسه / ٥٦ . (٢، ٣، ٤) الدر المنشور / ٧ / ٥٢٤ و ما بعدها .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ٢٤٠ .

ويذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ أقام الرياعين بعد عودته من خيبر ، فهذا يعني أن خيبر استغرقت محرم وصفر وبعضاً من ذى الحجة .

﴿وَيَهْدِكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيمًا﴾ :

(أى يزيدكم هدى ، أو يبتكم على هدايته )<sup>(١)</sup> .

ويقول : ويصدقكم أية المؤمنون طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه فيبينه لكم ، وهو أن تثروا في أموركم كلها بربكم فستوكوا عليه في جميعها لحيوطكم حياطته إليكم في مسیركم إلى مكة مع رسول الله ﷺ في أنفسكم وأهليكم وأموالكم ، فقد رأيت أثر فعل الله بكم إذ وثقتم في مسیركم هذا )<sup>(٢)</sup> .

يقول جل ثناؤه :

﴿وَآخَرِي لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحْاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . وَلَوْ قَاتَلُوكُمُ الظَّاهِرُونَ كُفَّارُ الْأَدْبَارِ ثُمَّ لَا يَحْدُونَ وَلِيَا وَلَا نَصِيرَا . سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِ وَلِنْ تَجِدُ لَسْنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا . وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِطْنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . هُمُ الظَّاهِرُونَ وَصَدُوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ، والهداى معموكفاً أن يبلغ محله ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلمواهم أن تظروهم فتصيبكم منهم معرة بغیر علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا العذابا الذين كفروا منهم عذاباً أليما . إذ جعل الدين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها و كان الله بكل شيء عليما )<sup>(٣)</sup> .

﴿وَآخَرِي لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحْاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ :

( قوله تعالى : ﴿وَآخَرِي﴾ معطوفة على ﴿هذا﴾ أى فعجل لكم هذه المغامم و مغامم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحْاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال ابن عباس : هي الفتوح التي فتحت على المسلمين كأرض فارس والروم . وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى ، وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وابن زيد وابن إسحاق : هي خيبر ، وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها ،

(١) القرطبي / ٨ / ١٦ - ٢٧ . (٢) الطبرى / ١١ / ٢٧ - ٥٧ . (٣) الفتح / ٢١ / ٢٦ - ٢٧ .

وعن الحسن أيضاً وقتادة : هو فتح مكة ، وقال عكرمة : حنين ؛ لأنه قال : ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات إدراك المطلوب في الحال كما كان في مكة ، قال القشيري . وقال مجاهد : هي ما يكون إلى يوم القيمة )<sup>(١)</sup> .

( وهذا القول الذي قاله قادة أئبته بما دل عليه ظاهر التنزيل ، وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محبط بقرية لم يقدروا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم يقدروا على هذه المدينة إلا أن يكونوا قد راموها فتغدرت عليهم . فأما وهم لم يرومواها فتغدر عليهم فلا يقال أنهم لم يقدروا عليها . فإذا كان كذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه خبير لحرب ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية . علم أن المعنى بقوله : ﴿وَآخْرِي لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وأنها هي التي عالجها ورامها فتغدرت فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر الله – تعالى ذكره – نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أحاط بها وأهلها وأنه فاتحها عليهم وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء ذا قُدرة لا يتغدر عليه شيء شاءه )<sup>(٢)</sup> .

( تختلف الروايات في هذه الأخرى ، أهي فتح مكة ؟ أم فتح خير ؟ أم هي فتوح مملكتى كسرى وقيصر ؟ أم هي فتوح المسلمين التي تلت هذه الواقعة جميعاً ؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة بعد صلح الحديبية . وبسبب من هذا الصلح الذي لم يدم سوى عامين . ثم نقضه المشركون . ففتح الله مكة للMuslimين بلا قتال تقرباً ، وهي التي استعصت عليهم من قبل وهاجمتهم في عقر دارهم ، وردتهم عام الحديبية . ثم أحاط الله بها . وسلمها بلا قتال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ، فهذه بشري ملفوقة في هذا الموضوع لم يحددها ؛ لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غير الله . أشار إليها هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستئثار .

وبناءً على هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة ، والغنيمة التي أحاط الله بها ، وهم في انتظارها ، يقرر لهم أنهم منصرون . وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف ، أو لأن المشركين أقواء ، ولكنه تم لحكمة يريدها ، ولو قاتلهم الدين كفروا والهزمو ، فتلك سنة الله حি�ثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة :

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / م / ٨ / ١٦ - ج / ٢٧٩ .

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للطبرى / ١١ / ٥٨ - ٢٦ .

﴿ وَلَوْ قَاتَلُوكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسننه الكونية الثابتة التي لا تتبدل ، فآية سكينة ؟ وأية ثقة ؟ وأى تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم ، وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سنن الله الحجازية في هذا الوجود .

وهي سنة دائمة لا تتبدل ، ولكنها قد تتأخر إلى أجل ، ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم . واستقامتهم الاستقامة التي يُعرفها الله لهم ، أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ، لتكون له قيمة وأثره . أو لغير هذا أو ذلك مما يعلمه الله ، ولكن السنة لا تختلف : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾<sup>(١)</sup> .

وعلى طريقة المنهج القرآني في التربية . وحيث أن الهدف من تنزيل هذه الآيات هو معالجة النفوس والقلوب ، عاد القرآن ثانية ليتحدث عن سبب تأخر فتح مكة . ويتحدث عن الصلح الذي تم .

فإن كان الله قد وعدهم المغانم الكثيرة يأخذونها ، وهم عائدون من الحديبية . ووعدهم فتحاً قريباً غير فتح مكة ، فلم حيل بينهم وبين فتح مكة . وقد أريها رسول الله ﷺ ، وهم قد بايعوا بيعة الرضوان ، وكان بالإمكان تحقيق نصر حاسم ؟؟

هذه التساؤلات لا تزال تدور في خلد هذا الجيل الخالد .. ولا تزال القلوب معلقة بمكة التي يحنون إليها حين الإبل إلى أولادها ، ولا تزال آثار الصلح وندوبيه قائمة على تقسيم وجوبهم . لقد اقتنعوا بدون شك أن صلح الحديبية فتح مبين ، لكنهم اقتنعوا افتتاح الإذعان والتسليم لله دون أن يدركون باليقين والأمر المشاهد حكمة تأخر هذا الفتح ، تماماً كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ قَالَ أَوْلَمْ تَؤْمِنُنَّ بِالِّيَّ وَلَكُنْ لِيَطْمَئِنُّ قَلْبِي ﴾ .

وجاءت الآيات الأولى من السورة . تتحدث عن الفتح المبين بالحدبية ، ثم انتقلت لتقريع الخلفين من الأعراب ، ثم عادت لشئ على المباعين تحت الشجرة ، وتعطيهم وسام الرضوان من الله تعالى ، ثم تقدم لهم البشائر عن المغانم الكثيرة والفتح القريب ، لكن ماذا عن فتح مكة ؟ .

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٦ / ٣٢٢٧ .

إنه تساؤل بقى يتردد في النفس . ويحول الأدب الذي أدبهم عليه نبيهم ﷺ أن يسألوا عنه ، ولكن عالم خفايا القلوب ، وخفقات النفوس جل ثناوه يريد أن يسكب في قلوبهم الأمان والطمأنينة ، فعاد بهم إلى الحديث المستفيض عن فتح مكة ليقول لهم : إن هذه التي لم تقدروا عليها قد أحاط الله تعالى بها فهى مفتوحة ، وهى لابد منتهية ؛ لأن سنة الله تعالى في النصر لا تختلف إلا لحكمة .

ويثور التساؤل من جديد في النفس : وما هي الحكمة ؟

لقد ذكر لهم في أحد أن فوات النصر كان لخلل في بنائهم الداخلي ، فالله تعالى هو الذي صرفهم عن المشركين بعد أن حققوا النصر ابتداء وأحرزوه .

﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم يا ذئنه حتى إذا فشلتكم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تخبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾<sup>(١)</sup> .

وقال لهم : ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أني هذا قلل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قادر﴾<sup>(٢)</sup> .

ترى هل كان الحيلولة دون النصر في هذا الجيل عقوبة كذلك التي في أحد ؟ وهل فات الفتح لخلل في البناء الداخلي كما كان في أحد ؟ فهم لا يزالون بحاجة وتطلع شديدين يتوقفون إلى معرفة السبب في تأخر الفتح ، فجاء القرآن بلسمًا لقلوبهم ليؤكده لهم أن تأخر الفتح لم يكن لعوامل داخلية . ولا لخلل في البناء الداخلي ، إنما كان لعوامل خارجية تماماً عنهم . والتاخر لصالحهم ، ولم تكن الإرادة الربانية في قبول الهدنة والصلح دنية في الدين ، ولا ذلة للمشركين كما توهموا ، إنما كان لحكمة قصرت عنها عقول البشر ، وأحاط الله تعالى بها علمًا .

جاء الجواب :

﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوك عن المسجد الحرام والهوى معكوفاً أن يبلغ محله ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن

(١)آل عمران : ١٥٣ .

(٢)آل عمران : ١٦٥ .

تطوّهم . فتُصيّبكم منهن معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا  
لعذبنا الذين كفروا عذاباً أليماً ۝ .

وإذا كانت الآيات السابقة تحتمل التأويل عن مكة أو خير أو حين أو بقية الفتوح إلى  
يوم القيمة فإن الحديث هنا عن كف اليد في بطن مكة ، ولا مجال للخلاف في ذلك .  
وتأتي هذه الشهادة للMuslimين أنهم كانوا ظافرين ، مع أنهم لم يخوضوا معركة : ۝ من  
بعد أن أظفركم عليهم ۝ ، فهل كان الظفر ياترى بتلك البيعة الحالدة التي علم الله من  
قلوب أصحابها صدقهم . وأن هذه الجموعة المؤمنة الصادقة قادرة يقينا على فتح مكة ،  
فكأن الظفر قد وقع وتم ؟ أيمكن أن يكون ذلك ، أو في القبض على تلك الجموعات  
ال福德ائية التي أرسلت لتثبت الرعب في الجو الإسلامي ، وتثير القلاقل فيه فسقطت كلها  
أسرى بيد المسلمين ؟ ! يمكن أن يكون ذلك .

(أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ،  
والنسائى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال :  
لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة  
فى السلاح من قبل جبل التنعيم ، يريدون عزة رسول الله ﷺ ، فدعوا عليهم . فأخذوا ،  
فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية : ۝ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بيطن مكة  
من بعد أن أظفركم عليهم ۝ ۱) .

(وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة : ۝ وهو الذى كف أيديهم عنكم  
وأيديكم عنهم بيطن مكة ۝ قال : بطن مكة الحديبية ، ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب  
رسول الله ﷺ يقال له زنيم اطلع الشية زمان الحديبية ، فرمى المشركون فقتلوه ، فبعث  
رسول الله ﷺ خيلاً فأتوا باشئ عشر فارساً ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « هل لكم عهد  
أو ذمة ؟ ». قالوا : لا ، فأرسلهم ، فأنزل الله في ذلك : ۝ وهو الذى كف أيديهم  
عنكم ۝ الآية ۲) .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى  
الدلائل ، عن سلمة بن الأكوع قال :

(قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة ، ثم إن المشركين من أهل

١) الدر المثور / ٧ / ٥٢٦ .

مكة راسلنا في الصلح ، فلما اصطلحنا واحتلط ببعضنا ببعض ، أتت شجرة فاضطجعت في ظلها ، فأثانى أربعة من مشركي أهل مكة ، فجعلوا يقعنون في رسول الله ﷺ فامضتهم<sup>(١)</sup> . وتحولت إلى شجرة أخرى . فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، في بينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي : ياللهما جررين ، قتل ابن زنيم ، فاختبرت سيفي . فاشتبدلت على أولئك الأربعة وهم رقود . فأخذت سلاحهم وجعلته في يدي ، ثم قلت : والذى أكرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه ، ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ، وجاء عمى برجل من الع部落ات يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال : دعوه يكون له بدء الفجور و منهاه . فعفا عنهم رسول الله . وأنزل الله : « وهو الذى كفأيديهم عنكم وأيدىكم عنهم بطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم »<sup>(٢)</sup> .

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل وابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن . وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه . فقال رسول الله ﷺ لعلى : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم . فأخذ سهيل بيده قال : ما نعرف الرحمن ولا الرحيم اكتب في قضيتنا ما نعرف . قال : اكتب باسمك اللهم . وكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة فامسك سهيل بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله . اكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال : اكتب : هذا ما صالح محمد بن عبد الله . فيينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثة شباباً عليهم السلاح فثاروا في وجودنا . فدعوا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بسمعهم . ولفظ الحاكم : بأبصارهم . فقدمنا إليهم فأخذناهم . فقال لهم رسول الله ﷺ : هل جئت في عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أماناً . فقالوا : لا . فخلى سبيلهم فأنزل الله .

« وهو الذى كفأيديهم عنكم »<sup>(٣)</sup> .

ولا شك أن كفأيدي المشركين عن المسلمين ، منذ أن أطبقوا سراح عثمان بن عفان والاثني عشر من المسلمين الذين راحوا يزورون أهليهم ، وكما قال محمد بن عمر :

(١) فامضتهم : أي فعلت ما يشن عليهم ويعصبهم .  
(٢) الدر المنشور / ٧ / ٥٣٢ وما بعدها .

(فَلَمَّا جَاءَ سَهْلَ بْنَ عُمَرَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « سَهْلٌ أَمْ رَهْمٌ ». فَقَالَ :  
مِنْ قاتلَكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَأْيِنَا وَلَا ذُو الْأَحْلَامِ مِنَا ، بَلْ كَانَ لَهُ كَارْهِينَ حِينَ  
بَلَغَنَا وَلَمْ نَعْلَمْ بِهِ وَكَانَ مِنْ سَفَهَائِنَا ! فَابْعَثْتُ إِلَيْنَا بِأَصْحَابِنَا الَّذِينَ أَسْرَتْ أُولَى مَرَةٍ وَالَّذِينَ  
أَسْرَتْ آخِرَ مَرَةٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« إِنِّي غَيْرُ مَرْسُلِهِمْ حَتَّى تَرْسِلُوهُمْ أَصْحَابِيِّ . قَالَ سَهْلٌ : أَنْصَفْتَنَا . فَبَعْثَتْ سَهْلَ بْنَ  
عُمَرَ وَحْوَيْطَبَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَكْرُزَ بْنَ حَفْصٍ إِلَى قَرِيشَ الشَّتِيمِ بْنَ عَبْدِ مَنَافِ التَّيْمِيِّ :  
إِنَّكُمْ حَبْسَتُمْ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ ، لَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَقَدْ كَانَ لَذَلِكَ  
كَارْهِينَ ! وَقَدْ أَبْيَ مُحَمَّدٌ أَنْ يُرْسِلَ مِنْ أَسْرَرِ مِنْ أَصْحَابِكُمْ حَتَّى تَرْسِلُوهُمْ أَصْحَابِهِ ، وَقَدْ  
أَنْصَفْنَا ، وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا يَطْلُقُ لَكُمْ أَصْحَابِكُمْ ، فَبَعْثَوْا إِلَيْهِ بْنَ كَانَ عَنْهُمْ ، وَكَانُوا  
أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا ، وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُمُ الَّذِينَ أَسْرَوْا أُولَى مَرَةٍ وَآخِرَ مَرَةٍ <sup>(١)</sup> .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ :

يَقُولُ - تَعَالَى ذَكْرُهُ - وَكَانَ اللَّهُ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَعْمَالِهِمْ بَصِيرًا لَا يَخْفِي عَلَيْهِ مِنْهَا  
شَيْءٌ .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَلْعُغَ مَحْلَهُ  
وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٍ أَنْ تَطْوِيْهُمْ فَتُصَبِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلُ  
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ لَوْ تَرْزِيلُوا الْعَذَابَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ :  
أَمَا الصَّدُّ فَقَدْ سَبَقَ أَنْ تَعْرَضَنَا لِطَرْفِهِ ، وَسَنَعْرَضُهُ هُنَا بِالتَّفَصِيلِ .

(أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَاقَ ، وَأَحْمَدَ ، وَعَبْدُ بْنِ حَمِيدٍ ، وَالْبَخَارِيُّ ، وَأَبُو دَاوُدَ ،  
وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنِ جَرِيرٍ ، وَابْنِ الْمَنْذَرِ ، عَنِ الْمُسْوَرِ بْنِ مُخْرَمَةَ وَمُرْوَانَ بْنِ الْحَكْمِ قَالَا :  
خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْحَدِيبَيَّةِ فِي بَضْعِ عَشَرَةِ مَائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا  
بِذِي الْحَلِيفَةِ قَلَّ دِرْسُوْلُ اللَّهِ ﷺ الْهُدَىٰ ، وَأَشْعَرَهُ ، وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ ، وَبَعْثَتْ بَيْنَ يَدِيهِ عَيْنَاهُ  
مِنْ خَزَاعَةٍ يَخْبِرُهُ عنْ قَرِيشٍ ، وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ قَرِيبًا مِنْ  
عَسْفَانَ أَتَاهُ عَيْنَهُ الْخَزَاعِيُّ فَقَالَ : إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لَوْيَ وَعَامِرَ بْنَ لَوْيَ قَدْ جَمَعَوْا لَكَ  
الْأَحَبِيْشَ ، وَجَمَعُوا لَكَ جَمِيعًا وَهُمْ مُقاْتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ  
ﷺ : أَشِيرُوا عَلَىِّ : أَتَرُونَ أَنْ نُهْيِلَ إِلَى ذَرَارَى هُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْانُوهُمْ فَنَصَبُبُهُمْ ، فَإِنَّ

(١) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٠٤ .

قدعوا قعدوا موتورين مهزونين ، وإن لحوا تكن عنقاً قطعها الله . أم ترون أن نؤم البت  
 فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ » فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم . يارسول الله ، إنما جئنا  
 معتمرين ولم نجئ لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البت قاتلناه . فقال النبي ﷺ :  
 « فروحوا إذن » فراحوا ، حتى إذا كانوا بعض الطريق قال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد  
 بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فخذلوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هو  
 بقرة <sup>(١)</sup> الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ . حتى إذا كان بالثنية التي  
 يهبط عليهم منها بركت به راحلته . فقال النبي ﷺ : « جل جل ». فأحلت . قاتلوا :  
 حلات القصواء . فقال النبي ﷺ : « ما حلات القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها  
 حابس الفيل ». ثم قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها  
 حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ». ثم زجرها فوثبت فعدل بهم حتى نزل بأقصى الحديبية  
 على ثمد <sup>(٢)</sup> . قليل الماء إنما يتبرضه <sup>(٣)</sup> الناس تبرضاً ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكروا  
 إلى رسول الله ﷺ العطش ، فنزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه . قال : فوالله  
 ما زال يجيئ لهم بالری حتى صدر واعنه ، فيبينما هم كذلك إذ جاء بدبل بن ورقاء  
 الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة . وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة .  
 فقال : إنني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ  
 المطافيل . وهم مقاتلوك وصادوك عن البت . فقال رسول الله ﷺ : « إنما لم نجئ لقتال  
 أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا  
 مددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس  
 فعلوا وإلا فقد جموا <sup>(٤)</sup> ، وإن هم أبوا فوالذي نفس بيده لأقاتلهم على أمرى هذا  
 حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره ». فقال بدبل : سأبلغهم ما تقول ... <sup>(٥)</sup> .

وتعرض الرواية بعدها للشخصيات التي وفدت تسبر غور رسول الله ﷺ والمؤمنين  
 وكانت مهمة سهيل كما حددتها رواية محمد بن عمر :

( ائت محمداً فصالحة ، وليكن في صلحه لا يدخل في عامته هذا ، فوالله لا يتحدث  
 العرب أنك دخلت علينا عنوة ) <sup>(٦)</sup> .

(١) قرة : غبار .

(٢) ثمد : الماء القليل .

(٣) يتبرضه : يستخرجونه بصعوبة .

(٤) جموا : استرحاوا .

(٥) الدر المشور / ٧ / ٥٢٧ وما بعدها .

(٦) الدر المشور / ٧ / ٥٢٧ وما بعدها .

﴿... والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ...﴾ :

وفي الرواية السابقة نفسها حين يعرض الحديث عن الهدى من خلال مقابلة الحليس ابن علقة :

( فقال رجل من بنى كنانة : دعوني آته . فقالوا ائته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له ، فبعثت له واستقبله القوم يلبون .. )<sup>(١)</sup>.

وفي وصف لهذه البدن في رواية أخرى :

( فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى عليها قلائدها ، قد أكلت أوبارها من طول الحبس تُرجع الحنين ، واستقبله الناس يلبون ، قد أقاموا نصف شهر وقد تفلوا وشعروا صاح وقال : سبحان الله . ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أى الله أن تجع لهم وجذام وكِندة وحمير ويمنع ابن عبد المطلب ، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم إنما أتوا عمراً . فقال رسول الله ﷺ : « أجل يأتينا بنى كنانة » ... فرجع إلى قريش فقال : إنني رأيت ما لا يحل منعه ، رأيت الهدى في قلائده قد أكل أوباره معكوفاً عن محله ، والرجال قد تفلوا وقلعوا أن يطوفوا بهذا البيت . والله ما على هذا حالفناكم . ولا عاقدناكم على أن تصدوا عن البيت من جاء معظمماً لحرمه مؤدياً لحقه ، وساق الهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، والذى نفسي بيده لتخلى بينه وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

قالوا : كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ، وفي لفظ : اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك ، وكل ما رأيت من محمد مكيدة )<sup>(٢)</sup> .

هكذا قال الحليس بالفطرة البشرية الصادقة ، واستعظام أن يصد عن البيت من جاء معظم له ، وهدد أن ينفر بالأحابيش جنوده نفرة رجل واحد ، ويحارب قريشاً على موقفها .

ولكن القوم هددوا الرجل ، وصدوا عن البيت من كان معظمًا له وصدوا الهدى معكوفاً أن يبلغ محله . وتجاوزوا كل الأعراف والتقاليد ، وتجاوزوا القيم التي جعلت منهم

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ٧٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٥ / ٧٥ .

سدهن للبيت الحرام ، فلم يأخذوا هذا الموقع ليصدوا الناس عن البيت . إنما أخذوه لاستقبال الحجيج . وأخذوه لخدمة الحجاج ، وتقديم السقاية والرفادة لهم ، وقد تأكد لهم بما لا يقبل الشك . أن محمداً عليه السلام إنما جاء معتمراً وال المسلمين معه ، وجاءوا معظمين لهذا البيت ، ولم يأتوا محاربين ولا مقاتلين .

الحق أبلج ، والله ينصر الحق ، والقوم تمادوا في باطلهم ، فكيف يخضع المسلمون لضغوط الباطل؟ وكيف يعطون الدينية في دينهم؟ وكيف ينحررون بذنهم ، ويعودون إلى المدينة دون نسك؟ ألقوا الكفار؟ أبداً . فقد عاهدوا رسول الله عليه السلام على الموت ، وعلى الشبات معه حتى آخر قطرة من دمهم ، وعاهدوه عن آخرهم ، فلم يصلح؟ ولم التنازلات لهؤلاء المبطلين؟ .

كل هذه التساؤلات تحيك في النفس ، وتحييش في الصدر ، ويبحث المسلمين عن جواب ، فلا يجدون . لقد قال لهم القرآن أنها فتح ، فآمنوا وصدقوا .

وها هو القرآن يكشف لهم الآن سراً آن أوان كشفه ، لقد كان الهدف من ذلك هم أنفسهم وليس الخضوع للباطل ، وليس الدينية في الدين :

﴿... ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تظروهم فتصيّكم منهم معرة بغير علم...﴾ .

إن مكة لتعج بالمؤمنين المستضعفين المفتونين ، ولا يعرفهم أحد . فإذا جد الجد فهم وقد المعركة ، وهم الذين لا حول لهم ولا قوة ولا صولة . إنهم أول المقتولين ، لأن ذوى الشوكة والملا وأهل الرأى والمشورة سيقون في الخلف يدبرون المعركة .

إذا كانت البيعة ثأراً لمقتل عثمان بن عفان وهو رجل واحد ، فقد يقتل العشرات والآلاف من أجله .

أفلاتتأجل المعركة لحماية مئات من المؤمنين والمؤمنات .؟ بلـى .

وأن الأوأن أن تعرف على هذه القوة الضاربة الخفية من المؤمنين المستضعفين في مكة ، وكيف كانت هدنة الحديبية طريقاً لتمييز المؤمنين وإخراجهم من مكة .

﴿لو تزيلوا ...﴾ وقد تزيلوا على يد أبي بصير وأبي جندل بن سهيل رضي الله عنهما ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين بعدها : ﴿لو تزيلوا العذاباً الذين كفروا منهم عذاباً أليما﴾ .

روى عبد الرزاق ، والإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وأبي جرير ، وأبو داود ، والنسائي ، عن المسنور بن مخرمة ، والبيهقي عن ابن شهاب الزهرى :

(أن رسول الله ﷺ لما قدم من الحديبية أتاه أبو بصير - عتبة بن أبي سعيد بن جارية الشففي حليف بنى زهرة - مسلماً قد أفلت من قومه ، فسار على قدميه سعياً ، فكتب الأحنف بن شريق ، وأزهر بن عوف الزهرى إلى رسول الله ﷺ كتاباً . وبعثا خنيس بن جابر من بنى عامر بن لؤى - استأجراه يذكر بن لبون وحمله على بعير ، وكتبا يذكران الصلح الذى بينهم ، وأن يردوا إليهم أبا بصير ، فخرج العامرى ومعه مولى له يقال له كوثير دليلاً فقدموا بعد أبا بصير ثلاثة أيام ، فقرأ أبا بن كعب الكتاب على رسول الله ﷺ فإذا فيه : قد عرفت ما شارطناك عليه ، وأشهدناك بينك وبيننا من رد من قدم عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصاحبنا . فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم . ودفعه إليهما فقال : يا رسول الله ، تردنى إلى المشركين يفتوننى في دينى ؟ . فقال :

« يا أبا بصير ، إننا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومحرجاً » فقال : يا رسول الله ، تردنى إلى المشركين ؟ !! قال : « انطلق يا أبا بصير ، فإن الله سيجعل لك فرجاً ومحرجاً » .

فخرج معهما ، وجعل المسلمون يُسرُّون إلى أبا بصير : يا أبا بصير ، أبشر فإن الله جاعل لك فرجاً ومحرجاً ، والرجل يكون خيراً من ألف رجل ... فانتهيا عند صلاة الظهر بذى الخليفة ، فصلى أبو بصير فى مسجدها ركعتين صلاة المسافر ، ومعه زاد له من ثمن يحمله ، يأكل منه ، ودعا العامرى وصاحبه ليأكللا معه فقدموا سفرة فيها كسر فأكلوا جميعاً . وقد علق العامرى سيفه فى الجدار وتحادثا . - ولفظ عروة - : فسل العامرى سيفه ثم هزه فقال : لأضررين بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوماً إلى الليل . فقال له أبو بصير : أصارم سيفك هذا ؟ قال : نعم . قال : ناوليه أنظر إليه إن شئت فناوه إيه . فلما قبض عليه . ضربه به حتى برد . - قال ابن عقبة - : ويقال : بل تناول السيف بفمه وصاحبه نائم . فقطع إسارة ثم ضربه به حتى برد . وطلب الآخر فجمز <sup>(١)</sup> . مذعوراً مستخفياً - وفي لفظ - وخرج كوثير هارباً يعدو نحو المدينة وهو عاض على أسفل ثوبه قد بدا طرف ذكره . والخاصى يطير من تحت قدميه من شدة عدوه ، وأبو بصير فى أثره ، فأعجزه . وأتى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه بعد العصر . فقال رسول الله ﷺ حين

(١) جمز : قفر .

رآه : «لقد رأى ذعراً» ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال : «ويحك مالك؟» قال : قتل والله صاحبكم صاحبى ، وأفلت منه ولم آكد ، وإنى لمقتول واستغاث برسول الله ﷺ . فأممه . وأقبل أبو بصير فأناخ بغير العامرى ودخل متواشحاً سيفه فقال : يا رسول الله ، قد وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، وقد أسلمتني بيد العدو ، وقد امتنعت بدني من أن أفتح فقال رسول الله ﷺ :

«ويل أمه مسرُّ حرب» وفي لفظ «مجش حرب» ، لو كان معه رجال» .

قال عروة ومحمد بن عمر : وقدم سلب العامرى لرسول الله ﷺ ليخرمه ، فقال : «إنى إذا خحسته رأوني لم أوف لهم بالذى عاهدتهم عليه . ولكن شأنك بسلب صاحبك واذهب حيث شئت» .

وفي الصحيح : أن أبي بصير لما سمع قول رسول الله ﷺ : «ويل أمه مسر حرب لو كان معه أحد» عرف أنه سيرده ، فخرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قدموا معه مسلمين من مكة حين قدم على رسول الله ﷺ فلم يكن طلبهم أحد حتى قدموا سيف البحر ، ولما بلغ سهيل بن عمرو قتل أبي بصير العامرى اشتد عليه وقال : ما صاخنا محمداً على هذا . فقالت قريش : قد برىء محمدًا منا وقد أمكن صاحبكم منه فقتله بالطريق . فيما على محمد في هذا؟ . فأسند سهيل ظهره إلى الكعبة وقال : لا أؤخر ظهرى حتى يودى هذا الرجل . قال أبو سفيان : إن هذا لهو السفة . والله لا يودى ثلاثة ، وأنى قريش تديه وإنما بعثته بنو زهرة؟ فقال الأحسن بن شرقي : والله ما نديه ، ما قتلناه ولا أمرنا بقتله ، قتله رجل مخالف ، فأرسلوا إلى محمد يديه . فقال أبو سفيان بن حرب : لا ، ما على محمد دية ولا غرم ، قد برىء محمد ، ما كان على محمد أكثر مما صنع ، فلم تخرج له دية .

فأقام أبو بصير وأصحابه بسيف البحر . وقال ابن شهاب : بين العicus وذى المروة من أرض جهينة على طريق عيرات قريش .

قال محمد بن عمر : لما خرج أبو بصير لم يكن معه إلا كف تم فأكله ثلاثة أيام ، وأصاب حيتانا قد ألقاها البحر بالساحل فأكلها ، وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة خبر أبي بصير فتسليوا إليه .

قال محمد بن عمر : كان عمر بن الخطاب هو الذى كتب إليهم بقول رسول الله ﷺ لأبي بصير : «ويل أمة ممحش<sup>(١)</sup> حرب لو كان معه رجال» وأخبرهم أنه بالساحل .

(١) ممحش حرب : مشعل حرب وهو العود الذى تحرك به النار .

وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذى رده رسول الله ﷺ إلى المشركين بالحدبية ، فخرج هو وسبعون راكباً من أسلموا فللحاقوا بأبي بصير . وذكرها أن يقدموها على رسول الله ﷺ في هذه المشركين ، وكرهوا الشواء بين ظهراني قومهم ، فنزلوا مع أبي بصير ، ولما قدم أبو جندل على أبي بصير سلم له الأمر . لكونه قريشاً فكان أبو جندل يؤمّهم ، واجتمع إلى أبي جندل - حين سمع بقدومه - ناس من بنى غفار وأسلم وجهينة ، وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثة مقاتل - كما عند البيهقي عن ابن شهاب - لا تمر بهم غير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها ، وضيقوا على قريش ، فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه .

وما قال أبو جندل بن سهيل في تلك الأيام :

أنا بذى المروءة فى الساحل	أبلغ قريشاً عن أبي جندل
باليبيض <sup>(١)</sup> فيها والقنا الذابل <sup>(٢)</sup>	فى عشر تحقق راياتهم
من بعد إسلامهم الواصل	يأبون أن تبقى لهم رقة
والحق لا يُغلب بالباطل	أو يجعل الله لهم مخرجاً
ويُقتل المرء ولم يأتل <sup>(٣)</sup>	فيسلم المرء بإسلامه

فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب يسألونه ويتصرون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وأبي جندل ومن معهم ، وقالوا : من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه . وقال : فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره . فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير وأبي جندل يأمرهما أن يقدما عليه . ويأمر من معهما من اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد ممن بهم من قريش وغيراتها . فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي بصير وهو يومت فجعل يقرؤه ومات وهو في يديه ، فدفنه أبو جندل مكانه وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه ، ورجع سائرهم إلى أهليهم وأمنت بعد ذلك عيرات قريش .

قال عروة : فلما كان ذلك من أمرهم عَلِمَ الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبو جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة رسول الله ﷺ خير لهم فيما أحبوا وفيما

(١) البيض : السيف .

(٢) القنا الذابل : الرماح الرفاق .

(٣) لم يأتل : لم يحلف .

كرهوا من رأى من ظن أن له قوة هي أفضل مم خص الله تعالى به رسوله من الفوز والكرامة عليه . ولما دخل رسول الله عليه عام القضية وحلق رأسه : قال : « هذا ما وعدتكم به » .

ولما كان في حجة الوداع وقف بعرفة وقال : « أى عمر هذا الذي قلت لكم أنى رسول الله عليه ، والله ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية » . وكان الناس قصر رأيهم عما كان . وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول : ما كان فتح في الإسلام أعظم من الحديبية ، وكان الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله عليه وبين ربه ، والعباد يعجلون ، والله تعالى لا يجعل لعجلة العبد حتى يبلغ الأمور ما أراد . لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع . قائماً عند المحرر يقرب لرسول الله عليه بذنه ، ورسول الله عليه ينحرها بيده . ودعا الحلاق فحلق رأسه ، فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره . وأراه يضعه على عينيه ، وأذكرا امتناعه يوم الحديبية بأن يكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فحمدت الله تعالى الذي هداه للإسلام . )<sup>(١)</sup> .

١ - لقد وجد القائد الذي يقود هذه الجماهير المؤمنة المستضعفة في مكة ، وأفرزه الميدان وساحة العمل كما يقال . لقد أثبت كفاءة في تحطيمه للحواجز وهربه من مكة إلى المدينة ، وأثبت التزاماً فائقاً يوم كلف بأشقاء على نفسه ، وهو العودة إلى مكة يفتت في دينه ، وأدرك أن التزامه بهذا الدين وبأوامر قائده عليه الصلاة والسلام أكبر من حظ نفسه . وأكبر من رفع الأذى عن جسده . وأكبر من تخلصه من المخنة التي هدته . إن الوفاء بالعهد في النهج الإسلامي ، وإبراز هذه القيمة ، أعظم من استغلال مؤقت لرفع فتنة عن فرد أو أفراد أو عشرات أو مئات من المستضعفين . وعليه أن يعود إلى مكة ، والله جاعل له فرجاً ومخرجاً ، وهو يثبت كفاءة أضخم ، وقدرة باهرة ، وهو المغلول اليدين كما في بعض الروايات . والأعزل من السلاح في الروايات نفسها . وهو يتزعزع السلاح من عدوه ويقتله به ، ويعود إلى الساحة من جديد .

يقول قائده عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ، قد وفت ذمتك . وأدى الله عنك . وقد أسلمتني بيد العدو . وقد امتنعت بديني من أن أفترن .

ولم يكن يدور بخلد أبي بصير أن يكون هو المقصود في أن يجعل الله الفرج والخرج على يديه لأخوانه ، لقد كانت انطلاقته ذاتية فردية ، لكن قائده عليه الصلاة

(١) سبل الهدى والرشاد / ٥ مقتطفات من ٩٩ - ١٠٤ .

والسلام قد ثغر على ضالته فيه ، فهو المؤهل لإشعال حرب داخلية في مكة ، تنفذ هؤلاء المستضعفين ، وأعلنها صريحة له :

« ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال » .

وهو تكليف بمهمة رسمية قيادية ، أن يقود هؤلاء الرجال . ويواجه بهم الطاغيت في مكة . أما رسول الله ﷺ فعنده التزاماته وعهوده ومواثيقه ، ولا يحل في دين الله الغدر .

ومضى أبو بصير يتبع الصلة في الداخل . ويراسل المستضعفين عن طريق عمر رضي الله عنه ، ليختاروا الموضع المناسب للثورة ، والوقت المناسب . وتسلل المؤمنون من مكة إليه وانضم إليهم إخوانهم من أسلم وغفار وجهينة ، ليشكلوا قوة أفضلت موضع العدو وأهلكته . ما تداعع قافلة لقريش إلا وقتلت أفرادها وأخذت أثقالها غنيمة خالصة ، وفي أهم الطرق الاستراتيجية لقريش على الساحل بذى المروءة . وعندما وصل أبو جندل ابن سهيل رضي الله عنه سلمه قيادة الثورة مباشرة ، فهو ثقفى حليف ، وأبو جندل من صلب قريش ، ومن عرين مكة ، فهو الذى تخضع له الأعناق . وبقى على رأس القيادة العسكرية حتى جاءه كتاب الرسول عليه الصلة والسلام بالانضمام إلى المدينة مع جيشه .

وهو في الرمق الأخير . فنفذ المهمة بعده أبو جندل رضي الله عنه ، وعاد بالمستضعفين إلى المدينة بعد رجاء قريش لذلك . لقد كانت التربية تsum خلال ساعات ، ويسبر المعدن بأدنى المهام ، فإذا تميز المعدن الطيب ، وبرزت الجندية الخالصة ، أو كلت المهمة القيادية . ولا يرشح للقيادة إلا من ثبتت الجندية الخالصة .

٢ - كان سهيل بن عمرو في قمة التمزق النفسي بعد مقتل العامرى قريبه .

فهو مهاض الجناح بولديه ، أبي جندل بن سهيل الذى ماأعدوه عليه ، وأسلم مع رسول الله ﷺ ، وأعيد بعد فضيحة سهيل فى مكة بإسلام ابنه ، وعبد الله بن سهيل الذى كان أحد الأسرى المسلمين فى مكة ، وعاد رغم أنف أبيه إلى المدينة ، مقابل الإفراج عن الراهن المكين عند المسلمين .

وأراد أن يستعيد اعتباره فى آخر سهم ضد محمد ﷺ ، وتحميله دية القتيل العامرى - من بنى عامر بن لؤى . وسهيل بن عمرو هو زعيم بنى عامر بن لؤى - ولكن القيادات من قومه خذلته ، فلم يقتله محمد ﷺ ، إنما قتله أحد رعايا مكة نفسها ، وهو الذى انتقم بذى المروءة ، فليأخذ ديته من هناك من أى بصير ، وعجز من تحقيق نصر سياسى على

رسول الله ﷺ بتسجيل موقف عليه من النكث في العهد ، بل سجل اعترافاً رسمياً من قيادات العدو بوفاء محمد في عهوده ومواثيقه كلها . وإزاء هذا التمزق النفسي والمعاناة الداخلية ، وعظمة التعامل النبوي ، أشرف النور في قلبه ، ودخل في دين الله عز وجل ، فإذا هو الذي كان يعتد بانتصاره على رسول الله ﷺ حين نحر بدنه خارج الحرم وصُد عن البيت ، هو هو نفسه الذي يقدم البدن لرسول الله ﷺ كي ينحرها بيده ، وحوله مائة ألف من صحابته .

وإذا سهيل بن عمرو الذي كان يزهو بأنه صد محمدأً عن البيت فحلق رأسه دون حرم الله ، إذا هو نفسه يتتساق مع المسلمين على شعيرات رسول الله ﷺ يضعها على عينيه يتبرأ بها ويقتنيها بأعلى ما يقتني به الجوهر الثمين ، وال MAS الغالي .  
وكان حقاً هو الفتح المبين .

﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء ..﴾ :

٣ - ولم يكن سهيل بداعاً في ذلك ، فلنشهد كل القيادات التي صدت رسول الله ﷺ عن البيت .

سهيل بن عمرو ، حويطب بن عبد العزى ، مكرز بن حفص ، عروة بن مسعود ، خالد بن الوليد ، الأحسن بن شريق ، أبو سفيان بن حرب ، والقيادات التي كانت ردففة يوم الحديبية ، عكرمة بن أبي جهل ، عثمان بن طلحة ، صفوان بن أمية .

هؤلاء العشرة الكبار الذين انتهت إليهم مقاييس الأمر في مكة ، هم جميعاً دخلوا في دين الله :

﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ .

ولو وقت المعركة بعد بيعة الرضوان ، لقتل هؤلاء وجنودهم كفاراً إلى جهنم وبئس المصير .

وشاءت إرادة الله عز وجل أن ينقل من عذابه إلى رحمته من شاء ، قيادات وجنوداً ومستضعفين ، وينال من لم يشأ العذاب الأليم : ﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ .

وجاء التعبير القرآني ﴿ منهم ﴾ أي من الكافرين الذين غدوا بعد مؤمنين ، ولم يكونوا يوم الحديبية مؤمنين ، إنما كانوا عتاة الكفر وقادته .

٤ - وشهد عمر - رضي الله عنه - ومن معه من المؤمنين بعد أشهر قلائل ، أن هذا البند الذى ثارت ثائرتهم عليه : « وأن من أتى قريشاً من اتبع محمداً لم يردوه عليه » قد انهار بطلب رسمي من مكة . فإذا بقريش وبعد الثورة المسلمة التى غزتها تقول : « من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه » .

إن الانتقال من تلك المرحلة إلى هذه هو انتقال حساس ومهم ، فسح المجال لغزو مكة نفسها ، وانضمام المسلمين منها إلى الصف الإسلامي .

٥ - وكانت التوجيهات النبوية بعودة أبناء القبائل إلى قبائلهم ، فرسول الله ﷺ يود أن يمتد الانتشار الإسلامي في كل مكان من الأرض العربية ، ولو عادت المثاث إلى المدينة لأصبح الإسلام غريباً في أسلم وغفار وجهينة وغيرها ، أما أهل مكة فهم وحدهم الذين طلب منهم العودة إلى المدينة ؛ لأن مكة تفتت كل مسلم عن دينه وتعذبه ، وتحاربه في عقيدته ، وليس الأمر كذلك خارج قريش ، فالقبائل الأخرى تتسامح في الوجود الإسلامي فيها ، وتهب مناخ الدعوة في داخلها ، ومن أجل ذلك يقي المسلمون هم الدعاة إلى الله في قلب القبائل العربية ، وهو الذي يفسر هذا الانتشار الهائل للإسلام خلال ستين فقط من صلح الحديبية .

٦ - ولابد أن نشير إلى أن هذا البند قد تعرض للحوار قتل أبي بصير ، وذلك منذ هجرة أم كلثوم بنت عقبة - رضي الله عنها - وقد رواها الزهرى عرضاً في السياق بقوله :

(ثم جاءه نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾ حتى بلغ : ﴿بعض الكوافر﴾ فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ أمرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية<sup>(١)</sup> .

وفي رواية البخارى :

(وجاء المؤمنات مهاجرات ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق ، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم ، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات

(١) تفسير ابن كثير / ٢ / ٣٥٦ .

فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليكم حكيم . وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴿١﴾ .

قال عروة : فأخبرتنى عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهم بهذه الآية : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ إلى ﴿غفور رحيم﴾ . قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط منهم قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايتك » كلاما يكلمها به ، والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ، وما بايعهن إلا بقوله )٢( . وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه ﷺ كان يمتحن من هاجر من النساء : « بالله ما خرجمت إلا رغبة في الإسلام ، وحباً لله ورسوله ؟ » )٣( .

( وأخرج عبد بن حميد من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه وزاد : « .. ولا خرج بك عشق رجل منا » )٤( .

فقد حكم الله تعالى أن لا يعاد المؤمنات إلى مكة على ضوء الامتحان المذكور ، وعندما تقر المرأة بأنها خرجت لله ورسوله وفي سبيله يباعها عليه الصلاة والسلام كما أمره الله تعالى في الآية التالية :

﴿يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يباعنوك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنن ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بيهتان يفترىنه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فباعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ )٥( .

وكانـت هذه الآيات بمثابة رسالة مفتوحة إلى المؤمنات في مكة والقادرات على الهجرة ، ومع أن الإقدام على الهجرة من المرأة من أشق الأمور ، حيث تسير أياماً وليلياً ذات عدد لتصل إلى المدينة ، لم يكتف الإسلام بمشاق الهجرة دليلاً على صحة الولاء

(١) المحدثة ١٠، ١١.

(٢) البخاري / كتاب الشروط ٥٤ / باب ما يجوز من الشروط / ١١ / ج ٣ / ص ٢٤٧ .

(٣) فتح الباري للإمام ابن حجر العسقلاني / ٨/٦٣٦ . (٤) المحدثة ١٢ .

لهذا الدين ، فكان لابد من هذا الامتحان المذكور ، وحين تنجح في الامتحان تباعي الله ورسوله على أن لا تشرك بالله شيئاً ولا تسرق ولا تزنى ولا تقتل ولدها ، ولا تأتى بيهتان تفتر به بين يديها ورجليها . وأن لا تعصي بالمعروف . وبذلك تحدد رساله المرأة ، بعيداً عن الجهاد وساحة الحرب . إنما الطاعة في المعروف . وعلى ضوء هذه الكلمات الكبرى تتم بيعة المرأة المسلمة .

وإن كنا قد رأينا أم عمارة رضي الله عنها تحضر بيعة الحديبية ، وتحضر بيعة العقبة ، كذلك خاصاً بها وباختها الأخرى اللتان بايعتا رسول الله عليه السلام في العقبة على أن يحميئه كما بايعه الرجال .

وحافظت رضي الله عنها على هذه البيعة فقد حضرت مع رسول الله عليه السلام المشاهد كلها . وقاتلت حين اقتضت الضرورة للقتال .

وأن لا تكلف المرأة المسلمة بالبيعة على الجهاد ، فهذا لا يعني حرمانها من حضور المعركة مع المسلمين تداوى جرحاهم ، تسقى عطشائهم ، وتعينهم على حاجتهم ، وقد رأينا أنه حضر في خير عشرون امرأة من المسلمات بهذه المهمة .

إنه من باب السماح لها بالحضور . وليس من باب الوجوب .

وأخيراً نلاحظ زواج معاوية وصفوان بأمرأته عمر رضي الله عنه المشركيتين ، لا يعدو أن يدخل فيه الجانب السياسي في محاولة للتعرف على أوضاع المسلمين من خلالهما ، حيث إنهم عاشتا في المدينة ردحاً من الزمن ، وفي عصمة عمر رضي الله عنه الرجل الثاني في الدولة بعد أبي بكر رضي الله عنه . ونشير كذلك إلى أن أم كلثوم رضي الله عنها قد خرجت من بيته عاتية ، معادية لله ورسوله ، وأن أبيها عقبة هو الذي قتله رسول الله عليه السلام صبراً بين يديه بعد بدر مع النضر بن الحارث ، وحدهما من بين الأسرى السبعين لأنهما كانا من أعدى العدو .

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمْيَةَ حَمْيَةً الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقُّ بَهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾<sup>(١)</sup> .

﴿الْحَمْيَةَ﴾ : فعيلة وهي الأنفة .. قال الزهرى : حَمَيْتُمْ . أَنْفَتُمْهُمْ . أَنْفَتُمْهُمْ من الإقرار للنبي

(١) الفتح / ٢٦ .

عَلَيْهِ الْبَرَسَةُ . والاستفتاح بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ مَكَةً . وَكَانَ الَّذِي امْتَنَعَ مِنْ كِتَابَةِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمُحَمَّدِ رَسُولِ اللَّهِ : سَهْلِ بْنِ عُمَرَ عَلَى مَا تَقْدِمُ . وَقَالَ بْنُ بَحْرٍ : حَمِيتُهُمْ : عَصَبَتْهُمْ لَآلَهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْأَنْفَةُ مِنْ أَنْ يَعْبُدُوْنَهَا .

وَقَالَ حَمِيمُ الْجَاهِلِيَّةِ : إِنَّهُمْ قَتَلُوا أَبْنَاءَنَا وَأَخْوَانَنَا ثُمَّ يَدْخُلُونَ عَلَيْنَا فِي مَنَازِلِنَا ، وَاللَّاتِ وَالْعَزِيزُ لَا يَدْخُلُهَا أَبْدًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ أَئِي الطَّمَانِيَّةِ وَالْوَقَارِ ، عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَ : ثَبَّتْهُمْ عَلَى الرَّضَا وَالْتَّسْلِيمِ . وَلَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مَا أَدْخَلَ قُلُوبَ أُولَئِكَ مِنَ الْحَمِيمَةِ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى . قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . رَوَى مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي بْنِ كَعْبٍ . وَقَاتَدَةَ وَعَكْرَمَةَ وَالضَّحَاكَ وَسَلْمَةَ بْنَ كَهْيَلَ . وَعَبِيدَ بْنَ عَمِيرَ ، وَطَلْحَةَ بْنَ مَصْرَفَ ، وَالرَّبِيعَ وَالسَّدِيْرَ وَابْنَ زَيْدٍ . وَقَالَ عَطَاءُ الْخَرَاسَانِيُّ وَزَادَ « مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ » وَعَنْ عَلَى وَابْنِ عَمْ رَأِيْسًا : هِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ . وَقَالَ عَطَاءُ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ وَمَجَاهِدَ أَيْضًا : هِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْحَمْدُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَقَالَ الزَّهْرَى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَعْنِي أَنَّ الْمُشَرِّكِينَ لَمْ يَقْرَأُوا بِهَذِهِ الْكَلْمَةِ فَخَصَّ اللَّهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ . وَكَلْمَةُ التَّقْوَى هِيَ الَّتِي تَبَقَّى بِهَا مِنَ الشَّرِكِ . وَعَنْ مَجَاهِدِ أَيْضًا : أَنَّ كَلْمَةَ التَّقْوَى هِيَ الْإِحْلَاصُ وَكَانُوا أَحْقَ بِهَا وَأَهْلَهَا أَئِي أَحْقَ مِنْ كُفَّارِ مَكَةَ ، لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَهُمْ لِدِينِهِ وَصَحْبَةَ نَبِيِّهِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمًا .<sup>(١)</sup>

(وَأَخْرَجَ أَبِي ثَبَّبَةَ ، وَأَحْمَدَ ، وَالْبَخَارِيَّ ، وَمُسْلِمَ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنَ جَرِيرٍ ، وَالْطَّبَرَانِيُّ ، وَابْنَ مَرْدُوْيَهِ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدِّلَائِلِ ، عَنْ سَهْلِ بْنِ حَنْيَفَ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ صَفَنِ : اتَّهَمُوا أَنفُسَكُمْ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ الْحَدِيبِيَّةِ نَرْجِيَ الصلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ الْمُشَرِّكِينَ ، وَلَوْ نَرَى قَتَالًا لِقَاتَلَنَا . فَجَاءَ عَمَرٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلْسَنا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ : « بَلَى ». قَالَ : أَلَيْسَ قَتَلَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقُتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ : « بَلَى ». قَالَ : فَقَيْمَ نَعْطِي الدِّينَيَّةَ فِي دِيَنَنَا وَنَرْجِعَ وَمَا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ : « يَا بْنَ الْخَطَابِ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يَضِيقَنِي اللَّهُ أَبْدًا ». فَرَجَعَ مُتَغَيِّظًا وَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى جَاءَ أَبَا بَكْرًا فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرًا ، أَلْسَنا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ : بَلَى . قَالَ : أَلَيْسَ قَتَلَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقُتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ : بَلَى . قَالَ : فَلَمْ نَعْطِي الدِّينَيَّةَ فِي دِيَنَنَا؟ قَالَ :

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / م ٨ / ج ٦١ / ٢٨٨ - ٢٨٩ .

يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيئه أبدا ، فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله عليه السلام إلى عمر فأقرأه إياها ، قال : يارسول الله ، أو فتح هو ؟ . قال : « نعم » .<sup>(١)</sup>

### ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمْيَةَ حَمْيَةً الْجَاهِلِيَّةِ...﴾

( حمية ، لا لعقيدة ولا لمنهج ، إنما هي حمية الكبير والفاخر والبطر والتعتن . الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله عليه السلام ومن معه يمنعونه عن المسجد الحرام . ويحسرون الهدى الذي ساقوه أن يبلغ محله الذى ينحر فيه ، مخالفين بذلك كل عرف وكل عقيدة ، كى لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة . ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين ، ويتهكرون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته . ويتهكرون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنهك فى جاهلية ولا إسلام : وهى الحمية التى بدت فى تحسيبهم أولا الأمر لكل من أشار عليهم بخطة مسالمة . وعاب عليهم صد محمد ومن معه عن البيت الحرام ، وهى التى تبدلت فى رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم ولصفة رسول الله عليه السلام فى أثناء الكتابة ، وهى كلها تتبع من تلك الجاهلية المتعرجة . المتعنته بغير حق .

وقد جعل الله الحمية فى نفوسهم على هذا النحو الجاهلى ، لما يعلمهم فى نفوسهم من جفوة عن الحق . والخضوع له ، فاما المؤمنون فمحماهم من هذه الحمية ، وأحل محلها السكينة والتقوى :

### ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾

. والسكينة الوقورة الهدائة كاللتقوى المترحة المتواضعة ، كلتا هما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه الساكن بهذه الصلة . المطمئن بما فيه من ثقة ، المراقب لربه فى كل خالجة وكل حركة ، فلا يتเบطر ولا يطغى . ولا يغضب لذاته . إنما يغضب لربه ودينه ، فإذا أمر أن يسكن ويهدا خشع وأطاع فى رضا وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى . وكانوا أهلاها . وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم . إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل الله على قلوبهم من سكينة . وما أودع فيها من تقوى ، فهم قد استحقوها فى ميزان الله وبشهادته ، وهو تكريم بعد تكريم ، صادر عن علم وتقدير :

(١) الدر المنشور / ٧ / ٥٣٥ .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١)

إنها المعركة بين المؤمنين والكافرين في ظاهر الأمر بالسيوف والحراب ، وفي داخل النفوس بين الجاهلية التي تمثل الهوى والضلال ، وبين كلمة التقوى المتمثلة بـ « لا إله إلا الله ». .

وهذا الصراع الداخلي العنيف . يتبدى كذلك بين (الحمية) حمية الجاهلية . وبين (السکينة) السکينة الربانية المتنزلة على قلب رسول الله ﷺ وقلب المؤمنين معه .

والله تعالى هو الذي « جعل » الحمية في قلوب الكافرين لاظلاقهم من الجاهلية ومحاداة الله ورسوله . والله تعالى هو الذي « أنزل » السکينة في قلوب المؤمنين « وألزمهم » كلمة التقوى .

وإذا استحق الجاهليون أن يجعل الحمية في قلوبهم لكرفهم ، فقد استحق المؤمنون إلزامهم بكلمة التقوى ، لأنهم أحق بها وأهلها .

إنه ميزان دقيق بين القتلين والخصمين والفرقين ، وتميز كامل في الجوهر والمظاهر ، والمنطلق والعقيدة ، والتفاعل والاستحقاق .

والحمية الجاهلية تنطلق أبداً من الذات وتتأليها أن تمس أو ينال منها ، أو يقول العرب أنه دخلها علينا ضغطة أو عنوة ، أو تنقص في أعين الناس .

وكلمة التقوى والسکينة تنطلق أبداً من تأليه الله سبحانه والخضوع لشرعه ، فالمشارع تتحرك وتتوثب لله وتهداً وتخضع لله ولرسوله ، حتى ولو ثارت في غير محلها فهي لله خالصة .

( فلم نعطى الدنيا في ديننا . أو لسنا على الحق ؟ أو ليسوا على الباطل ) .

وعندما وجهت هذه الثورة لله من عمر رضي الله عنه ومن المؤمنين بـ « إنى رسول الله ولن يضيعنى » وبـ ( إنه رسول الله فالزم غرزه ) .

فلزم عمر رضي الله غرز رسول الله ﷺ ، ولزم المؤمنون ذلك .

إنه لو لا كلمة التقوى التي ألزمها الله تعالى للمؤمنين ، حين تربوا على قوله عز وجل :

(1) في ظلال القرآن ٦ / ٣٢٢٩ .

﴿فَإِن تنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾<sup>(١)</sup>.

وقوله عز وجل : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله عز وجل : ﴿مَن يطِعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>(٣)</sup>.

لولا كلمة التقوى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وانطلاقهم منها ، لكانَت معركة في الصُّفَّ الإِسْلَامِيَّ ذَبَحَت الصُّفَّ كُلَّهُ بَيْنَ الْمُتَحْسِنِينَ لِلقتالِ وَهُمُ الْأَكْثَرُ وَبَيْنَ الرَّاغِبِينَ فِي الصلح .

وقد رأينا كثيراً من المُحرَّكات والجيوش تتحطم بين الصلح وال الحرب وبينها الصُّفَّ .

وكلمة التقوى هنا ، التي أَلْزَمُهُمْ بِهَا رَبِّهِمْ وَالْتَّرَمِوا بِهَا ، جعلتهم يتخلىون عن كل قناعاتهم وذواتهم . وينصرون برأي رسولهم وحبيبهم وقادتهم عليه الصلة والسلام ، رغم كل ما يعتمل في نفوسهم من ألم وثورة ، بل أبدوا من ضروب الالتزام والطاعة ما لم يبدوه في حياتهم ، فالإشارة باليد كافية لأن تذيب كل اعتراض ، وهذا ما أفقد العدو صوابه .

( حدثني من نظر إلى أسيده بن حضير وسعد بن عبادة أخذنا بيد الكاتب فأمسكها وقالا : لا تكتب إلا محمداً رسول الله . وإنما فالسيف يبتنا علام نعطي هذه الدنيا في ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يخفّضهم ويومئه بيده إليهم : اسكتوا . وجعل حويطب بن عبد العزى يتعجب مما يصنعون . ويقبل على مكرر بن حفص ويقول : ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من هؤلاء القوم )<sup>(٤)</sup> .

وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة هما قادة الأنصار أو سهامها وخزر جها .

فقد أَلْزَمُهُمْ اللَّهُ تَعَالَى كَلْمَةَ التَّقْوَى ، وَأَبْدَى الْمُسْلِمُونَ جَمِيعاً التَّزَامَهُمُ التَّامَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَهُوَ يَرِى تَبَعُّجَ الْمُشْرِكِينَ وَصَلْفَهُمْ وَحْمِيَّتَهُمْ ، وَلَمْ يَشُرِّدْ لَذَاهَهُ ، وَحَاشَهُ تَعَالَى أَنْ يَغْضُبْ لِنَفْسِهِ قَطُّ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا . وَيَأْتِي عُمُرٌ أَكْبَرُ التَّأْثِيرِينَ لِيُشَهِّدَ عَلَى الصلح ، وما هي إلا ساعات والقلوب فيها ما فيها ، تأتي الجائزة السنوية . وَيَأْتِي الْوَسَامُ

(١) النساء / ٥٩ .

(٢) المغازى للواقدى / ٢ / ٦١١ .

(٣) المشر / ٧ .

الأكبر للمؤمنين ، وبعد أن أثني على بيعتهم لرسوله ﷺ وعلم ما في قلوبهم رضي الله عنهم . يأتي الثناء الثاني الأعظم على التزامهم بكلمة التقوى ، وحلول السكينة عليهم ، قابلين راضين بما حكم الله ورسوله ، ليقول لهم :

إن السكينة الربانية التي تنزلت عليهم هي ثمرة إلتزامهم والتزامهم بكلمة التقوى ، وهم الجديرون بهذه السكينة المتزلة ، وهم الجديرون بكلمة التقوى :

﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾.

وكان الثناء الرباني العظيم عليهم حين بايعوا على الموت ، وحين رضوا بالصلح ، والتزموا به وكفوا أيديهم عن القتال .

ولا شك أن هذه الآية التي سمعها المؤمنون لأول مرة ، بعد أن أعلمهم الله تعالى جانبًا من الحكمة الربانية في تأجيل الفتح ، وحماية أرواح إخوانهم المؤمنين في مكة . وأن يدخل الله في رحمته من يشاء . كان لها وقع الندى على الزهر .. ووضع البلسم على المجرى . فقد عرفوا الحكمة ، وتنزلت السكينة في قلوبهم ثانية « ولكن ليطمئن قلبي » وحمدوا الله عز وجل أن لم يكونوا قد ثاروا حمدة لذواتهم وأنهم ما عصوا أمر ربهم ، وأنهم التزموا أمر نبيهم ، فجاءهم هذا الثناء ، وهذا التكريم ، وهذا الوسام .

ترى لو استجابوا العقبيهم ولكرامتهم ، وثاروا على أوامر نبيهم ، لا ينزل فيهم ما تنزل بالشراكين ، حمية الجاهلية !!

ولو استجابوا لنزولهم وغضبيهم على الشروط المهيضة — كما بدا لأول وهلة — من أين يأتيهم هذا الثناء العطر :

﴿وأنزلمهم كلمة التقوى و كانوا أحق بها وأهلها﴾.

إن الله تعالى لا يحيى أحداً من خلقه ، فعندما خضع بعضهم لهذه النوازع وهذه النزوات في أحد جاء القرآن الكريم ليقول لهم :

﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم و طائفة قد أهتمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ...﴾<sup>(١)</sup>.

فالحمية الجاهلية للكافرين ، وظن الجاهلية قد بدا في صفوف المؤمنين في أحد .

(١) آل عمران / ١٥٤ .

وبذا في أحد : ﴿ حتى إذا فشلتكم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أرراكم ما تحبون منكم من ي يريد الدنيا ومنكم من ي يريد الآخرة ﴾ (١) .

أفما كان من الممكن أن يأتمهم العتاب نفسه والتقرير نفسه ، لو عصوا أوامر رسولهم وخرجوا على الصلح . واندفعوا للقتال ، ولم يلتزموا بالبنود التي رضي بها رسول الله ﷺ بتوجيهه ربه ، لأنها هي الحكمة الخالصة والحق الخالص .

لقد نصح المؤمنون ، واستوى الصف ، وخلص من الضعف والشك والتردد والنفاق ، وأصبح وهو يتقبل ثناء ربه ، فيفرح به ، ويزغرد له ، لكنه لا يغتر ، ولا يسيطر ، ولا يذبحه المدح . فيتوانى ، وينحرف ، ويتباهي . أبداً . وما نجاهه الثناء . إلا لأنه جدير به ، ولأنه أهل له :

﴿ و كانوا أحق بها وأهلها ﴾ .

﴿ و كان الله بكل شيء عليما ﴾ : عليماً بالمستوى الإيماني الذي بلغوه ، عليماً بخواطر نفوسهم وخلجات قلوبهم ، ورسوخ إيمانهم ، عليماً بمدى ما عانوه وهم يلتزمون بمقتضيات كلمة التقوى .

عليماً بكل شيء ... ﴿ و كان الله بكل شيء عليما ﴾ .

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله أمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فحراً قريباً . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ (٢) .

نزلت هذه الآية المسلمين عائدون إلى المدينة على الطريق .

وبعد البشارات الكبرى برضاء الله تعالى عنهم بالبيعة . وأنهم أحق الناس بكلمة التقوى وأنهم أهل لها . وبعد البشارات بالمعانم الكبيرة . والفتح القريب في خيبر ، ومكة ما ذاع عنها ، التي تقتل النفوس شوقاً إليها . !؟؟ - بعد هذا كله تأتي قمة البشارات بهذه الآية .

فلن تدخلوا مكة والسيوف مصلحة على رؤوسكم ، يمكن أن تتصد لكم وأنتم تطوفون ، ولن تدخلوا مكة وبعضكم يحمل السلاح وبعضكم يطوف ، لا احتمال معركة تسقطون

(١) الفتح / ٢٧، ٢٨.

(٢) آل عمران / ١٥٢ .

شهداء فيها . أبدا . لقد كان التأجيل لحكمة ومنها هذه الحكمة :

﴿ .. لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله أمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾ . ولتشهد هذا الدخول في العام الثاني بعد الحديبية .

### عمرة القضية

( لما دخل هلال ذى القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذى صدَّهُ فيه المشركون عن البيت . وأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ الشهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحَرَمَاتُ قَصَاصٌ ﴾ الآية ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا لل عمرة ، ولا يختلف أحد من شهد الحديبية ، فلم يختلف أحد شهدتها إلا رجال استشهدوا بخير ، ورجال ماتوا . فقال رجال من حاضرى المدينة من العرب : يارسول الله ، والله مالنا زاد وما لنا أحد يطعمنا ، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل الله تعالى . وأن يتصدقوا . وألا يكفروا بأيديهم فيهلكوا . فقالوا : يارسول الله . بم تصدق . وأحدنا لا يجد شيئاً؟

فقال رسول الله ﷺ : « بما كان ولو بشق تمرة » ( ١ ) .

ذكر ما ساقه رسول الله ﷺ من الهدى وتقديمه السلاح والخيل أمام :

( - روى محمد بن عبد الله بن دينار رحمه الله تعالى قال : جعل رسول الله ﷺ ناجية بن جندب الأسلمى على هديه . يسير به أمامه . يطلب الرعي فى الشجر ، معه أربعة فتیان من أسلم - زاد غيره : وأبو هريرة .

وروى عن محمد بن إبراهيم بن الحارث : ساق رسول الله ﷺ فى القضية ستين بذنة . وروى أيضاً عن شعبة مولى ابن عباس رضى الله عنهما : قلد رسول الله ﷺ هدية بيده . وروى أيضاً عن عاصم بن عمر عن قتادة رحمه الله تعالى قال : حمل رسول الله ﷺ السلاح والبيض والدرفع والرماح . وقد مأته فرس ، عليهما محمد بن مسلمة . فما انتهى إلى ذى الخليفة قدم الخيل أمامه . واستعمل على السلاح بشير بن سعد .. فقيل : يارسول الله ، حملت السلاح وقد شرطوا أن لا ندخلها عليهم سلاح إـسـحـاـسـافـرـ ، السيف فى القرب ! فقال رسول الله ﷺ : « إنما لا ندخله عليهم الحرم ، ولكن يكون قريباً منا ، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح منا قريباً » فمضى بالخيل محمد بن مسلمة رضى الله عنه إلى مر الظهران ، فوجد بها نفراً من قريش فسألوه فقال : هذا رسول الله

( ١ ) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي / ٥ - ٢٨٨

يُصيغ هذا المتن غداً إن شاء الله تعالى ، ورأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد ، فخرجوا سرعاً حتى أتوا قريشاً ، فأخبرهم بالذى رأوه من الخيال والسلاح ، ففزعتم قريش ، وقالوا : والله ما أحدثنا حدثاً ، وإنما على كتابنا . ومدتنا ، فقيم يغزونا محمد فى أصحابه .. وبعثت قريش مكرز بن حفص فى نفر من قريش حتى لقاه بيتن يأجوج - حيث نظر إلى أنصاب الحرم - فى أصحابه . والهدى والسلاح قد تلاحق فقالوا له : والله يا محمد . ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر . تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيف فى القرب !! فقال رسول الله ﷺ : «إنى لا أدخل عليهم سلاح» فقال مكرز : هو الذى تعرف به البر والوفاء ثم رجع مكرز سريعاً إلى مكة بأصحابه ، فقال : إن محمداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذى شرط  
لهم )١( .

( روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزل رسول الله مرسلاً إلى الظهران في عمرته ، بلغ أصحابه أن قريشاً يقول : ما يتبعثون من العجف <sup>(٢)</sup> . فقال أصحابه : لو انتحرنا من بين ظهرنا <sup>(٣)</sup> فأكلنا من لحمه ، وحسّنا من مرقه . أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامه <sup>(٤)</sup> . فقال رسول الله عليه السلام : « لا تفعلوا . ولكن اجمعوا إلى من أزوابكم » فجمعوا ، وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تركوا . وحشنا كل واحد في حرباً به .

## ذكر دخول رسول الله ﷺ مكة :

قال ابن عباس رضي الله عنهم : قدم رسول الله ﷺ مكة صبيحة الرابع من ذى الحجة ، ولما جاء مكرز قريشاً يخبر رسول الله ﷺ استنكاف رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيطاً وحنقاً وتعasse ، وأمر رسول الله ﷺ بالهوى أمامه حتى حبس بذى طوى ، ودخل رسول الله ﷺ على راحلته القصواء وأصحابه محدقون به ، قد توسلوا السبب يلبون ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذى طوى وقف على راحلته والمسلمون حوله من الثنية التي تطلع على الحجون .

وروى البخاري تعليقاً، وعبد الرزاق، والترمذى، والنسائى، وابن حبان عن أنس رضى الله عنه، وابن عقبة عن الزهرى، وابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن

(١) المغازي للواقدي / ٢ / ٧٣٣ وما يعدها .

(٢) ما يتباينون من العجف : لا يقوون على الحركة من الهزال .

(٤) وبنا جمامه : البقية من القوة .

(٣) لو انتخـ نـامـ ظـهـرـ نـاـ : لو نـجـحـ نـامـ الـيـابـانـ الشـعـرـ كـبـهاـ

عمرو بن حزم : أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام القضية على ناقته ، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمامها ، وهو يقول :

نحن ضربناكم على تأويله	خلوا بني الكفار عن سبيله
ويذهب الخليل عن خليله	ضرباً يزيل الهم عن مقيله
في صحف تتلى على رسوله	قد أنزل الرحمن في تنزيله
إني رأيت الحق في قبوله	يارب إني مؤمن بقيله

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تعالى تقول الشعر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خل عنك يا عمر ، فلهى أسرع فيهم من نصح النبل ». وفي رواية : « يا عمر ، إني أسمع . اسكت يا عمر » فقال رسول الله ﷺ : « يابن رواحة قل : لا إلا إلا الله وحده . نصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده » فقالها ابن رواحة . فقالها الناس كما قالها .

ذكر طواف رسول الله ﷺ :

روى الإمام أحمد ، والشیخان ، وابن إسحاق ، عن ابن عباس رضى الله عنهمما قال :

قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة . قد و هنتم حمى يشرب ، فقال المشركون : إنه يقدم غداً قوماً قد و هنتم الحمى ، ولقوا فيها شدة . فجلسوا على قيungan مما يلي الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه على ما قالوا . فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد ، اضطبع بردائه . وأخرج عضده الأيمن ثم قال : « رحم الله امرأً أراهم من نفسه قوة ». وفي رواية : « أروهم ما يكرهون ». وأمرهم أن يرملوا ثلاثة أشواط ، ويمشوا بين الركنين ، ليرى المشركون جلدتهم ، ثم استلم الركن . وخرج يهرول وأصحابه معه ، حتى إذا وارأه البيت منهم ، واستلم الركن اليمني مشى حتى استلم الركن الأسود ، ثم هرول ثلاثة أشواط ومشى سائرها . قال ابن عباس : ولم يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها للإبقاء عليهم . فقال المشركون : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد و هنتم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا ، ما يرضون بالمشى ، أما إنهم لينقذون نقر الطُّبُى . وكان رسول الله ﷺ يكابدهم كلما استطاع .

قال محمد بن عمر ، وابن سعد وغيرهم : ولم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى استلم الركن بمحجنه .

وروى الحميدى ، والبخارى ، والإسماعيلي ، عن عبد الله بن أوفى رضى الله عنه قال : لما اعتصر رسول الله ﷺ ستناه من غلمان المشركين – وفي رواية : من السفهاء والصبيان – مخافة أن يؤذوا رسول الله ﷺ . وروى يونس بن بكر ، عن زيد بن أسلم رحمة الله تعالى أن رسول الله ﷺ دخل عام القضية مكة . ، فطاف على ناقته ، واستلم الركن بمحجنه . قال هشام وابن سعد – من غير علة – والمسلمون يستدون حول رسول الله ﷺ ، وابن رواحة يقول الرجز السابق . وذكر ابن سعد ومحمد بن عمر أن رسول الله ﷺ طاف راكباً ، وتبعهما القطب فى المورد .

#### ذكر دخوله ﷺ البيت :

روى البيهقى من طريق محمد بن عمر عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال : لما قضى رسول الله ﷺ طوافه فى عمرة القضاء دخل البيت فلم يزل فيه حتى أذن بلال بالصبح فوق ظهر الكعبة ، وكان رسول الله ﷺ أمره بذلك . فقال عكرمة بن أبي جهل – وأسلم بعد ذلك – : لقد أكرم الله تعالى أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول . وقال صفوان بن أمية – أسلم بعد ذلك – : الحمد لله الذى أذهب أبي قبل أن يرى هذا . وقال خالد بن أسيد – وأسلم بعد ذلك – : الحمد لله الذى أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال ينهر فوق الكعبة . وأما سهيل بن عمرو – وأسلم بعد ذلك – ورجال معه لما سمعوا ذلك غطوا وجوههم – كذا في هذه الرواية : أن النبي ﷺ دخل البيت .

#### ذكر سعيه ﷺ بين الصفا والمروءة :

روى محمد بن عمر رحمه الله تعالى ، عن ابن عباس رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ طاف بين الصفا والمروءة على راحلته ، فلما كان الطواف السابع عند المروءة عند فراغه ، وقد وقف الهدى عند المروءة ، قال رسول الله ﷺ : « هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر » فنحر عند المروءة .

قال محمد بن عمر رحمه الله تعالى : وقد كان اعتصر مع رسول الله ﷺ قوم لم يشهدوا الحديبية فلم ينحرروا ، فأما من شهدوا وخرج فى القضية فإنهم اشتراكوا فى

الهدى ، وأمر رسول الله ﷺ مائتين من أصحابه حين طافوا بالبيت . وسعوا أن يذهبوا إلى أصحابه بيطن يأجج فيقيمون على السلاح ، ويأتي الآخرون فيقضوا نسكمهم ففعلوا .

### ذكر خروجه ﷺ من مكة :

روى محمد بن عمر عن علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى قال : لما كان عند الظهر يوم الرابع أتى سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى - وأسلمما بعد ذلك . قال ابن إسحاق : وكانت قريش قد وكلت حويطب بن عبد العزى بإخراج رسول الله ﷺ ، فأتياه وهو في مجلس من الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة ، فقالا : قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا . فقال رسول الله ﷺ : « وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعت طعاماً ! » فقالا : لا حاجة لنا في طعامك . اخرج عنا نتشدك الله يا محمد . والعقد الذي بيننا وبينك إلا خرجمت من أرضنا فهذه الثلاثة قد مضت .

وكان رسول الله ﷺ لم ينزل بيته ، إنما ضربت له قبة من أديم بالأبطح ، فكان هناك حتى خرج منها ، ولم يدخل تحت سقف من بيتها ، فغضب سعد بن عبادة - رضي الله عنه - لما رأى من غلظة كلامهم للنبي ﷺ . فقال لسهيل بن عمرو : كذبت لا أم لك . ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يخرج منها إلا طائعاً راضياً . فتبسم رسول الله وقال « ياسعد ، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا ». وأسكنت الرجلان عن سعد .

وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنهم : أن الأجل لما مضى أتى المشركون علياً رضي الله عنه فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا ، فقد مضى الأجل . فذكر ذلك على رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله أبا رافع بالرحيل . وقال : « لا يمسين أحد من المسلمين » ، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بسرف . و تمام الناس . وخلف رسول الله ﷺ أبا رافع ليحمل إليه زوجته ميمونة حين يمسى فأقام أبو رافع حتى أمس . فخرج بيمونة ومن معها . ولقيت من سفهاء مكة عناً .

### ذكر خروج ابنة حمزة رضي الله عنها :

روى الشیخان عن البراء بن عازب ، والإمام أحمد عن علي ، ومحمد بن عمر عن ابن عباس رضي الله عنهم ، قال ابن عباس : إن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب - وقيل اسمها أمامة ، قال الحافظ : وهو المشهور ، وأمها سلمى بنت عميس - كانت بمكة ، فلما قدم رسول الله ﷺ مكة ، كلام عليٌّ بن أبي طالب رسول الله ﷺ فقال : علام نترك ابنة

عمنا يتيمة بين ظهري المشركين؟ فلم ينفعه رسول الله ﷺ ، فخرج بها .

وقال البراء : إن رسول الله ﷺ لما خرج تبعته ابنة حمزة تnadى : يا عمي يا عمي .  
فتناولها على فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك ، فاختصمت فيها زيد وعلى وجعفر ، أى بعد أن قدموا المدينة كما سيأتي .

وكان زيد وصبي حمزة ، وكان رسول الله ﷺ قد واجه بينهما حين واجه : بين المهاجرين ، فقال على : أنا أحق بهـ !ـ إنها ابنة عمـي وأنا أخر جتها . وقال زيد : بنت أخي .  
وقال جعفر : بنت عمـي وختالتها أسماء بنت عميس تحـتـي ... فقضـىـ فيـهاـ رسـولـهـ ﷺـ خـالتـهاـ وـقـالـ :ـ «ـ الـخـالـةـ بـمـنـزـلـةـ الـأـمـ»ـ ،ـ وـقـالـ لـعـلـىـ :ـ «ـ أـنـتـ مـنـيـ وـأـنـاـ مـنـكـ»ـ .ـ وـفـيـ حـدـيـثـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ :ـ «ـ وـأـمـاـ أـنـتـ يـاـ عـلـىـ فـأـخـىـ وـصـاحـبـىـ»ـ .ـ وـقـالـ جـعـفـرـ :ـ «ـ أـشـبـهـ خـلـقـىـ وـخـلـقـىـ»ـ ،ـ وـقـالـ لـزـيدـ :ـ «ـ أـنـتـ أـخـونـاـ وـمـوـلـانـاـ»ـ .ـ وـفـيـ حـدـيـثـ اـبـنـ عـبـاسـ :ـ «ـ أـنـتـ مـوـلـىـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ»ـ .ـ قـالـ مـحـمـدـ بـنـ عـمـرـ :ـ فـلـمـاـ قـضـىـ بـهـ رـسـولـهـ جـعـفـرـ ،ـ قـامـ جـعـفـرـ فـحـجـلـ حـولـ رـسـولـهـ ﷺـ .ـ فـقـالـ رـسـولـهـ ﷺـ :ـ «ـ مـاـ هـذـاـ يـاـ جـعـفـرـ؟ـ»ـ .ـ قـالـ :ـ يـارـسـولـ اللـهـ ،ـ كـانـ النـجـاشـيـ إـذـ أـرـضـىـ أـحـدـاـ قـامـ فـحـجـلـ .

قال ابن إسحاق : ثم انصرف رسول الله ﷺ في ذى الحجة .

وكان عدة المسلمين سوى النساء والصبيان ألفين .

قال ابن هشام رحمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ :ـ فـأـنـزـلـ اللـهـ تـعـالـىـ .ـ فـيـماـ حـدـثـنـيـ أـبـوـ عـبـيدةـ .ـ لـقـدـ صـدـقـ اللـهـ رـسـوـلـهـ الرـؤـيـاـ بـالـحـقـ ،ـ لـتـدـخـلـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ إـنـ شـاءـ اللـهـ آـمـنـيـنـ مـحـلـقـينـ رـعـوـسـكـمـ وـمـقـصـرـيـنـ لـاـ تـخـافـونـ فـعـلـمـ مـاـ لـمـ تـعـلـمـوـاـ فـجـعـلـ مـنـ دـوـنـ ذـلـكـ فـحـاـ قـرـيـاـ .ـ يـعـنىـ خـيـرـ (١)ـ .

١ - بـقـىـ أـهـلـ الـحـدـيـيـةـ هـمـ الـقـاعـدـةـ الـصـلـبـةـ لـلـمـسـتـقـبـلـ ،ـ فـقـدـ حـضـرـوـاـ جـمـيـعـاـ خـيـرـ ،ـ وـحـضـرـوـاـ جـمـيـعـاـ عـمـرـةـ الـقـضـيـةـ ،ـ وـلـمـ يـتـخـلـفـ إـلـاـ مـاتـ أوـ اـسـتـشـهـدـ ،ـ وـكـانـ هـؤـلـاءـ الـأـرـبـعـمـائـةـ وـالـأـلـفـ هـمـ الرـصـيدـ الـمـذـخـورـ وـالـرـكـيـزةـ الـأـسـاسـيـةـ لـلـجـيـشـ الـإـسـلـامـيـ .ـ وـرـغـمـ اـرـتـفـاعـ عـدـدـ الـجـيـشـ إـلـىـ الـأـلـفـينـ فـيـ عـمـرـةـ الـقـضـيـةـ .ـ أـىـ بـزـيـادـةـ ثـلـاثـيـنـ فـيـ الـمـائـةـ عـلـىـ الـقـاعـدـةـ الـصـلـبـةـ ،ـ فـقـدـ أـمـكـنـ اـسـتـعـيـابـ هـذـهـ الـعـنـاصـرـ الـجـديـدـةـ ،ـ وـرـفـعـهـاـ إـلـىـ الـمـسـتـوـيـ الـإـسـلـامـيـ الـمـطـلـوبـ ،ـ وـلـمـ تـشـهـدـ عـمـرـةـ الـقـضـيـةـ وـلـاـ مـخـالـفـةـ وـاـحـدـةـ مـنـ أـحـدـ ..ـ وـكـانـ عـلـىـ جـيـلـ

(١) سـبـلـ الـهـدـىـ وـالـرـشـادـ لـلـإـلـمـ الـصـالـحـىـ /ـ ٥ـ ٢٩١ـ حـتـىـ ٢٩٧ـ .

الحدبية أن يستوعب هذا الجيل الرافد مادياً ومعنوياً، يستوعبه مادياً فيهــء له نفقته، كما ذكر حاضرو المدينة من الأعراب: يارسول الله . والله مالنا من زاد ، ومالنا أحد يطعمنا . فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا في سبيل الله وأن يتصدقوا ، وألا يكفوا أيديهم فيهــلــوا .

قالوا: يا رسول الله بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً؟ قال: «ما كان ولو بشق تمرة» .

وعليهم أن يستوعبــهم معنوياً، فيقوموا بتربيتهم التربية المطلوبة ، ليتمثلوا الإسلام بهذه السرعة ، ويرتفعوا إلى المستوى الإسلامي المطلوب .

٢ - لقد ساق رسول الله ﷺ الهدى والسلاح أمامه .

أما الــهدــى ، فالــعــمــرة عمرة قضاء ، ومن أحــل ذلك لم يــســقهــ من لم يكن من أهلــ الحــدــيــبــية .

وأما السلاح ، فهو إجراء احتياطي تحسباً لــكل محاولات العــدــرــ والنــكــثــ التي يمكنــ أن تقعــ من أهلــ مــكــةــ . أوــ منــ القــبــائــلــ الــعــرــيــةــ المــمــتــدةــ عــلــىــ الطــرــيــقــ .

وأصبحــ أــهــلــ مــكــةــ مــنــذــ الــحــدــيــبــيــةــ فــيــ وــضــعــ نــفــســيــ لــاــ يــحــســدــوــنــ عــلــيــهــ ، فــقــدــ اــنــهــزــمــوــاــ مــعــنــوــيــاــ ، وــدــبــ بــهــمــ الــيــأــســ أــنــ يــكــونــوــ قــادــرــينــ عــلــىــ مــوــاجــهــ الرــســوــلــ ﷺــ وــرــســخــ فــيــ ذــهــنــ قــيــادــهــمــ أــنــ مــحــمــدــ لــاــ يــغــلــبــ .

فعمرو بن العاص غادر مكة بعد الخندق قائلاً: (كم أ وضع ، والله ليظهرن محمدــ علىــ قــريــشــ . فــخــلــفــ مــالــىــ بــالــرــهــطــ . وــأــفــلــتــ فــلــمــ أــحــضــرــ الــحــدــيــبــيــةــ وــلــاــ صــلــحــهــ ..) (١)

و خالد بن الــولــيدــ يــغــزــىــ مــنــ أــعــمــاــقــهــ مــنــذــ الــحــدــيــبــيــةــ : (ما أراد الله بي من الخير ما أرادــ قــذــفــ فــيــ قــلــبــيــ حــبــ الإــســلــامــ وــحــضــرــنــيــ رــشــدــيــ وــقــلتــ: قد شهدتــ المــوــاطــنــ كــلــهــاــ عــلــىــ مــحــمــدــ فــلــيــســ مــوــطــنــ أــشــهــدــ إــلــاــ أــنــصــرــ فــوــاــ أــرــىــ فــيــ نــفــســيــ أــنــيــ مــوــضــعــ فــيــ غــيــرــ شــيــءــ . وــأــنــ مــحــمــدــ ســيــظــهــ ، فــلــمــ خــرــجــ رسولــ اللهــ ﷺــ إــلــىــ الــحــدــيــبــيــةــ خــرــجــتــ فــيــ خــبــلــ منــ الــمــشــرــكــينــ ، فــلــقــيــتــ رسولــ اللهــ ﷺــ فــيــ أــصــحــاــبــهــ بــعــســفــانــ ، فــقــمــتــ بــإــزــائــهــ وــتــعــرــضــتــ لــهــ فــصــلــيــ بــأــصــحــاــبــهــ الــظــهــرــ آــمــاــنــاــ . ، فــهــمــمــاــ أــنــ نــفــيــرــ عــلــيــهــ ، ثــمــ لــمــ يــعــزــمــ لــنــاــ ، فــأــطــلــعــ عــلــىــ مــاــ فــيــ أــنــفــســنــاــ مــنــ

(١) المعاذى للواقدى / ٢٧٤٢ .

الهموم فصلٍ بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوق ذلك منى موقعًا وقلت :  
الرجل منوع )<sup>(١)</sup> .

( وأبو سفيان بن حرب القائد العام ، كان في تجارتة أثناء الحديبية . ، ومضى في تجارتة  
كذلك بعدها . والتقي بقىصر ملك الروم ، وخرج بانطباع من عنده حين سمعه يقول :  
.. فإن كان ما تقول حقاً فسيحملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم  
أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه . ولو كنت عنده  
لغسلت عن قدمه ) . فقال أبو سفيان : ( لقد أمر أمر بن أبي كبشة ، إنه يخافه ملوك بيبي  
الأصغر . فما زلت موقداً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام )<sup>(٢)</sup> .

وحويطب بن عبد العزى يقول مكرز بن حفص : ( ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن  
دخل معهم من أصحاب محمد لمحدو بعضهم لبعض ، أما إني أقول لك لا تأخذ من  
محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة )<sup>(٣)</sup> .

وكان هو جواب مكرز نفسه : ( وأنا أرى ذلك ) . وكان هذا في الحديبية . وسهيل  
بن عمرو ، وهو يرى الأمور كلها تخرج من بين يديه ، حتى ولديه هم مع محمد ﷺ .  
اللهم إلا شخصيتين بقيا على عنادهما وطموحهما أن يواجهها رسول الله ﷺ وهما  
عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، وقد رأينا صفوان بن أمية يدخل المراهنة على  
هزيمة محمد في خير ، لكن الرأي العام المكي قد سئم من الحرب ومل منها ، فأصبحا غير  
قادرين على تمثيل مكة تمثيلاً حقيقياً .

ومن هذا المعنى نشهد فرع مكة من حمل الرسول ﷺ السلاح ، وطريقة الخطاب  
التي اختلفت عن لهجة الحديبية : ( يا محمد ، والله ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ،  
تدخل بالسلاح بالحرام على قومك ، وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيف  
في القرب ) .

ونشهد كذلك فرحة يوم سمعوا الجواب : ( لا ندخلها إلا كذلك ) .

حيث رجع مكرز سريعاً إلى أصحابه يقول : ( إن محمداً لا يدخل سلاح ، وهو  
على الشرط الذي شرط لكم ) .

(١) المصدر نفسه / ٢٤٦ . (٢) البخاري / ١ / ١٢ / ص ٧ .

(٣) المغازى للواقدى / ٢ / ٦٠٨ .

وتشهد كذلك صعودهم إلى الجبل غيظاً وتفادياً لأى مواجهة مع الرسول صلوات الله عليه .

لقد سقطت مكة حكماً بعد الحديبية ، والقضية قضية زمن فقط حتى تفتح ، وبعد نصر خير ، وبعد ثورة أبي بصير ومن معه انتهى كل أمل لدى قريش بالمواجهة . ولم يعد بيدها ورقة تراهن فيها على ذلك .

٣ - ونلاحظ أمراً مهماً برب في الحديبية وفي عمرة القضاء ، هذا الأمر هو :

كيف برب القادة الثلاثة سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص على الساحة يوم الحديبية ، وهم الذين يسألون ويفاؤضون في عمرة القضاء ولم يرب لهم ذكر خلال السنوات الست الماضية . حتى ولا خلال المرحلة المكية ، اللهم إلا سهيل بن عمرو الذي كاد يرد اسمه أحياناً بين أعيان مكة وملئها ؟

ونسأل كذلك . لمَ لم يرم المفاوضة قادة المواجهة أنفسهم أبو سفيان بن حرب ، عكرمة بن أبي جهل ، صفوان بن أمية ، خالد بن الوليد . وأمثالهم ؟

وبالتعمق في الإجابة نجد أن قادة المواجهة جميعاً هم من صلب قريش وصنيعها ، من فرع كعب بن لؤي . هذا الفرع الذي انتشر حتى بلغ أغلبية أهل مكة قوة وشकيمة وعددًا وعدة ، أما فرع عامر بن لؤي فقد انتهى فرعاً واحداً فقط من عشرة فروع ، وبقي بنو عامر بن لؤي أدنى نسباً وأدنى مرتكزاً وقوية وشکيمية من بني كعب بن لؤي . ومن أجل ذلك تذكر كتب السيرة أن رسول الله ﷺ عندما أراد دخول مكة بعد عودته من الطائف بعث من بعث لهم ليدخل في جوارهم إلى سهيل بن عمرو رضي الله عنه ، فأجابه : (إن بني عامر لا تغير على بني كعب )<sup>(١)</sup> .

فمن لا يحرون على ذلك ، لأن الجير لابد أن يكون من مستوى من يجير عليه في العرف الجاهلي ، ولن يمكن بنو عامر من مواجهة بني كعب بن لؤي ، وإن كانوا يوم الحديبية خرجوا جميعاً لصدده ، كما يقول بدبلن بن ورقاء (جناك من عند قومك كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ...) وحتى تندفع عامر بن لؤي للمواجهة مع كعب بن لؤي ، أسلدوا أمر مكة كلها إلى قيادة ثلاثة . وذلك أثناء غياب أبي سفيان بن حرب عن مكة الذي انتهت إليه قيادة قريش ، كما يروى الواقدي :

(١) السيرة الحلبية / ٦٢ / ٢ .

( فأجمعوا أمرهم وجعلوه إلى نفر من ذوى رأيهم ، صفوان بن أمية . وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل فقال صفوان : ما كنا لنقطع أمراً حتى تشاوركم ! نرى أن نقدم مائى فارس إلى كراع الغميم ونستعمل عليها رجالاً جلداً . فقالت قريش : نعم ما رأيت . فقدمو على خيلهم عكرمة بن أبي جهل . ويقال خالد بن الوليد . واستنفرت قريش من أطاعها من الأحابيش ، وأجلبت ثقيف معها ، وقدموا خالد بن الوليد في الخيل .. )<sup>(١)</sup> . فإذا كان سهيل قد بُرِزَ من قبل واليوم ، فإن حويطب ومكرز لم يكن لهما شأن يذكر بين الزعامات في مكة .

وإذا كان عكرمة وخالد وصفوان هم أعدى العدو ، فالموت أهون عليهم من أن يذلو أمام محمد ويصلحوه ويقبلوا دخوله مكة عليهم ، فليقم في أمر الصلح الدرجة الثانية في مكة ، شخصيات بني عامر بن لؤي . وهم سهيل وحويطب ومكرز ، أما إن كان من مواجهة ولا بد فهو لاء الثلاثة : عكرمة وخالد وصفوان ، هم الذين سيواجهون . وفعلاً ، فما تصدى لحمد عليه السلام وما وجهته يوم فتح مكة إلا عكرمة وصفوان وسهيل ، أما خالد رضي الله عنه فقد قذف الله تعالى الإسلام في قلبه ، وكان هو الذي يواجه رفاق دربه الطويل ، وينتصر عليهم باسم الإسلام .

فحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو ينتهي نسبهم إلى عامر ابن لؤى ، ومنذ أن رأى رسول الله سهيلاً على رأس القادمين قال :

« قد أرادت قريش الصلح حين بعثت بهذا »<sup>(٢)</sup> .

٤ - صحيح أن مكة حكماً قد سقطت قبل الفتح ، لكن منشأ هذا الأمر ليس هو لين قريش أو صفاء قلبها على رسول الله عليه السلام ، أو حرصها على السلام برضاهما ، أبداً ، فالقلوب لا تزال تُحرّكها على رسول الله عليه السلام ، وفي كل بيت من مكة مقتلة وثأر ، والغريب يأكل القلوب في المراوضة والصلح ، ولكن العجز واليأس أمام القدر المحتوم عليهم .

وعندما لاحت فرصة يمكن أن تجبر القلوب الكسيرة . وتستل الأحقاد الدفينة ، عرضها الرسول عليه السلام على قريش ، في محاولة لكسر هذه الأफال الحاسية فلم يلق أدنى استجابة لذلك ..

(١) المغازى : للواقدى / ٢ / ٥٧٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٥ / ٨٥ .

كان هذا يوم جاء سهيل وحويطب ليقولا لرسول الله ﷺ :

(قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا . فقال رسول الله ﷺ : « وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعت طعاماً !؟ ». فقالا : لا حاجة لنا بطعمك ، اخرج عنا ، نشدق الله يامحمد . والعقد الذي بيننا وبينك إلا خرجمت من أرضنا فهذه ثلاثة قد مضت ) .

هذا الحفاء والغلظة التي واجه بها سهيل وحويطب رسول الله ﷺ ، حدا بسعد بن عبادة أن يثور لهذا الأسلوب الفجع ويقول لسهيل : ( كذبت لا أئم لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يخرج منها إلا طائعاً راضياً ) .

وكان يمكن لهذا الشجار أن يأخذ مدة لو كان لدى الطرفين رغبة في المواجهة ، ولكن المؤمنين ملتزمون بتوجيهات نبيهم عليه الصلاة والسلام ، وسيد الخلق يرفض استغلال المبررات لفرض الأمر الواقع .

فأجاب سعداً رضي الله عنه الجواب الذي يعترف لقريش بحقها في الإخراج حسب المعاهدة :

« لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا » .

وأصدر نداءه : « لا يمسين بها أحد من المسلمين » .

٥ - وبالعظمة الوفاء ، فقرىش منهارة ، وهى عاجزة عن المواجهة ، والسلاح قريب يمكن إحضاره ، والرسول ﷺ في قلب مكة ، ومكة بلد وأهله ، وقد أخرج منها ظلماً وعدواناً ، وأذن له ﷺ بقتال الذين أخرجوه من دياره وماله والمسلمين معه ، ومع هذا كله فلم ينزل عليه الصلاة والسلام في بيته ، ولم يطله سقف في عمرة القضاء . إنما ( ضربت له قبة من أدم بالطبع ، فكان هناك حتى خرج منها ) ، وكذلك فعل المهاجرون جميراً ، فلم يؤزوهم سقف ، ولم يذهبوا إلى بيوتهم ليستلموها ، إنما جاءوا معتمرین ثلاثة أيام ، وصدر لهم الأمر بالعودة قبل المساء ، فما أمسى في مكة منهم أحد .

ترى لو كان هذا الأمر في جيش من جيوش الدنيا ، من الذى يضبط هذه القلوب المواردة ، ويضبط هذه النفوس المشتعلة أن تذهب إلى أهلها ، فتشعل معركة مع كل معتد أثيم احتل داره ، وتقع مقتلة فى كل بيت لهؤلاء الكفار الذين احتلوا الديار ؟ ولكن الذى يحرك هذا الجيش كله هو انتصار هذا الدين ، وليس انتصار هذه النفوس على خصومها ،

وليست قصة الشأر والانتقام والأرض . وإن كان هذا الدافع لا ينكر لكنه مرجوح بالدافع الأعلى في سبيل الله ، وحين يتعارض لدى المؤمنين مع إيمانهم . فيسقط من حسابهم بدون شك ، ولهذا مع الأوامر النبوية بالتحرك كان الجميع خارج مكة .

٦ - ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَهُ عَلَى الْدِينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وحتى لا تفسر مكة لين رسول الله ﷺ بالضعف يوم عرض السقاء في مكة وأن يولم لأهلها بعرس بين ظهرانيهم ، لم ينس عليه الصلاة والسلام إبراز مظاهر القوة ، ومن أجل هذا قال لصحابه : « رحم الله امرأً أراهم من نفسه قوة » وأمرهم أن يهرو لو اثناء طوافهم لتحطيم مقوله قريش : ( إنه يقدم غداً قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا فيها شدة ) .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذلك ، بل أباح لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه أن ينشد ضمن إطار عرض القوة :

خلوا بني الكفار عن سبileه	خليوا فكل الخير في رسوله	نحن ضربناكم على تأويله	ويذهب الخليل عن خليله
ضرباً يزيل الهام عن مقيمه			

وقال لعمر : « خل عنك يا عمر ، فلهي أسرع فيهم من نضح الببل » .

إنه التكافؤ والتوازن في العرض ، للموادعة والقوة بوقت واحد ، بحيث تبقى نفوس أهل مكة يسيطر عليها الخوف والذعر ، ولكن دون ما مساس بالعهد والميثاق ، ووفاء كامل بالتزاماته .

وإشعارهم أنه قادر على النقض والنكث ، والوفاء بالبنود ليس عن عجز ولا عن ضعف ، ولكن عن مبدأ ودين وعقيدة .

إنها التربية للخصم الصديق ، وال التربية للعدو والخليف ، وال التربية لل المسلمين وخصوصهم على سواء .

٧ - وهكذا يكون ظهور هذا الدين وهذه الرسالة ، وهكذا يكون استعلاؤه ، وذلك بتطبيق مبادئه وليس بسحق خصومه ، بجلاء هذه القيم ، ورؤى التطبيق العملى له ، ليربع أنصاراً جددًا وجندًا جددًا ، لا يبييد أعداء . ويحرق الأخضر واليابس فيهم فيهلك الحرث والنسل .

فقد كانت عمرة القضاء على قصرها بالنسبة للعرب جميعاً نقطة تحول كاملة . فقد دخل محمد وصحابه مكة آمناً لا يخاف . وخرج بطوع اخيته واختياره ، ولو شاء أن يقيم لأنما . وليس لدى قريش قوة تحول بينه وبين ذلك . لقد رأى العرب معنى هذا الدين ، ومفهوم هذا الرسول . وعظمة هذه الرسالة ، وانتهت قريش بمبادئها وسلطانها وتحديها ، وانهارت كل الحاجز بين الناس وبين الإسلام .. فقد انتهت قوة قريش ، وانتهت قوة محمد ، فليس أمامهم إلا الإسلام الذي يتجسد بهؤلاء المسلمين .. وتكون له ولهم الدینونة في الأرض .. بشهادات قياداتهم وجنودهم .

وفتح الأرض العربية أمام هذا الدين : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْدِينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ .

وبرزت هذه الظاهرة ، وبذا هذا الظهور في أعظم تجسيد له ، يوم صعد بلال على ظهر الكعبة ليعلن من فوق أقدس مكان عند العرب كلمة التوحيد الخالصة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

ويعلن انتصار هذا الدين : الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ودعوة الناس لهذا الدين ، دعوة خالصة : حي على الصلاة ، حي على الفلاح .

ويجتر قادة الشرك غيظهم وحقدتهم ، وهم يسمعون هذه النداءات :

– لقد أكرم الله تعالى أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد ما يقول .

– الحمد لله الذي أذهب أبي (أمية بن خلف) قبل أن يرى هذا .

– الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال بن أمي بالل ينهر فوق الكعبة .

وأما سهيل بن عمرو ورجال معه لما سمعوا بذلك غطوا وجوههم .

وهكذا نرى أن احتجاج مكة انتهى بالتحسر والندم ، بينما لا ننسى يوم قاموا بعد الله بن مسعود رضي الله عنه يضربوه حتى يغشى عليه ، لأنه نطق بين ظهرا نبيهم بما نزل على محمد .

ولا ننسى يوم قاما يقتلون رسول الله ﷺ ، ويطئون على عنقه الشريف ؛ لأنه قام يصلى ويسجد بين ظهرا نبيهم ، ويلقون على رأسه وظهره معنى البعير ، ويتمايلون من الضحك .

أما اليوم فهم يعطون وجوههم ، وهم يرون بلال العبد الأسود ويرتفع فوق الكعبة ،  
عز آبائهم وأجدادهم ، ليعلن كلمة التوحيد ويدعوهم إليها .

(أخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرَّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية : ( قال النبي ﷺ لهم : «إنى قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلين رءوسكم ومصرئين » ، فلما نزلت بالحدبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك ، فقال الله : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرَّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله : ﴿لَا تَخَافُنَّ﴾ أي لم أره أن يدخله هذا العام ول يكن ذلك ، ﴿فَعْلَمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ قال : رده مكان من بين أظهرهم من المؤمنين والمؤمنات ، وآخره ليدخل الله في رحمته من يشاء من يريده أن يهديه ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال : خبر حين رجعوا من الحديبية فتحها الله عليهم ، فقسمها على أهل الحديبية كلهم )<sup>(١)</sup> .

وعلى رأى الزهرى أن هذا الفتح القريب هو دخول الناس فى الإسلام .

فعن الزهرى قال : ( ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني صلح الحديبية ، وما فتح فى الإسلام فتح كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة وضع الحرب ، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا ، فالتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكن أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، فلقد دخل فى تينك الشتتين فى الإسلام مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر )<sup>(٢)</sup> .

يقول جل شاؤه :

﴿مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ رَكِعاً سَجَداً يَتَغَيَّرُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوانَا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التُّورَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْرَعْ أَخْرَجَ شَطَأهُ فَازْرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يَعْجَبُ الزَّرَاعُ لِيغْيِظُ بَهُمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾<sup>(٣)</sup> .

(والآن نجيء إلى ختام السورة .. ختامها بهذه الصورة الوضيعة التي يرسمها القرآن الواقع صاحبة رسول الله ﷺ ، وبذلك الثناء الكبير على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضى الله عنها فرداً فرداً ...

(١) (٢) جامع البيان في تفسير القرآن لابن حجر الطبرى / ١١ / ٦٨ / ٢٦ . (٣) الفتح / ٢٩ .

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع ، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة .

لقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : **﴿أَشْدَاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءٌ بِنَفْسِهِمْ﴾**

ولقطة تصور هياكلهم في عبادتهم : **﴿تَرَاهُمْ رُكَعاً سَجَداً﴾** .

ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها وما يعيش بها : **﴿يَتَغَوَّلُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾** .

ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سماتهم وسماتهم وسماته : **﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثْرِ السُّجُود﴾** .

ولقطة تصور صفاتهم في التوراة : **﴿ذَلِكَ مُثْلُمُهُمْ فِي التُّورَاةِ﴾** .

ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل : **﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ﴾** **﴿فَازْرَهُ﴾** **﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾** **﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾** **﴿يَعْجِبُ الزَّرَاعَ﴾** **﴿لِيَغْيِظَ بَهْمَ الْكُفَّارِ﴾** .

وتبدأ الآيات بإثبات صفة محمد ﷺ - صفتة التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركيين **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾** - ثم تترسم تلك الصورة الوضيعة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى ، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم ، ونقط الارتكاز الأصلية في هذه الحياة ، وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيعة .. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات ، وتبث الملامح والسمات التي تصورها ، التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة .

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم في :

اللقطة الأولى : أنهم : **﴿أَشْدَاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءٌ بِنَفْسِهِمْ﴾** . أشداء على الكفار وفيهم أباءهم وإنوثهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قضعوا هذه الوسائل جميعاً . **﴿رَحْمَاءٌ بِنَفْسِهِمْ﴾** وهم فقط أخوة دين ، فهـى الشدة لله . والرحمة لله ، وهـى الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة . فليس لهم في أنفسهم شيء ، ولا لأنفسهم فيهم شيء ، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم كما يقيمون سلوكيـم وروابطـم على أساس عقـيدـتهم

ووحدها ، يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها . قد تجدوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير الله ، والوشيعة التي تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة ، وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة وهي :

اللقطة الثانية : ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا﴾ . والتعبير يوحى كأنما هذه هي هيئةهم الدائمة التي يراها الرائي حين يراهم . ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصلية فيحقيقة نفوسهم ! غير أنها تعبرأيضاًيتها كذلك في زمانهم ، حتى لكانهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً .

واللقطة الثالثة : مثلها . ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم . وأعمق سرائرهم : ﴿يَتَغَوَّلُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَارًا﴾ ، فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثالثة ، كل ما يشغل بالهم . كل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه ، ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويستغلون به .

واللقطة الرابعة : ثبت أثر العبادة الظاهرة . والتطلع الضمر في ملامحهم ، ونضحها على سماتهم : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السَّجْدَةِ﴾ سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة حتى الوضوء اللطيف ، وليس هذه السيماه هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : ﴿مِنْ أَثْرِ السَّجْدَةِ﴾ ، فالملتصص بأثر السجدة هو أثر العبادة ، واحتار لفظ السجدة لأنها تمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها . فهو أثر هذا الخشوع ، أثره في ملامح الوجه . حيث تتوارى الحيلاء والكرياء والفراغة ، ويحل مكانها التواضع البسيط ، والشفافية الصافية ، والوضاءة الهدائة والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً .

وهذه الصورة الوضيعية التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة ، إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة : ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التُّورَاةِ﴾ ، وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها .

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ : وصفهم في بشارته بـ محمد ومن معه ، أنهم : ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ﴾ فهو زرع تام قوى . يخرج فرخه من قوته وخصوصيته ، ولكن هذا الفرج

لا يضعف العود بل يشده . فائزه ، أو أن العود آزر فرخه فشده ﴿فاستغلظ في الزرع وضخمت ساقه وامتلأت ، ﴿فاستوى على سوقه﴾ لا معوجاً ومحيناً ، ولكن مستقيماً قوياً سرياً .

هذه صورته في ذاته ، فأما وقعت في نفوس أهل الخبرة والزرع . العارفين منه بالنامي والذابل ، الشمر منه والبائر ، فهو وقع البهجة والإعجاب : ﴿يعجب الزراع﴾ وفي قراءة يعجب « الزراع » وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوى الخصيب البهيج .. وأما وقوعه في نفوس الكفار فعلى العكس ، فهو وقع الغيظ والكمد : ﴿ليغيط بهم الكفار﴾ ، وتعتمد إغاظة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هي زرعة الله أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار للقدرة ، وأداة لإغاظة أعداء الله !

وهذا المثل ليس مستحدثا ، فهو ثابت في صفحة القدر ، ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى الأرض ، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون .

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول الله ﷺ .. فثبتت في صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه . وهو يتسمى إليها من بارئ الوجود ، وتبقى نموذجاً للأجيال ، تحاول أن تتحققها ، ليتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات .

وفوق هذا التكريم كله ، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ ، وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعد ما تقدم في صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة .

﴿ مغفرة وأجر عظيم﴾ .. وذلك التكريم وحده حسبهم ، وذلك الرضى وحده أجراً عظيم ، ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود ، والعطاء الإلهي عطاء غير محدود .

ومرة أخرى أحاط من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجود هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم . وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكرير والوعد العظيم ، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله ، وفي ميزان الله ، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم ، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم

ومشاعرهم وسماتهم ، وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها وهو في كيانه .

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه .. ولكن  
أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أنى يتذوقه إلا من بعيد؟!  
اللهم إلا أن يكرمه الله إكرامهم : فيقرب له البعيد؟!  
اللهم إنك تعلم أنى أتعلّم لهذا الزاد الفريد )<sup>(١)</sup> .

ونعيش مع سيد رحمة الله لحظات ولقطات في هذا المهرجان الفريد .

## ١ - ﴿ محمد رسول الله ﴾ .

﴿ وإن أخذ الله ميثاق النبيين لما آتتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق  
لما معكم لتؤمن به ولتنصرنه قال أقررتكم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال  
فأشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾<sup>(٢)</sup> .

فقد أخذ الله تعالى ميثاق النبيين جمِيعاً على الإيمان بمحمد ﷺ ، وإن كان هو  
خاتمهم في الترتيب الزمني ؛ ليكون مصدقاً لما معهم ، وتكون الكمالات في الرسالات  
كلها في رسالته ، والكمالات البشرية كلها في شخصه عليه الصلاة والسلام :  
« أنا سيد ولد آدم يوم القيمة . وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع  
ولا فخر »<sup>(٣)</sup> .

﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحمة بينهم تراهم ركعاً سجداً يتغرون فضلاً من  
الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة .. ﴾

(أخرج البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص  
قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ . قال : أجمل ، والله إنه لموصوف في التوراة  
بعض صفتة في القرآن : أيتها النبي إنا أرسلناك شاهداً وبشيراً ونذيراً ، وحرزاً للأمينين ،  
أنت عبدى ورسولى ، سميتك الموكلا ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ،  
ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء

(١) في ظلال القرآن / ٦ / ٢٦ / ٣٣٢٢ . (٢) آل عمران : ٨١ .

(٣) مسلم وأبو داود .

بأن يقولوا إلا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً وأذاناً صماً وقلوباً غلباً<sup>(١)</sup> .

٢ - وإذا بهذه الأعين العمى والأذان الصم والقلوب الغلف تفتح ، وتستقيم الملة العوجاء ، ويتحقق بمن معه الأوصاف الأخرى التي وردت في القرآن والتوراة والإنجيل .

(أخرج الدارمي في مسنده وابن عساكر عن كعب قال : في السطر الأول : محمد رسول الله عبدي اختار لاظف ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويعذر ، مولده مكة ، وهجرته بطيبة وملكه في الشام . وفي السطر الثاني : محمد رسول الله ، أمته الحمادون : يحمدون الله في السراء والضراء ، يحمدون الله في كل منزل ، ويكبرونه على كل شرف . رعاة الشمس ، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على رأس كناسة ، ويأتزرون على أوساطهم ، ويوضئون أطرافهم ، وأصواتهم بالليل في جو السماء كدوى النحل )<sup>(٢)</sup> .

(وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة ، وأبو نعيم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « صفتني أَحْمَدُ الْمُتَوَكِّلُ ، مولده مكة ، ومهاجرته طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ . يجزي بالحسنة الحسنة ، ولا يكافئ بالسيئة ، أمته الحمادون ، يأتزرون على أطرافهم ، ويوضئون أطرافهم ، أنا جيلهم في صدورهم ، يصفون للصلوة كما يصفون للقتال ، قربانهم الذي يتقربون به إلى دمائهم ، رهبان الليل ليوث النهار »)<sup>(٣)</sup> .

عبادتهم وجهادهم وتقواهم وسلامة صدورهم هي أوصافهم التي ضربها الله تعالى مثلاً في التوراة والإنجيل ، والحديث عنهم جاء بعد الحديثية ، وقد تحققت بهم هذه الأوصاف التي مر عليها عشرات القرون ، فبرزت الآن على حقيقتها ، فذكرت في سورة الفتح .

٣ - ﴿ كَرَرَعَ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَازْرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقَهِ يَعْجَبُ الزَّرَاعَ لِيَغِيَظُ بَهُمُ الْكُفَّارُ ﴾ .

(أخرج عبد بن حميد ، وابن حجرير ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ ﴾ قال : جعل الله الرحمة في قلوبهم بعضهم لبعض . ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السَّجُودِ ﴾ قال : علامتهم الصلاة ، ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التُّورَاةِ ﴾ قال : هذا المثل في التوراة ، ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ قال : هذا مثل آخر ، ﴿ كَرَرَعَ أَخْرَجَ شَطَأَهُ ﴾ قال :

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى / ١١، ١٠، ١١ . (٢) الخصائص الكبرى للسيوطى / ١١، ١٠، ١١ .

هذا نعت أصحاب محمد في الإنجيل . قيل له : إنهم سيخرجون قوم ينترون نبات الزرع ،  
يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر )<sup>(١)</sup> .

( وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضى الله عنهمما في قوله  
﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال : صلاتهم تبدو في وجوههم يوم  
القيامة ، ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ قال : سنبه  
حين يبلغ نباته عن حباته ، ﴿فازره﴾ يقول : نباته مع التفافه حين يسنبل ، فهذا مثل ضربه  
الله لأهل الكتاب : إذا خرج قوم ينترون كما ينتن الزرع ، فيهم رجال يأمرون بالمعروف  
وينهون عن المنكر ، ثم يغلوظ فيهم الذين كانوا معهم ، وهو مثل ضربه لحمد يقول : يبعث  
الله النبي وحده ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمرون به ثم يكون القليل كثيراً وسيغلوظون .  
ويغيط الله بهم الكفار ، يعجب الزراع من كثرته ومن حسن نباته )<sup>(٢)</sup> .

( وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن الضحاك رضى الله عنه : ﴿كزرع أخرج  
شطأه﴾ قال : حب بـ متفرقاً ، فأنبت كل حبة ، ثم أنبت من حولها مثلها حتى استغاظ  
واستوى على سوقه يقول :

كان أصحاب محمد ﷺ قليلاً ثم كثروا واستغلوظوا )<sup>(٣)</sup> .

٤ - هذا الجيل الذي أنزل الله تعالى وصفه على مدار تاريخ البشرية ، وفي أقدس  
الكتب ، التوراة والإنجيل والقرآن ، هذا الجيل هو الذي تنزل عليه هذه الآيات ، وقد انبثق  
إلى الوجود بعد التبشير به من مئات القرون ، وهو حى يتحرك ، قد تمثل وتشرب تربية  
زارعه محمد عليه الصلاة والسلام ، وبعد مرور عشرين عاماً تقريباً على بعثته ، ليكون  
خلاصة البشرية وعصارة الخيرية فيها . ننظر إليه بعد خمسة عشر قرناً من الزمان . فيبقى  
هو الأمواذن الحى للبشرية ، وتنظر إليه الأمم قبل عشرات القرون وتتطلع إلى انبثاقه إلى  
الوجود مع سيد ولد آدم الذي أخذت بيعة الأنبياء له من الله تعالى .

وقد رأينا كيف تمت ولادة هذا الجيل فرداً فرداً ، يرعاهم عليه الصلاة والسلام كما  
يرعى الزارع البصیر غرسه ، ويتعهده بالسقاية والعناية ، ويخوض بهذه الأعداد القليلة  
لجمع المواجهة للأعاصير .

﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض

(١) الدار المنشورة / ٦ / ٥٤٤ . (٢) الدر المنشور / ٧ / ٥٤٤ .

**زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون** ﴿١﴾.

فينمو عودهم في هذه المواجهة . لقد كانوا أغلبهم ابتداء فتىًاناً تراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين ، وهما يعودون على عين الله خطوة خطوة ، فيحال بينهم وبين القتال قرابة ثلاثة عشر عاماً حتى يستند ساعدتهم و يستقيم صلبهم و عندما أذن لهم بالقتال كان الوحي يتنزل مباشرة عليهم فيعرضهم لأشق الدورات التربوية من خلال الواقع الحى ، يصف أخطاءهم ، ويتحدث إلى قلوبهم وعن قلوبهم ، ويشن على الحواريين منهم ، ويقوم المعروج فيهم ، وبعد كل غزوة فاصلة آيات ترى تتابع البناء ، ﴿فَازْرَهُ فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾ .

ويطمئن عليه الصلاة والسلام إلى هذا البناء .. فيواجه به عتاة قريش حرباً وصلحاً وسلاماً ، فكانوا نعم النصير لنبيهم ، وكانوا خير العون لقادتهم عليه الصلاة والسلام ، ويتميز عدوهم غيظاً منهم ، فقد أصبحوا ماء السمع والبصر ، وصاروا أصحاب الكلمة العليا في الأرض العربية ، واعترف بهم الطغاة والعتاة فما أحد يجرؤ أن يقترب من عربهم ، وتسابقت خراعة لتدخل في حلقهم ، وأصبح عربهم حمى لا يضام .  
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

فلا يحسب بعض الأفراد الذين انطروا على خبث في طويتهم ، وملء الغل صدورهم ، وجعلوا النفاق ديدنهم ، لا يحسب هؤلاء أنهم يضيعون في صفوفهم ويختفون في ثيابهم ، أبداً . فالوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أما الذين كانوا يسلقون النبي وصحابته بآلستة حداد ، هؤلاء سوف يقصم ظهرهم هذا التحديد ، فليسو داخلين في هذه الخيرية كما أن بعض النباتات المتسلقة الغريبة سوف تجتث حين يحين الحصاد ، وحين يحضر موسم القطاف .

ونقف مع الآية في ختام الأنفال :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آتُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ مَغْفِرَةً وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٢﴾ .

والآية في ختام الفتح :

(١) الأنعام / ١١٢ . (٢) الأنفال / ٧٤ .

﴿ ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحمة بينهم تراهم ركعاً سجداً يتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع لغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأعظيما ﴾ .

لنشهد جيل بدر وقد نجح في محنته خلال أربع سنوات ، وأضاف تحت رعاية النبي عليه أربعة أضعافه أو أكثر على أعلى المستويات من التربية والقوامة ، ليتأهب هذا المجتمع الجديد إلى استضافة الآلاف الجديدة ، ويتابع معهم عملية التربية الهائلة ، ويستعد ليدخل بهم مكة . والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار مجتمع بذاته لا مولى لهم إلا الله ورسوله ، فقد خلصوا من الانتماء لقبائلهم وعشائرهم ، وانصهروا لحمة واحدة ، وككونوا أرفع جيل على مدار تاريخ البشرية الطويل .

الفهرس

الصفحة

الصفحة	الموضوع
٥	متابعة البناء بعد أحد
١٢	سرية بفر معونة
١٥	غزوة الرجيع
٣٦	عودة إلى المناقفين
٤١	غزوة المشيرة
٥٠	دعوة إلى المهاجد من جديد
٦١	دعوة إلى الهجرة
٦٥	صلاة الخوف
٦٧	غزوة ذات الرقاع
٨١	سورة الحشر - غزوة بنى النضير
١٢١	سورة محمد ﷺ
١٣٥	الحملة الثانية مع المناقفين
١٥٤	غزوة دومة الجندل
١٥٥	غزوة الرئيس
١٧٧	من سورة الأحزاب - غزوة الأحزاب
٢٢٧	الحملة الثانية مع المناقفين
٢٤٥	الحملة الثالثة المؤمنون الصادقون
٢٧٦	غزوة بنى قريطة
٣١١	سورة الفتح . الفتح المبين
٣٨٤	فتح خبر
٤٤٩	عمره القضية
٤٧١	الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب : ٨١٢٢ / ٩٢

الترقيم الدولي : 1 - 0082 - 15 - 977 . I.S.B.N